القضاء على الوثنية ومظاهر الشرك في جزيرة العرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

نايف بن مشعل بن حسن آل زيد الشريف

تقديم فضيلة الدكتور

محمد بن صامل السلمي



تأليف

نايف بن مشعل بن حسن آل زيد الشريف

تقديم فضيلة الدكتور

محمد بن صامل السلمي

(ح) نايف بن مشعل بن حسن الشريف ، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
- الشريف ، نايف بن مشعل بن حسن
القضاء على الوثنية ومظاهر الشرك في جزيرة العرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم /
نايف بن مشعل بن حسن الشريف – مكة المكرمة ، ١٤٤٣هـ
٨٣٢ص ، ..سم
ردمك : ١-١٣٨٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
١ - الوثنية ٢ - الشرك بالله - نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
أ– العنوان ديوي ٢٠٠.٩ ٩٧٥٣ / ١٤٤٣
رقم الإيداع : ٩٧٥٣ / ١٤٤٣
ردمك : ١-١٣٨٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
رقم الفسح / ٥٩٤٥٦٧٢٠٢٢٠٤٢١

الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ

للتواصل مع المؤلف (**naifalshareif6@gmail.com**)


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الكتاب

عنوان الكتاب : القضاء على الوثنية ومظاهر الشرك في جزيرة العرب زمن النبيِّ ﷺ .

الدرجة العلميَّة : ماجستير التاريخ الإسلامي - كلية الشريعة والدِّراسات الإسلاميَّة ، جامعة أم القرى .

المؤلف : نايف بن مشعل بن حسن آل زيد الشريف .

موضوع الكتاب : كيفية القضاء على الوثنيَّة ومظاهر الشرك زمنَ النبيِّ ﷺ وبحث السَّرَايا والغزوات التي خاضها النبيُّ ﷺ وصحابته الكرام من أجل هذا الأمر .

هدفُ الكتاب : تتبُّع سيرة النبيِّ ﷺ وصحابته الكرام لتقصِّي الطُّرق والوسائل التي نهجها وعمل بها للقضاء على الوثنية ومظاهر الشرك وبيان حقيقة الأصنام للشُّعوب في جزيرة العرب وتدميرها .

مكونات الكتاب : يتكوَّن هذا الكتاب من خمسة فصول ، يتقدَّمها تمهيد ، وتعقبها خاتمة وفهارس فنيَّة .

وقد اشتملت المقدِّمة على أهميَّة الموضوع ، وسبب اختياري له ، وخطَّة البحث ، وعملي ومنهجي فيه ، أمَّا التمهيد فهو عبارة عن توضيحات مهمَّة وتعريفات بمصطلحات عنوان هذا الكتاب وركائزه ، مثل : الوثنية ، الشرك ، جزيرة العرب ، مظاهر الشرك ، وأسباب دخولها أم القرى وما حولها .

أمَّا الفصل الأوَّل فتكلَّمت فيه عن موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك بالله .

والفصل الثَّاني فكان الكلام فيه عن هدم الأوثان والقضاء عليها في مكة وما حولها عام الفتح .

بينما كان الحديث في الفصل الثالث عن هدم الأوثان في جزيرة العرب بعد عام الفتح .

وفي الفصل الرابع فقد جعلت الكلام فيه عن القضاء على مظاهر الشرك في جزيرة العرب .

وآخرها الفصل الخامس الذي حوى الآثار الناتجة عن القضاء على الوثنية ومظاهر الشرك .

ثُمَّ ختمت بخاتمة ذكرت فيها أهمَّ النتائج الَّتي توصَّلت إليها ، والتي كان من بينها :

أولًا : أنَّ فتح مكة كان يومًا عظيمًا وحدثًا تاريخيًا ، علت فيه معالم التوحيد وعزَّ أهلها ، وذلَّت فيه قوى الشرك والكفر ، وتمَّ طمس معالمها ، فقد كان هذا الفتح فيصلًا بين الشرك والتوحيد في الأرض المقدسة مكة المكرمة ، والتي تحوَّلت فيه من بلدة يعبد أهلها الأحجار إلى منارة للتوحيد ومركزاً له .

ثانيًا : قيام رسول الله ﷺ بتكسير الأصنام التي داخل الكعبة وما حولها يوم فتح مكة مما كان له أبلغ الأثر في هوانها وحقارتها -أي : الأصنام- في نفوس معظِّميها ، كما أنَّهُ كان سببًا في اجتثاث العقيدة الوثنية من جزيرة العرب والقضاء على مظاهرها .

ثالثًا : استهداف النبيِّ ﷺ طواغيتَ الشرك وسرعة استئصال معالم الوثنية حول مكة خصوصًا وفي جزيرة العرب عمومًا للقضاء التام على عقيدة الشرك وآثاره ، فبعث السرايا إلى هدمها في كُلِّ وجه حتى قضى على تلك المعبودات تمامًا ، وأنهى الوجود الوثنيَّ في جزيرة العربية ولله الحمد .

Abstract

Thesis's Title: Elimination of Paganism and Manifestations of Polytheism in the Arabian Peninsula at the time of the Prophet.

Degree: Master's Degree in Islamic History - College of Sharia and Islamic Studies.

Student: NAIF BIN MISHAL BIN HASSAN AL ZAID ALSHARIF

Thesis's Topic: How to eliminate paganism and manifestations of polytheism at the time of the Prophet and study the brigades and invasions that the Prophet and his honorable companions fought for this matter.

Thesis's Objectives: Follow the biography of the Prophet and his honorable companions to investigate the ways and means that he followed and worked with to clarify the reality of the idols of the peoples inside and outside the Arabian Peninsula.

Thesis's Components: This thesis consists of five chapters, preceded by an introduction, followed by a conclusion and technical indexes.

The introduction included the importance of the research and the reason for choosing it, the research plan and my methodology. As for the preface, it is about important clarifications and definitions of the terms of the title of this research and its pillars, such as: paganism, polytheism, the Arabian Peninsula, manifestations of polytheism, and the reasons that it entered Makkah and around it.

First Chapter: I talked about Islam’s situationabout paganism and polytheism.

Second Chapter: It was about the demolition of idols in and around Makkah the year of the conquest.

Third Chapter: It was about the demolition of idols in the Arabian Peninsula after the year of the conquest.

Fourth Chapter: I talked about the elimination of manifestations of polytheism in the Arabian Peninsula.

The Last Fifth Chapter:It contained the effects resulting from the elimination of paganism and manifestations of polytheism.

Then I concluded the research with a conclusion in which I mentioned the most important findings that I reached, which included:

First: The conquest of Makkah was a great day and a historical event, in which the features of monotheism were high and its people were honored, the powers of polytheism and disbelief were humiliated, and its features were obliterated. This conquest was a criterionbetweenpolytheism and monotheism in the holy land of Makkah, which transformed from a town whose people worshiped the stones to a lighthouse for monotheism and its center.

Second: The Messenger of Allah broke the idols that were inside and around the Kaaba on the day of the conquest of Makkah, which had the greatest effect on their humiliation and contempt in the souls of those who admired them.It was also the cause of the eradication of the pagan creed from the Arabian Peninsula and the elimination of its manifestations.Praise be to Allah.

Third: The Prophet targeted the tyrants of polytheism and quickly eradicated the features of paganism around Makkah in particular and in the Arabian Peninsula in general to completely eliminate the doctrine of polytheism and its effects, so he sent the brigades to demolish them in every aspect until he completely eliminated the creed of polytheism and its effects.So he sent the brigades to demolish them everywhere until he completely eliminated those deities and ended the pagan presence in the Arabian Peninsula.

شكرٌ وتقدير

الحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، وبفضله تتنزل البركات ، وبتوفيقه تتحقَّق المقاصد والغايات ، اللهمَّ لك الحمد كُلُّه ، ولك الشُّكر كُلُّه ، ولك الملك كُلُّه ، وبيدك الخير كُلُّه ، وإليك يرجع الأمر كُلُّه ، علانيته وسره ، فأهلٌ أنت أن تعبد ، وأهل أنت أن تحمد ، إنَّك على كُلِّ شيءٍ قدير ، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] ، اللهمَّ لك الحمد والشكر حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، على أن يَسَّرت لي هذه الرسالة المباركة ، وأسألك أن تجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، ثُمَّ الشُّكر والامتنان والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على السِّراج المنير والهادي البشير خير البريَّة ومعلِّم البشريَّة الذي أنقذنا الله به من الشرك والضَّلال إلى التَّوحيد والنُّور ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الدَّيان ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الذلَّة إلى العزَّة ، ومن الشَّقاء إلى السَّعادة ، ومن الضلال إلى الهدى ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، صلى عليك الله وعلى آلِك وصحبِك وسلِّم تسليماً كثيراً.

كما أتقدَّمُ بخالص الشكر والعرفان لوالديَّ الكريمين على ما قدَّماه لي من الرعاية والتربية والتعليم : قال تعالى : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية :(١٥) .

إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١] ، فلهما الشُّكر والإكرامُ والحبُّ والاحترام ، ودعائي أن يحفظ الله والدي الشَّيخ : الشَّريف مشعل بن حسن آل زيد شيخ قبيلة الأشراف آل زيد ، وأن يطيل عمره على طاعته ، وأن يُحسن عمله ، وأن يجزيه على ما قدَّم ويقدِّم لي خير الجزاء ، كما أدعو الله الرحيم الكريم أن يتغمَّد والدتي : الشريفة ريا بنت الشريف هاشم بن منصور آل زيد بواسع رحمته ، وأن يسكنها أعالي جنَّته ، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتهما ، وأن يجعله حجاباً لهما ولي عن النار .

وامتثالًا لتوجيه نبيِّنا ﷺ بقوله : « لا يَشْكُرِ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرِ النَّاس »[٢] ، من هذا المنطلق أتقدَّم بالشُّكر الجزيل لكُلِّ من ساندني وأعانني على إخراج هذا الكتاب ، وأخصُّ بالشُّكر فضيلة الدكتور : الشريف عبدالله بن حسين الشنبري ، المشرف على هذا البحث ، والذي كان له الفضل بعد الله في اختيار موضوعه ، فكم حثَّني عليه وأقنعني به حتَّى شرح الله صدري له ويسَّره عزَّ وجلَّ لي ، وظهر بهذه الصورة ، فلله الحمدُ والشُّكر ، كما أسأل الله أن يجعل ما قدَّم من نُصح وإرشاد وتصويب وتوجيه ودعم نفسي ومعنوي في ميزان حسناته ، ويجزيه عنِّي خير الجزاء ، ويُعظم له الأجر والمثوبة .

والشُّكر موصول لكلِّ من أسدى إليَّ خدمة أو توجيهًا ، أو نصيحةً أو دعاءً ، فالله أسأل التَّوفيق والسَّداد للجميع ، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل ، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة لقمان ، الآية :(١٤) .

(٢) مسند أحمد ، برقم (٧٩٣٨) ، ١٣/ ٣٢٢ .

تقديم فضيلة الدكتور : محمَّد بن صامل السلمي

الحمد الله رب العالمين الذي أرسل رسوله الأمين بالقرآن المبين ، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن الله جلَّ وعلا رحم البشرية وهداهم ببعثة الأنبياء والرسل ، وختمهم بنبيِّنا محمد المبعوث بتجديد منار التوحيد وإقامة معالمه ، وطمس الشرك ومجاهله ، وتحرير العباد من عبادة غير الله إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد خالق الخلق ورازقهم ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ، وقال جل وعلا : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] فبعثة الرسل جميعـًا متواردة على إقامة التوحيد الخالص لله ، وإزالة الشرك ومظاهره ، وسدِّ جميع السُّبل والذرائع المؤدية إليه .

وهذه الرِّسالة التي نقدِّم لها (**القضاء على الوثنية ومظاهر الشرك في جزيرة العرب زمن النبيِّ ﷺ**)

هي دراسة تاريخيَّة في سيرة النبيِّ ﷺ وكيف قضى على الشِّرك

(١) سورة الذاريات ، الآية : (٥٦) .

(٢) سورة النحل ، الآية : (٣٦) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٦) .

ومظاهره في الجزيرة العربية ، وأقام التوحيد ومنائره ، وعاد بها إلى الحنيفية السَّمحة ملَّة إبراهيم عليه السَّلام ، قال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(١)] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(٢)] ، فهي بحث من أصل الرِّسالة النَّبوية وأسها وكيف أقامها رسول الله ﷺ وقضى على ما يضادها .

لقد كانت مكة المعظَّمة مكاناً مختاراً من الله سبحانه وتعالى لبيته العتيق ، وأسكن فيها أبوالأنبياء إبراهيم خليل الرحمن عنده ذريته ، قال تعالى : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[(٣)] ، ثم أمره الله برفع قواعد البيت ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٤)] ، فبناه على التوحيد وعبادة الله وحده ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٥)] ، ثم نادى إبراهيم بأمر الله له ، قال تعالى : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[(٦)] ، وقد حجَّ الأنبياء عليهم السلام هذا البيت ، وبقي بيت الله مثابةً للناس

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٩٥) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٦٧) .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية : (٣٧) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : (١٢٧) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (١٢٥) .

(٦) سورة الحج ، الآية : (٢٧) .

وأمناً ومنارة للتوحيد ، حتى جلب عمرو بن لحي الخزاعي الأصنام إلى مكة ودعا العرب لعبادتها ، فغيَّر بفعله هذا ملة إبراهيم الحنيفية السمحة ، وقد بعث الله خاتم الرسل من مكة ، من أهلها برسالة التوحيد والإيمان ، فقام ﷺ بذلك خير قيام وناله وأصحابه الأذى ، فصبر وصابر وهاجر ، ثم شرع الله له الجهاد والقتال فحارب المشركين والكفار حتى فتح الله له مكة المعظمة في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، فكان فتحاً للقلوب والنفوس استجابت له كل جزيرة العرب ، ونزل الوحي مهنئاً بهذا الفتح العظيم والنصر المبين . قال تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1] ، وفي العام التاسع من الهجرة وفدت على رسول الله ﷺ وفود الإسلام حتى بلغت أكثر من ستين وفداً ، معلنة إسلامها واتباعها لرسول الله ﷺ ، فصار أهل الجزيرة العربية معه ﷺ كما يقول ابن القيم : إمَّا رجل متابع أو رجل مسالم اعتقد الهدنة ودفع الجزية ، وفي حجِّ العام التاسع من الهجرة نادى مناديه في أهل الموسم : ألَّا يحجَّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وحرَّم عليهم دخول مكة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[2] . وفي حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة ، حجَّ رسول الله ﷺ ومعه خلق كثير لم تشهده مكة من قبل ذلك ، كلُّهم يريد أن يأتمَّ به ، وكان يقول للناس ، لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا . وخطب ﷺ في

---

(١) سورة النصر ، الآية : (١-٣) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (٢٨) .

حَجَّة الوداع عدة خطب يوضح فيها المناسك ويبيِّن معالم الدين ومهماته وأصوله ، ومن أعظمها خطبة يوم عرفة حيث قال فيها : إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كل شي من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وربا الجاهلية موضوع.. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إذا اعتصمتم به كتاب الله .

وفي حجة الوداع نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ، فكلُّ هذه الموضوعات والمعاني عرضها الباحث : نايف بن مشعل آل زيد ، وهو من ذرية سبط رسول الله ﷺ السيِّد الأجل الحسن بن علي ، من زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وقد وُفِّق في رسالته القيِّمة وأجاد عرضها وأوضح معانيها ومقاصدها ، وهي من الرسائل العلمية القلائل المميزة التي ناقشتُها أو أشرفتُ عليها خلال أكثر من ثلاثين عامـًا ، فنسأل الله أن ينفع بها ، وأن يبارك فيه ويزيده علمـًا وتقى ، والحمد لله رب العالمين .

كتبه : د .محمد بن صامل السلمي

أستاذ السيرة والتاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى سابقـًا

(١) سورة المائدة ، الآية : (٣) .

مقدِّمة المؤلِّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الواحد الأحد ، الفرد الصَّمد ، الذي لم يتَّخِذْ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبِّره تكبيراً ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وهو على كُلِّ شيءٍ قدير ، وأشهد أنَّ نبينا محمَّداً عبدُ الله ورسوله ، أدَّى الأمانة وبَلَّغ الرِّسالة ونصح الأمَّة وجاهد في الله حقَّ جهاده صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيراً .

أمَّا بعد :

فقد تعاقب العرب أجيالًا عديدة ، وقرونًا مديدة ، وهم يدينون الحنيفيَّة مِلَّة إبراهيم عليه السلام ، عقيدة الإسلام بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من المعاني القائمة على التوحيد وإفراد الله بالعبادة الخالصة من شوائب الشرك والكفر بالله عزَّ وجلَّ ، والحنيفيَّة هي شريعة الله ، ودين الأنبياء جميعًا ، فما بُعث نبيٌّ من الأنبياء إلَّا بالدَّعوة إلى التوحيد والبراءة من الشرك ؛ وما فيه من الظُّلم العظيم والانحراف عن الصِّراط المستقيم ، حيث ينسِبُون أفعال الخالق سبحانه للمخلوق ، ويصرفون ما يستحقه الله من العبادة إلى غيره ، أو يتَّخذون مع الله أربابًا من خلقه غُلُواً ، يحبُّونهم كحُبِّ الله عزَّ وجلَّ ، ويعظِّمونهم تعظيمَهُم لله سبحانه ، ويطيعونهم طاعةً عمياء ، فشرعوا لهم من الدِّين ما لم يأذن به الله ، فحرَّموا ما أحلَّ الله ، وأحلُّوا ما حرَّم الله ، يحرِّفون دين الله بما يوافق أهوائهم ويُرضي شيطانهم ، وبهذه الأسباب انحرفت اليهوديَّة والنصرانيَّة

عن الحنيفيَّة ، وتنكَّبت عن الإسلام ، وانزلقت في مهاوي الرَّدى ، وقد أبطل الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيزِ دعواهم بِأَنَّ الخليل عليه السَّلام كان على ديانتهم المُحرَّفة ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]. فأبو الأنبياء كان على الحنيفيَّة السَّمحة عقيدة الإسلام ، القائمة على التوحيد ، وعبادة اللهِ وما تضمنته من الطَّاعات والقربات كالصَّلاة والزَّكاة والحجِّ والعمرةِ وغيرها ، قال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[2] .

فكان العرب على هذا ، لا يَدِيْنون إلَّا لله ، ولا يعبدون إلَّا الله وحده لا شريك له ، كما توارثوا مكارم الأخلاق كابراً عن كابر ، من بر الوالدين وإكرام الضَّيف ، وحُسْن الجوار ، وإكساب المعدوم ، ونُصْرة المظلوم وغير ذلك من أخلاق الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ فقال: «إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاق»[3] .

فهذا هو دين اللهِ الذي ورثه إبراهيم عليه السَّلام لذُرِّيَّته إسماعيل وإسحاق ، وعلى هذه العقيدة عاشت العربُ أجيالًا عديدةً ، على الدِّين القويمِ وأخلاقه الحميدة ، موحِّدينَ للهِ ومسلمين له ، لا يشركونَ بهِ شيئًا ، فما زالوا على ذلك حتَّى تقادَم عهدُهم ، وهلكَ المصلحونَ فيهِم ، ونسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِه ، فضاع العلم وحلَّ الجهلُ ، وعمَّ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية :(٦٧) .

(٢) سورة الحج ، الآية :(٢٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد بلفظ مقارب برقم (٢٧٣) .

الـضَّلَالُ ، وافترقـت بِهِـم الـسُّبل ، وظهـرتْ فـيهِم الكهانـةُ والعرافـةُ ، واعتقـدوا في أهلهـا العلـمِ ، لكـونهم يـستخدمونَ الجـنَّ والـشَّياطين التـي تستَرِقُ السَّمع ، وتدَّعي علمَ الغيب ، فاتَّبعوهم وأطاعُوا أمرهم ، ولجأوا إليهم يستفتونهم فيما أشكل عليهم ، ويحتكمون بين يديهم ، كما انتشر فيهِم السِّحرُ والعقائدُ الباطلةُ انتشارَ النَّار في الهشيمِ ، ممَّا أدَّى إلى ضعفِ الدين ، فأصبحُوا ينسبونَ الأمورَ إلى غيرِ اللهِ عز وجل ، فتعلَّقت نفوسهُم بالكواكِبِ والـمنجِّمين ، وظهرت فيهم الطِّيرة والتَّشاؤم ، والتَّبرُّك بالقبر والشَّجرِ والحجر ، وما يؤمن أكثرهم بالله إلَّا وهم مشركون ، لا يعرفون من الدِّينِ إلَّا اليسير ، في ظلمات الجهلِ والضَّلال .

فعندئذٍ تهيأت العربُ لتقبُّلِ عبادةِ الأصنام ، وكان أوَّل من أدخلها أم القرى عمرو بن لُحَيٍّ الخُزَاعي ، الذي غيَّر دين الله ، وشَرَّع لهم ما ليس منه ، وظهرت في عهده الوثنية في بلد اللهِ الحرام ، ثُمَّ تطوَّر ذلك حتَّى عمَّ جزيرة العرب ، فأصبحُوا يعبدونَ الأصنام ويدعونها ، ويستغيثُون بِها ، ويعتقدُون أنَّهَا تضرُّ وتنفعُ ، وتقرِّب وتشفع ، اتَّخذُوهَا أندادًا للهِ عزَّ وجلَّ .

فبينما هم على تلك الحال وعلى فترة من الرُّسل : أرسل الله إليهِم رسولًا من أنفسهم بشيرًا ونذيرًا ، يدعوهم إلى الله ويعلِّمهم التَّوحيد ويعيدهم للإسلام ، ويبشِّرهم بعظيمِ أجره ، ويحذِّرهم من الكفر وعبادة الأصنام ، وينذرهم الشِّرك وعظمِ عقوبته .

فقام رسولُ الله ﷺ بِالدعوة ، فَبَلَّغَ الرِّسالة وأدَّى الأمانة على أكمل وجهٍ لإنقاذ هذه الأُمَّة من ظلمات الكفر ، وحاربَ الشِّرك ومظاهره بِكلِّ

ما يملكهُ من قوَّة ، بِلسانه ويده ، فعاب آلهتهم وسفَّهَ أحلامهم ، وكسَّر أصنامهم ، وجيَّشَ الجيوش ، وبعث السَّرايا لهدم تلكَ الطَّواغيت ، حتَّى تَمَّ القضاءُ عليها تمامًا في جزيرة العرب ، وأعاد الدِّين إلى مركزه من جديد .

هذا ما تناولتُهُ في هذا الكتاب بِالتَّفصيل ، والذي جعلته تحت عنوان : **«القَضَاءُ على الوَثَنِيَّة ومَظاهِرِ الشِّركِ في جزيرة العربِ زَمَنِ النبيِّ ﷺ»** ، فإن أصبتُ فمنَ اللهِ ، وما توفيقي إلَّا بِه ، وإن أخطأتُ فمن نفسي والشَّيطان ، عافانا الله من شركه وشركه ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم .

أهميَّة الكتاب وأسباب اختيار موضوعه :

تكمُنُ أهميَّة هذا الكتاب في عِظَم شأن الموضوع الذي تناولتُه ، إذ شَرَفُ كُلِّ علم بحسب شرفِ معلومِه وشِدَّةِ الحاجة إليه ، ومعلومه هنا رسول الله ﷺ وسيرته وسنَّته في تقرير التَّوحيد والدَّعوة إليه والتَّحذير من الشرك والسَّعي في القضاء عليه وعلى معالمه ، وترجع أهميَّة اختياري لهذا الموضوع ودراسته إلى النقاط التالية :

١ - أنَّ الأصل والغاية في بعثة الأنبياء وإرسال الرسل تحقيق عقيدة التوحيد بالله الواحد الأحد والقضاء على ما ينافي ذلك من الوثنية والشرك بالله عز وجل .

٢ - خطورة الشرك وتكرُّر وُقُوعه عبر التَّاريخ في الأمم وفي حياة النَّاس ، والبحث في أسباب وقوعه وطريقة النبيِّ ﷺ في القضاء عليه يُعَدُّ مقصداً يَحسن الوقوف عليه .

٣ – أنَّ القضاء على الوثنيَّة ومحاربة الشرك أصلٌ من أصول الدَّعوة الإسلاميَّة والسِّيرة النبويَّة ، ولم يخصَّص له دراسة علميَّة تاريخيَّة جامعة .

٤ – الرَّغبة في إبراز خطورة الشرك والوثنيَّة على النَّاس مع إظهار أثر التَّوحيد وقيم الإسلام وأخلاقه على سلامة المجتمعات وسعادة البشريَّة في الدُّنيا والآخرة .

٥ – الجدة والأصالة حيث أنَّ هذا الموضوع لم يُدْرَس من قبل دراسةً تاريخيَّة .

أهداف الكتاب :

١ – معرفة موقف الإسلام من الشرك والوثنيَّة من خلال نصوص الكتاب والسنَّة .

٢ – إبراز المنهج النبويِّ في معالجة قضيَّة الشرك من خلال رصد مراحله التاريخيَّة وطُرُق القضاء عليه .

٣ – التَّوثيق التَّاريخي للسَّرايا والبعوث النبويَّة لهدم الأوثان ، ومنهج الرَّسول ﷺ الذي من خلاله تمَّ القضاء على الوثنيَّة ومظاهر الشرك .

٤ – التعرُّف على الآثار النَّاتجة عن قضاء النبيِّ ﷺ على مظاهر الشرك والوثنيَّة في جزيرة العرب .

حدود البحث :

الإطار الزَّماني للبحث :هو زمن النبيِّ ﷺ .

الإطار المكاني للبحث : هو الموقع المتعارف عليه باسم جزيرة العرب .

الدِّراسات السَّابقة :

بعد البحث والتقصِّي لم أجد دراسةً تاريخيَّة تناولت موضوع دراستي ، لكن توجد بعض الدِّراسات العقديَّة والتاريخية لبعض الباحثين حول الوثنيَّة والسرايا النبوية يمكن الإفادة منها في هذا الكتاب ، والذي من خلاله سوف أركِّز على الجانب التَّاريخي ، وتوثيق كيف تمَّ القضاء على الوثنيَّة ومظاهر الشرك في جزيرة العرب زمنَ النبيِّ ﷺ .

منهج البحث :

يستخدم هذا البحث المنهج التَّاريخي الذي يُعَدُّ طريقة من طرق الاستدلال والاستنتاج للأفكار والمعلومات من خلال جمع النُّصوص واستقصاء المادة العلميَّة من المصادر والمراجع الموثوق بها ، ثُمَّ عرضها ودراستها وتحليلها وفق ضوابط وقواعد محدَّدة متعارف عليها في المدارس التَّاريخية للوصول إلى الآراء والحقائق . هذا من حيث الإجمال ، وأمَّا تفصيل عملي في هذا البحث فسأجعله في نقاط ، وهي :

١ - عزو الآيات القرآنيَّة بذكر اسم السورة ورقم الآية مع مراعاة الرَّسم العثماني لها .

٢ - تخريج الأحاديث النبويَّة ، وذلك بعزوها إلى مصادرها مع محاولة نقل بعض أحكام الأئمة عليها إن وجدت ، أمَّا إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإنِّي أكتفي بالعزو إليهما ، وكذلك بالنسبة للآثار المروية فإنِّي أحاول قدر المستطاع عزوها إلى مصادرها .

٣ - الرُّجوع إلى تقارير علماء أهل السنَّة والجماعة في المسائل المتعلِّقة بالبحث .

٤ - عزو الأقوال إلى قائليها .

٥ - الرجوع إلى المصادر الأصليَّة للبحث قدر المستطاع .

٦ - شرح الألفاظ الغريبة .

٧ - ترجمة الأعلام .

٨ - التَّعريف بالأماكن والبلدان .

٩ - تبويب الكتاب إلى فصول ومباحث وتذييله بخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع وفهرس الموضوعات .

وختامًا : فأصل هذا الكتاب رسالة علميَّة حصل بموجبها المؤلف على درجة الماجستير بتقدير (ممتاز) من قسم التاريخ بكليَّة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أمِّ القرى ، تحت إشراف فضيلة الدكتور : عبدالله بن حسين الشريف ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٨/ ١١/ ١٤٤٢هـ ، الموافق ٨/ ٧/ ٢٠٢١م ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

التَّمهيد :
مفهومُ الوثنيَّة وتاريخُها في جزيرةِ العَرب

أولًا : مفهوم الوثنيَّة والشرك .

ثانيـًا : نبذةٌ تاريخيَّة عن الوثنيَّة ومظاهر الـشرك في جزيـرة العـرب قبـل الإسلام .

أولًا : مفهوم الوثنيَّة والشرك وتاريخها في جزيرة العرب :

١ - مفهوم الوثنية لغةً :

حتى نعرف معنى هذه الكلمة لا بُدَّ أن نعيدَها إلى أصلها اللُّغوي : وَثَنَ ، وجمعها أوثان ، وهو المقيم على الشَّيء الدَّائم ، الرَّاكد في مكانه ، الثَّابت على حاله ، وَثَنَ الحجر بالمكان : أقام به وثبت فهو واثن . أوثنه : أكثر له العطاء ، أوثن من المال : أكثر منه[1] . والوَثَنُ : التِّمثال أو الصَّنم يُعبد سواءٌ أكان خشبًا أم حجراً أم نحاسًا أم فضةً ، ثُمَّ فرَّقوا بين الوثن والصَّنم ، فقيل : الصَّنم ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم وصورة فهو وَثَن[2] . وجاء في تهذيب اللُّغة : أصل الأوثان عند العرب : كُلُّ تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس ونحوها . كانت العرب تنصبها وتعبدها ، وكانت النصارى تنصب الصَّليب وهو كالتِّمثال تعظِّمه وتعبده ، لذلك يقول الأعشى :

تَطُوف العُفَاة بأَبْوابه كطَوْفِ النَّصَارى ببَيْت الوَثَن[3]

---

(١) إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبدالقادر ، محمد النجار : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة ، ٢/ ١٠١٢ .

(٢) انظر : محمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) : تاج العروس من جواهر القاموس ، ت : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، ٣٢/ ٥٢٥ .

(٣) انظر : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت : ٣٧٠هـ) : تهذيب اللغة ، ت : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠١م ، ١٥/ ١٠٥ .

والصَّنم : هو ما اتُّخِذَ إلهـًا من دون الله تعالى ، وقيل : هو ما كـان لـه جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم وصورة فهو وثن[١] .

روي عن ابن عباس[٢] رضي الله عنهما أنَّ الصَّنم المتَّخذَ من الجواهر المعدنيَّة التي تذوب ، والوثن المتَّخذُ من الحجر أو الخشب[٣] .

وقال الجوهري[٤] : الـوَثَنُ : الـصَّنم ، والجمع وُثْـنٌ وأوثـان ، مثل :

---

(١) انظر : الزَّبيدي : تاج العروس ، ٣٢/ ٥٢٥ .

(٢) عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي. ابـن عـم رسول الله ﷺ ، وهو أكبر ولد العباس ، وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بـن خـزن الهلالية . وهو ابن خالة خالد بن الوليد . وكان يسمى البحر ، لسعة علمه ، ويسمى حبر الأمة . ولد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشعب من مكة ، فأتي به النبي ﷺ فحنكه بريقه ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان له لما توفي النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة . وقيل : خمس عشرة سنة . وتوفي سنة ثمان وستين بالطائف ، وهو ابن سبعين . انظر : عز الدين ابن الأثير : أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت:٦٣٠هـ) : أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، ت : عادل أحمد عبدالموجود وعلى محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ ، ٣/ ٢٩١ ، ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت: ٨٥٢هـ) : الإصابة في تمييز الصحابة ، ت : عادل أحمد عبدالموجود وعلى محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ ، ٤/ ١٢١ .

(٣) انظر : أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت : نحو ٧٧٠هـ) : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، المكتبة العلمية - بيروت ، ١/ ٣٤٩ .

(٤) أبونصر إسماعيل بن حماد التركي الجوهري ، من مدينة فاراب ، إمام اللُّغة ، بل هو واحد مِمَّن يضرب به المثل في ضبط اللُّغة ، وفي الخط المنسوب ، كان يُحبُّ الأسفار والتَّغرُّب ، ثُمَّ بعد رحلته عاد إلى خراسان ، فأقام بنيسابور يُدرِّس ويُصنِّف ، ويُعلم الكتابة ، وينسخ المصاحف ، وصنَّف كتاب (الصحاح) . مات سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة . انظر : الذَّهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٧/ ٨٠- ٨٢ .

أسد وأُسْدٌ وآساد[١] .

وقال ابن الكلبي[٢] : إذا كان المعمول من خشب أو ذهب أو من فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن[٣] .

ومن هذه التَّعريفات المتعدِّدة نَخْلُص إلى أنَّ الصَّنم كلمةٌ مرادفةٌ للوثن ، إلَّا أنَّ الوثن أعمُّ وأشمل من الصَّنم ؛ لأنَّ الوثن يشمل الصَّنم والقبر والتِّمثال الذي يمثل به لإنسانٍ أو حيوانٍ أو شمسٍ أو قمر كشعار لما يُعبد من دون الله قال تعالى : ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ت : أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ٦/ ٢٢١٢ .

(٢) هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، مؤرخ ، عالم بالأنساب ، من أهل الكوفة ، توفي سنة ٢٠٤هـ ، له نيف ومائة وخمسون كتاباً ، منها : جمهرة الأنساب ، والأصنام ، ونسب الخيل ، وغيرها . انظر : عبدالرحمن ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر = تاريخ ابن خلدون ، ت : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ٢/ ٢٩٨ ، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣هـ) : تاريخ بغداد ، ت : د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، ١٦/ ٦٨ ، خير الدين بن محمود الزركلي (ت : ١٣٩٦هـ) : الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط : ١٥ ، ٢٠٠٢م ، ٦/ ١٣٣ .

(٣) هشام بن محمد الكلبي : الأصنام ، ت : أحمد زكي باشا ، دار الكتب والوثائق القومية ، ص : ٥٣ .

(٤) سورة الحج ، الآية : (٣٠) .

عَـٰبِدِينَ﴾[١] ، ويُطلق الوثن أيضـًا على القبر إذا اتُّخِذَ للعبادة ؛ لقول النبيِّ ﷺ : «اللهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا ، لَعَنَ الله قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَاءِهِم مَسَاجِدِ»[٢] أي : يعبدونها .

وأيضا يُطلق الوثن على الصَّليب عند النصارى ، ومن ذلك حديث عدي بن حاتم قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب ، فقال لي : «اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَن»[٣] . فالوثن إذن كُلّ ما يُعبد من دون الله من قبرٍ أو شجرٍ أو تمثالٍ أو صليبٍ أو نُصُب وهي كلمة جامعة لهذه المعبودات وغيرها .

ونُسب الوثن إلى من يتديَّن بعبادته ، فيُقَالُ : رجلٌ وثنيٌّ ، وقوم وثنيُّون ، وامرأةٌ وثنيَّة ، ونساءٌ وثنيَّات[٤] ، والوَثَنَةُ : هم الكَفَرَة[٥] .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : (٥١-٥٣) .

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) : مسند أحمد بن حنبل ، ت : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرون ، إشراف : د. عبدالله التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، برقم (٧٣٥٨) ، ١٢/ ٣١٤ .

(٣) محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ت : أحمد محمد شاكر وآخرون ، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب ومن سورة التوبة ، برقم (٣٠٩٥) ، ٥/ ٢٧٨ .
وانظر : المبارك بن محمد ابن عبدالكريم ابن الأثير (ت : ٦٠٦هـ) : النهاية في غريب الحديث والأثر ، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م ، ت : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي ، ٥/ ١٥١ .

(٤) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٥٦ ، الفيومي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، ٢/ ٦٤٧ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، ٢/ ١٠١٢ .

(٥) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٥/ ١٠٦ .

واشتهرت العرب في الجاهلية بعبادة الأوثان ، فمنهم من اتَّخذ بيتـًا ، ومنهم من اتَّخذ صنمـًا ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيتٍ نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثُمَّ طاف به كطوافه بالبيت ، وسمَّوها الأنصاب فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم عندها الدُوَّار[١] ، وكان الرَّجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا ، وجعل الثلاث أثافي لقدره ، وإذا ارتحل تركه[٢] .

٢- تعريف الوثنيَّة :

الوثنيَّة : هي مذهب عبدة الأوثان[٣] ، وعرَّفها صاحب كتاب القبوريَّة في اليمن : أنَّها الوعاء الَّذي يحوي الشرك[٤] .

وقد بحثتُ كثيراً في المصادر فلم أقف على تعريفٍ شاملٍ للوثنيَّة سوى هذين التعريفين ، لذلك فإنِّي أُعَرِّف الوثنية بأنَّها : كُلُّ معتقَدٍ دينيٍّ حاد عن الإسلام ووقع في الشرك من مجوسيَّة ويهوديَّة ونصرانيَّة وهندوسيَّة وأيُّ عبادةٍ من دون اللهِ عز وجل وثنية.

---

(١) الدُوَّار – بضم الدال المهملة وفتحها وتشديد الواو وبعدها ألف وراء– هو الطواف حول الصنم . انظر : محمد بن يوسف الصالحي (ت: ٩٤٢هـ) : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ت : عادل أحمد عبدالموجود ، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، ١/ ١٧٠ .

(٢) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ، ص : ٣٣ .

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، (مادة : وثن) ، ٢/ ١٠١٢ .

(٤) أحمد حسن المعلم : القبورية في اليمن ، ١/ ٢٤-٢٥ .

٣ – مفهومُ الشرك :

معنى الشرك لغةً : أشرك بالله ، أي : قَرَنَ بالله غيرَه[١] ، أو ساوى وعدل بالله غيره ، والشَّريك يُجمع على شُركاء وأشراك ، والشركة مخالطة الشَّرَيكين واشتركنا بمعنى شاركنا في كذا ، وشاركت فلاناً صِرْتُ شريكه وأشركه في أمري أدخله فيه ، وشركته في البيع والميراث : أشركته شركة ، وقد اشترك الرَّجلان : شارك أحدهما الآخر ، قال لبيد :

تَطِيرُ عَدَائِدُ الأَشْرَاكِ شَفْعاً وَوِتراً والزَّعامةُ لِلْغُلامِ[٢]

الأشراك : جمعُ شِرْك وهو النصيب ، أي : طار المال المقسوم شَفْعاً للذَّكر ووِتْراً للأنثى ، والزَّعامة : أي : الرئاسة للذكر ، فهذا معناه تفرَّق ، وصار لكلِّ أحد نصيبُه ، وليس من الشؤم في شيءٍ[٣] .

وقال آخر :

على كل نهد القَصْريين مقلص وجرداء يأبى رَبهَا أَن يشاركا

والمعنى : أن يغزو على فرسه ولا يدفعه إلى غيره ، فلا يشاركه أحد في الغنيمة[٤] .

---

(١) الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٥/ ٤٣٩ .

(٢) انظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ) : العين ، ت : د.مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، ٥/ ٢٩٣ .

(٣) أحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ت : د.أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ٥/ ٤٢٩

(٤) علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت : ٤٥٨هـ) : المحكم والمحيط الأعظم ، ت : عبدالحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ – =

والمرأة شريكةٌ ، والنِّسَاءُ شَرَائِك ، ويقال في المصاهرة : رغبنا في شرككم ومصاهرتكم ، ويقال : هذه شريكتي ، قال ابن الأعرابي[١] :

ولا يستوي المرآن هذا ابن حرة   وهذا ابنُ أُخرى ظهرها مُتَشَرِّكُ

فسَّره فقال : معناه : مشترك[٢] .

والشَّرَك : أخاديدُ الطَّريق الواضح الذي تلجبه الأقدام والقوائم ، والطريق مشترك ، أي : الناس فيه شركاء[٣] ، قال ﷺ : «المُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ في ثَلاثٍ : الكَلأُ والمَاءُ والنَّار»[٤] .

والشَّرَك : حبالة يرتبك فيها الصَّيد ، والواحدة شَرَكَةٌ .

=

٢٠٠٠م ، ٦/ ٦٨٣ .

(١) نُسبت الأبيات في العقد الفريد للأعور الشّنّي ، وفي التذكرة لبعض بني عبس ، ونسبه المرزباني لعمرو بن مُبْرد العبدي . انظر : يوسف بن عبدالله المعروف بسبط ابن الجوزي (ت : ٦٥٤ هـ) : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، ت : محمد بركات ، كامل الخراط وغيرهم ، دار الرسالة العالمية ، دمشق - ط : ١ ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م ، ١١/ ١٧٣.

(٢) انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٦/ ٦٨٤ ، محمد بن مكرم بن علي ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري : لسان العرب(ت: ٧١١هـ) ، دار صادر - بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ ، ١٠/ ٤٤٩ .

(٣) الفراهيدي : العين ، ٥/ ٢٩٤ .

(٤) محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت : ٢٧٣هـ) ، السُّنَن : ت : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عبداللّطيف حرز الله ، دار الرسالة العالمية ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، كتاب الرهون ، باب المسلمون شركاء في ثلاث ، برقم (٢٤٧٢) ، ٣/ ٥٢٨ .

يَا قَانصَ الحُبِّ قَدْ ظَفَرْتَ بِنَا فَحُلَّ عنَّا الشِّبَاك والشَّرَكَا[١]

ويستعار للحيلة والخداع ، شرك له ، أي : احتال به ، ومنها : حبائلُ الشَّيطان فإنَّ له مصالي وفخوخ ، وفي الأثر : «إنَّ للشَّيطان مَصَالي»[٢] ، والمصلاة : شَرَكٌ يُنصب لصيد الطَّير وغيرها ، قال أبوعبيد[٣] : يعني ما يصيد به النَّاس من الآفات التي يستفزهم بها ويستدرجهم من شهوات وشبهات وما يزينه لهم حتى يوقعهم في شَرَكه وشِركه ، وصَلَيْتُ لَهُ مَحَلْتُ لَهُ ، ومثاله : إذا عملت له في أمر تريد أن توقعه في هلكة من ذلك[٤] ، وفي الحديث : «أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ»[٥] ، ويروى بفتح الشين والراء ، أي : حبائله ومصايده ، واحدتها : شَرَكه . أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى[٦] .

---

(١) الفراهيدي : العين ، ٥/ ٢٩٤ .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦) : الأدب المفرد ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ ، برقم (٥٥٣) ، ص : ١٢٨ .

(٣) القاسم بن سلَّام -بالتَّشديد- الهروي الأزدي الخزاعي ، بالولاء ، الخراساني البغدادي ، ثِقَةٌ فاضلٌ مُصَنِّف ، مِنْ كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. وُلِدَ بهراة وتعلَّم بها ، ثمَّ ارتحل إلى بغداد فسمع النَّاس مِنْ كُتبه. وحجَّ فتوفي بمكَّة سنة أربع وعشرين ومائتين. انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، ص٤٥٠ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ١٧٦ .

(٤) أنظر : أبو عبيد : غريب الحديث ، ٢/ ٣٦ ، ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي (ت: ٧١١هـ) :لسان العرب ، دار صادر- بيروت ، ط:٣ ، ١٤١٤هـ ، ١٤/ ٤٦٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد ، برقم (٦٥٩٧) ، ١١/ ١٧١ . وصححه محققو المسند .

(٦) انظر : محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت : ٦٧٦هـ) : الأذكار ، ت : عبدالقادر الأرنؤوط ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ص : ٧٨

وسُئِلَ ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر فقال : «كان كالطَّيْرِ الحَذِر يرى أنَّ له في كُلِّ طريقٍ شَرَكـًا»[١] . قال الأصمعيُّ[٢] : يُقال : رأيتُ فلانـًا مشتركـًا إذا كان يحدِّثُ نفسه كالمهموم[٣] .

وقال الجوهري : الشرك : الكفر ، وقد أشرك فلانٌ بالله فهو مشرك ومشركيٌّ ، قال الرَّاجز : ومشركي كافرٌ بالفرق ، أي : بالفرقان[٤] .

٤ - معنى الشرك شرعـًا :

عن عمرو بن شرحبيل عن عبدالله قال : سألتُ رسول الله ﷺ ، أيُّ الذَّنب أعظم عند الله؟ قال : «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكْ..» الحديث[٥] ، والشرك ظلمٌ عظيم .

---

(١) انظر : المناوي : محمد بن عبدالرؤوف (ت: ١٠٣١هـ) : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المكتبة التجارية الكبرى ، ط : ١ ، ١٣٥٦هـ ، ٦/ ٢٥٦ .

(٢) عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي البصري ، صاحب اللغة ، كان إمام زمانه في اللغة ، روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وقرة بن خالد ، وخلقٌ ، قال عمر بن شبة : سمعته يقول : حفظت ستة عشر ألف أرجوزة ، وقال الشافعي : ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي ، وقال ابن معين : لم يكن ممن يكذب ، وكان من أعلم الناس في فنه . انظر : صلاح الدين خليل الصفدي (ت : ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، ت : أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث - بيروت ، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م ، ١٩/ ١٢٦ .

(٣) الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٥٩٤ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، ت : د.مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ ، برقم (٤٢٠٧) ، ٤/ ١٦٢٦ ، وصحيح مسلم ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي =

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1] : «وأصل الشرك أَن تَعْدِلَ بِالله تعالى مخلوقاته في بعض مَا يستَحقُّهُ وحده»[2]. وقال : «الشرك : وهو اتخاذ إلهٍ مع الله»[3].

قال الذهبي[4] : الشرك بالله تعالى : هو أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، وتعبد معه غيره من حجر ، أو بشر ، أو شمس ، أو قمر ، أو نبيّ ،

=

- بيروت ، كتاب الإيمان ، برقم (٨٦) ، ١/ ٩٠ .

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني الدمشقيّ الحنبلي ابن تيمية ، شيخ الإسلام ، ولد في حران سنة ٦٦١هـ ، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر ، مات رحمه الله معتقلًا بقلعة دمشق ، فخرجت دمشق كلها في جنازته ، كان آية في التفسير والأصول ، فصيح اللسان ، قلمه ولسانه متقاربان ، قال ابن حجر : ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير . ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ت : محمد عبدالمعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند ، ط : ٢ ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ١/ ١٦٨ .

(٢) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) : الاستقامة ، ت : د. محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤٠٣هـ ، ١/ ٣٤٤ .

(٣) تقي الدين أبوالعباس أحمد بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) : مجموع الفتاوى ، ت : عبد الرحمن بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية ، السعودية ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، ٤/ ٧٤ .

(٤) محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الدِّمَشْقِي ، شمس الدّين الذَّهَبِي ، ولد سنة ٦٧٣هـ ، رحل إلى القاهرة ومهر في فن الحدِيث وجمع تاريخ الإسلام ، رغب النَّاس فِي تواليفه ورحلوا إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا ، وَولي تدريس الحَدِيث بتربة أم الصَّالح ، مَات في سنة ٧٤٨هـ . انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ٥/ ٦٦-٦٨ .

أو شيخ ، أو جني ، أو نجم ، أو ملك ، وغير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[١][٢] .

قال ابن سعدي[٣] : «وحقيقة الشرك بالله : أن يُعْبَدَ المخلوقُ كما يُعْبَدُ الله ، أو يعظَّم كما يُعظم الله ، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية»[٤] .

وقال الدهلوي[٥] : «إنَّ الشرك لا يتوقَّف على أن يعدل الإنسان أحداً

---

(١) سورة النساء ، الآية : (١٤٨) .

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) : الكبائر ، ت: مشهور بن حسن آل سلمان ، مكتبة الفرقان ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م ، ١/ ٩٠ . وانظر : محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء ، دار المعرفة – المغرب ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، ص : ١١١ .

(٣) عبدالرحمن بن ناصر السَّعْدي التميمي ، من علماء الحنابلة ، من أهل نجد ، مولده في عنيزة سنة ١٣٠٧هـ ، ووفاته سنة ١٣٧٦هـ ، وهو أول من أنشأ مكتبة في القصيم ١٣٥٨هـ ، له نحو ٣٠ كتاباً ، منها : تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن ، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن ، وغيرها . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٣/ ٣٤٠ .

(٤) عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ت : عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م ، ص : ٢٧٩.

(٥) إسماعيل بن عبدالغني بن ولي الله الدهلوي ، أحد أفراد الدنيا في الذكاء والفطنة ، ولد بدهلى سنة ١١٩٣هـ ، استفاد من عمّيه الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبدالعزيز ، صار بحرًا زاخرًا في المعقول والمنقول ، قتل في سبيل الله سنة ١٢٤٦هـ . انظر : إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي : رسالة التوحيد ، ط : ١ ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٣٦ .

بالله ، ويساوي بينهما ، فلا فرق ، بل إنَّ حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلالٍ وأعمالٍ خصَّها الله بذاته العليَّة ، وجعلها شعاراً للعبوديَّة ، ويصرفها لأحد من النَّاس ، كالسُّجود والذَّبح والحلف باسمه ، والنَّذر له ، والاستغاثة به في الشِّدَّة ، واعتقاد أنَّهُ حاضر ناظر في كُلِّ مكان ، وإثبات قدرة التصرُّف له ، وكُلُّ ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الإنسان به مشركًا»[(١)] .

٥ - أقسام الشرك :

قسَّم أهل العلم الشرك بالله إلى نوعين اثنين ، أكبر وأصغر ، ثُمَّ قسَّموا الأصغر إلى ظاهر وخفي . فحدُّ الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده هو : أن يَصْرِفَ العبد نوعًا من أفراد العبادة لغير الله[(٢)] . فكُلُّ اعتقادٍ أو قولٍ أو عملٍ ثبت أنَّه مأمورٌ به من الشَّارع فَصَرْفُه لله وحده توحيدٌ وإيمانٌ وإخلاص ، كما أنَّ صرفَه لغيره شركٌ وكفر .

ولا فرق في تسمية العبادة الَّتي صُرفت لغير الله عبادةً أو تسميَتها تَوسُّلًا ، أو تسميَتها بغير ذلك من الأسماء ، فكلُّ ذلك شركٌ أكبر ، لأنَّ

---

(١) الدهلوي : رسالة التوحيد ، ١/ ٣٦ ، وانظر : محمد زكريا : الشرك في القديم والحديث ، وهو : رسالة علمية لدرجة الماجستير ، الجامعة الإسلامية ، إشراف أ.د.أحمد بن عطية الغامدي ، مكتبة الرشد ، الرياض - السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ١/ ٢٢٤ .

(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت : ١٣٧٦هـ) : القول السديد شرح كتاب التوحيد ، وزارة الشئون الإسلامية ، السعودية ، ط : ٢ ، ١٤٢١هـ ، ص : ٣١ ، ٥٨ . ثُمَّ قال -رحمه الله- عن هذا التعريف : فعليك بهذا الضابط للشِّرك الأكبر الذي لا يشذُّ عنه شيءٌ . انظر : ص : ٥٨ .

العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها[١] . فهذه هي الوثنية التي نحن بصددها وما تحتويه من عبادة غير الله من الأصنام والأشجار والقبور والجن والملائكة والأنبياء والصَّالحين والكواكب والنَّار وغير ذلك من المعبودات التي كانت منتشرةً في الجاهلية ، أو أنَّ لله تعالى ولد ، فهذا كُلُّه شِرك أكبر ، صاحبه مُخلَّدٌ في النَّار ، تحلُّ معه النَّفس والمال والعياذ بالله .

أمَّا الشرك الأصغر فهو : كُلُّ وسيلةٍ وذريعةٍ يُتطرَّق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال الَّتي لم تبلغ رُتبة العبادة[٢] ، وقيل هو : كُلُّ شيءٍ أطلق الشَّارع عليه أنَّه شركٌ ودلَّت النُّصوص على أنَّه ليس من الأكبر[٣] ، وهذا يقع بين أوساط المسلمين وهو على ضربَيْن اثنَين :

أولاهُما : شركٌ ظاهٌر على اللِّسان والجوارح ، مثال الألفاظ كقول الرَّجل : «ما شاء الله وشئت» ، وقوله : «لولا الله وفلان» ، وقوله : «ما لي إلَّا الله وأنت» ؛ وأمَّا الأفعال : فمثل لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه ، ومثل تعليق التَّمائم خوفًا من العين وغيرها ؛ إذا اعتقد أنَّ هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه ، فهذا شرك أصغر ؛ لأنَّ الله لم يجعل هذه أسبابًا ، أمَّا إن اعتقد أنَّها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها فهذا شركُ أكبر ؛ لأنَّـهُ تَعلَّق بغير الله واعتقاد النَّفع والضُّر من دونه عزّ وجل وأنها من عقائد السَّحرة والكهَّان والمشركين في الجاهلية .

---

(١) انظر : عبد الرَّحمن السعدي : القول السَّديد ، ص : ٣١ .

(٢) انظر : عبد الرَّحمن السعدي : القول السَّديد ، ص : ٥٨ .

(٣) انظر : محمّد بن صالح العثيمين : القول المفيد على كتاب التوحيد ، دار ابن الجوزي ، السُّعوديَّة ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ ، ١/ ٢٠٦ .

ثانيهما : شركٌ خَفِيٌّ يُصاحب النَّوايا والإرادات ، كيَسِير الرِّياء وحُبّ السُّمعة وإرادة الرَّجل بعمله الدُّنيا[١]؛ قال رسول الله ﷺ : «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : يا رسول الله ، وما الشرك الأصغر؟ قال : الرِّيَاء»[٢] .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قَالَ الله تبارك وتعالى : أَنَا أَغْنَى الشركاءِ عَنِ الشرك ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيْهِ غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَه»[٣] .

والشرك الأصغر مُحرَّمٌ ، بل هو مِنْ أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر ، لكن لا يُخرج مُرتكبه عن ملَّة الإسلام[٤] ، هذا مع التَّنبيه إلى أنَّ الشرك الأصغر قد يصبح أكبرًا مُخرجًا صاحبه من الملَّة إذا صاحَبَه اعتقادٌ قلبيٌّ مُفْضٍ لتسوية غير الله بالله ، أو اعتقادُ الضُّرِّ والنَّفع فيه من دون الله عز وجل . والشرك بنَوْعَيه منافٍ للتَّوحيد ، يتغلغل في النُّفوس الغافلة عن ذكر الله ، المُعْرِضة عن دين الله ، فلذا حذَّرنا النبيُّ ﷺ منه أشدَّ التَّحذير حين قال رسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : «الشرك فيكم أخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمل ، وسأدلُّك على شيءٍ إذا فعلتَه أذهب عنك صِغَار الشرك

---

(١) انظر : صالح الفوزان : عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر ، ص : ٧٩ .

(٢) مسند أحمد ، برقم (٢٣٦٣٠) ، ٣٩/ ٣٩ ، قال محققه : حديث حسن ورجاله رجال الصحيح .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، برقم(٢٩٨٥) ، ٤/ ٢٢٨٩ .

(٤) انظر: فتاوى اللجنة الدائمة ، المجموعة الأولى ، ١/ ٧٦٢ . جمع : أحمد الدويش .

وكباره ، تقول : اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَم وأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أَعْلَم ، تَقُولها ثَلاثَ مَرَّاتٍ»[١] .

ثانيًا : نبذةٌ تاريخيَّة عن الوثنيَّة ومظاهر الشرك في جزيرة العرب قبل الإسلام :

من أخطر الأمور التي ولَّدت الشرك الجهل بالله واندراس العلم ، فإذا عمَّ الجهل في قوم قادهم الشَّيطان وزيَّن لهم البدع والخرافات ، ودلَّهم على الباطل حتَّى يوردهم الرَّدى والمهالك ، فكان السَّبب الأوَّل في انتشار الجهل في جزيرة العرب هو فَقْدُ العلم والعلماء حيث حلَّ محلهم الكهنة والسَّحرة والعرَّافون الذين ساقوا النَّاس إلى الشرك والضَّلال .

تعريف الجاهليَّة :

الجَهْلُ : خلافُ العلم ، وقد جَهِلَ فلانٌ جَهْلًا وجَهالَةً . وتَجاهَلَ ، أي : أرى من نفسه ذلك وليس به . واسْتَجْهَلَهُ : عدَّهُ جَاهِلًا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[٢] . ومنه قولهم للمفازة التي لا عَلَمَ لها : مَجْهَل[٣] .

---

(١) محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي (ت : نحو ٣٢٠هـ) : نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ، ت : عبدالرحمن عميرة ، دار الجيل – بيروت ، ٤/ ١٤٢ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع . انظر : محمَّد ناصر الدِّين الألباني : صحيح الجامع الصَّغير وزياداته ، برقم (٣٧٣١) ، ١/ ٦٩٤ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٦٤).

(٣) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٦/ ٣٧ ، الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٦٦٣ ، ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٤/ ١٦٦ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ١٢٩ .

ويُطلق الجهل ويُراد به الخِفَّة التي هي خلاف الطمأنينة ، وأيضًا يُراد به الطَّيش والاستخفاف ، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلَّقته :

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا[١]

والجَهَالَةُ : أن تفعل فعلًا بغير العلم[٢] .

والجهل ثلاثة أنواع : أحدها : جهلٌ بسيط ، وهو خلوُّ النَّفس من العلم .

وثانيها : جهلٌ مركَّب ، وهو اعتقاد الشَّيء بخلاف ما هو عليه .

ثالثها : جهل كامل ، وهو فعل الشَّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل[٣] .

قال الإمام النَّووي[٤] رحمه الله تعالى : المرادُ بالجاهليَّة ما كان في

---

(١) عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ص : ٧٨ ، محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت : ١٧٠هـ) : جمهرة أشعار العرب ، ت : علي محمد البجادي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت) ، ص : ٣٠٠ ، يحيى بن علي بن محمد الشيباني (ت: ٥٠٢هـ) : شرح القصائِد العشر ، إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٥٢هـ ، ص : ٢٤٩ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ١٢٩.

(٣) الراغب الأصفهانى : المفردات في غريب القرآن ، ص : ٢٠٩ . وانظر : أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ت : ناصر عبدالكريم العقل ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط : ٧ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ، ١/ ٢٥٦ .

(٤) يحيى بن شرف النووي الشافعي ، علَّامة بالفقه والحديث ، مولده ووفاته في نوا بسورية ، له : المنهاج ، والمجموع شرح المهذب ، والتبيان ، وشرح صحيح مسلم ، وغيرها ، ولد سنة (٦٣١هـ) ، وتوفي سنة (٦٧٦هـ) . انظر : عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، ت : د. محمود محمد الطناحي ، د.عبدالفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة ، ط : ٢ ، ١٤١٣هـ ، =

الفترة قبل الإسلام[١].

قال ابن الأثير[٢] وتبعه ابن منظور[٣] أيضا : هي -أي : الجاهليَّة- الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام ؛ من الجهل بالله سبحانه وتعالى ، ورسوله ﷺ ، وشرائع الدين ، والمفاخرة بالأنساب ، والكبر ، والتجبُّر وغير ذلك[٤]. من الحالة التي تكون عليها الأمة قبل أن يجيئها الهدي والنبوة[٥] .

قال ابن تيمية : الجاهليَّة : كُلُّ ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهليَّة ، وتلك كانت الجاهليَّة العامَّة ، فأمَّا بعد بعثة الرسول ﷺ فقد تكون في مصر دون مصر ، كما هي في دار الكفر ،

=

٨/ ٣٩٥ ، الزركلي : الأعلام ، ٨/ ١٤٩ .

(١) النووي : شرح صحيح مسلم ، ٢/ ١١٠.

(٢) المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، ثُمَّ المَوصلي ، القاضي ، الرئيس ، العلامة ، البارع ، الأوحد ، البليغ ، مجد الدِّين ، أبو السَّعادات ، الكاتب ابن الأثير ، صاحب (جامع الأصول) و(غريب الحديث) وغير ذلك. توفي سنة ست وست مائة بالموصل. انظر: الذَّهبي: سِيَر أعلام النُّبلاء ، ٢١/ ٤٨٨-٤٩١ .

(٣) محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي. الإمام اللغوي الحجة. صاحب (لسان العرب). وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد ، وعمي في آخر عمره. مات في ٧١١ هـ. انظر: الزركلي: الأعلام ، ٧/ ١٠٨-١٠٩.

(٤) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ، ١/ ٣٢٢-٣٢٣ ، ابن منظور : لسان العرب (جهل) ، ١١/ ١٣٠.

(٥) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ١/ ٢٢٢٠.

وقد تكون في شخص دون شخص ، كالرجل قبل أن يسلم فإنَّهُ في جاهلية ، وإن كان في دار الإسلام ، فأمَّا في الزّمن المطلق فلا جاهلية بعد مبعث النبيِّ ﷺ[١] .

وفي الحديث : «إنَّك امْرُؤٌ فيكَ جاهليَّة»[٢] . أي : ما يكون في النفس من بعض الأخلاق والأفعال السيئة التي كانت تمارس في الجاهلية مثل التفاخر بالأنساب ، والتنابز بالألقاب ، والتعالي بالأحساب وغير ذلك من أفعال المشركين في الجاهلية .

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١/ ٢٥٨-٢٥٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية ، برقم (٣٠) ، ١/ ١٩ ، ومسلم ، كتاب الأيمان والنذور ، باب إطعام المملوك مما يأكل ، برقم (١٦٦١) ، ٣/ ١٢٨٢ .

جزيرة العرب : لُغة أهلها ، نسبهم فيها ، وتحديد موقعها

بعد التَّعرِيف بمصطلح الشِّرك والوثنيَّة في المحور السَّابق من هذا التَّمهيد ، جاء الدَّور في هذا المِحوَر للكلام عن المصطلح الثَّاني ، أعني به مَيْدَان الدِّراسة المكانيِّ ، أَلَا وهو «جزيرة العرب» ، ولمَّا كان الكلام عليه إجلَاءً وبيانًا يتفرعُ عنه تَوضِيحُ أمور ملازمة له كالتعريف بلسان العرب ، ثم ذكر نَسبِ العرب ونِسبتهم ، لذا أحبَبت أن أُقدمها لأمهِّد له بها ، وذلك بالتعريف بلسان العرب مُبرزًا أصالتَه مبينـًا مبدأه ومنتهاه ، ثُمَّ بعد ذلك أَستظهِر نَسبَهم مصحِّحًا بعَض المفاهيم التي شابَتْهُ ، ليكُون بعد ذلك الظَّرف مُهيَّأً للتَّعريف بأرض جزيرة العرب مع ذكر شيءٍ من خصائصها وتحديد موقعها بالأدلة الشرعية والعقلية ؛ مُستعِينًا بالله عزَّ وجلَّ في تسليط الضَّوء على بعض الحقائق المهمَّة الَّتي اعتراها شيءٌ من اللَّبس والغموض وبالله التوفيق .

لغةُ العرب :

اللُّغة : أصلها «لغو» سقط من آخرها واوٌ فعُوِّضت هاء ، والجمع : لُغاتٌ ، ويُجمع على لُغِين ولُغًى مِثل بُرَةٍ وبُرًى[١] ، واشتقاقها مِنْ لفظة «لغو» يعني : يَلهَج بها صاحبها[٢] . فيُقال : هذه لُغتُهم الَّتي يلغُون بها أي : ينطقون بها[٣] . واللُّغة : اللِّسْن ؛ وحدُّها : أنَّها أصواتٌ يُعبِّر بها كلُّ قَومٍ عن أغراضهم[٤] ، وذلك التَّعبيرُ فعلٌ لسانيٌّ ناشئٌ عن القصد بإفادة الكلام فلا بُدَّ أن تصِير مَلَكةً مُتقرِّرةً في العضوِ الفاعل لها وهو اللِّسان[٥] .

وأمَّا اللِّسانُ : فهو ما ينطق ، يُذَكَّر ويُؤَنَّث ، والأَلسُن بيان التَّأنيث في عدَدِه ، والألسِنةُ في التَّذكير[٦] ، فإِذا أردتَ بِاللِّسَانِ اللُّغة أنَّثتَ[٧] ، واللَّسَن بالتَّحريك : الفَصاحة[٨] .

واللِّسْنُ -بكسر اللَّام-: اللُّغة ، فيُقال : لكلِّ قومٍ لِسْنٌ ، أي : لُغةٌ

---

(١) الجوهري : الصِّحاح ، ٦/ ٢٤٨٤ ، ونشوَان الحِميَري : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ٩/ ٦٠٧٤ .

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللُّغة ، ٥/ ٢٥٦ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٢٥١-٢٥٢ .

(٤) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) : الخصائص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط : ٤ ، (د.ت) ، ١/ ٣٤ ، وانظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٢٥١-٢٥٢ .

(٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ١/ ٧٥٣ .

(٦) الخلِيل الفراهِيدِي : العين ، ٧/ ٢٥٦ ، وانظر : أبوهلال العسكري : التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسمَاءِ الأشياء ، ص : ٥٦ .

(٧) الأزهري : تهذيب اللُّغة ، ١٢/ ٢٩٦ .

(٨) الجوهري : الصِّحاح ، ٦/ ٢١٩٥ .

يتكلَّمُون بها[١] ، ولِسانُ القَوْم : المُتَكَلِّمُ عنهم[٢] ، ورجالٌ لُسْنٌ : أيْ بُلغَاء[٣] . وقِيل : اللِّسان بمعنى الرِّسالة وَالْمَقَالَةُ[٤] ، والإلسَان : إبلاغُ الرسَالَة[٥] . وجاء في معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[٦] ، أيْ : بلُغة قَومِه[٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[٨] لسانٌ عربيٌّ ، أي : أفصح ما يكون[٩] . قال أعرابيٌّ : يا رسولَ اللهِ ، ما أفصحكَ ، أو ما رأينا مَنْ هو أعربُ منك ، قال : «حَقَّ لِي ، وَإِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِي بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»[١٠] .

فمن خلال تعريف اللُّغة واللِّسان تبيَّن أنَّهما مِنَ الألفاظ المُشتركة

---

(١) الفارابي ، إسحاق بن إبراهيم (ت: ٣٥٠هـ) : معجم ديوان الأدب ، ت : أحمد عمر مختار ، مؤسسة دار الشعب للطباعة - القاهرة ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م ، ١/ ٩٥ ، وانظر : العَوتَبِي الصحاري : الإبانة في اللُّغة ، ص: ١/ ٧ .

(٢) الفيروزآبادى : القاموس المُحِيط ، ص : ١٢٣١ .

(٣) إسحاق الفارابي : معجم ديوان الأدب ، ١/ ٢٥٠ ، وانظر : نشوان الحميري : شمس العلوم ، ٩/ ٦٠٤٥ .

(٤) ابن منظور: لسان العرب ، ١٣/ ٣٨٥.

(٥) الأزهري: تهذيب اللُّغة ، ١٢/ ٢٩٦.

(٦) سورة إبراهيم ، الآية : (٤) .

(٧) ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٣٨٦ .

(٨) سورة النحل ، الآية : (١٠٣) .

(٩) انظر : محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١ هـ) : الجامع لأحكام القرآن ، ت : سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، الرياض ، السعودية ، ط : ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م ، ١٠/ ١٧٩ .

(١٠) عبدالله بن محمد المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩هـ) : العظمة ، ت : رضاء الله المباركفوري ، دار العاصمة - الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، ٤/ ١٢٤٠ .

الَّتي يُطلَق كُلُّ واحدٍ منهما على الآخر ، وهُما من الألفاظ الَّتي إذا افترقت اجتمعت ، وإذا اجتمعت افترقت ، أي : إذا ذُكر أيٌّ منهما في سياقٍ مُختلف دَلَّا على معنى الآخر ، أمَّا إذا اجتمعتا في سياقٍ واحدٍ فإنَّ اللُّغة تكون أعمَّ من اللِّسان ، إذ اللِّسان حينئذٍ يكون للَّهجة الَّتي يلهَج بها أهل قبيلةٍ مُعيَّنة ، كقولك : لِسَان قُريشٍ ولِسَان هُذَيل ، أي : لهجتَا قُريش وهُذَيل ، وقد يأتي بالعكس بينما اللغة تجمع اللِّسانَ وغيره وهي التي يُعبِّرُ بها أجناسٌ وأقوامٌ عن مُرادهم دُون غَيرهم ، كقولك : لغة العرب ، ولغة الفُرس ولغة الإشارة وغيرها ؛ والله تعالى أعلم .

والعَرب خلاف العَجم[1] كما هو معلوم ؛ لأنَّ الأعجمي هو الَّذي يَمتنع لِسانُه مِنَ العربيَّة ولا يُفصح[2] ، فاللغة الأعجميَّة : تجمع اللُّغات الأخرى دون العربيَّة كلها على كثرتها وتعدادها ، فمثلًا في الهند وحدها يوجد فيها الكثير والكثير من اللغات المنشقَّة والمتشابهة والمختلفة ، حتى قيل : إنَّ لِكُلِّ قبيلة لغةٌ مستقلَّة ، وقس على هذا المنوال في الصين وغيرها ، وفي الشرق والغرب ، لِكُلِّ دولةٍ لغةٌ خاصَّة ، ولكلِّ شعبٍ لغةٌ مستقلة ، وجميع هذه اللُّغات المتشعِّبة والمنشقة دليلٌ على أنها انحرفت عن أصلها فأصابتها العُجمة ، وجميع هذه اللغات لا تثبت على حال بل تنتهي وتزول ، بخلاف اللغة العربية الباقية على أصلها على مَرِّ الزَّمان . لِذَلك تنقسم اللُّغة إلى قسمَين: لُغةٌ عربيَّةٌ أصِيلةٌ قائمةٌ على الجمال والكمال والفصاحة والبيان ، ولُغةٌ أعجميَّةٌ اعوجَّت وانحرفت ومَالَت

---

(١) نشوَان الحِميَري : شمس العلوم ، ٧/ ٤٣٨١ .

(٢) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت: ٣٩٥هـ) : معجم الفروق اللغوية ، ت : بيت الله بيات ، مؤسسة النَّشر الإسلامي ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ ، ص : ٥٨ .

عن اللِسان العربي الَّذي يُعدُّ مِنْ أَوْسَع الألسِنَة مذهبًا ، وأكثرها ألفاظًا ، ولَا يُعلم عن أحدٍ أحاط بجمِيع عِلمِه غَيرُ نَبيٍّ[١] ، يقول الله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[٢] . فالبيان : خصِّيصةٌ لهذه اللُّغة العربيَّة ، لمَّا خصَّ جلَّ ثناؤه اللِّسان العربيَّ بالبيان عُلِمَ أنَّ سائر اللُّغات قاصرةٌ عنه واقعةٌ دُونه[٣] . فاللغة العربية أفصح اللُّغات لسانًا ، وأوضحه بيانًا ، وأقومه مناهج ، وأثقفه أبنيَةً ، وأحسنه بحسن الاختصار تأليفًا ، وأكثره بقياس أفعاله تصريفًا[٤] ، وهو المنزَّه من بين الألسنة من كلِّ نقِيصة ، والمعلَّى على كلِّ خسِيسة ، والمهذَّب ممَّا يَهجُن أو يُسْتَشْنع[٥] ، فأختارها الله لكتابه العظيم والذكر الحكيم ، فصار تعلُّم هذا اللِّسان مِنَ الدِّين ، ومعرفته فرضٌ واجب ؛ لأنَّ فهم الكتاب والسُّنَّة فرض ، ولا يُفهم إلَّا بفهم اللُّغة العربيَّة ، وما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجبٌ[٦] .

---

(١) الشافعي أبوعبدالله محمد بن إدريس القُرشي المكِّي (ت: ٢٠٤هـ) : الرِّسالة ، ت : أحمد شاكر ، مكتبه الحلبي ، مصر ، ط : ١ ، ١٣٥٨هـ ، ص : ٣٤ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيتان : (٣-٤).

(٣) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ) : الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، محمد علي بيضون ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م ، ص : ١٩ .

(٤) سعيد بن محمد المعافري ثُمَّ السَّرقسطي ، (ت : بعد ٤٠٠ هـ) : كتاب الأفعال ، ت: حسين محمد شرف ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، (د.ط) ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، ١/ ٥١ .

(٥) انظر : إسحاق الفارابي : معجم ديوان الأدب ، ١/ ٧١-٧٢ .

(٦) أثر عمر رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ٦/ ١١٦ ، برقم (٢٩٩١٥) ، وسعيد بن منصور في التفسير ، ٢/ ٣٠٤ ، برقم (٨٩) . وانظر : ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١/ ٥٢٧ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال : تعلَّموا العربيَّة فإنَّها من دينكم[١] .

ولـيُعلم أنَّ اللُغة العربية تتَّسم بالأصالة وقِدَم المنشأ ، فمنها ابتدأ البَشر كلامَهُم ، وإليها ينتهي أهلُ الجنَّة فيصِير لِسانُهم ، وبها أنزل الله وحيَه فهيَ وَحيٌ مِنْ ربِّ العالِمين[٢] ، ولَيسَت مِن وضع الآدمِيِّين ، علمَها اللهُ عز وجل لنبيه آدم عليه السَّلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٣] ، أي أنَّ الله تعالى علَّمَهُ أسماءَ كلّ شيء ، يقول ابن عباسٍ رضي الله عنهما في تفسِيرها ، أي : هذه الأسماء الَّتي يتعارف بها النَّاس : إنسان ، ودابَّة ، وأرْض ، وسَهل ، وبَحر ، وجبل ، وحِمار ،

(١) ابن أبي شيبة : المصنَّف ، برقم ٢٩٩١٥ ، ٦/ ١١٦ ، انظر : ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١/ ٥٢٧-٥٢٨ .

(٢) اختلف أهل العلم في نشأة اللُّغات ومَبدَئِها -واللُّغة العربيَّة منها- أهي توقيفيَّةٌ من ربِّ العالمين ، أم من وضع البشر واصطلَاح الآدمِيِّين عليها ، أو أنَّ هنالك مِنها التَّوقِيفي وكذلك الاصطلاحي ، أم أنَّنا نُمسك عن هذا كُلِّه ونتوقَّف عن الخوض فيه ، والقولُ الرَّاجح -إنْ شاء الله- الَّذي دلَّتْ عليه الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة هو أنَّ اللُّغة العربيَّة توقيفيَّةٌ من ربِّ العالمين ، علَّمها الله عزَّ وجلَّ لآدم عليه السَّلام ، ثُمَّ تناقلها عنه بنُوه ، ومازال الوحي ينزل على أنبيائه العرب بها ليُقوِّم ويُحيي ما اندثر منها ، حتَّى خُتمت بها رسالة الإسلام وكانت لُغةَ كتابه القرآن ؛ بينما لُغات العجم الأُخرى فالغالب فيها اصطلاح أهلها عليها . ولمزيد مِن التَّفصِيل فليُراجَع : ابن فارس : الصَّاحبي في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها ، ١/ ١٣-١٤ ، وابن تَيمية : الإيمان ، ص : ٧٥-٨٠ ، والسُّيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ١/ ١٢-٢٩ ، وعبد الكريم النَّملة : المهذَّب في عِلمِ أصُول الفقه المقارن ، ٣/ ١٠٣٧-١٠٤٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٣١) .

وأشباه ذلك مِنَ الأُمَم وغَيرها[1] . وزاد في رواية : علَّمه القَصعَة مِنَ القُصَيعَة[2] . وجاء في روايةٍ أُخرى : حتَّى الفَسْوَة والفُسيَّة[3] ، وكأنَّه أراد أسماءَ الأعراض والأعيان مُكبَّرها ومُصغَّرها[4] ؛ وبنحو أثر ابن عباس السَّابق جاء النقل عن أئمَّة التَّفسير مِن التَّابعين كسعِيد بن جُبَير[5] ، ومجاهد[6] ، وقتادة[7] .

ومِمَّا قاله ابن عباس رضي الله عنهما في هذا الباب : أنَّ آدم عليه السَّلام كان لُغتُه في الجنَّة العربيَّة ، فلمَّا عصَى ربَّه سَلَبَه الله العربيَّة فتكلَّم بالسُّريانيَّة ، فلمَّا تاب اللهُ عليه ردَّ عليه العربيَّة[8] . وقرِيبًا مِن هذا القول جاء النَّقلُ عن المُؤرخِ الفقيه عبدالملك بن حبيب[9] في قَوله : اللِّسانُ

---

(١) الطبري : جامع البيان ، برقم (٦٠٦) ، ١/ ٤٥٦ .

(٢) الطبري : جامع البيان ، برقم (٦٥٤) ، ١/ ٤٨٤.

(٣) ابن أبي حاتم : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ، برقم (٣٣٧) ، ١/ ٨٠ ، والطبري : جامع البيان ، برقم (٦٥٢) ، ١/ ٤٨٣.

(٤) انظر : ابن تيمية : الإيمان ، ص : ٧٩ .

(٥) الطبري : جامع البيان ، برقم (٦٥٠) ، ١/ ٤٨٣.

(٦) أبوالحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت: ١٠٤هـ) : تفسير مجاهد ، ت : محمد عبدالسلام أبوالنيل ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، ص : ١٩٩ .

(٧) أبوبكر عبدالرزاق بن همام الصَّنعاني (ت: ٢١١هـ) : تفسير عبدالرزاق ، ت : محمود محمد عبده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ ، برقم (٣٨) ، ١/ ٢٦٦ .

(٨) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحت ترجمة آدم عليه السَّلام ، برقم (٥٧٧) ، ٤/ ٤٠٧ .

(٩) ابن حبيب بن سليمان السُّلَمِي ، القُرطبي المالكِي ، أبو مروان ، الإمام العلَّامة ، عالم الأندلس وفقِيهُها في عصره ، كان عالمـًا بالتأريخ والأدب ، رأسًا في فقه =

الَّذي نزل به آدمُ مِنَ الجنَّة كان عربيًّا ، لأنَّه كلام الله عزَّ وجلَّ ، وكلامُ ملائِكته ، وكلامُ أهل الجنَّة إذا صارُوا إلَيها[1] ، وقال أيضًا : فهذا الكلام العربيُّ هو كلام آدم حِين أُخرج مِنَ الجنَّة ، وكلام وَلدِه مِنْ بعدِه ؛ ثُمَّ لَمَّا طال العهد بعد آدم حُرِّف اللِّسان العربيُّ فصار سُرْيانيًّا[2] ، فاللُغة العربية إذًا تَوقِيفية مِنْ ربِّ العالمِين ، ومِمَّن ذهب إلى هذا القَول ونَصرَه إمام اللُّغة وعلُومها ابن فارس الرَّازي[3] القائل : ولعلَّ ظانًّا يظنُّ أنَّ اللُّغة الَّتي دلَّلنا على أنَّها توقيفٌ إنَّما جاءت جمُلةً واحدةً وَفي زمانٍ واحدٍ . وليس الأمر كذلك ، بل وقَّف الله جلَّ وعزَّ آدمَ عليه السَّلام على ما شاء أن يعلِّمَه إيَّاه ممَّا احتاج إلى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثُمَّ علَّم بعد آدم عليه السَّلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نَبيًّا نَبيًّا ما شاء أن يُعلِّمه ، حتَّى انتهى الأمر إلى نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ، فآتاه الله جلَّ وعزَّ من ذلك

=

المالكية . له تصانيف كثيرةٌ ، قِيل : تزيد على ألف . وُلد في حياة الإمام مالك - بعد السَّبعِين ومائة- ومات سنة ثمان وثلاثين ومائتين . انظر : الذَّهبي : سير أعلام النُّبلاء ، ١٢/ ١٠٢ ، والزركلي : الأعلام ، ٤/ ١٥٧ .

(١) أبو مروان عبد الملك بن حبيب السُّلمي ، القُرطبي المالكِي (ت:٢٣٨هـ) : كتاب التَّاريخ ، ت : عبدالغني مستو ، المكتبة العصريَّة ، صيدا - بيرُوت ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ ، ص : ٣٣ . وانظر : جلال الدِّين السُّيوطي : المُزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ١/ ٢٨ .

(٢) المصدر السَّابق .

(٣) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرَّازيّ ، من أئمَّة اللُّغة والأدب ، أصله من قزوين ، وأقام مُدَّةً في همذان ، ثُمَّ انتقل إلى الرَّيِّ فتُوفي فيها ، من تصانيفه : كتابه العظيم «مقاييس اللُّغة» ، و«الصاحبيّ» في علم العربية ، و«جامع التأويل» في تفسير القرآن ، وغيرها ، توفِّي سنة ٣٩٥ هـ . انظر : الزركلي : الأعلام ، ١/ ١٩٣ .

ما لم يُؤته أحدًا قبله ، تمامـًا على ما أحسنَه من اللُّغة المتقدِّمة ثُمَّ قرَّ الأمر قَرَارَه فلا نعلم لُغةً مِن بعده حدثت[(١)] .

فبعدما تقرَّر أصالَة لُغة العرب وبيان نشأتها ، من خلال نقل الأدلَّة على تعلِيم اللهِ آدمَ لها ، سأذكر أيضًا شيئًا مِنَ الشَّواهد على تكلُّم الملائكة بها ، سواءً جبريل عليه السَّلام أو الملائكة الأُخر في الملأ الأعلى ، فأمَّا جبريل عليه السَّلام فهو الملَك الـمُوكَل بالوَحي ، يقول الله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[(٢)] ، وهذا بيانٌ مِنَ الله أنَّ القرآن الَّذي هو بلسان عربي مبِين سَمعَه رُوح القدس من الله ، ونزل به منه[(٣)] ، فهو كلام الله عز وجل ووحيه ، وهنا لفتةٌ إلى أنَّ الله عز وجل يتكلَّم بالوحي بالعربية ، فيَسمعُه مِنه جبريل عليه السَّلام ، فيَنزِلُ به على ذلكم النَّبيِّ ، فإن كان النَّبيُّ عربيًّا بلَّغَه الوحيَ بلسانه العربيِّ الذِّي سمعه من ربِّ العالمِين ، وإن كان النَّبيُّ غير عربيٍّ ترجمَ له جبريل بلسان قومه الَّذي بُعث فيهم ، ودليلُ هذا ما رواه ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[(٤)] . قال : بلسان قُريش ، ولو كان غير عربيٍّ ما فهِمُوه ، وما أنزل اللهُ كتابًا إلَّا بالعربيَّة ، فكان جبريل عليه السَّلام يُترجم لكلِّ نبيٍّ بلسان قومه ، وذلك معنى قوله

---

(١) ابن فارس : الصَّاحبي في فقه اللغة العربية ، ص : ١٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : (١٩٢–١٩٥) .

(٣) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ١٢/ ١٢٤.

(٤) سورة الشُّعراء ، الآية : (١٩٥).

تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[١][٢] ، وبمثل هذا الأثر لابن عباسٍ رضي الله عنهما جاء النَّقل كذلك عن سفيان الثوريِّ كما في تفسير ابن أبي حاتم[٣] ؛ فالله عزَّ وجلَّ يُنزِّلُ وحيَهُ باللُّغة العربيَّة دون ما سواها ، ومن الأدلَّة على نزول الوحي بالعربية قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٤] ، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : لما نزلت (إن هذا لفي الصُّحُف الأولى صحف إبراهيم ومُوسَى) قال : رسول الله ﷺ : هي كلّها في صُحف إبراهيم وموسى[٥] .

وقال الحسن رضي الله عنه عن قول الله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[٦] : بأنَّها في كُتب الله كلِّها[٧] قال عكرِمة : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : (٤) .

(٢) محمد بن علي المظفر المعروف بالوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس ، ت : عبدالرحمن الجبوري –إبراهيم السامرائي ، دار المسيرة ، عمان ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، ص: ٣٤-٣٥ ، وانظر : رواية ابن حسنُون المُقرئ بإسناده المتَّصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما : اللُّغات في القرآن ، ت : صلاح الدِّين المُنَجِّد ، مطبعة الرِّسالة ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٣٦٥هـ ، ص : ١٩ .

(٣) ابن أبي حاتم أبومحمد عبدالرحمن التَّميمي الحنظلي الرازي (ت: ٣٢٧هـ) : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ، ت : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، المملكة العربية السعودية ، ط : ٣ ، ١٤١٩هـ ، برقم (١٥٩٥٠) ، ٩/ ٢٨١٩ . وانظر : جلال الدِّين السُّيُوطي : الدُّرُّ المنثور ، ٥/ ٥ .

(٤) سورة الأعلى ، الآيتان : (١٨-١٩) .

(٥) انظر السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، ٨/ ٤٨٨ .

(٦) سورة الأعلى ، الآية : (١٨) .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره . انظر : جلال الدِّين السُّيُوطي : الدُّرُّ المنثور ، ٨/ ٤٨٨ .

ﭐلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[١] الآيات التي في ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[٢] .

وقال السُّدِّيُّ[٣] : أن هذه السورة - سورة الأعلى - في صُحف إبراهِيم ومُوسى مِثلَ ما نَزلت على النَّبيِّ ﷺ[٤] ؛ وقد نقل ابن جرير اختلاف المفسِّرين في التوجيه العائد على اسم الإشارة في الآية (إِنْ هَذَا) ، ثُمَّ بعد ذلك رجَّح القَول الَّذي أثبَتُّه آنفا وذلك بقوله : وأَولَى الأقوال في ذلك بالصَّواب ، قول مَنْ قال : إنَّ قوله : ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[٥] ، لفي الصُّحف الأُولى ، صُحف إبراهيم خليل الرَّحمن ، وصُحف مُوسى بن عمران[٦] ، ثُمَّ بيَّن سبب ترجيحه لهذا القول ، فقال : «وإنَّما قُلت : ذلك أولى بالصِّحة من غيره ؛ أنَّ «هذا» إشارةٌ إلى حاضر ، فلأن يكون إشارةً إلى ما قرُب منها أولى من أن يكون إشارةً إلى غيره ، وأمَّا الصُّحف : فإنَّها جَمع صحِيفة ، وإنَّما عُني بها : كُتب إبراهيم وموسى[٧] ؛ وقال

(١) سورة الأعلى ، الآيتان : (١٨-١٩) .

(٢) الطبري : جامع البيان ، ٢٤/ ٣٧٦.

(٣) إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي ، أبومحمَّد الحجازي ، ثمَّ الكُوفي ، أحد موالي قريش ، فهو حجازيُّ الأصل سكَن الكُوفة ، الإمام المفسِّر ، تابعي ، مات سنة بضع وعشرين ومائة . انظر : الذَّهبي : سير أعلام النُّبلاء ، ٥/ ٢٦٦ ، والزركلي : الأعلام ، ١/ ٣١٧ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره . انظر : جلال الدِّين السُّيُوطي : الدُّرُّ المنثور ، ٨/ ٤٨٨ .

(٥) سورة الأعلى ، الآيات : (١٤-١٧) .

(٦) الطبري : جامع البيان ، ٢٤/ ٣٧٧.

(٧) المصدر السابق .

أبو أُمامة رضي الله عنه : أنزلَ الله على إبراهيم مِمَّا أنزلَ على مُحَمَّدٍ في القرآن ، فكان فيما أنزلَ الله عليه : ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] ، و﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[2] ، والَّتي في الأَحزَاب ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَـٰتِ﴾[3] إلى آخِر الآية ، والَّتي في سَأَلَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾[4] ، فلَمْ يَفِ بهذه السِّهَام إلَّا إبراهيم خليل الله ومحمَّد ﷺ[5] .

وجاء في صحيح البخاري[6] أنَّ عطاء بن يسار قال : لَقِيت عبدالله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلتُ له : أخبرني عن صِفَة رسول الله ﷺ في التَّوراة؟ فقال : «أَجَلْ ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[7] ، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ المتوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَة ، ولكن يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاء ، بأن يقولوا : لا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا» .

---

(١) سورة التَّوبة ، الآية : (١١٢).

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : (١-١١) .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : (٣٥).

(٤) سورة المعارج ، الآيات : (٢٣-٣٣) .

(٥) مستدرك الحاكم ، برقم (٤٠٢١) ، ٢/ ٦٠٠ .

(٦) كتاب البيُوع ، باب كراهية السَّخب في السُّوق ، برقم (٢٠١٨) ، ٢/ ٧٤٧ .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية : (٤٥) .

وقد كان كعب الأحبار يقول : فتحت التَّوراةُ : بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[(١)] ، وختمت : بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[(٢)(٣)] . قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[(٤)] ، فالقرآن نزل به جبريل عليه السلام بأمر الله عز وجل مصدِّقًا لما قبله من الكتب أي : موافقًا لما قبله من الكتب السماوية ، لسانًا عربيًا أي : فصيحًا بينًا واضحا[(٥)] . هذا فيما يخصُّ الرُّوحَ الأمِين ، ونزُولِه بالوحي من عند ربِّ العالمِين باللغة العربية ؛ وأمَّا شاهد تكلُّم الملائكة بالعربية في الملأ الأعلى ، فقد جاء في صحيح البخاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، فَلَمَّا خَلَقَهُ قال : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك ، فقال : السَّلَامُ عَلَيْكُم ، فقالوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله ، فَزَادُوهُ :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١).

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (١١١).

(٣) محمد بن أيوب بن يحيى بن الضُّرَيس البجلي الرازي ، المشهور بابن الضُّرَيس (ت: ٢٩٤هـ) : فضائل القرآن وما أُنزل مِنَ القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة ، ت : محمَّد مُطِيع حافظ ، دار الفكر ، دمشق – سورية ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ ، ص : ٩٤ .

(٤) سورة الأحقاف ، الآية : (١٢) .

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، ت : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط : ٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ٧/ ٢٧٩ .

ورحْمَةُ الله..»[١] ، قال المُهلَّب[٢] : هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الملائكة في الملأ الأعلى يتكلَّمون بلسانِ العرب ، ويحيُون بتحيَّة الله ، وأنَّ التَّحيَّة بالسَّلام هي الَّتي أراد الله أن يتحيَّا بها[٣] . أضف إلى أنَّ الملائكة تُسَبِّح الله وتُقَدِّسه بأسمائه الحسنى ، فأسماء الله الحسنى توقيفية ليست اصطلاحية ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥] . فالملائكة إذن تسبح الله بحمده وتقدسه وتدعوه بأسمائه الحسنى قبل أن يخلق الله عز وجل آدم فالأسماء الحسنى أزلية وكلها بالعربية .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٦] ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ أي أن هذا القرآن

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام ، برقم (٥٨٧٣) ، ٥/ ٢٢٩٩ .

(٢) المُهَلَّبُ بن أحمد بنِ أبي صُفْرَة أَسِيدِ بنِ عبدالله الأَسَدِيُّ ، الأَندلسِيُّ ، كان أحد الأئمَّة الفُصحَاء ، الموصُوفين بالذَّكاء . مُصنِّف «شرح صحيح البخارِيِّ» . تُوفي في شوَّال سنة خمس وثلاثِين وأربع مائة . انظر : الذَّهبي : سِيَر أعلام النُّبلاء ، ١٧/ ٥٧٩ .

(٣) ابن بطال : شرح صحيح البخارى ، ٩/ ٥ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٣٠) .

(٦) سورة الزخرف ، الآيات : (٣-٤) .

في أصل الكتاب يعني اللوح المحفوظ لدينا لعليٌّ يقول عندنا مرفوع حَكِيمٌ[١] ، لذلك أقول : إنَّ اللُّغة العربيَّة هي أصلٌ أصيلٌ من ربِّ العالمين علَّمها الله عز وجل آدم عليه السَّلام ، ليعبُدَهُ بها ثُمَّ علَّمها آدمُ ذريَّتَه ليعبدوا الله ويتخاطبوا بها ، كذلك حتَّى وصلت إلى نبيِّ الله نوح عليه السَّلام ، ثُمَّ بعد الطُّوفان انحصرت البشريَّة في ذريَّة سيِّدنا نوح عليه السَّلام لقول الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٢] ، فلا أحدَ من البشر إلَّا وينتسب له عليه السَّلام ، وإلى لُغتِه ، وهي العربيَّة ، فأخذَتها عنه ذريَّتُه -سام ، وحام ، ويافث[٣] وتكاثرت وانتشرت في أصقاع الأرض حتَّى تفرَّقوا فيها ، فاختلفت مشاربهم ، وتباعدت مَواطنهم ، وتغيَّرت لهجاتهم شيئًا فشيئًا ، واختلط عليهم فانحرفت الألسن وتداخلت اللَّهجات واعوجَّت وأصابتها العُجْمَة ، إلَّا ما كان في جزيرة العرب الَّتي سكنها سام ووَلَدُه[٤] ، فاستمرَّ النَّسل منه إلى مولد رسول الله إبراهيم عليه السلام ببابل مِنْ أرض العراق ، فإبراهيم لُغته العربية وما يؤكد ذلك تحية الملائكة له بالسَّلام وردُّه السَّلام عليهم حين دخلوا عليه ، وضيافته لهم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ

(١) انظر : مقاتل بن سليمان : تفسيره ، ٣/ ٧٨٩ ، انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٢٠٠.

(٢) سورة الصافات ، الآية : (٧٧) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد ، برقم (٢٠١١٤) ، ٣٣/ ٣٠٣ ، والترمذي ٥/ ٣٦٥ ، برقم (٣٢٣٠) وقال : حسن غريب .

(٤) انظر : علي بن الحسين بن علي أبوالحسن المسعودي (ت: ٣٤٦) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المكتبة العصرية ، صيداء ، بيروت ، ط :١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م ، ١/ ٣٣ .

أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾[1] ، وقد جاء أيضا في السنَّة عن ابن عباس قال : كان النبيُّ ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول : «إنَّ أباكما كان يُعَوِّذ بها إسماعيل وإسحاق : أَعُوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّة من كُلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كُلِّ عَيْنٍ لامَّة»[2] فكُلُّ ذلك يدلُّ على عروبته عليه السلام ، ثُمَّ إنَّ الله أمره أن يُسكن ابنه إسماعيل عليه السَّلام في مكَّة عند بيته الحرام ، فكان أوَّل مَن سكنها وأوَّل من تكلَّم اللغة الفصِيحة فيها -أي : في مكَّة- ، لأنَّ العربية لا يحيط بها إلا نبي[3] معلمٌ من ربِّه قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾[4] ، فاستمرَّ نَسل العرب مِنْ إسماعيل عليه السلام إلى أنْ بَعَث الله مِنْ ذُرِّيَّته نبيَّه مُحمَّد بن عبد الله ﷺ ، أنزل عليه أفضل كتبه بلسانٍ عربيٍّ مُبين ، وتكفَّل بحفظه ، فحُفظتْ اللُغة العربية معه ، ولِأَصَالتِها وشرفها وفَضلها جعلها الله لُغة دار كرامته . وقد سئل سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله : ما هي اللغة التي يتكلَّم بها الله عز وجل يوم القيامة لعباده؟ فأجاب : ظاهر النصوص الواردة عن النبيِّ ﷺ أنَّه يكلِّم النَّاس باللغة العربية ، والله أعلم جلَّ وعلا ، لا أعلم مانعـًا من أنَّه يتكلم بغيرها ، هو على كُلِّ شيءٍ قدير سبحانه وتعالى ، يعلم كل شيءٍ ، ويعلم جميع اللغات ، لا تخفى عليه خافية جل وعلا ، لكن ظاهر النصوص أنَّه يخاطب النَّاس يوم القيامة باللغة العربية ، وأنَّ لغة أهل

---

(١) سورة هود ، الآية : (٦٩) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب يزفون ، الصافات ، برقم (٣١٩١) ، ٣/ ١٢٣٣ .

(٣) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ، ص : ٢٤.

(٤) سورة مريم ، الآية : (٥٤) .

الجنة هي اللغة العربية ، يتخاطبون بهذه اللغة المعروفة ، والله يخاطبهم بذلك ، كما هو ظاهر[١] ، قول الله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : «..وكَلَامُ أهل الجنَّة عَرَبيٌّ»[٣] . فهكذا هو الترَابُط المتين بين اللُغة العربية والدين والكتاب المبين الَّذي أُنزل للعالمين على رسوله الأمين ﷺ . قال ابن تيمية : إنَّ الله لما أنزل كتابَه باللِّسان العربي ، وجعل رسولَه مبلِّغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السَّابقين إلى هذا الدين متكلِّمين به ، ولم يكن سبيل إلى ضبط الدِّينِ ومعرفته إلَّا بضبط هذا اللسان ، صارت معرفته من الدِّين ، وأقرب إلى إقامةِ شعائر الدين[٤] .

وقال أبومنصور الثَّعالبِيُّ[٥] : فإنَّ مَنْ أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسولَه محمدًا ﷺ ، ومَن أحبَّ الرَّسُول العربيَّ أحبَّ العَرب ، ومَن أحبَّ

(١) انظر : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (ت: ١٤٢٠هـ) : فتاوى نور على الدرب ، جمعها : د . محمد الشويعر ، قدَّم لها : عبدالعزيز آل الشيخ ، ١/ ١٥٠.

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٤٤).

(٣) سليمان بن أحمد الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) : المعجم الكبير ، ت : حمدي السلفي ، دار إحياء التراث العربي ، ط : ٢ ، ١٩٨٣م ، برقم (١١٤٤١) ، ١١/ ١٨٥ ، البيهقي : شعب الإيمان ، برقم (١٦١٠) ، ٢/ ٢٣٠ .

(٤) انظر : ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١/ ٤٥٠ .

(٥) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، أبو منصور الثعالبي ، من أهل نيسابور ، إمامٌ مِنْ أئمَّة اللُّغة والأدب ، كان فراءً يخيط جلود الثعالب ، فنسب إلى صناعته ، اشتغل بالأدب والتَّاريخ فنبغ ، وصنَّف الكتب الكثِيرة الممتعة ، كـ«يتيمة الدَّهر» ، و«فقه اللغة» ، و«سحر البلاغة» ، وغيرها . تُوفِّي عام ٤٢٩ هـ . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٤/ ١٦٣ .

العَرب أحبَّ العربيَّة الَّتي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومَن أحبَّ العربية عُنيَ بها ، وثابر عليها ، وصَرَف هِمَّته إليها ؛ ومَن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أنَّ محمداً ﷺ خَير الرُّسل ، والإسلام خَير الملل ، والعَرَب خَير الأمم ، والعربيَّة خَير اللُّغات والألسِنة[١] .

أفبعد هذا يأتي آتٍ ليقُول إنَّ لُغة العرب حادثة!! أو أنَّها اصطلاحيَّةٌ مِنْ وَضْع البَشَر!! أو أنَّ مَنشأها من يعرب بن قحطان!! أو إلى غير ذلك من التَّشكيكات التِّي لازال أهل الكلام والـمُستشرقون والتَّغريبيُّون يبثُّونها في مكتبات المسلِمين ؛ ليُحرِّفُوا بها تاريخهم ويُشكِّكُوهم في هُويَّتِهم ؛ لذلك على المسلم أن يعتني بهذه اللغة العظيمة دراسةً وعلماً وفهماً وفقهاً ؛ لأنَّها لا تنفكُّ عن دينه أبداً صلاةً وذكراً وتلاوةً . والله تعالى أعلم .

---

(١) عبد الملك بن محمد أبومنصور الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) : فقه اللغة وسِرُّ العربيَّة ، ت : عبدالرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، ص : ١٥ .

نَسَب العرب

النَّسَبُ : هو القرابة واتصال الأبناء بالآباء ، وهو على ضربين : نَسبٌ بالطُّول كالاشتراك بَين الآباء والأبناء ، ونَسَبٌ بالعرض كالنَّسب بَيْن الإخوة وبني الأعمام . وانتسب فلانٌ إلى فُلانٍ إذا اعتَزَى إليه ، ولهذا يُقال : عَزَيتهُ إلى أبيه وعَزَوتهُ إذا نُسب إلَيْه ، ورجل نسيب : ذو حَسَبٍ ونَسَبٍ[١] ، والجمع أنساب . والنِّسبة هي : إضافة رجل إلى رجل فيُجعل مِنْ آل ذلك الرَّجل ، أو يُضاف إلى بلدٍ فيُجعل مِنْ أَهلِه ، وكَذلك إنْ أُضِيفت سائر الأسماء إلى البلاد ، أو إلى حيٍّ أو قبيلة[٢] . وهناك من عد النسب والنسبة بمعنًى واحد[٣] .

العرب : اسم العرب في الأصل كان اسمًا لقَومٍ جمعُوا ثلاثةَ

---

(١) انظر : العَين ، ٧/ ٢٧١-٢٧٢. انظر : أبويوسف يعقوب بن إسحاق ، الملقَّب بابن السِّكِّيت (ت: ٢٤٤هـ) : إصلاح المنطق ، ت : محمد مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ص : ١٠٧ ، وابن سِيده : المخصص ، ١/ ٣٣١ ، وعبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي (ت : ١٠٣١هـ) : التَّوقِيف على مهمَّات التَّعاريف ، ت : عبدالخالق ثروت ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م ، ص : ٣٢٤ .

(٢) انظر : أبو بشر عمرو بن عثمان ، الملقَّب بسيبويه (ت: ١٨٠هـ) : الكتاب ، ت: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : ٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ٣/ ٣٣٥ .

(٣) كابن الخباز في كتابه توجيه اللمع . انظر : أحمد بن الحسين بن الخباز (ت: ٦٣٩هـ) : توجيه اللُّمع ، ت : فايز دياب ، دار السلام للطباعة والنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة ، جمهوريَّة مصر ، ط: ٢ ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ، ص : ٥٣٥-٥٣٦ .

أوصاف ؛ أحدها : أنَّ لِسانَهم كان باللُّغة العربيَّة ، والثَّاني : أنَّهم كانُوا مِنْ أولاد العرب ، أمَّا الثَّالث : فلأنَّ مساكنَهم كانت أرضَ العرب[١] وسوف أُفَصِّل هذا القول مستعينا بالله فيما يلي :

أولًا : إفصاحهم باللغة ، وإيضاحهم سبيل البلاغة ، من قولك : أعربت الشَّيءَ ، أو عن الشيء ، إذا أبنته أو أبنت عنه ، وعربت عن فلان : أبنت عنه[٢] . وأعرب الرجل : أفصح القول والكلام ، وهو عربانيّ اللسان ، أي : فصيح[٣] . قال ابن دريد : الإعراب والتعريب معناهُما واحد ، وهو الإبانة . يُقال : عرب عنه لسانُه وعَرَّب أي أبان وأفصح . ويُقَال : أعرِبْ عَمَّا فِي ضميرك أي أبِنْ . ومن هذا يُقال للرجل إذا أفصح في الكلام : قد أعرب . قال رسولُ اللهِ ﷺ : «الثَّيِّبُ يُعْرِبُ عَنْهَا لِسَانُهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا» . ويقال : رجل عربيّ اللِّسَان إذا كان فصيحا[٤] . فإذا قالت العربُ : الفصيح والعجم فإنهم يعنون به العرب والعجم ، وأنشد الأعشى :

ولمّا رأيت النَّاس للشَّرِّ أَقْبَلُوا وثابوا إلَيْنَا مِنْ فَصِيحٍ وأَعْجَمِ[٥]

---

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ١/ ٤٥٤ .

(٢) انظر : الحسين بن على بن الحسين ، أبوالقاسم الوزير المغربي(ت: ٤١٨هـ) : أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، (د.ط) ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص : ٨٧ .

(٣) انظر : العين ، ٢/ ١٢٨.

(٤) تهذيب اللغة ، ٢/ ٢١٩.

(٥) انظر : شهاب الدين أحْمَد بن يُوسُف بن على المالكى (ت: ٦٩١هـ) : تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح (السفر الأول) ، ت : د. عبد الملك الثبيتي ، رسالة دكتوراه لفرع اللغة العربية ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، في المحرم ١٤١٧ =

فكلمة عربي تعني فصيح ، لسان عربي أي لسان فصيح ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يارسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا أي لم تفارقنا ، فقال له ﷺ : «كانَتْ لُغَةُ إسماعيل قد دُرِسَتْ ، فَجَاءَ بها جِبْرِيلُ فَحَفَّظَنِيهَا فَحَفِظْتُهَا»[١] .

وفي رواية أخرى قال له : يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ونحن العرب حقًا فقال ﷺ : «إنَّ رَبِّي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ»[٢] . وقد تم بسط الكلام عن اللغة العربية في المحور السابق مبدأها ومنتهاها .

=

هـ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، ص: ٤٧٣ .

(١) محمد بن أحمد الغطريفي (ت: ٣٧٧هـ) جزء ابن غطريف ، ت: عامر حسن صبري ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ق:١ ، ١٤١٧هـ ، برقم (٥١) ، ص: ٩٤ ، انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ٤/ ٣ . والحديث قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : منكر ، كما في مقدمة كتاب الرواة عن مالك ١/ ٣٢٢ .

(٢) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِي (ت:٢٧٦) : المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير ، ت: مروان العطية ومحسن خرابة ، دار ابن كثير ، ط:١ ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، ص: ٤٨ ، انظر : محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي(ت:٧٩٤) : البرهان في علوم القرآن ، ت : محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، لبنان ، ط: ١ ، ١٣٧٦هـ ، ١/ ٢٨٤ .

ثانيًا : صراحة النَّسب الذي ينتهي إلى أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وإبراهيم ينتهي نسبه إلى سام بن نبيِّ الله نوح عليه السلام[١] ، وسام لقَّبه النبي ﷺ بأبي العرب[٢] ، فقد خَصَّ الله خليله أن جعل النبوَّة في ذريته دون غيره من الأنبياء ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[٣] ، فهذه خلة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلًا وجعله للناس إمامًا ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلا يوجد نبيٌّ بعده إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنبيِّ العربيِّ القرشيِّ الهاشميِّ ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام : فليس نبيّ من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام[٤] . قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٦] ، فهذا النسب العريق الى رُسُلِ الله إبراهيم وابنه اسماعيل

---

(١) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ١/ ٣٢٤.
(٢) انظر : مسند الإمام أحمد ، برقم (٢٠١١٤) ، ٣٣/ ٣٠٣ . وضعَّفه محققو المسند .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : (٢٧).
(٤) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ٢٤٨-٢٤٩ ..
(٥) سورة البقرة ، الآية : (١٣٣).
(٦) سورة الحج ، الآية : (٧٨).

عليهما السلام أكرم الأنساب وأشرفها على التمام ، ثابت لقبائل جزيرة العرب من الكتاب والسنة ، فهم ذرية النبيِّ العربيِّ لغةً ونسبًا وموطنًا رسول الله إسماعيل عليه السلام ، الذي يعود إليه نسب قبائل العرب جميعًا معدها ويمنها . لقول النبيِّ ﷺ لقوم من أسلم[١] -وأسلم والأنصار[٢] من بني قحطان[٣]- ينتضلون قال ﷺ : «ارمُوا بَنِي إِسْمَاعِيْلَ فَإِنَّ أَبَاكُم كَانَ رَامِيًا»[٤] . ورسول الله ﷺ لا ينطقُ عن الهوى .

وقال ابن هشام : العرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان . وبعض

---

(١) أسلَم بن أفصى بطن من خزاعة من القحطانية ، وهم بنو أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء . من قراهم وبرة وهي قرية ذات نخيل من أعراض المدينة . انظر: هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت : ٢٠٤هـ) : نسب معد واليمن الكبير ، ت : د . ناجي حسن ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ٢/ ٤٥٦ ، وبن حزم : جمهرة أنتساب العرب ، ص: ٢٤٠ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ١/ ٢٦.

(٢) الأوس والخزرج ، وهم مِنْ ولد ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . من القحطانية فولد ثعلبة بن عمرو : حارثة فولد حارثة بن ثعلبة : الأوس ، والخزرج ، أمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٣٣٢ .

(٣) مِنْ أكبر القبائل العربيَّة وأكثرها محافظةً على العوائد والأخلاق الكريمة ومن أعزهم الأنصار الذين نصروا النبي ﷺ. وقحطان هو أبواليمن ، اختلف النَّسَّابُون في نِسبته ، والصَّواب ما أكده النبي ﷺ ، وذكره الكلبيُّ في كتابه «نسب معد واليمن الكبير» بقوله : قَحْطَانُ بن الهَمَيْسع بن تَيمن بن نَبْت بن إسماعيل بن إبرَاهِيم الخَلِيل . انظر : أبوالمنذر هشام الكلبي : نَسب معد واليمن الكبير ، ١/ ١٣١.

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب التحريض على الرمي ، برقم (٢٧٤٣) ، ٣/ ١٠٦٢.

أهل اليمن يقول : قحطان من ولد إسماعيل ، ويقول : إسماعيل أبوالعرب كلها[١] . وقال هشام ابن الكلبي إمام أهل النسب[٢] : قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم[٣] ، وكان هشام أيضا يذكر عن أبيه أنَّه أدرك أهل النَّسب والعلم ينسبون قحطان إلى الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام[٤] .

وقد قال المنذر بن حرام جد حسان بن ثابت الأنصاري[٥] في الجاهلية قبل البعثة يَنسب الأنصار إلى إسماعيل عليه السلام وهم أعلم بأنسابهم والعرب لا تماري في النسب :

---

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: ٢١٣هـ) : السيرة النبوية ، ت: مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ الشلبي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢ ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م ، ١/ ٧-٨ .

(٢) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٦/ ٥٣٥ .

(٣) هشام بن الكلبي: نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ١٣١ . انظر : محمد بن يزيد المبرد (ت: ٢٨٥هـ) : نسب عدنان وقحطان ، ت : عبدالعزيز الراجكوتيّ ، مطبعة لجنة التأليف ، الهند ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م ، ص : ١٨ .

(٤) محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت: ٣١٠هـ) : تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك ، وصلة تاريخ الطبري ، دار التراث - بيروت ، ط : ٢ ، ١٣٨٧هـ ، ١١/ ٥٧١.

(٥) المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة ابن عدي ، من بني النجار ، من الخزرج : شاعر من ذوي السيادة والرأي في الجاهلية . وهو جد (حسان بن ثابت) . انظر : علي بن محمد الشيباني ، ابن الأثير (ت : ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ، ت : عمر عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، ١/ ٥٨٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٧/ ٢٩٣ .

وَرِثْنَا مِنَ البُهْلُولِ عَمْرُو بنُ عَامِرٍ وَحَارِثَة الغِطْرِيف مَجْـدَاً مُؤَثَّلا
مَوَارِثَ مِنْ أَبْنَاءِ نَبْتِ بنِ مَالِـكٍ وَنَبْت بنُ إسماعِيْلَ مَا إِنْ تَحَوَّلا[١]

وقال أبوسفيان الأكلبي ، واسمه أنس بن مدرك من أكلب بن ربيعة بن عفرس بن حلف بن أفتل -وهو خثعم- بن أنمار بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقيل غير ذلك:

أبونا رسول الله وابن خليله بعربة بوانا فنعم المركب
أبونا الذي لم تُركب الخيل قبله ولم يدر شيخ قبله كيف تركب[٢]

وعلى ذلك أقول : أنَّ ما طرأ من تقسيمات لعرب الجزيرة إلى عرب عاربة نسبها إلى قحطان ، وعرب مستعربة نسبها إلى إسماعيل عليه السلام وأن رسول الله ﷺ من المستعربة ، لا أصل له وقد تتبَّعت أقوال العلماء والمؤرخين والنسَّابة الأوائل أمثال : ابن عباس ، وابن عمر[٣] ، وابن المسيب ، والحسن البصري[٤] ، وعطاء بن

---

(١) عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: ٢١٣هـ) : التيجان في ملوك حمير ، ت : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء - اليمن ، ط١ ، ١٣٤٧هـ ، ص : ٢٧٣ .
(٢) انظر :الوزير المغربي : أدب الخواص ، ص : ٩٢.
(٣) عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي ، ولد سنة ثلاث من البعثة ، توفي سنة ٨٤هـ . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ١٥٥-١٥٦ .
(٤) الحسن بن يسار البصري ، من سادات التابعين ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه ، ولد بالمدينة ، رأى بعض الصحابة . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات ، ٧/ ١٥٦ ، محمد بن علي الداوودي (ت: ٩٤٥هـ) : طبقات المفسرين ، دار الكتب =

أبـي ربـاح[١] ، وسـفيان الثَّـوري[٢] ، والأوزاعـي[٣] ، والبخـاري[٤] ، ومـسلم[٥] ، وابـن إسـحاق[٦] ، وهـشام ابـن الكلبـي ، والـواقدي[١] ،

=

العلمية - بيروت ، راجعه : لجنة من العلماء ، ١/ ١٥٠ .

(١) عطاء بن أبي رباح ، شيخ الإسلام ، مفتي الحرم ، حدَّث عن عائشة ، مات سنة (١١٤هـ) . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٥/ ٧٨ .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، شيخ الإسلام ، مصنف كتاب الجامع ، توفي سنة (٦١هـ) . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات ، ٦/ ٣٧١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٧/ ٢٢٩ .

(٣) عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد ، شيخ الإسلام ، عالم أهل الشام ، أبوعمرو الأوزاعي ، حدَّث عن عطاء بن أبي رباح ، ومكحول وغيرهم ، روى عنه : ابن شهاب الزهري ، ويحيى بن أبي كثير ، كان مولده في حياة الصحابة ، ولد سنة (٨٨هـ) ، وتوفي سنة (١٥٧هـ) .

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري ، حبر الإسلام ، صاحب الجامع الصحيح ، ولد سنة ١٩٤هـ ، سمع من نحو ألف شيخ ، توفي سنة (٢٥٦هـ) . انظر : أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) : تهذيب التهذيب ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، الهند ، ط : ١ ، ١٣٢٦هـ ، ٩/ ٤٧ ، يوسف بن حسن الصالحي ابن المِبْرَد (ت: ٩٠٩ هـ) : تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ ، نور الدين طالب وآخرون ، دار النوادر ، سوريا ، ط : ١ ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م ، ص : ٢٠٧ .

(٥) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابورى ، من أئمة المحدثين ، ولد سنة ٢٠٤هـ بنيسابور ، أشهر كتبه : صحيح مسلم ، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث ، وله شروح كثيرة ، توفي سنة ٢٦١هـ . انظر : ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ١٠/ ١٢٦ ، ابن المِبْرَد الحنبلي : تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ ، ص : ٢٤٩ .

(٦) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، من أقدم مؤرخي العرب ، له : السيرة النبويّة ، وقد هذَّبها ابن هشام ، وكتاب الخلفاء ، وكتاب المبدأ ، توفي سنة ١٥١هـ . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات ، ٢/ ٦٧ ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) : ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ت : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة =

ومصعب الزبيري[٢] ، وابن حبيب[٣] ، والزبير بن بكار[٤] ، والمبرد[٥] ،

=

للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٣٨٢هـ ، ٣/ ٤٦٨ .

(١) الواقدي : محمد بن عمر بن واقد السهمي ، من أقدم المؤرخين في الإسلام ، ولد سنة ١٣٠هـ ، له : المغازي النبويّة ، قال الخطيب البغدادي : كان الواقدي كلما ذُكِرَتْ له وقعةٌ ذَهَبَ إلى مكانها فعاينه(ت : ٢٠٧هـ) . انظر : ابن المِبْرَد الحنبلي : تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ ، ص : ٢٢٩ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ، ٣/ ٦٦٣ .

(٢) مصعب بن عبدالله بن مصعب بن الزبير ، علامة بالأنساب والتاريخ ، من أوجه قريش مروءةً وعلماً وشرفاً ، ولد بالمدينة سنة ١٥٦هـ ، وسكن بغداد ، وتوفي سنة ٢٣٦هـ ، له : كتاب نسب قريش ، والنسب الكبير وغيرها . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١١/ ٣٠-٣٢ ، أحمد بن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ١٠/ ١٦٢ .

(٣) عبدالملك بن حبيب بن سليمان القرطبي ، أبومروان ، عالم الأندلس وفقيهها في عصره ، أصله من طليطلة ، ولد سنة ١٧٤هـ ، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٨هـ ، كان عالما بالتاريخ والأدب ، رأساً في فقه المالكية ، له : حروب الإسلام ، وطبقات الفقهاء والتابعين وغيرها . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٢/ ١٠٢-١٠٧ ، بكر بن عبدالله أبو زيد (ت : ١٤٢٩هـ) : طبقات النسابين ، دار الرشد ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ ، ص : ٦٠ .

(٤) الزبير بن بكار أبي بكار القرشي ، قاضي مكة ، ولد سنة (١٧٢) ، سمع من : سفيان بن عيينة ، وأبي ضمرة الليثي ، وحدَّث عنه : ابن ماجه في سننه ، صنَّف كتاب نسب قريش ، قال عبدالرحمن بن أبي حاتم : أدركته ورأيته ، ولم أكتب عنه . توفي سنة (٢٥٦هـ) بمكة . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٢/ ٣١١ .

(٥) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، المعروف بالمبرد ، إمام العربية ببغداد ، أحد أئمة الأدب والأخبار ، ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ ، وتوفي سنة ٢٨٦هـ ، له : الكامل ، والمذكر والمؤنث ، والمقتضب وغيرها . انظر : أحمد بن محمد ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ت : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ٤/ ٣١٣-٣١٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٣/ ٥٧٦ .

فلم يَرِدْ عن أحد من هؤلاء المتقدمين أنَّ النبيَّ ﷺ من العرب المستعربة ، لذا لا يُقبل هذا القول ، بل هو باطل يخالف حديث النبيِّ ﷺ . ومنه قول العبَّاس رضي الله عنه : بَلَغ النَّبي ﷺ بعض ما يقول النَّاس ، فصعد المنبر ، فقال : «مَنْ أَنَا؟» قالوا : أنت رسول الله ، فقال ﷺ : «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِه ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا»[(١)] .

والذي ظهر لي بعد الدِّراسة والبحث في كتب الحديث والتَّاريخ والنَّسب وغيرها أنَّ تقسيمات العرب إلى عرب عاربة وعرب مستعربة لا يُعرف في الجاهليَّة ، ولا زمن النبيِّ ﷺ ، ولا زمن الخلفاء الرَّاشدين رضي الله تعالى عنهم ، وكان أول ظهور لهذا القول في أواخر القرن الثالث مطلع القرن الرابع الهجري ، حيث أشار الإمام الطبري رحمه الله في كتابه تاريخ الرسل والملوك أن هذا القول الحادث من الإسرائيليات[(٢)] . ولعلَّه دُسَ لمقاصد خبيثة ، كتفرقة العرب ، وإثارة النَّعرات والحميَّة الجاهليَّة ، والتَّفاخر بالأنساب حتى تقع الفتنة والبغضاء بين عنصر العرب ، وكذلك التعريض بالطَّعن في عروبة النبيِّ

---

(١) مسند الإمام أحمد ، برقم (١٧٨٨) ، ٣/ ٣٠٧.قال عنه محقِّقُو المُسند: حسن لغيره .

(٢) وقد أخرج هذه الرواية الإسرائيلية ابن جرير الطبري في تاريخه بسنده إلى ابن إسحاق أنه قال : ويزعم أهل التوراة.. . انظر : ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١/ ٢٠٢-٢٠٤ .

ﷺ ، وأنَّه ليس بعربيٍّ محضٍ ، لكونه من ذريَّة إسماعيل عليه السلام ، وأنَّ ذرية إسماعيل هم العرب المستعربة ، وأنَّ المستعربة ليست من أصل عربي كون العاربة هي الأصل ، والمستعربة دخيلة على العرب أي ليست منها ، وهذا القول لا يصح واعتقاده باطل ؛ لما فيه من الغمز في نسب النبيِّ ﷺ وعروبته ، ومعارضته للنُّصوص الشرعيَّة ، لهذا سأبين بطلانه بما يلي :

- أنَّ سيِّدنا إبراهيم عليه السلام عربي بالأدلَّة والشَّواهد الشرعيَّة التي أوردتها سابقًا ، أضف أنَّ إبراهيم عليه السلام رسول يعلمه ربه وأُنزل عليه الوحي بالعربية وهو أيضًا من ذرية سام الذي إليه ينتهي نسب العرب .

- وممَّا يدُل أيضًا أنَّ إبراهيم عليه السلام عربيًا قوله سبحانه وتعالى الموجَّه للأنصار والمهاجرين : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1] .
وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2] ، وقد ذكر المفسِّرون أنَّ الأميين هم العرب[3] .

- أنَّ الله عز وجل اختار العرب وجعل رسوله ﷺ خيرة العرب

(١) سورة الحج ، الآية : (٧٨) .
(٢) سورة الجمعة ، الآية : (٢) .
(٣) الطبري : جامع البيان ، ٢٣/ ٣٧١-٣٧٢ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ٩١ .

فكيف يكون خيرهم وهو ليس منهم ، فالنص في انتساب النبيِّ ﷺ للعرب صريح لا يُقبل فيه خلاف أبداً ، فنسبه أصحُّ وأكرمُ أنساب العرب وأشرفها .

عن ابن عمر أنَّه قال : قال رسولُ الله ﷺ : «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَاختَارَ مِنَ الخَلْقِ بَنِي آدَم ، وَاختَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ العَرَبَ ، وَاختَارَ مِنَ العَرَبِ مُضَرَ[١] ، وَاختَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا ، وَاختَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ ، فَمَنْ أَحَبَّ العَرَبَ فبِحُبِّي أَحَبَّهُم ، ومَنْ أَبْغَضَ العَرَبَ فبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم»[٢] .

- أنَّ نسب من جعلوه عاربة ومستعربة كله يعود إلى إسماعيل عليه

---

(١) مُضَر : قبيلةٌ عظيمةٌ مِنَ العدنانيَّة . كانت ديارهم حيّز الحرم إلى السَّروات ، وما دونها مِنَ الغور ، وما والاها من البلاد مساكنهم ومراعي أنعامهم من السَّهل والجبل ، وامتدت ديارها بقرب من شرقي الفرات نحو حرّان ، والرّقة ، وشمشاط ، وسروج ، وتل موزن ، وكانت ديارهم بالجزيرة بين دجلة والفرات ، مجاورة الشام ، ومن مدنهم الواقعة شرقي الفرات الرّافقة . وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز ، من سائر بني عدنان ، وكانت لهم رياسة مكَّة ، ويجمعهم فخذان عظيمان : خندف ، وقيس . ومُضَر شعب الرَّسول الله ﷺ . ولا خلاف بَين الْعلمَاء أَنَّ الصَّرِيح مِنْ ولد إِسْمَاعِيل عَلَيْهِ السَّلَام مُضر وَرَبِيعَة ابْنا نزار بن معد بن عدنان . انظر : ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ٤٢ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١١٠٧ .

(٢) انظر : المعجم الكبير ، برقم (١٣٦٥٠) ، ١٢/ ٤٥٥ ، الحاكم محمد بن عبدالله النَّيسابوري المعروف بابن البيِّع (ت: ٤٠٥هـ) : المستدرك على الصحيحين ، ت : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ ، ٤/ ٨٣ ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : الحاوي للفتاوي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ، ٢/ ٢٥٥ .

السلام ، وأنَّ قحطان من ذرية إسماعيل لا متقدماً عليه كما زعموا ، ولا غرابة أن تتكرر الأسماء في عامود النسب فيكون عدنان فرقة وقحطان فرقة وجميعهم من ذرية إسماعيل عليه السلام ، فمن الأدلَّة والشَّواهد التي تثبت أنَّ جميع قبائل العرب -ومنها قحطان- يعود نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ما يلي :

١- قولُه تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] .

٢- عن علي بن رباح ، قال : قال رسول الله ﷺ : «كُلُّ العَرَبِ مِنْ وَلَدِ إسماعِيْلَ بن إبرَاهِيْمَ عليهما السَّلام»[2] .

٣- قولُ النبيِّ ﷺ لقوم من أسلم والأنصار -وهم من اليمن من ولد قحطان- : «ارمُوا بَنِي إِسْمَاعِيْلَ فَإِنَّ أَبَاكُم كَانَ رَامِيًا»[3] .

٤- عن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ قال للأشعرين حين قدموا عليه : «أَنْتُمْ مُهَاجِرَةُ الْيَمَنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»[4] . وعن أبيه فروة بن مسيك المرادي ، حدَّثه أنَّه سأل رسول الله ﷺ عن سبأ فقال : يا رسول الله ، سبأ رجل أو جبل أم واد؟ فقال رسول الله ﷺ : «بَلْ رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً

---

(١) سورة الحج ، الآية : (٧٨) . وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل ، ٦/ ٥٣٧ .

(٢) عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي (ت:١٩٧) : الجامع في الحديث ، ت : د . مصطفى حسن حسين أبو الخير ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، (د.ط) ، ١٩٩٦م ، برقم (٣٧) ، ص : ٨٠ ، محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٤٣ . وضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١٩٤٢) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) ابن وهب : الجامع في الحديث ، برقم (٣٦) ، ص : ٧٩ ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ٣/ ١٨٠ .

فَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ وَتَيَامَنَ سِتَّةٌ فَتَشَاءَمَ لَخْمُ ، وَجُذَامُ ، وَعَامِلَةُ ، وَغَسَّانُ ، وَتَيَامَنَ حِمْيَرُ وَمَذْحِجٌ ، وَالْأَزْدُ ، وَكِنْدَةُ ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ ، وَالْأَنْمَارُ الَّتِي مِنْهَا بَجِيلَةُ»(١) ، فوجه اليمن والشام وهو أن ما كان عن يمينك إذا خرجت من الكعبة فهو يمن وما كان عن يسارك إذا خرجت منها فهو شأم(٢) . فالخروج لهذه القبائل وهجرتها كانت من موضع وسط بين اليمن والشام ، لذلك امتدت قبائل بجيلة وخثعم من أنمار ، والأزد وكندة ومذحج وحمير والأشعريون جنوب مكة في السراة وتهامة إلى أقصى اليمن وجميع هذه القبائل من ذرية سبأ ، لذلك قال النبيّ ﷺ للأشعرين حين وفدوا عليه : «أنتم مهاجرة اليمن من ولد إسماعيل» . فسبأ إذًا من ولد إسماعيل ، ولعلَّ حادثة سيل العرم وقعت لبعض ذرية سبأ ممن تيامنوا وسكنوا هناك والله تعالى أعلم .

٥ - عن عمارة بن غزية قال : جلدت الأنصار ابنًا ليوسف بن عبدالله بن سلام الحدَّ ، بأنه قال لأهل اليمن : إنَّكم لستم من ولد إسماعيل(٣) .

٦- عن سعيد بن المسيب أنَّه بلغه عن نسبت حضرموت أنها : حضرموت بن غُر بن نَبت بن إسماعيل بن إبراهيم(٤) .

٧ - قول المنذر بن حرامٍ جَدُّ حسَّان بن ثابت قبل البعثة وهو يثبت أن

---

(١) انظر : المعجم الكبير ، برقم (٨٣٨) ، ١٨/ ٣٢٦ ، الحاكم النَّيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، برقم ٣٥٨٦ ، ٢/ ٤٦٠ . ورواه الترمذي بلفظ مقارب .

(٢) انظر : محمد بن عبدالله بن محمد المعافري ، (ت: ٥٤٣) : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، ت : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ١/ ٢٣٦ .

(٣) ابن وهب : الجامع في الحديث ، برقم (٣٥) ، ص : ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، برقم (٤٠) ، ص : ٨٣ .

الأنصار من ولد إسماعيل عليه السلام :

وَرِثْنَا مِنَ البُهْلُولِ عَمْـرُو بـن عَـامِرٍ وَحَارِثَـةَ الغِطْرِيـف مَجْـدَاً مُـؤَثَّلا
مَـوَارِثُ مِـنْ أَبْنَـاءِ نَبْـتِ بـنِ مَالِـكٍ وَنَبْت بن إِسْمَاعِيْلَ مَا إِنْ تَحَوَّلا[١]

٨- قول الزبير بن بكار أنَّ قحطان من ذريَّة إسماعيل ، وأن قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل عليه السلام ، وهو ظاهر حديث أبي هريرة في قصة هاجر حيث قال وهو يخطب الأنصار : «فَتِلْكَ أُمُّكُم يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ»[٢].

٩- قول القلقشندي[٣] : «وأمَّا قحطان فهو ابن الهميسع ابن يمن بن نبت بن قيدار بن إسماعيل عليه السلام»[٤] .

١٠- ما أورد ابن سعد في الطبقات قوله : «وإلى قحطان جِمَاعُ

---

(١) ابن وهب : الجامع في الحديث ، برقم (٣٩) ، ص : ٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب : اتخاذ السراري ، ومن أعتق جاريته ثم تزوجها ، برقم (٤٧٩٦) ، ٥/ ١٩٥٥ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، برقم (٣٢٧١) ، ٤/ ١٨٤٠ .

(٣) أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، كان إماماً في العربية ، مشاركاً في الفقه والفرائض ، صنّف كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وله نظم ونثر وتأليف في الفقه أيضاً . انظر : محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، ٢/ ٨ ، عبدالحي بن أحمد ابن العماد العَكري (ت : ١٠٨٩هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ت : محمود الأرناؤوط ، تخريج : عبدالقادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٦م ، ٩/ ٢١٨ -٢١٩ .

(٤) أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الفكر - دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٧ ، ت : د.يوسف علي طويل ، ٥/ ١٩.

اليمن ، فمَنْ نَسَبَهُ إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام قال : قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم..»[١] . هكذا كان إمام أهل النسب ينسِبُه ويذكُر عن أبيه أنَّهُ أدرك أهل النَّسب والعلم ينسبون قحطان إلى إسماعيل عليه السلام[٢] . وعلى هذا أقول إن كان ذرية عدنان قد ملأت أصقاع الجزيرة ، وهو أحد ذرية إسماعيل عليه السلام ، فكيف بباقي ذرية إسماعيل التي سبقت عدنان فإنه لا يحصيهم إلا الله عز وجل .

١١- قول النَّبيِّ ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «خَيْرُ العَرَبِ مُضَرُ ، وخيرُ مُضَرَ بنُو عَبْدِ مَنَافٍ[٣] ، وخيرُ بني عبدِ مَنَاف بنُو هَاشِم[٤] ،

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٣/ ٣٢٠ ، والطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١/ ٥٧١ .

(٢) الطبراني : المعجم الأوسط ، برقم(٤٧٤٩) ، ٥/ ٨٦ .

(٣) بطنٌ مِنْ قُصيّ بن كِلاب ، من العدنانية ، وهُم : بنو عبد مناف- ويُكنى أبا عبد شمس- بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ووَلَد عبد مناف هاشمًا ، والمطَّلب ، ونَوفل ، وعبدشمس . وأمُّهم -ما عدا نوفلًا- عاتكة بنت مرَّة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة. وأمُّ نوفل وافدة بنت عمرو المازنيَّة ، من مازن بن منصور بن عكرمة . فأمَّا هاشم فلم يُعقِّب مِنْ وَلَدِه غَير عبد المطلب . وليس في الأرض هاشميٌّ إلَّا مِنْ ولد عبد المطلب . انظر : البُرِّي : الجوهرة في نسب النَّبيِّ ﷺ وأصحابه العشرة ، ١/ ٢٧ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٣٥٨ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٧٣٥ .

(٤) بطنٌ مِنْ قُرَيش ، مِنَ العدنانيَّة ، وهاشم جد النَّبيِّ ﷺ واسمه : عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن =

وخيـرُ بنـي هاشـم بنـو عَبْـدِالمُطَّلِب[١] ، والله مـا افـترق فِرْقَتَـانِ مُنْـذُ خَلَـقَ الله آدَمَ إلَّا كُنْـتُ في خَيْرِهَـا»[٢] . ثُـمَّ بعـد هـذه الأدلَّـة القاطعـة لا يُقبـل قـولٌ بغيـر دليـل ، بالـذَّات في عروبـة النبـيِّ ﷺ ونـسبه ، إذ الكـلام الناشـئ عـن غيـر الكتـاب والـسنَّة أو مـا لـم تُوْدِعـه العـرب دواوين شِعرها فإنَّه لا يلتفت إليه .

والغريبُ أنَّ الإخباريين مؤخراً عندما حاولوا كتابة أنساب العرب

=

خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر . وكان لهاشم خمسة أولاد : عبدالمطَّلب وحنظلة وأسد وصيفي وابوصيفي . انظر : البَلَاذُري: أنساب الأشراف ، ١/ ٦٤ ، والسَّمعاني: الأنساب ، ١/ ١٥ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٤٣٥ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ٩٤٨ .

(١) شَيبَة الحَمد بن هاشم بن عبد مناف . جدُّ رسول الله ﷺ ، يُكنَّى أبا الحارث . كان سيِّد قُريشٍ حتَّى هلك . وأُمُّه سلَمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ، من الأنصار . كان لعبد المطَّلب من الولد لصُلبه عشرة مِنَ الذكور ، ومِنَ الإناث ست بنات . الذكور : عبدالله ابن عبدالمطلب أبوالنبيِّ ﷺ ، والزبير ، وأبوطالب واسمه عبدمناف ، وحمزة ، والعباس ، وضرار ، والمثقوَّم ، وأبولهب واسمه عبدالعزى ، والغيداق ، واسمه حَجْل ، وسُمَّي غيداقاً لكثرة سماحه وخيره ، والحارث وهو أكبر ولد عبدالمطلب ، وبه كان يُكنى. والإناث : عاتكة بنت عبدالمطلب ، وأُميمة ، والبيضاء وهي أُمُّ حكيم وبَرَّة وصفيَّة ، وأروى . انظر : لبَلَاذُري : أنساب الأشراف ، ١/ ٦٤ و٨٧-٨٩ ، ومحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن موسى الأنصاري التِّلمساني المعروف بالبُرِّي (ت : بعد ٦٤٥هـ) : الجوهرة في نسب النَّبيِّ ﷺ وأصحابه العشرة ، ت : محمد التونجي ، دار الرِّفاعي ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ٢/ ٥ .

(٢) ذكره جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١) : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، ت : مركز هجر للبحوث ، مصر ، ٢٠٠٣م ، (د.ط) ، ٧/ ٦٠٤ ، وعزاه لابن سعد ، انظر : السيوطي : الحاوى للفتاوى ، ٢/ ٢٥٥ .

إنَّما اعتمدوا إلى حدٍّ كبير على سلسلة الأنساب في التَّوراة ، ومن ثَمَّ فقد رفعوا من نَسَبِ قحطان ، على أنَّهم العرب العاربة ، ونزلوا بنسب بني إسماعيل على أنَّهم العرب المستعربة ، على اعتبار أنَّهم أحدث نسبًا من غيرهم ، وبالتالي فهم أقلُّ شأنًا من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربيَّة ، وقد دُسَّ هذا القول في كتب التاريخ ، وهكذا أصبح الكُتَّاب المسلمون مروِّجون لنظرية التوراة في الأنساب ، وجهلوا أو تجاهلوا أنَّ التوراة إنَّما كتبت ذلك لترفع من شأن بني إسحاق على بني إسماعيل ، ولتجعل منهم دون غيرهم الأمَّة المختارة ، وسلسلة النَّسب المصطفاة على بني إسماعيل بالذات ، وجهلوا أو تجاهلوا أنَّ الخليل صلوات الله وسلامه عليه إنَّما كان عربيًّا محضًا والأمر كذلك بالنِّسبة لذرِّيته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم الصَّلاة والسَّلام[١] . علمًا أن ذرية إسماعيل عليه السلام هم العرب ، وهم الفرقة المختارة من ذرية إبراهيم عليه السلام أسكنهم الله بلده الحرام بأمره وجعلهم جيران بيته وسدنته وآمنهم فيها من خوف ، واختار سيد الخلق ﷺ منهم ، يخلق الله ما يشاء ويختار .

أمَّا الأمم البائدة قوم هود ، وقوم صالح ، وإن كانت لغتهم العربية الأصل التي علمها الله عز وجل لأدم وجبلوا عليها وأيضًا من نسل سام بن نوح ، إلا أنهم قوم سوء لا فضل لمن ينتسب إليهم ، ليس لهم بقية نسب بل ليس لهم وجود قد أبادهم الله عز وجل عن آخرهم ، قال تبارك

---

(١) انظر : محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الأدب العربي القديم ، دار المعرفة الجامعية ، ط : ٢ ، ١/ ١٢٠.

وتعـالى : ﴿ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[١] . وأمَّـا أنبيـائهم علـيهم الـسلام وأتباعهم الذين أنجاهم الله من العذاب الذي مس أقوامهم لم يـصلنا خـبر صحيح صريح أنَّ أحداً من قبائل العرب انتسب إليهم ، اللهم إلَّا مـن عـد قحطان اليمن من ولد هود عليه السلام ولا دليل عليه ، وقد بينت بطـلان هذا القول . وما عُرفت الأنساب إلا في ذرية إسماعيل و إبراهيم الكرام لما خصهم الله به ولما لهم من الخصال الحميدة التي كانت العرب تتمدح بها وتتنافسها من بر الوالدين ، وإكرام الضيف ، وحسن الجوار ، والصدق ، والشجاعة ، فكانوا يعرفون أنسابهم ويحفظونها إلى إسماعيل عليه السلام فهم عرب اللغة فصحاء ، وعرب النسب صرحاء ، وعرب الخُلُق كرماء ، وعرب الموطِن والمكان .

ثالثًا : نِسْبة العرب الى أرضهم الأم عربة التي نشؤوا فيها وتفرعوا منها في أنحاء الجزيرة ، وعربة هي : مكة المكرمة بلد الله الحرام التي اختارها الله من بين بقاع الأرض أفضل تهامة ، وأطهر أرض وأشرفها ، واختار أهلها العرب من ولد إسماعيل عليه السلام ، فهي منبع قبائل العرب ومصدرها ، قال إسحاق بن الفرج : عَرَبة : باحة العرب ، وباحة دَار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم . فعربَة هِيَ مَكَّةُ وسَاحاتُها ، قال : وفيهِما يقول قائلهم :

وعَرْبة أَرض مَا يُحِلّ حرامَها   من النَّاس إلّا اللوذعيُّ الحُلاحل

ويَعْنِي بهذا رسول الله ﷺ أُحِلت لَهُ مكَّةُ سَاعَة من نَهَار ، ثـمَّ هِيَ حرَام إِلَى يَوْم الْقِيَامَة . قال : وأقامت قُرَيْش بعرَبة ، فتَنَّخَتْ بهَا وانتشر

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : (٨) .

سَائِر الْعَرَب فِي جزيرتها ، فنُسبوا كلهم إلى عَرَبة ؛ لِأَن أباهم إسماعيل ﷺ بهَا نَشأ (وربل أي كثر أَوْلَاده) فيها فكثروا . فلمَّا لم تحتملهم البِلاد انتشروا وأقامت قُرَيْش بهَا[1] . قال ابن منقذ الثوري من ثور أطحل بن عبد مناة بن أد بن طابخة :

لنا إبل لم يطمث الذل نيبها ... بعربة مأواها بقرنٍ فأبطحا

ولو أن قومي طاوعني سراتهم ... أمرتهم الأمر الذي كان أربحا[2]

وقال أبوسفيان الأكلبي:

أبونا رسول الله وأبن خليله ... بعربة بوانا فنعم المركب

أبونا الذي لم تُرْكب الخيل قبله ... ولم يدر شيخ قبله كيف تُركب[3]

والعربيُّ منسوبٌ إلى العرب . والعربُ جمعُ عربيٍّ ، كرُوم ورُوميٍّ ، وعرِبَةُ ناحيةُ دار إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسَّلام[4] ودار ذريته أسكنهم الله عز وجل مكة وباحتها ، بلد الله الأمين الذي أقسم الله عز وجل بأمنه فقال : ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾[5] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾[6] ، بها بيته الحرام

---

(١) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٢/ ٢٢٢ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١/ ٥٨٧.

(٢) انظر : أدب الخواص ، ص : ٨٧ .

(٣) سبق عزوها .

(٤) انظر : أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) : البحر المحيط في التفسير : ت : صدقي محمد جميل ، دار الفكر - بيروت ، ط : ١٤٢٠هـ ، ٦/ ٢٣٥ .

(٥) سورة التين ، الآية : (٣) .

(٦) سورة العنكبوت ، الآية : (٦٧) .

والمشاعر المقدسة ، مركز الإسلام وقبلة المسلمين أحياءً وميتين ، أسماها الله عز وجل أم القرى ، قلب الجزيرة ومحورها ، وأم العرب ومنقعها ، تولدت فيها ذرية إسماعيل عليه السلام : عدنان ، وقحطان ، ومضر ، وربيعة ، وتكاثرت وتفرعت منها القبائل وانتشرت إلى أنحاء جزيرتها ، التي حفظها الله بموقعها الجغرافي وانقطاعها عن الأرض ، وحفظ أهلها وأنسابهم ولغتهم الخالدة ، إلى بعثة سيد المرسلين ، أشرف الناس نسباً ، وأعظمهم خُلقاً ، وأفصحهم لغة ﷺ . وذلك حين أمر الله عز وجل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قبل آلاف السنين أن يُسكن ابنه إسماعيل عليه السلام عند بيته المحرم قال تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[١] . فاختار الله العرب لجوار بيته الحرام فتولت قريش أمر البيت ، فسميت بأهل الله لأنهم الصَّريح من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السلام[٢] . قال عبد المطلب :

نحن أهل الله في حرمته　　　لم تـزل فينا على عهد قدم
إنَّ للبيت لـربًّا مـانعـًا　　　من يـرده بأثـــامٍ يُخْتَـرَم[٣]

أضف إلى ذلك ما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ونبيل الصفات التي

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٣٧).

(٢) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ، ص : ٢٨.

(٣) انظر : محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ت : خورشيد أحمد فاروق ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص٢٧ .

ورِثُوها من آبائهم أنبياء الله . عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أَنه قال : قُرَيْش هم أَوسط الْعَرَب في العرب داراً ، وأحسنه جِواراً وأعربه ألسنة[١] . ويقال أيضًا في معنى عروب : عربة بوزن فعلةٍ مكسورة العين ، ذكر أبوعبيد ، وكون وزنها فعلة يصح أن المصدر العرب محركًا ، ويكون وجه هذا الاشتقاق أنهم لكرم أخلاقهم ، واتساع جودهم وبشرهم لعارفيهم سموا بذلك[٢] ، فالعروبة إذاً هي الأصالة فاجتمع للعرب أصالة اللغة و أصالة النسب وأصالة الأخلاق ، وأرضهم الأصل عربة التي فيها نشأوا ومنها تفرعوا وبذلك امتازوا ، فما تمايزت الأنساب ولا تباينت الأحساب عند العرب ، إلا ليعرف نسب النبي ﷺ وفضله عليهم جميعًا فهو : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[٣] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، في أعلى أنساب العرب وأشرفها وأعزها بيتًا وأكرمها ، ومع ذلك كان قمة في التواضع والخُلقِ العظيم حيث قال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى..»[٤] . وقال ﷺ أيضًا في حجة

(١) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٢/ ٢٢٢ .

(٢) انظر : أدب الخواص ، ص : ١٠٨ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مبعث النبي ﷺ ، برقم (٣٦٣٨) ، ٣/ ١٣٩٨ .

(٤) مسند أحمد ، ت : التركي ، برقم (٢٣٤٨٩) ، ٣٨/ ٤٧٤ ، وصححه محققو =

الوداع لأصحابه : «ألا إن الله سبحانه وتعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها في آبائها ، كلكم لآدم وآدم من تراب»(١) . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢) . هذا والله تعالى أعلم وأعز وأكرم .

=

المسند . وانظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١١/ ٥٧١.

(١) الأزرقي : محمد بن عبدالله المكي المعروف بالأزرقي (ت : ٢٥٠هـ) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ت : رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس للنشر – بيروت ، ٢/ ١٢١ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : (٧٨) .

حدود جزيرة العرب

مرَّ فيما سبق الكلام عن سبب النِّسبة إلى العرب ، بأنَّ السُّكنَى بأرضهم وبلادهم والنُّطق بلسانهم مع الاعتزاء بالنَّسب إلى آبائهم يكون معه الرَّجل عربيًّا ، فسُكناهم لعرَبَة -مكَّة- ومن ثم انتشارهم منها في سائر أنحاء جزيرتها كان مِن الأسباب الَّتي لأجلها سُمُّوا عربًا ؛ ومن خصائص جزيرة العرب أن بها البيت الحرام الَّذي جعله الله مثابةً للنَّاس وأمنًا ، ومقام إبراهيم عليه السَّلام ، ومهبط الوحي ، ومخرج النُّبوَّة ، ومعدن الرِّسالة ، ومُتبوَّأ إبراهيم ، ومنشأ إسماعيل ، ومولد محمَّد صلى الله تعالى عليهم أجمعين ومبعثه ، ومقطن آل الله[1] ، لذلك قال رسول الله ﷺ لعتَّاب بن أُسيد[2] : «إنِّي مُسْتَخْلِفُكَ على آل الله»[3] ، وإليها كان يسير

---

(١) سُميت قريش بآل الله . انظر : علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت : ٥٧١هـ) : تاريخ دمشق ، ت : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ٣/ ٧٠ .

(٢) عتَّاب -بالتشديد- بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبدمناف ، القرشي الأموي ، يُكنى أبا عبدالرحمن . أسلم يوم فتح مكة ، واستعمله النبي ﷺ على مكة بعد الفتح لما سار إلى حنين . وكان رجلًا خيِّرًا صالحًا فاضلًا . انظر : عزّالدِّين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٣/ ٥٤٩ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٤/ ٣٥٦ .

(٣) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت : ٤٢٧هـ) : الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، ت : أبومحمد بن عاشور ، ت : نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، ٦/ ١٢٨ ، وانظر : محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي (ت : ٨٣٢ هـ) : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ت : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٨م ، ٥/ ١٥٣ .

آدم ، وبها كان قطونه ، وبها أرض يثرب مُهاجر النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وحرمُه ، ومقام الإمامة ، وقطب الخلافة ، ودار العز ، ومحل الإمرة ، بها الوادي المقدَّس طوَى[١] ، وطُور سِيناء[٢] ، ومسجد إيليَاء[٣] ، وآثار الأنبياء ، ومنابت الأتقياء ، ومحافد الأصفياء ، وعرصة المحشر وجبال الرحمة ، ومتعلّق السِّياحة ، والعبادة ، والسَّراة القاطعة من أعلى اليمن إلى أسفل الشام ، وبها بقاع الفصاحة والصباحة واعتدال المزاج وحسن الألوان ، لا الصهبة ولا الزرقة ، ومتوسط النبات في الشَّعر ، لا القطط ، ولا السَّبط ، واسوداد الأحداق ، واحورار المقل ، مع الحميّة والأريحيّة والسخاء والكرم والجود بما تشح به الأنفس ، والصبر بساعة البأس ، وبها أفرس من ركب الخيل فهم لها حزم وحلاس ، وأحسن من امتطى الإبل فهم لها أرباب وأقباس ، وأوفى من تقلَّد ذمَّة ، وأبرع من نطق بحكمة ، وبها المسجد المؤسس على التقوى ، وبها الممالك القديمة ، والآثار العظيمة ، مثل نَاعِطْ[٤] ،

---

(١) المذكور في القرآن : ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ ، وهو موضع في فلسطين عند جبل الطور . انظر: عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٢/ ٨٩٤ .

(٢) سَيْنَا -بكسر أوّله ويفتح- : اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال طور سيناء ، وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى بن عمران ، عليه السلام ، ونودي فيه ، وهو كثير الشجر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٣٠٠ .

(٣) إِيلِيَاءُ -بكسر أوَّله ، واللَّام ، وياء وألف ممدودة- : اسم مدينة بيت المقدس ، عبريّ . قيل : معناه بيت الله . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٢٩٣ ، عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ١/ ١٣٨ .

(٤) نَاعِط -بكسر العَين المهملة ، وطاء مهملة أيضًا-: حصن في رأس جبلٍ بناحية اليمن . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٥٣.

وغُمْـدَان[١] ، وهَكِـر[٢] ، ورَيْـدَان[٣] ، وبَيْنُـون[٤] ، وغَيْمَـان[٥] ، وبِـرْكُ الغِمَادْ[٦] ، وإِرَمُ ذَاتُ العِمَاد[٧][٨] .

والجزيرةُ في اللغة : تعني تلك البقعة من الأرض الَّتي يُحيط بها الماء

---

(١) غُمْدَان -بضم الأوَّل- : حصن برأس جبل في اليمن ، كان لآل ذي يزن. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١٥٣ ، محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة ، ص: ٢٠٩. مع التَّنبيه إلى أنَّ ياقوت الحموي عدَّ غُمدان بالغين المعجمة تصحيفًا وأنَّ الصَّحيح فيها أنَّها عُجمان بالعين المهملة.

(٢) هَكِر-بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، وراء- : حصن باليمن . انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٤٠٩.

(٣) رَيْدَان -بفتح أوّله ، وسكون ثانيه ، ودال مهملة ، وآخره نون-: حصن في اليمن في مخلاف يحصب . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ١١١.

(٤) بَيْنُون بضم النون ، وسكون الواو ونون أخرى : حصن عظيم كان في اليمن قرب صنعاء ، يقال إنه مِنْ بناء سليمان بن داود عليه السَّلام ، والصَّحيح أنَّه مِنْ بناء بعض التَّبابِعَة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٥ .

(٥) غَيْمان : حصن وبلدة في ناحية بني بهلول شرقي صنعاء ، وهو من المواقع الأثريَّة. واسمُه المقلابُ ، بِهِ حائِطٌ مُدَوَّرٌ بِهِ كُوًى على دَرَجِ المِيلِ ، تقع الشَّمس كُلَّ يَوْمٍ في كُوَّةٍ منها ، قال فيه أسعد تبع : وغيمان محفوفة بالكروم ... لَها بهجة ولـهـا منظرُ . انظر : نشوان بن سعيد الحميرى (ت: ٥٧٣هـ) : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ت : حسين العمري ومن معه ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م ، ٨/ ٥٠٤٥ ، الزَّبيدي : تاج العروس ، ٣٣/ ١٩٣ .

(٦) بِرْكُ الغِمَاد -بِكَسْرِ البَاء- : مَوضعٌ قديمٌ معلوم بين حَلْيٍ والقنفذة على السَّاحل الشَّرقي للبحر الأحمر . البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة في السيرة النبوية ، ص : ٤٢ .

(٧) إرَم ذاتُ العماد : بين صنعاء وحضرموت . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ١٥٥ ، زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص : ١٥ .

(٨) ابن الحائك : أبومحمد الشهير بالهمداني (ت: ٣٣٤هـ) : صفة جزيرة العرب ، ط : بريل - ليدن ، ١٨٨٤م ، ص : ٢-٣ .

مِنْ جميع جهاتها شرقـًا وغربـًا وشمالًا وجنوبـًا ، والجَزْرُ بمعنى القَطْع ، ومنه سُمِّيَ الجزَّار جزَّاراً لقطعه أعضاء البهيمة ، والجزيرةُ : ما جزر عن البحر ، يقول ابن دريد[1] : سُمِّيت الجزيرة مِنَ البَحر جَزِيرَةً لانقطاعها عن معظم الأرض[2] . وعلى الجملة فكلُّ مَوضعٍ أَحاط به البحر أو النَّهر أو جز عن وسطه فهو جزيرة[3] .

ويُقال : إنَّما سُمِّيَت بلاد العرب الجزِيرة ، لإحاطة البحار والأنهار بها مِنْ أقطارها وأطرارها ، فصارُوا منها في مِثل الجزيرة مِنْ جزائر البحر[4] .

(١) محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزدي البصري ، صاحب التصانيف ، تنقَّل في فارس وجزائر البحر يطلب الآداب ولسان العرب ، ففاق أهل زمانه ، ثم سكن بغداد ، قال أحمد بن يوسف الأزرق : ما رأيت أحفظ من ابن دريد ، ولا رأيته قرئ عليه ديوان قط إلَّا وهو يسابق إلى روايته . قلت -الذَّهبي- : كان آية من الآيات في قوة الحفظ ، توفي سنة (٣٢١هـ) . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١١/ ٣٩٨ .

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت: ٣٢١هـ): جمهرة اللُّغة ، ت: رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط:١ ، ١٩٨٧م ، ١/ ٤٥٥ ، وانظر: علي بن إسماعيل بن سيده (ت: ٤٥٨هـ) : المخصص ، ت : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ١٩٩٦م ، ٣/ ١٥-١٦ ، وانظر : ابن بطال علي بن خلف (ت : ٤٤٩هـ) : شرح صحيح البخارى ، ت : ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد - السعودية ، الرياض ، ط : ٢ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، ٥/ ٣٤٥-٣٤٦ ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، اعتنى به : محمد فؤاد عبدالباقي ، أخرجه : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩هـ ، ٦/ ١٧١.

(٣) محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ١٦٤.

(٤) محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت: ٢٧٢هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ت: عبدالملك عبدالله دهيش ، دار خضر ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤١٤هـ ، ٣/ ١٤ . وانظر : عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت : ٤٨٧هـ) : المسالك والممالك ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٢م ، ١/ ١٤٤.

قال الخليل[١] : وجزيرة العرب محلَّتها ؛ لأنَّ البحرَين بحرَ فارس[٢] وبحر الحَبَش[٣] ودِجلةَ[٤] والفُرَاتَ[٥] قد أحاطت بجزيرةِ العرب ، وهي

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، الإمام ، صاحب العربية ، ومنشئ علم العروض ، البصري ، أحد الأعلام ، وكان رأساً في لسان العرب ، دَيِّناً وَرِعَاً قانِعَاً متواضعاً كبير الشأن ، يقال : إنَّه دعا الله أن يرزقه علماً لا يسبق إليه ، ففتح له بالعروض . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٧/ ٤٢٩-٤٣٠ .

(٢) هو شُعبةٌ مِنْ بحر الهند الأعظم ، وحَدُّه مِن التِّيز من نواحي مكران على سواحل بحر فارس إلى عبّادان . وهو فوه دجلة الَّتي تصبّ فيه ، وأوَّل سواحله مِنْ جهة البصرة وعبادان . وتمتد سواحله نحو الجنوب إلى قطر وعمان والشّحر ومرباط إلى حضرموت إلى عدن . وبحر فارس وبحر البحرين وعُمان واحدٌ على ساحله الشرقي بلاد الفرس ، وعلى ساحله الغربي بلاد العرب ، وطوله من الشمال إلى الجنوب . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٤٣-٣٤٤ ، ومحمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت: بعد ٣٦٧هـ) : صورة الأرض ، دار صادر ، أفست ليدن ، بيروت ، ١٩٣٨م ، ١/ ٤٢ .

(٣) ويُقال له بحر الحبشة ، لأنَّ الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمّى بهما ، فيقال لجنوبيّه بحر الحبشة ، وللشمالي بحر اليمن ، ولمجموعهما بحر القلزم . وهو المعروف الآن باسم : البحر الأحمر . انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٢١ ، ١/ ٣٤٤ ، و بكر بن عبدالله أبوزيد (ت:١٤٢٩ هـ) : خصائص جزيرة العرب ، ط : ٢ ، ١٤٢١هـ ، ص : ٧ .

(٤) دِجْلَة : من أشهر أنهار العرب ، تأتي مِنْ جبال الأناضول فتلتقي بالفرات فيُكَوِنَان شطَّ العرب ، وعلى ضِفتَي دِجلة تقع مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في صدر الإسلام ، وهي اليوم عاصمة العراق . البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة ، ص : ١٢٦-١٢٧ .

(٥) الفُرَات -بالضمِّ ، ثُمَّ التَّخفيف ، وآخره تاءٌ مثنَّاةٌ مِنْ فوق- : اسم نَهَرِ الكُوفة ، معرُوفٌ . وله اسم آخر وهو فالاذروذ ؛ لأنه بجانب دجلة ، والفرات في أصل كلام العرب أعذب المياه ، قال تعالى : ﴿هذا عَذْبٌ فُراتٌ﴾ ، وقد فرت الماء إذا عذب والفُراتان : الفُراتُ ودُجَيْل . ومخرج الفرات فيما زعموا مِنْ أرمينية ثم من =

أرضها ومعدِنُها[١] . وقد أطلق الكثير مِنَ المعاصرِين مُذْ أواخر القرن الثالث عشر الهجري على بلاد العرب اسم «شبه جزيرة العرب»[٢] ، وهذا الاسم يُخالف مدلُولَه مِنْ حيث المعنَى ؛ لأنَّ كلمة «شبه» أداةٌ مِنْ أدوات التَّشبِيه ، فلَو استخدمنا أحد أسماء التَّشبِيه الأُخرَى بدل كلمة «شبه» كمِثْل -مَثَلًا- لما استقام الاسم ، وهذا لا تقوله العرب ، فالعرب أطلقوا على بلادهم اسم بلاد العرب ، وأرض العرب ، والجزيرة ، وجزيرة العرب ، فإذا كان المراد التَّشبيه ، فالتَّشبيه البليغ هو أن تحذف أداة التشبيه ووجه الشَّبه معًا[٣] ومثاله (بلاد العرب كالجزيرة لإحاطة المياه بها) فإذا حذف

=

قاليقلا قرب خلاط ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم ويجيء إلى كمخ ويخرج إلى ملطية ثم إلى سميساط ويصبّ إليه أنهار صغار نحو نهر سنجة ونهر كيسوم ونهر ديصان والبليخ حتى ينتهي إلى قلعة نجم مقابل منبج ثم يحاذي بالس إلى دوسر إلى الرّقة إلى رحبة مالك بن طوق ثم إلى عانة ثم إلى هيت فيصير أنهارا تسقي زروع السواد . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٤١-٢٤٢ ، وابن منظور: لسان العرب ، ٢/ ٦٥-٦٦ .

(١) الفراهيدي : العين ، ٦/ ٦٢ .

(٢) وكان أول ظهور لهذا الاسم من قبل المستشرق الألماني فردناد واسطون فيلد Ferdinand Wüstenfeld في تحقيقه لكتاب : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، للمقريزي ، طبعة جوتنجن ، ألمانيا عام ١٨٤٧م ، .
انظر : عبدالله بن محمد الغازي المكي الحنفي (ت : ١٣٦٥هـ) : إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ، مع تعليقه المسمى: بإتمام الكلام ، ت : عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، ٤/ ٢٣٥ .

(٣) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت: ١٣٦٢ هـ) : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبطه : يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت (د. ط) ، (د. ت) ص : ٢٤٢ ، وأحمد بن مصطفى المراغي (ت : ١٣٧١هـ) ، علوم البلاغة البيان المعاني ، البديع (د. ط) ، (د. ت) ، ص ٢٣٣ .

وجه الشبه والأداة تصبح (جزيرة العرب) على هيئة مضاف ومضاف إليه ، ولا أشكُّ أنَّ إطلاق هذا الاسم «شبه جزيرة العرب» كان مِنْ مصادر غَير عربيَّة ، فرسول الله ﷺ أبلغ الخَلق ، أُوتيَ جوامع الكلم ، قوله حقٌّ لا ينطق عن الهوى ؛ سمَّاها جزيرة العرب ، سيَّما وأنَّ قولَه يترتَّب عليه أحكامٌ شرعيَّة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «أَخْرِجُوا المُشْرِكِيْنَ مِنْ جَزِيْرَةِ العَرَب»[1] . وقال ﷺ : «لا يَجْتَمِعُ دِيْنَانِ في جَزِيْرَةِ العَرَب»[2] ، وقال ﷺ : «لا يُترَكُ في جَزِيْرَةِ العَرَبِ دِيْنَان»[3] ولعلَّ المراد مِنْ هذه الأحاديث أن لا يحكم في جزيرة العرب دينان أي دولتان ، على دينَين مختلفَين ، دين الإسلام ودين الكفر بشتَّى مِلَلِه ، كون الدَّولة هي المطبِّقة للدِّين والآمرة به ، وبما أنَّ الجزيرة أصبحت مهدًا للإسلام ، وقِبلةً للمسلمين يستقون منها تعاليمه ، وفيها بيوت الله المقدسة الَّتي تشدُّ إليها الرِّحال .لذا لا ينبغي قيام دولة كُفرٍ فيها بعد وَأْدِ النَّبيِّ ﷺ لنفُوذِها ، وإلَّا سيكون إعانةً على إعادة انتشار الشِّرك فيها من جديد وفي مَنْ يفد إليها ، لذلك أوصى رسول الله ﷺ بتوحيدها على دين الإسلام ، أمَّا عن أهل الكتاب الَّذين كانوا مُستَوطِنِين جزيرةَ العرب تحت صَغَار الجزية فإنَّ النَّبيَّ ﷺ همَّ بإخراجهم مِنها ، ونَدَب أُمَّتَه إلى ذلك في قوله ﷺ : «لَإِن

(١) صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، برقم (١٦٣٧) ، ٣/ ١٢٥٧ .

(٢) موطأ الإمام مالك ، كتاب الجامع ، باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة ، ٢/ ٤٧١ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٣/ ٣٧١ ، برقم (٢٦٣٥١) ، عن عائشة ، وصححه محققوا المسند .

عِشتُ -إِنْ شَاءَ الله- لأُخْرجنَ اليهودَ والنصارى من جزيرةِ العربِ»[١] .
وحديث أبي عبيدة بن الجراح الذي قال فيه ﷺ لأصحابه : «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران مِنْ جزيرة العرب»[٢] فَهَمُّ النَّبيِّ ﷺ بهذا الأمر وأمره لأصحابه به هو للنَّدب لا للوُجُوب ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مات ودرعه مرهونةٌ عند يهوديّ ، وأيضًا لم يُخرج أهل نجران ولا يهود خيبر وهُم تحت حكم الإسلام ، ولم يخرجهم أبوبكر رضي الله عنه ، وكذلك عمر رضي الله عنه لم يُخرجهم إلَّا لجرمٍ فعلُوه مِنْ نقض أهل نجران للصُّلح[٣] ، وغدر يهود خيبر برسوله الذي بعثه إليهم[٤] ، والله تعالى أعلم[٥] . فالنصُّ النَّبويُّ إذن جاء صرِيحًا في تَسميَة بلاد العرب بجزيرةِ العرب وليس (شبه جزيرة العرب) ، هذا فيما يخصُّ جزيرة العرب وخصائصها مع تعريفها وسبب تسميتها ، وأمَّا الكلام عن مَوقعها وحدُودها فإنَّ العلماء من المُحدِّثين والمؤرِّخين والجغرافيِّين قد

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد والسير ، برقم (١٧٦٧) ، ٣/ ١٣٨٨ ، ومسند الإمام أحمد ، برقم (٢١٥) ، ١/ ٣٤١ واللفظ له .

(٢) مسند الإمام أحمد ، برقم (١٦٩٩) ، ٣/ ٢٧٧ ، وصحَّحه الألباني . انظر : محمَّد ناصر الدِّين الألباني : السِّلسلة الصَّحِيحَة ، برقم (١١٣٢) ، ٣/ ١٢٤.

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب إذا أشترط للمزارعة إذا شئت أخرجتك ، برقم (٢٥٨٠) ، ٢/ ٩٧٣ .

(٤) انظر : أبو عبيد القاسم بن سلَّام : كتاب الأموال ، برقم (٢٧٦) ، ص : ١٢٩.

(٥) قد بَسَطَ الشيخ الألباني -رحمه الله- القَول عن هذه المسألة في جوابٍ صَوتيٍّ له ضمن سلسلة الهُدَى والنُّور ، وذكر التَّفريق بين الحكم للكيان الكافر في جزيرة العرب والإقامة لأفراد الكفرة فيها ، فليُراجع قَوله . انظر : سلسلة الهُدى والنُّور ، الشَّريط ٤٨١ ، د : ٢٧-٤٠ .

اعتنَوا بها تألِيفًا[١] ، أو بالكلام عنها في كُتُبِهِم تضمِينًا[٢] ، ومن أشملِ ذلك قول الهمْداني[٣] الذي راح يتتبَّع حدُود جزيرة العرب في كتابه «صفة جزيرة العرب» قائلًا : «أفضل البلاد المعمورة هي الجزيرة الكبرى ، الَّتي تقطع على أربعة[٤] أقاليم ، مِنْ عمران الشَّمال إلى الخامس ، فجنوبيها :

---

(١) كثيرٌ من عُلماء الإسلام منَ المتقدِّمِين والمتأخِّرِين خصُّوا جزيرة العرب بالتَّألِيف ، سواءً من جهة خصائصها أو من ناحية جُغرافيَّتِهَا ، فعلى سبيل التَّمثيل : كتاب «صفة جزيرة العرب» لابن الحائك الهمْداني من المُتقدِّمِين ، ومن المعاصرين كتاب «خصائص جزيرة العرب» ، للشيخ بكر أبوزيد .

(٢) قلَّ أن تجد كتابًا من كُتب الحديث المُصنَّفة ، أو كتب الفقه المُبوَّبة ، أو كُتب الأنساب ، أو كُتب التَّواريخ والبلدان لم يُعنَ صاحبه بتضمِين كتابه ذِكرَ جزيرة العرب وحدُودِها -على تفاوتٍ بينَهم في البَيان- ، وذلك لِمَا لها مِنْ أحكام شرعيَّةٍ تخصُّها وفضائل حَوَتها ؛ فعلى سبيل التَّمثِيل : فمِنْ كُتب الحديث كِتاب صحيح البخاري ، في كتاب الجهاد والسِّير ، بَابٌ هل يُستشفع إلى أهل الذِّمَّة ومُعاملتهِم ، برقم (٢٨٨٨) ، ٣/ ١١١١ ، مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ٦/ ١٧٠-١٧١ . ومِنْ كُتب الفقه كِتاب المغني لابن قُدامة المقدسي ، ١٣/ ٢٤٢-٢٤٤ . ومِنْ كُتُب الأنساب كِتاب الأنساب للصَّحاري ، ص: ٢٨ . ومِنْ كُتُب البلدان كِتاب معجم البلدان لياقوت الحموي ، ٢/ ١٣٧ ..وغيرها كثير .

(٣) الحسين بن أحمد الهمداني : المعروف بابن الحائك ، مُؤرِّخ ، عالم بالأنساب ، عارف بالفلك والفلسفة والأدب ، شاعر مُكثر ، اللُّغوي النَّحوي ، صاحب التصانيف ، نادرة زمانه ، وكان جده يعرف بالحائك ؛ لأنَّهُ كان شاعراً يحوك الكلام . له : عجائب اليمن ، وجزيرة العرب وبلادها ، وغيرها ، مات سنة ٣٣٤هـ . محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت : ٨١٧هـ) : البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ، دار سعد الدين للطباعة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م ، ص : ١٢٣-١٢٤ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ١٧٩ .

(٤) ذكر أنَّها أربعة أقاليم ، ثم لمَّا عدَّ خمسةً تفصيلًا -شمالًا ، وجنوبًا ، ثمَّ غربًا ، وشرقًا ، وخامسها الوسط- .

اليمن ، وشماليها : الشام ، وغربيها : شرم أَيْلَة[١] وما طردته من السواحل إلى القُلْزُم[٢] وفُسْطَاط مِصْر[٣] ، وشرقيها : عُمان والبحرين وكاظمة[٤] والبصرة ، ومَوسطها : الحجاز وأرض نجد والعروض ، وتُسَمَّى جزيرة العرب . ثُمَّ ذكر طول الجزيرة وعرضها بعد أن فصَّل في درجات الطول والعرض بكُلِّ دِقَّة حتَّى أثبت أنَّ عرض جزيرة العرب ثمانمائة ميل ، ثُمَّ قال : فإذا قسمناها على أميال المرحلة للمُجِدِّ في السَّير ، خرج لنا أربعون مرحلة ، ثُم ذَكر طُولها بأنَّه ألف وخمسمائة وثلاثة وثلاثون ميلًا ، ثُمَّ قال : فإذا قسَّمناها على أميال المرحلة للمُجِدِّ في السير خرج لنا سِتٌّ وسبعون وثلثا مرحلة ، وهذا طول هذه الجزيرة وعرضها القراري من أسفلها ، فأمَّا عرضها من أعلاها ، فهو بناحية عدن

(١) أَيْلَة –بالفتح-: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشَّام . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٢٩٢ .

(٢) القُلزُم : مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر ، وبها يُعرف البحر فيُقال بحر القلزم ، وسُمِّي القُلْزُم ؛ لأنَّهُ في مضايق بين جبال . انظر : محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٤٦٦ .

(٣) مدينة بناها عمرو بن العاص ، وجعلها معسكراً للعرب الذين فتحوا مصر ، وبني فيها جامعه الَّذى ما زال قائمًا ، فالفُسْطَاط اليوم هو مدينة مصر القديمة الَّتي تُعتبر بعض أحياء القاهرة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٦١ ، عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت: ٧٣٩هـ) : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، دار الجيل ، بيروت ، ط ، ١ ، ١٤١٢هـ ، ٣/ ١٠٣٦ .

(٤) كاظمة –بالظَّاء المعجمة- جوٌّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٤٣١ ، وعاتق بن غيث البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، دار مكة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، ط : ١ ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، ص : ١٤١ ، ومحمد حسن شرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٢٩ .

أبين قليل ، ثُمَّ يزداد فيها السَّعة أكثر ، من ناحية المشرق إلى حضرموت فبلد مَهَرَة[١] فعُمان ، ويميل البحر حيث ما دخل في تهامة الشيء بعد الشيء إلى المغرب حتَّى يكون ميلها مِنْ سواحل الحجاز إلى القُلزم نحو المغرب أكثر ، فصارت هذه الجزيرة تقطع على أشرف الأقاليم في مَوسطها ، وصار فيها ما تسامتها الشَّمس والكواكب الجارية مرتَّين في الثَّور والأسد ، وفي الجوزاء والسرطان ، وهي أقرب العمران من خط الاستواء[٢] .

أمَّا عن وضع هذه الجزيرة في المعمور من الأرض وموضعها منه : اعلم أنَّ الأرض ليست بمنسطحة ، ولا ببساط مستوي الوسط والأطراف ، ولكنها مقبَّبة[٣] ، وذلك التقبيب لا يبين مع السَّعة ، إنَّما يبين تقبيبها بقياساتها إلى أجزاء الفلك ، فيقطع منها أفق كل قوم على خلاف ما يقطع عليه أفق الآخرين طولًا وعرضًا في جميع العمران ، ولذلك يظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها أهل الشمال ، ويظهر على أهل

(١) مهَرَة – بالتحريك– قال ياقوت الحموي : «يرويه عامَّة الناس مَهْرة –بالفتح ثُمَّ السُّكون– ، والصَّحيح مَهَرَة بالتَّحريك ، وجدتُه بخطوط جماعة مِنْ أئمَّة العلم القُدماء لا يختلفون فيه ، .. ومَهَرة قبيلةٌ ، وهي مَهَرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، تُنسب إليهم الإبل المهريّة» . انظر : معجم البلدان ، ٥/ ٢٣٤ ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت : ٦٨٢هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر – بيروت ، (د.ت) ، ص : ٦٢ .

(٢) ابن الحائك : الهمداني (ت: ٣٣٤هـ) : صفة جزيرة العرب ، ط : بريل – ليدن ، ١٨٨٤م ، ص : ١–٢ .

(٣) القُبَّة : بِناء مستدير مقوَّس مجوَّف يعْقد بالآجر ونحوه ، وخيمة صغيرة أعلاها مستدير . انظر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، مادة : (قبب) ، ٢/ ٧٠٩ .

الشمال ما لا يراه أهل الجنوب ويكون عند هؤلاء نجوم أبدية الظهور والمسير حول القطب ، وهي عند أولئك تظهر وتغيب ، وسأضع لك في ذلك مقياسًا بينًا للعامة ، من ذلك أن ارتفاع سهيل بصنعاء وما سامتها إذا حلق ، زيادة على عشرين درجة ، وارتفاعه بالحجاز قرب العشر ، وهو بالعراق لا يُرى إلا على خط الأفق ، ولا يرى بأرض الشمال ، وهو بهذه القياسات قد أثبت كروية الأرض في ذلك التاريخ . كما أنَّ شروق الشمس على أرض دون أرض يثبت هذا المعنى ، فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالنقطة في الدائرة [١] .

ثُمَّ تابع تحدِيدَ الجزيرة بالبحار والأنهار قائلًا : وإنَّما سُمِّيت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها ، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أنَّ الفُرَات القافل الرَّاجع مِنْ بلاد الرُّوم يظهر بناحية قِنَّسرين [٢] ثم انحطَّ على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأُبُلَّة [٣] وامتد إلى

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٥/ ١٩٥.

(٢) قِنَّسرين –بكسر أوله ، وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثم سين مهملة–: مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، كانت عامرة آهلة ، فلمَّا غلب الروم على حلب فى سنة ٣٥١هـ خاف أهلها وجلوا عنها وتفرَّقوا فى البلاد ، ولم يبق بها إلَّا خان تنزله القوافل . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٤٠٣ ، وعبد المؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١١٢٦ .

(٣) الأُبُلَّة : مدينة صغيرة خصبة عامرة ، حد لها نهر الأبلة إلى البصرة وحد لها دجلة. إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري (ت: ٣٤٦هـ) : المسالك والممالك ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، (د.ت) ، ١/ ٥٧ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٧٧ .

عَبَّادان[١] وأخـذ البحر من ذلك الموضع ببلاد العرب منعطفًا علَيها فـأتَى مِنهـا علـى سَـفَوَان[٢] وكَاظِمَـة ونفـذ إلـى القَطِيْـف وهَجَـر[٣] وأسـياف البحرَين[٤] وقَطَر وعُمان[٥] والشِّحْر[٦] ، ومالَ منه عنق إلى حضرموت وناحيـــــــة أَبْـــــــــيَن[٧] وعَـــــــــــدَن ،

---

(١) عَبَّادان –بتشديد ثانِيه ، وفتح أوَّله– : مدينة صغيرة قرب البصرة. الإصطخري : المسالك والممالك ، ١/ ٣١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٧٤.

(٢) سَفَوَان –بفتح أوّله وثانيه ، وآخره نون–: ماءٌ على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة ، وبه ماء كثير . السافي : وهو التراب ، قال وأنشدني أعرابي : جارية بسَفَوَان دارها ... تمشي الهوينا مائلًا خمارها . انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٢٢٥ .

(٣) هَجَر –بفتح أوَّله وثانيه– : مدينة كبيرة قاعدة بلاد البحرين ، ذات خيرات كثيرة من النخل والرمان والتين والأترج والقطن . وبقلالها شبه رسول الله ﷺ نبق الجنة .انظر : زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص : ٢٨٠ ، ومحمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثِيرة ، ص: ٢٩٣ .

(٤) كان اسمًا لسواحل نجد بين قطر والكويت ، وكانت هجر قصبته ، وهي الهفوف اليوم ، وقد تُسمى «الحسا» ، ثُمَّ أُطلق على هذا الإقليم اسم الأحساء حتَّى نهاية العهد العثماني . وانتقل اسم البحرين إلى جزيرة كبيرةٍ تواجه هذا السَّاحل مِنَ الشرق كانت تسمى «أُوَال» ، وهي إمارة البحرين اليوم . محمَّد حسن شُرَّاب: المعالم الأثِيرة ، ص : ٤٤ . وأمَّا أسيافُها فمعناه : ساحلها . ففي حديث جابر : «فأتينا سِيْفَ البحر» ، أي : ساحله . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٤٣٤ .

(٥) عُمَان –بضمِّ أوَّله ، وتخفيف ثانِيه ، وآخره نون–: اسم كُورةٍ عربيَّةٍ على ساحل بحر اليمن والهند ، تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١٥٠ .

(٦) الشِّحْر –بكسر الشِّين– : ناحيةٌ بين عدن وعُمان على ساحل البحر . وقِيل : بلاد ساحليَّةٌ في حضرموت . ينسب إليها العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحلها . زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص : ٤٧ ، ومحمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثِيرة ، ص : ١٤٨ .

(٧) أَبْيَن –بفتح الأوَّل ، بعده باء مُوَحَّدة وياء مثناة ونون–: قريةٌ باليمن مِن جهات عدن . =

ودَهْلَك[١] ، واستطـال ذلك العُنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فَرَسَان[٢] وحَكَم[٣] والأشعَرِيِّين[٤] وعَكٍّ[٥] ، ومضى إلى جُدَّة ساحل مكَّة والجَار[٦]

=

ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٨٦ ، ومحمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثِيرة ، ص : ١٧.

(١) دَهْلَكْ -بفتح أوَّله وسكون ثانيه ، ولام مفتوحة ، وآخره كاف ، جزيرة في بحر اليمن وهو مرسى بين اليمن والحبشة ، وهي بلدة ضيِّقة حارَّة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤٩٢ ، وعبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٢/ ٥٤٦.

(٢) فَرَسَان -بالتَّحريك-: تثنيَّة فرس ، عنق من البحر مال إلى ناحية عدن ودهلك ، وطعن في تهائم اليمن في بلاد فرسان ، وهي قبيلة من تغلب والحكم بن سعد العشيرة ، وكل ذلك يقال له سواحل فرسان ، وهناك جزائر يقال لها : جزائر فرسان . انظر : عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٠٢٧ .

(٣) حَكَم -بالتحريك- : مخلاف باليمن ، سُمِّي بالحكم بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢٨٠ .

(٤) قبيلةٌ قحطانية تنسب إلى الأشعر بن أدد من كهلان بن سبأ ينسب إليها أبوموسى الأشعري . انظر : أحمد بن علي القلقشندي (ت : ٨٢١هـ) : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، ط : ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص : ١٠٥ ، محمد الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ص : ٧ .

(٥) عَكّ -بفتح أوله-: قبيلةٌ تُنسب إلى عك بن عدنان بن عبدالله بن الأزد ، يُضاف إليها مخلافٌ باليمن ، ومقابله مرساها دهلك . انظر : الصَّحاري العَوتبِي: أنساب العرب ، ص: ١٧٤ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١٤٢ .

(٦) مدينةٌ على ساحل بحر القلزم ، بينها وبين المدينة يومٌ ولَيلةٌ ، وبينها وبين أيلة نحو مِنْ عشر مراحل ، وإلى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٩٢.

ساحل المدينة ، وساحل الطُّور ، وخليج أَيْلَة وساحل راية -كورة من كور مصر البحريَّة- حتَّى بلغ قُلْزُم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النِّيل مِنْ غربي هذا العنق مِنْ أعلى بلاد السُّودان مُستَطِيلًا مُعارضًا للبحر معه حتَّى دفع في بحر مصر والشَّام[١] ، ثُمَّ أقبل ذلك البحر مِنْ مصر حتَّى بلغ بلاد فلسطين فمرَّ بعَسْقَلان[٢] وسَوَاحلها وأتى على صُوْر[٣] بساحل الأردن وعلى بيروت وذوَاتها مِنْ سواحل دمشق ، ثُمَّ نفذ إلى سواحل حِمْص[٤] وسواحل قِنَّسْرين ، حتَّى خالط النَّاحية الَّتي أقبل مِنها الفُرَات مُنحطًا على أطراف قِنَّسْرين والجزيرة[٥]

---

(١) وهو ما يُعرف اليوم بالبحر الأبيض المتوسِّط .

(٢) عَسْقَلان -بفتح أوَّله ، وسكون ثانيه ثُمَّ قاف وآخره نُون-: مدينة بالشَّام ، بينها وبين فلسطين مرحلة ، فتحها معاوية سنة ٢٣هـ ، وبينها وبين الرَّملة ستَّة فراسخ ، وهي معدودة مِنْ فلسطين . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١٢٢ ، ومحمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٤٢٠ .

(٣) صُوْر -بالضَّم ، ثُمَّ السُّكون وآخره راء- : مدينةٌ مشهورةٌ عظيمةُ القدر ، كانت مِنْ ثغُور المسلمين مُشرفةٌ على بحر الشَّام ، داخلةٌ في البحر مِثل الكفِّ على السَّاعد ، حصينةٌ جدًا لا سبيل إليها إلا بالجدِّ ؛ لأنَّ بينها وبين عكَّة سِتَّة فراسخ . انظر: عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٢/ ٨٥٦ .

(٤) حِمْص -بالكسر ، ثُمَّ السُّكون والصَّاد مهملةً- : بلد مشهورٌ كبيرٌ مسوّر ، في طرفه القبلي قلعة حصينة على تلٍّ عالٍ كبيرٍ ، بين دمشق وحلب . عبد المؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ١/ ٤٢٥.

(٥) هي بين دِجلَة والفُرات ، مجاورةٌ للشَّام ، تشتمل على ديار مُضر وديار بكر ، سُمِّيت بالجزيرة لأنَّها بين دِجلة والفُرات ، وهُمَا يُقبلَان مِنْ بلاد الرُّوم وينحطَّان مُتَسَامِتَين حتَّى يلتقيَا قُرب البصرة ، ثُمَّ يصبَّان في البحر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ١٣٤.

إلى سَوَاد العراق[١][٢] .

ثُمَّ بعد ذلك رَاح يُقَسِّمُ جزيرة العرب إلى عِدَّة أقاليم بقَوله : «فصارت بلاد العرب مِنْ هذه الجزيرة الَّتي نزلوا بها ، وتوالدُوا فيها على خمسة أقسام عند العرب وفي أشعارها : تِهَامة[٣] ، والحجاز[٤] ،

---

(١) ما بين عبَّادان إلى الموصل طُولًا ، ومِنَ القادسيَّة إلى حلوان عرضًا .فتحها عمر رضى الله عنه وقسَّمها بَين الغانِمين ثُمَّ سألهم أنْ يردُّوا ففعلُوا. انظر: المجموع شرح المهذب : النووي (ت : ٦٧٦هـ) ، دار الفكر ، ١٩/ ٤٥٤ .

(٢) ابن الحائك الهمداني: صفة جزيرة العرب ، ص : ٤٧ .

(٣) تِهَامَة -بكسر أوّله-: تُطلق على الأرض المنكفِئَة إلى البحر الأحمر مِنَ الشَّرق ، فتِهامة تُساير البحر مِنَ العقبة في الأردن إلى «المخا» في اليمن ، وفي اليمن تُسمَّى تِهَامة اليمن ، وفي الحجاز تُسمَّى تِهامة الحجاز ، ومعنى تِهامة والغَور واحد ، فمكَّة مِن تِهامة كما أنَّ المدينة مِنْ الحجاز ، وطرف تِهامة مِنْ قِبَل الحجاز : مدارج العَرج ؛ وأوّلها مِنْ قبل نجد : مدارج ذات عرق . وسُمِّيت تِهامة لتغيُّر هوَائِها ، مِنْ قولهم : تَهِم الدُّهن وتمه : إذا تغيَّرت رائحته . انظر: عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت : ٤٨٧هـ) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ١/ ٧ ، و١/ ٣٢٢ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٦٣ ، و محمد بن عبدالله الحميرى : الروض المعطار ، ص : ١٤١ ، ومحمد حسن شُرَّاب: المعالِم الأثِيرة ، ص : ٧٣ .

(٤) الحِجَاز -بالكسر ، وآخره زاي-: جبلٌ مُمتدٌّ حالٌّ بين الغَور -غور تهامة- وهو هابطٌ ، ونجدٍ وهو ظاهر ، فكأنَّه مَنَع كلَّ واحدٍ منهما أن يختلِط بالآخر ، فهو حاجزٌ بينهما ، وهو جبل السَّرَاة ، أقبَل مِنَ اليمن ، وهو أعظم جبال العرب حتَّى بلغ أطراف بوادي الشَّام ، فسمته العرب حجازاً . والحجاز حجازان : الحجاز الأسود ، وحجاز المدينة ، والحجاز الأسود هو سراة شنوءة . ومعنى حجاز وجلس واحد . انظر : البكري ، معجم ما استعجم ، ١/ ٧ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢١٨ ، و محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار ، ص : ١٨٨.

ونجد[١] ، العَرُوض[٢] ، واليَمَن[٣]» .

ثم أقبَلَ على تفصِيل الكلَام عن أشهرها ، ألَا وهو الحجاز ، فقال : «وذلك أنَّ جبل السَّراة[٤] وهو أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل مِنْ

---

(١) نَجْد -بفتح أوَّله ، وسكون ثانِيه ، كانت العرب تقول : كلُّ ما ارتفع عن تِهامة فهو نجد ، فهي ترعى بنجد وتشرب بتهامة ، وقد سبق بيان أنَّ جبل السّراة هو الحدُّ بين تهامة ونجد . فنَجدٌ بين جرش إلى سواد الكوفة . وآخر حدوده ممَّا يلي المغرب الحجازان . وأصقاع نجد المعروفة في أيامنا هذه : الرياض وما حولها ، والقصيم وسدير والأفلاج واليمامة والوشم وحائل ، والقدماء قد يعدّون ما كان على مسافة مائة كيل من شرقي المدينة : «نجداً» . انظر: البكري ، معجم ما استعجم ، ١/ ١٣ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٦١-٢٦٢ ، ومحمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار ، ص : ٥٧٢ ، ومحمد حسن شُرَّاب : المعالِم الأثِيرة ، ص : ٢٨٦ .

(٢) العَرُوضُ -بفتح أوَّله ، وآخره ضاد-: بلاد اليمامة والبحرين وما والاها . وسُمِّيَت تلك النَّاحية بالعَرُوض لأنَّها مُعترضةٌ في بلاد اليمن والعرب ما بين تخوم فارس إلى أقصى أرض اليمن مستطِيلةً مع ساحل البحر . انظر: البكري : معجم ما استعجم ، ١/ ١٠ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١١٢ ، ومحمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٤٠٩.

(٣) ابن الحائك الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص : ٤٧-٤٨ .

(٤) السَّراة -بفتح أوَّله -: والجمع سَروَات ، وهو أعظم جبال بلاد العرب . وهي الجبال والأرض الحاجزة بين تِهامة ونجد ولها سعة . وجاء في سبَب تسميَّته بالسَّراة أنَّ الحجاز وهو جبال تحجزُ بين تِهامة ونجدٍ يُقال لأعلاها السَّراة كما يُقال لظهر الدَّابَّة السَّراة . وقالوا -أيضًا-: والسَّروَات ثلاث: سراةٌ بين تِهامة ونَجدٍ ، أدناها الطَّائف وأقصاها قرب صنعاء ، والطَّائف من سراة بني ثقيف ، وهو أدنى السَّروات إلى مكّة ؛ ومعدن البرم هو السَّراة الثَّانية ، وهو في بلاد عدوان ، والسَّراة الثالثة أرضٌ عاليَةٌ وجبالٌ مُشرفةٌ على البحر مِنَ المغرب وعلى نجد مِنَ المشرق . انظر : البكري : معجم ما استعجم ، ٣/ ٧٣٠ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٢٠٤-٢٠٥.

قعرة اليمن حتَّى بلغ أطراف بوادي الشام ، فسمَّته العرب حجازاً ؛ لأنَّهُ حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر ، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيِّه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريِّين وعكٍّ وحَكَم وكِنانة[١] وغيرها ودُونها إلى ذات عرق[٢] والجُحْفَة[٣] وما صاقبها ، وغار من أرضها الغور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله . وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسَّمَاوَة[٤] وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله . وصار الجبل نفسه سراته وهو

---

(١) قبيلةٌ عظيمةٌ مِنَ العدنانيَّة ، وهم بنو كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان. كانت ديارهم بجهات مكة ، وتنقسم إلى عدة بطون ، منها : قريش وعبد مناة بن كنانة وبنو مالك ابن كنانة وبنو الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وبنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وبنو فراس بن غنم ابن ثعلبة بن مالك بن كنانة . انظر : البَلَاذُري : أنساب الأشراف ، ١/ ٣٧ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١١ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ٩٤٨ .

(٢) بقرب أوطاس وبينها وبين وجرة سبعة وعشرون ميلًا ، وذات عرق ميقات أهل العراق ، وهو منزل كثير الأهل والشجر وماؤه من البرك ، والمسجد الذي في ذات عرق الكبير الذي فيه المنبر مسجد النبيِّ ﷺ ، ومن ذات عرق إلى بستان ابن عامر اثنان وعشرون ميلًا ، ومن بستان ابن عامر إلى مكة أربعة وعشرون ميلًا . انظر : عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطِّلاع ، ٢/ ٩٣٢ ، ومحمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار ، ص : ٢٥٦ .

(٣) الجُحْفَة - بالضمِّ ، ثُمَّ السُّكُون-: قريةٌ كبيرةٌ بين مكة والمدينة ، تقع شرق رابغ مع ميل إلى الجنوب على مسافة اثنين وعشرين كيلا ، وهي ميقات أهل مصر. ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ١١١ ، ومحمد حسن شُرَّاب : المعالِم الأثِيرة ، ص : ٨٨ .

(٤) بادية السَّماوة -بفتح أوَّله ، وبعد الألف وَاو-: الَّتي هي بين الكوفة والشَّام . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٢٤٥ .

الحجاز ، وفي رواية الجر ، والجرّ سفح الجبل . قال قيس بن الخطيم[(١)]:

سَلِ المرءَ عبدالله بالجرِّ هل رَأَى　　كَتَائِبَنَا في الحَرْبِ كيفَ مصاعها[(٢)]

وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد[(٣)] وجبلي طيّءٍ إلى المدينة وراجعًا إلى أرض مَذْحِج[(٤)]

---

(١) قيس بن الخَطِيم بن عدي الأوسي(ت : نحو ٢ ق هـ) ، شاعر الأوس ، وأحد صناديدها في الجاهلية ، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما ، وقال في ذلك شعراً ، أدرك الإسلام وتريث في قبوله ، فقتل قبل أن يدخل فيه . انظر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) : الإصابة في تمييز الصحابة ، ت : عادل عبدالموجود ، وعلى معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ ، ٥/ ٤١٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٢٠٥ .

(٢) قيس بن الخطيم : ديوانه ، ت : د.ناصر الدين الأسد ، دار صادر – بيروت ، ١٩٦٧م ، ١/ ١٤٢ .

(٣) فَيْد : مدينة في نصف الطريق بين مكة وبغداد ، وأهلها طيء ، وهي في أصل جبلهم المعروف بسلمى . وفيها مات وكيع بن الجراح منصرفًا من الحج سنة سبع وتسعين ومائة . انظر : محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٤٤٣ .

(٤) مَذْحِج –على وزن مَسْجِد–: بطنٌ مِنْ كهلان ، من القحطانيَّة ، وهم : بنو مذحج – واسمه : مالك بن أدد– بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، فمالك بن أدد هو جماع مذْحج . يتفرع من هذا البطن أفخاذ كثيرةٌ . وكان أغلبهم يسكنون اليمن . ووَلَد مالك بن أدد : جلد ، ويحابر –وهو مراد– ، وزيد –وهو عنس– ، وسعد العشيرة –وإنَّما سُمِّي سعد العشيرة لأنَّه كان يركب مِن ولده لصلبه في ثلاثمائة فارس– ، ولميس –وهم أهل بيت قليل دخلوا في عنس– . انظر : هشام الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٢٦٧ ، والجوهري : الصِّحاح ، ١/ ٣٤٠ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٠٥ ، وابن عبد البر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ١٢٠ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص: ٤٠٥ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١٠٦٢ .

من تَثْلِيث[١] وما دونها إلى ناحية فَيْد ، حجاز ، فالعرب تسمِّيه نجداً وجلساً وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كُله . وكان سعيد بن المسّيب[٢] يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض مادت بأهلها ، فضربها بهذا الجبل ، يعني السراة ، ومبدؤه من اليمن حتى بلغ الشام فقطعته الأودية حتى انتهى إلى نخلة فكان منها حيص[٣] ويَسُوْم[٤] ويُسَمَّيان : يَسُوْمَين ، كما يقال القمران في الشمس والقمر والعمران في أبي بكر وعمر قال الراجز :

يا نَاقُ سِيْرِيْ قَدْ بَدَا يَسُوْمَان　　فَاطْوِيْهِمَا تَبْدُ قَنَانُ غَزْوَانْ[٥]

غزوان جبل عرفة العالي ، ثم طلعت الجبال بعد منه وكان منها الأبيض جبل العرج وقُدْس[٦] ، وآرة[٧] والأشعر والأجرد ، وهذه جبال

---

(١) تَثْلِيث : واد بنجد وهو على يومين من جرش في شرقيها إلى الجنوب وعلى ثلاث مراحل ونصف من نجران إلى ناحية الشمال ، وقالوا : تثليث لبني زبيد وهم فيها إلى اليوم . انظر : محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ١٣١ .

(٢) سعيد بن المسيب ابن حزن بن أبي وهب ، عالم أهل المدينة ، وسيد التابعين ، ولد بعد عامين من خلافة عمر رضي الله عنه ، توفي سنة ٩٣ أو ٩٤هـ . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤/ ٢١٧ .

(٣) انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٤٨ .

(٤) يسوم : مضارع سام : جبل في بلاد هذيل . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٤٣٧ ، عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٤٧٩ .

(٥) انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٣٤/ ١٣٩ .

(٦) قُدْس : سلسلة جبلية في الحجاز تشرف على مضيق الفرع جنوباً ، وتمتد شمالًا إلى قرب الطريق من مكة إلى المدينة ، بين ملل والعقيق ، يبلغ طولها قرابة (١٥٠) كيلًا وارتفاعها (٢٠٤٩ م) . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٢٢ .

(٧) قال عرّام بن الأصبغ : آرة جبل بالحجاز بين مكة والمدينة ، يقابل قدساً ، من =

ما بين مكة والمدينة عن يمين الخارج من مكة إلى المدينة ويسار الصادر إلى مكة .

قال عمرو براق الثُّمالي من الأزد[1] :

أَرْوَى تِهَامَـةَ ثُـمَّ أَصْبَحَ جَالِسًا بِشُعُوْفَ بَيْنَ الشَّثِّ والطُّبَّاقِ[2]

وقد يقال فيه ابن برّاقة وإنما عمرو بن براقة من همدان ثُمَّ من نَهْم ، وكان شاعراً شجاعًا وهو القائل في كلمته الميمية :

وكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُم فَهَلْ أَنَا في ذا يال هَمْدَانَ ظَالِمُ

مَتَى تَجْمَعُ القَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المَظَالِمُ[3]

وقال أميَّة بن أبي عائذ الهذلي[4] :

=

أشمخ ما يكون من الجبال ، أحمر ، تخرج من جوانبه عيون . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٥٢ .

(١) الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ، من القحطانية ، ومنهم الأنصار الأوس والخزرج . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٣٦٢ ، ابن المبرد : نسب عدنان وقحطان ، ص : ٢١-٢٣ .

(٢) ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٤٩ . الشث : ضرب من الشجر . ابن منظور : لسان العرب ، ٢/ ١٥٨ ، الطباق : هو نبات عشبي معمَّر . انظر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، مادة : (طبق) ، ٢/ ٥٥١ .

(٣) انظر : نشوان الحميرى : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ٦/ ٣٧١٧ .

(٤) أمية بن أبي عائذ العمري ثُمَّ الهذلي من أهل الحجاز ، شاعر من مداحي بني أمية له في عبدالملك وعبدالعزيز ابني مروان مدائح . انظر : علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت : ٥٧١هـ) : تاريخ دمشق ، ت : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ٩/ ٢٨٧- =

هُـذَيْلُ[١] حَمَـوا قَلْـبَ الحِجَـازِ وإنَّمـا حِجَازُ هُذَيْل يَقْرَعُ النَّاسَ مِنْ عَـل

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلابٍ[٢] :

مُرِّيَّــة حَلَّــتْ بِفيْــدٍ وجَــاوَرَتْ أَهْلَ الحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَـا[٣]

وقال هبيرة بن عمرو بن جرثومة النهدي[٤] :

=

. ٢٨٨

(١) هُـذَيْل -بـضمِّ الهـاء وكـسر الـذَّال المعجمـة وسـكون اليـاء المثنـاة التَّحتيَّـة ولام في الآخر- : هو هُذَيْل بن مُدركة بن إلياس بـن مـضر. بطـن مـن مدركـة بـن إلياس مـن القبائل العدنانيـة ديـارهم حـوالى مكّـة ؛ ولهـم بهـا عـدد وعـدّة ومنعـة وهـم أهـل قـوة ورمـي ، ومازالـت ديـارهم بالـسروات ، وسـراتهم متـصلة بجبـل غـزوان المتـصل بالطائف ، لهم أماكن ومياه في أسفلها ، ثُـمَّ تفرق أنـاس منهم بعد ذلـك في البلـدان الإسـلامي. انظـر: ابـن حـزم الأندلـسي : جمهـرة أنـساب العـرب ، ت : لجنـة مـن العلماء ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ، ص : ١٩٦ ، القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمـان ، ص : ١٣٣ ، كحالـة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ١٢١٣ .

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بـن عـامر بـن صعـصعة الـشاعر ، ويكنى أبا عقيل ، قدم على رسول الله ﷺ فأسلم ورجع إلى بلاد قومه ثـم هـاجر إلـى الكوفة فنزلها ومعه بنون له ، ومات بها ليلة نزل معاوية النخيلة لمصالحة الحسن بـن علي ، رحمهما الله ، ولـم يقـل في الإسـلام شـعراً وقـال : أبـدلني الله بـذلك القـرآن . انظر : محمد بن سعد بـن منيـع الهاشـمي (ت: ٢٣٠هـ) : الطبقـات الكـبرى ، ت : محمــد عبــدالقادر عطــا ، دار الكتــب العلميــة – بيــروت ، ط : ١ ، ١٤١٠هــ - ١٩٩٠م ، ٦/ ١٠٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ٥٠١ .

(٣) لبِيد بن ربيعة بن مالك العامري (ت : ٤١هـ) : ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، اعتنـى به : حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، ط : ١ ، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م ، ص : ١٠٩ .

(٤) هبيرة بن عمرو بـن جرثومـة النهـدي ، شـاعر جـاهلي . انظـر : الزركلـي : الأعـلام ، ٨/ ٧٦ .

وكِنْدَة تهـذي بالوَعِيْـدِ وَمَـذْحِجٌ وَشَهْرَان من أَهْلِ الحِجَازِ وَوَاهِـبِ

شـهران[١] في سـراة بيـشة وتَـرْج[٢] وتَبَالَـة[٣] فيمـا بـين جُـرَش[٤] وأوَّل سـراة الأزد ، وقال بعض بني مُرَّة بـن عـوف[٥] في أيـام عبـد الملك بـن مروان :

أَقَمْنَـا علـى عِـزِّ الحِجَـازِ وَأَنْـتُمُ بِمُنْبَطِـح البَطْحَـاءِ بينَ الأَخَاشِـبِ

وقال شريح بن الأحوص :

أعــزُّك بالحجــاز وإن تقــصَّ تجـدني مــن أعـزَّة أهـل نَجْـدِ

وقال طرفة بن العبد[٦] وذكر مقتل عمرو بن مامة يوم قضيب :

(١) بنو شهران : بطن من خثعم من القحطانية ، وهـم بنـو شـهران بـن خلـف بـن خثعم . انظـر : أحمـد بـن علـي القلقـشندي (ت : ٨٢١هـ) : نهايـة الأرب في معرفـة أنـساب العرب ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبنانين ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص : ٣٠٨ .

(٢) تَرْج : بالفتح ثم السكون وجيم ، وبيشة : همـا قريتـان متقاربتـان بـين مكـة والـيمن . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢١ .

(٣) تَبَالَـة : بـالفتح ، بلـدة مـشهورة مـن أرض تهامـة في طريـق الـيمن . انظـر : يـاقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٩ .

(٤) جُرَش : بالضم ثم الفتح ، وشين معجمة : من مخاليف اليمن من جهة مكة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ١٢٦ .

(٥) بطنٌ مِنْ غطفان ، مِنْ قيس بن عيلان ، منَ العدنانية . وأمُّهم مُليكة بِنْت حنظلة بْن مالك بْن زَيْد مناة . انظر : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت: ٢٧٩هـ) : أنساب الأشراف ، ت : سهيل زكار ورياض الزركلي ، دار الفكر – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ١٣/ ٩٨ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١٠٧٢ .

(٦) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد ، البكـري الـوائلي ، شـاعر ، جـاهلي ، مـن الطبقـة =

وَلَكِنْ دَعَا مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ عُصْبَةً   يَسُوْقُوْنَ فِي أَرْضِ الحِجَازِ البَرَابِرَا

وقد ذكرت العرب الحجاز والجلس وتهامة ونجد في أشعار كثيرة وكل ذلك يصدق ما وصفنا[١] . ولذلك أقول : إنَّ هذا الجبل السراة أو الحجاز وما يتبعه من سوح وفسوح ومسايل وأودية وتهائم من جميع الجهات تلحق به ومرتبطة فيه ، وأن هذه السِّلسلة الجبليَّة تُبيِّن مَدَى طُول جزيرة العرب فطول السّراة ما بين ذات عرق إلى حدّ نجران اليمن ، وبيت المقدس[٢] . واعلم أنَّ جبل السَّراة جزءٌ لا يتجزَّأ من جزيرة العرب ، بالإضافة إلى حدِّ البحر الأحمر الَّذي يطلُّ على الجزيرة العربية مِنْ جهة الغرب ، وهذا الحدُّ لا يختلف عليه حتَّى من نعتها بشبه الجزيرة لاحتوائه لها بطول الضلع الغربي مِنْ شاطئ عدن جنوباً إلى شاطئ الطور والقلزم شمالًا . قال ابن حزم : «واتَّفقُوا أنَّ جزِيرَة العرب هي ما أَخذ مِنْ بلد عبَّادان مارًا على السَّاحِل ، إلى سوَاحل اليمن ، إلى جُدَّة ، إلى القلزم ، ومِنَ القلزم مارًا على الصَّحارى إلى حُدُود الْعرَاق[٣] ،

=

الأولى ، ولد في بادية البحرين ، وتنقل في بقاع نجد ، واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله ، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها ، فقتله المكعبر شاباً ، أشهر شعره معلقته ، ومطلعها : لخولة أطلال ببرقة ثهمد . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٣/ ٢٢٥ .

(١) ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٥٠ .

(٢) انظر : البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ١/ ٨-٩ .

(٣) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت : ٤٥٦هـ) : مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، دار الكتب العلمية ، بيرُوت ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ١٢٢ .

فالإجماع إذن مُنعقدٌ على إحاطة البحار الثَّلاثة بجزيرة العرب ، بحر فارس وبَحرَا العرب والقلزم ؛ بينما بقي الاختلاف قائمًا بينهم في الحدِّ الشَّماليِّ مِنْ جهة بحر الشَّام ونهر الفُرات والمدن دُونهما ، وقد سردت كلام الهمدانيِّ بطوله في تحديده لجزيرة العرب مِنْ جهة الشَّمال ، وذلك ببحر الشَّام ونهر الفُرات ، لتدخل به أرض العراق ، والشَّام ، وسيناء في جزيرة العرب ، بينما هُناك من العلماء من لم يُدخل الشَّام ولا سَيناء في تحدِيْدَاتِهم لجزيرة العرب ، فهذا ابن تيميَّة رحمه الله يُصرِّح بأنَّ الشَّام ليستْ مِنْ جزيرة العرب ، حيث قال : «.. بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم -جزيرة العرب- ، ولا تدخل فيها الشَّام»[١] ، وعلَّل ذلك بأنَّ العرب لم تكن تسكُنها حين البعثة النَّبويَّة ولا قبلها ، وبمثل هذه الحُجَّة أخرج ابن حَوقَل[٢] سَيناء مِنْ أرض العرب وجزيرتها ، فقال : ويتَّصل بأرض العرب بناحية أَيلة بَرِّيَّةٌ ، وهى وإن كانت مُتَّصلةً بديار العرب فهي لَيست مِنْ ديارهم ، وإنَّما كانت برِّيَّةً بَين أرض العمالقة واليُونانيَّة وأرض القبط ، وليس للعرب بها ماءٌ ولا مرعَى ، فلذلك لا تدخل في ديارهم[٣] ، وتبعهم على هذا القول الشيخ بكر أبوزيد رحمه الله في كتابه «خصائص جزيرة العرب»[٤] ، وهذا القول يُخالف ما يُستشهد به من الحدود لجزيرة

(١) ابن تَيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ١/ ٤٥٤.

(٢) انظر : محمد بن حَوْقَل البغدادي الموصلي ، رحَّالة مِنْ عُلماء البلدان ، كان تاجرًا ، رحل من بغداد سنة ٣٣١ هـ ودخل المغرب وصقلِّيَّة ، وجاب بلاد الأندلس وغيرها ، كانت وفاته بعد ٣٦٧هـ . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٦/ ١١١-١١٢ .

(٣) انظر : ابن حوقل : صُورة الأرض ، ١/ ١٩ .

(٤) انظر : بكر بن عبدالله أبوزيد : خصائص جزيرة العرب ، ط : ٢ ، ١٤٢١هـ ، ص : ٧-١٠ .

العرب ، حيث أجمعوا على أنَّ البحر الأحمر يحدُّ الجزيرة مِنَ الغرب - سبق نَقلُ ابن حزمٍ للإجماع على ذلك- ، وهذا الحدُّ يمتدُّ مِنْ أقصى اليمن مُرورًا بساحل جدَّة إلى خليج أيلة وساحل الطُّور ، ثُمَّ ينعطف البحر ناحية الشَّمال إلى قلزم مصر أقصى نقطة في الشَّمال الغربي للجزيرة والَّذي يضم جزء كبير من سيناء دون انفصال ، حتَّى كاد أن يجتمع بالبحر الأبيض المتوسط ، ولعلَّ هذا الموضع الضئيل بين البحرَين بحرُ القلزم - البحر الأحمر- وبحرِ الرُّوم -البحر الأبيض المتوسِّط- هو مجمع البحرين الَّذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قصَّة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر ، ولعلَّ هذا الموضع هو الطريق الَّذي سلكه سيدنا موسى حين خرج ببني إسرائيل مِنْ مصر مُتَّجهًا شرقًا إلى سيناء ، قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[1] . قال أبوعبيدة : معنى (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِين) ناحيةَ المشرق ، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون : (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشَّرِقِين) بالتَّشدِيد وألف الوصل ، أي : نحو المشرق ، مأخوذ من قولهم : شَرَّق وغرَّب إذا سار نحو المشرق والمغرب[2] . ولعلَّه الموضع الَّذي ضربه الله يَبَسًا لسيِّدنا موسى عليه السلام حين ضرب بعصاه البحر فجاوز ببني إسرائيل إلى جانب الطور ، وهو أقرب ما يكون بين البُحيرَات المرَّة ومنتهى خليج القُلزم الموضع الذي غرق فيه فرعون وقومه[3] . كونها الجهة الشرقية المواجهة للمقطم ومصر القديمة والأهرامات ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : (٦٠-٦١) .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣/ ١٠٦ .

(٣) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٤٤ .

فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾[1] ، فغشي فرعون وجنوده من اليمِّ ما غشيهم أي أصابهم من البحر ما غرقهم[2] ، ولعلَّ الله أبقى بعض الطريق ، وقد ورد في المصادر المصرية القديمة أنَّ اليابسة الَّتي بين البحرَين كانت بحرًا متَّصلًا في عصورٍ قديمةٍ جداً[3] ، ويدل على ذلك وجود البحيرات المُرة الكبرى والصغرى قبل فتح قناة السويس ، فحين حجز الله البحر الموضع الَّذي أهلك الله فيه فرعون في القلزم على مقربة مِنَ البرِّ الغامر والبر العامر[4] ، لعلَّ الله عزَّ وجلَّ أبقى من آياته طريقـًا لعَودة بني إسرائيل إلى مصر والله تعالى أعلم ، قال تعالى : ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[5] ، يريد أنَّ جميع

---

(١) سورة طه ، الآيتان : (٧٧-٧٨) .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١١/ ٢٢٩ .

(٣) يقول أنجلو ساماركو : «كان البحر المتوسِّط يتَّصل بالبحر الأحمر في العصور الجيولوجيَّة الأولى ، وكان واد طميلَات أحد فروع النِّيل الَّذي كان يصبُّ في القناة الَّتي تربط البحرَين؛ وحتَّى بعد أن اختفى هذا الذِّراع وتبقَّت البُحيرات -المرَّة الكبرى والتِّمساح- استمرَّ وادي طميلات في نقل مياه النِّيل ، هذه المياه لم تهجر الوادي سوى ببطء شديدٍ جدًا» . أنجلو ساماركو : قناة السويس تاريخها ومشكلاتها وِفقًا للوثائق المصريَّة والأوروبيَّة غير المنشورة ، ترجمة : ولاء عفيفي عبدالصَّمد ومَنْ معهم ، مراجعة : د . حُسَين محمود ، مطبعة دار الكتب والوثائق القَوميَّة بالقاهرة ، (د.ط) ، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م ، ص : ٢٤ و ٣٨ .

(٤) انظر : محمد بن أحمد المقدسي البشاري (نحو ٣٨٠هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، دار صادر ، بيروت ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ط : ٣ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ص : ١١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٤٤ .

(٥) سورة الشُّعراء ، الآيات : (٥٧-٥٨-٥٩) .

ما ذكره الله تعالى من الجنَّات والعيُون والكنُوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنُو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه[١] ، أضف أنَّ البحرين ربطت مع بعضهما البعض بواسطة نهر النيل منذ القدم بذراعين أحدهما كان يصب في بحر القلزم يُفتح مرَّة و يُقفل مرَّة أُخرى حتى جاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بفتحه ، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن ، وسمّى خليج أمير المؤمنين[٢] ، وأما الذراع الآخر فيصب في بحر الروم بدمياط الموضع المسمى برأس البر الآن . وفي الحقيقة أنَّ صِغَر هذا الممر أو اليابسة المتقطعة بالبحيرات المرة والتمساح بين البحرين -قناة السويس- والَّتي استطاع حفرها مجموعة من الناس بمعدَّاتٍ أوليَّة قبل التِّقنيات الحديثة ووصل البحرين مع بعضهما لبعض ، لا يُعد شيئًا أمام كِبر مساحة الجزيرة العربية وعِظَمها ، أضف أنَّ خليج السُّويس كان يسمَّى قبل ذلك بالخليج العربي[٣] ؛ وكذلك بالنِّسبة لسَيناء ، فإنَّ طبيعة أرضها ونَوعيَّة

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣/ ١٠٥ .

(٢) انظر : عبد الرحمن بن عبد الله أبوالقاسم المصري (ت : ٢٥٧هـ) : فتوح مصر والمغرب ، ت : د . علي محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط : ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، ص : ١٩١ ، موقع معرفة ، (marefa.org) .
انظر : الموسوعة الجغرافية المصغَّرة ، موضوعات جغرافية وظواهر طبيعية ، أقاليم وظواهر جغرافية (www.muqatel.com) ، قناة السويس ، العصر الفرعوني .

(٣) انظر موقع : http://SuezCanal/Pages/CanalHistory.aspx تاريخ قناة السويس ، لمحة تاريخية .
علماً أن هذا الموضع كان يُسمى قديماً قلزم مصر . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص : ٤٧ ، البكري : المسالك والممالك ، ١/ ١٤٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ١٣٧ .

تُربتها مماثلةٌ لأرض العرب متصلة بها ، يقول المؤرِّخ الفرنسي غوستاف لوبون : «وإنْ كان جغرافيُّو العرب لم يَعُدُّوا بلاد الحِجر-يقصد سيناء- مِنْ أقسام جزيرة العرب ، ونحن لا نستطيع إلَّا أن نُعدَّها مِنْ تلك الأقسام مِنَ النَّاحية الجغرافيَّة والنَّاحية الاثنوجرافيَّة»[١] . هذا ما تقرر من الناحية الجغرافيَّة . أمَّا ما ذُكر أنَّ هذه المناطق كانت تتبع في حكمها لفارس والرُّوم فهي منطقة صراعٍ إذا غُلبت الرُّوم ضمَّتها فارس إليها ، وإذا غَلبت الرُّوم ضمُّوها إليهم لموقعها التِّجاري ، إلَّا أنَّهم كانوا يولُّون على هذه الديار زعماء العرب مِنْ أهلها ، وكذلك اليمن بعد هلاك النصارى في حادثة الفيل على يد أبرهة وقعت تحت حكم فارس ، لذلك فإنَّني أقول : أنَّ بلاد العرب تمتد على طول الساحل الغربي من القلزم شمالًا إلى عدن جنوبًا وأن بلاد الشام جزءٌ لا يتجزَّأ مِنْ جزيرة العرب للأدلة والأسباب الآتية :

أولًا: جاء في الحديث الصَّحيح ما يُثبتُ ويُؤكِّد أنَّ الشَّام مِنْ جزيرة العرب ، فالنَّبيُّ ﷺ صرَّحَ بأنَّ فلسطين مِنْ جزيرة العرب ، قال الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير»[٢] : حدثنا الحسين بن إسحاق ، ثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا مُحمَّد بن فُضيل عن الشَّيباني عن الشَّعبي عن فاطمة بنت قيسٍ رضي الله عنها قالت : بَيْنما النَّاس لَيس لهم فَزَعٌ بالمدينة ، إذ خرج رسُول الله ﷺ فصلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ أقبلَ يمشِي حتَّى صَعِدَ المنبر ففزِع لذلك النَّاس ، فلمَّا رأى ذلك في وجوهِهم قال : «أيُّها النَّاسُ! لم أخرج لأمر أفزعكم ،

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة ، القاهرة ، (د. ط) ، ٢٠١٢م ، ص: ٥١ .

(٢) برقم (٩٦٠) ، ٢٤/ ٣٩٢ .

ولكنَّهُ أتاني أَمْرٌ فَرِحْتُ لهُ فأحببتُ أن أُخْبِرَكُمْ بِفرحِ نبيِّكُم ، إِنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ[١] أخبرني أَنَّ بَنِي عَمٍّ لهُ ركبُوا البحرَ ، فانتهت بِهِم سفينتُهم إلى جزيرةٍ لا يعرفُونها ، فخرجُوا يمشُون ، فإذا هم بإنسانٍ لا يدرونَ أذكرٌ هو أم أنثى من كثرةِ الشَّعَر ، قالوا : من أنتَ؟ قالت : أنا الجسَّاسَةُ ، قالُوا : فحدِّثينا قالت : ائتُوا الدَّيْرَ[٢] فإنَّ فيه رجلًا بالأشواقِ إلى أن تُحَدِّثُوهُ ، فدخلُوا الدَّيْرَ ، فإذا هُمْ برجُلٍ موثَقٍ يتأوَّهُ[٣] شَدِيدَ التَّأَوُّهِ ، فقال : من أنتم؟ قالُوا : **من أهلِ فلسطين من جزيرة العرب** ، قال : فخرجَ نبيُّهُم بعدُ؟ قالوا : نعم ، قال : فما صَنَعَ ؟ قالوا : بَايَعَهُ قومٌ ، وفارقهُ قومٌ ، فقاتلَ مِنْ رِفَاقِهِ بِمَنْ بَايَعَهُ حتَّى أعطاهُ أهلُ الحجرِ والمدرِ[٤] ، قال : فَمَا فَعَلَتْ بُحَيْرَةُ الطَّبَرِيَّةِ[٥]؟ قالوا : مُمْتَلِئَةٌ تَدَفَّقُ جنباتُهَا ، قال : فما فَعَلَتْ عَيْنُ

---

(١) تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل : خارجة بن سود ، وقيل : سواد بن جذيمة بن ذراع بن عدي بن الدَّار ، أبو رقيّة الدَّاري ، مشهور في الصحابة ، كان نصرانيًا ، وقدم المدينة فأسلم ، وحدَّث النَّبيُّ ﷺ عنه قصَّة الجسَّاسة والدَّجال على المنبر وعدَّ ذلك من مناقبه ؛ أسلم سنة تسع هو وأخوه نُعَيم ، ولهما صُحبة ، قال أبو نُعيم : كان راهبَ أهل فلسطين وعابد أهل فلسطين ، وهو أوَّل مَنْ أسرَجَ السِّراج في المسجد . انظر : أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصَّحابة ، ت : عادل العزازي ، دار الوطن ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ ، ١/ ٤٤٨ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ١/ ٤٨٧ .

(٢) الدَّيْر : خَانُ النَّصارى ، والجمع أديَار . ابن سِيده : المخصص ، ٣/ ٢٠٣.

(٣) التَّأَوُّه : التَّوَجُّعُ . يُقال : تأَوَّهتُ آهَةً . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٥٥٢.

(٤) يُرِيد أهلَ البَوادِي الَّذِين يسكنون مواضِع الأحجَار والجِبال ، وأَهلَ المَدَر أهلُ البِلاد . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٣٤٣.

(٥) هي كالبركة ، تُحيط بها الجبال ، ماؤها عذب شرُوب ، ينفصل منها نهرٌ عظيم فيسقي أرض الأردن الأصغر . تقع في فلسطين على مسافة ثلاثة وأربعين كيلًا مِنَ البحر المتوسِّط ، طُولها واحدٌ وعشرُون كِيلًا ، وعرضها حوالي اثني عشر كِيلًا . بينها =

زُغَرَ[1]؟ قالوا : تَدَفَّقُ جنباتُهَا ، قال : فما فعلَ نَخْلُ بينَ عَمَّانَ ، وبيْسَانَ[2]؟ قالُوا : يُطْعِمُ ، قال : لو قد أُفْلِتُّ مِنْ وَثَاقِي هذا لقد وَطِئْتُ الْأرضَ إلَّا طيبةَ» ، فقال رسُول الله ﷺ: «هِيَ طَيْبَةُ – مَرَّتَيْنِ – المدينةُ ما فيها طَرِيقٌ ، ولا موضعٌ ضيِّقٌ ولا وَاسِعٌ ، سَهْلٌ وَلَا صَعْبٌ إِلَّا عليهِ مَلَكٌ شَاهِرٌ سَيْفَهُ ،

=

وبين دمشق ثلاثة أيَّام ، وغور مائِها علامةٌ لخُرُوج الدَّجَّال . انظر : الأزهري : تهذيب اللُّغة ، ٥/٢٦ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/٣٥١-٣٥٢ ، وشرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٤٤ و ١٧٠ .

(١) زُغَرُ –بوزن زُفَرْ ، وآخره راء مهملة– : كثيرًا ما يُنسب البحر الميِّت إلَيها ، فيُدعى ببحر زُغَر ، ويرى بعضهم أنَّ مدينة زُغَر القديمة الَّتي لها ذكر مع النَّبيِّ لوط عليه السَّلام ، كانت تقع في غور الصَّافي على شاطىء البحر الميِّت الجنوبي الشَّرقي بالقرب مِنْ مصَّبِّ وادي الحسا ، وفي الموقع المعروف باسم «الشَّيخ عيسى» ، إذْ لم يلحق الخراب والتدمير هذه المدينة عند خراب سَدُوم وأخواتها لأنَّ أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة . وطُول هذه البحَيرة ستُّون مِيلًا في عرض اثني عشر مِيلًا ، وهذه البحَيرة الميتة تُرى من أعلى بيت المقدس ، وإليها ينتهي ماء بُحَيرة طبريَّة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ١٤٢ ، وأبوعبدالله محمد بن عبدالله الحِميرى (ت: ٩٠٠هـ) : الرَّوض المعطار في خبر الأقطار ، ت : إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٠م ، ص : ٤٣١ ، وشرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٣٥ .

(٢) بَيْسَانُ –بالفتح ثمَّ السكون وسين مهملة ، ونون– : هي مدينة شاميَّةٌ صغيرةٌ جداً ، تقع في فلسطين شمال مدينة نَابُلُس بَينهَا وبَين طبريَّة. يُقال هي لسان الأرض . وتنخفض ١٣١ متراً عن سطح البحر ، بها عَين الفلوس يُقال إنَّها مِنَ الجنَّة ، وهي عَين فيها ملُوحةٌ يسِيرةٌ ، تبعد عن القدس ١٢٧ كيلًا . هدمها اليهود لعنهم الله ، وأقاموا مكانها مستعمرةً سنة ١٩٤٩م باسم «بيت شعن» أو بيت شان . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٥٢٧ ، والحِميرى : الرَّوض المعطار ، ص: ١١٩ ، والبلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة ، ص : ٢٣٤ ، وشرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٦٨ .

لو أرادَ أن يدخُلها لضربَ وَجْهَهُ بِالسَّيْفِ» . والحديث صَحِيح ، رِجالُه ثِقات ، وأَصلُه مُخرَّجٌ في صحيح مسلم[١] ؛ مداره على الإمام عامر الشَّعبي ، وقد رواه عن الشَّعبيِّ هُنا : الشَّيباني[٢] ، وهو ثِقة حُجَّة مِنَ الـمُقدَّمِين[٣] فيه -الشَّعبي- زِد على ذلك أنَّ مُحمَّدًا بن فُضَيلٍ[٤] لم يتفرَّد برواية هذه اللَّفظة -مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ- عن الشَّيباني ؛ فقد تابعه على رِوايتِها عنه أسباطُ بن محمَّد[٥] ، كما هو مُخرَّجٌ عند الطَّحاوي في كتاب «شرح مشكل الآثار»[٦] ، وابن منده في «الإيمان»[٧] .

ثانيًا : قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٨] ، قوله (إلى المَسْجِدِ الأقْصَى) يعني : مسجد

(١) كتاب الفِتن وأشراط السَّاعة ، برقم (٢٩٤٢) ، ٤/ ٢٢٦١.

(٢) سُلَيمان ابن أبي سُلَيمان ، أبو إسحاق الشَّيباني الكُوفي ، المُلقَّب بفَيروز ، ثِقَةٌ . خرَّج له الجماعة . انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، برقم (٢٥٦٨) ، ص : ٢٥٢ .

(٣) قال عنه العجلي : كان ثقةً مِنْ كبار أصحاب الشعبي . انظر : أبوالحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلى (ت: ٢٦١هـ) : تاريخ الثقات ، دار الباز ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م ، برقم (٦١٢) ، ص : ٢٠٢ .

(٤) مُحمَّد بن فُضَيل بن غزوَان الضَّبِّي مَولَاهُم ، الكُوفي ، أبوعبدالرَّحمن ، الحافظ ، ثِقَةٌ شيعي . مات سنة ١٩٤هـ ، خرَّج له الجماعة . انظر : الذَّهبي : الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، برقم (٥١١٥) ، ٢/ ٢١١ .

(٥) أَسْبَاطُ بن مُحمَّد القُرشيُّ مَولَاهُم ، الكُوفي . وثَّقه ابن مَعِين ، توفي سنة مائتين ، خرَّج له الجماعة . انظر : الذَّهبي : الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، برقم (٢٦٧) ، ١/ ٢٣٢ .

(٦) برقم (٢٩٤) ، (٧/ ٣٨٩) .

(٧) برقم (١٠٥٧) ، (٢/ ٩٥٠) .

(٨) سورة الإسراء ، الآية : (١) .

بيت المقدس ، وقيل له : الأقصَى لأنَّه أبعد المساجد الَّتي تزار ، ويُبتغَى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام[١] ، فكلمة «أقصَى» تُطلق على المَوضع الأبعد في الأرض المتَّصلة كمَا في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٢] ، فأقصى المكان هو طرفه أو الأبعد فيه ، فالشَّام جزءٌ مُتَّصلٌ لا ينفصل عن باقي أطراف الجزيرة بفاصلٍ مِنْ بحرٍ ولا نهر .

ثالثًا : أنَّ بلاد الشام مَوطنٌ لِكثيرٍ مِنَ القبائل العربيَّة الَّتي كانت تسكنها من زمن الجاهليَّة ، لهم بها ديارٌ وحدودٌ ومراعِي ومنازل ، ومن تلك القبائل العربيَّة الأصِيلة لخم وجذام وبهراء وتنوخ وتغلب وكلب وعاملة وغسان وعذرة وبلي وغيرها مِنَ القبائل المتفرِّعة عنها . ومن الشواهد على ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

وَكَأسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينا[٣]

وأيضًا قول امرؤ القيس :

لقَد أنْكَرَتْني بَعْلَبَكٌّ وَأَهْلُهَا وَلابنُ جُرَيجٍ في قرَى حِمصَ أنكَرا[٤]

إلى أن قال :

يُذكّرهَا أوْطَانها تلَّ ماسح مَنَازلها مِنْ بَرْبَعِيصٍ وميسرا

(١) الطبري : جامع البيان ، ١٧/ ٣٣٣ .

(٢) سورة ياسين ، الآية : (٢٠).

(٣) انظر : حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني (ت: ٤٨٦هـ) : شرح المعلقات السبع ، دار إحياء التراث العربي ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ص : ٢١٦ .

(٤) امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٥٤٥ م) : ديوان امرِئ القيس ، اعتنى به : عبدالرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ص : ٩٧ .

وقد ذكر أبوالتَّاريخ هِيرودوت[١] في تاريخه أنَّ الشَّام وسيناء كانتَا تحت ملك العرب في وقته -عشرة قرون قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ- ، وأنَّ الفُرس استعانُوا بهم على التَّزوُّد بالماء ، وذلك بملأ قِرَبٍ كبيرةٍ مِنْ جلود الجمال بالماء وحملها فوق جمالهم وإيصالها إلى طريقٍ عابرٍ على طول صحارِيهم -صحراء العرب- ، ليسهل عبورهم مِنْ بادية الشَّام وصحراء سيناء إلى مصر لقتال أهلها في ذلك الوقت[٢] .

رابعًا : أنَّ البحر الأحمر حدٌّ لجزيرة العرب من الغرب ، وهذا الحدُّ مجمعٌ عليه -كما سبق بيانه- بين أهل العلم والجغرافيين ، والَّذي هو أيضًا يحدُّ سَيناء غربًا كباقي الحدود المائية ، ابتداءً مِن ساحل عدن ، مرُورًا بساحل جدَّة ، ثُمَّ ساحل الجار ، ثُمَّ ساحل أيلة وساحل الطور ، إلى ساحل القلزم أقصى نقطةٍ في الشمال الغربي من البحر الأحمر والمسمَّى به قديمًا بحر القلزم ، وجميع هذه السَّواحل على امتداد ساحل البحر الأحمر غربًا ، علمًا أنَّ طول المسافة من جدة ساحل مكة إلى ساحل القلزم(السويس) على خط مستقيم ، مساوية لطول المسافة من جدة إلى ساحل عدن بالضبط ١١٤٥كم ، كما بيَّنت صور الأقمار الصناعية على خرائط (Google Earth) ، وهذا مِنْ أكبر الأدلَّة على ارتباط

(١) لَقَبُه «أبوالتَّاريخ» ، وُلد في الأناضول وزار مصر وسوريا وليبيا ، يُعتبر أول مُؤرِّخٍ إغريقي أخذ على عاتقه كتابة تاريخ العالم حتَّى وقتِه ، هلك قبل ٤٢٥ ق.م . انظر : محمد محمود محمدين ، طه عثمان الفراء : المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة ، دار المرِّيخ ، ط : ٤ ، (د.ت) ، ص : ٣٦ .

(٢) هيرودوت (ت: ٤٢٥ ق.م) : تاريخ هيرودوت ، ترجمة : عبد افله الملَّاح ، مراجعة : د. أحمد السَّقَّاف و د. حمد صراي ، المجمَّع الثَّقافي ، أبوظبي ، (د.ط) ، ٢٠٠١م ، ص: ٢٢٠.

الشَّام بحدود جزيرة العرب ، كون العامل الرَّئيس في صفة بلاد العرب أنَّها جزيرة أو حتى (شبه جزيرة) ، هو إحاطة البحار مِنْ أطرافها .

خامساً : أنَّ رسول الله ﷺ كان يدعوا للشَّام مع أطراف الجزيرة ويقول : «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا..»[1] فأضاف الشام إليه كإضافة اليمن ، بضمير الاختصاص ، بل بدأ بالشام لأفضليته على اليمن لوجود المسجد الأقصى أُولَى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، إليه يشد الرحال ، ثاني مسجد بني في الإسلام بعد المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[2] فيجب أن لا يبقى تحت حكم الكفرة والمشركين ، بل أولى أن لا يدخلوا المسجد الأقصى ولا يطئوا أرضه المباركة .

وعلى هذا يجب إبقاء اسم بلاد العرب على ما وردت به الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ ، وكما أطلقته العرب على بلادها ، فأسمتها جزيرة العرب ؛ وكذلك بالنِّسبة لحدودها . والله تعالى أعلم وأعز وأكرم .

بَـدْءُ الخَلْق

قال تعالى في القرآن العظيم : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] ، فالعبادة لا تُصرف إلَّا لله الواحد الأحد ، الفرد الصَّمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق ، برقم (٦٦٨١) ، (٦/ ٢٥٩٨) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (١).

(٣) سورة الذاريات ، الآية : (٥٦).

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(١) ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الغفور الرحيم ، خلق الليل والنهار والشَّمس والقمر كُلٌّ في فلك يسبحون ، عالم الغيب ، الحكيم المتعال ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وحبَّات الرِّمال ، ويعلم عدد ورق الأشجار ، وعدد قطرات الأمطار ، يعلم السرَّ وأخفى ، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلَّا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلَّا يعلمها ، ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلَّا في كتاب مبين ، وإذا أراد شيئاً فإنَّما يقول له كن فيكون .

هو الله لا شريك له ولا مثيل له ولا إله غيره ، قديمٌ بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلَّا ما يريد ، لا تبلغه الأوهام ، ولا تُدركه الأفهام ، ولا يُشبهه الأنام(٢) ، خلق الخلق بعلمه ، وقدَّر لهم أقداراً ، وضرب لهم آجالًا ، لا يخفى عليه شيءٌ ، وكل شيءٍ يجري بأمره وقدره ، خلق كُلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً ، يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا ، ويُضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا ، يتقلَّبون في مشيئته بين فضله وعدله ، لا رادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، ليس له أضداد ولا أنداد ، ولا شريك ولا شبيه ، غَنِيٌّ عن كُلِّ ذلك ، وعن كُلِّ شيء ، ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميع العليم . عظمة الله لا يعلمها إلَّا الله عزَّ وجلّ ، لكنَّه بيَّن لنا ما يدلُّ على عظمته بقدر ما تستوعبه عقولنا في

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٩) .

(٢) انظر أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت: ٣٢١هـ) : متن العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامي ، ط : ١ ، ص : ٣ .

القرآن وفي آلائه العظام ، ومخلوقاته الجسام .

يُنزل الغيث ويُحيي الأرض بعد موتها ويصرِّف الرياح ، والفلك التي تجري في البحر ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] ، فقد قال أعرابي : الأثرُ يدلُّ على الأثير ، والبعرة تدلُّ على البعير ، فسماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذات أمواج ، ألا تدلُّ على العليم الخبير[2] .

وقد جاء في قصَّة بَدْءِ الخلق أنَّ عمران بن حصين قال : دخلتُ على النبيِّ ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناسٌ من بني تميم ، فقال : «اقْبَلُوا البُشْرَى يا بَنِي تميم» ، قالوا : قد بشَّرتنا فأعطنا مرتين ، ثُمَّ دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال : «اقْبَلُوا البُشْرَى يا أَهْلَ اليَمَن إِذْ لم يَقْبَلْهَا بَنُو تميم» ، قالوا : قد قبلنا يا رسول الله ، قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ، قال : «كَانَ الله ولم يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُه وَكَانَ عَرْشُهُ على الماء وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ» ، فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السَّراب ، فوالله لوددت أنِّي كنتُ تركتها[3] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) سورة يونس : الآية (١٠١).

(٢) محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ) : شرح العقيدة الواسطية ، اعتنى به : سعد بن فواز الصميل ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، السعودية ، ط٦ ، ١٤٢١هـ ، ١/ ٥٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ، برقم (٣٠١٩) ، ٣/ ١١٦٦ .

مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنَّة منازلهم ، وأهل النَّار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثنَيْنِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السَّلامُ بعد العصر من يومِ الجمُعة ، في آخر الخلقِ ، في آخر ساعةٍ من ساعَاتِ الجمُعة ، فيما بين العصرِ إلى اللَّيل»[٢] .

ومن الثَّابت في الكتاب والسنَّة أنَّهُ كان الله ولا شيء قبله ، ولا شيء معه ، ثُمَّ خلق الماء والله أعلم على أيِّ هيئةٍ كان بخارية أو سائلة ، ثُمَّ خلق العرش ، ثُمَّ خلق القلم ، وكتب مقادير كُلِّ شيء وأقدارها ، ثُمَّ خلق من الماء هذه السماء بما فيها من مجرَّات ونجوم وسُدُم ، ثُمَّ خلق الأرض والمجموعة الشَّمسية من سديم[٣] هذه السُّدم فيما يبدو ، ثُمَّ خلق السموات السبع بعد خلقه الأرض وجعل في كُلِّ سماء أمرها ، ثُمَّ هيَّأ الأرض لسُكْنَى الإنسان وخلق فيها ما خلق ، وقبل أن يخلق الإنسان كان

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ، برقم (٣٠٢٠) ، ٣/ ١١٦٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، برقم (٢٧٨٩) ، ٤/ ٢١٤٩ .

(٣) يقول د. محمود عبدالمنعم : المجموعة الشَّمسية كانت كلها كتلة واحدة ، ثُمَّ انفصلت كل واحدة وحدها عن أمها الشمس ودارت حولها ، وكل المجموعات والنجوم كانت متماسكة في حالة غازية ، ثمَّ انفصلت ، وهذه النظرية تسمى نظرية السدم ، جمع سديم . معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية : د. محمود عبدالرحمن عبدالمنعم ، جامعة الأزهر ، دار الفضيلة ، ٣/ ٣٢-٣٣ .

قد خلق الملائكة والجن وأنواع الحياة على الأرض ، وخلق الجنَّة والنَّار ، ثُمَّ خلق آدم وحواء عليهما السلام[١] .

وعن أبي موسى الأشعري قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالحزنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»[٢] .

وهذا يَدُلُّ على اختلاف طِبَاع النَّاس وألوانهم وأخلاقهم ، لذلك فإنَّ للأرض دورٌ في تشكيل صفاتِ النَّاس من حيث الخلقة حسب طبيعة الأرض والموطن ، فنجد سكَّان المناطق الجبلية فيهم الشدَّة والصَّلابة وكذلك السَّهلة ، والبرودة والحرارة والصحراوية والرِّيفية وغير ذلك ، فطبائع النَّاس تميل إلى طبيعة أصلهم من الأرض ومنبتهم من حيث مناطقهم المختلفة ، فمثلًا سُكَّان الجزيرة لهم طِبَاع وأشكال تختلف عن سكان الهند ، وسُكَّان روما يختلفون في أشكالهم وأخلاقهم وطباعهم عن سُكَّان الصِّين ، ثُمَّ قارن بين ذلك في أنحاء العالم في الشَّمال والجنوب والشَّرق والغرب والسَّهل والوعر وغير ذلك من تضاريس وأحوال وصورة الأرض لكونها أصل البشر ، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

---

(١) د. سعيد حوّى (ت ١٤٠٩ هـ) : الأساس في السنة وفقهها – العقائد الإسلامية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط : ٢ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، ٢/ ٥٨٣ .

(٢) مسند أحمد ، برقم (١٩٥٨٣) ، ٣٢/ ٣٥٣ ، أخرجه أبوداود ٤/ ٢٢٢ ، برقم (٤٩٦٣) .

نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾[١] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين لازب ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار[٢] . وقال : الطِّين اللَّازب : الجيد ، والحمأ المسنون : الحمأة ، والصلصال المرقق : الذي يعمل منه الفخَّار ، وإنَّما سُمِّي الإنسان لأنَّهُ عهد إليه فنسي[٣]. قال تعالى : ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[٥] . عن

---

(١) سورة طه : الآية (٥٥).

(٢) اللازب واللاتب واللازق واحد . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٤/ ٢٠٥ ، والحمأة : بفتح فسكون : الطين الأسود المنتن كالحما محركة . الزبيدي : تاج العروس ، ١/ ٢٠٠ ، وقال : من حمإ مسنون : أي : متغير . ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٢٢٧ .

(٣) أبوب الشيخ الأصبهاني : العظمة ، ٥/ ١٥٤٥ .

(٤) سورة ص : الآيات (٧٠-٧٦) .

(٥) سورة الأعراف : الآيات (١٠-١٣).

ابن عباس وابن مسعود وناس من الصَّحابة قالوا : لمَّا سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشاً ، ليس له زوج يسكنُ إليها ، فنام نومةً فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها من ضلعه ، فسألها : من أنت؟ قالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ، قالت : لتسكن إليَّ ، ففرح بها آدم وأطلق عليها اسم حواء ؛ لأنَّها خلقت من شيءٍ حي ، وهو ضلع آدم الأيسر[1] .

ثُمَّ أمر الله آدم وزوجته حوَّاء أن يسكنا الجنَّة ويأكلا من ثمارها ويبتعدا عن شجرة معيَّنة ، لا يأكلا منها امتحاناً واختباراً لهما وابتلاءً ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] .

وحذَّر سبحانه آدم وزوجه تحذيراً شديداً من إبليس وعداوته لهما ، فقال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[3] ، وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم بيديه كرَّمه على سائر خلقه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : «خَلَقَ اللهُ آدَمَ على صُوْرَتِهِ ، طُوْلُهُ سِتُّون ذِرَاعاً ، فلمَّا خَلَقَهُ قال : اذهب فسلِّم على أولئِكَ النَّفر من الملائكة ، جُلُوس ، فاسْتَمِع ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذريَّتِكَ ، فقال : السَّلام عليكم ، فقالوا : السَّلام عليك ورحمةُ الله ، فزادوه : ورحمةُ الله ، فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّة على

---

(١) الطبري : جامع البيان ، ١/ ٥١٣-٥١٤ ، عبدالرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) : تفسير القرآن العظيم ، ت : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار الباز – السعودية ، ط : ٣ ، ١٤١٩هـ ، برقم (٣٧٢) ، ١/ ٨٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية (٣٥).

(٣) سورة طه : الآية (١١٧).

صورةِ آدَمَ ، فلم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حتَّى الآن»[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذَا قَاتَلَ أَحَدُكُم أخَاهُ فليَجْتَنِبِ الوَجْهَ فإنَّ الله خَلَقَ آدَمَ على صُوْرَتِه»[٢] ، وأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم تشريفـًا وتعظيمـًا وتكريمـًا له ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[٣] ، فسجدوا جميعـًا ما عدا إبليس رفض السُّجود حَسَدًا وتكبرًا على أمر ربِّه ، فسأله الله وهو أعلم : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ ، فالتكبُّر والاستعلاء والحسد والعِصْيَان اجتمعت في إبليس فكان شيطانـًا رجيمـًا حيث ردَّ إبليس في غرور : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، فاشتدَّ بُغْضُ إبليس ، فعقد على كراهية آدم وذريَّته وحلف بالله أن يزيِّن لهم الشرَّ وأن يستدرجهم للغِوَايَةِ حيث قال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وأخذ إبليس يفكِّر في إغواء آدم وحواء عليهما السلام ووضع خطة ليخدعهما : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[٤] . فصدَّق آدم وحواء عليهما السلام إبليس بعد أن أقسم لهما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام ، برقم (٥٨٧٣) ، ٥/ ٢٢٩٩ ، وصحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، برقم (٢٨٤١) ، ٤/ ٢١٨٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، برقم (٢٦١٢) ، ٤/ ٢٠١٧ .

(٣) سورة ص ، الآية : (٧٢) .

(٤) سورة طه ، الآية : (١٢٠) .

ظنًّا منهما أنَّهُ لا يمكن لأحدٍ أن يحلف بالله كذبـًا ، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١) ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ آدم نسي ما حذَّره الله من إبليس وعداوته ؛ لأنَّ النِّسيان من طبع الإنسان ، ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾(٢) ، فذهب آدم وحواء إلى الشجرة ، ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾(٣) ، وعند ذلك تذكَّر آدم عليه السَّلام فندم وتاب : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾(٤) ، وبعد التوبة والاستغفار قَبِلَ اللهُ توبتهم ودعائهم ، وأمرهم بالهبوط إلى الأرض والعيش عليها .

وعاش آدم وحواء عليهما السلام على الأرض وبَدَءَا مسيرة الحياة عليها ، وولد لآدم أولاد كثير . وظلَّ آدم بين أبنائه يدعوهم إلى الله ويعرفهم طريق الحق والإسلام والإيمان بالله ، ويحذِّرهم من الشرك والطُّغيان وطاعة الشَّيطان إلى أن لقي ربَّه وتوفي بعد أن أتَمَّ رسالته وعلَّمهم دينهم ، فترك ذريته يعبدون الله ويعمرون الأرض ويخلفونه فيها .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٢١) .

(٢) سورة طه ، الآية : (١١٥) .

(٣) سورة طه ، الآية : (١٢١) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (٢٣).

إنَّ الدِّين عند الله الإسلام :

فالإسلام في اللغة : الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام[١] . وشرعـًا : هو الاستسلام لله سبحانه وتعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله[٢] . هذا هو تعريف دين الله ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣] ، فالدِّين القيِّم هو الإسلام ، عن عياض المجاشعي[٤] أنَّ رسول الله ﷺ قال للنَّاس يومـًا : ألا أُحَدِّثكم بما حَدَّثني الله في كتابه ، أَنَّ الله خَلَقَ آدَمَ وَبَنِيْهِ حُنَفَاءَ مُسْلِمِيْنَ[٥] . فالإسلام هو الدين الذي فرضه الله عزَّ وجلَّ على عباده في الأرض وفي السَّماء القائم على الإيمان بالله وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له وهو الدِّين الذي جاء به آدم عليه

---

(١) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت : ٨١٦هـ) : كتاب التعريفات ، ت : ضبطه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان ، ط : ١ ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م ، ص : ٢٣ .

(٢) محمد بن عبدالوهاب : الأصول الثلاثة ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ٧ .

(٣) سورة الروم ، الآية : (٣٠) .

(٤) عِياض -بكسر أوله وتخفيف التحتانية وآخره معجمة- بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي المجاشعي ، صحابي سكن البصرة وعاش إلى حدود الخمسين . انظر : عزّ الدِّين ابن الأثير : أُسد الغابة ، ٤/ ٣١٠ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٤/ ٦٢٥ ، وتقريب التَّهذيب ، برقم (٥٢٧٤) ، ص : ٤٣٧ .

(٥) أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي(ت : ٣٢١هـ) : شرح مشكل الآثار ، ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ ، برقم (٣٨٧٨) ، ١٠/ ٧ ، وانظر : القرطبي : جامع الأحكام ، ١٤/ ٢٥ .

السلام . قال ابن عباس : بين آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على الإسلام[١] .

وعن سفيان عن عكرمة قال : كان بين آدم ونوح عشرةُ قرون كُلُّهم على الإسلام[٢] . قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣] ، أي : وما كان النَّاس إلَّا على دين واحد هو الإسلام من لَدُنْ آدم إلى نوح عليهما السلام ، فاختلفوا وتفرَّقوا شيعًا وأحزابًا حين أطاعوا الشَّيطان وعبدوا الأوثان ، فبعث الله الرُّسل مبشِّرين ومنذرين[٤] .

فالرُّسل جميعًا جاءوا بدِّين التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، مسلمين له لا يُشركون به شيئًا ، فمن أوَّل من أُمِرَ بالإسلام بعد أدم نوح عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ

(١) الحديث أخرجه الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (٧٥٤٥) ، ٨/ ١١٨ ، والحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٢/ ٤٨٠ ، والهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ٦/ ٣١٨ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٣٦ ، الطبري : جامع البيان ، ٢٣/ ٦٣٩ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ١٢٢ .

(٣) سورة يونس ، الآية : (١٩).

(٤) محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م ، ١/ ٥٣٧ .

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(١)]. فهذا إبراهيم أبوالأنبياء عليه السلام : ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[(٢)] ، فلا يوجد دين لله عزَّ وجلَّ سوى الإسلام ، اصطفاه الله لنفسه وفرضه على عباده ليعبدوه بهذا الدين الحنيف. قال تعالى : ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[(٣)]. قال تعالى :﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[(٤)] ، وكان يأمر أهله أي: قومه. وقيل: أهله جميع أمته ، بالصلاة والزكاة ، قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم ، وهي الحنيفية التي افترضت علينا ، وكان عند ربه مرضيا ، قائما لله بطاعته وقيل: رضيه الله عز وجل لنبوته ورسالته[(٥)] .

وهذا نبيُّ الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم كانوا جميعًا على مِلَّة أبيهم إبراهيم عليهم الصَّلاة والسَّلام دينهم واحد وربهم واحد ، قال تعالى : ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ

---

(١) سورة يونس ، الآيتان : (٧١-٧٢) .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : (١٣١-١٣٢).

(٣) سورة النساء ، الآية : (١٢٥).

(٤) سورة مريم ، الآية : (٥٤-٥٥).

(٥) انظر : الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ) : تفسير البغوي ، ت : محمد عبدالله النمر ، عثمان ضميرية ، سليمان الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٤ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م ، ٦/ ٢٨٧.

ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1][2] .

وهذا رسول الله موسى عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾[3] ، ولمَّا رأى السَّحَرَةُ الحقَّ آمنوا بالله وبدعوة سيِّدنا موسى عليه السلام ، حيث قالوا : ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[4] . فلما أدرك فرعونُ الغرق وتيقَّن الموتَ أراد أن يلحق بالمسلمين ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[5] . وهذه ملكة سبأ بلقيس لمَّا اتَّبعت سيِّدنا سليمان عليه الصلاة والسلام قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[6] . وهاهم الحواريون لمَّا آمنوا بدعوة رسول الله عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام وقد أرسل لبني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾[7] ، وقال تعالى :

---

(١) سورة يوسف ، الآية : (١٠١).

(٢) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ) : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ت : علي بن حسن الألمعي وغيره ، دار الفضيلة ، الرياض ، السعودية ، ط١ ، ١٤٨٤هـ/ ٢٠٠٤م ، ٢/ ٣٦٤-٣٦٦ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ٢٨٤ .

(٣) سورة يونس ، الآية : (٨٤).

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (١٢٦).

(٥) سورة يونس ، الآية : (٩٠).

(٦) سورة النمل ، الآية : (٤٤).

(٧) سورة المائدة ، الآية : (١١١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٢] . وقال سبحانه : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣] . فكان النَّاس على طول الزمن من لدن آدم إلى نوح عليهما السلام ، والتي تقدَّر بعشرة قرون على دين الإسلام ، حتَّى حدث ما حدث في قوم نوح ، فعبدوا الأصنام بسبب الغُلُوِّ في الصالحين والتدرُّج في طاعة الشيطان حتى وقعوا في الشرك وانتشر فيهم وفي من جاء بعدهم من الأمم ، فبعث الله الرُّسل والأنبياء تترى يأمرون النَّاس بالإسلام وتوحيد الله ويحذِّرونهم من الشرك ، هكذا حتى رُفِعَ عيسى عليه السلام وحُرِّفت الشّريعة قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٤] لذلك انتشر الجهل ووقع اليهود والنصارى في الغلو الذي قادهم إلى الشرك ، فاعتقدت اليهود أنَّ عزيرا ابن الله ، واعتقد النصارى أنَّ المسيح ابن الله ، سبحانه وتعالى عما

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٨٣).

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٩).

(٣) سورة آل عمران ، الآية : (٨٥).

(٤) سورة البقرة ، الآية : (٧٩) .

يصفونه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾(١) ، فاتَّخذوا أنبيائهم أرباباً من دون الله فانحرفوا عن الإسلام ، ووقعوا في الشرك والوثنيَّة والعياذ بالله ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾(٢) .

أمَّا جزيرة العرب فقد أمر الله رسوله إبراهيم عليه السلام أن يُسْكِنَ ابنه إسماعيل عند بيته الحرام في بلده الحرام فاختاره الله سبحانه وتعالى وذريته أن يكونوا أهل بيته ، حنفاء على مِلَّةِ أبيهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، على الإسلام ، يؤمنون بالله وحده لا شريك له ويقيمون الصلاة ويؤتون الزَّكاة ويحجُّون بيت الله الحرام ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾(٣) .

وقال تعالى بحق نبيه إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾(٤) ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : (٢٦) .

(٢) سورة مريم ، الآيات : (٨٨-٩٣) .

(٣) سورة الحج ، الآيتان : (٢٦-٢٧) .

(٤) سورة مريم ، الآية : (٥٥) .

تَتَّقُونَ ﴾[١] ، وهذه الآيات وغيرها دلَّتْ على أنَّ الأنبياء جميعـًا أتَوا بدين الإسلام ، وما فيه من تشريع كإقام الصلاة وإيتاء الزَّكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام ، وهذه الأركان التي يقوم عليها الإسلام ، وهي ما أمر الله تبارك وتعالى بها بني إسرائيل في قوله :﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٢] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق[٣] فقال : «أيُّ وادٍ هذا» ، فقال : هذا وادي الأزرق ، قال : «كأَنِّي أَنْظُرُ إلى موسى عليه السَّلام هابِطٌ من الثنيَّة ولَهُ جُؤَارٌ إلى الله بالتَّلْبِيَةِ» ، ثُمَّ أتى على ثنية هَرْشَى[٤] فقال : «أيُّ ثنيةٍ هَذِه»؟ قالوا : ثنيَّةُ هَرْشَى ، قال : «كأَنِّي أَنْظُرُ إلى يونس بن متَّى عليه السَّلام على نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَة عليه

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٨٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : (٤٢-٤٣).

(٣) الأَزْرَق : بلفظ الأزرق من الألوان وادي الأزرق بالحجاز و الأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء. ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ١/ ١٦٨.

(٤) هَرْشَى – بالفتح ثم السكون-: هضبة دون المدينة ، قال : حذا أنف هرشى . قال الشريف علي : هرشى نقب في حرة بين الأخَيمص وبين السُقيا وعلى المدينة ويليه جبال يقال لها : طِوال هرشى . محمود الزمخشري : الجبال والأمكنة والمياه ، ١/ ٣٢٧- ٣٢٨ . وانظر : محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٥٩٢ .

قال في المعالم الأثيرة : هرشى : هي ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة ، يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك طريقا منها أفضى به إلى موضع واحد ، ولذلك قال الشاعر : خذ أنف هرشى أوقفاها فإنما كلا جانبي هرشى لهنّ طريق . محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٩٤ .

جُبَّة من صوفٍ وَهُوَ يُلبِّي»[1] .

فالحجُّ والتَّلبية هي من شرائع الإسلام الحنيف والتلبية هي قول : لبيَّك اللهمَّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، وهذه الألفاظ ألفاظٌ عربيَّة إسلاميَّة ، أما عن الحدود فقد أُتِيَ رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود ، فقال : «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا : نسود وجوههما ونحملهما ، ونخالف بين وجوههما ، ويطاف بهما ، قال : «فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين» ، فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها ، وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام : وهو مع رسول الله ﷺ مُرْهُ فليرفع يده ، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما[2] ، ولله أن يحكم ما يشاء وأن يشرع ما يشاء ، فالإسلام هو الدِّين الذي ارتضاه الله لعبادة ، وقد قال عمر رضي الله عنه للرجل من جذام حين فرّق بينه وبين أحد زوجاته وكان قد جمع تحته أختين شقيقتين قبل إسلامه فقال قولةً منكرةً عند ذلك ، فردَّ عليه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقال : أتتشاءم بالإسلام يا عدو الله وعدو نفسه وهو الدين الذي ارتضاه الله لملائكته ورسله وخيرته من خلقه[3] . قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (١٦٦) ، ١/ ١٥٢ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، برقم(١٦٩٩) ، ٣/ ١٣٢٦ .

(٣) انظر : محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء ، المدني ، الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) : فتوح الشام ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م ، ١/ ٢٢٨ .

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] فليس هناك دين لله عز وجل سوى الإسلام في الأرض وفي السَّماء ولو كان لكل نبي دين مستقل لكانت الأديان عدد الرسل والأنبياء الذين لا يحصيهم إلا الله عز وجل ، هذا والله تعالى أعلم .

(١) سورة الشورى ، الآية : (١٣) .

أخلاقُ العربِ الكريمة من أخلاقِ الإسلام :

قال تبارك وتعالى على لسان نبيِّه عيسى ابن مريم عليهما السلام : ﴿..إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1] ، قال تعالى :﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[2] وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد . حين وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدي ، وقيل : إنَّ إسماعيل لم يعد شيئًا إلَّا وفَّى به[3] . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وهذا أيضًا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة حيث كان مثابراً على طاعة ربه آمراً بها لأهل[4] . مع ما كان عليه من أدب إبراهيم عليه السلام وبره وحبه الضيف وأخلاقه الكريمة فنشأت ذريته على مكارم الأخلاق التي امتازت بها العرب عن غيرها من الأمم .

فمكث العرب زمنًا بعيداً وقرونًا طويلة على الحنيفية دين إبراهيم وعلى الأخلاق الحسنة ، أخلاق الإسلام التي أرسل الله بها النبيين وأوصى بها عباده المؤمنين من الإيمان بالله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبرِّ الوالدين ، وإكرام الضَّيف ، وحُسن الجوار ، وصِلَة

---

(١) سورة مريم ، الآيات : (٣٠-٣٢) .

(٢) سورة مريم ، الآية : (٥٤-٥٥).

(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٤/ ٣٠٩ .

(٤) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٤/ ٣٠٩ .

الأرحام ، ورِعَاية الأيتام ، وإعانة الضعيف ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإكساب المعدوم ، والصِّدق ، والأمانة ، والصَّبر ، والشَّجاعة ، والعفَّة ، والحياء ، والسَّماحة ، والإصلاح ، والعفو ، والصَّفح ، والإحسان وغيرها من مكارم الأخلاق التي كانت تعتزُّ بها العرب ، قال ﷺ : «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جوادٌ يُحِبُّ الجُوْدَ ومَكَارِمَ الأَخْلَاق ، ويُبْغِضُ سَفْسَافَهَا»[1] فالأخلاق الكريمة لا تنفصل عن دين الإسلام أبداً .

فكانت العرب تتنافس هذه الأخلاق الكريمة التي تربَّت عليها ، من أخلاق أبيهم إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ومنها إكرام الضَّيف ولا أدل على ذلك إلا حين دخل عليه ثلاثة من الملائكة على هيئة البشر ، قال تعالى : ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[2] ، فدخلوا عليه قبل الاستئذان وهذا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان قد عُرف بالكرم وحُبِّ الأضياف ، وإقراء الضَّيف ، حتَّى صار منزله مَضْيَفَةً مطروقاً لمن ورده مفتوحاً لمن قصده ، مأوى للأضياف وهو غاية ما يكون من الكرم ، ثُمَّ قال سبحانه وتعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[3] ، والرَّوَغَانُ هو سرعة الحركة وخفَّتها حتى لا يكاد الضَّيف أن يشعر به ، وهذا من كرم ربِّ المنزل فلا يشعر به إلَّا وقد جاء بالقرى

---

(١) أبونعيم الأصبهاني (ت : ٤٣٠هـ) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، السعادة – بجوار محافظة مصر ، ١٩٧٤م ، ٥/ ٢٨ ، وصححه الألباني. محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزياداته ، برقم : (١٧٤٤) ، ١/ ٣٥٩ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : (٢٥) .

(٣) سورة الذاريات ، الآية : (٢٦) .

بخلاف من يُسمع ضيفه الضجيج وقعقعة الآنية ممَّا يثير حياء الضَّيف واحتشامه ، كونه قد شقَّ على ربِّ المنزل ، قال تعالى : ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ : يدلُّ على خدمته للضيف بنفسه ، ولم يقل : فأمر لهم ، بل هو قد ذهب على وجه السُّرعة ، حتى قدَّمه لهم ، وقرَّبه إليهم بنفسه ، وأنَّهُ جاء بعجل كامل ولم يأت ببعضه ، وهذا من تمام كرمه عليه الصلاة والسلام ، ثُمَّ كان من وصف هذا العجل أَنَّهُ سمين لا هزيل ، ومثل هذا العجل من أفخر المال يتخذ للاقتناء والتربية ، فآثر به ضيفه ، وقال تعالى في موضع آخر : ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1] ، والحنيذ هو اللحم المشوي في خَدٍّ من الأرض بالرَّضَفِ وهي الحجارة المحماة أو ما حُفِرَ له ثُمَّ غُمَّ حتى ينضج[2] . وهذا من أطيب الطَّعام وألذه ومع أنهم ثلاثة نفر إلَّا أَنَّهُ بالغ في إكرامهم فقدَّم قراهم عجلًا سميناً كاملًا حنيذاً ، أي : ناضجًا وعلى عَجَل ، ثُمَّ قرَّبه إليهم ، ولم يقربهم إليه ، وهذا أبلغ في الإكرام أن تُجلس الضَّيف وتحمل الطعام إلى مجلسه وتقربه إليه . لا أن تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه ففي هذه الآيات آداب الضيافة التي هي من أشرف الآداب ، وهذا ما توارثته العرب عن أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام من إقراء الضيف إلى يومنا هذا ، فلا غرابة إذن أن نرى سُكَّان الجزيرة العربية يتنافسون هذه الأخلاق الفاضلة ، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ : «إِنَّما بُعثتُ لأُتمم مكارمَ

---

(١) سورة هود ، الآية : (٦٩) .

(٢) انظر : محمد بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) : تفسير القرآن الكريم ، ت : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، ص : ٤٨٨ .

الأخلاق»[١] . وقال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَه»[٢] . وقال : «مَنْ كَانَ يُؤْمن بالله واليوم الآخِرِ فليُكْرِم جَارَه»[٣] . وما أجمل قول أُمِّنَا خديجة لمَّا نزل الوحي على رسول الله ﷺ وقد جاءها خائفاً من هول الموقف ، حيث قالت : «وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[٤] .

فهذه هي أخلاق الإسلام التي كانت تعرف في جزيرة العرب ، والتي توارثوها كابراً عن كابر ، فضربوا في ذلك أروع الأمثلة ، وقد تميَّزت قريش عن سائر العرب بإكرام ضيوف الرحمن ، فكانوا يُطْعِمُون الحاج والمعتمر وكان أحدهم لا يضع باباً لداره حباً وكرامة للضيف .

وكان من أشهر العرب وأجودهم في إكرام الضيف سيِّد مضر عبدالمطلب بن هاشم جدُّ رسول الله ﷺ الذي أشبع النَّاس في السَّهل ، وأشبع السِّباع في الجبل ، صاحب زمزم وصاحب السِّقاية والرِّفادة ، ومن

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه البزار في المسند برقم (٨٩٤٩) ، انظر : البخاري : الأدب المفرد ، ص : ٦٨ ، برقم (٢٧٣) . بلفظ : صالحي ، بدل : مكارم .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ، برقم (٥٦٧٢) ، ٥/ ٢٢٤٠ ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٤٧) ، ١/ ٦٨ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، (٥٦٧٢) ، ٥/ ٢٢٤٠ . وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٤٧) ، ١/ ٦٨ .

(٤) عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ) : المصنَّف ، ت : حبيب الرحمن الأعظمي ، المجلس العلمي ، الهند ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ، ٥/ ٣٢١ ، برقم (٩٧١٩) .

أجواد العرب أيضاً حاتم الطائي[١] الذي يضرب به المثل ، وعبدالله بن جدعان[٢] ، صاحب حلف الفضول الذي يقول عنه رسول الله ﷺ : «شهدتُ حِلْفاً في دار عبدالله بن جدعان ولو دُعيت إلى مِثْلِهِ الآنَ لأَجَبْتُ»[٣] . وهرم بن سنان[٤] ، والمطعم بن عدي[٥] ، وكعب بن أمامة

(١) حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي ، فارس شاعر جواد جاهلي ، يضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد ، وزار الشام فتزوج ماوية الغسانية ، ومات في عوارض جبل في بلاد طيِّئ ، كانت وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيِّ ﷺ . انظر : حسين بن محمد الدِّيار بَكْري (ت: ٩٦٦هـ) : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، دار صادر – بيروت ، (د.ت) ، ١/ ٢٥٥ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ١٥١ .

(٢) عبدالله بن جدعان التيمي ، جدُّ علي بن زيد بن جدعان ، من أجواد قريش ، واسم جده عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة ، يجتمع مع أبي بكر الصديق في عمرو بن كعب ، ومات قبل الإسلام ، وقد قال النبي ﷺ : «شهدت مأدبة في دار ابن جدعان» . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٤ .

(٣) انظر : محمد بن إسحاق الفاكهي (ت: ٢٧٢هـ) : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ت : د. عبدالملك عبدالله دهيش ، دار خضر ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ ، ٣/ ٣٢٠ ، الطحاوي : شرح مشكل الآثار ، ١٥/ ٢٢١ .

(٤) هرم بن سنان المرّي : هو الذي أصلح بين بني عبس وبني فزارة بعد أن كادوا يتفانون في الحرب التي كانت بينهم بسبب داحس والغبراء ، وهو الّذي عناه زهير بن أبي سلمي الشّاعر المشهور والد كعب بن زهير بقوله فيه وفي رفيقه : تداركتما عبساً وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٤٤٧ .

(٥) المطعم بن عَدِيّ بن نوفل بن عبدمناف ، من قريش : رئيس بني نوفل في الجاهلية ، وهو الذي أجار رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف وعاد متوجِّها إلى مكة ، كان أحد الذين مزقوا الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ، عَمِيَ في كبره ، ومات قبل وقعة بدر ، وله بضع وتسعون سنة . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٧/ ٢٥٢ .

الإيادي[١] ، وعمرو بن الأهتم[٢] وغيرهم كثير والكثير .

ومن أجواد العرب أيضاً أزواد الرَّكب ، وإنَّما أُطلق عليهم أزواد الرَّكب ؛ لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزوَّد معهم أحد ، وهم مسافر بن أبي عمرو بن عبد شمس[٣] ، وأبو أمية المغيرة من بني مخزوم[٤] ، وزمعة بن الأسود بن المطلب[٥] ، كُلُّهم من قريش .

لقد تميَّز العرب بإكرام الضَّيف وتنافسوا بهذا الخلق الكريم ،

---

(١) كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي ، أبودؤاد ، كريم ، جاهلي ، يضرب به المثل في حسن الجوار ، فيقال : أجود من كعب بن مامة ، وهو صاحب القصة المشهورة في الإيثار : اسق أخاك النمري ، قال أبوعبيدة : أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة ، وحاتم طيِّئ ، وهرم بن سنان . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٢٢٩ .

(٢) عمرو بن سنان بن سمي التميمي المنقري ، أحد السَّادات الشعراء الخطباء في الجاهلية والإسلام ، من أهل نجد ، كان يدعى المكحل ؛ لجماله في شبابه ، وفد على النبيِّ ﷺ فأسلم ولقي كرامة وحفاوةً ، ولما تكلَّم بين يدي النبيِّ ﷺ أعجبه كلامه فقال : إن من البيان لسحرا . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٩٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٧٨ .

(٣) مُسَافِر بن أَبي عَمْرو ، اسمه : ذكوان ابن أمية بن عبد شمس ، شاعر ، من سادات بني أمية وأجوادهم في الجاهلية ، نشأ بمكة ، ووفد على النعمان بن المنذر فأكرمه وجعله في خاصة ندمائه ، قال ابن حبيب : كان أبوطالب نديماً لمسافر بن أبي عمرو . انظر : ابن حبيب : المحبر : ص : ١٧٤ ، الزركلي : الأعلام ، ٧/ ٢١٣-٢١٤ .

(٤) انظر : ابن حبيب : المحبر : ص : ١٣٧ .

(٥) ومن بني أسد بن عبدالعزى بن قصي : زمعة بن الأسود بن المطلب ابن أسد ، قال ابن هشام : قتله ثابت بن الجذع ، أخو بني حرام ، ويقال : اشترك فيه حمزة وعلي بن أبي طالب وثابت . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٧٠٩ ، ابن حبيب : المحبر ، ص : ١٣٧ .

وافتخروا به على سائر الأمم ، ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم والشجاعة والغيرة..

يقول حاتم الطائي :

يقولونَ لي أَهْلَكْتَ مَالَكَ فَاقْتَصِد   ومَا كُنْتُ لَوْلَا مَا تَقُوْلُوْنَ سَيِّدا[١]

وكانوا ينكرون البخل ؛ لأَنَّهُ مُزْرٍ بأخلاق الرِّجال ، وواضع من عوالي الصفات . فالشَّاعر عمرو بن الأهتم يدعو زوجته لأن تدع لومه لبذل المال .

ذريني فإنَّ البخلَ يا أمَ هيثم   لِصَالح أخلاقِ الرِّجَالِ سَرُوْقُ
ذَرِيْنِي وَحُطِّي في هَواي فإنَّني   عَلَى الحَسَبِ الزَّاكي الرَّفِيْعِ شَفِيْقُ
ومستنبحٍ بعد الهُدُوْءِ دَعَوْتُهُ   وقَدْ حَلَّ من نَجْمِ الشِّتَاءِ خَفُوْقُ
فقالت لَهُ : أهلًا وسهلًا ومرحبًا   فَهَذَا صبوح رَاهِنٌ وصَدِيْقُ
وكُلُّ كَرِيْمٍ يتَّقي الذمَّ بالقِرَى   وللخَيْرِ بينَ الصَّالحينَ طَرِيْقُ
لعَمْرُكَ ما ضَاقَتْ بلادٌ بأَهْلِهَا   ولكنَّ أخلاقَ الرِّجَالِ تَضِيْقُ[٢]

وفي الحديث : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ سيِّدُكُم يا بَنِي سَلِمَة؟» قلنا : الجد بن قيس[٣] ، على أَنَّا نُبَخِّله ، قال : «وأيُّ داءٍ أَدْوَى من

---

(١) ديوان حاتم الطائي ، ط : بيروت ، ص : ٨ .

(٢) المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (ت : نحو ١٦٨هـ) ، المفضليات ، ت : أحمد شاكر ، وعبدالسلام هارون ، دار المعارف - القاهرة ، ط : ٦ ، ص : ١٢٥-١٢٧ ، القصيدة (٢٣) .

(٣) جَدُّ بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن غنم بن كعب بن سلمة =

البُخْل؟ بل سيِّدُكُم عمرو بن الجموح[١]»[٢] . لقد تفانى العرب في الحفاوة بالضَّيف والتعهُّد له ، وتنافسوا في إكرامه وتلمُّس الأسباب التي تُدخل على نفسه السُّرور ، ومن ذلك الترحيب به ساعة قدومه ، وبسط الوجه له ومضاحكته حتى يأنس بذلك وينزل وهو مطمئن ، يقول عمرو بن الهتم في ذلك[٣] :

=

الأنصاري ، روى الطّبراني عن أبي الزبير عن جابر ، قال : حملني خالي جد بن قيس وما أقدر أن أرمي بحجر في السَّبعين راكباً من الأنصار الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فذكر الحديث في بيعة العقبة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ت : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ١/ ٢٦٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٥٧٥ .

(١) عمرو بن الجموح بن زيد الأنصاري ، من الخزرج ، شهد العقبة وبدراً ، واستشهد يوم أحد ، ودفن هو وعبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبدالله في قبر واحد ، وكانا صهرين متصافيين . روى الشعبي أنَّ نفراً من الأنصار من بني سلمة أتوا رسول الله ﷺ فقال : من سيدكم يا بني سلمة؟ فقالوا : الجد بن قيس على بخل فيه ، فقال رسول الله ﷺ : وأي داء أدوى من البخل ، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح ، كان آخر الأنصار إسلاماً ، قيل : إن عمرو بن الجموح كان له أربعة بنين يقاتلون مع رسول الله ﷺ . انظر : علي بن محمد بن عبدالكريم ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ت : علي معوض - عادل عبدالموجود ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، ٤/ ١٩٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥٦٠ .

(٢) البخاري : الأدب المفرد ، برقم (٢٩٦) ، ص : ٧٣ ، وصححه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد .

(٣) الخالديان أبوبكر محمد بن هاشم الخالدي ، ت : نحو ٣٨٠هـ ، وأبوعثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت : ٣٧١هـ) : حماسة الخالديين = بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين ، ت : د.محمد علي دقة ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٩٥ ، ٢/ ١٠٠ .

وضاحَكْتُه مِنْ قَبْل عِرْفَانِيَ اسْمَهُ   لِيَأْنَسَ إنِّي للكَسِيْر رَفِيْقُ

وقال عروة بن الورد[١] :

فِرَاشِي فِرَاشُ الضَّيفِ والبيتُ بيتُه   ولم يُلْهِنِي عنه غَزَالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثه إنَّ الحديثَ من القِرَى   وَتَعْلَمُ نَفْسِي أنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

ومن حُبِّهم لهذا الخُلُق الكريم كانوا يُشْعِلُون النَّار ليلًا على رؤوس الجبال حتى يهتدي إليهم الضَّيف في أيِّ ساعةٍ كانت ، يقول حاتم الطَّائي لغلامه في ليلةٍ باردة[٢] :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قِرٌّ   والرِّيحُ يا غُلَامُ ريحٌ صِرٌّ
إن جلبت ضَيْفًا فأنتَ حُرٌّ

حفظوا حقَّ الجار بالإكرام والاحترام ، قال عنترة[٣] :

وأَغُضُّ طرفي إنْ بَدَتْ لي جَارَتِي   حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
إنِّي امرؤٌ سَمْحُ الخليقة ماجدٌ   لا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجوجَ هواها

---

(١) عروة بن الورد ، ديوانه ١/ ٣٢.

(٢) انظر : أحمد محمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر ، ص ٣١٦ - ٣١٨ ، ومحمود شكري الألوسي : بلوغ الأرب ، شرحه : محمد بهجة الأثري ، ط : ٢ ، ١/ ٦ .

(٣) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي ، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، من شعراء الطبقة الأولى ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة ، سرى إليه السواد منها ، وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا ، يوصف بالحلم على شدة بطشه ، وفي شعره رقَّة وعذوبة . (ت : ٢٢ ق هـ) . انظر : مقدمة ديوان عنترة ، ط : بيروت ، ص : ١ ، معجم الشعراء العرب ، ص : ١٨٢٦ .

قال رسول الله ﷺ : «ومَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوْصِيْنِي بالجَارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُوَرِّثه»[١] .

وقد حفظ العربُ حقَّ الجوار ، فكان أحدُهم يُضَحِّي بنفسه وولده في سبيل إجارته من استجار ودخل في حماه ، فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب : «فإنَّ أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة فهي ولث (أي : عهد) وعقدة لا يحلُّها إلَّا خروج نفسه ، وإنَّ أحدَهُم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمَّتُه ، وإنَّ أحَدَهُم ليبلغه أنَّ رجلًا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيُصَاب فلا يرضي حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره ، وإنَّهُ ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله»[٢] .

عن علي بن أبي طالب قال : لما أُتِيَ بسبايا طيئ وقعت في الأسر جارية فائقة الجمال ، قال : فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلبنَّ إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيئي ، فلمَّا تكلَّمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإنِّي ابنة سيِّد قومي ، وإنَّ أبي كان يحمي الذِّمار ، ويفكُّ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب الوصاءة بالجار ، برقم (٥٦٦٩) ، ٥/ ٢٢٣٩ ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، برقم (٢٦٢٥) ، ٤/ ٢٠٢٥ . .

(٢) انظر : الألوسي : بلوغ الأرب ، ١/ ١٥٠ ، محمد طاهر الكردي المكي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، طبع على نفقه عبدالملك بن دهيش ، يطلب من مكتبة النهضة الحديثة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م ، ١/ ٩٦ .

العاني ، ويُشْبعُ الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضَّيف ، ويُطْعِمُ الطَّعام ، ويُفْشِي السَّلام ، ولم يَرُدَّ طالب حاجةٍ قط ، وأنا ابنة حاتم طيئ . فقال النبيُّ ﷺ : «يا جاريةُ ، هذه صِفَةُ المؤمنين حقًا لو كان أبوكِ مُؤْمِنًا لترحَّمنا عليه ، خَلُّوا عنها فإنَّ أباها كان يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ والله تعالى يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاق»[1] .

فقام أبوبردة بن نيار[2] فقال يا رسول الله ، والله يحبُّ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ : «والَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَدْخُلُ الجنَّة أَحَدٌ إلَّا بحُسْنِ الخُلُق»[3] .

وقد ضرب الصَّحابة أروع الأمثال في مكارم الخلاق لما سكن الإيمان في قلوبهم ، اتباعًا واقتداءً بأكرم الخلق وسيِّد الأوَّلين والآخرين الَّذي كان يعطي الوادي من الغنم والمئين من الإبل ، أكرم ولد آدم وأكرم الخلق قاطبة صلوات ربي وسلامه عليه .

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، ت : عبدالله التركي ، دار هجر للطباعة والنشر ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ٣/ ٢٥٥ ، ٧/ ٣٠٠ .

(٢) في دلائل النبوة : دينار ، وفي الكنى والأسماء : محمد بن أحمد الدولابي (ت: ٣١٠هـ) ، ت : أبوقتيبة الفاريابي ، دار ابن حزم - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ١/ ٤٧ : نيار ، واسمه هانئ . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٧/ ٣٠٠ .

(٣) البيهقي : شعب الإيمان ، برقم (٨٠١٣) ، ٦/ ٢٤١ ، قال الألباني : ضعيف جداً . انظر : السلسلة الضعيفة برقم (٥٣٩٧) .

دخولُ الشرك في جزيرة العرب :

وبسبب طول الفترة الزمنية بين نبيِّ الله إسماعيل عليه السلام وبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين كان ذلك عاملًا في انتشار الجهل في الجزيرة العربية ، حيث كثر السِّحر ، والكهانة ، والعرَّافين ، ومن يستخدمون الجانَّ ، والمنجِّمين ، حتَّى عموا جزيرة العرب ، وأصبح لكثير من القبائل كاهن أو كاهنة ، مثل كاهنة بني سعد[١] ، والكاهن الخزاعي[٢] ، وشق ، وسطيح[٣] ، والأفعى الجرهمي[٤] ، وعزى سلمة العذري[٥] ، والغيطلة كاهنة بني سهم[٦] ، والكاهنة الشعثاء[٧] ، والزَّرقاء[٨] ، وطريفة[٩] ، وسَجَاح[١٠] ، وزهير الكاهن[١١] ، وغيرهم

---

(١) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ١/ ٢٢٢ .

(٢) انظر : علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) : أعلام النبوة ، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ط :١ ، ١٤٠٩هـ ، ص : ١٩٣ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ١٥ .

(٤) انظر : الماوردي : أعلام النبوة ، ص : ١٨٦ .

(٥) انظر : محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ص٩٤ .

(٦) انظر : عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية ، ت : عمر عبدالسلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، ٢/ ٢٠٢ .

(٧) انظر : أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت: ٥١٨هـ) : مجمع الأمثال ، ت : محمد محيى الدين عبدالحميد ، دار المعرفة – بيروت ، لبنان ، ص : ١٣٧ .

(٨) انظر : البكري : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ١/ ٢١ .

(٩) انظر : الميداني : مجمع الأمثال ، ص : ٢٧٥ .

(١٠) انظر : المصدر السابق ، ص : ٣٢٦ .

(١١) انظر : عمر بن مظفر بن عمر ابن الوردي (ت : ٧٤٩هـ) : تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م ، ١/ ٦٤ .

الكثير من الكُهَّان والسَّحرة حيث كان لهم أبلغ الأثر في إفساد عقائد النَّاس ونشر الشرك ، وأمرهم النَّاس بعبادة الأوثان والذبح لها ، وعبادة الجن والشَّياطين التي تسعى لإفساد بني آدم .

والمعلوم أنَّ هذه الشياطين لا تُقَدِّم أيَّ خدمةٍ لساحر ولا لكاهن حتى يَصرف لها نوعًا من أنواع العبادة التي لا تُصرف إلا لله وحده ، كالذَّبح لغير الله ، والنَّذر والدُّعاء والاستغاثة ، فتقوم هذه الشياطين باستراق السَّمع وادِّعاء علم بعض المغيَّبات ، الأمر الذي أدَّى إلى اعتقاد النَّاس فيهم مع جهلهم وبُعدهم عن دين الله وذهاب العلم والعلماء وانتشار الجهل والفساد ممَّا هيَّأ العرب اعتقاد الشرك وعبادة الأصنام والأوثان ، فكان أول من أدخل الشرك في دين العرب الكاهن عمرو بن لحي الخزاعي حين أتى بالأصنام وأمرهم بعبادتها تقرُّبا بها إلى الله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي[١] : «يا أكثمُ رأيتُ عَمْرو بنَ لحي بن قمعة بن خندف يجرُّ قصبه في النَّار ، فما رأيتُ رجلًا أشبه برجل مِنْهُ بِكَ» ، قال أكثم : يا رسولَ اللهِ يضرُّني شبهه؟ قال : «لا ، هُوَ كَافِر ، إنَّهُ كان أوَّلَ من غيَّر دينَ

(١) أكثم بن الجون أو ابن أبي الجون. واسمه عبد العزى بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حبشية بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، وهو عمّ سليمان بن صرد الخزاعي. صَحِب رسول الله ﷺ ، وهو الَّذي قال له ﷺ : يا أكثم ، رأيت عمرو ابن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار ، وما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك. فقال أكثم: أيضرّني شبهه يا رسول الله؟ قَالَ: لا ، إنك مؤمن وهو كافر...الحديث. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ١/ ١٤١-١٤٢ ، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ١/ ٢٥٨.

إسـماعيل ، فـسَيَّبَ الـسَّائِبَةَ ، وبحـر البَحِيْـرَةَ ، وَوَصَـلَ الوَاصِـلَةَ ، وَحَمَـى الحَامِي»[١] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «رأيتُ عمرو بن عامر بن لحي الخُزاعيِّ يَجُرُّ قصبَهُ في النَّار ، وكانَ أوَّل من سيَّبَ السَّوَائِبَ»[٢] .

قال ابن هشام : حدَّثني بعضُ أهل العلم أنَّ عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلمَّا قدم مَآب[٣] من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ، فأعطوه صنماً يقال له : هُبَلْ ، فقدم به مكة فنصبه عند الكعبة ، وأمر النَّاس بعبادته وتعظيمه[٤] .

وقد كان عمرو بن لحي مَلِكًا من مُلوك العرب الجبابرة[٥] ، أمثال

---

(١) أحمد بن عمرٍو البصرِي البزَّار (ت : ٢٩٢هـ) : مسند البزار ، فهرسه : علي بن نايف الشحود ، (د.ت) ، (د.ط) ، ٢/ ٤٧٩ ، برقم (٨٩٩١) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب قصة خزاعة ، برقم (٣٣٣٣) ، ٣/ ١٢٩٧ .

(٣) بعد الهمزة المفتوحة باء ، بوزن معاب : مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء . انظر : عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٢١٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٧٧ .

(٥) انظر : عماد الدين إسماعيل بن علي بن أيوب ، الملك المؤيد صاحب حماة (ت : ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية المصرية ، ط : ١ ، ١/ ٧٦ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٧/ ١٤ .

فرعون وذو نواس الَّذين أجبروا النَّاس على الكفر والخروج عن طاعة الله والشرك بالله ، ومثاله قول فرعون في الآية الكريمة : ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2] ، أمَّا الثَّاني فقد أحرق كُلَّ من آمن بالله ، قال تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3] ، فملك عمرو مكة ، وبسط عليها حُكمه ، وأجلى أهلها منها ، وهكذا الملوك الجبابرة المفسدون ، يفعلون في كُلِّ مكان وزمان فيفرضون على النَّاس الدِّين واللُّغة والأخلاق ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[4] ، ومع هذا فقد كان عمرو له رِئْيٌ من الجنِّ يُمْلِي عليه[5] ويدلُّه على الشرك وعبادة الأصنام ، فاجتمع له قُوَّةُ السُّلطان مع تسلُّط الشَّيطان وما تعنيه الكهانة من الكفر بالله وإغواء النَّاس ونشر الشرك والفساد في الأرض ، كما قام بجلب الأصنام من بلاد الشام وأدخلها البلد الحرام ، ثُمَّ نصبها حول الكعبة وأمر النَّاس بعبادتها وتعظيمها والدُّعاء عندها وأنَّها تقربهم إلى الله زلفى ، وشرع لهم شرائع وفرض لهم فرائض

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : (٢٩) .

(٢) سورة القصص ، الآية : (٤) .

(٣) سورة البروج ، الآيات : (٤-٨) .

(٤) سورة النمل ، الآية : (٣٤) .

(٥) محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ص : ٣٢٧ .

من الأفعال والأقوال التي كان الشَّيطان يلقِّنه إياها ، ومن ذلك : التَّلبية التي كانت العرب تُلَبِّي بها في الحج وهي شعار الإسلام والتوحيد : لبَّيك اللهمَّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك. حيث زاد فيها شيطانه : إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ، فأدخل فيها الشرك مع الإيمان ، وكان عمرو بن لحي يُرَدِّدُها خلف الشَّيطان ، ثُمَّ أمر العرب أن يُلَبُّوا بها في حَجِّهم[1] ، وهذا ما أنكره الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2] .

فلبَّس إبليس على العرب دينهم وأدخل الشرك في عبادتهم وأفسد عليهم عقيدتهم ، وقد صدَّق إبليس عليهم ظنَّه حين قال : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[3] .

فعمرو بن لحي هو داعية الوثنيَّة الأوَّل في بلد الله الحرام ، حيث قام بأمرٍ الشياطين باستخراج الأصنام التي دفنها الطُّوفان وتفريقها في قبائل العرب ، وأمرهم أن يعبدوها ، ثُمَّ مع تعاقُب السِّنين وقِلَّة المصلحين وانتشار الجهل ؛ دَبَّ الشرك في قلوب النَّاس ، ولأنَّ العرب كانوا قبل ذلك على دين أبيهم إبراهيم ولديهم موروث ديني يؤمنون بالله ويعبدونه مع ما طرأ عليهم من الشرك والوثنيَّة ، أضف إلى ذلك أنَّ مكة مهوى

(١) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣/ ١٨٨ ، ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص : ٢١٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : (١٠٦) .

(٣) سورة النساء ، الآيتان : (١١٨-١١٩) .

أفئدة النَّاس والمركز الديني والحرم المقدَّس ومقصد حجَّاج بيت الله الحرام حيث يؤدُّون مناسك الحج من شعائر الإسلام كالوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى وذبح الهدي ورمي الجمار والطواف بالبيت والسَّعي بين الصفا والمروة ، وكان موسم الحجِّ مجتمع العرب الأعظم يتبادلون فيه المنافع والمصالح ويتناقلون فيه الأخبار والأشعار ، وكان من شهد الحج وشاهد تلك الأنصاب حول الكعبة والنَّاس يعظمونها ويقدِّسونها ظناً فيها ، فكانت الظعينة[١] لا تظعن من الحرم حتى تأخذ من أحجار مكة اعتقاداً منهم في نفعها وبركتها فتتخذ كأنصاب ، الأمر الذي ساعد على انتشار الشرك في جزيرة العرب ورسوخه في قلوب النَّاس ، استبدلوا طاعة الله بطاعة الشَّيطان والكُهَّان الَّذين يأمرونهم بالشرك والكفر بالله عز وجل ، يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال .

كما عمَّ الجهل والعصبية الجاهليَّة والنَّهب والسَّلب والقتل وكثرة الدِّماء وشرب الخمر والميسر والرِّبا والزِّنا مع القيان ، فانقلب حال العرب إلى أسوأ حال في ظلمات الشرك والضلال . وهكذا إلى أن أشرقت الدُّنيا بمبعث خاتم الأنبياء والمرسلين سيِّدنا محمد بن عبدالله ﷺ ، وأشرق نور الإسلام من جديد لإعادة النَّاس إلى التوحيد ، والقضاء على الوثنيَّة وتدميرها ونزعها من قلوب النَّاس لينتشر الدِّين الصحيح في جزيرة العرب وفي أنحاء العالم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

---

(١) الظَّعِينة : الراحلةُ الَّتِي يُرْحَلُ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ: الظَّعِينة المرأَة فِي الْهَوْدَج انظر: لسان العرب ١٣/ ٢٧١.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] ، فدارت أحداث ومواقف نبويَّة للقضاء على الوثنيَّة سأتناولها إن شاء الله بالتفصيل .

(١) سورة الصف ، الآية : (٨) .

الفصل الأول :
موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك بالله

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأوَّل : موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك في الكتاب والسنَّة .

المبحث الثاني : مواقف النبيِّ ﷺ في الدَّعوة إلى التَّوحيد ونَبْذِ الشرك .

المبحث الثالث : محاربة الشرك والمشركين قبل فتح مكَّة .

المبحث الأول :
موقفُ الإسلامِ من الوثنيَّة والشرك في الكتاب والسُّنَّة

لقد كان موقفُ الإسلام تجاه الوثنيَّة حازمـًا منذ البداية ، فالإسلام هو دين الله الخالص من الشرك ، والقائم على التَّوحيد ومحاربة الوثنيَّة بجميع أشكالها وألوانها ، لذا تعدَّدت الأساليب والوسائل الَّتي تُبيِّن مواقفه الواضحة منها وما يتبعها مِن شعائر ، وفي هذا المبحث سأبيِّن -إن شاء الله- موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك من خلال نصوص الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهَّرة .

[موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك من خلال نصوص الكتاب العزيز]

جاءت النُّصوص القرآنيَّة التي بيَّنت موقف الإسلام من الشرك متنوِّعةً ومتعدِّدةً ، ناهيةً عن الشرك آمرةً بالتَّوحيد ، مُعرِّفة بمظاهر الشرك ، ومُبيِّنة لأسبابه ، ومُنذرةً مِنْ شُؤمه وآثاره الدُّنيويَّة والأُخرَويَّة لعلَّهم ينزجروا بها ، أضِف إلى محاربتها للشّرك وتنويع الأساليب في ذلك ، مع الإرشاد إلى وسائل القضاء عليه والوقَاية منه ؛ لذا سأورد شيئًا مِنْ تلك النُّصوص القرآنيَّة لهذه المواقف جاعلًا إيَّاها تحت سبع نقاطٍ ، وهي :

أوَّلًا : نهي القرآن الكريم عن الوثنيَّة ومظاهر الشرك بجميع ألوانها وأشكالها ، فقد حرَّم الله عزَّ وجلَّ الشرك ونهى عباده عن مُقارفته ، وبيَّن لهم أنَّه مِنْ أعظم الذُّنوب وأَظْلَم الظُّلم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا** ﴾[1] ، فالمشرك ظالم لنفسه مفتر على ربِّه زوراً وبهتانـًا ، يدَّعي أنَّ لله ولداً ، أو أنَّ له شريكـًا في الملك ، أو مع الله إلهـًا آخر يستحق العبادة كذبـًا وبهتانـًا ، يقول الله تعالى في قُرآنه حاكيًا قول

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٢١) .

عبده الصَّالح لقمان لابنه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ؛ لأنَّه لا أفظع ولا أبشع ممَّن سوَّى المخلوق من تراب بملك الرِّقاب ، وسوَّى الَّذي لا يملك مِنَ الأمر شيئًا ، بمَن يملك الأمر كلَّه ، وسوَّى النَّاقص الفقير مِن كُلِّ الوجوه ، بالإله الكامل الغنيِّ مِن كُلِّ الوجوه ، وسوَّى من لا يستطيع أنْ ينعم بمثقال ذرَّة مِن النِّعم ، بالَّذي ليس في الخلق مِن نعمةٍ في دينهم ودنياهم إلَّا منه وحده ، وسوَّى الخالق المتصرِّف في الكون كُلِّه بمَن لا يخلق ولا يتصرَّف حتَّى في نفسه ، فضلًا أن ينفع أو يضرَّ غيره ، فهل أعظم من هذا الظُّلم ظلم ، ممَّن خلقه الله وأوجده من العدم ، وفضَّله على سائر الخلق ، وكرَّمه عليهم واختصَّه لعبادته وحده ، فذهب بنفسه الشَّريفة وجعلها في أخسِّ المراتب ، وجعلها عابدةً خاضعةً للمخلوقات الضَّعيفة الَّتي ليس لها مِن صفات الكمال والقدرة والتَّصرُّف والخلق أيّ شيء[2] . لهذا نهى الله عزَّ وجلَّ عنه وحرَّمه ، قال تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3] ، أي : لا تُشركوا بالله شيئًا من خلقه ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام ولا تعبدوا شيئًا سواه لا قليلًا ولا كثيرا[4] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُواْ

---

(١) سورة لقمان ، الآية : (١٣) .

(٢) انظر : الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ) : تفسير البغوي ، ت : محمد عبدالله النمر ، عثمان ضميرية ، سليمان الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٤ ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ، ٦/ ٢٨٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ٣٣٦ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١٥١) .

(٤) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٢/ ٢١٥ ، السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٢٧٩ .

﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] بل كونوا مِنَ الموَحِّدين المخلصِين له العبادة ، لا تُرِيدون بها سواه[٢] ، وأيضًا : ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٤] ، أي : لا تتَّخذُوا لي شريكًا ، ولا تعبدُوا معبُودَين ، فإنَّكم إذا عَبَدتم معِي غيري جعلتم لي شريكًا ، ولا شريك لي ، إنَّما هو إله واحدٌ ومعبودٌ واحد ، وأنا ذلك[٥] ، إلى غيرها مِنَ النُّصوص القرآنيَّة الَّتي نَهت النَّاس عن الإشراك بربِّ العالمين ؛ ومن تنوُّع دلالات القرآن على النَّهي عن الشرك الأمرُ بضدِّه – التَّوحيد– وتقريره والدَّعوة إليه ، إذ النَّهيُ عن الشَّيء أمرٌ بضدِّه[٦] ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٧] ، أي : ما أرسلنا يا محمَّد قبلك من رسول إلى أمَّةٍ من الأمم إلَّا نُوحي إليه أنَّهُ لا يوجد معبودٌ في السَّماوات ولا في الأرض يستحقُّ العبادة سواي فاعبدون[٨] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٩] فكُلُّ نبيٍّ بعثه الله يدعو

---

(١) سورة الروم ، الآية : (٣١) .

(٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ٣١٦ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١٤) .

(٤) سورة النَّحل ، الآية : (٥١) .

(٥) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٧/ ٢٢٠.

(٦) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٥٩٨ .

(٧) سورة الأنبياء ، الآية : (٢٥) .

(٨) الطبري : جامع البيان ، ١٨/ ٤٢٧ .

(٩) سورة النحل ، الآية : (٣٦) .

إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدةٌ بذلك أيضًا والمشركون لا برهان لهم وحُجَّتُهم داحضةٌ عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذابٌ شديد[١] ، فالدَّعوة إلى تَّوحيد الله بالعبادة والنَّهي عن الشرك هي أساس رسالة الرُّسل جميعًا من لدن نوح إلى المصطفى عليهم الصَّلاة والسَّلام .

ثانيًا : بيان القرآن الكريم أنواع الشرك في الجاهليّة والأُمَم السَّابقة ، وبيان أصناف معبوداتهم التي أشركوها مع الله سبحانه ، فأخبرنا بأنَّ مِنهم مَنْ كان يعبد الأصنام على اختلاف مادة نَحتِها وصُنعها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[٢] ، أي : ما هذه التماثيل الَّتي أنتم مُقِيمون على عبادتها ودعائها[٣] ، وقال لهم في موضع آخر : ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾[٤] أي : حاجَّهم إبراهيم بقوله لهم أتعبدون ما تنحتون بأيديكم[٥] . وهي أيضًا حُجَّةٌ على كُلِّ من عبد هذه الأصنام التي تُنحت وتباع كيف لها أن تكون آلهة . وأيضًا منهم مَنْ عَبَدَ الشَّمس كما كانت تفعل بلقيس ملكة سبأ وقومها قال تعالى : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[٦] ؛

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ١٤٦ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات : (٦٩-٧١) .
(٣) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ١٤٦ .
(٤) سورة الصَّافات ، الآية : (٩٥) .
(٥) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٧/ ٤٥ .
(٦) سورة النَّمل ، الآية : (٢٤) .

ومن كان يعبد القمر ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1] ؛ ومِنهم مَنْ كان يعبد النُّجوم والكواكب ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[2] ، والشِّعْرَى : كوكب خلف الْجَوْزَاءِ ، وهما شِعْرِيَّانِ ، يقال لإحداهما العَبُورُ وللأخرى الْغُمَيْصَاءُ ، وأراد هاهنا الشِّعْرَى الْعَبُورُ ، وكانت خُزَاعَةُ تعبدها ، وأوَّل من سنَّ لهم ذلك رجل من أشرافهم يُقال له أبوكَبْشَةَ ، عَبَدَها وقال : لأنَّ النُّجوم تقطع السَّماء عرضًا والشِّعرَى طولًا فهي مخالفةٌ لها ، فعبدَتها خُزاعة ، فلمَّا خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدِّين سمَّوه ابن أبي كبشة لخلافه إياهم ، كخلاف أبي كبشة في عبادة الشِّعرَى[3] .

ومنهم أيضـًا مَنْ كان يعبد الجنَّ والشَّياطِين ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[4] ، أي : أنَّ المشركين به من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجنِّ والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله[5] .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، أي :

---

(١) سورة فُصلت ، الآية : (٣٧) .
(٢) سورة النَّجم ، الآية : (٤٩) .
(٣) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٧/ ٤١٩ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٠٠) .
(٥) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٢٦٧ .

يعبدون الشَّياطين ، حين يأمرونهم بعبادة غير الله[١] ، قال القرطبي : وفي التفاسير : أنَّ حيًّا يقال لهم بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ويزعمون أنَّ الجن تتراءى لهم وأنَّهم ملائكة وأنَّهم بنات الله : وهو قوله : وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً[٢] . إلى غير ذلك من المعبودات الَّتي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في قُرآنه وحذَّرنا منها وبيَّن عقوبة مَنْ سوَّلت له نفسه صرف شيءٍ من العبادة لها .

ثالثًا : تعريف القرآن الكريم بمظاهر الشرك والوثنيَّة ، الَّتي وقع فيها المشركون ، سواءً كانت قَوليَّةً أو عمَليَّة ، أو اعتقاديَّة ، لأجل الحَذَر منها ، وعدم مُواقعَتِها ، فمِنْ تلك المظاهر الشركيَّة دُعَاءُ المشركين معبوداتهم ، فيَحْكِي لنا القرآن قول إبراهيم عليه السلام للمشركين ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[٣] ، أي : أعتزلكم أنتم وأصنامكم (وَأَدْعُو رَبِّي) وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة (عَسَى أن لا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) أي : عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي ، وقبول أعمالي[٤] ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾[٥] أي : من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكلُّ ما عُبد مِن دونه تعالى فهو

---

(١) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٦٨١ .
(٢) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٤/ ٣٠٩.
(٣) سورة مريم ، الآية : (٤٨) .
(٤) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٤٩٤ .
(٥) سورة الحج ، الآية : (٦٢) .

باطل لأنَّهُ لا يملك ضرًا ولا نفعًا[١] ؛ ومن المظاهر الشركيَّة أيضًا خَوفُ المشركين مِنْ معبوداتهم الَّتي عبدوها مع الله عز وجل وتخويفهم بها لمَنْ خالفها ، فكان مُشركو قريشٍ من شدَّة خوفهم منها يخوِّفون النبيِّ ﷺ بها ، قال تعالى : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[٢] ، يخوِّفُون النَّبيَّ ﷺ مَعَرَّة الأوثان . وقالوا : لَتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو لَيُصيبنَّك منها خبلٌ أو جنونٌ[٣] . كما أخبر الله عزَّ وجلَّ عن جواب أنبيائه عليهم السَّلام لأقوامهم الَّذين خوَّفوهم بالأوثان الَّتي كانوا يعبدون بـ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٤] ؛ ومن المظاهر الشركيَّة أيضًا ما كان مِنْ طاعةِ المشركين سادتهم وكبرائهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام ، قال الله تعالى عن أهل الكتاب أنَّهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٥] ، سُئل حُذيفة[٦] رضي الله عنه عن

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٥/ ٤٤٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٣٦) .

(٣) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٧/ ١٢٠ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (٨١) .

(٥) سورة التَّوبة ، الآية : (٣١) .

(٦) حُذيفة بن اليمان العبسيّ ، يكنى أبا عبدالله ، كان أبوه حسيل بن جابر قد أصاب دمًا فهرب إلى المدينة ، فحالف بني عبد الأشهل ، فسماه قومه اليمان ، لكونه حالف اليمانية ، وتزوّج والدة حذيفة ، فوُلد له بالمدينة ، وأسلم حذيفة وأبوه ، وأرادا شهود بدر فصدّهما المشركون ، وشهدا أحداً ، فاستشهد اليمان بها . قال العجليّ : =

هذه الآية أكانوا يعبدونهم؟ فقال : لا ، كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُوه ، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه[١] ؛ ومِنْ المظاهر الشركيَّة أيضًا ما يتعاطاه مُشركو هذه الأمَّة والأمم السَّابقة مِنْ سحرٍ وكهانةٍ ، قال تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[٢] فكان اليهود أكثر من يتَّبِعون السِّحر الَّذي تُعلِّمه الشَّياطين ، وتركوا علم الأنبياء والمرسلين فأقبلوا على علم الشياطين ، وكلٌّ يصبو إلى ما يُناسبه[٣] ؛ ومِنْ المظاهر الشركيَّة أيضًا التطَيُّر ، قال تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[٤] فقولهم لرسُلهم (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ) أي : تَشَاءَمْنا بكم ، وذلك أنَّ المطر حُبِس عنهم ، فقالوا : أصابنا هذا بِشُؤْمِكُم ؛ لأنَّ المشركين لا يفارقهم الشؤم فأجابهم الرُّسل

=

استعمله عمر على المدائن ، فلم يزل بها حتى مات بعد قتل عثمان وبعد بيعة عليٍّ بأربعين يومًا . قلت –ابن حجر– : وذلك في سنة ست وثلاثين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٣٣٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٩ .

(١) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٤/ ٢١١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٠٢) .

(٣) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٦١ .

(٤) سورة يس ، الآيات : (١٣-١٩) .

قائلِين (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) أي : شُؤمُكم مَعكُم بكفركم وتكذيبكم يعني : أصابكم الشُّؤم مِنْ قِبَلِكم[١] . هذا إلى غير ذلك من المظاهر الشركيَّة الَّتي ذكرها الله عزَّ وجل في قرآنه ليعْلَمها النَّاس ويعرفوا بُطلانها ويَحذروا مِنَ الوقوع فيها .

رابعًا : بيان القرآن الكريم لأسباب وقوع النَّاس في الشرك ، وذلك مِنْ أجل أنْ يعرفهم بها فيجتنبوها ، ومِنْ تلك الأسباب الَّتي مِنْ أجلها وقَع مَنْ وقع في حبائل الشرك الأكبر والعياذ بالله ، وهذا بدءً برأس الشَّرِّ والضلال ، إبليس اللّعين ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢] ، أي : امتنع إبليس عن السُّجود ، استكباراً عن أمر الله وعلى آدم ، فقال : (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الَّذي هو منطو عليه فتبيَّنت حينئذٍ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره[٣] ، وهكذا تَبِعَه مَنْ جاء بعده من أوليائه ، كفرعون وغيره ممن بلغته الحجَّة على أتمِّها ثُمَّ يُعرض ويستكبر عنها فكان مِنَ الكافرين المشركين ، قال تعالى : ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾[٤] ، ومثل هذا في القُرآنِ كَثِيرٌ . بل الاستقراء يدلُّ على أنَّهُ كلَّما كان الشخص أعظم استكبارًا كان

---

(١) انظر : البغوي: تفسير البغوي ، ٧/ ١٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٣٤) .

(٣) انظر : السّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٦١ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية : (٣٩) .

أعظم إشراكًا بالله[١] . حتَّى إنَّ مُشركِي قُريش كان يمنعهم الكبر عن الإسلام ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

ومن الأسباب الَّتي أوقَعَت النَّاس في حبائل الشرك أيضًا اتِّباع الهوى ، يقول الله تعالى عن مُشركي قُريش : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] أي : فاعلم أن تركَهم اتِّباعك ، ليسُوا ذاهبين إلى حقٍّ يعرفونه ، ولا إلى هُدًى ، وإنَّما ذلك مجرَّد اتِّباع لأهوائِهم ، إذ لو كان قصدهم اتِّباع الُهدَى لا الهوَى ، لآمنوا قطعًا ، واتَّبعُوا النبي ﷺ ، لأنَّ الله أراهم على يَدَيْه مِنَ البيِّنات والبراهِين والحُجَج القوَاطع ، ما دلَّ على جميع المطالب الإلهيَّة ، والمقاصد الشرعيَّة ، ولكن ظُلمَهم وعُدوانَهم ، وعدم محبَّتهم للحقِّ وكبرهم ، هو الَّذي أوجب لهم البقاء على الضَّلالة وعدم هداية الله لهم[٣] .

وأيضًا من الأسباب الَّتي أوقَعَت النَّاس في الشرك تقلِيدهم لآبائِهم ، يقول الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٤] أي : ليس لهم مُستندٌ فيما هم فيه مِنَ الشرك سِوَى تقليدُ الآباء والأجدَاد ، بأنَّهم كانوا على أُمَّة ، والمراد بها الدِّين هاهنا ، وقولهم : (وَإِنَّا عَلَى

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ١٠/ ١٩٧-١٩٨ .

(٢) سورة القصص ، الآية : (٥٠) .

(٣) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٦١٧ ، ٨٢٣ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية : (٢٣) .

آثَارِهِمْ) أي : ورائَهم (مُهْتَدُونَ) ، دعوى منهم بلا دليل[١] ، فكان جواب الله لهم على هذه الدَّعوى الباطلة الَّتي تَسَلْسَلُوا فيها وتتابعُوا عليها بأنْ قال لهم : ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٢] ، والواوُ فِي «أَوَلَوْ» واوُ العطف ، ويُقال لها واوُ التَّعجُّب دخلتْ عليها ألف الاستفهام للتَّوبِيخ ، والمعنى : أَيَتَّبِعُونَ آباءَهُم وإنْ كانوا جُهَّالًا لا يعقلون شيئًا مِن أمور الدِّين لأنَّهم كانوا يعقلون أمرَ الدُّنيا ولا يهتدون[٣] .

وأيضًا من الأسباب الَّتي أوقَعَت النَّاس في حَبائِل الشرك الغلوُّ ، وقد سبق الكلام عن هذا السَّبب بشيء مِنَ التَّفصيل في الفصل التَّمهيديِّ مِنْ هذه الرِّسالة عند ذكر سبب أوَّل شِركٍ حدث في الأرض فكان جرَّاء الغلوِّ في رجالٍ صالحين مِنْ قوم نوح عند قولهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٤] .

خامسًا : ذكرُ القرآن الكريم للآثار والأضرار المترتِّبة عن مُوَاقَعَة الشرك ، وشُؤم الآثار الَّتي تلحق المُشركِين سواءً في دُنياهم أو في أُخراهم ، فمِنَ الآثار الَّتي تَتْبع المشرك في دُنياه قطع روابط المحبَّة والأُخوَّة معه والتَّبرُّؤُ مِنه ، قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٢٢٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٧٠) .
(٣) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ١/ ١٨١ .
(٤) سورة نوح ، الآية : (٢٣) .

وَحۡدَهُۥٓ ﴾(١) أيْ : لقد كان لكم أيُّها المؤمنون قدوةٌ حسنةٌ في إبراهيم عليه السلام والمؤمنين الذين معه حين قالوا لقومهم المشركين إنَّا بريئون منكم وممَّا تعبدون مِن دون الله منَ الأصنام ، كفرنا بما أنتم عليه من الدِّين ، وظهرت بيننا وبينكم العداوة والكراهية حتَّى تُؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به أحدًا ، فكان عليكم أن تتبرَّؤُوا من قومكم المشركين مثلهم وتتبرَّؤوا مِن هذه الأصنام العاجزة الواهية ومن كلِّ ما يعبدون من دون الله(٢) ، ومن الآثار الَّتي تلحق المُشرك في دُنياه أيضًا تحريم مُناكحتِه لأهل الإسلام ، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٣) والحِكمة مِنْ تحريم نِكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدِّين ذكرها الله تعالى في سياق الآية عند قوله (أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) أي : في أقوَالهم أو أفعالهم وأحوالهم ، فمخالطتُهم على خطرٍ منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدُّنيويَّة فقط بل إنَّما هو في الشَّقاء الأبديِّ(٤) ؛ ومِنَ الآثار الَّتي تلحق المُشرك في دُنياه أيضًا هَدْرُ دمه وإباحة ماله ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : (٢٢) .

(٢) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٨/ ٩٤ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ٢٦٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٢١) .

(٤) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٩٩.

فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[(١)]

فالله عزَّ وجلَّ أرشد المؤمِنين في هذه الآية إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركِين بقوله : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ، أيْ : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسُّيُوف ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي : أهلكتموهم قتلًا ﴿فَشُدُّواْ﴾ وثَاق الأسارى الَّذين تأسِرُونهم ، ثُمَّ أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيَّرون في أمرهم ، إن شئتم منَنْتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانًا ، وإنْ شئتم فاديتمُوهم بمالٍ تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه[(٢)] ، إلى غير ذلك مِنَ الآيات الواردة في قِتال المؤمِنين للمشركِين والكفَّار الحربيِّين .

وأمَّا الآثار الَّتي تلحق المشرك في أُخراه فقد توَعَّده الله عزَّ وجلَّ في قُرآنه بإحباط عمله وحرمانه مِنْ دخول الجنَّة بإدخاله نار جهنَّم وإخلاده فيها آبد الآباد والعياذ بالله ، يقول الحق سبحانه محذرًا نبيَّه من الشرك : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(٣)] أي : لقد أَوحى اللهُ إليك أيُّها الرسول ، وأَوحى إلى الرُّسل من قبلك : لئن عبدت مع الله غيره ليُبطلن ثواب عملك الصالح ، ولتكونَّن مِن الخاسرين في الدنيا ، بخسران دينك ، وفي الآخرة بالعذاب المقيم[(٤)] ، ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) سورة محمَّد ، الآية : (٤) .

(٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٣٠٧ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : (٦٥) .

(٤) الطبري : جامع البيان ، ٢١/ ٣٢٢ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ١١٢ .

ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[(١)] ، وذلك لأنَّ المشرك سوَّى الخَلْق بالخالق ، وصرف ما خص الله به نفسه وهي العبادة الخالصة لغيره من المخلوقين ، فاستحق دخول النَّار[(٢)] ، وهذه الآية الكريمة في حق غير التَّائب مِنَ الشرك ، وأمَّا التَّائب منه فإنَّه يُغفر له الشرك فما دونه[(٣)] ، وأمَّا مدَّة بقائهم في النَّار فأبدية كما توعَّدهم الله عزَّ وجلَّ بالخلود فيها قائلًا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[(٤)] ، فتلك هي الآثار السَّيِّئة الَّتي تُوُعِّد بها المشركون والَّتي تكفي أن ينزجروا بها وينتهوا .

سادسًا : محاربة الوثنيَّة والشرك ، فقد حارب القرآن الكريم الشرك ونَوَّع الأساليب في ذلك ، فتارةً تجده يُنَدِّد بآلهة المشركين ويُظهر نقصها وعجزها ، فأمَّا نقصها فهي في هيئةٍ دون هيئة عابدِيها فضلًا عن الخالق الكامل مِنْ جميع الوجوه ، فلا هي حيَّةٌ فتشعر بمَنْ حَولها ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[(٥)] ، ولا حَوت أسماعًا ولا أبصارًا ولا أرجلًا ولا أَيْدٍ يستنجدون بها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ

(١) سورة المائدة ، الآية : (٧٢) .

(٢) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٢٣٩.

(٣) المصدر السَّابق ، ص : ١٨١.

(٤) سورة البيِّنة ، الآية : (٦) .

(٥) سورة النَّحل ، الآيتين : (٢٠-٢١) .

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[١] ، وأمَّا عجزها فإنَّ الله سبحانه ذكر للمشركِين بأنَّ آلهتهم الَّتي عبدوها مع الله لا تملك لهم لا نفعًا ولا ضرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[٢] ، أي : ادعوا الَّذين جعلتموهم آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضُّرَّ ، فإنَّهم لا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ مِنْ مرضٍ أو شدَّةٍ أو فقر ونحوه فلا يدفعونه بالكليَّة ، (وَلا) يملكون أيضًا تحويله مِنْ شخصٍ إلى آخر مِنْ شدَّة إلى ما دونها[٣] . وتارةً أخرى تجد القرآن الكريم يضرب الأمثال ليُظهر فساد الشرك ، وليُبيِّن حقارة آلهة المشركِين وهوانها ، فمِن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٤] ، أي : مَثَل المشركِين الَّذين اتَّخذوا مِن دون الله أصنامًا يعبدونها رجاء نفعها أو شفاعتها كمَثَل العنكبوت اتخذت بيتًا يَقِيهَا مِنَ الحرِّ والبرد والاعتداء عليها ، وإنَّ أضعف البيوت لبيت العنكبوت ، فهو لا يدفع بردًا ولا يَقِي من حرٍّ ، وكذلك أصنامهم لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، لو كان المشركون يفهمون أو يعقلون لما اتخذوهم

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتَين : (١٩٤-١٩٥) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٥٦) .
(٣) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٤٦٠ .
(٤) سورة العنكبوت ، الآيات : (٤١-٤٣) .

أولياء يعبدونهم من دون الله ، وهو العزيز الذي لا يُغالَب ، الحكيم في خلقه وتقديره وتدبيره . وتلك الأمثال الَّتي نضربها للنَّاس لتُبصِّرهم وتهدِيهم ، ما يُدركها ويعرف معناها إلَّا العالمون بشرع الله وحكمه[١] ؛ ومِن ذلك أيضًا قول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[٢] ، يا أَيُّهَا النَّاسُ : هذا خطاب للمؤمنين والكفار ، المؤمنون يزدادون علمـًا وبصيرةً ، والكافرون تقوم عليهم الحجة ، ضُرِبَ مَثَلٌ يعنى شبهـًا ، فاسْتَمِعُوا لَهُ ، ثُمَّ أخبر عنه فقال سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ من الأصنام يعني اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها ، لن يستطيعوا أن يَخْلُقُوا ذُبابـًا ولو اجتمعوا له ، يقول لو اجتمعت الآلهة على أن يخلقوا ذبابـًا ما استطاعوا ، ثُمَّ قال عزَّ وجلَّ : وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْـًٔا مما على الآلهة كجزء من طيب أو طعام أو غيره ، لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ يقول لا تقدر الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما أخذ منها ، ثُمَّ قال : ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، فالطالب هو الصنم الذي يسلبه الذباب ولا يمتنع منه والمطلوب هو الذباب ، فأخبر الله عن الصنم أَنَّهُ لا قوَّة له ولا حيلة فكيف تعبدون ما لا يخلق ذبابـًا ولا يمتنع من الذباب ، وهذا غاية ما يصير من العجز ، وأحقر منهما المشرك حين يتعلَّق بهذا الضَّعيف وينزله منزلة الرب[٣] . وتارةً أخرى

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣/ ٣٤٥ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ٢٧٩ .

(٢) سورة الحج ، الآية : (٧٣) .

(٣) انظر : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت: ١٥٠هـ) : تفسير مقاتل بن =

تجد القرآن الكريم يُسَفِّه عقول المشركين ويُضلِّل آراءهم ، كقوله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[٢] أي : لا أَضَلَّ ممَّن يدعُو أصنامًا ، ويطلب منها ما لا تستطِيعُه إلى يوم القيامة ، وهي غافلةٌ عمَّا يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش لأنَّها جمادٌ حجارةٌ صمٌّ[٣] . وتارةً تجده يُجادل المشركين لأجل تقرير التَّوحيد وإظهار بُطلان الشرك وضعف آلهتهم الَّتي عَبدُوها مع الله عزَّ وجلَّ ، فالله عزَّ جلَّ خلق السَّماوات والأرض وما فيهما مِنَ الآيات الباهرات والمعجزات الخالدات ، ثم دعا عباده ليتفكَّروا في خلقها ليَستَيقِنوا مِنْ وحدانيَّته وليَستظهروا عظمته وقدرته مِنْ خلالها ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[٥] ، فلهذا نجد القرآن الكريم في مواطن عدَّة يُجادل المشركين بدلالات الآيات الكونيَّة ليُقرِّر فيهم وحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ ويُبطل شِركهم الَّذي تلبَّسوا به ،

=

سليمان ، ت : عبدالله محمود شحاته ، دار إحياء التراث – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ ، ٣/ ١٣٨–١٣٩ ، السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٥٤٦ .

(١) سورة النساء ، الآية : (١١٦) .

(٢) سورة الحج ، الآية : (٧٣) .

(٣) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٢٧٥ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٥) .

(٥) سورة فصِّلت ، الآية : (٥٣) .

ومِنْ تلك الآيات الَّتي ساقها سبحانه في هذا الأمر ما جاء في ثنايا سورة المؤمنون مِنْ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[1] فالله تبارك وتعالى يُقرِّر وحدانيته واستقلاله بالخلق والتَّصرف والملك ليُرشد إلى أنَّهُ الإله الَّذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له ، وهذا ما يُعرف بالاستفهام التَّقريريِّ ، فالله عزَّ وجلَّ يقول لنبيِّه : قل لهؤلاء المكذِّبين بالآخرة مِنْ قومك ، لِمَن مُلك الأرض ومَن فيها مِن الحيوان والنَّبات والجماد والبحار والأنهار إنْ كنتم تعلمون؟ مَن الَّذي يملكها؟ ثُمَّ أخبره أنَّهم سيقرُّون بأنَّها لله دون غيره ، فقل لهم إذا أجابوك بذلك : أفلا تذكَّرون ، أي تعلمون أنَّ مَن قدر على خلق كلِّ ذلك ابتداء فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم وإعادتهم خلقاً سوياً ، وقل لهم : مَن ربُّ السَّماوات السبع وربُّ العرش العظيم ، سيقولون : ذلك كلُّه لله تعالى ، فقل لهم : أفلا تتَّقون عقابه على كفركم به وتكذيبكم خبره وخبر رسوله وعبادتكم المخلوقات العاجزة ، ألا تخافون عذابه في إشراككم به وافترائكم عليه ؛ ثمَّ يقول لهم : قل مَن بيده ملكوت كُلِّ شيءٍ ، أي :

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : (٨٤-٩٢) .

من بيده خزائن كُلِّ شيء ومُلك كُلِّ شيء من العالم العلويِّ والعالم السفليِّ ما نُبصره وما لا نُبصره ، وهو يجير عباده مِنَ الشَّرِّ ويدفع عنهم المكروه ويحفظهم ممَّا يضرهم ، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي : لا يقدر أحدٌ أنْ يجير على الله ولا يدفع الشَّرَ الَّذي قدَّره الله ، بل ولا يشفع أحدٌ عنده إلَّا بإذنه ، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أيْ : سيُقرُّون أنَّ الله هو المالك لكلِّ شيءٍ المجير الَّذي لا يُجار عليه ، ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ ، أي : فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم مَن علِمتم أنَّهم لا ملك لهم ولا قِسط مِن الملك وأنَّهم عاجزون مملوكُون ، وتركتم الإخلاص للمالك الحقِّ العظيم القادر المدبِّر لجميع الأمور ، فالعقول الَّتي لا تُدرك الحقَّ لا تكون إلا مَسحُورة ، فحينما أطاعوا الشَّيطان زيَّن لهم واستدرجهم وقلَب لهم الحقائق فسَحَرَ عقولهم وأعمى أبصارهم فكذَّبوا الحقَّ واتَّبعوا الباطل ، ثُمَّ قال تعالى : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ، أي : لقد جئنا هؤلاء المكذِّبين بالحقِّ اليقين ، وبالقول المبين الصَّادق ، أنَّ هؤلاء المشركين كاذبون فيما يزعمون وينسبون لله الولد ، وأنَّ معه شريكـًا في مُلكه ، و﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ فيُبيِّن تعالى أنَّه ما لله مِنْ ولد ولا كان معه في القِدم ولا حين ابتداء الأشياء ، وهذا القول كذبٌ وافتراءٌ عظيمٌ يُعرف بخبر الله وخبر رُسله ، ويُعرف بالعقل الصَّحيح ، ولهذا أثبت سبحانه بالدليل العقلي ما فيه الحجَّة الدَّامغة على امتناع وجود إلهين فقال : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أيْ : لو كان معه آلهةٌ كما يقولون لانفرد كُلُّ واحدٍ منهم بمخلوقاته ، واستقلَّ بها ولحرِص على ممانعة

الآخر ومُغالبته ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾[١] ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي : لتقاتلوا وتغالبوا حتَّى يغلب القوِيُّ الضَّعيف ؛ لأنَّ القويَّ لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، والضَّعيف لا يصلح أن يكون إلهـًا . وهذا الَّذي يدلُّ على نفي الشريك يدلُّ على نفي الولد أيضًا ؛ لأنَّ الوَلَد يُنازع الوالد في الملك منازعة الشريك[٢] ، وذِكر نَفي الوَلَد استقصاءٌ للردِّ على مُختلَف عقائد أهل الشرك مِنَ العرب ، فإنَّ منهم مَنْ توهَّم أنَّه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا : هم بنات الله ، وإنَّما قدَّم نفيَ الولد على نفي الشِّريك مع أنَّ أكثر المشركين عبدة أصنامٍ لا عبدة الملائكة نظرًا إلى أنَّ شبهة عبدة الملائكة أقوَى مِنْ شبهة عبدة الأصنام لأنَّ الملائكة غير مُشاهدين ، فليست دلائل الحدوث باديةً عليهم كالأصنام ، ولأنَّ الَّذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه مِن الَّذين زعموا الحجارة شركاء الله ، ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أَتْبَع الاستدلال على انتفاء الشَّريك بقوله عالم الغيب والشهادة ، والمراد به عموم العلم وإحاطته بكلِّ شيءٍ ، فهو العالم بكلِّ مُغيَّبٍ وكلِّ ظاهرٍ ، فقوله -إذًا- عالم الغيب والشَّهادة مِنْ تمام الاستدلال على انتفاء الشركاء[٣] ، هذا إلى غير ذلك مِنَ الأساليب الَّتي

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٤٢) .

(٢) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٩/ ٦٦ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٢/ ١٤٦ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٥/ ٤٨٨-٤٩١ ، السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٥٥٧-٥٥٨ .

(٣) انظر : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التُّونسي (ت : ١٣٩٣هـ) : التَّحرير والتَّنوير ، الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر ، تونس ، ١٩٨٤م ، ١٨/ ١١٣-١١٧ .

حارب بها القرآن الكريم الشرك ومظاهره .

سابعًا : إرشاد القرآن الكريم لوسائل القضاء على الوثنيَّة والشرك ، فكما أنَّ أساليب القرآن في محاربة الشرك كانت متنوِّعةً ، فكذلك الوسائل الَّتي أرشد إليها للقضاء على الشرك متنوِّعةٌ ومتعدِّدة أيضـًا ، فمِنْ ذلك السَّعيُ في الدَّعوة إلى التَّوحيد وذِكر محاسنه ، يقول الله تعالى حاكيًا عن نبيِّه نوح عليه السَّلام ودعوَته لقومه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] فنوحٌ عليه السَّلام دعاهم إلى إفراد الله تعالى بالتَّوحيد والعبادة ، والبعد عن الشرك وطُرقه ووسائله ، فإنَّهم إنْ فعلوا ذلك حصل لهم تقوى الله عز وجل المُوصل لغُفران ذنوبهم ، وإذا غُفرت ذنوبهم تحقَّق لهم النَّجاة مِنَ العذاب ، والفوز بالثواب[2] ، فتلك هي حسنة التَّوحيد في الآخرة ، وأمَّا محاسنها في الدُّنيا فقد قال لهم نوحٌ عليه السَّلام : ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[3] وهذا من أبلغ ما يكون مِنْ لذَّات الدُّنيا ومطالبها[4] ؛ ومِن ذلك دعوة إبراهيم عليه السَّلام لقومه كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5] أي : أخلصُوا له العبادة والخوف ، فإذا

---

(١) سورة نوح ، الآيات : (٢-٤) .
(٢) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٨٨٨ .
(٣) سورة نوح ، الآيات : (١٠-١٢) .
(٤) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٨٨٩ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية : (١٦) .

فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدُّنيا والآخرة ، واندفَع عنكم الشَّرُّ في الدُّنيا والآخرة[١] . وهذه الوسيلة الَّتي أرشد إليها القرآن الكريم هي الَّتي اتَّسم بها العهد المكِّي مِنْ دعوة النبيِّ ﷺ ، والَّتي سأتناولها بشيءٍ من التَّفصيل خلال المبحث الثاني من هذا الفصل إن شاء الله .

ومن وسائل القضاء على الشرك الَّتي أرشد إليها القرآن أيضًا جهادُ المؤمِنين للمشركين الجهادَ الشَّرعيَّ ، يقول الله تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢] ، وقال : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣] ، وقاتلُوا المشرِكين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي : شِرْكٌ ، وقِيل : حتَّى لا يُفتن مُؤمِنٌ عَنْ دِينِه ، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصًا له لا شِرك فيه[٤] ، فهذا هو المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدِّين مِن الكفار والمشركِين ، بأنْ يُدفَع شرُّهم وأنْ يُذَبَّ عن دِين الله الَّذي خَلَق الخلْقَ له وحتَّى يكون هو العالي على سائر الأديان ، فإذا حصل هذا المقصود فلا قَتْلَ ولا قِتَال[٥] ، وهذا المسلك هو الَّذي أُذن به للنَّبيِّ ﷺ والمؤمِنين ، والَّذي سأتناوله بشيءٍ مِنَ التَّفصيل في المبحث الثالث مِنْ هذا الفصل إن شاء الله .

ومن وسائل القضاء على الشرك أيضًا إزالة مظاهره وهدم مَعَالِمِهِ ،

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/ ٢٦٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٩٣) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٣٩) .

(٤) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٣/ ٣٥٧ .

(٥) انظر : السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٨٩ ، ٣٢١ .

فالقرآن الكريم ذكر لنا في ثنايا قصص الأنبياء والمرسلين كيف حاولوا القضاء على الشرك الَّذي فَشَى في أقوامهم بإزالة مظاهره وهدم معالمه ، فهذا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السَّلام يحكي لنا القرآنُ قصَّتَه مع قومه بأنْ قال لهم : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾[1] ، أقسم الخليل قسمًا أسمعَه بعضَ قَومه لَيكيدنَّ أصنامَهم ، أيْ : لَيحرِصنَّ على أذاها وتكسِيرها بعد أنْ يُوَلُّوا مُدبرِين إلى عيدهم -وكان لهم عيدٌ يخرجون إليه- ، ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أي : حُطامًا ، كَسَّرَها كُلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي : إلَّا أكبر تلك الأصنام كما قال : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنَّهُ وضع القَدُّوم[3] في يَدِ كبِيرهم ، لعلَّهم يعتقدون أنَّهُ هو الَّذي غار لنفسه ، وأَنِفَ أنْ تُعبَد معه هذه الأصنام الصِّغار ، فكسَّرها[4] ؛ ومِنْ ذلك ما حكاه الله عزَّ وجلَّ في قُرآنه مِنْ قصَّة نبيِّ الله موسى عليه السَّلام مع قومه -حين عبدوا العِجْل- قائلًا للسَّامريِّ : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[5] أي : وانظر إلى معبودك الَّذي ظلَلْت عليه مقيمًا تعبده ، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ مِنَ الإحراق

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيتَين : (٥٧-٥٨) .

(٢) سورة الصَّافات ، الآية : (٩٣) .

(٣) قدوم : بالتخفيف والتشديد : قدوم النجار . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ٤٧٢ .

(٤) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٥/ ٣٤٨-٣٤٩ .

(٥) سورة الآيتَين ، الآيات : (٩٧-٩٨) .

بالنَّار ، فذبحه موسى عليه السَّلام ثُمَّ حرقه بالمبرد[١] ثُمَّ ذراه في اليمِّ ، ولَوْ كان إلهًا لامْتنَع ممَّن يرِيده بأذىً ويسعى له بالإتلاف ، وكان قد أُشرب العجل في قلوب بني إسرائيل ، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون على وجهٍ لا يمكن إعادته ، بالإحراق والسَّحق وذريه في اليمِّ ونسفه ليزول ما في قلوبهم من حُبِّه كما زال شخصه ، ولأنَّ في إبقائه محنةً لأنَّ في النُّفوس أقوى داعٍ إلى الباطل ، فلمَّا تبيَّن لهم بطلانه أخبرهم بمَن يستحق العبادة وحده بقوله : ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾[٢] ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ يوم فتح مكَّة بالأصنام الَّتي كانت حول الكعبة ، وكذلك بعث سراياه بعد ذلك لهدم أشهر أوثان جزيرة العرب وأصنامها ، وهو ما سأتناوله بالتَّفصيل في الفصلَين الثَّاني والثَّالث إن شاء الله . وبهذا نصل إلى أنَّ القرآن الكريم المنزَّل من ربِّ العالمِين أتى فدمَّر قواعد الشرك من جذورها ، وأبطل حُجَجَ المشركين كُلِّها ، فسفَّه أحلامهم ، وعاب أصنامهم ، ونسف عقائدهم ، وفضح آلهتهم ، وأظهر الحق وأزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا ، قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[٣] .

---

(١) حرق الحديد حرقًا : برده ، يقال : حرقه بالمبرد ، حكَّ بَعْضهَا بِبَعْض . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٠/ ٤٥ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، ١/ ١٦٨ .

(٢) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٨/ ٣٦٤-٣٦٦ ، البغوي: تفسير البغوي ، ٥/ ٢٩٣ ، السِّعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٨٩ ، ٣٢١ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : (١٨) .

موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك من خلال نصوص السنَّة النبويَّة

أمَّا القسم الثَّاني من هذا المبحث والَّذي هو حول موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك من خلال نصوص السنَّة النبويَّة ، فإنَّها تتبع في ذلك نصوص القرآن الكريم ؛ لأنَّ السنَّة المطهَّرة هي أيضًا وحيٌ من الله عزَّ جلَّ ، وهي مُفسِّرةٌ للقرآن ومُبيِّنَةٌ له ، فالنبيُّ ﷺ كان منهجه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ، ومن أعظم ما يسخِط النبيَّ ﷺ الشرك بالله ، فنجد نصوص السنَّة النبويَّة مبيِّنة لأسباب حدوثه مُحذِّرةً منه وساعيةً في بيان قُبحه وإظهار خطره ، تخوفًا من وقوعه في هذه الأمَّة ، وآمرةً بضدِّه -أي : التَّوحيد- داعية إليه ومُبرزةً لفضائله ، كما سَعت في حماية جناب التَّوحيد بسدِّها لكُلِّ الذَّرائع المُوصلة إلى الشرك ، لذا سأذكر جُملَةً من تلك النُّصوص النَّبويَّة ، جاعلها تحت أربع نِقاطٍ ، وهي :

أوَّلًا : ذكرُ النبيِّ ﷺ أسباب حدُوث الشرك في الخليقة وكيفيَّة انتشاره في جزيرة العَرب ، وقد سبق التفصيل عن هذه الجزئيَّة في الفصل التمهيديِّ عند ذِكر أسبقيَّة التَّوحيد للشِّرك في ذريَّة آدم عليه السَّلام ، فالنبيُّ ﷺ بيَّن ذلك عند قوله فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ : «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[١] عن دِينِهِم ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُم ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[٢] .

---

(١) أي : اسْتخَفَّتْهم فجَالُوا معهم في الضَّلال . يُقال جال واجتال : إذا ذهب وجاء . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٣١٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، برقم (٢٨٦٥) ، ٤/ ٢١٩٧ .

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما : «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ -وفي روايةٍ : على الإسلام- ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً»[1] ، وتفسيرُ اختلاف النَّاس المذكور في هذا الحديث هو الشرك ، وقد جاء مُصرَّحًا به في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الآخر والذي ذَكَر فيه أصل أشهر أوثان جزيرة العرب في الجاهليَّة ، وبداية الشرك في ذريَّة آدم وسبب حدوثه فيهم عند قوله : «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُوْمَةِ الجَنْدَل ، وَأَمَّا سُواع كانت لهذيل ، وأمَّا يغوثُ فكانت لمرادٍ ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بالجوفِ عندَ سَبَإٍ ، وأمَّا يَعُوق فكانت لهمدانَ ، وأمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاع ، أسماءُ رجالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوح ، فلمَّا هلكُوا أوحى الشَّيْطَانُ إلى قومهم ، أن انصبُوا إلى مجالسهِمُ التي كانُوا يجلسُون أَنْصَابًا وسمُّوها بِأَسْمَائِهِم ، فَفَعَلُوا ، فلم تُعْبَد ، حتى إذا هلك أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[2] ، وتناولتُه أيضًا بالتَّفصيل عند ذكر كيفيَّة دخول الشرك إلى جزيرة العرب في ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام عند قول النبيِّ

---

(١) الحاكم النَّيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، برقم (٣٦٥٤) ، ٢/ ٤٨٠ . وقال عنه : حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري ولم يخرِّجاه . وتقدم تخريجه .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ﴿وَدًّا وَلَا سُواعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ، برقم (٤٩٢٠) ، ٦/ ١٦٠ ، وهذا الحديث والَّذي سبقه مِنْ قبيل تفسير الصَّحابيِّ للقرآن ، قال أبوعبدالله الحاكم في كتابه المستدرك على الصَّحيحين ، ٢/ ٢٨٣ : «ليعلَم طالب هذا العلم أنَّ تفسير الصَّحابيِّ الَّذي شهد الوحيَ والتَّنزيل عند الشَّيخَين حديثٌ مسند» ، أضف إلى ذلك أنَّهما ليس للرَّأي فيهما مجال ، فهما -إذًا- مِنْ قبيل المرفوع حُكمًا .

ﷺ : «أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبراهيم : عمرو بن لحي بنِ قمعةَ بن خندف أبوخزاعةَ»[١] ، وبيانه هناك يُغني عن إعادة .

ثانيًا : تحذير النبيِّ ﷺ منَ الشرك وسَعيُه في بيان قُبحه وإظهار خطَرِه ، كون الشرك أُمَّ الكبائر ورأس الظُّلم ومستنقع الـمُوبقات ، كان معصيةً لا تُجدِي معها طاعة ، ومَنقصةً لا يُجزي عنها كمال ، وضَعَةً لا يقوم منها عزٌّ ، وسَفَهًا لا ترشد به نفسٌ[٢] ، فلهذا حذَّر النبيُّ ﷺ أُمَّته منه أشدَّ التَّحذير ونهى عنه ، واستعمل في ذلك أشدَّ العبارات الَّتي تُنفِّر النَّاس عن الشرك ، فتارةً يجعله مِنْ جُملة الكبائر[٣] بل نَعَتَه بأكبر الكبائر كما في قوله ﷺ لأصحابه : «ألا أُخبركم بأكبر الكبائر؟» قالوا بلى يا رسُول الله! قال : «الإِشْرَاكُ بِالله ، وعُقُوقُ الوالدين»[٤] ، وتارةً يعدُّه منَ الـمُوبقات[٥] كما في قوله ﷺ لأصحابه : «اجتنبُوا السَّبْعَ الـمُوبِقَاتِ» ،

---

(١) الطبراني : المعجم الأوسط ، ١/ ٧٢ .

(٢) انظر : مبارك بن محمد الميلي الجزائري (ت: ١٣٦٤هـ) : رسالة الشرك ومظاهره ، ت : أبوعبدالرحمن محمود ، دار الراية للنشر والتوزيع ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ ، ص : ٨٩-٩٠ .

(٣) **الكبيرة** : هي كُلُّ ذنب أطلَقَ الشَّرع عليه أنَّهُ كبيرٌ أو عظيمٌ ، أو أخبَرَ بشدَّة العقاب عليه ، أو علَّق عليه حَدًّا ، أو شَدَّدَ النكيرَ عليه وغلَّظه ، وشَهِدَ بذلك كتابُ الله أو سَنةٌ أو إجماع . انظر : أحمد بن عمر القرطبي (ت: ٦٥٦ هـ) : الـمُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ت : محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٢٨٤ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب من اتَّكأ بين يدَي أصحابه ، برقم (٥٩١٨) ، ٥/ ٢٣١٤ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٨٧) ، ١/ ٩١ .

(٥) أي : الذنوب الـمُهلكات . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، =

قالُوا : يا رسُول الله! وما هُنَّ؟ قال ﷺ : «الشرك بِالله ، والسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ»[(١)] ، وتارةً يُسمِّيه ظُلمًا ، عن عبدالله بن مسعود[(٢)] رضي الله عنه لمَّا نزلت هذه الآية : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[(٣)] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ : «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)]»[(٥)] ، وفي الحديث الآخر يقول ﷺ : «الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ : فَظُلْمٌ لَا يَتْرُكُهُ الله ، وَظُلْمٌ يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُغْفَر ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشرك لَا يَغْفِرُه الله ، وَأَمَّا الظُّلْمُ

=

. ١٤٦/٥

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، باب رمي المحصنات ، برقم (٦٤٦٥) ، ٦/ ٢٥١٥ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم (٨٩) ، ١/ ٩٢ .

(٢) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، حليف بني زهرة ، حدَّث عن النبيِّ ﷺ بالكثير ، أسلم قديمـًا وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها ، ولازم النبيَّ ﷺ ، وكان صاحب نعليه ، كان سادس من أسلم ، وكان يقول : أخذت من فيِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، وقال النبيُّ ﷺ : من سرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما نزل فليقرأ على قراءة ابن أمّ عبد . أي بقراءة ابن مسعود ، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ٩٨٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ١٩٨ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (٨٢) .

(٤) سورة لقمان ، الآية : (١٣) .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ، برقم (٤٤٩٨) ، ٤/ ١٧٩٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (١٢٤) ، ١/ ١١٤ .

الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَقَصُّ اللهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»[1] ، والظُّلم هو وَضع الشَّيء في غير مَوضعه ، وأنواعه ثلاثة : ظلمٌ في حقِّ الله ، وظلمٌ للنَّاس ، وظلمٌ للنَّفس ، والشرك اجتمعت فيه الأنواع الثَّلاثة : فالظلم في حقِّ الله بعدم توحيده ، والظلم للمعبود في تأليهه مع الله بإيذائه إنْ كان صالحـًا ، وتغليطه في نفسه إن كان جاهلًا ، والظلم للنَّفس بإذلالها وتعبيدها لـمَن هو مثلها في الافتقار والاحتياج[2] ، وتارةً أخرى يجعله النبيُّ ﷺ على رأس الذُّنُوب وأعظمها ، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ فقال ﷺ : «أَنْ تَجْعَلَ لِله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» ، قلتُ : إنَّ ذلك لعظيم ، قلتُ : ثمَّ أيُّ؟ قال ﷺ : «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» ، قلتُ : ثُمَّ أيُّ؟ قال ﷺ : «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ[3] جَارِكَ»[4]. ومعناه : أنَّ اتِّخَاذَ الإنسان إلهًا غيرَ خالقِهِ المُنعِمِ عليه مع عِلمه بأنَّ ذلك المُتَّخَذَ ليس هو الَّذي خلقَهُ ، ولا الَّذي أنعَمَ عليه : مِن أقبَحِ القبائح ، وأعظمِ الجهالات ، وعلى هذا

---

(١) سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ) : مسند أبي داود الطيالسي ، محمد بن عبدالمحسن التركي ، دار هجر - مصر ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ ، برقم (٢٢٢٣) ، ٣/ ٥٦٩ .

(٢) انظر : مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، ص : ٩٢ .

(٣) حَلِيلَةُ الرَّجل : امرأته ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يحلُّ للآخر . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٤٣١ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، بابُ قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، برقم (٧٠٨٢) ، ٦/ ٢٧٣٤ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٨٦) ، ١/ ٩٠ .

يكون الشرك أكبَرَ الكبائر ، وأعظَمَ العظائم[١] ؛ وهكذا كان النبيُّ ﷺ يُحذِّر مِنَ الشرك ويُبيِّن قُبحه بذكر تنقُّص المشركِين لله سبحانه بتسويَة غيره به .

ومِنْ الشواهد قوله ﷺ : «لا أحدَ أصبرُ على أذًى يسمعُهُ من اللهِ عزَّ وجلَّ ، إنَّهُ يشرَكُ بِه ، ويجعلُ له الولدُ ، ثمَّ هو يعافيهِمْ ويرزقُهُم»[٢] ، بل كان ﷺ يسوق الأمثال على ذلك كما في قوله ﷺ : «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمرَ يحيى بن زكريَّا عليه السَّلام بخمس كلماتٍ أن يعملَ بِهنَّ وأنْ يأمُرَ بني إسرائيلَ أن يعملُوا بِهِنَّ.. فجمعَ يحيى بن زكريَّا بني إسرائيلَ في بيتِ المقدِسِ حتَّى امتلأَ المسجدُ ، فقعد على الشّرف ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثُمَّ قال : إنَّ اللهَ أمرني بخمس كلماتٍ أن أعملَ بِهِنَّ ، وَآمُرَكُمْ أنْ تعملُوا بِهِنَّ ، وأوَّلهن : أن تَعْبُدُوا اللهَ لَا تشرِكُوا به شيئًا ، فإنَّ مثلَ ذلكَ مثل رجل اشترى عبدًا من خالصِ مالهِ بورق أو ذهبٍ ، فجعل يعملُ ويُؤَدِّي غَلَّتَهُ إلى غير سَيِّدِهِ فأيُّكم يَسُرُّهُ أن يكونَ عبدُهُ كذلك؟ وإنَّ اللهَ خلقكُم ورزقكُم فاعبُدوه ولا تُشرِكوا به شيئًا»[٣] ؛ هذا فيما يخصُّ تحذيره ﷺ من الشرك وبيانه لقُبحه ، وأمَّا تبيانه ﷺ لخطورة آثاره وتعريف النَّاس بأضراره فإنَّ

---

(١) انظر : أبوالعباس القرطبي : المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ١/ ٢٨٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التَّوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ ، برقم (٦٩٤٣) ، ٦/ ٢٦٨٧ ، وصحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار ، برقم (٢٨٠٤) ، ٤/ ٢١٦٠ .

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٤٨٦٣) ، أبواب الأمثال ، وقال : حسن صحيح ، وأحمد في مسنده ، برقم (١٧٨٠٠) ، ٢٩/ ٣٣٥ . وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ١/ ١٩٦ .

النُّصوص النَّبويَّة كثيرةٌ في ذلك أيضًا ، فمِنْ نصوص الوَعِيد[١] ، قول النبيِّ ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حتَّى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منِّي دماءَهُم وأموالهم إلَّا بحقِّها ، وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ»[٢] ، والمراد بهذا مُشركُو العرب وأهل الأوثان ، ومن لا يُقِرُّ بالخالق ولا يُوَحِّده ، وهم كانوا أوَّل مَن دُعِي إلى الإسلام وقُوتلوا عليه[٣] ، وقد أجمع العلماء على أنَّ مَنْ قال : «لا إله إلا الله» ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها أنَّه يُقاتَل حتَّى يعمل بما دلَّت عليه مِنَ النَّفي والإثبات[٤] ، ومن ذلك قول النبيِّ ﷺ : «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ :

---

(١) مع التَّنبيه إلى أنَّ : نصوص الوعيد الَّتي في الكتاب والسُّنَّة ، ونصوص الأئمَّة بالتَّكفير والتَّفسِيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت مُوجِبها في حقِّ الـمُعَيَّن إلَّا إذا وُجدت الشُّروط وانتفت الموانع -عدم التَّكليف ، الجهل ، الإكراه ، الخطأ والتَّأويل- ، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع ، هذا في عذاب الآخرة ، فإنَّ الـمُستحقَّ للوعيد من عذاب الله ، ولعنته ، وغضبه في الدَّار الآخرة ، خالدًا في النَّار أو غير خالدٍ ، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق يدخل في هذه القاعدة.. وأمَّا أحكام الدُّنيا فكذلك أيضًا ، فإنَّ جهاد الكفَّار يجب أن يكون مسبوقًا بدعوتهم ، إذ لا عذاب إلَّا على مَنْ بلغته الرِّسالة . انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ١٠/ ٣٧٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ، برقم (١٣٣٥) ، ٢/ ٥٠٧ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٢١) ، ١/ ٥٢ .

(٣) انظر : القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤هـ) : إكمال المعلم بفوائد مسلم ، ت : يحيى إسماعيل ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- مصر ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ ، ١/ ٢٤٨ .

(٤) انظر : عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب التميمي (ت: ١٢٨٥هـ) : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ت : محمد حامد الفقي ، مطبعة السُّنَّة المحمَّديَّة- مصر ، ط : ٧ ، ١٣٧٧هـ ، ص : ١١٢ .

رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِه..»[1] .

ومن نصوص الوَعيد بأنَّ الشرك مُوجبٌ لدخول النَّار والخلود فيها ، ما جاء عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّار» ، وقلتُ أنا -ابن مسعود- : «مَنْ مَاتَ لا يُشرك بالله شيئـًا دَخَلَ الجنَّة»[2] ، وهذا المفهوم الَّذي فهمه الصحابي الجليل ابن مسعود في تتمَّة الحديث تقتضيه اللُّغة ودلالة الكلام ، فأتي مُصرَّحًا به في قول النبيِّ ﷺ في حديث جابر[3] رضي الله عنه حين قال : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال : يا رسول الله ما المُوجِبَتَانِ؟ فقال ﷺ : «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ ، ومن مات يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَل النَّار»[4] ، والـمُوجِبَتَانِ هُما الخصلتان اللَّتان تُوجبان دخول الجنَّة ودخول النَّار ، فالتَّوحيد مُوجبٌ لدخول الجنَّة ، والشرك مُوجبٌ لدخول النَّار ، وهذا الوُجُوب إنَّما هو ما أَوجَبه الله على نفسه لعباده فضلًا منه وكرمًا ،

---

(١) أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) : السنن الكبرى ، ت : محمد عبدالقادر عطـا ، دار الكتـب العلميـة - بيـروت ، ط : ٣ ، ١٤٢٣هـ ، بـرقم (١٦٨١٧) ، ٨/ ٣٣٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، برقم (١١٨٠) ، ١/ ٤١٧ .

(٣) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السّلميّ ، أحد المكثرين عن النبيّ ﷺ ، روى عنه جماعة من الصّحابة ، وله ولأبيه صحبة ، شهد العقبة ، وكان يقول : غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه شهدت منها تسع عشرة غزوة ، قال قتادة : كان آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتـًا بالمدينة جابر . قال يحيى بن بكير وغيره : مات جابر سنة ثمان وسبعين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢١٩ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٥٤٦ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٩٣) ، ١/ ٩٤ .

لا أنَّه يجِب عليه شيءٌ سُبحانه وتعالى[١] ، ومِنْ ذلك أيضًا قول النبيِّ ﷺ : «إِنَّ الله تبارك وتعالى يقولُ لأهونِ أهل النَّارِ عذابًا : لو أنَّ لك ما فِي الأرضِ من شيءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قال : نعم ، قال : فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشرك»[٢] ، فالله عزَّ وجلَّ قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم كلِّهم وهُم في صلب آدم عليه السَّلام ، فمنهم مَنْ وفَّى بعهده وأتَى بالتَّوحيد ومات على ذلك فسعِد السَّعادة الأبديَّة في جنَّات عدن ، ومنهم مَنْ امتنع عن الوفاء ، بل غدر وعصى وتمرَّد فشقي الشَّقاء الأبديَّ في نارٍ تلظَّى نعوذ بالله مِنْ ذلك[٣] .

ومن نصوص الوعيد أيضًا قولُ النبيِّ ﷺ : «يُنَادِي مُنَادٍ : ليذهب كُلُّ قومٍ إلى ما كَانُوا يَعْبُدُونَ ، فيذهبُ أصحابُ الصَّلِيبِ مع صليبِهم ، وأصحابُ الأوثانِ مع أوثانهم ، وأصحابُ كُلِّ آلهةٍ مع آلهتهم»[٤] ، ثُمَّ يُؤمر بأولئك المشركين فيتساقطون في نار جهنَّم والعياذ بالله ، ومن ذلك أيضًا قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : «من زَعَمَ أَنَّ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَارِيًا أَوْ قَاضِيًا أَوْ رَازِقًا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا أَوْ نَفْعًا أَوْ مَوْتًا أَوْ حَيَاةً أَوْ نُشُورًا ،

---

(١) انظر : محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي (ت: ١٤٤١هـ) : البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ، دار ابن الجوزي- الدَّمَّام ، ط : ١ ، ١٤٢٦-١٤٣٦هـ ، ٣/ ١٣١ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، بابُ خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ، برقم (٣١٥٦) ، ٢/ ١٢١٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار ، برقم (٢٨٠٥) ، ٤/ ٢١٦٠ .

(٣) انظر : محمد بن علي آدم الإتيوبي : البحر المحيط الثجاج ، ٤٣/ ٤٥٠ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، بابُ قول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، برقم (٧٠٠١) ، ٦/ ٢٧٠٦ .

بعثهُ الله عزَّ وجلَّ يوم القيامةِ فأخرسَ لِسَانَهُ ، وأعمى بَصَرَهُ ، وجعلَ عملَهُ هَبَاءً منثُورًا ، وقطعَ به الأسبابَ ، وكبَّهُ على وجهه في النَّار»[١] .

ومن نصوص الوَعيد ما جاء أنَّ الشِّرك مُحبطٌ للعمل ، وأنَّ الله يَرُدُّ على المشرك عمَله يوم القيامة فلا يقبله مِنه ولا يُثيبه عليه ، قال النبيُّ ﷺ : «قال اللهُ تباركَ وتعالى : أنا أغنَى الشركاء عن الشرك ، من عمل عَمَلًا أشركَ فيه معي غيري ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ »[٢] ، وفي حديثٍ آخر قال ﷺ : «إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخرين يومَ القيامةِ ، ليوم لا رَيْبَ فيه ، نَادَى مُنَادٍ : من كانَ أشرك في عمل عمِلَهُ لِلَّه ، فَلْيَطْلُب ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله ، فإنَّ اللهَ أغنى الشركاءِ عَنْ الشرك»[٣] ، والعمَل لغير الله على أقسام : فتارةً يكون رياءً محضًا بحيث لا يُراد به سِوى مُراءات المخلوقين لغرضٍ دُنيَويٍّ ، وهذا الرِّياء المحض لا يكاد يصدر مِنْ مُؤمنٍ في فَرض الصَّلاة والصِّيام ، وقد يصدر في الصَّدقة الواجبة أو الحجِّ وغيرهما مِنَ الأعمال الظاهرة أو التي يتعدَّى نفعها فإنَّ الإخلاص فيها عزيزٌ ، وهذا العمل لا يشكُّ مُسلمٌ أنَّهُ حابطٌ وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقتَ مِنَ الله والعقوبة ؛

---

(١) عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٩٠هـ) : السُّنَّة ، ت : محمد بن سعيد بن سالم القحطاني ، دار ابن القيم - الدمام ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ ، برقم (٩٥٧) ، ٢/ ٤٣٢ ، وحديث ابن عمر هذا له حكم الرَّفع إلى النبيِّ ﷺ ؛ لأنَّه ليس للرَّأي فيه مجال .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، برقم (٢٩٨٥) ، ٤/ ٢٢٨٩ .

(٣) محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت : ٢٧٣هـ) ، السُّنَن : ت : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، أبواب الزهد ، باب الرِّياء والسُّمعة ، برقم (٤٢٠٣) ، ٥/ ٢٩١ ، والترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الكهف ، برقم (٣١٥٤) ، وقال : غريب .

وتارةً يكون العمل لله ويُشاركه الرِّياء ، فإنْ شاركَه من أصله فالنُّصوص الصَّحيحة تدلُّ على بطلانه وحبوطه أيضًا ، وأمَّا إنْ كان أصل العمل لله ثُمَّ طرأت عليه نيَّة الرِّياء ، فإنْ كان خاطرًا ودفَعه ، فلا يضرُّه بغير خلافٍ ، وإنْ استرسل معه فهل يحبط به عمله أم لا يضرُّه ذلك ويُجازى على أصل نيَّته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء مِنَ السَّلف ؛ وأمَّا إذا عمِل العمَل لله خالصًا ثمَّ ألقى الله له الثَّناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك فَفَرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضرَّه ذلك[1] ؛ فهذا شيٌ من نُصوص السنَّة النبويَّة الـمُحذِّرة مِنَ الشرك الـمُبيِّنة لقُبحه والـمُظهرة لخطرِه وضرره كافيةٌ -إنْ شاء الله- في زجر القلوب عن مُقارفتِه ، والله الهادِي إلى سواء السَّبيل .

ثالثًا : دعوة النبيِّ ﷺ إلى التَّوحيد ونشر فضائله ، فالأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فإنَّ النُّصوص النبويَّة في الدَّعوة إلى التَّوحيد والأمر به وتقريره ونشر فضائله كثيرةٌ جدًا ستتخلَّل هذه الرِّسالة في مواضع عدَّة منها ، وسأقتصر في هذا الـمقام على ذكر شيءٍ من الأحاديث التي ذكرت حسنةَ التَّوحيد وفضيلتَه والتي اقترنت بالنَّهيِّ عن الشرك وبيان خطره .

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فقال ﷺ : «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ

---

(١) انظر : زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي المشهور بابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) : جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، ت : شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط : ٧ ، ١٤٢٢هـ ، ١/ ٧٩-٨٣ .

الْجَنَّةَ ، ومن ماتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»[١] ، ومنه يتبيَّن لنا شدَّة خطورة الشرك بجميع أنواعه وصُوَره وسوء عاقبته ، فلا خلاف عند أهل الحقِّ في أنَّ المشرك مآله إلى النَّار ، فهو على عمومه يدخلها ويخلَّد فيها ، ولا فرق في ذلك بين الكتابيِّ اليهوديِّ أو النصرانيِّ وبين عبدة الأوثان وسائر الكَفَرة ، وأمَّا دخول مَنْ مات غير مشركٍ الجنَّة فهو مقطوعٌ له به ، لكن إنْ لم يكن صاحب كبيرةٍ مات مصرًا عليها دخل الجنَّة أولًا ، وإنْ كان صاحب كبيرةٍ مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة ، فإنْ عُفِيَ عنه دخل الجنَّة أولًا ، وإلَّا عُذِّب ثُمَّ أُخرج مِنَ النَّار وخُلِّد في الجنَّة[٢] ، ومِنْ ذلك أيضًا قولُ النبيِّ ﷺ : «مَنْ لقيَ اللهَ وهو لا يُشْرِكُ به شيئًا دخلَ الجنَّة ولم تضُرَّهُ مَعَهُ خطيئةٌ ، كما لو لقيهُ وهو مشركٌ به دخل النَّار ولم تنفعهُ معهُ حسنةٌ»[٣] ، وفي حديثٍ آخر قال النبيِّ ﷺ : «من ماتَ وهو يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ صَادِقًا من قلبه ، دخلَ الجنَّةَ»[٤] ، ومن ذلك أيضًا نقل جبريل عليه السَّلام لبِشارة الله عزَّ وجلَّ إلى النبيِّ ﷺ وأُمَّته ، فعن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ[٥] رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر : يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : ٢ ، ١٣٩٢هـ ، ٢/ ٩٧ ، وانظر : خالد البليهد : شرح حديث عبدالله بن مسعود ، ١/ ٥ .

(٣) شطره الأول أخرجه البخاري من حديث أنس ، برقم (١٢٩) ، ١/ ٣٨ ، كتاب العلم ، باب من حض بالعلم قومًا دون قوم ، مسند أحمد : مسند عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، برقم (٦٥٨٥) ، ١١/ ١٥٥ .

(٤) مسند أحمد : مسند معاذ بن جبل رضي الله عنه ، برقم (٢٢٠٠٣) ، ٣٦/ ٣٢٩ .

(٥) أبوذَرٍّ الغفاريِّ ، اختلف في اسمه واسم أبيه ، والمشهور أنَّه جُندب بن جنادة بن =

قال : «أَتَانِي جبريلُ فبشَّرني أنَّهُ من ماتَ لا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّة ، قلتُ -أبوذر- : وإنْ سَرَقَ ، وإنْ زَنَى ، قال ﷺ : وإنْ سَرَقَ ، وإنْ زَنَى»[١] ، وكأنَّه من جهة أنَّ جبريل إنَّما يُبشِّر النبيَّ ﷺ بأمرٍ يتلقَّاه عن ربِّه عزَّ وجلَّ ، فكأنَّ الله سبحانه قال له بشِّر محمَّدًا بأنَّ مَنْ مات مِنْ أُمَّته لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنَّة ، فبشَّره بذلك[٢] ، والحديث فيه دلالةٌ على شدَّة تهمُّمِ النبيِّ صلوات ربِّي وسلامه عليه بأمر أُمَّته ، وتعلُّق قلبه بما يُنجِيهم ، وخوفه عليهم ، ولذلك سكَّن جبريل عليه السلام قلبَه بهذه البشرى[٣] ، وحديث أبي ذرٍّ هذا -وكذا الأحاديث الَّتي سبقته- دليلٌ

=

سكن. الصَّحابيُّ الزاهد المشهور الصادق اللَّهجة ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، ويُقال إنَّ إسلامه كان بعد أربعة ، وانصرف إلى بلاد قومه ، فأقام بها حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ومضت بدر وأحد ، ولم تتهيأ له الهجرة إلا بعد ذلك ، وكان طويلًا أسمر اللون نحيفًا . وكان رسول الله ﷺ يبتدئ أبا ذر إذا حضر ، ويتفقَّده إذا غاب ، وهو الَّذي قال فيه رسول الله ﷺ : ما أقلَّت الغبراء ولا أظلَّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذرّ . وكانت وفاته بالربذة سنة إحدى وثلاثين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٦٥٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ١٠٥ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب التَّوحيد ، بابُ كلام الرَّبِّ مع جبريل ونداء الله الملائكة ، برقم (٧٠٤٩) ، ٦/ ٢٧٢١ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (٩٤) ، ١/ ٩٤ .

(٢) انظر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ت : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩هـ ، ١٣/ ٤٦٢ .

(٣) انظر : أبوالعباس القرطبي : المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ١/ ٢٩١ .

على عِظم فضل التَّوحيد وثمرته ، وعِظم جُرم الشرك وشناعته ، فمَن مات مُوَحدًا دخل الجنَّة ، وإنْ فعل كبيرةً مِنْ هذه الكبائر ، لأنَّ الكبائر تُنْقص الإيمان ولا تسلُب اسمه ، وأصحابها وإنْ دخلوا النَّار فلا يُخَلَّدون فيها ؛ لأنَّ عندهم يقينًا تامًّا بأنَّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، ليس له شريك في الملك ، وليس له شريك في خلقه ، وليس له شريك في تصرُّفاته ، وليس له شريكٌ في أمره ونهيه ، وليس له شريكٌ في عبادته سبحانه وتعالى ، والله عزَّ وجلَّ يقول فيما يرويه النبيُّ ﷺ عنه- : «وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ[1] الأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»[2] ، فما أعظم أجر حسنة التَّوحيد مِنْ ربٍّ غفورٍ كريمٍ مُتفضِّلٍ شكورٍ!

رابعًا : تخوُّف النبيِّ ﷺ من وقوع هذه الأمَّة في الشرك ، ومُسارعته ﷺ إلى حماية جناب التَّوحيد بسدِّ كُلِّ الذَّرائع المُوصلة إليه ، فمِنْ رحمة الله بخَلقه أنْ أرسل إليهم رُسلًا مِنْهم ليُنذروهم ويُبشِّروهم بجنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض لِمَن أجاب داعيَ الله فيهم وأقبل على الله بالتَّوحيد الخالص ، ويُنذروهم نارَ جهنَّم ويُبلِّغوهم أنَّ مَنْ أشرك بالله استحقَّ الخلود فيها ، فأدَّى أولئك الرُّسل الأمانة وبلَّغوا الرِّسالة ، ومِنْ رحمة تلك الصَّفوة بأُمَمِهم خوفُهم عليهم الشرك بأنْ يتفشَّى فيهم ، فهذا

---

(١) أي : بِمَا يُقارِب مَلأَها ، وهو مصدر قَارَب يُقارِب . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٣٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار ، برقم (٢٦٨٧) ، ٤/ ٢٠٦٨ .

أبو الأنبياء عليه السَّلام يدعو الله : ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[(١)] ، وكذلك كان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مع أُمَّته ، فهو القائل : «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِالله ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا ، وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ الله ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً»[(٢)] ، وما ذاك إِلَّا لشدَّة خفائه وسُرعة تسلُّلِه مع عِظم أضراره وكثرة مفاسده ، قال ﷺ : «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشرك فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»[(٣)] ، فلهذا سعى ﷺ في حماية جناب التَّوحيد بسَدِّ كُلِّ الذَّرائع[(٤)] المُوصلة إلى الشرك ، ومِنْ تلك الذَّرائع الَّتي حذَّرنا منها النبيُّ ﷺ الغلوُّ في تعظيم القبور واتِّخاذها مساجد ، لأَنَّ تعظيمها يُفضي إلى عبادة مَنْ فيها ، ولأَنَّ أصل عبادة الأوثان كان مِن تعظيم القبور[(٥)] ، فمِنْ صُوَر تعظيمها الَّتي نهى النَّبيُ ﷺ عن البناء على القبور وتَعْلِيَتُها فقد كانت وصيَّة النبيِّ ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه : «أَنْ لَا يَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّاهُ»[(٦)] ، وكذا تَجْصِيصُهَا[(٧)] والجلوس والكتابة عليها ، فقد قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أن يُجَصَّصَ

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : (٣٥) .

(٢) سنن ابن ماجه ، أبواب الزهد ، باب الرِّياء والسُّمعة ، برقم (٤٢٠٥) ، ٥/ ٢٩٢ .

(٣) ابن أبي شيبة : المصنَّف ، برقم (٢٩٥٤٧) ، ٦/ ٧٠ .

(٤) الذَّرائعُ -جمع ذريعة- أي : الوَسِيلَةُ والسببُ إِلى الشَّيْء . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٨/ ٩٦ .

(٥) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ١٢٤ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، برقم (٩٦٩) ، ٢/ ٦٦٦ .

(٧) الجِصُّ : الَّذي يُطْلى بِه ، وجَصَّصَ الحائط وغيره : طَلَاهُ بالجِصّ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٧/ ١٠ .

القبرُ ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْه ، وأن يُبْنَى عليه»[١] . وفي رواية : «أَوْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ»[٢] ، وكذا اتِّخاذ السُّرُج عليها وإيقادها وتنوِيرها بها لقول ابن عباس رضي الله عنهما : «لعنَ رسولُ الله ﷺ زائراتِ القُبور والمتَّخِذِينَ عليها المَسَاجدَ والسُّرُجَ»[٣] ، وكذا اتِّخاذُها عيدًا لقوله ﷺ : «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»[٤] ، وذلك بجعلها مَجمعًا كالأعياد الَّتي يقصد النَّاس الاجتماع إليها للصَّلاة[٥] ، أَضِف إلى ذلك اتِّخاذها مساجد والصَّلاة إليها ، قال ﷺ قبل مَوْته : «ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبورَ أنبيائهِم وصالحيهِم مساجد ، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجِد ، إِنِّي أنهاكم عن ذلك»[٦] ، وإنَّما نهى النبيُّ ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به ، فربَّما أدَّى ذلك إلى الكفر كما جرى

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، برقم (٩٧٠) ، ٢/ ٦٦٧ .

(٢) أحمد بن شُعيب النَّسائي (ت: ٣٠٣هـ) : المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي ، ت : عبدالفتاح أبوغدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب ، ط : ٢ ، ١٤٠٦هـ ، كتاب الجنائز ، باب الزيادة على القبر ، برقم (٢٠٢٧) ، ٤/ ٨٦ ، والترمذي ، ٣/ ٣٥٩ ، برقم (١٠٥٢) ، وقال : حسن صحيح .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، باب في زيارة النساء القبور ، برقم (٣٢٣٦) ، ٥/ ١٣٩ ، والترمذي ، ٢/ ١٣٦ ، برقم (٣٢٠) ، أبواب الصلاة ، وقال : حديث حسن .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب في الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ وزيارة قبره ، برقم (٢٠٤٢) ، ٣/ ٣٨٥ .

(٥) انظر : محمَّد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيِّم الجوزيَّة (ت: ٧٥١هـ) : تهذيب السُّنن ، ت : إسماعيل بن غازي مرحبا ، مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع – الرِّياض ، ط : ١ ، ١٤٢٨هـ ، ٢/ ٧٣٠ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، برقم (٥٣٢) ، ١/ ٣٧٧ .

لكثيرٍ من الأمم الخالية[١] ، وأمَّا النَّهي عن الصَّلاة إليها فقد قال ﷺ : «لَا تُصَلُّوا إِلَى القبور ، ولا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»[٢] ، أي : لا تتَّخذوها قِبلةً ، وهذا قطعٌ لذريعة أن يَعتقد الجهَّال في الصَّلاة إليها أو عليها صَّلاة لها ، فيؤدِّي إلى عبادة مَنْ فيها كما كان السَّبب في عبادة الأصنام[٣] ، فتلك عَيِّنةٌ مِنْ جملةٍ من الذرائع الـمُتعلِّقة بالقبور والـمُفضيَّة لعبادة الأوثان ، فقد سدَّها النبيُّ ﷺ واشتدَّ نهيه عنها ، ومن الذَّرائع أيضًا الَّتي سدَّها النبيُ ﷺ عبادة الله في أمكنةٍ أو أزمنةٍ يُعبد فيه غير الله ، فعن ثابت بن الضحَّاك[٤] رضي الله عنه أنَّ رجلًا على عهدِ رسول الله ﷺ نَذَرَ أن ينحرَ إبلًا ببُوانةَ[٥] ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إنِّي نذرتُ أن أنحر إبلًا ببُوانةَ ، فقال رسول الله ﷺ : «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّة يُعبَدُ؟» قالوا : لا ، قال : «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعيَادِهِمْ؟» ، قالوا : لا ، قال رسولُ الله ﷺ : «أَوْفِ بنَذْرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابنُ

---

(١) انظر : النَّواوي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ٥/ ١٣ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، برقم (٩٧٢) ، ٢/ ٦٦٨ .
(٣) انظر : أبوالعباس القرطبي : الـمُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ١/ ٢٨٠ .
(٤) ثابت بن الضَّحَّاك بن خليفة بن ثعلبة بن عديّ بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاريّ الأشهلي ، يُكنَّى أبا زيد ، سَكَن الشَّام وانتقل إلى البصرة ، شهد بيعة الرضوان ، مات سنة خمس وأربعين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢٠٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٥٠٧ .
(٥) بُوَانَة – بضمِّ الباء وتخفيف الواو ونون وهاء– : هضبةٌ وراء ينبع قريبةٌ مِنَ ساحل البحر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٥٠٥ ، محمد شُرَّاب : المعالم الأثيرة في السُّنَّة والسِّيرة ، ص : ٥٤ .

آدمَ»[(١)] ، والحديث فيه دلالةٌ ظاهرةٌ على سدِّ النبيِّ ﷺ لهذه الذَّريعة وترك مشابهة المشركين ، ومَنْعُه لأيِّ وسيلةٍ إلى ذلك مِنْ عبادة الله في أمكنةٍ وأزمنةٍ اعتاد المشركون على عبادة غير الله فيها[(٢)] ، ومِنْ شواهد ذريعة عبادة الله في أزمنة يُعبد فيها غير الله أيضًا حديثُ عُقبة بن عامر[(٣)] رضي الله عنه : ثلاث ساعاتٍ كان رسول اللهِ ﷺ ينهانا أَنْ نُصلِّيَ فيهِنَّ أو أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتانا : حِينَ تطلُع الشَّمس بازِغةً حتَّى ترتفعَ ، وحينَ يقوم قائم الظَّهِيرة حتَّى تَمِيلَ الشَّمس ، وحين تَضَيَّفُ الشَّمس للغروبِ حتَّى تغربَ[(٤)] ، وجاء ذكر علَّة هذا النَّهي في الحديث الآخر عند قوله ﷺ : «فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ ،..فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»[(٥)] ، (بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَان) : قِيل المراد بقرني الشَّيطان حِزبه وأتباعه ، وقِيل قُوَّته وغَلبته وانتشار فساده ، وقِيل القَرنان ناحيَتا الرَّأس وأنَّه على ظاهره وهذا هو الأقوى ، قالوا ومعناه أنَّه يُدنِي رأسه إلى الشَّمس في هذه الأوقات

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأيمان والنُّذور ، باب ما يُؤمر بوفائه مِن النَّذر ، برقم (٣٣١٣) ، ٥/ ٢٠٠ .

(٢) انظر : عبد الرحمن بن حسن : فتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد ، ص : ١٥٥ .

(٣) عُقبة بن عَامِر بن عبس الجهني ، من جُهينة بن زَيْد بن سود بن أسلم ابن عَمرو بن الحاف بن قُضاعة . الصَّحابي المشهور ، روى عن النبيّ ﷺ كثيرًا ، شهد عُقبة بن عامر الفتوح ، وكان هو البريد إلى عمر بفتح دمشق ، أمَّره معاوية على مصر ، مات في سنة ثمان وخمسين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٠٧٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٢٩ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، برقم (٨٣١) ، ١/ ٥٦٨ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، برقم (٨٣٢) ، ١/ ٥٦٩ .

ليكون السَّاجدون لها مِنَ الكفَّار كالسَّاجدين له في الصُّورة ، وحينئذٍ يكون له ولبنِيه تسلُّطٌ ظاهرٌ وتمكُّنٌ مِنْ أن يلبِّسوا على المصلِّين صلاتهم فكُرهت الصَّلاة حينئذٍ صيانةً لها كما كُرهت في الأماكن الَّتي هي مأوى الشَّيطان[١] ، هذا فيما يخصُّ التَّمثيل لبعض الأفعال الَّتي نهى عنها النَّبيُّ ﷺ حتَّى لا يُتذرَّع بها إلى الشرك ، وكذلك نهى رسول الله ﷺ عن أقوال لِمَا حوَته مِنْ ذرائع إلى الشرك ، كالتَّلفُّظ بالألفاظ الَّتي فيها إيهامًا بالتَّسويَّة بين الله وبين خلقه ، مثلُ قول القائل : ما شاء الله وشئت ونحوها ، قال رسول الله ﷺ : «لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ الله وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»[٢] ، وفي الحديث الآخر قال ﷺ لِمَن قال له ما شاء الله وشئتَ : «جَعَلْتَنِي لِلَّه عَدْلًا ، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٣] ، يقول ابن القيِّم : «ومِنَ الشرك به سبحانه الشرك به في اللَّفظ كقول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئتَ ، هذا مع أنَّ الله قد أثبت للعبد مشيئةً ، فكيف بمَنْ يقول : أنا مُتوَكل على الله وعليك ، وأنا في حسب الله وحسبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وهذا مِنَ الله ومنك ، وهذا مِنْ بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت في الأرض؟! أو يقول : والله وحياة فلان ، أو يقول نذرًا : لله ولفُلان ، وأنا تائبٌ لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلانًا ، ونحو ذلك . فليُوازَن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئتَ ، ثمُّ ليُنظَر أيُّهما أفحش ، فسيتبيَّن عندئذٍ أنَّ قائلها أَولَى

---

(١) انظر : النَّواوي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ٦/ ١١٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب لا يُقال : خَبُثَتْ نفسي ، برقم (٤٩٨٠) ، ٧/ ٣٣٤ .

(٣) مسند أحمد : مسند عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، برقم (٢٥٦١) ، ٤/ ٣٤١ .

بجواب النبيِّ ﷺ لقائل تلك الكلمة ، وأنَّه إذا كان قد جعله ندًا لله بها ، فهذا قد جعل مَنْ لا يُداني رسول الله ﷺ في شيءٍ مِنَ الأشياء -بل لعلَّه أنْ يكون مِنْ أعدائه- نِدًا لربِّ العالمين»[1] ؛ إلى غير ذلك مِنَ الوسائل الـمُوصلة إلى الشرك بالله عز وجلَّ والَّتي نهى عنها النبيُّ ﷺ وحمى جناب التَّوحيد بسدِّها ، وسيأتي مزيد تفصيلٍ في كثيرٍ منها في الفصل الرَّابع مِنْ هذه الرِّسالة إنْ شاء الله تعالى ، وبهذا أكونُ قد وصلت إلى نهاية هذا المبحث ولله الحمد .

(١) انظر : ابن قيِّم الجوزية : الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّوَاء الشَّافي ، ص : ١٣٥ .

المبحثُ الثَّاني :
مواقفُ النبِيِّ ﷺ في
الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ ونَبْذِ الشرك قبل الهجرة

عاشَ النبيُّ ﷺ حياةً حافلةً بالعطاء والتَّضحية والصَّبر في سبيل الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ ، والمتتبع لسيرته ﷺ يجدها قد امتلأت بالمواقف الدَّعوية له في شتى الجوانب ، بدءاً بتقرير التَّوحيد والسَّعي في تبليغه ، ثُمَّ التَّحذير من الشرك وإظهار مساوئه ، فهو بحقٍّ سيِّد المرسلين وقدوة الدُّعاة المهتدين ، وحريٌّ بمن تسنَّم هذا المنصب -وهو الدَّعوة إلى الله- أن يقرأ سيرةَ النبيِّ ﷺ ويترسَّم خُطاه في دعوته ، ويتَّخذ من مواقفه نبراسًا يُضيء له طريق الدَّعوة إلى الله ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1] .

فقد نشأ عليه الصَّلاة والسَّلام نشأةً فاضلةً شريفةً ، لم تُعرف له فيها هفوة ، ولم يُحْصَ عليه فيها زلَّة ، يحوطه الله سبحانه وتعالى بعنايته ، ويرعاه برعايته ، فَحَفِظَهُ من أقذار الجاهليَّة ، وعَصَمَهُ من الشرك ومظاهره ؛ لما يريده له من كرامته ورسالته ، حتى صار أفضل قومه مروءةً ، وأحسنهم خلقًا ، وأكرمهم حسبًا ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلمًا ، وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنِّس الرِّجال تنزُّها وتكرُّمًا حتى لُقِّبَ بالصَّادِقِ الأَمِيْنِ[2] .

وقد كان في المجتمع العربي حنيفيون ، وحَّدوا الله ودعوا إلى توحيده ، وكان هناك كرماء وأوفياء ، وعُرف من بينهم أُناس عُرفوا بالعفَّة وطهارة الذَّيل ، والبُعد عن المآثم بالتَّنزُّه عن الفواحش ، ولكن من

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٢١) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ١٨٣ .

الصعب جداً أن نجد في تلك البيئة إنساناً جمع الله له كُلَّ الصِّفات والأخلاق العظيمة ، مثلما اجتمعت في رسول الله ﷺ .

كان النبيُّ ﷺ قبل البعثة عميق التفكُّر ، كثيرَ التأمُّل ، غير خاضع لِتُرَّهات[١] الجاهليَّة ، فما عُرف عنه أنَّهُ سجد لصنمٍ قطُّ ، أو تمسَّح به ، بل بُغِّضَتْ إليه من فطرته عبادة الأصنام والحلف بها ، ويدلُّ على ذلك ما أورده ابن إسحاق[٢] في قصَّة بحيرى الرَّاهب عندما رأى النبيَّ ﷺ برفقة عمِّه أبي طالب وهو في طريقه إلى الشَّام ، فقال له بحيرى : يا غلام ، أسألك بحقِّ اللَّات والعُزَّى إلَّا أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنَّما قال له بحيرى ذلك لأنَّهُ سمع قومه يحلفون بها ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تَسْأَلْنِي باللَّاتِ والعُزَّى فَوَاللهِ ما أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُما[٣] .

(١) التُّـرَّهات : جمع ترهة ، وهي البواطل من الأمور . انظر : الفراهيدي : العين ، ٤/ ٣٣ .

(٢) محمد بن إسحاق بن يسار مولى قيس بن مخرمة القرشي ، صاحب المغازي ، كان ممن عنى بعلم السنن وواظب على تعاهد العلم ، وكثرت عنايته فيه وجمعه له على الصدق والإتقان ، من أحسن الناس سياقاً للأخبار وأحفظهم لمتونها ، مات ببغداد سنة خمسين ومائة . انظر : عبدالرحمن بن محمد ابن أبي حاتم (ت : ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند ، دار إحياء التراث العربي -بيروت ، ط : ١ ، ١٢٧١هـ ١٩٥٢م ، ٧/ ١٩١ ، محمد بن حبان أبوحاتم الدارمي البُستي (ت : ٣٥٤هـ) : مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار ، ت : مرزوق على إبراهيم ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص٢٢٢ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ١٨٠-١٨٢ ، أكرم ضياء العمري : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة محاولةٌ لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط : ٦ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، ١/ ١٠٧- ١٠٨ .

=

ومن هذه الحادثة يتبيَّن موقف النبيِّ ﷺ تجاه الأصنام التي كانت قريش تعظِّمها وتصرف العبادة لها ، فقد كان يُبغضها ولا يحبُّ سماع اسمها فضلًا عن التقرُّب إليها وصرف العبادة لها ، من فطرة الله التي فطره الله عليها .

وقد هيَّأ الله تعالى نبيَّه ﷺ لتلقِّي شريعته المطَّهرة ، وإيصالها إلى الخلق على أتمِّ وجه وأكمله ، لذلك كانت نفسه الكريمة مجبولة على حُبِّ الخير والحقِّ ومكارم الأخلاق ، وبُغض الشرِّ والشرك والنُّفرة منهما ، فهو الذي أَنِفَ الباطلَ بطبيعته ، وأَلِفَ الحقَّ بسجيَّته ، كذلك أيضًا كانت فطرة أبيه إبراهيم عليه السلام التي فُطر عليها قبل نبوَّته ، وشأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله ، يُفْطَرون على الإقبال على الله تعالى ، وتنصرف هممهم وأنفسهم الزكيَّة قبل نبوَّتهم عما يكون عليه أقوامهم من باطل العقائد وفاسد العادات والعبادات .

=

وقصة بحيرى مع النَّبيِّ ﷺ هذه أوردها أصحاب السِّير في كتبهم ، ورُوِيت في كتب السُّنَّة بطرق متعدِّدة ، وإنَّ أقوى طُرق هذه القصة ما ورد عند الترمذي في جامعه ، سنن الترمذي ، ت : أحمد محمد شاكر ، ومن جاء بعده ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط : ٢ ، ١٣٩٥هـ ، أبواب المناقب ، باب في مبعث النبي ﷺ ، برقم(٣٦٢٠) ، ٥/ ٥٩٠-٥٩١ ، فقد رواه بإسناده إلى عبدالرحمن بن غزوان المشهور بقُرَاد ، ومن طريق قُراد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ٦/ ٣١٧ ، والحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٢/ ٦٧٢ ، والطبري في تاريخه ٢/ ٢٧٧-٢٧٨ ، والبيهقي في الدلائل ، ٢/ ٢٤ ، والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ١١/ ٥٢٨ . وقال عنها الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وصحَّحها الحاكم في المستدرك ، وقال : على شرط البخاري ومسلم ، ٢/ ٦٧٢ .

وسيرته ﷺ هي أعظم شاهدٍ على حُسن نشأته تلك ، فقد كان ﷺ مقبلًا على الله تعالى بقلبه ، حنيفًا ، لم يَحُم الشرك حول قلبه الكريم ، فكان بأصل فطرته مبغضًا لهذه الأوثان ، نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، فلم يكن يحضر لها عيداً ، ولا يتقرَّب إليها ، ولا يحفل بها ، كيف لا! وهو الَّذي حباه الله منذ مولده فرعاه ونزع حظَّ الشَّيطان من قلبه ، لما يراد به من كرامته ورسالته ، فقد جاءه جبريل عليه السَّلام وهو يلعب مع الغِلمان ، فأخذه فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه عَلَقَةً ، فقال : هذا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثُمَّ لأَمَهُ ، ثُمَّ أعاده في مكانه[١] ؛ فكيف لقلبٍ نُزع منه حظُّ الشَّيطان أنْ يألف الشرك بِكُلِّ أنواعه؟!

وقد شَبَّ رسولُ الله ﷺ والله تعالى يَكْلَؤُهُ ويحفظه ويحُوطه من أقذار الجاهليَّة ، وتعظيم الأصنام والتقرُّب إليها ، بما عصمه الله من الشرك بالله جلَّ وعلا وحماه ، فهو الَّذي قال : «لمَّا نَشَأْتُ بُغِّضَتْ إليَّ الأَوْثَانُ»[٢] ، حتَّى إنَّه كان لا يمسها ولا يأكل مِنْ ذبائحهم الَّتي قُرِّبت لأصنامهم ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه[٣] أنَّ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (١٦٢) ، ١/ ١٤٧ .

(٢) انظر : أحمد بن إسماعيل البوصيري (ت : ٨٤٠هـ) : إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، ت : الفريق العلمي بدار المشكاة للبحث العلمي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ، ٧/ ١٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ، برقم (٣٦١٤) ، ٣/ ١٣٩١ .

قلتُ : هذه الحادثة الَّتي حدَّث بها ابن عمر رضي الله عنهما جاءت عند الحاكم في مستدركه ، ٣/ ٢٣٨ وغيره مِن حديث زيد بن حارثة رضي الله عنه بسياقٍ أطوَل =

=

منها ، لكنَّ فيها ألفاظًا مُنكرةً يحسن التَّنبيه عليها ، وبيان بطلانها ، سيَّما وأنَّها كانت مغمزاً لأعداء الدِّين يطعنون بها في عصمة نبيِّنا ﷺ مِنَ الشرك بالله قبل بعثته ، فقد أوردها الحاكم مِنْ طريق محمَّد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ويحيى بن عبدالرحمن بن حاطب ، عن أسامة بن زيد ، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ **وهو مُردفي إلى نُصُبٍ من الأنصاب ، فذبحنا له شاةً ووضعناها في التَّنُّور ، حتَّى إذا نضجت استخرجناها فجعلناها في** سُفرتنا ، ثمَّ أقبل رسول الله ﷺ يسير وهو مُردفي في أيام الحرِّ من أيام مكَّة ، حتَّى إذا كنَّا بأعلى الوادي لقي فيه زيد بن عمرو بن نُفَيل ، فحيَّا أحدهما الآخر بتحية الجاهلية ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَا لِي أَرَى قَوْمَكَ قَدْ شَنَفُوكَ؟» ، قال : أما والله إن ذلك لتغيُّر ثائرةٍ كانت منِّي إليهم ، ولكنِّي أراهم على ضلالة ، قال : فخرجت أبتغي هذا الدِّين حتَّى قدمت على أحبار يثرب فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : ما هذا بالدِّين الَّذي أبتغي ، فخرجت حتَّى أقدم على أحبار أيلة فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : ما هذا بالدِّين الَّذي أبتغي ، فقال لي حبرٌ من أحبار الشَّام : إنَّك تسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخًا بالجزيرة ، فخرجت حتَّى قدمت إليه ، فأخبرته الَّذي خرجت له ، فقال : إنَّ كلَّ مَن رأيته في ضلالة إنَّك تسأل عن دينٍ هو دين الله ، ودين ملائكته ، وقد خرج في أرضك نبيٌّ أو هو خارج ، يدعو إليه ، ارجع إليه وصدِّقه واتَّبعه ، وآمن بما جاء به ، فرجعت فلم أحسن شيئًا بعد ، فأناخ رسول الله ﷺ البعير الذي كان تحته ، **ثمَّ قدَّمنا إليه السُّفرة الَّتي كان فيها الشِّواء** ، فقال : ما هذه؟ فقلنا : «**هَذِهِ شَاةٌ ذَبَحْنَاهَا لِنُصُبِ كَذَا وَكَذَا**» ، فقال : إنِّي لا آكل ما ذُبح لغير الله ، وكان صنمًا مِنْ نحاسٍ يُقال له : إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله ﷺ وطُفت معه ، فلمَّا مررت مسحت به ، فقال رسول الله ﷺ : «لَا تَمَسَّهُ» ، قال زيد : فطفنا ، فقلت في نفسي : لأمسنَّه حتى أنظر ما يقول ، فمسحته ، فقال رسول الله ﷺ : «أَلَمْ تُنْهَ؟» قال زيد : فوالَّذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه ، وأنزل عليه الكتاب ، ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة ، فقال رسول الله ﷺ : «يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ» .

وهذه الرِّواية حَوتْ عدَّة ألفاظ استنكرها أهل العلم بالحديث وحكموا علي

=

=

الحديث بالبطلان والنَّكارة لأجلها ، كالقول بأنَّهم ذبحوا شَّاة للنُّصب وقرَّبها لزيد بن عمرو بن نُفَيل ، وهذا والله مُنكرٌ مِنَ القول ومردود ، فحاشاه أنْ يفعل ذلك نبيٌّ الله وهو الَّذي عصمه الله منذ طفولته مِنْ أشياء هي أهون من هذه ، قال الذهبي : «وكيف يجوز ذلك وهو عليه السلام قد منع زيدًا أن يمسَّ صنماً ، وما مسَّه هو قبل نبوَّته؟! فكيف يفعل ما هو أعظم من ذلك أن يذبح للصنم؟! هذا محال» . انظر : الذهبي : سير أعلام النُّبلاء ، ١/ ١٣٥ ، ومِن أجل ذلك عقَّب -الذهبي- على هذه الرِّواية بعد إيراده لها كاملةً بقوله : «في إسناده : محمد -أي : بن عمرو بن علقمة- لا يُحتج به ، وفي بعضه -أي : هذا الحديث- نكارةٌ بيِّنة» . انظر : الذهبي : سير أعلام النُّبلاء ، ١/ ٢٢٢ . فالأنبياء معصُومون مِنَ الشرك قبل النُّبوَّة ، قال ابن تيميَّة : «وكثيرٌ مِنْ أهل السُّنَّة يقولون : إنَّ الأنبياء معصومون مِنَ الكفر قبل النُّبوَّة ، كما قال ابن الأنباريِّ ، والزجَّاج ، وابن عطيَّة ، وابن الجوزي ، والبغوي..» . انظر : ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) : تفسير آياتٍ أشكلت ، ت : عبدالعزيز خليفة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ ، ص : ١٨١ . حتَّى إنَّ إمام أهل السُّنَّة الإمام أحمد ابن حنبل غلَّظ القَول فيمَنْ قال بأنَّ نبيَّنا ﷺ كان على دين قَومه -عَبَدة الأصنام- قبل البعثة ، فقد جاء عند الخلال في كتابه السُّنَّة أنَّ الإمام أحمد قال عن مَقُولة أنَّ النَّبيَّ ﷺكان على دِين قومه قبل أن يُبعث بأنَّها قَولٌ سوءٌ ، ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يُحذَر كلامه ، ولايُجالس ، وقال عنه : قاتله الله! أيُّ شيءٍ أبقى إذا زعم أنَّ رسول الله ﷺ كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام . اهـ . انظر : أبي بكر الخلال (ت:٣١١هـ) : السُّنَّة ، ت : د. عطية الزهراني ، دار الراية - الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، ١/ ١٩٥ . فالحاصل أنَّه يكفي في بطلان تلك اللَّفظة مِنْ تلك الرِّواية -رواية الحاكم في مستدركه- والدَّلالة على نكارتها أنَّ آخرها يُناقض أوَّلها ، وذلك بأنَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه ذكر في آخرها أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينهاه عن التَّمسُّح بالأصنام ويؤكِّد عليه ذلك ، بينما جاء في أوَّلها أنَّهم ذبحوا للنُّصب ؛ وأيضا حين قال خرج رسول الله وهو مردفي إلى نصب من الأنصاب ثُمَّ جاء في آخر القصة أنَّهُ إساف أو نائلة وهذين الصنمين كانت عند الكعبة لا يُحتاج أن يخرج إليهما راكباً وهي الأصنام التي أمر رسول الله ﷺ زيد أن لا يمسها أثناء الطواف ، وأيضًا في رواية صحيح البخاريِّ جاءت مُصرِّحةً بتقريبهم تلك الشَّاة إلى النَّبيِّ ﷺ ليأكل منها فامتنع

=

يُحدِّث عن النبيِّ ﷺ بأنَّه التقى بزيد بن عمرِو بنِ نُفَيْل[١] بأسفل بَلْدَح[٢] ، قبل أنْ ينزِل عليه الوَحيُ ، فَقُدِّمَت إلى النبيِّ ﷺ سُفْرَةٌ ، فَأَبَى أَنْ يأكلَ منها ، وأيضًا امتنع من أكلها زيد بن عمرو بن نُفَيل في حضرة النبيِّ ﷺ قائلًا : إِنِّي لستُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ على أنصابِكُم ، ولا آكلُ إِلَّا ما ذُكر

=

عن الأكل منها ، قال ابن بطال : فالسُّفرة إنَّما قُدمت للنَّبيِّ ﷺ فأبى أن يأكل منها ، وكأن النَّبيَّ ﷺ أراد زيد أن ينكرها ، فأبى أن يأكل منها زيد وكان أسن من النبيِّ ﷺ ، ثمَّ قال زيد : (أنا لا آكل ممَّا تذبحون على أنصابكم) . ولم يكن زيد في الجاهلية بأفضل مِنَ النبيِّ ﷺ ، فحين امتنع زيد ، فالنَّبيُّ ﷺ الَّذي كان حباه الله لوَحيِه واختاره لحمل رسالته وأن يكون خاتم النَّبيِّين وسيِّد المرسلِين أولى بالامتناع منها . انظر : ابن بطال أبوالحسن علي بن خلف(ت: ٤٤٩هـ) : شرح صحيح البخاري بتصرف ، ت : أبوتميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرُّشد ، الرِّياض ، ط : ٢ ، ١٤٢٣هـ ، ٥/٤٠٨ . والله أعلم .

(١) زيد بن عمرو بنِ نُفَيْل العدويّ ، والد سعيد بن زيد ، وابن عم عمر بن الخطاب ، كان يتعبَّد في الجاهليةً ، ويطلب دين إبراهيم الخليل ﷺ ويُوَحِّد الله تعالى ، وكان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وأنبت لها من الأرض ، ثمَّ تذبحونها على غير اسم الله تعالى ، إنكارًا وإعظامًا له ، وكان ينقذ الموءودة ، قال عنه النَّبيُّ ﷺ «قد رأيته في الجنّة يسحب ذيولًا» . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ٣٦٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٥٠٧ .

(٢) بَلْدَح ، وبلادح : واد في مكة المكرمة ، يسمى أعلاه عند حراء وادي العشر ، وكان على عهد الأزرقي يسمى « مَكَّةَ السِّدْر » فإذا توسط بين مكة وعمرة التنعيم سمي فَخًّا ويسمى اليوم الزاهر ، ومنه الشهداء ، فإذا تجاوز جبل ملحات سمي «بلدح» ويسمى اليوم وادي أُمِّ الدُّود ، وغير اسم أم الدود إلى أم الجود ، وإذا تجاوز أم الدود وأقبل على الحديبية ، سمي وادي المقتلة ، ثم يصب في مر الظهران على مرأى من الحديبية شمالا. انظر :عاتق البلادي: معجم المعالم الجغرافية ، ص:٤٩ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٥٣ .

اسم الله عليه ، فتلك هي العناية الإلهية لمن اصطفاه الله ليكون مؤديًا عنه رسالته حتى إنَّهُ كان ﷺ أيضًا قبل البعثة ينهى غيره ممَّن كان تحته عن مشاركة المشركين في شركيَّاتهم فضلًا عن أن يتقرَّب هو إلى أصنامهم ، قال زيد بن حارثة[1] رضي الله عنه : كان صنمٌ من نحاسٍ يُقال له : إساف ، أو نائلة ، يتمسَّح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسولُ الله ﷺ فطفتُ معه ، فلمَّا مررتُ مَسَحت به ، فقال رسولُ الله ﷺ : «لَا تَمَسَّهُ» ، فقال زيد : فطفنا ، فقلت في نفسي : لأَمَسَّنَّهُ حتَّى أنظر ما يكون ، فمَسَحتُه ، فقال رسول الله ﷺ : «أَلَمْ تُنْهَ؟» قال زيد : فوالَّذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا حتَّى أكرمه الله بالَّذي أكرمه وأنزل عليه[2] .

ثُمَّ إنَّ حَجَّه عليه الصَّلاة والسلام وطوافه بالكعبة لم يكن يتَّبع فيهما مُشركي قريش ، بل كان يأتي بالمناسك على وفق ما شرعها الله لسيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام ، قال جُبَيْرُ بن مُطْعِم[3] رضي الله عنه : لقد

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى ، أبوأسامة الكلبي ، سيد الموالي ، وأسبقهم إلى الإسلام ، وحب رسول الله ﷺ ، المسمى في سورة الأحزاب ، توفي في غزوة مؤتة سنة (٨) للهجرة ، دعا له الرسولﷺ . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢٧٩-٢٨٢ ، يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) : تهذيب الأسماء واللغات ، عني به : شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١/ ٢٠٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٤٩٤ .

(٢) أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ ، ٢/ ٣٤ .

(٣) جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي ، يُكَنَّى أبا مُحَمَّد ، كان من أكابر قريش وحلمائهم وساداتهم ، ومن علماء النسب فيهم . قدم على النبيّ =

رأيتُ رسولَ الله ﷺ قبل أن يَنْزِلَ عليه الوَحي ، وإنَّه لَوَاقفٌ على بعير له بعرفات مع النَّاس من بين قَومه حتَّى يدفع معهم منها تَوفيقًا مِن الله له[١] ، فقلت : هذا من الحُمس ما شأنه ها هنا ، والْأَحْمَسُ الشَّديد على دينه ، وكانت قريش تسمَّى الحُمْسَ وكان الشيطان قد استهواهم ، فقال لهم : إنَّكم إن عظَّمتم غير حَرَمِكُم استخفَّ النَّاس بحَرَمِكُم ، فكانوا لا يخرجون من الحرم[٢] ، إلى غير ذلك مِن مُفارقاته ﷺ لعقائدهم الشركيَّة ، وعاداتهم الجاهليَّة ، ومن ذلك أيضًا ما قاله ﷺ : «ما هَمَمْتُ بِشَيءٍ ممَّا كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يعملون به إلَّا مرَّتين كُلُّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أُرِيْد من ذلك ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِسُوْءٍ حتَّى أكرمني الله عزَّ وجلَّ برسالته ، فإنِّي قد قلتُ ليلةً لغُلامٍ من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخلَ مكة فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ الشَّباب ، فقال : أَفْعَل ، فخرجت أريد ذلك ، حتَّى إذا جئت أوَّل دارٍ من دور مكة سمعتُ عزفًا بالدُّفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا؟ قالوا : فلان بن فلان يُزَوَّج بفلانة بنت فلان ، فجلستُ أنظر إليهم ، فضرب الله على أذنيَّ فنمت ، فما أيقظني إلَّا مسُّ الشَّمس ، قال : فجئت صاحبي فقال :

=

ﷺ في فداء أسارى بدر ، فسمعه يقرأ «الطّور» ، قال : فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي ، وقال البغويّ : أسلم قبل فتح مكة ، ومات في خلافة معاوية سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢٣٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٥٧٠ .

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٠٤ .

(٢) أبوبكر عبدالله بن الزبير الحميدي (ت: ٢١٩هـ) : مسند الحميدي ، ت : حسن الدَّارَانيّ ، دار السقا ، دمشق – سوريا ، ط : ١ ، ١٩٩٦م ، ١/ ٤٧٨ .

ما فعلت؟ قلت : ما صنعت شيئًا ، ثُمَّ أخبرته الخبر ، قال : ثُمَّ قلتُ له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أَفْعَل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت له تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنيَّ فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس ، فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، ثُمَّ ما هممتُ بعدها بسوءٍ حتَّى أكرمني الله عزَّ وجلَّ برسالته»[١] .

ومع نُفرته ﷺ من كلِّ تلك المنكرات فإنَّه كان أيضًا يختلي في غار حراء[٢] من كُلِّ سنة شهراً[٣] ، وكان يوافق ذلك الشَّهر رمضان ، والَّذي كان يخلو فيه بربِّه ليتحنَّثَ ويتعبَّد الله بالذِّكر والتفكُّر والتدبُّر والتأمُّل معتكفًا على ما بقي من الحنيفيَّة السَّمحة القائمة على توحيد الله[٤] قال

(١) الفاكهي : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ٢/ ٣٨٤ ، برقم (١٦٨٧) ، وانظر : جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : جامع الأحاديث ، ضبطه : فريق من الباحثين بإشراف د. على جمعة ، طبع على نفقة : د. حسن عباس زكى ، ٣٠/ ٤٤٣ ، انظر : محمد بن يوسف الصالحي (ت: ٩٤٢هـ) : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ت : عادل أحمد عبدالموجود ، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، ٢/ ١٤٨ .

(٢) حراء : جبل بمكة ، ويسمى جبل النور به غار حراء ، ويقع في الشمال الشرقي من مكة المكرمة ، وهو الغار الذي كان يتعبَّد فيه رسول الله ﷺ قبل البعثة ، نزلت فيه أول سورة من القرآن عليه ﷺ ، وقد وصل إليه اليوم بنيان مكة ، انظر : عاتق البلادي : معجم الْمَعَالِم الْجُغْرَافية ، ص٩٥ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٩٧ .

(٣) صحيح البخاري ، بدء الوحي ، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، برقم (٣) ، ١/ ٤ .

(٤) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٣/ ٤ ، أكرم ضياء العمري : =

تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] ، فتلك إذًا هي الحنيفية التي فُطر عليها النبيُّ ﷺ فنشأ عليها ، وبُعث بها ، ومات عليها ، فكانت عِصمةً من الله عَصمه بها من كُلِّ أدران الشرك وأقذار الجاهليَّة تهيئةً له لحمل رسالته الَّتي بَعثَه بها ليُنقذ الإنس والجن من الضَّلالات والأوهام ، ومن عبادة الأصنام والأوثان ، ويهديهم الطريق السَّوي الذي تسعد به في الحياة وتستحق به البشرية خلافة الله في الأرض ، وهكذا بعد بِعثته ﷺ مكث رسول الله ﷺ يدعو إلى التَّوحيد وتخليص العباد من عبادة الأصنام ، ويأمر بإخلاص العبادة للملك الديَّان وحده دون غيره من الأحبار والرهبان والكُهَّان ، والتحرُّر من كُلِّ ما يُعبد من دون الله ، نهجه : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[٢] . ثُمَّ أمرهم بترك ما هم غارقين فيه من الضَّلالات والخرافات ، مِنْ وأدٍ للبنات ، واستقسامٍ بالأزلام[٣] ، وتطيُّر[٤] ،

=

السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ٢/ ٥٩٦ .

(١) سورة الروم ، الآية : (٣٠) .

(٢) سورة الإخلاص ، الآيات :(١-٤) .

(٣) الأزلام : وهي القداح التي كانت في الجاهلية عليها مكتوب الأمر والنهى ، افعل ولا تفعل ، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له ، فإذا أراد سفراً أو زواجاً أو أمراً مهما أدخل يده فأخرج منها زلما ، فإن خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كف عنه ولم يفعله . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٣١١ .

(٤) التطيُّر : التشاؤم ، وسمّى التشاؤم تطيّراً لما جاء : أنَّ العرب كانت إذا أرادت المُضِيَّ لمهمٍّ مرَّت بمجاثم الطير ، وإثارتها لتستفيد هل تمضى أو ترجع ، فجاء

=

وعِـيـافـةٍ[١] ، وسِحرٍ وكهانةٍ وكل مظاهر الشرك .

ولم يكتفِ ﷺ بنهيهم عن الشرك الظاهر ، بل تعدَّى إلى نهيهم عن كُلِّ ما يوصل إليه من الوسائل ، وذلك حمايةً لحمى التوحيد وسداً للذَّرائع الموصلة إلى الشرك .

ومن المعلوم أنَّ مكة كانت هي المركز الدِّيني للعرب ، وأهلها أهل الحرم وسدنة الكعبة[٢] والقُوَّام على الأوثان والأصنام المقدَّسة عند سائر العرب ، والمرجع الديني لهم ، فسيكون أمر الدَّعوة الجديدة بالنسبة لقريش أمرٌ مصيري ؛ لأنَّ ذلك يتصادم مع زعامتها ومكانتها الدينية ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح من أصعب الأمور وأعسرها ، لذلك فالأمر يحتاج إلى عزيمة قويَّة ، كما يحتاج إلى حكمة ودراية

=

الشرع بالنهي عن ذلك ، وسيأتي مزيد تفصيل في تعريفها هي والعيافة والاستقسام بالأزلام والسِّحر والكهانة في الفصل الرَّابع من هذه الرسالة إن شاء الله . انظر : الفيومي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير(طير) ، ٢/ ٣٨٢ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، (طير) ، ٢/ ٥٧٤ ، د. محمود عبدالرحمن عبدالمنعم : معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، ١/ ٤٦٤ .

(١) العِيَافَة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومَمَرِّها . وهو من عادة العرب كثيراً ، وكذلك كانوا يتطيَّرون بنياحها ، ونعيق غربانها ، وأخذها ذات اليسار إذا أَثَارُوهَا ، فَأَبْطَل رَسُول الله ﷺ ذلك . انظر : عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) : غريب الحديث ، ت : د.عبدالمعطي أمين القلعجي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ ، ٢/ ١٧٣ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣٣٠ .

(٢) انظر : سعيد بن علي بن وهف القحطاني : مواقف النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى ، مطبعة سفير ، الرياض ، ص : ٥ .

ورويَّة .

بدأ رسول الله ﷺ بالدَّعوة السريَّة ، فبدأ يعرض دعوته على أقرب النَّاس إليه وهم أهل بيته وخاصَّته وأقاربه وأصدقائه ومن توسَّم فيهم خيراً ممن يعرفهم بحُبِّ الخير والحق ، ويعرفونه بتحرِّي الصِّدق والصَّلاح ، فأجابه من هؤلاء جمعٌ عُرفوا في كتاب الله عز وجل بالسَّابقين الأوَّلين ، فكان أوَّل من أسلم وآمن بالله وحده وتبرَّأ من الشرك وأهله بعد النبيِّ ﷺ زوجُهُ خديجة بنت خويلد(١) ، ثُمَّ علي بن أبي طالب ، ثُمَّ مولاه زيد بن حارثة الكلبي ، ثُمَّ أبوبكر ، وبلال رضي الله عنهم أجمعين(٢) .

وجاء في قصة إسلام أبي بكر رضي الله عنه أنَّه لقِيَ رسولَ الله ﷺ

---

(١) خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصيّ القرشية الأسدية ، كانت تُكنَّى أم هند . زوج النبي ﷺ وأوَّل من صدَّقت ببعثته مطلقاً ، كانت تُدعى قبل البعثة الطَّاهرة ، تزوجها النبي ﷺ قبل البعثة بخمس عشرة سنة ، وكانت أسنَّ منه ﷺ بخمس عشرة سنة ، وكانت مُوسِرةً ، وكان سبب رغبتها فيه ما حكاه لها غلامها ميسرة مما شاهده من علامات النبوة قبل البعثة ، ومما سمعته من بحيرى الراهب في حقه لما سافر معه ميسرة في تجارة خديجة ، وولدت من رسول الله ﷺ أولاده كلهم إلَّا إبراهيم ، القاسم ، وعبدالله ، وهو الطيب ، وهو الطاهر ، وبناته الأربع ، ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح ، وقيل بأربع ، وكان موتها في رمضان . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٨١٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٩٩ .

(٢) انظر : محمد بن حبان التميمي أبوحاتم البستي الدارمي (ت: ٣٥٤هـ) : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ، تعليق : عزيز بك وجماعة من العلماء ، الكتب الثقافية – بيروت ، ط : ٣ ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٦٧–٦٨ ، الماوردي : أعلام النبوة ، ص : ٢٣٨–٢٤٠ ، أحمد بن محمد القتيبي المصري(ت: ٩٢٣هـ) : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة– مصر ، ١/ ١٣٢ .

فقال : أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آبائنا؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى إنِّي رسول الله ونبيُّه ، بعثني لأُبَلِّغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنَّهُ لحق ، فأدعوك يا أبابكر إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره ، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن فلم يُنكر ، بل أسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقرَّ بحقِّ الإسلام ، ثُمَّ رجع إلى أهله وقد آمن وصدَّق[١] . وقام الصِّديق بدعوة رجال كان لهم أثر عظيم في الإسلام وهم : عثمان بن عفان[٢] ، والزبير بن العوام[٣] ،

---

(١) البيهقي : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، ٢/ ١٦٤ .

(٢) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي القرشي الأموي ، يكنى أبا عبدالله ، وأبا عمرو ، زوَّجه رسول الله ﷺ ابنتيه : رقية ثم أم كلثوم ، وقال : إن كان عندي غيرهما لزوجتكها ، وثبت عنه ﷺ أنَّهُ قال : سألت ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يُدخل النَّار أحداً صاهر إليَّ أو صاهرت إليه . وقال سهل بن سعد : ارتج أحد ، وكان عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، فقال له رسول الله ﷺ : اثبت ، فإنَّما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى ، وأخبر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض ، قتل رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٠٣٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٤٩ .

(٣) الزّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب القرشي الأسدي ، حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمته ، أمه صفية بنت عبدالمطّلب ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستّة أصحاب الشّورى ، أسلم وله اثنتا عشرة سنة وقيل ثمان سنين ، لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالله بن مسعود حين آخى بين المهاجرين بمكة ، قال اللّيث : حدثني أبوالأسود ، قال : كان عمّ الزّبير يعلِّقه في حصير ويدخِّن عليه ليرجع إلى الكفر ، فيقول : لا أكفر أبداً ، هاجر الزبير الهجرتين ، وقال عروة : كان الزبير =

وعبـدالرحمن بـن عــوف[1] ، وسعــد بـن أبـي وقـاص[2] ، وطلحـة بـن عبيدالله[3] ، فهؤلاء النَّفر الـذين أسـلموا على يـد أبـي بكـر هـم مـن الـذين

=

طويلًا تخطُّ رجلاه الأرض إذا ركب ، قتل سنة ست وثلاثين وله ست وسبعون سنة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٥١٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٤٦٠ .

(١) عبدالرحمن بن عوف بن عبدعوف بن عبدالحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشّورى الذين أخبر عمر عن رسول الله ﷺ أنه توفي وهو عنهم راض ، اسم أمّه صفية ، ولد بعد الفيل بعشر سنين ، وأسلم قديما قبل دخول دار الأرقم ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً وسائر المشاهد ، مات سنة إحدى وثلاثين ، وعاش اثنتين وسبعين سنة ، ودفن بالبقيع . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٨٤٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٢٩٣ .

(٢) سعد بن أبي وقاص ، واسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبدمناف ابن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، يكنى أبا إسحاق ، كان سابع سبعة في الإسلام ، قال الواقدي : شهد بدراً ، والحديبية ، وسائر المشاهد ، وهو أحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى ، وأخبر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وكان مجاب الدعوة مشهوراً بذلك ، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ قال فيه : اللهم سدِّد سهمه ، وأجب دعوته ، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، توفي رضي الله عنه سنة خمسٍ وخمسين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٦١٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٦١ .

(٣) طلحة بن عُبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤيّ بن غالب القرشيّ التيميّ ، أحد العشرة ، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، قال ابن السّكن : يقال : إن طلحة تزوّج أربع نسوة عند النبيّ ﷺ أخت كل منهن : أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة ، وحمنة بنت جحش أخت زينب ، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة ، ورقيّة بنت أبي أمية أخت أم سلمة ، ولما كان يوم الجمل نظر مروان ابن الحكم إلى طلحة فقال : لا أطلب ثأري بعد اليوم ، =

سبقوا النَّاس إلى الإسلام ، وهم من الرَّعيل الأوَّل ، وطليعة المسلمين[١] ، وهذا واجب المسلم أن يدعو إلى الإسلام وأن ينشر محاسنَه حالُه حالُ الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه .

ثُمَّ دخل النَّاس في دين الله واحداً بعد واحدٍ حتى فشا الإسلام في مكة ، وتُحُدِّث به ، وقد كان النبيُّ ﷺ يجتمع بهم ويعلِّمهم التَّوحيد وينهاهم عن الشرك ، ويرشدهم متخفِّيَا ؛ لأنَّ الدعوة لا تزال فرديَّة وسريَّة ، وكان الوحي قد تتابع بعد نزول أوائل المدثر ، ثُمَّ حَمِيَ بعد ذلك ، إلَّا أنَّهُ لم يكن يُظهر الدَّعوة في مجامع قريش العامَّة ، ولم يكن المسلمون الأوائل يستطيعون إظهار دينهم وعبادتهم حذراً من سطوة قريش وتعصُّبها لجاهليتها وأوثانها[٢] .

وعن أبي أمامة الباهلي[٣] قال : «قال عمرو بن عبسة السُّلمي[٤] :

=

فنزع له بسهم فقتله ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وله أربع وستون سنة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٧٦٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٤٣٠ .

(١) انظر : الماوردي : أعلام النبوة ، ص : ١٦٩ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٢/ ١٦٥ ، رفاعة رافع الطهطاوي (ت : ١٢٩٠هـ) : نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز ، دار الذخائر – القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ ، ١/ ١٠٤ .

(٢) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٣٢٠.

(٣) صدي بن عجلان بن وهب ، سكن حمص ، وكان آخر من بقي بالشام من أصحاب رسول الله ﷺ ، توفي سنة (٨١هـ) عن (٩١) سنة . انظر : الدولابي : الكنى والأسماء ، ١/ ٣٤ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٧٣٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٣٣٩ .

(٤) عمرو بن عبسة بن خالد السلمي ، أبونجيح ، أسلم قديمًا بمكة ، وكان أخا أبي ذر =

كنتُ وأنا في الجاهليَّة أظنُّ أنَّ النَّاس على ضلالة ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً ، فقعدتُ على راحلتي فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرَءَاءُ[1] عليه قومه ، فتلطَّفْتُ حتى دخلت عليه بمكة ، فقلتُ له : ما أنتَ؟ قال : «أنا نبي» ، فقلت : وما نبي؟ قال : أرسلني الله ، فقلت : وبأيِّ شيءٍ أرسلك؟ قال : «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وأَنْ يُوَحَّد الله لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ..» الحديث[2] .

وهكذا مَرَّتْ ثلاث سنين والدَّعوة لم تزل سريَّة وفرديَّة ، وخلال هذه الفترة تكوَّنت جماعة من المؤمنين تربطهم رابطة الأخوَّة والمحبَّة في الله ، والتعاون على تبليغ الرِّسالة وإفراد الله تعالى بالعبادة ونبذ الشرك وأهله والتَّحذير من الأصنام والأوثان .

وقد كان رسول الله ﷺ شخصيَّة كاملةً ذا خلق عظيم ، شهماً وقوراً

=

لأمه ، كان قبل أن يسلم يعتزل عبادة الأصنام ، يعدُّ في الشاميين ، روى عنه أبوأمامة الباهلي ، وروى عنه كبار التابعين بالشام . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٤/ ١٦٢ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١١٩٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥٤٥ .

(١) جُرَءَاءُ : من الجرأة ، أي : لا يتورعون عن إيذائه والتسلط عليه . انظر : عبدالرحمن بن الجوزي : غريب الحديث ، ١/ ١٩٩ ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ، ت : أبوإسحاق الحويني ، دار ابن عفان للنشر والتوزيع – السعودية ، الخبر ، ط : ١ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م ، ٢/ ٤٢٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، برقم (٨٣٢) ، ١/ ٥٦٩ .وانظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٣١٣ .

مهاباً ، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يُقَابَلُ إلَّا بالإجلال والتَّشريف ، ولا يجترئ على اقتراف الدَّنايا ضِدَّه إلَّا الأراذل والسُّفهاء ، ومع ذلك كان أيضاً في مَنَعَةِ أبي طالب سيِّد مكة وعظيمها ، فكان من الصَّعب أن يجسر أحدٌ على إخفار ذمَّته واستباحة جواره ، وقد حَدِبَ[١] أبو طالب على رسول الله ﷺ وقام دونه ومَنَعَه ، الأمر الذي أقلق قريشاً وأقامها وأقعدها[٢] .

ثُمَّ بعد ذلك أمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين ، ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣] . فحينئذٍ بعث رسول الله ﷺ إلى بني عبدالمطلب ، وهم يومئذ قرابةُ الأربعين ، فحضروا ومعهم عِدَّةٌ من بني عبدمناف ، وجميعهم خمسة وأربعون رجلًا ، فسارع إليه أبولهب عدو الله ، وظنَّ أنَّهُ يريد أن ينزع عما يكرهون ، فلمَّا اجتمعوا قال أبولهب : هؤلاء عمومتك بنو عمك ، فتكلَّم بما تريد ودع الصُّبَاةَ[٤] ، واعلم أنَّهُ ليس لقومك

---

(١) الحدب : العطف ، يقال : حَدِبَ فُلانٌ على فُلان حَدَباً ، أي : عَطَفَ عليه وحَنا ، ويقال : هو له كالوالد الحَدِب . انظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ١٨٦ ، الأزهري : تهذيب اللغة ، ٤/ ٢٤٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٦٤ ، محمد إلياس عبدالرحمن الفالوذة : الموسوعة في صحيح السيرة النبوية ، دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النبي ﷺ (العهد المكي) ، مطابع الصفا - مكة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ ، ص : ٢٧٦ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : (٢١٤-٢١٦) .

(٤) يقال : صَبَأَ فُلانٌ ، إذا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إلى دِينٍ غيره ، وكانت العرب تُسَمِّي النبي ﷺ الصَّابِئَ ؛ لأنَّهُ خرجَ مِنْ دِين قُرَيش إلى دينِ الإسلام . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣ .

بالعرب قاطبة طاقة ، وإنَّا أحقُّ من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم في أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت يا ابن أخي أحد قط جاء بني أبيه وقومه بشرٍّ مما جئتهم به ، فكان عدو الله لما سمع برسالة رسول الله ﷺ من أشدِّ النَّاس عداوة له فسكت رسول الله ﷺ ، ثُمَّ قال بعدها : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثُمَّ قال : إنَّ الرَّائد لا يكذب أهلَه ، والله لو كذبت النَّاس جميعـًا ما كذبتكم ، ولو غررت النَّاس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إنِّي لرسول الله إليكم خاصَّة ، وإلى النَّاس كافَّة ، والله لتموتنَّ كما تنامون ، ولتبعثنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنَّ بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانـًا وبالسُّوء سوءًا ، وإنَّها الجنَّة أبداً ، أو النَّار أبداً ، وإنَّكم أوَّل من أُنذر ومثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يَرْبَأ[1] أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف : ياصَبَاحَاه[2]! فقال أبوطالب : ما أحبَّ إلينا مُعاونتك ومُرافدتك وأقبلَنا لنُصحك ، وأشدَّ تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنَّما أنا أحدهم غير أنِّي والله أسرعهم إلى ما تحب ،

---

(١) يربأ : على وزن يقرأ ، أي : يحفظهم ويتطلع لهم ، ويقال للفاعل : ربيئة : وهو الشخص يوضع بمكان يرصد منه العدو فيحذر منه قومه إذا داهمهم . انظر : الفراهيدي : العين ، ٨/ ٢٨٨ .

(٢) ياصَبَاحَاه! : كلمةٌ يقولها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، فكأن القائل يا صباحاه يقول قد غشينا العدو . وقيل : إن المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال ، فإذا عاد النهار عاودوه ، فكأنه يريد بقوله يا صباحاه : قد جاء وقت الصباح فتأهبوا للقتال . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٦-٧ .

فأرضى لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أنّي لا أجد نفسي تطوع إلى فراق دين عبدالمطلب حتى أموت على ما مات عليه .

وتكلَّم القوم كلاماً ليِّنًا غير أبي لهب ، فإنَّه قال : يابني عبدالمطلب ، هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم ، فقال أبوطالب : والله لنَمْنَعَنَّهُ ما بقينا[١] .

وجاء في روايةٍ أُخرى أنَّه لـمَّا أُنزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢] قام رسول الله ﷺ بالدَّعوة فصعد على الصَّفا[٣] ، ثُمَّ نادى (ياصَبَاحَاه) ، فاجتمع النَّاس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يَبْعَثُ رسولَه فقال ﷺ : يا بني عبدالمطلب ، يابني فهر ، يابني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا : نعم ، قال : (فَإِنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يدي عَذَابٍ شَدِيْد) ، فوعظهم رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وعمَّ وخصَّ حتى قال : «يافاطمة بنت

---

(١) أورد القصة بتمامها : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ١/ ٦٥٩-٦٦٠ . وبعض ألفاظها في صحيح مسلم ، برقم (٢٠٧) ، ١/ ١٩٣ ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ . وانظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٣٢٢-٣٢٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : (٢١٤) .

(٣) الصَّفَا : بالفتح والقصر ، أصله العريض من الحجارة الملس ، والصفا هنا : أخت المروة ، وهي أكمة صخرية ، واقعةٌ في بداية المسعى من الجنوب ومنها يُبدأ السعي ، كانت مُتصلةً بجبل أبي قبيس ، فشق بينهما مجرى للسيل في عهد الدولة السعودية عند توسعة الحرم الجديدة ، فنجر الجبل حتى صار الماء يجري بين المسجد والجبل . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٥٩ .

محمد ، أنقذي نفسك من النَّار ، فإنِّي والله لا أملك لكم من الله شيئًا إلَّا أن لكم رحمًا سأبُلُّها بِبِلَالِهَا»[1] ، فقال أبولهب : تبًا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلَّا لهذا؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2][3] .

ومن هذه الحادثة نستظهر الموقف الدَّعوي للنبيِّ ﷺ بتصريحه لقومه بكلمة التوحيد وإعلانه لها ، مع ما تضمَّنَتْه مِنْ تبرُّؤ من الشرك وأهله ، وتحذير المدعوِّين من مغبَّة مخالفة الحق .

وكان رسول الله ﷺ أحبَّ خلق الله إلى أبي طالب يحنو عليه ويحسن إليه ويدافع عنه ويحامي ويخالف قومه في ذلك مع أنَّهُ على دينهم وعلى خلتهم ، إلَّا أنَّ الله تعالى قد امتحن قلبه بحبِّه حبًا طَبَعيًا ، فكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله ﷺ من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبوطالب ما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولا اجترؤوا عليه ومدَّوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ، إلَّا أنَّ بقاءه على دينهم أبقى له السِّيادة عليهم والمهابة له منهم[4] . فلمَّا دعاهم رسول الله ﷺ لم يستجب له منهم أحد ، بل بدءوا بالإنكار والجحود ، حتى وصل بهم الحال إلى الاستهزاء

---

(١) «إلا أنَّ لكم رحمًا سأبُلُّها بِبِلَالِهَا» أي : أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئًا ، والبِلَال جمع بَلَل ، وقيل : هو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ١٥٣ .

(٢) سورة المسد ، الآية : (١) .

(٣) رواه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْن وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ ، ألن جانبك ، بألفاظ متقاربة ، ٤/ ١٧٨٧ ، برقم (٤٤٩٢) .

(٤) انظر: ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/ ١٦٦ .

بالنبيِّ ﷺ ورسالته ، وعند ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[1] ، فقام رسول الله ﷺ يدعوا إلى الله تعالى ليلًا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يردُّه عنه رادٌّ ، ولا يصده عنه صاد ، يَتْبَعُ النَّاس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم ، يدعو من لقيه من حرٍّ وعبدٍ وضعيف وقوي وغني وفقير ، جميع الخلق عنده في ذلك سواء .

فلمَّا بادى رسولُ الله ﷺ قومَه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ، وقام يضرب بها الأمثال في الكشف عن حقيقتها وحالها وسفاهة من يعبدها ، فلما فعل ذلك أظهروا له الخصومة وأجمعوا على خلافه وعداوته .

وما إن ظهرت الدَّعوة حتى اشتدَّ عليه وعلى من اتَّبعه من ضعفاء النَّاس وآحادهم رؤوس المشركين من قريش بالأذى القوليِّ والفعليّ ، وكان من أشدِّ النَّاس عليه عمُّه أبولهب[2]. وكذلك كان الوليد بن المغيرة المخزومي يفعل ، أي : حين يحضر الموسم يقول : يا معشر قريش! إنَّ محمدًا قد علا أمره في البلاد وما أرى النَّاس براجعين حتَّى يلقَونه وهو رجل حلوُ الكلام ، إذا كلَّم الرجلَ ذهب بعقله ، وإنِّي لا آمن أنْ يصدِّقه بعضهم ، فابعثوا رهطًا من ذوي الحِجَى[3] والرَّأي فليجلسُوا على طريق مكّة مسيرة ليلةٍ أو ليلتَين ، فمن سأل عن محمدٍ فليقل بعضهم : إنَّه ساحرٌ

(١) سورة الحجر ، الآية : (٩٤) .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٤/ ١٠٤ .

(٣) ذَوِي الحِجَى : أي : من ذَوِي الْعَقْلِ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٤/ ١٦٦ .

يفرِّق بين الاثنَين ، يقول بعضهم : إنَّه كاهنٌ يُخبر بما يكون في غدٍ لئلَّا ترَوه خيرٌ مِن أن ترَوه ، فبعثُوا في كلِّ طريقٍ بأربعة من قريش ، وأقام الوليد بن المغيرة بمكَّة ، فمن دخل مكَّة في غير طريق سالك يريد النبيَّ ﷺ تلقَّاهم الوليد ، فيقول هو ساحرٌ كذاب ، ومن دخل من طريق لقيه السِّتَّة عشر فقالوا : هو شاعر ، وكذاب ، ومجنون ، ففعلوا ذلك وانصدع النَّاس عن قولهم ، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وكان يرجو أن يلقاه النَّاس فيعرِضَ عليهم أمره فمنعه هؤلاء المستهزءون من قريش[١] .

فكان رسول الله ﷺ يعمد إلى دعوة الوافدين على مكة في الأسواق والمواسم ، فعن ربيعة بن عِبَاد الدِّيْلي[٢] ، قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهليَّة في سوق ذي المجاز[٣] وهو يقول : «يا أيُّها النَّاس ، قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا» ، والنَّاس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنَّه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه

---

(١) مقاتل بن سليمان : تفسيره ، ٢/ ٤٣٧-٤٣٨ .

(٢) ربيعة بن عِبَاد -بكسر المهملة وتخفيف الموحدة- الدِّيْلي ، من بني الدِّيل بن بكر بن كنانة ، مدني ، كان جاهليـاً فأسلم ، قال أبو عمر : عَمَّر ربيعة عمرًا طويلًا ، ولا أدري متى مات ، قال ابن حجر : ذكر خليفة وابن سعد أنه مات في خلافة الوليد . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٤٩٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٩٠ .

(٣) ذو المجاز : من أشهر أسواق العرب في الجاهلية ، ولا زال موضعه معلومـاً بسفح جبل كبكب من الغرب ، يراه من يخرج من مكة على طريق نخلة اليمانية ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام ، وقال الأصمعي ذو المجاز ماء من أصل كبكب وهو لهذيل وهو خلف عرفة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٥٥ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٢٧٩ .

فقالوا : هذا عمه أبولهب[١] .

وهذا حال كُلِّ داعٍ إلى الله إذا أنكر ما ألفه النَّاس من الباطل والمنكر يقابله النَّاس بالعداوة والبغض والعناد . فالواجب على الدَّاعية أن يصبر على الأذى وعلى كُلِّ مَنْ يحاول صدَّ دعوته ، وليجعل قدوته إمام الموحِّدين وسيِّد المرسلين ، فها هي قريش مع كُلِّ ما قامت به من التَّضليل الإعلامي ضدَّ رسول الله ﷺ والدِّعاية الكاذبة التي بَثُّوها بين وفود العرب والزُّوَار القادمين إلى مكة بالتُّهم الباطلة ، حتى رَمَوه بالسِّحر وأنَّه يفرِّق بين النَّاس بسحره وأن لا يسمعوا له ليُعِيْقُوا دعوته ويصدُّوا النَّاس عنه ، وقد تآمروا على ذلك ودبَّروا له وتداعوا على نشره حتى حالوا بين النَّاس وبين رسول الله ﷺ[٢] إلَّا أنَّهُ لم يمنعه ذلك عن تبليغ رسالة ربِّه ، ولا تَقَاعس عنها طرفة عين صلوَات ربِّي وسلامه عليه .

ويجسِّدُ لنا هذا الأمر حادثة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي[٣] رضي الله عنه حيث ذكر أنَّهُ قدم مكة ورسول الله ﷺ فيها ، وكان الطفيل رجلًا شريفًا ، فمشى إليه رجالٌ من قريش فقالوا له : إنَّك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهُرنا قد أعضل بنا ، وقد فرَّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وإنَّما قوله كالسِّحر يُفرِّق بين الرَّجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ،

---

(١) أحمد بن حنبل : مسند أحمد : ٢٥/ ٤٠٤ ، برقم (١٦٠٢٢) ، صحَّحه محقِّقو المسند . وابن كثير : البداية والنهاية ، ٤/ ١٠٥ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٢٥١ .

(٢) انظر : أ. د. سعد المرصفي : الجامع الصحيح للسيرة النبوية ، مكتبة ابن كثير ، الكويت ، ط :١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م ، ١/ ١٠٧٧ .

(٣) وسترد ترجمته عند ذكر السريَّة .

وبين الرجل وبين زوجه ، وإنَّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تُكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئًا ، قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا ، ولا أُكَلِّمه ، حتَّى حشَوْتُ في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا[1] فرقًا[2] من أن يبلغني شيءٌ من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ، قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلي عند الكعبة ، قال : فقمت منه قريبًا فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلامًا حسنًا قال : فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إنِّي لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؛ فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته ، وإن كان قبيحًا تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إنَّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلَّا أسمع قولك ، ثُمَّ أبى الله إلَّا أن يُسمعني قولك ، فسمعت قولًا حسنًا ، فاعرض عليَّ أمرك ، قال : فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليَّ القرآن ، فلا والله ما سمعتُ قولًا قطُّ أحسنَ منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمتُ وشهدتُ شهادةَ الحق . ثُمَّ رجع الطُّفَيل إلى قومه داعيًا إلى الله ، وما زال يدعوهم حتى هدى الله على

---

(١) الكرسف : هو القطن . انظر : الفراهيدي : العين ، ٥/ ٤٢٦ .

(٢) الفَرَق : الخوف . انظر : اليمان بن أبي اليمان البَندنيجي (ت: ٢٨٤ هـ) : التقفية في اللغة ، ت : د. خليل إبراهيم العطية ، العراق ، وزارة الأوقاف ، إحياء التراث الإسلامي(١٤) ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٦م ، ص٦٠٣ .

يديه أعداداً كثيرةً منهم[١] .

فكان هذا الأسلوب الذي اتَّخذته قريش في صَدْر الدَّعوة ضِدَّ رسول الله ﷺ من أخطر الأساليب التي كان لها بالغ الأثر في حجب الدَّعوة عن قبائل العرب التي كانت تسمع لكبرائها وساداتها وتطيع ، ومع ذلك كلِّه فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[٢] .

وقد مضى النبيُّ ﷺ مُظهراً لها ، لا يأبه بهم ، مبيِّنًا للتَّوحيد ومحذِّرًا من الشرك والأصنام ومعيباً لها ، فلمَّا رأوا ذلك منه مشى رجال منهم إلى أبي طالب ، وكان سيِّد قريش وكبيرهم ، فقالوا : يا أباطالب! إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإمَّا أن تَكُفَّهُ وإمَّا أن تخلي بيننا وبينه ، فإنَّك على مثل ما نحن عليه ، فنكفيكه ، فقال لهم أبوطالب قولًا رفيقًا ، وردَّهم رداً جميلًا ، فانصرفوا عنه ، وما زال رسولُ ﷺ مستمراً في دعوته وتبليغ رسالته يُظهر دين الله ويدعو إليه ، ثُمَّ اشتدَّ الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرِّجال ، وتضاغنوا ، وأكثرت قريش من ذكر رسول الله ﷺ بينها ، فتذامروا[٣] فيه وحَضَّ بعضهم بعضاً عليه ، ثُمَّ إنَّهم مشوا إلى أبي طالب ثانية فقالوا له :

---

(١) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية ، ٢/ ٧٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤١٧ .

(٢) سورة الطَّلاق ، الآية : (٣) .

(٣) تذامروا : مشتق من الفعل ذمر ، يقال : ذَمَرْتُ الرجلَ أذمُره ذَمْراً ، إِذا حضضته ، وتَذامر القومُ ، إِذا حضّ بعضُهم بَعْضًا ، وذِمار الْقَوْم : مَا يجب عَلَيْهِم حفظُه ، والذمر يطلق على اللوم والحض معًا . انظر : الفراهيدي : العين ، ٨/ ١٨٥ ، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) : جمهرة اللغة ، ت : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين -بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٧م ، ٢/ ٦٩٤ .

يا أباطالب! إنَّ لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنَّا والله لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفَّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثُمَّ انصرفوا عنه .

عند ذلك عَظُمَ على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم له ، ولم يطب نفسًا بخذلان رسول الله ﷺ ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ، إنَّ قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تحمِّلني من الأمر مالا أُطيق ، فظنَّ رسولُ الله ﷺ أنَّهُ قد بدا لعمِّه خذلانه ، وأنَّهُ قد ضَعُفَ عن نصرته والقيام معه ، فقال رسول الله ﷺ وهو واثقٌ من ربِّهِ متفانٍ في سبيل دعوته وإبلاغ رسالة ربه : يا عم ، والله لو وضعوا الشَّمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثُمَّ استعبر رسول الله ﷺ ، فلمَّا ولَّى ناداه أبوطالب فقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيءٍ أبداً[1] .

ثُمَّ إنَّ قريشًا لما عرفوا أنَّ أبا طالب عزم على مناصرة رسول الله ﷺ وأبى خذلانه ، عرضوا عليه أموراً أباها أبوطالب وتهكَّم بهم ، وأنكر عليهم مقالتهم وهي أن يسلمهم رسول الله ﷺ ، فلمَّا رأوا ذلك من أبي طالب تنابذ القوم وتنافروا ، واشتدَّ الأمر بينهم ، فتنافرت قريش وتذامرت بينها على من في قبائلهم من أصحاب رسول الله ﷺ ممن أسلم معه ، فوثبوا عليهم يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، ومُنع رسول الله ﷺ

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٦٦ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٢/ ١٨٧ .

بعمِّه أبي طالب ، وقد التفَّ بنو هاشم حوله ليمنعوا رسول الله ﷺ[١] .

ومع هذه الشِّدة والعَنَت من قريش إلَّا أنَّ النبيَّ ﷺ سخَّر جهده ووقته في الدَّعوة إلى توحيد الله وتلاوةِ كتابِ اللهِ تعالى عليهم ، فلمَّا رأت قريشاً أنَّ الأمر قد استفحل وانتشر قال لهم عتبة بن ربيعة : دعوني آتي محمداً أعرض عليه وأسمع منه لعلَّه أن يقبل ، فلمَّا أتاه عتبه قال : يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبدالمطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فلم يُجبه ، قال : فَلِمَ تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنَّما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك؟ فكنت رأسنا ما بقيت ، وإن كان بك الباءة[٢] زوَّجناك عشر نسوة تختار من أيِّ أبيات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعد ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا تراه لا تستطيع رَدَّه عن نفسك طلبنا لك الطِّبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، وإنَّهُ رُبَّما غلب التَّابع على الرَّجل حتى يداوى منه ، حتى إذا فرغ من كلامه ورسول الله ﷺ يستمع إليه قال له : «أَقَدْ فَرَغْتَ ياأبا الوليد»؟ قال : نعم! قال : «فاسمع مني» ، قال : أفعل ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ

---

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٩-١٢ .

(٢) أي : النِّكاحَ والتَّزَوّجَ . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ١٦٠ .

لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ..﴾[1]. الآيات

قرأ رسولُ الله ﷺ حتَّى بلغ السَّجدة منها ، فسجد ، ثُمَّ قال : قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم نحلف لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلمَّا جلس إليهم قالوا : ما وراءك ياأبا الوليد؟ قال : ورائي أنِّي سمعتُ قولًا ما سمعتُ قبله قط ، ما هو بسحر ، ولا هو بشعر ، ولا كهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي وخلُّوا بين الرَّجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأٌ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر عليهم فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[2] .

ثُمَّ إنَّ الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرِّجال والنِّساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته ، ولما عجزت قريشٌ أن تُعيق دعوة رسول الله ﷺ ، ورأت انتشار الإسلام ، اجتمعوا بكبرائهم وسادتهم ، وقالوا : ابعثوا إلى محمد وكلِّموه

---

(١) سورة فصلت ، الآيات : (٢ – ٣) .

(٢) عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٦١ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٣٣٨-٣٣٩ .

وخاصموه حتى تعذروا ، فلمَّا أتاهم رسول الله ﷺ وهو يظنُّ أن قد بدا لهم أمر خير ، جاء رسول الله ﷺ مسرعًا ، وكان حريصًا عليهم يحب رشدهم ، فجلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ، إنَّا قد بعثنا إليك لنُكَلِّمك ، وإنَّا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، قد عِبت ديننا ، وشتمت آلهتنا ، وسفَّهت أحلامنا ، وفرَّقت جماعتنا ، فما بقي أمر قبيح إلَّا قد جئته فيما بيننا وبينك ، وإن كنت إنَّما جئت بهذا الأمر تطلب مالًا أو شرفًا أو ملكًا أعطيناك إياه ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا نراه قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطِّبِّ لك ، حتى نُبْرِئَكَ منه أو نعذر فيه ، قال رسول الله ﷺ : «ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم والشَّرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا ، وأنزل عليَّ كتابًا ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغتكم رسالات ربِّي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1] .

فلمَّا سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ جعلوا يتعنَّتُون ويطلبون رسول الله ﷺ أموراً خارقة للعادة ، وقالوا له : سَلْ ربَّك الذي بعثك ، فليُسَيِّر عنَّا هذه الجبال ، ويَبْسُطَ لنا الأرض ، ويُنْبِعَ لنا فيها الأنهار ، ولْيبعث لنا مَنْ مضى من الآباء ، ولْيكن منهم قصي بن كلاب ، فنسألهم عمَّا تقول أحقٌّ هو أم باطل؟ وسَلْ ربَّك أن يبعث معك مَلَكًا يُصَدِّقك بما تقول ، ويُرَاجِعُنا عنك ، وسَلْهُ أن يجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من الذَّهب

(١) عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٦٤ .

والفضة ، ويُغنيك بها عن ما نراك تبتغي ، فإنَّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس من المعاش كما نلتمس ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربِّك إن كنت رسولًا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما أَنَا بِفَاعِل ، ومَا أَنَا بالَّذِي يَسْأَلُ ربَّهُ هذا ، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا ، ولكنَّ الله بَعَثَنِي بَشِيْرًا ونَذِيْرًا ، فإنْ تَقْبَلوا مَا جِئْتُكم به فهو حَظُّكُم في الدُّنيا والآخرة ، وإن تَرُدُّوه عليَّ أَصْبِرُ لأَمْرِ الله حتَّى يَحْكُم الله بيني وبينكُم»[١] .

قالوا : إذاً فأسقط السَّماء علينا كسفًا كما زعمت أنَّ ربك لو شاء فعل ، فإنَّا لا نؤمن لك إلَّا أن تفعل ، فقال رسول الله ﷺ : «ذَلِكَ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلْ»[٢] .

فقالوا : يا محمد ، أما علم ربُّك أنَّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، فيتقدَّم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، وإنَّهُ قد بلغنا أنَّك إنَّما يعلِّمُك هذا رجل باليمامة يقال له : الرَّحمن ، وإنَّا والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا ، أو حتى تتخذ في السَّماء سُلَّمًا ثُمَّ ترقى فيه ونحن ننظر إليك ، ثُمَّ تأتي معك بقرآن تقرأه ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنَّك كما تقول ، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننَّا أنَّنا نُصَدِّقك ، ثُمَّ قام

---

(١) البغوي : تفسير البغوي ، ٥/ ١٢٨ ، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، تفسير روح البيان : دار إحياء التراث العربي ، ٥/ ١٥٧ . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٩٦-٢٩٧ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٦٤ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٩٧ ، البغوي : تفسير البغوي ، ٥/ ١٢٩ ، محمد إلياس الفالوذة : الموسوعة في صحيح السيرة النبوية ، ص : ٤١٣ .

رسول الله ﷺ وانصرف عنهم حزيناً أسفاً لما فاته مما كان يطمع به منهم حين دَعَوه ، لما رأى من مباعدتهم وكفرهم بالله وقد أنزل الله في ذلك آيات من سورة الإسراء ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : (٩٠ – ٩٦) .

انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٠٩ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ١٠٢ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٥/ ١١٩ .

﴿بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[(١)] .

وتتكرَّر المواقف وتتعدَّد المشاهد والجامع بينها حَنَق قريش من دعوة الحقِّ التي تأمرهم بأن يعبدوا إلهًا واحدًا لا شريك له ، وأن ينبذوا تلك الأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع ، بل هي حجارةٌ صمَّاء بكماء لا تقوى على نفع نفسها ، فكيف بغيرها ، وأنَّهُ لا يؤمن بها إلَّا رجلٌ سفيه العقل فاقد الإدراك ، لذا يجد القارئ تكرار قول كفار قريش في كثير من المواقف : يُسَفِّه أحلامنا ، فكان النبيُّ ﷺ يبيِّنُ أنَّ من يعبد تلك الحجارة فهو فاقد للعقل والتَّفكير والرشد .

وبدأت قريش في تغيير طريقتها في عداوة النبيِّ ﷺ ، فلمَّا رأوا صمود النبيِّ ﷺ في وجه كُلِّ التَّحديات ، ورفضه لكلِّ العروض والمغريات ، وصلابته في كُلِّ مرحلة مع ما كان يتمتَّع به من صدقٍ وأمانةٍ وعفاف ومكارم أخلاق ، غلب على ظنِّهم أنَّهُ رسولٌ حقًا ، فقرَّروا أن يتَّصلوا باليهود لكونهم أهل كتاب حتى يتثبَّتوا من أمره ﷺ ، وقد أشار إليهم النَّضر بن الحارث بذلك حيث قال : يا معشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتَّى إذا رأيتم في صُدْغَيْهِ[(٢)] الشَّيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السَّحرة ونَفْثَهم وعَقْدَهم ، وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات : (٦ – ١١) .

(٢) الصُّدْغُ : ما انحدر من الرأس إلى مركب اللَّحيين ، وقيل : هو ما بين العين والأذن ، وقيل : الصُّدْغَانِ ما بين لِحاظَي الْعَيْنَيْنِ إلى أصل الأذن . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٨/ ٤٣٩ .

بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتَخَالُجَهم وسمعنا سَجْعَهُم ، وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشِّعر وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه ورَجَزَه ، وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنَّهُ والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

فتشاوروا واستقرَّ رأيهم على أن يبعثوا النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة ، لعلمهم أنَّ اليهود أهل كتاب ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، وما جاء به عن ربِّه ، فلمَّا نزلوا باليهود واجتمعوا بأحبارهم سألوهم عن رسول الله ﷺ وأخبروهم خبره ، فلمَّا سمع يهود خبر رسول الله ﷺ قال أحبارهم : سلوه عن ثلاث أمور ، إن أخبركم خبرها فهو نبيٌّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، قالوا : ما هي : قالوا : سلوه عن فِتْيَةٍ ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ما كان من خبرهم؟ وسلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبؤُه؟ وسلوه عن الرُّوح ما هو؟[1] ، فلمَّا رجع النضر إلى مكة ، قال : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، فأخبروهم الخبر ، فجاءوا رسول الله ﷺ ، فسألوه عما أمرهم به ، قال لهم رسول الله ﷺ : «أُخْبِرُكُم بِمَا سَأَلْتُم عَنْهُ غَدَاً» ، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولم يأته جبريل حتى أرجف أهل مكة ،

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٦٨-٧١ ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : الخصائص الكبرى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (د.ت) ، ١/ ٢٣٨ ، الفالوذة : الموسوعة في صحيح السيرة النبوية ، ص : ٤١٧ .

وقالوا : وَعَدَنا محمد غدًا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه حتى أحزن رسول الله ﷺ تأُخُّر الوحي عنه ، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكة ، ثُمَّ جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فعاتبه في أولها على حزنه عليهم ، ثُمَّ أخبره بخبر أهل الكهف ، وأخبره عن الرَّجل الطوَّاف ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[١][٢] .

قلت[٣] : يبدو أنَّ سؤالهم كان عن الخضر وليس عن الرُّوح ، وذلك لورود قصة ذي القرنين معطوفة على قصة الخضر ، وما لليهود من علاقة بسيِّدنا موسى عليه السلام وارتباطهم به ، ودوره الرَّئيس في قصَّة الخضر عليه السلام ، أمَّا سؤالهم عن الرُّوح فكأنَّهُ كان في موضع آخر[٤] لعدم ورود ذكرها في سورة الكهف ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٨٥) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٠١ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٢/ ٢٦٩- ٢٧٠ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٦٨ ، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : الخصائص الكبرى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (د.ت) ، ١/ ٢٣٨ ، الفالوذة : الموسوعة في صحيح السيرة النبوية ، ص : ٤١٧ .

(٣) القول هنا للباحث .

(٤) قال ابن حجر عن هذه الحادثة : والحديث الَّذي جاءت فيه : هذا حديث غريب ، لولا هذا المبهم لكان سنده حسنًا ، لكن فيه ما ينكر وهو السؤال عن الروح ونزول الآية فيها ، وأن ذلك وقع بمكة ، والثابت في الصحيحين أن ذلك كان بالمدينة وقع مصرحًا به في رواية ابن مسعود رضي الله عنه . أحمد بن ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) : موافقة الخُبُر الخَبَر في تخريج أحاديث المختصر ، ت : حمدي السلفي وصبحي السامرائي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض - السعودية ، ط : ٢ ، ١٤١٤هـ ، ٢/ ٧٠ .

وأمَّا سورة الكهف فقد افتُتحت بتقرير نبوَّة الرَّسول ﷺ ، وما أنزل فيه من القرآن العظيم ، ثُمَّ بيَّن مآل من آمن بالله وما لَهُ من الأجر والثَّواب ، ثُمَّ حذَّر الله أهل الكتاب في قولهم الكذب على الله عزَّ وجلَّ أنَّهُ اتَّخذ ولداً ، وما لهذا القول من الشَّناعة والافتراء .

قال الله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1] .

ثُمَّ ذكر أصحاب الكهف وكيف آمنوا بالله وتمسَّكوا بالتوحيد وفارقوا قومهم المشركين ، قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[2] . ثُمَّ عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه في عدم الاستثناء ، وقوله : أخبركم غداً .

ثُمَّ قرَّر ربوبيته سبحانه وتعالى على لسان أصحاب الكهف وبراءتهم من الشرك وما في هذه السُّورة من المواعظ ، والدُّروس والقصص المعبِّرة عن قدرة الله وعظمته ورحمته وفضله .

كما في قصَّة صاحب الجنَّتين ، وقصة الخضر مع سيِّدنا موسى عليه السلام ، وقصَّة ذي القرنين إلى أن ختم السُّورة بتقرير نبوَّته ﷺ وتقرير

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : (٤-٥) .

(٢) سورة الكهف ، الآيات : (١٣-١٥) .

وحدانيَّة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١) .

فأنزل الله سورة الكهف على نبيِّه احتجاجًا بها على المشركين ، وتقريعًا لهم بتكذيبهم بما هو أوكد عليهم في الحُجَّة مما سألوا عنه وأرادوا اختباره ﷺ(٢) .

فلما تثبَّتُوا من نبوَّته ﷺ بدأ فيهم الحسد والعناد والتكبُّر عن الحقِّ ، فقالوا : كيف يترك الوليد بن المغيرة وكان من عظماء قريش ومن أكثرهم ولداً ومالًا ، وعروة بن مسعود الثقفي سيِّد ثقيف ، فهم أعظم رجلين في مكة والطائف ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣)(٤) .

وكان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن ودعاهم إلى الله يهزؤون ويقولون : قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه لا نفقه ما تقول وفي آذاننا وقرٌ لا نسمع ما تقول ولا نفهمه فاعمل بما أنت عليه إنَّنا عاملون بما نحن عليه(٥) .

ومع هذا كلِّه فإنَّ النبيَّ ﷺ لا يفتر عن الدعوة فكان إذا جلس مجلسًا دعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن ، وحذَّر المشركين ممَّا أصاب الأمم

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : (١١٠) .
(٢) الطبري : جامع البيان ، ١٧/ ٦٠٢ .
(٣) سورة الزخرف ، الآية : (٣١) .
(٤) انظر : ابن هشام : السير ة النبوية ، ١/ ٣٦١ .
(٥) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣١٦ .

الخالية ، خَلَفَه في مجلسه النضر بن الحارث فجعل يُحدِّثهم عن رستم السنديد وعن اسفنديار وملوك فارس ، ثُمَّ يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مِنِّي ، وما حديثه إلا أساطير الأوَّلين ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] .

ثُمَّ إنَّ النَّضر بن الحارث هذا جلس مع رسول الله ﷺ في مجلس آخر فيه الوليد بن المغيرة وغيره من رجال قريش فتكلَّم رسولُ الله ﷺ ، وكان لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يوحى ، فعرض له النضر فكلَّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثُمَّ تلا عليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[2] .

ثُمَّ قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزِّبعْرَيِّ السَّهمي[3] حتى جلس ، فقال الوليد لعبدالله : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفاً وما قعد وقد زعم محمَّد أنَّا وما نعبد من دون الله من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال ابن الزِّبعْرَيِّ : أما والله لو وجدته

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات : (٥-٦) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيات : (٩٨-١٠٠) .

(٣) عبدالله بن الزِّبعْرَيِّ بكسر الزَّاي والموحدة وسكون المهملة بعدها راء مقصورة ، بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي ، أبوسعد ، شاعر قريش في الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة ، هرب إلى نجران ، فقال فيه حسان أبياتاً ، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة ، قتل يوم اليمامة شهيداً . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب : ٣/ ٩٠١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٧٦ .

لخصمته ، فسلوا محمَّداً ﷺ أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم ، فالنَّصارى يعبدون عيسى ، واليهود يعبدون عزيراً ، فعجب الوليد ومن كان معه من قوله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأجابه ﷺ بأنَّ كُلَّ من أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنَّهم إنَّما يعبدون الشَّياطين ومَنْ أمَرَتْهُم بعبادته[1] . وأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] . وكان رسول الله ﷺ يضرب بأصنام قريش الأمثال ويعيبُها والمسلمون كذلك ، وكانت قريش تَعُدُّ ذلك سَبًّا لآلهتهم ، فلَقِيَ أبوجهل بن هشام رسولَ الله ﷺ فقال : والله يا محمَّد لتتركُنَّ سَبَّ آلهتنا أو لنَسُبَّنَّ إلهك الَّذي تَعْبُد ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[4] ، فكفَّ رسولُ الله ﷺ عن سَبِّ آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله[5] .

ومِنْ ذلك أيضًا أنَّ رسولَ الله ﷺ اعترضه مرَّةً أثناء طوافه بعض سادات قريش ، ومنهم العاص بن وائل ، والوليد ، والأسود بن

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٥٩ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤٦٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيات : (١٠١-١٠٢) .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : (٢٩) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٠٨) .

(٥) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٥٧ .

عبدالمطلب ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم ، فقالوا : يا محمَّد ، هلمَّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كُنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[١] . أي : إن كنتم لا تعبدون الله إلَّا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لي فيكم ، لكم دينكم ولي دين[٢] .

ولمَّا صَدَع النبيُّ ﷺ بالدَّعوة إلى التوحيد ونبذ ما جعلوه لله عز وجل من أنداد ، احتدم الأمر بينه وبين المشركين فلجؤا إلى تعذيب المسلمين ، جَرَّاء الحَسَد الَّذي ملأ قلوبَهم ؛ وعجزهم عن مقارعة حُجَج النبيِّ ﷺ بالحُجَج ، فانتهاجهم إلى تلك الطُّرق دليلٌ على بَوَار حجَّتهم وبطلان ما هم عليه مِن العبادات الشركيَّة ، فعن سعيد بن جبير[٣] قال : قلت لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به من ترك دينهم ، قال : نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر

---

(١) سورة الكافرون ، الآيات : (١-٦) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٦٢ .

(٣) سعيد بن جُبَير الأسدي مولاهم ، الكوفي ، ثقة ثبت فقيه من الثالثة ، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يُكمل الخمسين . انظر : أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ) : تقريب التهذيب ، ت : محمد عوامة ، دار الرشيد - سوريا ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ ، برقم (٢٢٧٨) ، ص : ٢٣٤ .

على أن يستوي جالساً من شِدَّة الضَّرب الذي نزل به حتى يطيعهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له ، آللَّاتُ والعُزَّى إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، حتى إن الجُعل ليمر بهم ، فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، افتداءً منهم مما يبلغون من جهده[1] .

فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ما وقع لأصحابه من البلاء الذي لا يطاق أَذِنَ لهم بالهجرة إلى الحبشة[2] فراراً إلى الله بدينهم ، وحين علمت قريش أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بلداً وجدوا فيه الأمن والاستقرار ، وأنَّ النجاشي[3] قد منعهم ، وأنَّ حمزة وعمر مع رسول الله ﷺ ، وأنَّ بني هاشم وبني المطلب مانعوه ، وأنَّ الإسلام جعل يفشوا في القبائل وينتشر ؛ اجتمعوا ثُمَّ تآمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدوا فيه ضد بني هاشم وبني المطلب ، أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ، ولا ينكحوهم

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٢٠ .

(٢) أرض الحبشة : هضبة مرتفعة غرب اليمن بينهما البحر ، وعاصمتها أديس أبابا ، ولهم صلات قديمة مع العرب ، ولملكهم موقف يذكر ويشكر مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إليه فوجدوا في كنفه ملجأ وحسن جوار ، والحبشة نصارى ، غير أنَّ الإسلام زحف على بلادهم من زمن بعيد فأسلمت أطرافها من كُلِّ اتجاه ، وبقيت الهضبة حول أديس أبابا متمسِّكة بالنصرانية ولا زال الإسلام يتكاثر في العاصمة نفسها . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٩١ .

(٣) أصحمة النجاشي ملك الحبشة ، أسلم في عهد النبي ﷺ وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، وأخباره معهم ومع كفار قريش مشهورة ، توفي ببلاده قبل فتح مكة ، وصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة ، وكبر عليه أربعاً ، وأصحمة اسمه ، والنجاشي لقب له ولملوك الحبشة ، مثل كسرى للفرس ، وقيصر للروم . انظر : عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) : أسد الغابة ، ١/ ٢٥٢ .

ولا ينكحوا إليهم ، وكان بمثابة الحصار[١] ، وسُمِّيَ حصار الشِّعب[٢] ، فقد عانى المسلمون من هذا الحصار أشدَّ العناء ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثـًا لا يصل إليهم شيءٌ إلَّا سِرَّاً حتى جهدوا[٣] ، ومع كُلِّ هذا كان رسول الله ﷺ ماضٍ في تبليغ رسالة ربِّه والدَّعوة إليه ، لا يصدُّه عنها صادٌّ .

فكان من أمر الصحيفة ما كان من الظلم والعدوان حتَّى سَعَى رجال من أجواد قريش في نقضها وفكِّ الحصار عن بني هاشم ومن دخل معهم في الشِّعب الأمر الذي أثار غضب قريش ، وتفاقم شرهم وتحاملوا على المسلمين بالسِّجن والتَّعذيب أو القتل حتى يفتنوهم عن دينهم ، فأمر رسول الله ﷺ بالهجرة الثانية إلى الحبشة ، فخرج معظم المسلمين إلَّا من عجز عن ذلك من الموالي والنِّساء والمستضعفين ، فبلغ ذلك نيِّفـًا وثمانين رجلًا وامرأة ، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب[٤] ، فبعث

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٥٠ .

(٢) الشِّعب : بالكسر ، واحد الشعاب ، للطريق بين جبلين أو ما انفجر بينهما ، . فشِعب بني هاشم أو شعب أبي طالب أو ما يسمى اليوم شعب علي يقع شرقي المسعى كان لعبد المطلب فقسمه بين بنيه حين ضعف بصره ، وكان النبيّ ﷺ ، أخذ حظّ أبيه ، كان منزلا لبني هاشم : وهو المكان الذي حاصرت فيه قريش رسول الله ﷺ وقومه لما تحالفت قريش وكتبوا الصحيفة ضدهم. وقد ولد النبِّي ﷺ في أول الشعب ، واليوم أقيم في موضع المولد الشريف (مكتبة مكة المكرمة). انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٣٤٧ ، عاتق بن غيث البلادي : معالم مكة التأريخية والأثرية ، دار مكة لنشر والتوزيع ، ط :١ ، ١٤٠٠هـ ، ص : ١٤٥ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٥٠.

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٥٣ .

(٤) جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي ، ابن عم النبي =

رسول الله ﷺ بكتاب مع عمرو بن أمية الضمري[١] إلى النَّجاشي يدعوه فيه إلى الله يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمَّد رسول الله إلى النَّجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلام عليك ، فإنِّي أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أنَّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطَّاهرة الطيِّبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنِّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعاته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني ، فإنِّي رسول الله ، وقد بَعَثْتُ إليك ابن عمي جعفر ومعه نفرٌ من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبُّر فإنِّي أدعوك وجنودك إلى الله تعالى ، وقد بلَّغْتُ ونَصَحْتُ فاقبلوا نصيحتي ، والسَّلام على من اتبع الهدى[٢] .

=

ﷺ ، وأحد السّابقين إلى الإسلام . آخى النبيُّ ﷺ بينه وبين معاذ بن جبل . كان النَّبيُّ ﷺ يقول له : «أشبهت خَلقي وخُلقي» . هاجر إلى الحبشة فأسلم النَّجاشي ومن تبعه على يديه ، وأقام جعفر عنده ، ثم هاجر منها إلى المدينة فقدم والنبيّ ﷺ بخَيبَر . استشهد بمُؤتة من أرض الشام مُقبلًا غير مدبر ، مجاهداً للرُّوم في حياة النبيِّ ﷺ ، في جمادى الأولى سنة ثمان . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٥٤١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٥٩٢ .

(١) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبدالله بن إياس الكناني الضمري ، يكنى أبا أمية ، صحابي مشهور ، بعثه النبيُّ ﷺ وحده عيناً إلى قريش ، فحمل خبيب بن عدي من الخشبة التي صلب عليها ، وأرسله إلى النجاشي وكيلًا ، فعقد له على أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأسلم قديماً ، وكان من رجال العرب جزأة ونجدة ، وعاش إلى خلافة معاوية ، فمات بالمدينة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ١٨١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٩٦ .

(٢) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٢ .

ثُمَّ ردَّ النجاشيُّ على رسول الله ﷺ برسالة أخبره فيها أنَّهُ آمن بالله ، وصدَّق برسالته ، وأقرَّ بنبوَّته ، وشهد شهادة الحق ، وهذا نصُّ كتابه : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله ﷺ ، من النَّجاشيِّ الأصحم بن أبحر ، سلام عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فوربِّ السماء والأرض إنَّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنَّك رسول الله صادقًا ومصدّقًا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا رسول الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر ، فإنِّي لا أملك إلَّا نفسي ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنِّي أشهد أنَّ ما تقول حق[1] .

وبعد تلك الهجرة الَّتي هاجرها المسلمون إلى الحبشة ذاع خبر رسول الله ﷺ فيهم ، فخرج وفدٌ قرابة العشرين رجلًا من النَّصارى فقدموا على رسول الله ﷺ في مكة فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه يكلِّموه ويسألوه وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلمَّا فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمَّا أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عزَّ وجلَّ وتلا عليهم القرآن ، فلمَّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدَّمع ثُمَّ استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم ، فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن هشام في نفر من قريش ، فقال لهم : خيَّبكم الله مِن ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم

---

(١) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ١١/ ٣٦٦ .

لتأتوهم بخبر الرَّجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟! ما نعلم ركباً أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نَأْلُ أنفسنا خيراً ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[1][2] .

وما إن انفك ذلك الحصار الغاشم بوقت يسير حتَّى مرض أبوطالب عمُّ رسول الله ﷺ مرض الموت ، فلمَّا حضرته الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أميَّة ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمِّ ، قل : لا إله إلا الله ، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله ، فقال أبوجهل وعبدُالله بن أبي أمية : أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وهم يعيدان له تلك المقالة ، حتى قال أبوطالب آخر ما قال أنَّهُ : على ملَّة عبدالمطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، ومات على الشرك . قال : قال رسول الله ﷺ : «وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» ، فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3] ، إلى أن قال سبحانه : ﴿ إِنَّكَ

---

(١) سورة القصص ، الآيات : (٥٢-٥٣) .

(٢) انظر : محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء(ت : ١٥١هـ) : سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) ، ت : سهيل زكار ، دار الفكر - بيروت ، ط : ١ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص٢١٨ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤٢١ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (١١٣) .

﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(١)(٢) .

فما لبث النبيُّ ﷺ يُعالج حزنه على موت عمِّه أبي طالب حتَّى ماتت خديجة رضي الله عنها وأرضاها ، وكان ذلك في عام واحد ، فحزن النبيُّ ﷺ لذلك ، وسُمِّي ذلك العام بعام الحزن ، فخديجة كانت وزير صدق لرسول الله ﷺ تخفِّفُ عنه وتواسيه وتُعَزِّزُ جانبه حين يَشْتكِي لها ما يلاقيه فَتُهَوِّنُ عليه وتُصَبِّره وتقف إلى جانبه ، وأمَّا عمُّه أبو طالب فكان عَضُدًا وحِرْزًا في أمره ومَنَعَةً له وناصراً من قومه بما يملك من السِّيادة والشَّرف والمهابة ، فكان أبو طالب وخديجة يُمثلان السَّند لرسول الله ﷺ بعد الله تعالى .

فلمَّا هاجر عامَّة المسلمين إلى بلاد الحبشة خلت مكة ، وأوحشت الدِّيار ، ورسول الله ﷺ لا يجد من قريش إلَّا الغلظة والجفوة ، فكان رسول الله ﷺ يقول : «ما نَالَتْ منِّي قريش شيئًا أكرهُهُ حتَّى ماتَ أبو طالب» ، فقد اجتمع على رسول الله ﷺ في هذه الفترة من المصائب والشَّدائد ما الله به عليم ، يعرض نفسه على القبائل والأفراد فلا يجد إلَّا التجهُّم والصدَّ والبغض والجفاء والاستهزاء ، فحين يئس رسول

---

(١) سورة القصص ، الآية : (٥٦) .
والحديث رواه البخاري ٤/ ١٧٨٨ ، برقم (٤٤٩٤) ، كتاب التفسير ، تفسير سورة القصص ، باب : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ، ومسلم ، ١/ ٥٤ ، برقم (٢٤) ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، ما لم يشرَعْ في النزع ، وهو الغرغرة .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ، ٦/ ١١٢ ، برقم (٤٧٧٢) ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ١/ ٥٤ ، برقم (٢٤) .

الله ﷺ من قريش خرج إلى الطائف ماشياً ، يلتمس النَّصر والمَنَعَة من ثقيف ، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فلمَّا انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف ، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم ، فجلس إليهم ، وأخبرهم بنبوَّته وأنَّهُ رسولٌ إليهم ودعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وأقام بالطائف عشرة أيام وقيل شهراً لا يدع أحداً من أشرافهم إلَّا كلَّمه ، فلم يُجِيبوه ، بل رَدُّوا عليه أسوأ ردٍّ ، وخافوا على أحداثهم منه ، فقالوا : يا محمد ، اخرج عنَّا ، ثُمَّ أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به حتى اجتمع النَّاس عليه وأَلْجَئُوْهُ إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظِلِّ حبلة من عنب[1] ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، فدعوا غلاماً لهما يُقال له عداس[2] ، فقالا له : خذ قِطْفَاً[3] من عِنَبْ فضعه بين يديه ، فلمَّا سمَّى رسول الله ﷺ ليأكل نظر له عداس فقال : إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلد ، فقال له رسول الله ﷺ : من أيِّ البلاد أنت وما دينك ، قال : نصراني ، وأنا من نينوى[4] ، فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرَّجل الصالح يونس بن متى ،

(١) كل أصل من العِنَب حبلة . انظر : ابن سيده : المخصص ، ٣/ ١٩٢ .

(٢) عدَّاس : مولى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من أهل نينوي قريةٌ مِن الموصل ، كان نصرانيـًا ، ولقي النبيّ ﷺ بالطائف في قصّة ذكرها ابن إسحاق في السيرة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٨٥ .

(٣) قِطْفًا -بِالْكَسْرِ- : العُنْقود ، وَهُوَ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُقْطَف . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٨٤ .

(٤) نينوى : مدينة قديمة ، منها نبي الله يونس بن متى ، وهي اليوم أطلال وآثار على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، مقابلة مدينة الموصل من جهة الشرق ، والنهر بينهما .
=

قال : وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال : ذاك أخي كان نبيـًا وأنا نبي ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه ورجليه ، قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمَّا غلامك فقد أفسده عليك ، فلمَّا جاء عدَّاس قالا له : ويلك يا عداس! ما لك تقبِّلُ رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال : يا سيدى ما في الأرض شيءٌ خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلَّا نبيٌّ ، وكان الحسد قد طغى عليهما ، فقالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنَّك عن دينك ، فإنَّ دينك خير من دينه[١] .

ويذكر رسول الله ﷺ ما لاقاه من أهل الطائف من الشِّدة لمَّا سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قائلةً : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟

فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلَّا بقرن الثعالب[٢] ، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إنَّ

=

انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٩١ .

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٤٢٠-٤٢١ ، عبدالرحمن السهيلي :الروض الأنف ، ٤/ ٣٠ .

(٢) وهو المسمَّى بقَرْن المنازل : بفتح الأوَّل وسكون الثَّاني ، وهو على طريق الطائف من مكة المارّ بنخلة اليمانية ، يبعد عن مكة ثمانين كيلًا وعن الطائف ثلاثة وخمسين كيلًا ، وقد جاء ذكره في طريق رسول الله إلى الطائف ، ويرويه بعضهم بفتح الراء ، قالوا : وهو خطأ ؛ لأن قرن بالفتح اسم لقبيلة ، وقرن المنازل : ميقات أهل اليمن والطائف . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٢٦ .

الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلَّم عليَّ ، ثُمَّ قال : يا محمد! ذلك ، فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبق عليهم الأَخْشَبَين[١] ، قال النبيُّ ﷺ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله عزَّ وجلَّ مِنْ أَصْلَابِهم مَنْ يَعْبُدُ الله عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ لا يشرك به شيئًا»[٢].

فكم لاقى رسول الله ﷺ مِنَ الأذيَّة جرَّاء تبليغه رسالة ربه عزَّ وجلَّ فقد وجد العَنَتَ والكِبْرَ والتَّجَبُّر من قومه ومن سائر قبائل العرب ، ومع هذا كان يقابلهم باللِّين والرِّفق والرَّحمة والصَّبر على الأذى ، وهذا الموقف الذي وقع للنبيِّ ﷺ في الطَّائف أعظم شاهدٍ على حرصه الشَّديد على دعوة النَّاس إلى توحيد الله ونبذ الأصنام وتحذيرهم من مغبَّة الشرك وعبادة الأوثان .

ثُمَّ إنَّ رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من ثقيف حتى إذا كان قريبًا من مكة قام من جوف الليل يُصَلِّي فمرَّ به النَّفر من الجن فاستمعوا له ، فلمَّا فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، ثُمَّ عادوا دعاة إلى الله منذرين قومهم داعين إلى الإسلام ، فكانوا سببًا في دخول كثير منهم في الإسلام رضي

---

(١) الْأَخْشَبَانِ : الجبلان المُطِيفان بمكة ، وهما أَبُو قُبَيْس والأَحْمَرُ وهو جبل مشرف وجهه على قُعَيْقِعَان ، والْأَخْشَبُ كل جبل خشن غليظ الحجارة . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٣٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء آمين.. ، ٣/ ١١٨٠ ، برقم (٣٠٥٩) . وانظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤٤٠ .

الله عنهم وأرضاهم[١] .

فلمَّا أراد ﷺ الرجوع إلى مكة قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال : يا زيد إنَّ الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا وإنَّ الله مُظهرٌ دينه وناصر نبيَّه[٢] . ثُمَّ انتهى إلى حِرَاء ، فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ، ثُمَّ تسلح المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثُمَّ بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلَّى عنده ، ثُمَّ انصرف إلى منزله[٣] .

وبعد دخول رسول الله ﷺ مكَّة وجد قومه أشدَّ ما كانوا عليه من خلاف وفراق دينه إلَّا قليلًا من المستضعفين ممن آمن به .

ومع كُلِّ هذه الأحداث التي مرَّت به ﷺ بقي يدعوا النَّاس لهذا الدِّين الَّذي بُعث به ، فكان ﷺ يتحيَّن المواسم فيأتي قبائل العرب في منازلهم ، وما ترك قبيلةً إلَّا عرض عليهم الإسلام وأمرهم بالتوحيد ، فقد أتى كلبًا في منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم : بنوعبدالله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنَّهُ ليقول لهم : يا بني عبدالله ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم[٤] .

ثُمَّ أتى بني حنيفة[٥] في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم

---

(١) انظر :ابن هشام :السيرة النبوية ، ١/ ٤٢٢ .
(٢) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤٤٠ .
(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٨١ .
(٤) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٤/ ٣٤ .
(٥) بنُوحنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، قبيلةٌ من العدنانيَّة ، تتفرَّع إلى =

نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًّا منهم[١] ، ومن بني عامر كذلك ، فقد رُوى أنَّ رسول الله ﷺ وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله تعالى ، فقام رجلٌ منهم فقال له : عجبًا لك ، والله قد أعياك قومك ، ثُمَّ أعياك أحياء العرب كلها ، حتى تأتينا وتتردَّد علينا مرَّة بعد مرَّة؟ والله لأجعلنَّك حديثًا لأهل الموسم ، ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالسًا فكسر الله ساقه ، فجعل يصيح من رجله ، وانصرف رسول الله ﷺ[٢] .

وهكذا ما زال النبيُّ ﷺ يأتي القبائل قبيلةً قبيلةً يدعوهم إلى الإسلام وإلى أن يمنعوه حتى يُبَلِّغ رسالة ربِّه ، ولهم الجنَّة ، ويقول : يا أيُّها النَّاس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، ومِمَّن أتاهم ﷺ في موسم ذلك العام برفقة أبي بكر وعليٍّ رضي الله عنهما وفد بني شيبان ، قال عليٌّ رضي الله عنه : ثُمَّ انتهينا إلى مجلس عليه السَّكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدارٌ وهيئات ، فتقدَّم أبوبكر فسلَّم -قال عليٌّ : وكان أبوبكر مقدَّمًا في كُلِّ خير- فقال لهم أبوبكر : ممَّن القوم؟ قالوا : نحن بنوشيبان بن ثعلبة ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمي ، ليس بعد

=

بطون كثيرة ، كانت تقطن اليمامة ، ثُمَّ تفرقت في كثير من البلدان ، فسكنت الزوراء ، ورصافة هشام ، وكانت في أوائل الإسلام أدنى بلاد الشام إلى الشِّيح ، والقيصوم ، وأثال ، من أرض اليمامة ، ووادي العرض باليمامة ، وفيشان من قرى اليمامة ، وَلَد حنيفة بن لُجَيْم : الدّول -وفيه الثروة من بني حنيفة والعد- ، وعدىّ ، وعامر . انظر : هشام الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٦٢ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٣٠٩ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ١/ ٣١٢ .

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٤٢٤ .

(٢) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٤٥٦ .

هؤلاء من عزٍّ في قومهم -وفي رواية : ليس وراء هؤلاء غرر من قومهم- وهؤلاء غرر النَّاس ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنُّعمان بن شريك ، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو ، فدار بينه وبين أبي بكرٍ كلامٌ ثمَّ قال لأبي بكر ، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبوبكر : إن كان بلغكم أنَّهُ رسول الله ﷺ فها هو هذا ، فقال مفروق : قد بلغنا أنَّهُ يذكر ذلك ، ثُمَّ التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلامَ تدعو يا أخا قريش؟ فتقدَّم رسول الله ﷺ فجلس ، وقام أبوبكر يظلُّه بثوبه ، فقال ﷺ : «أَدْعُوكُمْ إلى شهادةِ أن لا إلهَ إلَّا الله وحدهُ لا شرِيكَ لهُ ، وأنِّي رسولُ الله ، وأنْ تؤوِنِي ، وتمنعوني ، وتنصروني حتَّى أؤدِّي عنِ اللهِ الذي أمرني به ، فإنَّ قريشًا قد تظاهرتْ على أمر اللهِ وكذَّبت رَسُولَه ، واستغنت بِالباطل عن الحقِّ ، والله هو الغنيُّ الحميدُ» . قال له : وإلام تدعو أيضـًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله : ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] ، فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضـًا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] ، فقال له مفروق : دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات : (١٥١-١٥٣) .

(٢) سورة النَّحل ، الآية : (٩٠) .

ولقد أَفِكَ قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك -وكأنَّهُ أحبَّ أن يشركَه في الكلام هانئ بن قبيصة- فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ، فقال له هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدَّقت قولك ، وإنِّي أرى أنَّ تَرْكنا دِيننا واتباعَنا إيَّاك على دِينك -لمجلِس جلَسته إلينا ليس له أوَّلٌ ولا آخر ، لم نتفكَّر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه- زلَّةٌ في الرَّأي وطَيشةٌ في العقل ، وقلَّة نظرٍ في العاقبة ، وإنَّما تكون الزلَّة مع العَجَلة ، وإنَّ من ورائنا قومًا نكره أن نعقد عليهم عقدًا ، ولكن ترجعُ ونرجع وتنظر وننظر -وكأنَّهُ أحبَّ أن يشركه في الكلام المثَنَّى بن حارثة- فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حَرْبِنَا . فقال المثَنَّى : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلَّمت به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة ، وترْكُنا ديننا واتِّباعنا إيَّاك لمجلس جلَستَه إلينا ، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صِيرَيْنِ[1] ، أحدهما اليمامة[2] ، والآخر السمامة ، فقال له رسول الله ﷺ : «وما هذان الصِّيران؟» ، فقال له : أمَّا أحدهما فطفوف البرِّ وأرض العرب ، وأمَّا الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنَّما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى أنْ لا نُحدث حدثـًا ولا نُؤْوِي مُحْدَثـًا ، ولعلَّ هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه ممَّا تكرهه الملوك ، فأمَّا ما كان ممَّا يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعُذره مقبولٌ ، وأمَّا ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره

---

(١) الصِّيرُ : الماء الذي يحضره الناس ، وقد صار القوم يَصِيرُون إذا حضروا الماء . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٦٦ .

(٢) اليمامة : كانت مركز مسيلمة الكذاب في نجد . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٣٠١ .

غير مقبول ، فإنْ أردت أنْ نَنْصرك ونَمنعْك ممَّا يلي العرب فعلنا ، فقال رسول الله ﷺ : «مَا أَسَأْتُمُ الرَّدَّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ ، إِنَّهُ لَا يَقُومُ بِدِينِ اللهِ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِه» ، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ : «أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَمْنَحَكُمُ اللهُ بِلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَيُفْرِشَكُمْ بَنَاتِهِمْ ، أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ؟» ، فقال له النُّعمان بن شريك : اللهمَّ وإنَّ ذلك لك يا أخا قريش ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[1] ، ثمَّ نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يَدَي أبي بكر ، قال علي : ثُمَّ التفت إلينا رسول الله ﷺ ، فقال : «يَا عَلِيُّ ، أَيَّةُ أَخْلَاقٍ لِلْعَرَبِ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مَا أَشْرَفَهَا! بِهَا يَتَحَاجَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ، قال : ثُمَّ دفعنا إلى مجلس الأَوْس والخزرج ، فما نهضنا حتَّى بايعوا النبيَّ ﷺ[2] ، وهكذا جاء الفرج مِنَ الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه ﷺ بعد صَبْره كُلَّ تلك الأعوام يدعو فيها النَّاس لتوحيد الله ونبذ عبادة ما سواه ، بعرضه نفسه على قبائل العرب ، فلمَّا أراد الله إظهار دينه الإسلام قدِمَ إلى مكَّة نفرٌ من الخزرج فلمَّا لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمِن موالي يهود؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا : بلى ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وقد كانوا يجاورون اليهود ويسمعون منهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا : إنَّ نبيـًا مبعوث الآن قد ظَلَّ زمانه

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات : (٤٥-٤٦) .

(٢) أوردها ابن كثير بتمامها مُطوَّلةً في البداية والنِّهاية . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٤/٣٥٦-٣٥٩ .

نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلمَّا كلَّمهم رسول الله ﷺ ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله إنَّهُ للنَّبي الذي توعَّدكم به يهود ، فلا تسبقنَّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثُمَّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم دُعاة إلى الله عزَّ وجلَّ ، وكان من آمن منهم يدعو النَّاس بدعوة رسول الله ﷺ .

فلمَّا قدموا المدينة أتوا قومهم فذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ ، حتَّى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلًا ، فلقوه بالعَقَبَة[1] ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النِّساء ، وهي البيعة التي أقرُّوا فيها بالتَّوحيد ونبذ الشرك ، فعن عبادة بن الصامت[2] رضي الله عنه ، أنهُ قال :

---

(١) العَقَبَة : -بالتحريك- : وهو الجبل الطويل ، يعرض للطريق فيأخذ فيه ، والمذكور في السيرة : العقبة التي بويع فيها النبي ﷺ ، وهي عقبة منى ، ومنها ترمى جمرة العقبة ، وهي مدخل منى من الغرب وحدّه الغربي . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٩٤ .

(٢) عبادة بن الصّامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاريّ الخزرجيّ ، أبوالوليد ، شهد بدراً ، وقال ابن سعد : كان أحد النقباء بالعقبة ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنويّ ، وشهد المشاهد كلّها بعد بدر ، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين . انظر : ابن =

إني مـن النُّقَبَـاءِ الَّـذِينَ بَـايَعُوا رَسُـولَ اللهِ ﷺ ، وقـال : «بايعنـاهُ علـى أن لا نُشرك بـاللهِ شيئًا ، ولا نسرقَ ، ولا نـزنيَ ، ولا نقتـل الـنَّفس التـي حـرَّم الله ، ولا نَنْتَهِبَ ، ولا نعصيَ بالجنَّة إن فعلنا ذلك فإن غشينَا من ذلك شيئًا كانَ قضاءُ ذلك إلى اللهِ»[١] . ولم يكتف رسول الله ﷺ بإسلامهم ، بل بعث فيهم من يدعوهم إلى التَّوحيد وترك الشرك بالله .

فلمـا أراد القـوم الانـصراف إلـى المدينـة بعـث رسـول الله ﷺ معهـم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويدعوهم إلى الإسلام ويفقِّههم في الدِّين ، فانتشر فيهم الإسلام[٢] .

وقد لخَّص الصَّحابيُّ الجليل جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مراحل دعوة النبيِّ لتوحيد ربِّ العالمين خلال العهـد المكيِّ بقولـه : «إنَّ رسولَ الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع النَّاس في منازلهم مجنة وعكاظ وفي المواسم بمنى يقول : «من يـؤويني؟ ومـن ينصرني؟ حتـى أبلـغ رسـالات ربـي ولـه الجنة» ، فلا يجد أبداً أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى إنَّ الرَّجل ليرحل مـن مـضر أو الـيمن ، فيأتيـه قومـه وذوو رحمـه فيقولـون : احـذر فتـى قـريش لا يفتنك يمضي بين رحالهم ، وهم يشيرون إليـه بأصـابعهم ، حتـى بعثنا الله إليه من يثرب فيأتيه الرَّجل منَّا فيُؤْمِنُ بـه ويُقْرِئُـهُ القـرآن فيَنْقَلِبُ إلـى أهله فيُسْلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلَّا وفيها رهط مـن

=

حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٥٠٥ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب وفود الأنـصار إلـى النبي ﷺ بمكـة وبيعة العقبة ، ٣/ ١٤١٤ ، برقم (٣٦٨٠) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٤٣٤ .

المسلمين يظهرون الإسلام ، ثُمَّ بعثنا الله تعالى فأتمرنا واجتمعنا فقلنا : إلى متى نذر رسول الله ﷺ يطوف في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منَّا سبعون رجلًا حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده ، فقلنا : يا رسول الله علام نبايعك؟ قال : «تُبَايِعُوني على السَّمع والطَّاعة في النَّشاط والكسل ، وعلى النَّفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقولوا في الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب ، تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[1] .

فلمَّا كان اليوم الذي أذِن الله عز وجل لرسول الله ﷺ بالهجرة أنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] ، وكان هذا الإذن عبارة عن الإيذان بمرحلة جديدة من مراحل الدَّعوة إلى التَّوحيد والقضاء على الشرك ومظاهر الوثنيَّة ، وهي امتداد للمرحلة المكيَّة ورافدة لها ، ومتَّسقة معها في الأهداف والوسائل ، وهذا ما سوف أتعرَّض له بالتفصيل في المبحث الثالث من هذا الفصل بإذن الله تعالى .

وبعد سرد هذه المواقف العظيمة يتَّضِحُ للقارئ أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يدَّخر عن قومه جُهْدًا في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، ونَبْذِ ما هم عليه

---

(١) انظر :الصالحي :سبل الهدى والرشاد ، ٣/ ٢٠١.

(٢) سورة الإسراء ، الآية :(٨٠-٨١) .

من الشرك بالله ، ولم يكتف ﷺ بدعوة قومه حتى تعرَّض للقبائل القادمة إلى مكة يدعوهم إلى التَّوحيد ، بل ذهب لبعض القبائل إلى ديارها ، ويتَّضح أيضًا أنَّ الدعوة بمكَّة شهدت مرحلتَين ، ثلاثة أعوامٍ سريَّةً ، وعشرةٌ منها أُمر فيها ﷺ بالصَّدع بها وإظهارها ، وأنَّ الصَّدع بها كان بتبليغها ، لا بقتال المشركين فيها ، إذ لم يُعرف له قتالٌ طوال مكوثه في مكَّة ، ولا حَمْلٌ للسِّلاح على كُفَّار قريشٍ ، بل لم يُؤْمَرُوا حتى بدفع عادية كفَّار قريش عليهم ، فقد كان النبيُّ ﷺ يقول لأصحابه : «إِنِّي أُمِرْتُ بالعَفْوِ ، فَلَا تُقَاتِلُوا ، فَكُفُّوا»[1] فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2] .

وفي هذه المواقف من العبر والعظات ما يحتاجه كل سائر على طريق الدَّعوة إلى الله تعالى ، بل يجب على كُلِّ داعية أن يقرأ هذه المواقف ويجعلها دستورًا له في دعوته ، ويغترف منها كلَّما أحسَّ بالتَّواني والفتور عن الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الصغرى ، برقم (٣٠٨٦) ، ٦/ ٢ ، الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٢/ ٢٣٦ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه .

(٢) سورة النِّساء ، الآية : (٧٧) .

المبحث الثَّالث :
مُحَارَبَةُ الشِّرك والمشركينَ قبلَ فتحِ مَكَّةَ

استمرَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بعد هجرته كما كان قبلها ، يسعى جاهداً لتصفية عقائد النَّاس من الوثنيَّة ومظاهر الشرك وتعليمهم التَّوحيد ، الذي هو أصل الدِّين وأوَّل واجب على المكلَّفين ، وأهم المهمَّات وأوجب الواجبات ؛ إلَّا أنَّ الدَّعوة واجهت في مكة الصدَّ والعِنَاد والظُّلم والاضطهاد من المشركين للمسلمين والحيلولة دونهم ودون عبادة الله عزَّ وجل وتوحيده .

فكان الإذن بالهجرة بداية مرحلة جديدة أُذن فيها بدفع الظُّلم والدِّفاع عن النَّفس وقتال من يقف في سبيل الدَّعوة وتبليغ رسالة الله ومحاربة الشرك والمشركين حتى يتمكَّن من كسر الأصنام والقضاء عليها وإزالة عقيدتها التي تعمَّقت في نفوس النَّاس ، فلما أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة وقبل أن يغادر مكة أسقط أكبر صنمٍ لقريش كان على ظهر الكعبة ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : انطلق بي رسول الله ﷺ حتى أتى بي الكعبة ، فقال لي : اجلس ، فجلستُ إلى جنب الكعبة ، فصعد رسول الله ﷺ بمنكبي ، ثُمَّ قال لي : انهض ، فنهضت ، فلمَّا رأى ضعفي تحته قال لي : اجلس ، فنزلت وجلست ، ثُمَّ قال لي : يا علي اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه ، ثُمَّ نهض بي رسول الله ﷺ ، فلمَّا نهض بي خيِّل إليَّ لو شئت نلت أفق السماء ، فصعدتُ فوق الكعبة ، وتنحَّى رسول الله ﷺ فقال لي : ألق صنمهم الأكبر صنم قريش ، وكان من نحاس موتد بأوتاد من حديد إلى الأرض ، فقال لي رسول الله ﷺ : عالجه ، ورسول الله ﷺ يقول لي : إيه إيه ، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ

ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[١] ، فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه ، فقال : اقذفه ، فقذفته فتكسَّر ، وتردَّيت من فوق الكعبة ، فانطلقت أنا والنبي ﷺ نسعى ، وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم ، قال علي : فما صُعِدَ به حتى السَّاعة[٢] ، وهذا العمل بمثابة رسالة إلى قريش أنَّ تلك الآلهة التي تعبدون لا تمنع عن نفسها ولا عنكم ولا تضركم ولا تنفعكم .

وما إن بلغ رسول الله ﷺ المدينة حتى بدأ المسلمون بتكسير الأصنام وتطهير المدينة منها ، وإزالتها من قلوب النَّاس وعقولهم حتى يتيقَّنوا أن ليس لها أثر ، وأنَّها أحقر من أن تُعبد ، وأنَّ عبادتها من السَّفَه والخَبال .

لذلك لمَّا قدم المهاجرون المدينة أظهروا الإسلام بها وقام المؤمنون بمحاربة الشرك والوثنيَّة ، وكان في الأنصار بقايا على الشرك من بعض شيوخهم ، منهم : عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام ، كان بن الجموح سيِّداً من سادات بني سلمة ، وشريفاً من أشرافها ، قد اتَّخذ في داره صنماً من خشب يقال له : مناه ، كما كانت الأشراف تصنع ، تتَّخذ إلهاً تَعْظِّمه وتُطهره ، فلمَّا أسلم فتيان بني سلمة ، معاذ بن جبل[٣] ، ومعاذ بن

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

(٢) الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، كتاب التفسير ، تفسير سورة بني إسرائيل ، ٢/ ٣٩٨ ، برقم (٣٣٨٧) ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ١٤/ ٤٨٩ ، برقم (٣٨٠٦٢) ، دون ذكر الآية الكريمة .

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، أبوعبدالرحمن الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل ، أحد علماء الصحابة ، المقدم في علم الحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها ، روى عن النبي ﷺ ، وأمَّره النبي ﷺ على اليمن ، ومناقبه كثيرة جداً ، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، =

عمرو[١] وغيرهم ممَّن شهد العقبة ، كانوا يدلجون بليل على صنم عمرو فيطرحونه منكَّساً على رأسه في بعض حفر بني سلمة ، فيها عُذَرُ النَّاس ، فإذا أصبح عمرو قال : ويحكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال : ثُمَّ يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهَّره وطيَّبه ، ثُمَّ قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينَّه ، فإذا أمسى ونام عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى ، فيغسِّله ويطهِّره ويطيِّبه ، ثُمَّ يعدون عليه إذا أمسى ، يفعلون به مثل ذلك ، فلمَّا أكثروا عليه استخرجه يوماً من حيث ألقوه فغسله وطيَّبه ، ثُمَّ جاء بسيفه فعلَّقه عليه ثُمَّ قال له : إنِّي والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى ، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع ، فهذا السيف معك ، فلمَّا أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثُمَّ أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثُمَّ ألقوه في بئر من آبارهم ، فيها عُذَرُ النَّاس ، فلمَّا غدا عمرو بن الجموح يلتمسه لم يجده فخرج يتبعه فوجده في تلك البئر منكَّساً مقروناً بكلب ميِّت ، فلمَّا رآه وأبصر شأنه كلَّمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه[٢] .

=

٣/ ١٤١٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ١١٣ .

(١) معاذ بن عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة ، الخزرجي الأنصاري ، شهد بدراً ، وهو الذي صرع أبا جهل يوم أحد وقطع رجله ، وقضى له النبي ﷺ بسلبه ، سكن المدينة وتوفي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه . انظر : عبدالله بن محمد بن المَرْزُبان البغوي : معجم الصحابة ، ت : محمد الأمين الجكني ، مكتبة دار البيان – الكويت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م ، ٥/ ٢٧٩ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٤١٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٤٥٣ .

وقد تضافر الصَّحابة في تطهير المدينة من الأصنام ، وأسهموا في تكسيرها واستخدام حطامها في ما ينفع النَّاس ، روى الطبري أن عليَّ بن أبي طالب لمَّا لحق برسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة نزل بقباء ، وقال : كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة ، فرأيت إنسانًا يأتيها في جوف الليل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيها شيئًا معه ، قال : فاستربت لشأنه ، فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كُلَّ ليلة فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئًا ، ما أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك! قالت : هذا سهل بن حنيف بن واهب[1] ، قد عرف أنِّي امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ، ثُمَّ جاءني بها ، وقال : احتطبي بهذا ، فكان علي بن أبي طالب يحدث عن ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق[2] ؛ فكان لهذا العمل وأمثاله مِنْ تلك الصَّفوَة الَّتي خالط التَّوحيد بشاشة قلُوبها دورٌ كبير في محاربة الشرك وكشف حقيقة الأصنام وتوعية النَّاس ونصحهم .

---

(١) سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم بن ثعلبة بن مجدعة بن الحارث بن عمرو بن خناس الأوسي الأنصاري ، أبوالوليد ، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وثبت يوم أحد ، وكان بايعه يومئذ على الموت ، فثبت معه حين انكشف الناس عنه ، وصحب بعد ذلك عليًا رضي الله عنه ، وشهد معه معاركه ، مات سهل بن حنيف بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه عليٌّ وكبَّر ستًا . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٦٦٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ١٦٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ٣٨٢-٣٨٣ ، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) : السيرة النبوية ، ت : مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت - لبنان ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م ، ٢/ ٢٧٠ .

البدء بتشييد المساجد لتقرير التَّوحيد والدَّعوة إليه

يقول البراء[(١)] : لمَّا جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ما رأيت النَّاس فرحين بشيءٍ كفرحهم به ، حتى رأيت النِّساء والصِّبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء[(٢)] ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء ، وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول ، الموافق للثالث والعشرين من سبتمبر سنة ستمائة واثنان وعشرون ، فكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ أن أَسَّسَ مسجد قباء لأداء الصَّلاة ، وعبادة الله وحده دون تلك الأصنام والأوثان التي كانوا يعكفون عليها قبل الإسلام .

روى الطبراني عن الشموس بنت النعمان[(٣)] رضي الله عنها قالت : نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم نزل وأَسَّسَ هذا المسجد : مسجد

---

(١) البراء بن عازب بن حارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة ابن الحارث بن الخزرج الأنصاري الحارثي الخزرجي ، يُكنى أبا عمارة ، له ولأبيه صحبة ، استصغر يوم بدر هو وابن عمر فشهد أُحدًا ، غزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة ، وشهد مع عليٍّ الجمل وصفّين ، وقتال الخوارج ، ونزل الكوفة وابتنى بها داراً ، ومات في إمارة مصعب بن الزبير . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ١٥٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ١/ ٤١١ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب : لتركبن طبقًا عن طبق ، ٤/ ١٨٨٥ ، برقم (٤٦٥٦) .

(٣) الشموس بنت النعمان بن عامر بن مجمع الأنصارية ، حضرت مع النبي ﷺ تأسيس مسجد قباء ، كانت من المبايعات ، روت عن النبي ﷺ أحاديث . انظر : أبونعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) : معرفة الصحابة ، ت : عادل بن يوسف العزازي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ٦/ ٣٣٧٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٢٠٤ .

قباء ، فرأيته يَأْخُذ الحَجَر حَتَّى يهصره[١] الحجر ، وأنا أنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سُرَّته ، فيأتي الرَّجل من أصحابه ويقول : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي أعطني أكفك ، فيقول ﷺ : «لا خُذْ مِثْلَهُ» ، حتى أَسَّسَهُ ، قال تعالى : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[٢][٣] .

وقد أقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيَّام ، حتى فرغ من بناء مسجد قباء وصلَّى فيه ، فلمَّا كان اليوم الخامس يوم الجمعة ركب بأمر الله وأردف أبا بكر ، فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة ببني سالم بن عوف فجمع بهم وخطبهم رسول الله ﷺ خطبة أعلن فيها التوحيد وأمرهم بتقوى الله في السرِّ والعلن والدعوة إلى نصرة دينه ونبيِّه .

فلما دنى رسول الله ﷺ من يثرب تلقَّاه النَّاس ، فخرجوا في الطُّرقات ، وعلى الأباعر والآكام ، وهم يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله ﷺ ، وارتجت المدينة بالتَّكبير والتَّحميد ، وابتهجت القلوب فرحاً وسروراً ، فما رُئِي يومٌ النَّاس أشدُّ فرحاً من ذلك اليوم[٤] .

---

(١) هَصَرَ الشَّيْء يَهْصِرُه هَصْراً : جبذه وأماله . انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٤/ ٢٠٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (١٠٨) .

(٣) رواه الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (٨٠٢) ، ٢٤/ ٣١٨ . وانظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٣/ ٢٦٨ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني (ت: ١١٢٢هـ) : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م ، ٢/ ١٥٣ .

(٤) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ٢/ ٥٠٧ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٣/ ٢٧١ .

فكان أول ما شرع به رسول الله ﷺ بعد دخول المدينة أن بدأ بناء مسجده ، وكان يعمل في بنائه بنفسه عليه الصلاة والسلام ترغيباً للمسلمين وحثاً لهم على المشاركة في ذلك ؛ لما للمسجد من مكانة عظيمة في الإسلام ، وذلك لإقامة الصَّلاة أعظم فريضة ، فهي عمود الدِّين وصراط الله المستقيم ، ووسيلة الاتصال بين العبد وربِّه ، وهي الرُّكن المتين الذي إذا سقط وقع صاحبه في الكفر والعياذ بالله ، لقول النبيِّ ﷺ : «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وبَيْنَهُم الصَّلاة ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[١] ، ولقول النبيِّ ﷺ : «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فيُحْطَب ، ثُمَّ آمُرَ بالصَّلاة فيُؤَذَّن لها ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فيَؤُم النَّاس ، ثُمَّ أُخَالف إلى رِجَالٍ فَأُحرقَ عَلَيْهِم بُيُوْتَهُم ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عِرْقًا سَمِيْنًا أَوْ مَرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشَاءَ»[٢] . فدلَّ هذا على عظم شأن المسجد ومكانته في الإسلام وأثر الصلاة في حياة المسلمين وترابطهم .

لذلك ، فإنَّ أوَّل عمل قام به النبيُّ ﷺ بناء المسجد ، مكان العبادة ، ومنطلق الدَّعوة إلى توحيد الله والتحذير من عبادة ما سواه ، ومجتمع المسلمين كبيرهم وصغيرهم ، حرِّهم وعبدهم ، أميرهم ووزيرهم ،

---

(١) أخرجه النَّسائي : المجتبى ، كتاب الصَّلاة ، باب الحكم في تارك الصَّلاة ، ١/ ٢٣١ ، برقم (٤٦٣) ، والإمام أحمد : مسند أحمد ، ٣٨/ ٢٠ ، برقم (٢٢٩٣٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير : صحيح الجامع الصغير وزياداته ، ٢/ ٧٦٠ ، برقم (٤١٤٣) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجماعة والإمامة ، باب وجوب صلاة الجماعة ، ١/ ٢٣١ ، برقم (٦١٨) .

يقفون في مكان واحد ، يعبدون الله لا فرق بينهم . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[١] . فالمسجد هو أساس وحدة المسلمين وجامعتهم التي يتلقَّون فيها تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، فيه تتآلف القلوب وتتعارف الشَّخصيات وتتقارب القبائل التي طالما نافرت بينها النزاعات الجاهليَّة ، والعصبيَّة القبليَّة ، كما كان داراً يَسْكُن فيه عدد من المهاجرين الَّذين لا دُوْرَ لهم في المدينة ولا أهل ، سُمُّوا بأهل الصفَّة[٢] ، فالمساجد هي بيوت الله ، ومأوى الإيمان والمؤمنين ، ومصدر عزَّة المسلمين ، فكانت أولى اهتمامات رسول الله ﷺ أين ما حلَّ ونزل[٣] .

فلما أتَمَّ بناء المسجد خطبهم رسول الله ﷺ خطبةً أكَّد فيها على التوحيد وإفراد الله بالعبادة ، والتقرُّب إليه بأنواع الطَّاعة من الصَّلاة والصَّدقة والذِّكر ، وحذَّر من الشرك والمحرَّمات ونقض العهود وعقاب الله عزَّ وجلَّ وعذابه .

ثُمَّ بعد ذلك بدأ رسول الله ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وكتابة العقود والمواثيق بين المسلمين واليهود ؛ لحماية المدينة من أيِّ اعتداء خارجي ، ولتوطيد الأمن والاستقرار فيها .

---

(١) سورة الجن ، الآية : (١٨) .

(٢) «أهل الصفة» : هم فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مظلَّل في مسجد المدينة يسكنونه . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣٧ .

(٣) انظر : صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٢٧هـ) : الرحيق المختوم ، دار العصماء - دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ ، ص١٢٥ .

محاربة الشِّرك والمشركين وكبت نفوذهم

وما إن استقرَّ رسول الله ﷺ بالمدينة حين أُذِنَ للمؤمنين بقتال المشركين والدِّفاع عن النَّفس ودفع الظُّلم واسترداد ما سُلب من أموالهم ، حتى بدأ بشنِّ السَّرايا والغزوات لمحاربة المشركين في مكة والانتصار منهم ؛ لقول الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[١] ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أُخرج النبيُّ ﷺ من مكة قال أبوبكر : أخرجوا نبيهم ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٢] ، قال أبوبكر : فعرفتُ أنَّهُ سيكون قتال ، قال تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣] ، يقول تبارك وتعالى : وقاتلوا -أيُّها المؤمنون- أعداءَكم من الكُفَّار حتى لا يكون شرك ولا صَدٌّ للمسلمين عن دين الله ، ويكون الدِّين والطَّاعة لله وحده لا شريك له ، فإن انتهى الكُفَّار عمَّا كانوا عليه من الشرك والصدِّ عن سبيل الله فدعوهم ، فإنَّ الله مُطَّلع على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية[٤] .

وقد أورد الطبري في تفسيره[٥] عند كلامه عن هذه الآيات أنَّ

---

(١) سورة الحج ، الآية : (٣٩) .
(٢) سورة الحج ، الآية : (٣٩) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٣٩) .
(٤) انظر : جماعة من علماء التفسير : المختصر في تفسير القرآن الكريم ، ١/ ١٨١ .
(٥) الطبري : جامع البيان ، ١٣/ ٥٣٩-٥٤١ .

عبدالملك بن مروان كتب إلى عروة بن الزبير يسأله عن سبب خروج النبيِّ ﷺ من مكة ، فكتب إليه عروة : سلامٌ عليك ، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد ، فإنَّك كتبت إليَّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وسأخبرك به ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة أنَّ الله أعطاه النبوَّة ، فنعم النبيُّ ، ونعم السيِّد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيراً ، وعرفنا وجهه في الجنَّة ، وأحيانا على ملَّته ، وأماتنا عليها ، وبعثنا عليها ، وإنَّه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكادوا يسمعون منه ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناسٌ من الطائف من قريش ، لهم أموال ، أنكر ذلك عليه النَّاس واشتدُّوا عليه وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامَّة النَّاس ، فتركوه إلَّا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدَّر الله أن يمكث ، ثُمَّ ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتَّبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلمَّا فعل ذلك بالمسلمين ، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النَّجاشي ، لا يُظْلَم أحد بأرضه ، وكان يثنى عليه مع ذلك ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يتَّجرون فيها ، وكانت مسكناً لتجارهم ، يجدون فيها رفاغاً[1] من الرِّزق وأمناً ومتجراً حسناً ، فأمرهم بها النبيُّ ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما

---

(١) الرَفْغُ : السعةُ والخصبُ ، يقال رَفُغَ عيشُه بالضم رَفاغَةً : اتّسع ، فهو عيش رافع ورفيع ، أي : واسعٌ طيِّبٌ . انظر : الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٣٢٠ .

قهروا بمكة ، وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثُمَّ إِنَّهُ فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى ، هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها ، وفراراً ممَّا كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلمَّا استرخي عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أَنَّهُ قد استرخي عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون ، فرجعوا إلى مكة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون ، وأَنَّهُ أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلمَّا رأت قريش ذلك ، تآمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا ، فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الأخيرة ، فكانت فتنتان : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة ، حين أمرهم النبيُّ ﷺ بها ، وأذن لهم في الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ، ثم إنَّه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً ، رؤوس الذين أسلموا ، فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم على أنا منك وأنت منَّا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا ، فإنَّا نمنعك ممَّا نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، وخرج هو ، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[١][٢] .

فكان نُزول هذه الآية الكريمة إذنٌ بقتال المشركين الذين وقفوا أمام انتشار دعوة التوحيد وتبليغ الرِّسالة وصد الناس عن دين الله وبيته الحرام .

ويُلاحظ من رواية عروة أنَّ المشركين في مكة فتنوا المسلمين فتنة عظيمة وزلزلوهم زلزالًا شديداً ، وحاربوهم وأخرجوهم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا ، وما نقموا من النبيِّ ﷺ وأصحابه إلا أن قالوا ربنا الله ، وإنَّما جاء الإسلام ليكون الدِّين كله لله ، والأمر بعبادته وحده ، والكفر بجميع الطواغيت التي تعبد من دونه سبحانه .

ولـمَّا كانت مكَّة -آنذاك- مركزًا للوثنيَّة والطُّقوس الشركيَّة في جزيرة العرب ، من خلال سيطرة المشركين على مناسك الحجِّ ومشاعره ، وتسليم النَّاس على أنَّ قريش حُماة البيت وأهله وصفوة ولد إسماعيل ، لذلك كان النَّاس في جزيرة العرب تبعًا لهم ، أضف إلى ذلك شدَّة عداوتهم للدعوة التي جاء بها النبيُّ ﷺ وتزعمهم محاربة دين الله وصدِّهم عنه ، لهذا كله كان النبيُّ ﷺ يُركِّز في جهاده على مركز الشرك ودولته من خلال الضغط المستمرِّ على قريش لضرب اقتصادها وإضعاف قوَّتها ؛ قاصدًا إسقاط راية الشرك الَّتي هيمنت على سكان جزيرة العرب ، لذلك انطلقت السَّرايا والغزوات لمحاربة مشركي مكة

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٣٩) .

(٢) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٣/ ٥٤٠ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ٥٧ .

والتضييق عليهم ، واعتراض قوافلهم التجارية ، وضرب اقتصادهم ، وإظهار قوة المسلمين العسكريَّة ، والشُّعور بالعزَّة ونصرة المستضعفين ، وقمع الغزاة والطامعين ، وحماية الدَّعوة من المعتدين ، ونشر التوحيد في الأرض ، وإقامة الدين ، فكان لا بُدَّ أن يضيق على المشركين الخناق في مكة حتى يرضخوا للسِّلم والمهادنة ، ويقلعوا عن الظُّلم والعدوان .

فلما عَلِمَ رسول الله ﷺ بقافلة قريش القادمة من الشام في رمضان في السنة الأولى من الهجرة ، بعث حمزة بن عبدالمطلب على رأس ثلاثين من أصحابه لاعتراضها ، فأدركوا القافلة ناحية العيص(١) ، فمنعوها من التقدم ، وكانت بقيادة أبي جهل في ثلاثمائة من المشركين ، وكاد أن يقع قتال إلَّا أنَّه تدخل مجدي بن عمرو الجهمي(٢) ، وكان حليفاً للفريقين حال دون المواجهة فحجز بينهم(٣) ، فكان هذا أول لواء عقده رسول الله ﷺ لمحاربة المشركين(٤) .

---

(١) العِيصُ : بكسر العين ، ومثناة تحتية ساكنة وصاد مهملة ، واد لجهينة بين المدينة والبحر ، يصب في إضم من اليسار من أطراف جبل الأجرد الغربية ومن الجبال المتصلة به ، ومن حرار تقع بين إضم وينبع ، وفيه عيون وقرى كثيرة . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص٢١٨ .

(٢) مجدي الضَمْري : قال البستي : يقال : إنَّ له صحبة ، وعند أبي عمر في الاستيعاب : غزا مع سيدنا رسول الله ﷺ سبع غزوات ، انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٤٥٩ ، علاء الدين بن قليط مغلطاي (ت: ٧٦٢ هـ) : الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة ، ت : السيد عزت المرسي ، إبراهيم القاضي ، مجدي الشافعي ، مكتبة الرشد ، (د.ط) ، ٢/ ١٤٦ ، برقم (٨٩١) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٥٩٥ .

(٤) قال الحافظ ابن حجر : «وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أنّ النبيَّ ﷺ عقد لعبيدة بن الحارث راية ، وأرسله في سريّة قبل وقعة بدر ، فكانت أول راية عقدت في الإسلام ، =

ثُمَّ بعث رسول الله ﷺ في شوال من العام نفسه عبيدة بن الحارث[١] في ستين راكبًا لاعتراض عير لقريش ، فكان بينهم الرَّمي ، إلَّا أَنَّهُ لم يقع بينهم قتال بالسَّيف[٢] .

وفي ذي القعدة بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقَّاص في عشرين رجلًا يعترضون عيراً لقريش ، فسار بهم حتى بلغوا الخَرَّار[٣] ، فوجدوا العير قد فاتت بالأمس ، وقد عهد رسولُ الله ﷺ إليه أن لا يجاوز الخَرَّار[٤] .

وفي صفر من العام الثَّاني للهجرة خرج رسولُ الله ﷺ غازيًا بنفسه في

=

وأمَّا الواقديّ فذكر أنَّ أوَّل لواء عقده رسول الله ﷺ كان لحمزة . قلت : ويمكن الجمع على رأي من يغاير بين الراية واللواء . والله أعلم» . ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٤/ ٣٥٢ .

(١) عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبدمناف بن قصي القرشي المطلبي ، يكنى أبا الحارث ، كان أسنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين ، وكان إسلامه قبل دخول رسول اللهِ ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وقبل أن يدعو فيها ، وكان لعبيدة بن الحارث قدر ومنزلة عند رسول الله ﷺ ، قال ابن إسحاق : راية عُبَيْدَة أول رايةٍ عقدها رسول اللهِ ﷺ فِي الإسلام ، شهد بدراً ، ومات بالصفراء على ليلةٍ من بدر . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٠٢٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٥٢ .

(٢) انظر: عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ٥/ ٣٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٧٢ .

(٣) الخرّار : بفتح أوله وتشديد الراء ، موضع بالحجاز ، واختلفوا في تحديده مع تباعد الأقوال ، فواحد يقول : عند خيبر ، وآخر يقول : بالجحفة . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٠٧-١٠٨ .

(٤) انظر : ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ٢١٦.

سبعين رجلًا يعترض عيراً لقريش ، فسار حتى بلغ الأبواء[١] ، فلم يلق كيداً إلَّا أنَّهُ في هذه الغزوة وادع بني ضمرة[٢] من كنانة على أن لا يعينوا عليه أحداً ، ثُمَّ كتب بينهم كتاباً ، ثُمَّ رجع[٣] ، فأزعج هذا الأمر مشركي قريش وأقلقهم .

وفي شهر ربيع الأوَّل خرج رسولُ الله ﷺ غازياً ، واستعمل على المدينة السَّائب بن عثمان بن مظعون[٤] ، فسار رسولُ الله ﷺ حتى بلغ بواط[٥] ، يعترض عيراً للمشركين ، ثُمَّ رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ،

(١) الأبواء : واد من أودية الحجاز ، به آبار كثيرة ومزارع عامرة والمكان المزروع منه يسمى اليوم «الخريبة» ، ويبعد عن بلدة «مستورة» شرقاً ٢٨ كيلًا ، ويقال إن بالأبواء قبر آمنة أم الرسول ﷺ ، وأول الغزوات كانت غزوة الأبواء بعد اثني عشر شهراً من مقدم الرسول ﷺ المدينة . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٧ .

(٢) بطنٌ مِنْ كِنانة بن خزيمة من العدنانيَّة ، وهم : بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، من ديارهم : المرّود ، وهو موضع بين الجحفة وودّان والبزواء ، وهي أرض بيضاء مرتفعة من الساحل بين الجار وودّان ، من أشد بلاد الله حرًا . وَلَد ضمرة بن بكر بن عبد مناة : كعب وجديّ ومليل وعوف وحندب . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١٨٦ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٦٦٧ .

(٣) عبد الرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٥/ ٣٦ .

(٤) السَّائب بن عثمان الجمحي ، صحابي ، من ذوي الرأي والإقدام ، ولَّاه رسول الله ﷺ على المدينة حين برحها في غزوة (بواط) ، وشهد بدراً وأحداً والخندق ، وكان من الرماة المعدودين ، وعاش إلى يوم اليمامة فاستشهد يومها عن بضع وثلاثين سنة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٥٧٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٢٠ .

(٥) بواط : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى (ينبع) غزاه النبي ﷺ في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من الهجرة ، يريد قريشاً فرجع ولم يلق كيداً ؛ وفي بعض الروايات =

فما إن عاد رسول الله ﷺ من غزوة بواط حتى أغار كرز بن جابر الفهري[(١)] في عدد من المشركين على سرح المدينة ، وكان يرعى بالجماء[(٢)] فنهبه ، فخرج رسولُ الله ﷺ في بعض أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادي سفوان[(٣)] إلَّا أنَّه أفلت ، فرجع رسولُ الله ﷺ دون حرب[(٤)] .

وفي جمادى الأولى من العام نفسه جاء الخبر لرسول الله ﷺ بخروج عير فيها أموال قريش ذاهبة للشَّام ، فخرج رسولُ الله ﷺ في مائتين من المهاجرين يعترضونها ، فسار حتى بلغ العشيرة[(٥)] ، فوجد العير قد فاتت =

= أبواط . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٥٤ .

(١) كرز بن جابر بن حسيل بن فهر بن مالك القرشي الفهري ، أسلم بعد الهجرة ، قال ابن إسحاق : أغار كرز على سرح المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه ، حتى بلغ واديًا يقال له : سفوان ففاته كرز . ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم الفتح سنة ثمان من الهجرة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٤٤٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ٤٣٤ .

(٢) الجَمَّاء : في المدينة ثلاث جمَّاوات في الجهة الجنوبية الغربية ، وهي متقاربة متجاورة ، وهي : جماء تضارع وجماء العاقر ، والثالثة كانت تدعى جماء أم خالد . وجماء تضارع هي التي تجعلها على يمينك وأنت تخرج من المدينة على طريق مكة ، وعلى يسارك حينئذ قصر عروة ، فهي تفيء إليه العشي ، وإذا أطلق اسم الجماء فهي المقصودة اليوم . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٨٤ .

(٣) سفوان : وادٍ من ناحية بدر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٢٢٥ .

(٤) المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ١٣٩ .

(٥) العشيرة : تصغير عشرة ، يضاف إليه «ذو» ، فيقال : «ذو العشيرة» وهي من ناحية ينبع بين مكة والمدينة ، إليه تنسب غزوة النبي ﷺ المشهورة ، وهي قرية عامرة بأسفل ينبع النخل ، ثُمَّ صارت محطة للحاج المصري هناك ، وبها مسجد يقولون =

بأيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين قدمت من الشَّام ، وقد كانت سبباً في وقوع معركة بدر الكبرى[(١)] .

فلمَّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعث عبدالله بن جحش الأسدي[(٢)] في رجب من السَّنة الثَّانية للهجرة في عدد من المهاجرين يرصدون عيراً لقريش ، فساروا حتى بلغوا نخلة بين مكة والطائف ، فمرَّت العير تحمل زبيباً وأدماً وتجارة ، وفيها نفرٌ من المشركين ، منهم : عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل أبناء عبدالله بن المغير ، فتشاور المسلمون وقالوا : والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، وكانوا في آخر ليلة من رجب ، ولئن قتلتموهم لتقتلنَّهم في الشَّهر الحرام ، فتردَّدَ القوم ثُمَّ أجمعوا على القتال ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان ، وهرب البقيَّة ، وأقبلوا بالعير والأسيرين ، فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال في الشَّهر الحرام ، فوجد

=

إنَّهُ مسجد رسول الله ﷺ . قال الجاسر : وقد اندرس هذا الموضع ، ويقع بقرب عين البركة التي لا تزال معروفة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١٢٧ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٩٢ .

(١) انظر : ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٢/ ١٩٧.

(٢) عبدالله بن جحش بن رياب بن أسد بن خزيمة ، أمه أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ ، وهو حليف لبني عبدشمس ، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وهاجر الهجرتين إلى أرض الحبشة ، ثُمَّ هاجر إلى المدينة ، وأمَّره رسول الله ﷺ على سرية ، وهو أول أمير أمَّره ، وغنيمته أول غنيمة غنمها المسلمون ، شهد بدراً ، وقتل يوم أحد . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٣/ ١٩٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣١ .

المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنَّهم أوقعوا القتل في الشَّهر الحرام ، وسفكوا الدَّم فيه ، وأخذوا المال وأسروا الرِّجال ، ووقع للمسلمين من ذلك حرج ، فأنزل الله عز وجلَّ في ذلك : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[١] . فلمَّا نزلت هذه الآيات فُرِّج عن المسلمين ، فقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ثُمَّ فدتهما قريش[٢] .

ونتيجة لذلك تحقَّق خوف قريش وباتوا أمام خطر لم يعهدوه ، الأمر الذي أقضَّ مضاجعهم ، وقد علموا أنَّ المسلمين استهدفوا رحلاتهم التجارية التي كانت قريش تنعم بها وتتباهى ، لما هيَّأ الله لها من نعمة الأمن والرَّخاء الذي تفضَّل عليها به ، في قوله تعالى : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[٣] ، فكانت قريش قد ألفت واعتادت رحلة الشِّتاء إلى بلاد اليمن ، ورحلة الصَّيف إلى بلاد الشَّام ، للتِّجارة الرَّابحة والآمنة ، وعدم التعرُّض لقوافلهم التجارية من سائر القبائل العربية نظراً لمكانتهم الدِّينية ومنزلهم من بيت الله الحرام ، وقوامهم عليه ، الأمر الذي أكسبهم مهابةً في قلوب النَّاس ، أضف إلى ذلك ما أوقع الله لأصحاب الفيل ، حين أرادوا الاعتداء على حرم الله فأهلكهم

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢١٧) .
(٢) البيهقي : دلائل النبوة ، ٣/ ١٨ .
(٣) سورة قريش ، الآيات : (١-٤) .

شرَّ هلاك ، فكان لهذا الحدث العظيم أثر في نفوس النَّاس ، فلمَّا كفرت قريش وأبت إلَّا الشرك وظاهرت على رسول الله ﷺ وحاربت دين الله كان أوَّل ما سلب الله منها نعمة الأمن والرَّخاء ، وسلَّط الله عليهم رسوله والمؤمنين لذهاب أمنهم وضرب تجارتهم واقتصادهم ، فشقَّ ذلك على قريش بعد أن تأكَّدوا أنَّ المسلمين يترقَّبون لكُلِّ حركةٍ من حركاتهم التِّجارية ، وأنَّ المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى مسافات بعيدة يعترضون قوافلهم ويأسرون رجالهم ويأخذون أموالهم ، ويرجعون سالمين غانمين ، وأمام هذه الإنذارات من الله ورسوله قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[1] ، وفي المقابل بدل أن تُفيق قريش من غيِّها وتُقلع عن محاربة دين الله إلَّا أنها زادت حقداً وغيظًا وصمَّم صناديدها وسادتها على حرب الإسلام وقتل المسلمين وإخراجهم من بلادهم ونهب أموالهم التي كانت في مكة ، والصدِّ عن سبيل الله والكفر والتكبُّر والعناد ، لذلك فرض الله الجهاد ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] . فتوالى نزول الآيات التي تحثُّ على محاربة

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٣٨) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : (١٩٠-١٩٣) .

المشركين ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، بعد رجوع رسول الله ﷺ من غزوة العشير ، وكان رسولُ الله ﷺ يتحيَّن عـودة عير قريش من الشَّام ، لذلك بعث طلحة بن عبيدالله ، وسعيد بن زيد[١] ؛ لترصُّد خبر القافلة ، فسارا إلى الحوراء[٢] ، ومكثا حتى مرَّ بهما أبوسفيان في العير ، وكانت قرابة ألف بعير ، فيها أموال قريش وثرواتها ، فلمَّا علم رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليها وقال : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلكموها»[٣] ، فانتدب النَّاس فخفَّ بعضهم ، وثقل بعض ، وذلك أنَّهم لم يظنوا أنَّ رسول الله ﷺ يلقى حربـًا ، فخرج رسول الله ﷺ فسلك الطريق المؤِّدية إلى بدر ، فلمَّا علم أبوسفيان بذلك استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، وأمره أن يستنفر قريشـًا ويخبرهم أنَّ محمداً

---

(١) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى العدويّ ، أحد العشرة ، وأمّه فاطمة بنت بعجة الخزاعيّة ، كانت من السّابقين ، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وهاجر وشهد أحداً والمشاهد بعدها ، ولم يكن بالمدينة زمان بدر ، فلذلك لم يشهدها . قال الواقديّ : توفي بالعقيق ، فحمل إلى المدينة ، وذلك سنة خمسين ، وعاش بضعـًا وسبعين سنة ، انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٤١٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٨٧ .

(٢) الحوراء : بفتح أوله ، ممدود ، تأنيث أحور : فرضة من فرض البحر تلقاء ينبع تحديدا شمال أملج ، ترفأ إليها السّفن من مصر قديما . عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت: ٤٨٧هـ) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٣هـ ، ٢/ ٤٧٤ .

(٣) انظر : الواقدي : محمد بن عمر السهمي (ت: ٢٠٧هـ) : المغازي ، ت: مارسدن جونس ، دار الأعلمي - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، ١/ ٢٠ ، الطبري : جامع البيان ، ١٣/ ٣٩٤-٣٩٥ ، تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ٤٢٧ .

قد عرض لعيرهم وأموالهم[١] ، فلمَّا بلغ قريش الخبر خرجوا مسرعين بخيلهم ورجلهم على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتل ، معهم مائتا فرس ، ومعهم القيان يضربن بالدُّفوف ، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بمسير جيش قريش وهو في ذفران[٢] ، فاستشار النَّاس في المواجهة ، فقام أبوبكر فقال وأحسن ، وقام عمر فقال وأحسن ، ورسول الله ﷺ يقول : «أَشِيْرُوا عَلَيَّ أَيُّها النَّاس» ، فقال سعد بن معاذ[٣] : والله لكأنَّك تريدُنا يا رسول الله ، قال : «أَجَلْ» ، فقام سعد بن معاذ فقال : والَّذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد[٤] لفعلنا ، فسُرَّ رسول الله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٦٠٧ .

(٢) ذَفران : بفتح الذال المعجمة وكسر الفاء ، موقع له ذكر في مسير الرسول ﷺ إلى بدر ، ولا زال المكان معروفاً يأخذه الطريق من الحمراء -بوادي الصفراء- إلى ينبع . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ١٣١ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٢٠ .

(٣) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأوسي الأنصاري ، صحابي من الأبطال ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر ، شهد أحداً ، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً ، ورمي بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه ، ودفن بالبقيع ، وعمره (٣٧) سنة ، وحزن عليه النبي ﷺ وفي الحديث : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموتِ سعد بن معاذ» . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات ، ٣/ ٢ ، أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ٣/ ١٢٤١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٧٠ .

(٤) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليال ، وقيل : بلد باليمن . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٩٩ ، وفي : الروض الأنف : ٣/ ٤٥ : أنها مدينة بالحبشة .

ﷺ وندب النَّاس[١] .

ثُمَّ سار رسول الله ﷺ حتى نزل بدراً[٢] ، أمَّا أبوسفيان فكان شديدَ الحذر ، فتقدَّم عيره يتحسَّس فلمَّا كشف الخبر رجع إلى الرَّكب فصفق بها نحو السَّاحل غربـًا تاركـًا الطريق الرئيسي ، وبهذا نَجَى أبوسفيان بالقافلة ، قال تعالى : ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] .

فلمَّا وصل رسول الله ﷺ بدراً عسكر بالعدوة الدُّنيا ، ونزل جيش المشركين بالعدوة القصوى ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهمَّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذِّب رسولك ، اللهمَّ نصْرَكَ الذي وعدتني ، اللهمَّ فأحنهم الغداة»[٤] ، ثُمَّ تواجه الفريقان ، ووقعت معركة من أعظم المعارك بين الإسلام والشرك ، قتل من صناديد المشركين

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسِّير ، ٣/ ١٤٠٣ ، برقم (١٧٧٩) .

(٢) بدر : ماء مشهور بين مكة والمدينة ، أسفل وادي الصفراء ، ويقال : إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وسميت بها الواقعة المباركة وهي اليوم بلدة بأسفل وادي الصفراء ، تبعد عن المدينة (١٥٥) كيلًا وعن مكة «٣١٠» أكيال ، وتبعد عن سيف البحر قرابة «٤٥» كيلا ، وكان ميناؤها الجار ، فلما اندثرت قامت بالقرب منها بلدة «الرايس» ومنها اليوم يجلب السمك . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٥٧ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص :٤١ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٤٢) .

(٤) الواقدي : المغازي ، ١/ ٥٩ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٣/ ٣٥ .

سبعون وأُسر سبعون ، ونَصَرَ الله نبيَّه ، وأعزَّ جنده ، وانهزم المشركون شرَّ هزيمة . فكانت هذه المعركة أوَّل حرب قضت على رؤوس الشرك وطواغيته المعاندين لله ورسوله ، أمثال أبي جهل وعتبة وشيبة وأميَّة والنَّضر وعامَّة زعمائهم ، كما أنَّ هذه المعركة كانت معركة فاصلة بين الحقِّ والباطل ، وقد أكسبت المسلمين نصراً كبيراً شهد له العرب قاطبة ، الأمر الذي كسر الله به شوكة المشركين ، وجعل للمسلمين العزَّة والمهابة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] .

فنتج عن هذا الانتصار قوَّة المسلمين وظهورهم الأمر الذي أقضَّ كيان قريش الدِّيني والاقتصادي وأرعبهم ، ثُمَّ عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بالأسرى والغنائم ، وقد نصر الله نبيَّه وأعلى شأنه وأعزَّ جنده ، وأذلَّ أعدائه من المشركين واليهود والمنافقين ، إلَّا أنَّ الأعراب الذين تقوم حياتهم على السَّلب والنَّهب لمَّا سمعوا بهذا النَّصر وكثرة الغنائم اجتمع أعدادٌ كبيرةٌ من بني سليم فحشدوا الحشود لغزو المدينة ، فلمَّا بلغ رسولَ الله ﷺ هذا النبأ خرج عليه السلام في مائتي راكبٍ مباغتاً لهم ، وبلغ إلى منازلهم في موقع يقال له : الكُدْر[٢] ففرَّ بنو سليم وتركوا إبلاً

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٧) .

(٢) كُدْر : بضم الكاف وسكون الدال ، ويضاف إليه قرقرة ، فيقال : قرقرة الكُدْر ، القرقرة : أرض ملساء . والكُدْر : طير في لونه كدرة . جاء ذكره في غزاة إلى بني سليم ، قال العارفون : وهي بالتحديد : إذا سرت من المدينة فكنت بين الصويدرة ، والحناكية ، تؤم القصيم فهي على يمينك . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم =

كثيرة استولى عليها المسلمون ، وأقام النبيُّ ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ثُمَّ رجع إلى المدينة غانماً[١] .

ومن هذه الأحداث يظهر أنَّ النبيَّ ﷺ كان يركِّز في جهاده على مركز الشرك ودولته من خلال الضغط المستمر على قريش لضرب اقتصادها وإضعاف قوَّتها ؛ ويلاحظ أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يعتدي على أيٍّ من القبائل الأخرى المجاورة ما لم يقع منهم عدوان أو اعتداء أو عزم على غزو المسلمين .

ومِن ذلك أن النَّبيُّ ﷺ لما نزل المدينة عاهد قبائل اليهود الَّتي استوطنت المدينة وما حولها ، وكتب بينه وبينهم كتاباً وعاملهم بأحسن ما يكون ، لكن لمَّا أَبْدَتْ نواياها في التَّآمر على الإسلام وأهله ونقضوا العهد وأظهروا العداء الشّديدَ عزم النَّبيُّ ﷺ وحثَّ صحبه على محاربتهم ، فكان أول ما صنعوا أنه لما انتصر رسول الله ﷺ في غزوة بدر وعاد إلى المدينة أظهرت يهود بني قينقاع[٢] العداوة ، فكانوا يتهكَّمون ويستهزئون ويتحرَّشون بالمسلمين ، حتى إنَّ أحدهم قام إلى امرأة مسلمة

=

الأثيرة ، ص : ٢٣١ .

(١) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢١٢ .

(٢) قَيْنُقَاع -بالفتح ثُمَّ السُّكون وضَمِّ النُّون وفتحها وكسرها كلٌّ يُروَى ، والقاف وآخره عين مهملة- : وهو اسمٌ لشعبٍ من اليهود الَّذين كانوا بالمدينة . وهُم أوَّل يهودٍ نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ . وأموالهم أوَّل أموالٍ خمست بعد بدر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٤٢٤ ، وموفق الدين أبو ذر سبط ابن العجمي (ت : ٨٨٤هـ) : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، دار القلم ، حلب ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ ، ٢/ ٧٢-٧٣ .

وهي لا تشعر فعلَّق درعها في أعلى ثوبها فانكشفت عورتها ، فقام له رجلٌ مسلم فقتله ، ثُمَّ اجتمع اليهود على الرَّجل فقتلوه ، فنقضوا العهد وأعلنوا الحرب ، وأصبح وجودهم خطراً ، فسار إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة[١] .

ولا شكَّ أن اليهود من أشدِّ النَّاس عداوة لدين الله فقد أخبر الله تعالى أنَّهم كانوا يؤيِّدون المشركين على شركهم ، ويزعمون أنَّ كفار قريش وما هم فيه من الشرك والوثنية على طريق أقوَم وأهدى من طريق المسلمين ، قال تعالى عنهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾[٢] ، واستمر المسلمون بقيادة النبيِّ ﷺ يذودون عن حمى التوحيد وأهله ويسعَون لنشر الأمن والاستقرار في المنطقة وتأمين طريق الدعوة .

وفي محرَّم من العام الثالث الهجري بلغ رسول الله ﷺ خبر تجمُّع أعداد كبيرة من بني ثعلبة ومحارب لغرض الإغارة على المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ مُسرعًا في أربعمائة وخمسين مقاتلًا ، وما إن بلغ أرض العدو بذي أَمَر[٣] حتى لاذوا بالفرار ، وتفرَّقوا في شعاف الجبال ، فأقام

---

(١) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ١٢٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٤/ ١٧٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية : (٥١) .

(٣) ذَا أَمَر : بفتح الأول والثاني ، موضع غزاة رسول الله ﷺ ، من ناحية النَّخيل بنجد من ديار غطفان ، والنَّخيل : بلدةٌ ووَادٍ شمال الحناكيَّة غير بعيد ، إذا سرت من المدينة على طريق نجد فقطعت مسافة نحوًا مِنْ تسعين كيلًا فرق درب النَّخيل يسارك ، وهو =

رسول الله ﷺ بذي أمر صفراً كُلَّه[١] ثُمَّ رجع سالمـًا إلى المدينة .

وفي شهر ربيع الآخر من العام نفسه خرج رسول الله ﷺ يريد قريشـًا ، فسار حتى بلغ بحران[٢] ، معدنٌ بالحجاز من ناحية الفُرُع[٣] ، فأقام بها ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثُمَّ رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[٤] .

فكلُّ هذه التحرُّكات الحربيَّة هي لتحقيق القوَّة والعزَّة وموادعة القبائل المحيطة ، لذلك بدأ يساور قريش القلق والاضطراب ، فلمَّا قرب موسم رحلتهم إلى الشام أصابهم كربٌ عظيم ، فاجتمعت لذلك قريش فقال صفوان بن أميَّة[٥] وقد انتخبه المشركون لقيادة تجارتهم في هذه

=

مِن هناك على قرابة خمسة عشر كيلا . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٣٣ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٣٢ .

(١) البيهقي : دلائل النبوة ، ٣/ ١٦٧ .

(٢) بُحْران : بضم الباء الموحدة ، وسكون الحاء المهملة ، جبل يضرب إلى الخضرة والسمرة ، بين وادي حجر المعروف قديما بالسائرة ، ومر عنيب المعروف اليوم بمر وبوادي رابغ ، يقع بحران عند التقائهما ، يفترقان عنه يقع شرق مدينة رابغ على مسافة (٩٠) كيلًا وهو في ديار زبيد من حرب . انظر : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٤٠ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٤٤ .

(٣) الفرُع : بضم الفاء والراء ، وآخره عين مهملة ، قرية من نواحي المدينة عن يسار السقيا ، بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٥٢ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦ .

(٤) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥/ ٣١٧ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٢٢ .

(٥) صفوان بن أميّة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، وحكى الزبير أنه كان إليه أمر الأزلام في الجاهلية ، وعن ابن شهاب قال : قالوا بأنه هرب يوم فتح مكة ، =

الرحلة : إنَّ محمداً وصحبه قد عَدَوا علينا وأفسدوا علينا تجارتنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون السَّاحل ، وأهل السَّاحل قد وادعوهم وجل عامته معه ، وما ندري أين نسلك ، فإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء ، وإنَّما حياتنا بمكة على التِّجارة ، وطال النِّقاش حول هذا الأمر ، فقال الأسود بن عبدالمطلب لصفوان : تنكَّب عن طريق السَّاحل وخذ طريق العراق وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً ثم تنعطف إلى الشام بعيد جداً عن المدينة ، وكانت قريش تجهل هذا الطريق ، فأشار الأسود على صفوان أن يتَّخذ فرات بن حيان[1] دليلًا له ورائداً في هذه الرِّحلة ، فتمَّ الأمر وخرجت عير المشركين يقودها صفوان بن أمية متَّجهة إلى نجد[2] ، بلغ رسولَ الله ﷺ

=

وأسلمت امرأته وهي ناجية بنت الوليد بن المغيرة ، قال : فأحضر له ابن عمه عمير بن وهب أمانا من النبيِّ ﷺ فحضر ، وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم ، وردَّ النبيُّ ﷺ امرأته بعد أربعة أشهر ، ومات بمكة سنة اثنتين وأربعين في أول خلافة معاوية . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٧١٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٣٤٩ .

(١) فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبدالعزى العجلي ، من بكر بن وائل بن ربيعة ، حليف أبي سفيان بن حرب ، قال النبي ﷺ : إن منكم رجالًا أكلهم إلى إيمانهم ، منهم فرات بن حيان ، وكان من أهدى الناس بالطرق . محمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم البستي (ت: ٣٥٤هـ) : الثقات ، طبع وزارة المعارف الهندية ، د.محمد خان ، الهند ، ط : ١ ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، ٣/ ٣٣٣ .

(٢) نَجْد : بفتح النون وسكون الجيم ثم دال مهملة ، كلُّ ما علا من الأرض فهو نجد ، وأصقاع نجد المعروفة في أيامنا : الرياض وما حولها ، والقصيم وسدير والأفلاج واليمامة والوشم وحائل ، والقدماء قد يعدّون ما كان على مسافة مائة كيل من شرقي المدينة نجداً . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص :
=

خبر هذه القافلة ومخرجها من مكة ، فجهَّز لوقته حملةً قوامها مائة راكب ، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة[١] رضي الله عنه ، انطلق زيدٌ مسرعًا مخترقًا نجد حتى دهم القافلة على حين غرَّة ، وهي تنزل على ماءٍ يقال له قَرْدَة[٢] بأرض نجد ، فاستولى عليها ، فما كان من صفوان ومن معه إلَّا أن فرُّوا هاربين دون أي مقاومة[٣] .

وكانت هذه القافلة التي غنمها المسلمون تحمل أموالًا عظيمة تُقَدَّر بمائة ألف ، وكانت هذه الحادثة مأساة ونكبة أصابت قريش بعد بدر ، وأصبحوا في حصار واسع ، لا تخرج لهم قافلة من مكة أو تعود إلَّا اعترضها المسلمون ، فانقطعت رحلة الشتاء والصيف التجارية ، الأمر الذي سبَّب غلاءً وفاقةً شديدة بشكل عام ، وتوالت النَّكبات على قريش ، وبات أهل مكة رجالًا ونساءً يحترقون غيظًا على المسلمين ، فقد فقدوا أشرافهم وأموالهم وضُيِّق عليهم من كلِّ مكان ، فأخذت نزعات الانتقام والأخذ بالثأر تجيش في نفوسهم . وكان لاعتراض قوافل

=

٣١٢ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٨٦ .

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبدالعزى ، سيد الموالي ، وأسبقهم إلى الإسلام ، وحب رسول الله ﷺ ، المسمى في سورة الأحزاب ، توفي في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة ، ودعا له الرسول ﷺ . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢٧٩-٢٨٢ ، النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، ١/ ٢٠٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٤٩٤ .

(٢) قَرْدَة : وزن سجدة ، ماء من مياه نجد ، كان به سرية زيد بن حارثة ، ومات بها زيد الخيل . انظر : محمد بن حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٢٤ .

(٣) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، دار العصماء - دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ ، ص : ١٧٩ .

قريش أهدافٌ ، منها :

أولًا : أنَّ جهاد النبيِّ ﷺ وأصحابه لمشركي قريش يُعَدُّ وسيلةً من وسائل الدَّعوة إلى الله لكونهم وقفوا دونها ، فنشر التَّوحيد يحتاج لقمع المشركين وإضعاف قوَّتهم لاجتثاث الشرك ومظاهره وتطهير بيته الحرام من تلك الأصنام القابعة تحت حماية قريش ورعايتها .

ثانيًا : استرداد الأموال التي نهبها المشركون حين أخرجوا المسلمين من ديارهم ، واستولوا على بيوتهم وسلبوا حقوقهم فعامَّة الصَّحابة هاجروا ولم يأخذوا من أموالهم شيئًا .

ثالثًا : نصرة المستضعفين ورَدُّ اعتبارهم وصدُّ عدوان مشركي قريش ، فهم من بدأ بالعداوة والفتنة ومحاربة دين الله ، ولم يأذن الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين في محاربتهم إلَّا بعد حين .

وعلى إثر هزيمة المشركين في غزوة بدر أجمعت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضدَّ المسلمين ، فأخذت في الاستعداد لمعركة تستأصل فيها الإسلام ، لذلك أوقفوا جميع الأموال التي نجت في عير أبي سفيان لهذه الحرب الانتقاميَّة ، ثُمَّ فتحوا باب التطوُّع لكُلِّ من أحبَّ غزو المسلمين من كنانة وأهل تهامة وغيرهم ، وما إن استدارت السَّنة إلَّا وقد اجتمع إليهم من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل على ثلاثة آلاف بعير ومائتي فرس ، وسبعمائة درع ، ثُمَّ تحرَّكوا نحو المدينة[1] .

وكان العباس بن عبدالمطلب[2] يرقب حركات قريش ، فلمَّا تحرَّك

---

(١) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ١٨٢ .

(٢) العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ، عم رسول الله ﷺ ، قيل : إنه أسلم قبل الهجرة ، =

الجيش بعث برسالة مستعجلة إلى النبيِّ ﷺ ، فحين علم رسولُ الله ﷺ الخبر بادل الرَّأي مع قادة المهاجرين والأنصار ، واستقرَّ الرَّأي في بادئ الأمر أن يقاتلوهم من داخل المدينة وظلَّت المدينة في حالة استنفار واستعداد تامٍّ لأيِّ مباغتةٍ من المشركين ، فلمَّا قَرُبَ الجيش على مشارف المدينة بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممَّن فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبيِّ ﷺ بالخروج ، وألحُّوا عليه ، فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ العصر بالنَّاس دخل بيته وتدجَّج بسلاحه ولبس أدرعه وتقلَّد سيفه ، ثُمَّ خرج على النَّاس ، عندها ندم الصحابة على إكراه رسول الله ﷺ ولاموا أنفسهم على ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نُخالفك ، فقال رسول الله ﷺ : «ما يَنْبَغِي لنبيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا»[١] ، ثُمَّ خرج رسولُ الله ﷺ لملاقاة المشركين خارج المدينة ، وسار بالجيش

=

وكتم إسلامه إلى أن أُسر ببدر فأظهره ، أقام بمكة يكتب إلى الرسول ﷺ أخبار المشركين ، ثُمَّ هاجر إلى المدينة ، قدم الشام مع عمر بن الخطاب ، كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، قال الرسول ﷺ في وصفه : «أجود قريش كفًّا وأوصلها ، هذا بقية آبائي» ، شهد وقعة حنين حيث ثبت عند ما انهزم الناس ، وشهد فتح مكة ، توفي عام ٣٢هـ/ ٦٥٣م ، كان محسناً ، سديد الرأي . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٤/ ٣ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٨١٠ ، محمد بن مكرم بن على ابن منظور (ت: ٧١١هـ) : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ت : روحية النحاس ، رياض مراد ، محمد مطيع ، دار الفكر للطباعة ، دمشق - سوريا ، ط : ١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م ، ١١/ ٢٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٥١١ .

(١) أخرجه الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، ٢/ ١٤١ ، كتاب قسم الفيء ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والبيهقي : السنن الكبرى ، كتاب النكاح ، باب لم يكن له إذا لبس لأمته أن ينزعها ، ٧/ ٦٥ ، واللَّفظ له .

وقُوَامُه ألف مقاتل ، فلمَّا تراءى الجمعان انسحب رأس المنافقين عبدالله بن سلول[١] بثلث الجيش بحجَّة أنَّهُ كان يرى عدم الخروج من المدينة ، وأنَّ الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره ، وهذا العمل سبَّب اضطراباً في صفوف المسلمين ، فكادت بنو الحارث من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج أن تفشل وتنسحب لولا أن ثبَّتهم الله ، قال تعالى : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] . فواصل رسول الله ﷺ ببقيَّة الجيش حتى نزل الشِّعب من جبل أحد ، فعبَّأ جيشه وانتخب مجموعة من الرُّماة المهرة ، قوامهم خمسون رامياً ، وأمرهم أن لا يغادروا مكانهم ، حتى قال رسول الله ﷺ وهو يؤكِّد : «إنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّير فَلا تَبْرَحُوا مَكَانكُم هَذَا حتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُم ، وإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ ووطِئْنَاهم ، فلا تَبْرَحُوا حتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُم»[٣] .

ثُمَّ تقارب الجمعان ، وبدأت المبارزة ، ثُمَّ اندلعت الحرب ، واشتبك

---

(١) عبدالله بن أُبَيّ المشهور بابن سلول ، وسلول جدَّتُه لأبيه ، من خزاعة ، رأس المنافقين في الإسلام ، كان سيد الخزرج ، أظهر الإسلام بعد وقعة بدر تُقْيَة ، ولما تهيأ النبي ﷺ لوقعة أحد انخزل أُبَيّ وكان معه ثلاثمائة رجل ، فعاد بهم إلى المدينة ، وفعل مثل ذلك يوم تبوك ، وكان كلَّما حلَّت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلَّما سمع بسيئة نشرها ، ولما مات تقدَّم النبي ﷺ فصلَّى عليه ، مات سنة ٩ للهجرة . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ١٣٣ ، الزركلي : الأعلام ، ٤/ ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٢٢) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب ما يكره من التنازع.. ، برقم (٢٨٧٤) ، ٣/ ١١٠٥ ، والنسائي في السنن الكبرى ، ت : حسن عبدالمنعم شلبي ، دار مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ ، كتاب السِّير ، باب تمني لقاء العدو ، ٨/ ٣١ ، برقم (٨٥٨١) .

الجيشان ، ودارت معركة شديدة على لواء الشرك حتى أُسقط ، فلا يستطيع أحد أن يرفعه إلَّا قتل ، وبدأت بوادر النصر ، وخيل المشركين لا تقترب من ساحة القتال من شِدَّة الرَّمي ، والمشركون يتساقطون أمام أبطال المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله عزَّ وجلَّ والفوز بإحدى الحسنيين ، فلا يقف أمامهم أحدٌ إلَّا أزاحوه حتى انهزم المشركون وولَّوا الأدبار هاربين ، وتركوا نساءهم وجرحاهم في ساحة المعركة ، فلمَّا رأى الرُّماة هذا النَّصر السَّاحق وانهزام المشركين وأنَّهم لا يلون على أحد أخذتهم نشوة النَّصر فأرادوا المشاركة في جمع الغنائم ، إلَّا أنَّ قائدهم منعهم من ذلك ، لكنَّهم أصرُّوا فخالفوا بذلك أمر رسول الله ﷺ ، وعصوا أميرهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] .

أمَّا خالد بن الوليد[٢] قائد فرسان المشركين في ذلك الوقت كان لا يستطيع الوصول إلى ساحة القتال بسبب قوَّة الرَّمي في وجوه الخيل ونحورها ، الأمر الذي أغاظه فكان يراقب الرُّماة عن كثب ، فما إن رأى اختلال أمر الرُّماة ونزول عامتهم عن مواقعهم حتى التفَّ بسرعة فائقة من الخلف فصعد الجبل وقتل من بقي منهم وكانوا قلَّة .

ثُمَّ انقضَّت الخيل من خلف المسلمين وهم قد تفرَّقوا ما بين مطارد

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٥٢) .

(٢) وستأتي ترجمته عند ذكر سريته .

فلول المشركين وبين من يجمع الغنائم فما راعهم إلَّا وخيل المشركين تحصدهم من الخلف ، ثُمَّ رفع المشركون لوائهم وتنادوا بينهم ، فلمَّا رأوا لوائهم قد ارتفع وأنَّ خيلهم تصول في ميدان القتال قد ركبت أكتاف المسلمين انعكفوا راجعين ، فوقع المسلمون في مأزق عظيم قد انكشفت ظهورهم للعدو ، فاستحرَّ القتل فيهم من الأمام والخلف حتى استشهد من الصحابة رضوان الله عليهم سبعون . وفي هذه اللحظة العصيبة أُشيع خبر أنَّ رسول ﷺ قد قُتل ، فأُسقط في أيدي المسلمين ، وانهارت قواهم ، وتحطَّمت معنوياتهم ، وترك بعضهم القتال ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1] .

ثُمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ في هذه اللحظة الخطيرة تدارك الموقف ونادى المسلمين بأعلى صوته ، هلمَّ إليَّ ، أنا رسول الله ، فكان صوت رسول الله ﷺ بمثابة الرُّوح تعود إلى أجسادهم ، إلَّا أنَّ المشركين كشفوا مكانه ﷺ فمالوا بثقلهم وكرُّوا إليه قبل أن يرجع إليه أحدٌ من المسلمين ، فلم يكن مع رسول الله ﷺ في ذلك الموقف إلَّا تسعة من أصحابه فترَّسوا حوله يفدونه بأرواحهم ، ودار بينهم وبين المشركين عراك عنيف ظهرت فيه نوادر البطولة والحبِّ والتَّضحية ، دافعوا عن رسول الله ﷺ دفاعاً مستميتاً حتى استُشهد سبعةٌ منهم ، كُلُّهم من الأنصار ، وما بقي معه إلَّا سعد وطلحة وأصيب رسول الله ﷺ إصابات بليغة .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٤٤) .

وفي هذا الوقت العصيب اجتمع كوكبةٌ من الصَّحابة منهم أبوبكر ، وعمر ، وعلي وغيرهم فجعلوا من أجسادهم سياجًا حول رسول الله ﷺ حتى لا يخلص إليه أحدٌ من المشركين ، وبدأ رسول الله ﷺ ينحاز إلى أحد شيئًا فشيئًا وأصحابه من حوله حتى اعتلى فيه . فقال أبوسفيان : أعل هُبَل ، يريد أشهر أصنام قريش تلك الأصنام المصنوعة من الحجارة التي يعبدونها من دون الله ويعتقدون نفعها ونصرها ، فأجابه المسلمون بقولهم : الله أعلى وأجل ، فقال أبوسفيان : لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم ، فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم ، يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[١] ، فالنصر والعزة والقوة لله جميعًا .

وهذا الموقف -والله- مِن أعظم المواقف الَّتي علَا فيها مَعْلَم التَّوحيد وانتصر ، ففي أحلك الظروف وأشدِّها يَرَى النبيُّ ﷺ ثمرةَ دعوته أمامه ، فهاهم أصحابه بينه يجأرون بالتَّوحيد ويُفحمون به خصومهم المشركين في موطن ظُنَّ فيه أنَّ الشرك عَلا وانتصر ، كيف لا؟! وربهم عزَّ وجل وعدهم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[٢] .

وما إن اجتمع المسلمون حول نبيِّهم حتى بدأ المشركون بالمغادرة والاكتفاء بما وقع من قتل ، حتى إنَّهم لم يستطيعوا أن يأسروا رجلًا واحداً لما شاهدوه من إقدام المسلمين وقوَّة قتالهم وانتصارهم في بداية

---

(١) سورة الحج ، الآية : (٦٢) .

(٢) سورة محمد ، الآية : (٧) .

المعركـة ، فلمَّـا تحـرَّك جيش المـشركين بالمـسير أرسـل رسـولُ الله ﷺ خلفهم مـن ينظـر الخبر فـإن جنبـوا الخيـل وامتطـوا الإبـل فـإنَّهم يريـدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنَّهم يريدون المدينة ، وعندها قال النبيُّ ﷺ لأصحابه : والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثُمَّ لأُنَـاجِزَنَّهم ، فلمَّـا علـم رسـول الله ﷺ أنَّ وجهـتهم إلـى مكـة انـشغل بالشُّهداء والصَّلاة عليهم ودفنهم[١] .

عاد رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وبات فيها ، وما إن أصبح حتى نـادى رسولُ الله ﷺ بالمسير إلى لقاء المشركين ، وذلك يوم الأحـد الثـامن مـن شـوال مـن الـسَّنة الثَّالثـة للهجـرة ، وقـال : لا يخـرج معنـا إلَّا مـن شـهد القتـال[٢] ، فـانطلق رسـول الله ﷺ يطـارد المـشركين حتَّـى بلـغ حمـراء الأسـد[٣] علـى بُعـد ثمانيـة أميـال مـن المدينـة ، فعـسكر فيهـا ، فلما عَلِـمَ المشركون أنَّ رسولَ الله ﷺ خرج إليهم خـافوا مواجهتـه ثُـمَّ حثُّـوا الـسَّير إلى مكة[٤] .

---

(١) انظـر : الواقـدي : المغـازي ، ١/ ٢٩٨ ، ابـن هـشام : الـسيرة النبويـة ، ٢/ ٩٤ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٢/ ٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥/ ٤٢١ .

(٢) انظـر : البيهقـي : دلائـل النبـوة ، ٣/ ٢١٧ ، الـصالحي : سـبل الهـدى والرشـاد ، ٤/ ٣٠٨.

(٣) حمراء الأسد : بلفظ مؤنث الأحمر مضافة إلى الأسد ، جبل أحمر جنوب المدينة على (٢٠) كيلًا ، إذا خرجت من ذي الحليفة تؤم مكة رأيت حمراء الأسد جنوبـًا . وهي على الضفة اليسرى لعقيق الحسا على الطريق من المدينة إلى الفرع . انظر : يـاقوت الحمـوي : معجـم البلـدان ، ٢/ ٣٠١ ، عـاتق الـبلادي : معجـم المعـالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ١٠٥ ، محمـد حسن شراب : المعـالم الأثيرة ، ص : ١٠٣ .

(٤) انظـر : البيهقـي : دلائـل النبـوة ، ٣/ ٢١٧ ، الـصالحي : سـبل الهـدى والرشـاد ، =

وعاد المشركون إلى مكة بنفوس مهزومة ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] .

أقام رسولُ الله ﷺ في حمراء الأسد أربعة أيام ثُمَّ رجع إلى المدينة ، وما إن ذاع خبر المعركة وسمعت قبائل من المشركين بما وقع للمسلمين من القتل في معركة أحد حتى قامت بنو أسد بن خزيمة[٢] على رأسهم طلحة وسلمة ابني خويلد يتداعون إلى حرب رسول الله ﷺ ، فسارع رسولُ الله ﷺ إلى بعث سريَّة حربيَّة قُوامها مائة وخمسون مقاتلًا بقيادة أبي سلمة[٣] ، فسار إلى ديار بني أسد وباغتهم في ديارهم فهربوا وتفرَّقوا واستولى المسلمون على إبلهم وأغنامهم ثُمَّ عادوا إلى المدينة سالمين

=

٤/ ٣٠٨ .

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : (١٣٩-١٤٠) .

(٢) بنو أسد بن خزيمة : من العدنانية ، كانت بلادهم فيما يلي الكرخ من أرض نجد وفي مجاورة طيئ . انظر : محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٥ .

(٣) عبدالله بن عبدالأسد بن هلال بن مخزوم المخزومي ، أبوسلمة زوج أم سلمة قبل النبيّ ﷺ ، من السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، قال أبونعيم : كان أوَّل مَن هاجر إلى المدينة ، زاد ابن مندة : وإلى الحبشة ، قال ابن سعد : إنه شهد بدراً وأحداً فجرح بها ، ثم بعثه النبيّ ﷺ على سرية إلى بني أسد في صفر سنة أربع ثم رجع ، فانتقض جرحه ، فمات في جمادى الآخرة . انظر : أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ٣/ ١٦٩٦ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ٣٣٩ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ١٣٣ .

غانمين لم يلقوا كيداً[١] .

ومع هذه الأحداث كان يهود بني النَّضير[٢] يسكنون المدينة وكانوا يحترقون غيظاً كُلَّما ظهر المسلمون وانتصروا ، ويبتهجون إذا أصيبوا ، وكانوا أصحابَ دسٍّ ومؤامرات ، إلَّا أنَّهم حين أصاب بني قينقاع ما أصابهم بسبب نقضهم العهد خافوا واستكانوا وسكنوا ، لكنَّهم بعد مصاب المسلمين في غزوة أحد وبئر معونة[٣] تجرؤوا وكاشفوا بالعداء والغدر ، وأصبح بينهم وبين قريش في مكة مكاتبات فيها وعيد بقتل النبيِّ ﷺ ، فكانوا يتحيَّنون الفرص لأجل ذلك ، فلمَّا وقعت حادثة بئر معونة وأصيب المسلمون فيها ، حيث قتل سبعون من قرَّاء الصَّحابة الذين أرسلهم رسولُ الله ﷺ لنشر الدَّعوة في نجد حين عدى عليهم عامر بن الطُّفيل[٤] وقتلهم جميعاً إلَّا عمرو بن أميَّة الضمري نجى من بينهم ، فلمَّا

(١) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) بني النَّضِير -بفتح النُّون وكسر الضَّاد ثُمَّ ياءٌ ساكنة وراء مهملة- : اسمٌ لقبيلةٍ مَنَ اليهود الَّذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقُريظة نُزولًا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم . منازلهم الَّتي غزاها النَّبيُّ ﷺ في السَّنة الرَّابعة مِنَ الهجرة تُسمَّى وادي بطحان ، وموضعٌ آخر يُقال له البويرة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٩٠ .

(٣) بِئْرُ مَعُونَة : بفتح الميم وضم العين المهملة : جاء ذكرها في مواضع ، منها : حادثة قتل القراء من الصحابة على أيدي بني سليم ، حين استصرخهم عامر بن الطفيل ، فأجابته : رعل وذكوان وعصية ، تقع بعد المدينة في جهة نجد ، على أربع مراحل من المدينة في ديار بني سُلَيم قديماً ، وهي اليوم ديار مُطَير . انظر : عاتق البلادي : معجم المعالم الجغرافية ، ص : ٥٣ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٧٦ .

(٤) عامر بن الطفيل العامري ، من بني عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد شعراء العرب =

كان في طريق عودته وجد رجلين من كلاب ، فانتسبوا له فقتلهم ، وهو يرى أنَّهُ أصاب ثأراً لأصحابه ، فلمَّا قدم المدينة أخبر رسولَ الله ﷺ الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا»[1] ؛ لعهد كان معهما من رسول الله ﷺ ، لذا خرج رسول الله ﷺ إلى يهود بني النَّضير ليعينوه على دية الرَّجلين حسب بنود العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ بينه وبين يهود ، فمشى إليهم رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه ، فكلَّمهم في ذلك ، فقالوا : نفعل أبا القاسم ، فأجلسوه ﷺ إلى جدارٍ في أحد مجالسهم ، وخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، ثُمَّ قالوا : أيُّكم يصعد على هذا الجدار ويُلقي الرَّحى على رأسه يشدخه[2] بها؟ فأتاه الخبر من الله عزَّ وجلَّ ، فنهض رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة ، وقد عزموا الغدر ونقضوا العهد ، وأرادوا قتل نبيِّ الله فخرج إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم ، حتى أرسلوا له على أن يخرجوا من المدينة ، فرضي على أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم وما قدروا على حمله ، فكانت أموالهم

=

وساداتهم في الجاهلية ، ولد ونشأ بنجد ، وكان يأمر مناديا في (عكاظ) ينادي : هل من راجل فنحمله؟ أو جائع فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟ وخاض المعارك الكثيرة ، وأدرك الإسلام شيخًا ، وموت عامر على الكفر أشهر عند أهل السير ، وفد على رسول الله ﷺ وهو في المدينة بعد فتح مكة يريد الغدر به ، فلم يجرؤ عليه ، انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ١٣٣ ، الزركلي : الأعلام ، ٣/ ٢٥٢ .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، برقم(٨٤) ، ٢٠/ ٣٥٦ ، الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ٦/ ١٢٩.

(٢) الشدخ : الكسر في كُلِّ شيءٍ رطب ، وقيل : هو التهشيم ؛ يعني به كسر اليابس ، وكل أجوف ، والشدخ : كسرك الشيء الأجوف كالرأس ونحوه . وفي الحديث : فشدخوه بالحجارة . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ٢٨ .

وأرضـهم خالـصةً لرسـول الله ﷺ يـضعها حيـث يـشاء ، فقـسَّمها ﷺ في المهاجرين[١] .

فأنزل الله سورة الحشر فيها خبر هذه الحادثة كاملة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٢] ، وبهذه الغزوة يكون عليه الصَّلاة والسَّلام قد تخلَّص من الخطر الدَّاخلي بالمدينة ، والمتمثِّل في يهود بني النضير ومؤامراتهم ، ليتفرَّغ عليه الصلاة والسلام لمحاربة المشركين في مكة ونجد وما حول المدينة من الأعراب والقبائل التي عاشت على النَّهب والسَّلب ، فكان لا بُدَّ لرسول الله ﷺ من تأديبهم وكسر شوكتهم ، حتى يخضعهم للسِّلم والمهادنة ، فلا يعودوا لما ارتكبوه مع المسلمين من الخيانة في مثل حادثة بئر معونة[٣] .

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٣٧ ، محمد بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) : زاد المعاد في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، ط :٢٧ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ٣/ ١١٦ .

(٢) سورة الحشر ، الآيات : (٢-٥) .

(٣) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٤/ ٣١٨ .

وفي جمادى الأولى غزا رسولُ الله ﷺ نجداً يريد غطفان[١] في سبعمائة من أصحابه سار بهم يجوب أرض نجد ويجوس فيافيها حتى يعلم أهلُها بقوَّة المسلمين وعزِّهم ويغرس في قلوبهم الهيبة ، ثُمَّ رجع إلى المدينة[٢] ، فأصبح الأعراب الذين عاشوا على النَّهب لا يسمعون بمقدم المسلمين إلَّا حَذِروا وتمنَّعوا في الشِّعاب ورؤوس الجبال .

وفي شعبان من العام الرَّابع للهجرة خرج رسول الله ﷺ في ألف وخمسمائة مقاتل للموعد المضروب مع قريش في غزوة أحد ، ثُمَّ سار حتى نزل بدراً ، وأمَّا أبوسفيان فقد خرج من مكة في ألفين من المشركين ، إلَّا أنَّ الخوف استولى على قلبه ، ودبَّ فيه الرُّعب ، حيث سار إلى أن بلغ مرَّ الظهران[٣] ، ثُمَّ خار عزمه ، واحتال للرُّجوع ، وتعذَّر بأنَّ هذا العام لا يصلح للخروج لشدَّة جدبه ، فأمر النَّاس بالرجوع وانصرف راجعاً ، أمَّا المسلمون فقد أقاموا ببدرٍ ثمانية أيَّام ينتظرون المشركين ، حتى سمعت بهم القبائل ، وتناقلوا أخبارهم ، وتوطَّدت

---

(١) غطفان : في قيس : غطفان بن سعد بن قيس عيلان : بطن عظيم ، كثير الشعوب والأفخاذ ، من العدنانية ، وهم : بنو غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى ، وجبل طيء ، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية ، وكانوا يعبدون العزى في الجاهلية . انظر : محمد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها ، ص : ٦٩ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ٨٨٨ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٠٩ .

(٢) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ٤٦٩ .

(٣) الظهران : واد قرب مكة ، وعنده قرية يقال لها مر ، تضاف إلى هذا الوادي ، فيقال : مر الظهران ، وفيه عدد من القرى ، منها الجموم وبحرة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٦٣ .

هيبتهم في نفوسهم ، ثُمَّ قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقد حقَّقت هذه الغزوة استقراراً لأمن المدينة ، مع أنَّهُ لم يقع فيها قتال ، إلَّا أنَّ العرب في أنحاء الجزيرة تسامعوا بقوَّة المسلمين ، وكثرة غزواتهم ، وتأديب كُلِّ من تسوِّل له نفسه الاعتداء على الدَّعوة الإسلاميَّة ودعاتها .

مكث رسولُ الله ﷺ بعد غزوة بدر الصغرى ستة أشهر ، ثُمَّ أتته الأخبار أنَّ قبائل حول دُومة الجندل[1] تقطع الطريق وتنهب ، وأنَّها حشدت جمعاً كبيراً تريد الهجوم على المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من المسلمين لخمس ليالٍ بقين من ربيع الأول سنة خمس للهجرة ، وكان رسول الله ﷺ يسير الليل ويكمن النهار حتى فاجأ أعداءه وهم غارون[2] فهجم عليهم فأصاب منهم من أصاب ، وهرب الباقون على وجوههم ، ونزل المسلمون في ساحتهم ، فبث فيها السَّرايا والبعوث ، وأقام رسولُ الله ﷺ أياماً لم يَلْقَ كيداً ، ثُمَّ رجع إلى المدينة سالماً غانماً .

وبهذه التحركات السَّريعة ، والخطط الحكيمة الحازمة نجح النبيُّ ﷺ في بسط الأمن ، وتحقيق السَّلام في المنطقة والسَّيطرة على الموقف وتحويل مجرى الأيام ، فقد سكن المنافقون وتَمَّ إجلاء قبيلتين من يهود ، وبقيت الأخرى تتظاهر بإيفاء العهود ، واستكان الأعراب ،

---

(١) دُومة الجندل : بضم الدال : قرية من الجوف شمال السعودية ، تقع شمال تيماء على مسافة (٤٥٠) كيلًا ، وسيأتي مزيد تفصيل فيها إن شاء الله في الفصل الثالث من هذه الرسالة . انظر : البكري : معجم ما استعجم ، ٢/ ٥٦٤ ، محمد بن حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١١٧ .

(٢) غارون : أي : غافلون . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٥/ ٢٢ .

وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام ، وتبليغ رسالة ربِّ العالمين[١] .

ولمَّا دارت الأيام لصالح المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وتمكَّنت هيبتهم في نفوس القبائل المعادية ، كان يهود بني النَّضير الذين أبعدهم رسولُ الله ﷺ عن المدينة بعد أن نقضوا العهد يتحرَّقون غيظًا وحَنَقًا على الدَّعوة الإسلامية ، فشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين ، وأخذوا يعدُّون الخطط لضرب المسلمين ضربةً قاضيةً يستأصلون بها الإسلام والمسلمين ، لذلك خرج عشرون رجلًا من زعمائهم يطوفون في أحياء العرب لتحريضهم ضدَّ رسولِ الله ﷺ ، فذهبوا إلى زعماء قريش وكنانة وهوازن[٢] وغطفان وسليم وغيرهم من القبائل الوثنيَّة يستنصرون بهم ويحثونهم على غزو المدينة واستئصال المسلمين ووعدوهم ومنوهم وأغروا بهم ، فاستجاب لهم كثير من أهل الشرك من القبائل الضاربة

---

(١) المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٧٤ .

(٢) هوازن –بفتح الهاء والوَاو ، وبالزَّاي وبالنُّون– بن منصور : بطنٌ من قَيس عَيلان ، مِنَ العدنانيَّة ، وهم : بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عَيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ولد هوازن بن منصور : بَكرًا ، وله أفخاذٌ كثيرةٌ ، يجمعهم ثلاثة أجرام ، كلُّهم لبكر بن هوازن ، وهم : بنو سعد بن بكر ، وبنو معاوية بن بكر ، وبنو منبه بن بكر . كانوا يقطنون الحجاز ونجد . ومِنْ أوديتهم : حُنَين ، غزاهم فيه رسول الله ﷺ بعد فتح مكَّة ، لستٍّ خلَون مِنْ شوال ، وفي اثني عشر ألفًا مِنَ المسلمِين ، ورئيس هوازن مالك بن عوف النصري ، فلما نظر إلى جيش المسلمين قال : هلكت هوازن ، فلا هوازن بعد اليوم . انظر : البَلَاذُري : أنساب الأشراف ، ١٣/ ٢٨٥ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٦٤ ، والقلقشندي : قلائد الجمان في التَّعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ١١٥ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١٢٣١– ١٢٣٢ .

حول مكة والمدينة ، فاجتمع لهم عدد كبير وحدَّدوا موعداً ينطلقوا فيه إلى المدينة ، واستطاع يهود في هذه المؤامرة الخبيثة تأليب أحزاب الكفر على رسول الله ﷺ للقضاء عليه وعلى دعوته ، فخرجت قريش وكنانة وأهل تهامة يقودهم أبوسفيان في أربعة آلاف ، وغطفان وبني مرة ، وبنو أشجع ، وبنو أسد ، وبنو سليم وغيرهم في ستة آلاف مقاتل ، واتَّجهت هذه الأحزاب والجموع نحو المدينة في الموعد المحدَّد لهم[١] .

بلغ رسولَ الله ﷺ الخبر بما تآمر عليه زعماء اليهود وزعماء الأحزاب قبل أن يبدؤوا التحرُّك ، فسارع عليه الصلاة والسلام إلى عقد مجلس استشاري تداولوا فيه الرَّأي للدفاع عن دين الله تعالى ، وصدِّ أعداء الله ، حتى استقرَّ الأمر على تحصين المدينة بخندق يعيق هذه الجموع من اجتياحها ، فأسرع رسولُ الله ﷺ بتنفيذ الخطة ووكل كُلَّ عشرة رجال أن يحفروا أربعين ذراعًا من الخندق ، وجدَّ المسلمون في ذلك بكُلِّ قُوَّة ونشاط ، وما إن اقترب جيش المشركين من المدينة حتى أتمَّ المسلمون حفر الخندق ، وقد أقبلت قريش في أربعة آلاف حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة[٢] ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد بقيادة عُيينة بن حصن[٣] في ستة آلاف حتى نزلوا

(١) ابن عبدالبر (ت : ٤٦٣هـ) : الدرر في اختصار المغازي والسير ، ت : د.شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة ، ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ ، ١/ ١٦٩ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٢٧٥ .

(٢) هذه مواضع بالمدينة قريبًا من الخندق الذي حفره النبي ﷺ . انظر : البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٢/ ٦٩٨ .

(٣) عيينة بن حصن بن حذيفة بن فزارة من بني قيس عيلان الفزاري ، يكنى أبا مالك ، أسلم بعد الفتح ، وقيل : أسلم قبل الفتح ، وشهد الفتح مسلمًا ، وشهد حنينًا أو =

بـذنب نَقْمَـى[١] إلـى جانـب أحـد ، وخـرج رسـولُ الله ﷺ في ثلاثـة آلاف مقاتل فجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع[٢] يتحصَّنون بـه ، والخنـدق بينهم وبين المشركين ، واجتمع على المسلمين الأعداء من أعلى المدينة ومـن أسفلها مع شدَّة البرد ، وشـدَّة الفاقة ، أضـف إلـى أنَّ يهـود بني قريظة[٣] خانوا العهد وأجمعوا على حرب المسلمين[٤] .

فلمَّا أراد المشركون مهاجمة المدينة وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها ، ووجدوا أنَّ المسلمين قد تحصَّنوا وأعدوا لهم النبل والسِّهام ، حتى لا يتجرَّأ أحدٌ أن يقترب منه إلَّا قتلوه ، وقد حاول

=

الطائف أيضـًا ، وكان من المؤلفة قلوبهم . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/٣١٨ .

(١) نَقْمَي : بالفتح والتحريك والقصر ، من النقمة ، وهي العقوبة ، وهو واد يمرّ شمال جبل وعيرة وأحد ، ثم يصب في وادي الحمض ، في القسم المعروف بالخليل شمال المدينة . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٨٩ .

(٢) سَلْع : بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده عين مهملة ، جبل متصل بالمدينة ، بل يُعَدُّ اليوم في وسـط عمـران المدينـة ، واسـم «سـلع» لـيس خاصـًا بالجبـل الـذي في المدينـة المنورة ، فهناك أجبل أخرى في بلاد العرب بهذا الاسم ، ولكـن الـذي يـرد في الـسيرة والحديث ، هو جبل المدينة النبوية . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيـرة ، ص : ١٤٢ .

(٣) بنو قُرَيظَة : إخوة النَّضِير ، وهُمَا حيَّان مِنَ اليهود الَّذين كانوا بالمدينة ، فأمَّا قُرَيظة فإنَّهم أُبِيرُوا لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين علي رسول الله ﷺ ، أمر بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم واستفاءة أموالهم . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٤/٤٥٦ .

(٤) بـن عبـدالبر : الـدرر في اختـصار المغـازي والـسير ، ص : ٢٧٥ . وانظـر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٢٤٦ .

المشركون في بعض الأيام محاولات بليغة لاقتحام الخندق أو بناء الطرق فيه إلَّا أنَّ المسلمين كافحوا مكافحةً شديدةً ورشقوهم بالنبل وناضلوا أشدَّ النِّضال حتى أفشلوا تلك المحاولات ، وكان أحرج موقف على المسلمين ، حين لم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيءٌ يمنعهم عن ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه لحظة ، حتى أنَّهم لا يستطيعون أداء الصلوات في وقتها من شدَّة مدافعة المشركين ومحاربتهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1] .

وتلك الشِّدَّة والمحنة الَّتي مرَّ بها المسلمون في ذلك الوقت العصيب أظهرت لهم معادن النِّفاق الَّتي كانت بينهم تتخلَّلُهم ، كابن سلول ومَنْ معه مِنَ المنافقين الَّذين قال الله عنهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[2] .

ثُمَّ أقام المشركون يحاصرون المدينة شهراً ، فلمَّا أراد الله أن ينصر

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات : (٩-١١) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات : (١٢-١٣) .

المسلمين ، كان لنعيم ابن مسعود[١] رضي الله عنه دورٌ إيجابيٌّ حين جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنِّي قد أسلمت ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرني ما شئت ، قال رسول الله ﷺ : إنَّما أنت رجل واحد ، فخذِّل عنَّا ما استطعت ، فإنَّ الحرب خدعة[٢] . فقام من فوره إلى بني قريظة فنقض ما بينهم وبين المشركين حيث قال وهو يشور عليهم : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن يكونون معكم في حصونكم حتى لا ينهزم المشركون ويتركوكم تواجهوا مصيركم وحدكم ، فقالوا : أصبت يانعيم ، لقد أشرت بالرَّأي[٣] .

ثُمَّ ذهب إلى المشركين وقال لهم : إنَّ يهود قد ندموا على ما كان منهم ، وإنَّهم قد راسلوا محمداً على أن يأخذوا منكم رهائن يدفعونهم إليه ، ليكفِّروا بذلك عن ذنبهم ، وبذلك انتقض حلف المشركين وبني قريظة ، واختلفوا وتنافروا ، ثُمَّ سلط الله على المشركين جنداً من جنده ، وأرسل عليهم في ليلةٍ ظلماءَ باردةٍ ريحًا لا تدع لهم قِدْراً إلَّا كفأتها ،

---

(١) نُعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن خلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع ، يكنى أبا سلمة الأشجعي ، صحابيّ مشهور ، أسلم ليالي الخندق ، وهو الّذي أوقع الخلف بين الحَيَّيْن قريظة وغطفان في وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضًا ورحلوا عن المدينة ، قتل نعيم في أول خلافة عليّ قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل . وقيل : مات في خلافة عثمان . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٣٦٣ .

(٢) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ٣/ ٤٤٦ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٢/ ٤٣٣ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٢٥٢ .

(٣) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٢٤٦ .

ولا طنباً[١] إلَّا قلعته ، فألقت خيامهم ، ونثرت متاعهم ، فلا يقِرُّ لهم قرار ، ولا توقد لهم نار ، وقد قذف الله في قلوبهم الرُّعب ، عند ذلك أرسل النبيُّ ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأمره أن يدخل بين القوم ويأتيه بخبرهم ، فوجدهم حذيفة على هذا الحال وهم يعزمون الرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل المشركين ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد ردَّ الله عز وجلَّ أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيراً ، فصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فكانت هذه الهزيمة هي أعظم هزيمة للمشركين في أنحاء الجزيرة العربية ؛ لأنَّهم عادوا أدراجهم منهزمي النفوس مُنكَّسِي الرؤوس ، مختلفين فيما بينهم ، خائبين لم يحقِّقوا أيَّ هدف من أهدافهم على ضخامة عددهم وقوَّة عتادهم في أكبر تجمُّع لهم ؛ لأنَّ العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب ، إلَّا أنَّ الله عزَّ وجلَّ أفشلهم وردَّ كيدهم في نحورهم وهزمهم شرَّ هزيمة ، قال تعالى : ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[٢] .

وبعد هذا النَّصر المبين الذي امتنَّ الله به على نبيِّه والمؤمنين قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «الآنَ نَغْزُوْهُم ولا يَغْزُوْنَنَا ، نَحْنُ نَسِيْرُ

---

(١) الطُّنْبُ والطُّنُبُ : أحدُ أَطْنَاب الخَيمة ، وهو حَبْل الخِباءِ والسُّرادقِ وَنَحْوُهُمَا . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ١٤٠ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ٥٦٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات : (٢٥-٢٧) .

إِلَيْهِم»[١] .

فلمَّا رجع المشركون إلى ديارهم ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر في نفس اليوم ، ورسول الله ﷺ يغتسل ، فقال له : أو قد وضعت السِّلاح؟ فإنَّ الملائكة لم تضع السِّلاح ، وما رجعت الآن إلَّا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإنِّي سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف الرُّعب في قلوبهم ، فأمر رسولُ الله ﷺ مؤذِّنًا فأذَّن في النَّاس : من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلِّينَّ العصر إلَّا ببني قريظة ، وخرج رسولُ الله ﷺ في موكب من المهاجرين والأنصار حتى نزل بهم ، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، وهكذا تحرَّك الجيش الإسلامي أرسالًا حتى تلاحقوا بالنبيِّ ﷺ وفرضوا عليهم حصاراً دام خمساً وعشرين ليلةً ، فلمَّا اشتدَّ الحصار على بني قريظة قال لهم سيِّدهم كعب بن أسد[٢] ثلاثة أمور ، إمَّا أن يسلموا ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وقد قال لهم : والله لقد تبيَّن لكم أنَّهُ نبيٌّ مرسل ، وأنَّهُ للذي تجدونه في كتابكم ، وإمَّا أن تقتلوا أولادكم ونسائكم ثُمَّ تخرجوا عليهم بالسُّيوف مصلتين حتى تظفروا بهم ، أو تموتوا عن آخركم ، وإمَّا أن تهجموا عليهم يوم السبت ؛ لأنَّهم قد أمنوا أن تقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه ، ولم يبق لبني قريظة بعد أن ردُّوا هذه الخيارات إلَّا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فحكَّم رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ، ٤/ ١٥٠٨ ، برقم (٣٨٨٣) .

(٢) كعب بن أسد بن سعيد القرظي ، من بني قريظة ، كان شاعراً . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٢٢٥ .

فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، فحكم فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات ، وكان حكمه أن تقتل الرِّجال وتُسبى النساء وتقسم الأموال[١] . وهكذا تَمَّ استئصال أفعى الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق وأعانوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانت تمرُّ فيها الأمَّة الإسلامية ، وفي ذلك أنزل الله تعالى سورة الأحزاب ، وفيها بيان ما صنعت بنو قريظة والأحزاب وبيان حال المنافقين ، ونصر الله للمؤمنين مع أنَّ المعركة لا قتال فيها إلَّا أنَّ الله هزم الأحزاب هزيمة ساحقة هزَّ صداها أنحاء الجزيرة العربية ، الأمر الذي جعل لدعوة التوحيد صيتاً وعزًّا كبيرا .

ومهما جمَّع أعداء الدين ومكروا بأهل التوحيد فإنَّ الله ناصرٌ دينه وعباده الموحِّدين ، وجاعل أعداءهم من المشركين ومن تحالف معهم في ذُلٍ وهزيمةٍ وصغار .

وفي ربيع الأول من السَّنة السَّادسة للهجرة خرج رسولُ الله ﷺ في مائتين من أصحابه غازياً بني لحيان[٢] في ما قاموا به من الغدر بالدُّعاة الذين خرجوا في سبيل الدَّعوة إلى الله ، وتعليم النَّاس الإسلام ، وذلك

---

(١) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ١/ ٥٠٤ ، أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، ١/ ٢٩٧ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٧٥ .

(٢) لِـحْيَان : بكسر أوله ، واللِّحيان الوشل الصديع في الأرض يخرّ فيه الماء ، وبه سميت لحيان القبيلة ، وليس بتثنية اللّحي ، وهي قبيلة عدنانية ، وهم لحيان بن هذيل بن مدركة ، ولا زالوا سكّان ضواحي مكة بين مكة ومرّ الظهران . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ١٥ ، محمد حسن شراب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٣٥.

حين قدم على رسول الله ﷺ قومٌ من عضل والقارة[١] فذكروا أنَّ فيهم إسلامًا ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يبعث معهم من يعلِّمهم الدين ويقرئهم القرآن ، فبعث رسول الله ﷺ عشرةً من أصحابه ، فلمَّا كانوا بالرجيع[٢] ، وهو ماءٌ لهذيل استصرخوا عليهم حيٌّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعهم ما يقرب من مائة رامٍ ، واقتصوا أثرهم حتى لحقوا بهم ، وكانوا قد لجأوا إلى فدفد[٣] ، وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألَّا نقتل منكم رجلًا ، فأمَّا عاصم بن ثابت[٤] فأبى النزول ،

---

(١) قال ابن هشام في السيرة ، ٢/ ١٦٩ : عضل والقارة ، قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة .

(٢) الرَّجِيع : بفتح الراء المهملة وآخر عين مهملة أيضًا ، هو ماء يعرف اليوم باسم «الوطية» في ديار هذيل ، يقع شمال مكة على مسافة سبعين كيلًا وشهر في التاريخ الإسلامي بتلك الواقعة التي أوقعت فيها بنو لحْيان وعَضَلُ والقَارَةُ بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ ليعلموا النَّاس ، ويقع في شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة . انظر : عاتق البلادي : معالم مكة التأريخية والأثرية ، ص : ١١١ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٢٥ .

(٣) المكان المرتفع فيه صلابة . ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ٣٣٠ .

(٤) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح . من السّابقين الأوَّلين من الأنصار ، أمَّره رسول الله ﷺ على السَّريَّة الَّتي قُتل فيها خُبَيب ، وكان مِنْ أمره أنَّه قال : لا أنزل في ذمّة مشرك ، وكان قد عاهد الله ألّا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك ، فأرسلت قريش ليؤتوا بشيء من جسده ، وكان قَتَل عظيمًا من عُظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظّلة من الدّبر ، فحمته منهم ، ولذلك كان يقال حميّ الدّبر . وفي هذه القصّة يقول حسّان :

لعمري لقد ساءت هذيل بن مدرك ... أحاديث كانت في خبيب وعاصم

أحاديث لحيان صلوا بقبيحها ... ولحيان ركّابون شرّ الجرائم

انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٣/ ١٠٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٤٦٠ .

وقاتلهم وقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقي خبيب[1] وزيـد بن الدَّثِنَّـة[2] وأمَّا الآخر لمَّا رأى الغدر أبا عليهم فنازعهم فقتلوه ، وأخذوا خبيباً وزيداً وباعوهما في مكة ، ولكن لمَّا كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة وكانت الحرب الشديدة بين المسلمين ومشركي قريش ومن والاها من الأعراب ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغَّل في بلاد هذيل بمقربة من قريش ، فلمَّا انهزم الأحزاب واختلفوا وتفرَّقت جموعهم وتخاذلت عزائمهم واستكانوا رأى رسولُ الله ﷺ أنَّ الوقت قد آن ليؤدِّب بني

---

(١) خبيب بن عدي بن مالك بن عامر بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي ، شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، أخذته قريش وقتلته صبراً ، وهو فيمن أرسله النبيُّ ﷺ في سرية عاصم بن ثابت ، ولما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : دعوني أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع من الموت لزدت ، اللهمَّ أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق أحدًا :

فلست أبالي حين أقتل مسلما   على أي جنب كان في الله

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله . وكان خبيب رضي الله عنه هو سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ١٥٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٢٢٥ .

(٢) زيد بن الدَّثِنَّة بن معاوية بن جشم الأنصاري ، شهد بدراً وأحداً ، وأرسله النبيُّ ﷺ في سرية عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، روي أنه حين قدم ليقتل قيل له : يا زيد ، أتحب أنَّ محمداً عندنا الآن مكانك ، فنضرب عنقه ، وأنَّك في أهلك؟ فقال : والله ما أحب أنَّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، فقال أبوسفيان : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، وكان قتله سنة ثلاث من الهجرة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ٣٥٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٥٠٠ .

لحيان ، فتحرَّك عليه السلام من المدينة يُظهر أنَّهُ يريد الشَّام ، ثُمَّ أسرع السَّير حتى انتهى إلى بطن غرَّان[١] ، فلمَّا سمعت به بنو لحيان هربوا إلى رؤوس الجبال ، فأقام رسولُ الله ﷺ يومين وبعث السَّرايا في كُلِّ وجه فما وجد منهم أحداً ، فسار إلى عُسْفَان[٢] وبعث سريَّة إلى كراع الغمام[٣] ليسمع به قريشاً ، ثُمَّ رجع إلى المدينة سالماً غانماً[٤] . وما كان ذلك إلَّا لبسط الأمن والاستقرار في المنطقة ، وحتى يمهِّد الطريق لانتشار التوحيد ، فالنَّاس ليسوا على حدٍّ سواء ، فمنهم من يأتي إلى الحقِّ رغبةً ، ومنهم من يأتي رهبة .

وفي شعبان من العام السَّادس بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ الحارث بن أبي ضرار[٥] سيِّد بني المصطلق من خزاعة يسعى في تحريض قومه ومن

---

(١) هي منازل بني لحيان ، وغران : واد بين أمج وعسفان ، إلى بلد يقال له : ساية . ووَادي غران يمر شمال عسفان على نحو (٨٥) كيلًا من مكة شمالًا ، وكان من ديار هذيل ، أمَّا اليوم فهو مشترك بين الروقة من عتيبة ، ومعبد بن حرب . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٢) عُسْفَان : بضم العين وسكون السين وفاء وألف وآخره نون : بلد على مسافة ثمانين كيلا من مكة شمالًا على طريق المدينة ، وروي أن الرسول ﷺ صلّى صلاة الخوف بين عسفان وضجنان . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٩١-١٩٢ .

(٣) تقع جنوب عسفان . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٣١ .

(٤) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٣٠ .

(٥) الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن الحارث بن عائذ بن مالك بن المصطلق ، أبومالك الخزاعي ، ثم المصطلقي ، أبوجويرية زوج النَّبِيّ ﷺ أم المؤمنين . قال ابن إسحاق : تزوَّج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة ، وقد أسلم أبوها وبعض إخوتها . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٦١٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٦٧٣ .

قدر عليه من العرب لحرب رسول الله ﷺ وأنَّه يجمع الجموع ، فأرسل رسولُ الله ﷺ من يتحقَّق الأمر ، فلمَّا تأكَّد لديه صحَّة الخبر ندب رسول الله ﷺ أصحابه وأسرع الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلت من شعبان ، فسار رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل على ماء لهم يقال له المُرَيْسِيع[١] من ناحية قُديد[٢] إلى السَّاحل ، فتقارب النَّاس ، ثُمَّ أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادى في النَّاس أن قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، فأَبَوْا ، فترامو بالنبل ، ثُمَّ أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت منهم رجل ، وقُتِلَ منهم عَشَرَةٌ ، وأُسِرَ منهم سائر القوم ، ولم يُقْتَل من المسلمين سوى رجلٍ واحدٍ ، وفي هذه الغزوة تزوَّج النبيُّ ﷺ جويرية بنت الحارث[٣]

---

(١) المُرَيْسِيع : بالضمِّ ثُمَّ الفتح وياء ساكنة ، ثم سين مهملة مكسورة وياء أخرى ، وآخره عين مهملة ، كأنه تصغير المرسوع : وهو الذي انسلقت عينه من السهر ، وهو جزء من وادي حورة ، أحد روافد ستارة ، وستارة وقديد واد واحد . انظر : البكري : معجم ما استعجم ، ٤/ ١٢٢٠ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٥١ .

(٢) قُديد : بضم القاف : واد فحل من أودية الحجاز التهاميَّة ، يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرّة «ذرة» ، فيسمى أعلاه ستارة ، وأسفله قديداً ، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على مسافة مائة وعشرين كيلًا . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٧٤ .

(٣) أم المؤمنين جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة ، الخزاعية المصطلقية ، كانت تحت مسافع بن صفوان المصطلقي . قالت عائشة رضي الله عنها : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، قالت عائشة : فو الله ما هي إلا أن رأيتها فكرهتها ، وقلت : يرى منها ما قد رأيت . فلما دخلت =

سيِّد بني المصطلق رضي الله عنها ، وكان زواج النبيِّ ﷺ منها بركةً على قومها ، فبسببها أعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم من السَّبي[1] .

=

على رسول الله ﷺ قالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلايا ما لم يخف عليك ، وقد كاتبت على نفسي ، فأعنّي على كتابتي . فقال : «أو خير من ذلك؟ أؤدّي عنك كتابتك وأتزوّجك؟» فقالت : نعم ، ففعل ذلك ، فبلغ الناس أنه قد تزوّجها ، فقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق ، فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٧/ ٥٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ٧٢ .

(١) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص٢٦٣ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٢٩٥ .

صلح الحديبية وأثره في انتشار الإسلام

فلمَّا عاد رسولُ الله ﷺ إلى المدينة أقام بها شهر رمضان وشوال ، وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً ، وذلك لرؤيا رآها عليه الصلاة والسلام أنَّهُ يعتمر بالبيت ، واستنفر العرب وأهل البوادي أن يخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدُّوه عن البيت ، فأَبْطَأَ عليه كثيرٌ من الأعراب ، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليُعْلِمَ النَّاس أنَّه إنَّما خرج زائراً لهذا البيت ومعظِّماً له ، فسار عليه الصلاة والسلام حتَّى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان العتكيّ[١] فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل[٢] ، قد لبسوا جلود النُّمور ، وقد نزلوا بذي طوى[٣] ، يعاهدون

---

(١) بشر -ويقال بسر- بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي ، أسلم سنة ست من الهجرة ، وبعثه النبي ﷺ عيناً إلى قريش إلى مكة ، وشهد الحديبية ، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان وهو الذي أخبر خبر قريش وجموعهم ، قالوا : هو بسر بن سفيان . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ١٦٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٤٢٩ .

(٢) العوذ : جمع عائذ ، وهي الناقة حديثة عهد بالنتاج ، والمطافيل : جمع مطفل ، وهي ذات الطفل من الإنسان والحيوان ، ويريد هنا : النساء والصبيان . انظر : محمد بن أبي نصر فتوح : تفسير غريب ما في الصحيحين ، ص١٩٠ ، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ) : مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، المكتبة العتيقة ودار التراث ، (د.ط) ، (د.ت) ، ٢/ ١٠٥ .

(٣) طوى : واد من أودية مكة ، وهو اليوم في وسط عمرانها ، ومن أحيائه العتيبية ، وجرول ، وبئر ذي طوى لا زالت معروفة بجرول ، وهي في المكان الذي بات فيه رسول الله ﷺ ليلة الفتح ، وهذه البئر يشرف عليها من الشرق جبل قعيقعان ، =

الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغمام[(١)] ، فقال رسول الله ﷺ : «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب ؛ فإن هم أصابوني ، كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم ، دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا ، قاتلوا وبهم قوة؟! فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السَّالفة»[(٢)] . وهذا الموقف من رسول الله ﷺ يشحذ الهمم ويقوي العزائم ويثبت القلوب ويعين على تجاوز الصِّعاب ، وحريٌّ بكُلِّ داعٍ إلى التوحيد أن يقتدي بالنبيِّ ﷺ ، وأن لا يخور عزمه ولا تفتر همَّته لعارض أو لعقبة طرأت في طريق دعوته ، بل الواجب الثبات حتى يأتي وعد الله وهو على ذلك ، ثُمَّ سلك رسول الله ﷺ طريقاً غير معروفة

=

وجهته هذه تسمى اليوم جبل السودان . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٧٦ .

(١) كراع الغمام : ويقال : الغَمِيم : بفتح أوله ، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت وميم أخرى ، وهوموضع له ذكر كثير في الحديث والمغازي ، وقال نصر : الغميم موضع قرب المدينة بين رابغ والجحفة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢١٤ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ٣١/ ٢١٢ ، برقم (١٨٩١٠) ، والطبراني في الكبير ، ٢٠/ ٩ ، برقم (١٤) . وانظر : علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان الشهير بالمتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ) : كنز العمال ، ت : بكري حياني ، مؤسسة الرسالة ، ط: ٥ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ٤/ ٤٣٩ ، برقم (١١٣٠٧) . وأصله في صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد... ، ٣/ ١٩٣ ، برقم (٢٧٣١) .

بـين ظهـري الحمـش[١] في طريـق يخرجـه علـى ثنيَّـة المُـرار[٢] مهبـط الحديبيَّـة[٣] أسـفل مكـة ، فلمَّـا رأت خيـل قـريش قَتَـرَةَ[٤] الجـــيش قـــد خـالفوا عن طريقهم ركضوا راجعـين ينـذرون قـريشًا ، فسـار رســـول الله ﷺ حتـى إذا كـان بثنيـة المـرار بركـت راحلتــه ، فقـال عليـه الـصلاة والسلام : حَـلْ حَـلْ ، فألحـت ، فقـال النَّـاس : خَـلَأَت[٥] القـصواء[٦] ، خَـلَأَت القـصواء ، فقـال النبـيُّ عليـه الـصلاة والـسلام : «مَـا خَـلَأَتِ القَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَـا بِخُلُـق ، ولَكِـنْ حَبَسَهَا حَـابِسُ الفِيْـل» ، ثُـمَّ قـال :

---

(١) ظهري الحمش : بإهمال الحاء وسكون الميم ، تقع شمال ثنية المرار . انظر : عـاتق البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ١٠٦ .

(٢) المرار : بالضم وتكرير الراء ، ويقال : ثنية المرار ، والمرار : واحدة المـرارة ، بقلة مرة ، وجمعها المرار . وبه سـمي آكـل المـرار ، قـال يـاقوت : وثنيـة المـرار : مهبط الحديبية ، وتعرف اليوم باسم : فجّ الكريمي . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعـالم الأثيرة ، ص : ٢٤٧-٢٤٨ .

(٣) الحُديبية تقع على بعد (٢٢) كيلا غرب مكة على طريق جدة القـديم -وهـو الطريـق الذي يمر بالحديبية ثم حداء ثم على بحرة ثـم على أم الـسلم فجـدة- ، وهـي خـارج الحرم غير بعيدة منه ، على مرأى ، وملاكهـا الأشـراف ذوو ناصر . انظر : عـاتق البلادي : معجـم المعـالم الجغرافيـة في الـسيرة النبويـة ، ص : ٢٤٨ ، محمـد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٩٤ .

(٤) أي : غبار الجيش . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣١٠ .

(٥) خَـلَأَت : الخِـلَاءُ للنُّـوق كالإِلْـحـاح للجِمـال ، والحِـران لِلـدَّوَابِّ . يقـال : خَـلَأَت النَّاقَةُ ، وأَلَحَّ الجَمَل ، وحَرَنَ الفَرس . انظر : ابن الأثير : النهايـة في غريـب الحـديث والأثر ، ٢/ ٥٨ .

(٦) القَصْوَاء : ناقة رسول الله ﷺ ، وتُطلق على مقطوعـة طرف الأذن ، يقـال : قـصوت البعير فهو مقصوٌّ ، وناقة قصواء ، ولا يقال : جمـل أقـصى . انظر : حمـد الخطَّـابي (ت : ٣٨٨هـ) : غريب الحديث ، ت : عبدالكريم الغرباوي ، دار الفكر – دمشق ، ١٤٠٢هـ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٢٤١ .

«وَالَّـذي نَفْسِي بِيَـدِه ، لا يَـسْأَلُونِي خِطَّـة يُعَظِّمُـون فيهـا حُرُمَـاتِ الله إلَّا أَعْطَيـتُهُم إيَّاهَـا» ، ثُـمَّ زجرهـا فوثبـت ، فعـدل عـنهم حتـى نـزل بأقـصى الحديبيـة ، علـى ثمـد[١] ، فمـا لبـث أن شـكى النَّـاس إلـى رسـول الله ﷺ العطـش ، فـانتزع سـهمًا مـن كنانتـه ، ثُـمَّ أمـرهم أن يجعلـوه فيـه ، فـوالله مـا زال يجيش لهـم بـالري حتـى صـدروا[٢] . ولمَّـا اطمـأنَّ رسـول الله ﷺ أرسـل عثمـان بـن عفـان لقـريش يخبرهـا أنَّ رسـول الله ﷺ يريـد العمـرة ، فاحتجزته قريشٌ وأشيع أنَّه قُتِل ، فقال رسـول الله ﷺ : «لا نَبْرَحُ حتَّى نُنَاجِزَ القَوْم» ، ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة ، قـال تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] ، وكانـت بيعـة الرضـوان تحت الشَّجرة ، فكانـت على الجهـاد وعـدم الفـرار ، وكـان النَّـاس يقولـون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، ثُمَّ أتى رسولَ الله ﷺ أنَّ الـذي ذكـر عـن أمر عثمان باطل[٤] .

ثُـمَّ جـاءه بـديل بـن ورقـاء الخزاعـي[٥] في نفـر مـن خزاعـة ، وكـانت

---

(١) ثَمَد : بالتحريك ، أي الماء القليل . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٢٢١ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، ٢/ ٩٧٤ ، برقم (٢٥٨١) .

(٣) سورة الفتح ، الآية : (١٠) .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣١٦ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ٦٣٢ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٦٤ .

(٥) بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن ربيعة الخزاعي ، قال ابن السّكن : له صحبة ، سكن مكة ، ويقال : إنه قتل بصفّين ، وعن بشر أنه سئل عن بديل بن ورقاء فقال : =

خزاعة عيبة نصح[١] لرسول الله ﷺ عن سبب خروجه وأخبرهم أنَّهُ لم يأت يريد حربًا ، وإنَّما جاء زائراً للبيت ، ومعظِّما لحرمته ، ثُمَّ قال لهم بنحو ما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش يلومونهم أن يصدُّوا رسول الله ﷺ عن البيت ، فما زالت قريش تُرْسِلُ الرُّسل تُفاوض رسولَ الله ﷺ حتى انتهى الأمر بصلح الحديبية ، الذي كُتِبَ بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو[٢] ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب : «هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين يأمَنُ فيهنَّ النَّاس ، يكُفُّ بعضهم عن بعض ، على أنَّهُ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وَلِيِّه ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردُّوه عليه ، وأنَّ بيننا عيبة مكفوفة[٣] ، وأنَّه لا سلال ولا أغلال ، وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن

=

مات قبل النبيِّ ﷺ ، وكان إسلامه قبل الفتح ، وقيل يوم الفتح . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٤٠٨ .

(١) عيبة نصح : أي موضع سرِّه . المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٢٧٥ .

(٢) سهيل بن عمرو بن عبدشمس ، القرشي العامري ، من لؤيّ : خطيب قريش ، وأحد سادتها في الجاهلية . أسره المسلمون يوم بدر ، وافتُدي ، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكة ، فأسلم ، وسكنها ثم سكن المدينة . وهو الّذي تولى أمر الصلح بالحديبية . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ١٧٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٣/ ١٤٤ .

(٣) عَيْبَة مَكْفوفةً : أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع ، مطوي على الوفاء بالصلح . والمكفوفة : المشرجة المشدودة . وقيل : أراد أن بينهم موادعة ومكافة عن الحرب ، تجريان مجرى المودة التي تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم إلى بعض . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣٢٧ .

أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فقال رسول الله ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدَّثُ العرب أننا أُخِذْنَا ضُغطة[1] ، ولكن ترجع عنَّا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة ، ولكن إذا كان العام القابل خرجنا عنك ، فتدخله بأصحابك فأقمت ثلاثـًا معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها[2] ، ثُمَّ أشْهَدَ رسول الله ﷺ على الصُّلح رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب قام إلى هديه فنحرها ثُمَّ جلس فحلق رأسه ، فلمَّا رأى النَّاسُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون[3] ، فأنزل الله تعالى سورة الفتح في شأن صلح الحديبية ، قال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[4] الآيات ، فكان الظَّاهر من هذا الصُّلح الضَّيْمُ ؛ إلَّا أنَّ في طيَّاته ومُجرياته النَّصر العزيز ، والفتح العظيم .

قال ابن إسحاق في قوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا

---

(١) أخذنا ضغطة : بفتح الضاد وضمها ، أي : قهرة واضطرارا . انظر : القاضي عياض : مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، ٢/ ٦١ .

(٢) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٦/ ٤٦٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٥٢ . وأصله في صحيح البخاري بألفاظ مقاربة ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، ٣/ ١٩٣ ، برقم (٢٥٨٣) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، ٣/ ١٩٣ ، برقم (٢٧٣١) .

(٤) سورة الفتح ، الآية : (١-٣) .

قَرِيبًا﴾ : صلح الحديبية[١] . فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلمَّا كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأَمِنَ النَّاس ، كلَّم بعضهم بعضًا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلَّا دخل فيه ، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[٢] .

ويدُلُّ على ذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ حين خرج إلى الحديبية خرج في ألف وأربعمائة رجل ، ثُمَّ خرج عام الفتح بعد الصلح بسنتين في عشرة آلاف مقاتل ، فكان صلح الحديبية فتحًا عظيمًا على المسلمين ، أمنت الدعوة فيه ، وأمن الدُّعاة إلى الله ، وانتشر التوحيد بين النَّاس ، وقُمع الشرك وأهله ، ودخل في الإسلام أضعاف أضعاف ما كان قبله ، فالحروب الدَّامية التي كانت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها بالنِّسبة للمسلمين مصادرة الأموال وإبادة الأرواح وإفناء النَّاس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، فإنَّهُ لا إكراه في الدين ، قال تعالى : ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[٣] ، وإنَّما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحريَّة الكاملة للنَّاس في العقيدة والدِّين ، لا يحول بينهم وبين دين الله أحد ، قال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤] ،

---

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٧٦ .

(٢) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٧/ ٤٤١ .

(٣) سورة الكهف ، الآية : (٢٤) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : (١٩٣) .

فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب ، وإنَّما زعماء الشرك هم من بدأ بالفتنة والقوة والحرب ، والصَّدِّ عن دين الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١] ، فلم يكن القصد من دوريات المسلمين العسكرية والغزوات المتواصلة إلَّا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدِّها عن سبيل الله ، وتصديرها للشِّرك والوثنيَّة لقبائل جزيرة العرب مِن خلال مواسم الحجِّ ، لذلك اكتسب المسلمون نتيجة هذا الصُّلح حريَّةً ونجاحاً كبيراً في الدَّعوة .

وكان من أشدِّ بنود الصلح التي تمعَّض منها المسلمون هو أنَّهُ من أتى محمداً ﷺ من قريش من غير إذن وليِّه ، أي : هارباً منهم ، ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ هارباً منهم لم يرد عليه ، وزادهم ما وقع لأبي جندل[٢] حين انفلت من المشركين وجاءهم يرسف[٣] في قيوده وهو يستغيث المسلمين أن ينصروه وأن يؤوه وكان ذلك بعد أن اتَّفق رسولُ الله ﷺ وسهيل بن عمرو على بنود الصلح وقبل أن ينعقد الكتاب

---

(١) سورة التوبة ، الآية : (١٣) .

(٢) أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي العامري . أسلم بمكة فطرحه أبوه فِي حديد ، فلما كَانَ يوم الحديبية جاء يرسف في الحديد إلى رسول الله ﷺ ، وكان أبوه سهيل قد كتب في كتاب الصلح : إن من جاءك منَّا ترده علينا ، فخلَّاه رسول اللهِ ﷺ لذلك ، ثُمَّ إنَّ أبا جندل أفلت بعد ذلك فلحق بأبي بصير الثقفي ، وكان معه في سبعين رَجُلا من المسلمين يقطعون على من مرَّ بهم من عِير قريش وتجارتهم ، فكتبوا فيهم إلى رسول اللهِ ﷺ أن يضمهم إليه ، فضمهم ﷺ إليه . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٦٢١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ٥٨ .

(٣) الرسف والرسيف : مشي المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٢٢ .

فطلبه رسولُ الله ﷺ من أبيه إلَّا أنَّهُ أبى ، فقال سهيل بن عمرو : هذا والله أول ما أصالحك عليه ، فزاد المسلمين هذا الموقف غمـًا على غمِّهم ، حيث لم يُتِمُّوا عمرتهم .

ومع أنَّ هذا البند يظهر منه الضَّيم والضَّغط على المسلمين ، إلَّا أنَّ المسلم إذا أسلم من قريش ولم يستطع اللُّجوء إلى المدينة فإنَّ أرض الله واسعة ، ألم يكن المسلمون قد هاجروا إلى الحبشة وما زال بعضهم فيها وهذا الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ بقوله : «وَمَنْ جَاءَ مِنْهُم سَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا ومَخْرَجًا»[١] .

ولمَّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واطمأنَّ بها ، انفلت رجلٌ من المسلمين ممن كان يعذَّب في مكة ، وهو أبوبصير[٢] رجلٌ من ثقيف ، حليف لقريش ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا للنبيِّ ﷺ : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه النبيُّ ﷺ إلى الرَّجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة[٣] ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبوبصير لأحد الرَّجلين :

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، ٣/ ١٤١١ ، برقم (١٧٨٤) ، وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٧٧ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٧٩ .

(٢) أبوبصير ، اختلف فِي اسمه ونسبه ، فقيل : عبيد بن أسيد بن جارية ، وقيل : عتبة بْن أسيد بن جارية بن أسيد ابن عبداللهِ بن سلمة ، وهو من ثقيف ، حليف لبني زهرة ، وله قصة فِي المغازي عجيبة في صلح الحديبية ، ذكرها ابن إسحاق وغيره . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٦١٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ٣٧ .

(٣) ذو الحُلَيفة : بالتصغير على وزن «جُهَينة» كأنه تصغير حَلْفَة ، وهي قرية بظاهر المدينة النبوية على طريق مكة ، بينها وبين المدينة تسعة أكيال ، تقع بوادي العقيق عند سفح جبل «غير» الغربي ، وتعرف اليوم «بيار علي» ، وهي ميقات أهل =

والله إنِّي لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستلَّه الآخر ، فقال : أجل ، والله إنَّهُ لجيِّد ، لقد جرَّبت به ثُمَّ جرَّبت ، فقال أبوبصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى بَرَد[1] ، وفَرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرَاً» ، فلما انتهى إلى النبيِّ ﷺ قال : قتل صاحبي ، وإنِّي لمقتول ، فجاء أبوبصير وقال : يا نبيَّ الله ، قد والله أوفى الله ذمَّتك ، قد رددتني إليهم ، ثُمَّ أنجاني الله منهم ، قال رسول الله : «وَيْلُ أُمِّه ، مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدْ» ، فلمَّا سمع ذلك عرف أنَّهُ سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وانفلت منهم أبوجندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلَّا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشَّام إلَّا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبيِّ ﷺ تناشده الله والرَّحم أن يؤويهم ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبيُّ ﷺ إليهم ، فقدِموا عليه المدينة[2] .

فلمَّا رجع رسولُ الله ﷺ من الحديبية مكث في المدينة إلى شهر

=

المدينة . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ١٠٣ .

(١) أي : خمدت حواسه ، وهي كناية عن الموت . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٥/ ٣٤٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، ٣/ ١٩٣ ، برقم (٢٧٣١) . وانظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ٤/ ١٠٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣/ ٣٣٥ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٦٢ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص : ٢٨٣ .

محرم من العام السابع الهجري ، ثُمَّ خرج إلى خيبر[١] ، وكانت خيبر وعداً وعدها الله عزَّ وجلَّ المؤمنين بقوله : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[٢] ، وقد كانت خيبر تشكِّل خطراً كبيراً على المسلمين ؛ كونها أكبر وكرٍ يجتمع فيه يهود لعقد الأحلاف والمؤامرات والدَّسائس ، وتأليب القبائل ضدَّ المسلمين ، فكان لا بُدَّ من دحر شرِّهم وإخماد فتنتهم .

فلمَّا أراد رسول الله ﷺ الخروج لخيبر أعلن أن لا يخرج معه إلَّا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلَّا أصحاب الشَّجرة وهم ألف وأربعمائة ، فسار عليه الصلاة والسلام حيث أظهر أنَّهُ يريد غطفان ، فما إن سمعت بذلك غطفان حتى خافت وتفرَّقت ، وهو مصداق حديث النبيِّ ﷺ : «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْر»[٣] ، فكان لا يسمع الأعداء بخروجه إليهم إلَّا ضربهم الرُّعب . ثُمَّ انعطف رسولُ الله ﷺ يريد خيبر ، وما شعروا حتى نزل عليهم بليل ، فلمَّا أصبح صلَّى الفجر بغلس[٤] ، ولمَّا فجَّ النور

---

(١) خَيبر : الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ ، وهي بلدة معروفة ، تبعد عن المدينة ١٦٥ كيل شمالا على طريق الشام ، يُطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤٠٩ ، عاتق البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص :١٠٩ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : (٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب قول النبي ﷺ : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، ٣/ ١٠٨٦ ، برقم (١٢٠) .

(٤) الغَلَس : ظُلْمَةُ آخر اللَّيل إذا اختلطت بضوء الصَّباح . انظر : ابن الأثير : النهاية في =

خرج أهل خيبر يريدون مزارعهم فما راعهم إلَّا والجيش في ساحتهم ، فولَّوا هاربين إلى حصونهم وهم يصيحون : محمد والخميس[(١)] ، فتحصَّنوا بها فضرب رسول الله ﷺ عليهم الحصار ، حتى كان اليوم الذي فتح الله فيه أعطى الرَّاية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وقال له : «انفذ على رسلك حتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِم ، ثُمَّ ادْعُهُم إلى الإسلام وأَخْبِرهُم بما يَجِبُ عليهم مِنْ حَقِّ الله فيه ، والله لأنْ يَهْدِيَ الله بكَ رَجُلًا واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم»[(٢)] ، وقد تمكَّن من فتح حصونهم واحداً تلو الآخر عُنوة ، ثُمَّ قسمها بين المجاهدين ، وتبع ذلك تسليم فَدَك[(٣)] من غير قتال ، ثُمَّ غزا تيماء[(٤)] ووادي القُرى[(٥)] ، واستسلمت له ، وبهذا استطاع

=

غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣٧٧ .

(١) الْخَمِيسُ : الْجَيْشُ ، سُمِّي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب . وقيل : لأنه تُخَمَّسُ فيه الغنائم . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب فضل من أسلم على يديه رجل ، ٤/ ٦٠ ، برقم (٣٠٠٩) .

(٣) فَدَك : بالتحريك ، وآخره كاف ، قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله ﷺ سنة سبع صلحًا ، كانت خالصة لرسول الله ﷺ . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٣٨ .

(٤) تَيماء : بالفتح والمدّ : بُلَيِّد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، وهي مدينة حجازية تقع شمال المدينة في جهة الشام على (٤٢٠) كيلًا . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٦٧ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٧٤ .

(٥) واديالقُرَى : بضَمِّ أوَّله ، وفتح ثانيه ، والقصر ، جمع قرية ، وهو واد بين الشام والمدينة وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة . وأعظم مدنه اليوم : مدينة «العلا»

=

رسولُ الله ﷺ القضاء على قواهم السياسيَّة وخطرهم على الدَّعوة الإسلاميَّة من ناحية الشمال[(١)] .

عاد رسولُ الله ﷺ من فتح خيبر وقد خافه العرب في كُلِّ مكان ، وانتشر خبره في أقطار الجزيرة ، وسكنت الفتن ، وأَمِنَ النَّاس ، واستقرَّت الأمور . ودخل في الإسلام جمعٌ من قريش ، على رأسهم عمرو بن العاص[(٢)] ، وخالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة[(٣)] ، فلمَّا حضروا عند رسول الله ﷺ ، فرح لذلك وسُرَّ لإسلامهم واستبشر بهم خيراً .

منذ أن عقد رسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك إلى سيادة الإسلام ؛ فإنَّ رسول الله ﷺ لم يَأْلُ جهداً لنشر الإسلام داخل

=

شمال المدينة ، على مسافة (٣٥٠) كيلًا ، ويعرف اليوم : «وادي العلا» . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٣٣٨ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٢٤ .

(١) انظر : د. محمد السُّلَميُّ ، د.عبدالرحمن قصَّاص ، د. سعد الموسى ، د. خالد الغيث : صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ﷺ ، مكتبة روائع المملكة - جدة ، ط : ١ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م ، ص : ٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) ستأتي ترجمته عند الحديث عن السَّرية .

(٣) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسمه عبدالله بن عبدالعزى العبدري ، حاجب البيت . قُتل أبوه وعمّه يوم أُحد ، ثم أسلم في هدنة الحديبيّة ، وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبيّ ﷺ فأعطاه مفتاح الكعبة . ثُمَّ نزل عثمان بن طلحة المدينة ، فأقام بها إلى وفاة رسول الله ﷺ ، ثُمَّ انتقل إِلَى مكة فسكنها حَتَّى مات بها سنة اثنتين وأربعين . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٠٣٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٧٣ .

حدود الجزيرة العربية وخارجها ، وقد عبَّر عليه الصلاة والسلام عن هذا المنهج قولًا وعملًا من خلال إرسال الرُّسل والمبعوثين إلى أمراء الجزيرة العربيَّة ، وإلى ملوك العالم خارجها . وتُعَدُّ هذه الخطوة نقطة تحوُّل هامَّة في تاريخ العرب والإسلام ، ليس لأنَّ رسول الله ﷺ سوف يوحِّد عرب الجزيرة تحت راية الإسلام فحسب ، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام تمثَّلوا الرِّسالة الإلهيَّة ، فأنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلامية إلى البشريَّة كافَّة[1] ، قال تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] .

ويشير المنهج النبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة ، فإلى جانب دعوة الأمراء والشُّعوب ، اختار رسول الله ﷺ أسلوبًا جديدًا من أساليب الدَّعوة ، وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل ، وكان لهذا الأسلوب أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الوُدِّ من البعض الآخر ، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدَّعوة الإسلاميَّة ، وبذلك حقَّقت هذه الرسائل نتائج كبيرة ، واستطاعت الدَّولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجًا سياسيًّا وعسكريًّا واضحًا ومتميزًا[3] .

---

(١) انظر : د. محمد العقيلي : السفارات النبوية ، ص : ١٥ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : (١٠٨) .

(٣) انظر : د. سعيد المهجر : العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ، ص١١٢ .

وسأذكر هنا شيئًا مِن تلك الكتب الَّتي بعث بها رسول الله ﷺ إلى عُظماء أقوامهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك الَّذي وقعوا فيه ، فكان مِن أهمِّها الكتاب الذي أرسله إلى قيصر ملك الروم : وقد اختار رسول الله ﷺ لحمل هذه الرِّسالة الصَّحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي[1] ، وفيها[2] :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمَّد عبدالله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الرُّوم ، سلام على من اتَّبع الهدى : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت فإنَّ عليك إثم الأريسيين[3] ، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي ، صاحب رسول الله ﷺ ، أول مشاهده الخندق ، وقيل أحد ، ولم يشهد بدراً ، وكان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورته أحياناً ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر رسولًا سنة ست في الهدنة ، فآمن به قيصر ، وامتنع عليه بطارقته ، فأخبر دحية رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : «ثبت الله ملكه» . وعن المغيرة قال : أهدى دحية الكلبي لرسول الله ﷺ خفين فلبسهما . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ١٩٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٢١ .

(٢) حديث إرسال النبيِّ ﷺ الكتاب إلى هرقل عظيم الرُّوم لدعوته إلى الإسلام في صحيح البخاري ، بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ ، ١/ ٨ ، برقم (٧) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، ٣/ ١٣٩٣ ، برقم (١٧٧٣) .

(٣) الأريسيين : هم قوم هرقل عظيم الروم ، وقد اختلف العلماء في معنى هذه الكلمة ، قال النووي : واختلفوا في المراد بهم على أقوال أشهرها أنهم الأكارون ، أي : الفلاحون والزراعون ، ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ، ولأنهم أسرع انقيادا ، فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا وهو الصحيح . انظر : شرح صحيح مسلم ، ١٢/ ١٠٩ ، وحديث إرسال النبي ﷺ الكتب إلى ملوك الأرض لدعوتهم إلى =

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١] ، وقد أمر رسولُ الله ﷺ دحية بدفعه إلى عظيم بصرى[٢] ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها[٣] أبا سفيان وقريش -أي : صلح الحديبية- وهم بإيلياء[٤] ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثُمَّ دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنَّهُ نبي؟ قال أبوسفيان : فقلت : أنا أقربهم نسبًا ، فقال : أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثُمَّ قال لترجمانه : إنِّي سائل هذا عن هذا الرَّجل فإن كذبني فكذبوه ، قال أبوسفيان وهو ما زال على الشرك :

=

الإسلام في صحيح البخاري ، بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ ١/ ٨ ، برقم (٧) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، ٣/ ١٣٩٣ ، برقم (١٧٧٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

(٢) بُصْرَى : بالضم والقصر ، موضع بالشام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٤٤١ .

(٣) ماد فيها : أي : جعل الحرب فيها إلى مدة ، والمراد به تمديد الصلح بينهم والهدنة . انظر : **الحسين** بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ) : شرح السنة ، ت : شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي - دمشق ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ١٢/ ٢٧٧ .

(٤) اسم مدينة بيت المقدس ، ومعناه «بيت الله» . انظر : محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٤٠ .

فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه ، ثُمَّ سأل أبا سفيان عن أمورٍ يتثبَّت بها عن رسول الله ﷺ وأبوسفيان يُجيبه إلى أن قال لترجمانه ، قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنَّهُ منكم ذو نسب ، وكذلك الرُّسل تُبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد هذا القول قبله فذكرت أن لا ، قلت : لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلت : ما كان ليذر الكذب على النَّاس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف النَّاس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت : ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرُّسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فقلت : بل يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتدُّ أحدٌ منهم سُخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرُّسل لا تغدر ، وسألتك بماذا يأمر؟ فزعمت أنَّهُ يأمركم أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، وينهاكم عمَّا كان يعبدُ آباؤكم ، ويأمركم بالصَّلاة والصِّدق والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، فإن كان ما تقوله حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنَّهُ خارج ولم أكن أظنُّه منكم ، فلو أعلم أنِّي أخلص إليه لَتَجَشَّمْتُ[١] لقاءَه ، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدميه ، ثُمَّ دعا بكتاب

(١) تَجَشَّمتُ كذا وكذا ، أي : فعلته على كُره ومَشَقَّةٍ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ١٠٠ .

رسول الله ﷺ فقرأه ، فلمَّا فرغ من قراءته ارتفعت الأصوات عنده وكَثُرَ اللَّغط وأُمِرَ بنا فأُخرجنا ، قال أبوسفيان : فقلت لأصحابي حين أُخرجنا : لقد عَظُمَ أمر ابن أبي كبشة ، إنَّهُ ليخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقنـًا بأمر رسول الله ﷺ أنَّهُ سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام[1] .

ثُمَّ أرسل رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس[2] كتابـًا مع عبدالله بن حذافة السَّهمي[3] ، فلمَّا قرأ الكتاب وفيه : «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد رسولِ الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإنِّي أنا رسول الله إلى النَّاس كافَّة ، لأُنذر من كان حيًّا ويحقَّ القول على الكافرين ، فإن تُسْلِم تَسْلَم ، وإن أبيتَ فإنَّ إثم

(١) صحيح البخاري ، بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ ١/ ٧ ، برقم (٧) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، ٣/ ١٣٩٣ ، برقم (١٧٧٣) .

(٢) فَارِس : اسم بلد وليس باسم رجل ، لا ينصرف ، وأصله ليس بعربي بل هو فارسيّ معرّب ، أصله بارس وهو غير مرتضى فعُرِّب فقيل فارس . وهي ولاية واسعة وإقليم فسيح ، أول حدودها من جهة العراق أرّجان ومن جهة كرمان السّيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٢٦ .

(٣) عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي ، يكنى أبا حذافة ، أسلم قديمًا ، وصحب رسول الله ﷺ ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، مع أخيه قيس بن حذافة ، وهو أخو خنيس بن حذافة ، زوج حفصة بن عمر بن الخطاب قبل النبيّ ﷺ ، يُقال : شهد بدراً . مات سنة إحدى وسبعين ، وله إحدى وثمانون سنة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٣/ ٢١٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥٠ .

المجوس عليك .

فلما قُرِئَ الكتاب على كسرى مزَّقه ، فدعا عليه ﷺ قائلًا : «اللهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَه»[١] ، ثم قامت ثورة كبيرة ضدَّ كسرى من داخل بيته ، قام عليه ابنه شِيْرُوَيه فقتله ، وكان قبل ذلك قد كتب إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز برجلين جلدين ، فليأتياني به ، فأرسل باذان إلى رسول الله ﷺ برجلين معهما كتاب يأمره أن يسير معه إلى كسرى ، فلمَّا بلغ الرجلين عند رسول الله ﷺ وسمع مقالتهما وفيها تهديد ، أمرهما أن يلقياه غداً ، فلمَّا غدوا عليه ﷺ أخبرهما بأنَّ كسرى عدى عليه ولده وقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، فقالا : هل تدري ما تقول؟ أنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك باذان ، قال : «نَعَمْ أَخْبِرَاهُ ذَاكَ عَنِّي ، وَقُوْلا لَهُ إنَّ دِيْنِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ كِسْرَى ، وينتهي إلى الخُفِّ والحَافِرِ ، وقولا له : إن أَسْلَمْتَ أعطيتُكَ ما تَحتَ يَدَيْكَ ، وَمَلَّكْتُكَ على قَوْمِكَ مِنَ الأَبْنَاء» ، فخرجا حتى قدما على باذان ، فأخبراه الخبر ، ثُمَّ جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال شيرويه في كتابه : انظر الرَّجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن[٢] .

---

(١) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ٤/ ٣٨٨ .

(٢) انظر : أبونعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) : دلائل النبوة ، ت : د.محمد رواس قلعجي ، عبدالبر عباس ، دار النفائس ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص : ٣٤٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/ ٤٨٦-٤٨٧ .

وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى[١] ، فأسلم ، فأقرَّه رسول الله ﷺ[٢] .

وكتب إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط[٣] ، سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، أمَّا بعد : فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَم ، يؤتِكَ الله أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت فإنَّ عليك إثم أهل القبط ، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٤][٥] .

واختار رسول الله ﷺ لحمل هذه الرِّسالة حاطب بن أبي بلتعة[٦] ،

---

(١) المنذر بن سَاوَى بن الأخنس بن بيان بن عمرو بن عبدالله بن زيد بن عبد الله بن دارم التميميّ الدارميّ . كان عاملًا على البحرين ، كتب إليه النبيُّ ﷺ مع العلاء بن الحضرميّ قبل الفتح فأسلم ، ثم استقدم النبيُّ ﷺ العلاء بن الحضرميّ ، فاستخلف المنذر بن ساوى مكانه . قال ابن مندة : كان عامل النبيّ ﷺ على هجر . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٥/ ٢٥٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ١٧٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٧٦ .

(٣) القِبْط : هُم أهل مصر . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٦ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٦٤) .

(٥) انظر: سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري ، (ت: ٦٣٤هـ) ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢/ ١٤.

(٦) حاطب بن أبي بَلْتَعَة ابن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللَّخمي ، حليف بني أسد بن عبدالعزّى . قيل أنَّه كان مولى عبيد الله بن حميد بن زهير بن =

فلمَّا دخل حاطبٌ على المقوقس قال له : إنَّهُ كان قبلك رجل يزعمُ أنَّهُ الربُّ الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ثُمَّ انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ، فقال المقوقس : إنَّ لنا ديناً لن ندعه إلَّا لما هو خيرٌ منه ، فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله ، وترك ما سواه ، إنَّ هذا النبيَّ ﷺ دعا النَّاس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له يهود ، وأقربهم منه النَّصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلَّا كبشارة عيسى بمحمَّد ، وما دعاؤنا إيَّاك إلى القرآن إلَّا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكُلُّ نبي أدرك قوماً فهم أُمَّته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبيَّ ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ، ولكن نأمرك به[١] . أي أنَّ دين المسيح الصحيح الذي بعثه الله به هو الإسلام وهو عبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ، وهذا هو الدِّين الذي بُعثت به جميع الرُّسل .

فقال المقوقس : إنِّي قد نظرت في أمر هذا النبيِّ فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالسَّاحر الضَّال ،

=

الحارث بن أسد فكاتبه فأدَّى مكاتبته . اتفقوا على شهوده بدراً ، فيه نزلت ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ..﴾ . قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، فجئته بكتاب رسول الله ﷺ ... الحديث . مات حاطب سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله خمس وستون سنة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٦٥٩ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٤ .

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٥١٧ ، محمد ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ت : إبراهيم رمضان ، دار القلم - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٤/ ١٩٩٣ ، ٢/ ٣٣٢ .

ولا الكاهن الكذَّاب ، ووجدت معه آلة النبوَّة بإخراج الخَبء ، والإخبار بالنَّجوى ، وسأنظر ، إلَّا أنَّهُ لم يُسْلِم وبعث إلى رسول الله ﷺ جاريتين وهما مارية تسرَّاها ، وسيرين أعطاها لحسَّان بن ثابت ، كما أهدى إلى رسول الله ﷺ بغلةً يركبها[١] .

ثُمَّ كتب رسولُ الله ﷺ كتاباً إلى جَيْفَر بن الجَلندى[٢] ملك عمان ، وبعث به مع الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه فأسلم هو وأخوه عبد بن الجلندى[٣] .

وكتب أيضاً كتاباً إلى عظيم بصرى ، بعث به مع الصَّحابي الحارث بن عمير الأزدي[٤] رضي الله عنه فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ،

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٥١٧ ، محمد ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ت : إبراهيم رمضان ، دار القلم - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٤/ ١٩٩٣ ، ٢/ ٣٣٢ .

(٢) جَيْفَر -بوزن جعفر ، لكن بدل العين تحتانية- بن الجلندي بن المستكبر بن الحراز بن عبدالعزى بن معولة بن عثمان بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران الأزدي العماني كان رئيس أهل عمان هو وأخوه عبدبن الجلندي ، أسلما عَلَى يد عمرو بن العاص لما بعثه رَسُول اللهِ ﷺ إلى ناحية عمان ، ولم يقدما على النَّبِيّ ﷺ ولم يرياه ، وكان إسلامهما بعد . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٥٨١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٦٤٠ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٦٠٧ .

(٤) الحارث بن عمير الأزدي ، أحد بني لهب ، بعثه رسول الله ﷺ بكتابه إلى الشام ، إلى ملك الروم ، وقيل : إلى ملك بصرى ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فأوثقه رباطاً ، ثم قدم فضربت عنقه صبراً ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فلمَّا وصل خبره لرسول الله ﷺ بعث البعث الذي سيره إلى مؤتة ، وأمر عليهم زيد بن حارثة ، في نحو ثلاثة آلاف ، فلقيتهم الروم في نحو مائة ألف . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٦٢٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٦٨٢ .

وكان عاملًا على البَلْقَاء[١] من أرض الشَّام من قبل قيصر ، فأمسك به ثُمَّ قدَّمه فضرب عنقه ، فلمَّا كان قتل السُّفراء والرُّسل من أشنع الجرائم بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، الأمر الذي استاء منه رسول الله ﷺ وحزن لأجله ، فما إن بلغه الخبر حتى جهَّز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمَّر على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال لهم رسول الله ﷺ : إن أصيب زيد فجعفر ، وإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة[٢] ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم ، وقال لهم : اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ولا تغيروا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلًا بصومعته ، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجراً ولا تهدموا بناءً ، فسار الجيش حتى نزل مُعان[٣] بأرض الشَّام ،

---

(١) البَلْقَاء : على لفظ تأنيث أبلق ، كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، والبلقاء في العصر الحاضر إقليم من أرض الشام في الأردن ، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عمان عاصمة الأردن . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٤٨٩ ، البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ١/ ٢٧٥ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٤٩ .

(٢) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن الخزرج ، يكنى أبا محمد ، صحابي ، شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كُلَّها إلَّا الفتح وما بعده ؛ لأنَّه قتل يوم مؤتة شهيداً ، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة ، من الشعراء المحسنين الذين كانوا يَرُدُّون الأذى عن رسول الله ﷺ . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ٨٩٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٧٢ .

(٣) مُعَان : بضمّ أوّله ، وهي بين الحجاز والشام ، حصن كبير على خمسة أيّام من دمشق بطريق مكّة . انظر : البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد =

وعندما نقلت إليهم طليعة الجيش الأخبار بأنَّ هرقل نازل بمآب[1] من أرض البلقاء في مائة ألف من الرُّوم ، وانضمَّ إليهم من لخم وجذام وبهراء وبلي مثلهم ، فتشاوروا واستقرَّ رأيهم على مناجزة العدو ، بعد أن شجَّعهم عبدالله بن رواحة رضي الله عنه قائلًا : والله يا قوم إنَّ الذي تكرهون : الذي خرجتم له تطلبون الشَّهادة ، وما نقاتل النَّاس بعُدَّة ولا قوَّة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلَّا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحُسنيين : إمَّا ظهور ، وإمَّا شهادة ، فقال النَّاس : صدق والله ابن رواحة[2] .

عند ذلك تحرَّك جيش المسلمين والتقى بجيوش الكفر الغفيرة ، ودارت معركة من أعنف المعارك في تاريخ الإسلام حتى قال فيها خالد بن الوليد : لقد تكسَّر في يدي تسعة أسياف ، فما صبر معي إلَّا صفيحة لي يمانيَّة ، بهذا القول يصف لنا شدَّة المعركة وقوَّة بلاء المسلمين وكثرة تساقط العدو بعون الله لما منحهم من قوَّة وصلابة وصبر وثبات حتى أرهبوا العدو وأذلُّوهم ، فكان المسلمون كالرِّيح المرسلة رجال كالجبال

=

والمواضع ، ٤/ ١١٧٢ ، ٤/ ١٢٤١ .

(١) مَآب : بعد الهمزة المفتوحة ألف ، وباء موحدة ، بوزن مَعَاب ، وهي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء . وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٣١ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٢٧٧ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٦٠ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٧٥ ، سليمان بن موسى الحميري : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ، ١/ ٤٩٣ .

لا يقف أمامهم شيءٌ ، وقد استشهد زيد بن حارثة ، ثُمَّ جعفر ، ثُمَّ عبدالله بن رواحة رضي الله عنهم جميعـًا ، كما سماهم رسول الله ﷺ حتى أخذ الرَّاية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقام بخطة انسحاب ما عرف التَّاريخ مثلها حتى الآن ، ففي اليوم التالي الذي تولَّى فيه جعل المؤخرة مقدمة ، وجعل الميسرة ميمنة ، وجعل كتائب تأتي من الخلف ، فاعتقد الرُّوم أنَّهُ قد جاء لهم مدد ، فخافوا ، وجعل كُلَّ ما أتت كتيبة كبَّرت وكبَّر الجيش بأعلى صوته ، فجعل الكتائب لا تنقطع ، والتَّكبير كذلك ، حتى أمر بالهجوم العام بأشد ما لديهم من قتال ، الأمر الذي أرعب الرُّوم ، فلما توغَّلوا في العدو واختلفت صفوفهم وأحرُّوا القتل فيهم ، أمر مباشرة بالتَّراجع شيئًا فشيئًا وسار الجيش إلى الوراء وانحاز بالنَّاس حتى أوهم العدو أنَّ هناك كمين ، وما زال الجيش يتقهقر وجيش العدو لا يتقدَّم إلى أن حال الليل بينهم ، ثُمَّ قفلوا راجعين ، ومع عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد والعُدَّة إلَّا أنَّهُ لم يستشهد من المسلمين سوى اثنا عشر رجلًا ، أمَّا عدد قتلى الروم فلا يُعرف من كثرتهم ، فقد لقَّنوا الرُّوم وأتباعهم درسـًا لن ينسوه ، فباتوا وقد أرهبتهم بسالة المسلمين وإقدامهم وقوَّة إيمانهم ، مع قلَّة عددهم إلَّا أنَّ كِفَّة المسلمين رجحت وحقَّقوا من هذه الغزوة أهدافًا كثيرة ، منها : تأديب من قام بقتل رسول رسول الله ﷺ ، إبراز قوَّة المسلمين وإقدامهم ، إزالة هيبة الرُّوم من قلوب النَّاس ، تأمين الخطوط الشمالية[1] . فلمَّا عاد الجيش إلى المدينة سمع رسول الله ﷺ بتجمُّعٍ لبعض القبائل لغزو

(١) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٣٣٨ .

المدينة ، أرسل سريَّة بقيادة عمرو بن العاص فيها رؤوس المهاجرين والأنصار ، فلمَّا علم بكثرة العدو طلب المدد من رسول الله ﷺ فأمدَّه بمائتي مقاتل ، فاجتمع لعمرو خمسمائة محارب ، فراح يجوب قبائل الشَّمال المعادية للإسلام ، فما سمع بتجمُّع لهم إلَّا صبَّحهم أو مسَّاهم ، فهابت تلك القبائل وسالمت حتى لا تفكِّر أن تغزو المدينة ثانيـًا ، ثُمَّ عادوا بالعزَّ والظَّفر .

وتعتبر غزوة ذات السَّلاسل آخر الغزوات قبل فتح مكة ، فكان لا بُدَّ من تحقُّيق الأمن والسَّلام في المنطقة الشمالية[1] بعد أن أخمد فتنة يهود خيبر حتى يتسنَّى للفتح العظيم .

وقد كانت جميع المعارك والغزوات هي لهدف سامٍ ومقصد عظيم وهو توطيد الأمن ونشر الدَّعوة داخل الجزيرة وخارجها . وهذا يلاحظ في كتب النبيِّ ﷺ إلى الملوك في التَّأكيد على التَّوحيد ، والأمر بإفراد الله تعالى بالعبادة ، كما كان يرسل الرسل أيضـًا لتعليم النَّاس وتفقيههم في الدِّين وتعريفهم بالإسلام ونبذ الأصنام ، ومن ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله النبيُّ ﷺ إلى اليمن فقال : «فليَكُن أوَّل ما تَدْعُوهم إلى أن يُوَحِّدوا الله تعالى..»[2] ، فيتَّضح من خلال ما سبق أنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخذ جميع الوسائل المعينة على تبليغ رسالة الله للنَّاس أجمعين ، ونشر الدَّعوة ، والتَّحذير من تلك الأوثان التي جعلوها

---

(١) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ١٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ٦/ ٢٦٨٥ ، برقم (٦٩٣٧) .

أربابـًا وأنداداً ، ومن ذلك إرسـال الرُّسـل إلـى الملـوك والأمـراء لتبليغهم دين الله ، والجهاد في سبيل الله ضدَّ من يقف في سبيل الدَّعوة أو من يحول بينها وبين عباد الله ، هذا والله وأعلم والحمد لله ربِّ العالمين .

الفصلُ الثَّاني :
هدمُ الأوثانِ في مكَّة وما حولَها عامَ الفتح

المبحث الأوَّل : هدم الأوثان في الكعبة والمسجد الحرام ومكة .

المبحث الثَّاني : سريَّة خالد بن الوليد ﵁ لهدم العزَّى .

المبحث الثالث : سريَّة عمرو بن العاص ﵁ لهدم سواع .

المبحث الرابع : سريَّة سعد بن زيد الأشهلي ﵁ لهدم مناة .

المبحث الخامس : سريَّة الطفيل بن عمرو ﵁ لهدم ذي الكفَّين .

المبحثُ الأوَّل :
هدمُ الأوثانِ في الكعبةِ والمسجدِ الحرامِ ومكَّة

لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُطَهِّر مكَّة وبيته الحرام مِن الأصنام وعبادة الأوثان ، جعل لذلك سبباً وقدراً ، لذا سأذكر في هذا المبحث الأحداث التي سبقت فتح مكة وما صاحبها من مجريات تحقق إثرها هدم تلك الأوثان وزوالها ، ومن تلك الأحداث المهمَّة صلح الحديبية ، الذي كان فتحاً عظيماً للمسلمين حقَّق الأمن والسَّلام والاستقرار في المنطقة ؛ حيث انطلقت الدَّعوة إلى التوحيد تشقُّ طريقها في أنحاء الجزيرة وخارجها ، ومن ذلك إرسال الرسل إلى الملوك والزعماء بالدَّعوة إلى الله ، فدخل في الإسلام أفرادٌ وقبائل وناس كثير ، إلَّا أنَّهُ كان مِن وقائع صلح الحديبية أن دخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ ، ودخلت بكر في حلف قريش ، وبين بكرٍ وخزاعة في الجاهليَّة دماء وثارات فكانوا على حذر ويقظة ، فلمَّا كانت الهدنة هدأت النُّفوس وسكنت الفتن وأمِنَ النَّاسُ بعضهم بعضاً فترةً مِنَ الزَّمن والَّتي تحقَّق فيها كثيرٌ من المصالح والأهداف القيِّمة ، إلَّا أنَّ بنو الدِّيل[1] بطن من بطون بكر مازالوا على الشرك فاغتنموا تلك الهدنة وجعلوها فرصةً ، وأرادوا أن يُصيبوا مِنْ خزاعة ثأراً لهم ، فخرجوا ليلًا وقائدهم نوفل بن معاوية الدِّيلي[2] ، وأعانتهم قريش بالسِّلاح ، وانضمَّ رجالٌ منهم إلى صفوف

---

(١) بنو الدِّيل -بكسر الدَّال المهملة وسكون الياء- : بطن من بطون كنانة ، وهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة . انظر : محمد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها ، ص : ٤٦ ، عبدالكريم بن محمد السمعاني (ت : ٥٦٢هـ) : الأنساب ، ت : عبدالرحمن المعلمي ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، ط : ١ ، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م ، ٤٤٩/٥ .

(٢) نوفل بن معاوية بن عروة بن صخر بن يعمر بن نفاثة بن عديّ بن الدِّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة الكناني ثم الدِّيلي ، صحابي له أحاديث ، أسلم وشهد حُنيناً =

بني بكر أحلافهم فهجدوا[١] خزاعة ليلًا على ماء يُقال له الوَتِير[٢] ، وقاتلوهم حتَّى انحازت خزاعة إلى الحرم ، فقالت بكر لنوفل : إلهك إلهك إنَّا قد دخلنا الحرم ، فقال كلمةً عظيمة : لا إله اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنَّكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه[٣] ، فعدوا عليهم وقتلوهم ، فلم يمضى على صلح الحديبية إلَّا عامٌ ونصف العام حتى نقضت قريش الصلح وظاهرت على خزاعة حلف رسول الله ﷺ فأصابوا منهم في الحرم ، لذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي[٤] حتَّى قدم المدينة فقام بين يدي رسول الله ﷺ ينشده شعراً ويخبره بما فعلت قريش ، وأنَّها غدرت بهم ونقضت العهد ، فقال رسول

=

والطائف ، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، توفي سنة ٦٠ هـ . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٥١٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٣٨٠ .

(١) هجدوا : أي : تَيَقَّظُوا ، ولا يكون الهجود إلَّا في الليل ، ومعناه أنهم أغاروا عليهم وهم هجود . انظر : ابن السكيت : يعقوب بن إسحاق (ت : ٢٤٤هـ) : الألفاظ ، ت : فخر الدين قباوة ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط : ١ ، ١٩٩٨م ، ص : ٤٦٧ .

(٢) الوَتِير -بفتح الواو وكسر المثناة تحت ، وآخره راء- : موضعٌ معروفٌ جنوب غربي مكَّة على حدود الحرم ، يبعد عن مكة (١٦) كيلًا ، وهو من ديار خزاعة قديمًا وحاليًا ، وقد أُطلق اليوم على حيِّزٍ منه اسم الكعكية ، وعلى حيِّزٍ آخر منه اسم العُكيشيَّة . انظر : البلادي : معجم معالم السيرة النبوية ، ص : ٣٣١ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٩٠ .

(٤) عمرو بن سالم بن حصين بن سالم بن كلثوم الخزاعي ، صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ أحاديث ، وكان أحدمن يحمل لواء خزاعة يوم فتح مكة مع النبيِّ ﷺ . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ٣/ ١١٧٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥٢١ .

الله ﷺ : «نُصِرْتَ يا عَمْرُو بن سالم»[١] . فلما انتبهت قريش وتبيَّنت أنَّها نقضت العهد[٢] ندمت على فِعلتها ، فأسرع أبوسفيان إلى المدينة يشدُّ العقد ويزيد في المدَّة ، إلَّا أنَّهُ لم يجد قبولًا ، ومجيئه على هذه الصورة أكَّد الخبر عند رسول الله ﷺ ، فكان هذا الغدر ونقض العهد سببًا لفتح مكَّة والقضاء على دولة الشرك وهدم الأصنام الَّتي فيها ، لذلك أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يتجهَّزوا ، وأمرهم بالجدِّ والتَّهيؤ ، وقال رسول الله ﷺ : «اللهمَّ خُذِ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» . وفي رواية : «اللَّهُمَّ اعْمِ عَلَيْهِمْ خَبَرَنَا حَتَّى نَأْخُذَهُمْ بَغْتَةً»[٣][٤] .

فحرص رسول الله ﷺ حرصًا شديداً على إخفاء أمره فأخذ جميع الاحتياطات اللازمة ، ليبغت قريشًا في دارها قبل الاستنفار حتى لا يقع قتال تعظيمًا لمكَّة وحرمتها[٥] .

فلمَّا همَّ رسول الله ﷺ بالمسير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى

---

(١) البيهقي : السنن الكبرى ، جماع أبواب الشَّرائط الَّتي يأخذها الإمام على أهل الذِّمة.. ، باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد ، برقم (١٨٨٥٩) ، ٩/ ٣٩٠ ، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح وحسنه ، ٧/ ٥٢٠ .
(٢) انظر : الفارابي : معجم ديوان الأدب ، ٢/ ١١٨ .
(٣) الطبراني : المعجم الصغير ، برقم(٩٦٨) ، ٢/ ١٦٧ .
(٤) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٩٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٩٥-٣٩٧ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ١٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/ ٥٢٠ ، محمد أحمد باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ، ٨/ ٥٨ .
(٥) انظر : د. محمد السُّلَميُّ ، وآخرون : صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ، ص :٢٥٠ .

قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺبالسير إليهم ، فأتى رسول الله ﷺ الوحي بما صنع حاطب ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : «يَا حَاطِبْ!مَا حَمَلَكَ على هذا؟!» ، فقال : يا رسول الله ، أما والله إنِّي لمؤمنٌ بالله ورسوله ما غيَّرت ولا بدَّلت ، ولكنِّي كنت امرئ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه ، فإنَّ الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : «وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَر لَعَلَّ الله قَدْ اطَّلَعَ إلى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[١] ، فأنزل الله تعالى في حاطب : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ إلى قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[٢] .

فلمَّا استنفر رسول الله ﷺ المسلمين أتته جموعهم من كلِّ صَوب ، فاجتمع له عشرة آلاف مقاتل[٣] فأمر رسول الله ﷺ بالخروج لعشرٍ مضين من رمضان سنة ثمانٍ للهجرة ، وقد أوعب[٤] مع رسول الله ﷺ المهاجرين والأنصار لم يتخلَّف منهم أحد ، فتحرَّك رسول الله

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ، ٤/ ١٨٥٥ ، برقم (٤٦٠٨) . وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ٧/ ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآيات : (١-٤) .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٠٢-١٠٣ .

(٤) أوعب القوم : إذا خرجوا كُلُّهم ، ولم يتخلَّف منهم أحد . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ٨٠٠ .

ﷺ بجيشه ، حتى إذا بلغ الجحفة[١] لقيه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً بعياله إلى الله ورسوله ، ففرح به رسول الله ﷺ ، وانضمَّ إلى الجيش ، فسار رسول الله ﷺ فلما بلغ نِيقَ العُقَاب[٢] لقيه أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب[٣] وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة[٤] فأرادوا الاستئذان والدخول على رسول الله ﷺ ، فكلَّمته أمُّ سلمة فيهما ، فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأمَّا ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له ، قال : والله ليأذننَّ لي أو لآخذن بيدي بني هذا ، ثُمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتى

---

(١) الجُحْفَة -جيم مضمومة وحاء ساكنة وفاء ثم هاء- : كانت مدينة عامرة ومحطة من محطات الحاج بين الحرمين ، ثم تقهقرت في زمن لم نستطع تحديده ، لها آثار شرق مدينة رابغ بحوالي (٢٢) كيلًا ، إذا خرجت من رابغ تؤم مكة كانت إلى يسارك حوز السهل من الجبل . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة في السيرة النبويَّة ، ص : ٧٩-٨٠ .

(٢) نِيقُ العُقَاب : هي موقع بين مكة والمدينة قرب الجحفة . ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٥/ ٣٣٣ .

(٣) أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمي القرشي . ابن عم النبي ﷺ وأخاه من الرضاعة ، أرضعتهما حليمة السعدية . قِيل اسمه المغيرة ، وقيل اسمه كنيته . كان ممَّن يشبه رسول الله ﷺ . كان من الشعراء المطبوعين ، أسلم عام الفتح وحسن إسلامه وشهد حنيناً وأبلى فيها بلاءً حسناً ، مات سنة عشرين. انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٦/ ١٤١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ١٥١ .

(٤) عبد الله بن أبي أمية : واسمه حذيفة ، وقيل : سهل بن المغيرة المخزوميّ ، صهر النبي ﷺ وابن عمته عاتكة ، وأخو أم سلمة . قال البخاري : له صحبة ، وله ذكر في الصحيحين . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ١٠ .

نموت عطشاً وجوعاً ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما فدخلا عليه وأسلما[1] .

ثُمَّ سار رسول الله ﷺ وكان صائماً حتَّى إذا كان بالكَدِيد[2] بين عسفان وأَمَج[3] أفطر ، ثُمَّ مضى حتى نزل مَرَّ الظهران ، فأمر رسول الله ﷺ أن تُشعل النِّيران تلك اللَّيلة ، وقد عَمِيَت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل ، وكانوا يخرجون إلى الطُّرقات شمال مكَّة يتلمَّسون الأخبار ، حتَّى كانت اللَّيلة الَّتي نزل فيها رسول الله ﷺ مرَّ الظهران ، قال العباس بن عبدالمطلب : واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكَّة عُنوَةً قبل أن يأتوا فيستأمنوه إنَّهُ لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ وخرجت عليها لعلِّي أجد بعض الحطابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، وما زلت ألتمس لعلِّي أجد أحداً حتى جئت

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٠٠-٤٠١ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٢٠٨ .

(٢) الكَدِيد -بفتح الكاف وكسر الدال المهملة- : موضع بين عسفان وأمج ، والمسافة بينهما عشرون كيلا فقط تُعرف اليوم باسم «الحمض» ، على مسافة (٩٠) كيلًا من مكة ، على طريق المدينة . انظر: البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص : ٢٦٣ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٣١ .

(٣) أَمَج -بالجيم وفتح أَوَّله وثانيه- : قريةٌ بالقرب مِنْ مكَّة ، ويعرف أمج اليوم بخليص: واد زراعي على مائة كيل من مكة شمالا على الجادة العظمى. كان من ديار كنانة ، ثم آل إلى حرب ، وهم سكانه اليوم. ، وليست من أعراض المدينة كما نقل بعضهم . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ١/ ٢٤٩ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص :٣٢ .

الأراك[١] ، وفي تلك اللَّيلة خرج أبوسفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار .

قال العباس : فوالله إنِّي لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل يتراجعان ، يقول أبوسفيان : ما رأيت كاللَّيلة نيرانـًا قط ولا عسكراً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حَمِشَتْها[٢] الحرب ، قال أبوسفيان : خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي ، فقال : أبوالفضل؟ قلت : نعم ، قال : ما لك فداك أبي وأمي ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله ﷺ في النَّاس ، واصباح قريش والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنُه لك ، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه ، قال : فجئت به ، فكلَّما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها ، قالوا : عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته ، حتَّى مررتُ بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : مَن هذا؟ وقام إليَّ ، فلمَّا رأى أبا سفيان على الدَّابة ، قال : أبوسفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهد ، ثُمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ ، وركضت بالبغلة ، فسبقته ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه

---

(١) الأراك : أصل كلمة الأراك الشَّجر المعروف الَّذي يُتَّخذ منه السِّواك ، وأمَّا منطقة الأراك فتقع قُرب مكَّة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ١٣٥ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٥ .

(٢) حَمِشَتْها الحرب : أي : اشْتَدَّت وازداد لَهَبُهَا ، يُقال حَمِشَ الشَّرُّ : اشْتَدَّ ، وأَحْمَشْتَ النَّارَ إذا أَلْهَبْتَها . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٤٤١ .

عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبوسفيان قد أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إنِّي قد أجرته ، ثُمَّ جلست إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يُناجيه اللَّيلة دوني رجل ، فلمَّا أكثر عمر في شأنه ، قلت : مهلًا يا عمر ، فو الله أن لو كان مِن رجال بني عدي بن كعب[1] ما قلت هذا ، ولكنَّك قد عرفت أنَّهُ من رجال بني عبدمناف ، فقال : مهلًا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلَّا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ :«اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَاس إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ»[2] ، قال : فذهبت به إلى رحلي ، فبات عندي ، فلمَّا أصبحنا غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله» ، قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد ، قال : «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ الله»؟ قال : بأبي أنت

---

(١) بطنٌ مِنْ قُرَيش ، وهم : بنو عدي بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وولد عدي بن كعب : رَزَاح -بفتح الرَّاء والزَّاى- وعويج ، ومِنْ عدي بن كعب : العمريُون وهم بنو عمر بن الخطاب . انظر : البَلَاذُري : أنساب الأشراف ، ١٠/ ٢٨٤ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١٥ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٧٦٦ ، و٥/ ٣٥١ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٠٢-٤٠٣ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٢١٢ .

وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَّا هذه والله فإنَّ في النَّفس منها حتى الآن شيئًا ، فقال له العباس : ويحك! أسلم واشهد شهادة الحقِّ ، فأسلم -فالدَّعوة إذا إلى توحيد الله هي الغاية لذلك ، فأوَّل ما عرض رسول الله ﷺ على أبي سفيان الدعوة إلى الله لإنقاذه من الشرك مع ما كان عليه من الكفر والعناد وحرب الإسلام طوال المُدَّة الَّتي مضت ، إلَّا أنَّ رسول الله ﷺ لم يؤاخذه به ليعلم العالم بأسره أنَّ الإسلام دين الرَّحمة والرِّفق وليس القتل والانتقام- فلمَّا أسلم أبوسفيان وشهد شهادة الحقِّ أصبح فرداً من أفراد المسلمين ، بل إنَّ رسول الله ﷺ جعل لأبي سفيان قدرا لمكانته من قريش حين قال العباس : قلت يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ هذا الفخر ، فاجعل له شيئًا ، قال : «نَعَمْ! مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ» ، فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : «يَا عَبَّاس ، احْبِسهُ بِمَضِيقِ الوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الجَبَلِ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ الله فَيَرَاهَا» ، قال : فخرجت حتَّى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه ، قال : ومرَّت به القبائل على راياتها ، كلَّما مرَّت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه؟ فأسمِّيها له ، فيقول : ما لي ولبني فلان ، حتَّى مرَّ رسول الله ﷺ في كتِيبته الخضراء ، وسُمِّيت خضراء لكثرة ما فيها من السِّلاح والحديد ، وفيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم ، لا يرى منهم إلَّا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله! يا عباس ، مَن هؤلاء؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحدٍ بهؤلاء

قِبَلٌ ولا طاقة[١] ، وحين مرَّت الألوية بأبي سفيان في الوادي ، والكتائب النبويَّة في تعبئة دقيقة ، وفي حالة انضباط أدقّ ، فكان عَرْضًا عسكريًا على أروع صورة دهش لها أبوسفيان الَّذي لا يكاد يصدِّق ما يراه من انتظامٍ ما عرفته العرب في تاريخها العسكري عبر تلك العصور ، وقد أخذت الدَّهشة من نفس أبي سفيان كُلَّ مأخذ وأشد شيءٍ دهش له هذا التبدُّل الكامل الذي غيَّر مجرى حياة المسلمين تغييرًا جذريًا ، حيث زال عنهم كُلُّ أمرٍ سوء ، وحلَّ محله كُل حسن بسبب تركهم للشِّرك ، واعتقادهم عقيدة التوحيد التي كان اعتناقها مصدر كُلِّ هذه التحولات الجذريَّة في حياة هؤلاء القوم ، الذين كانوا ضِعافًا فقوَّاهم الله ، وكانوا أذلَّاء فأعزهم الله بالإسلام ، وكانوا متفرقين متناحرين فجمعهم الله تحت لواء الوحدة الإسلامية في انتظامٍ رائع عجب منه سيِّد قريش الذي عبَّر عن دهشته وتعجُّبه لما رأى بقوله : «ما رأيت يا أبا الفضل مُلكًا كهذا قط ، لا مُلك كسرى ولا مُلك بني الأصفر ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا»[٢] . قلت : يا أبا سفيان ، إنَّها النبوَّة ، قال : فنعم إذن ، قلت : النجاء إلى قومك ، حتَّى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه زوجه هند بنت عتبة ، وهي تعنِّفه

---

(١) الطبراني : المعجم الكبير ، ٨/ ٩ ، برقم (٧٢٦٤) ، وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٢١٢-٢١٣ . قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ، ٦/ ١٦٧ .

(٢) هو جزء من الحديث السابق قبله . انظر : باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٨/ ١٥٦ .

وتعيِّره ، قال : ويلكم لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم ، فإنَّهُ قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله! وما تغني عنَّا دارُك ، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرَّق النَّاس إلى دورهم وإلى المسجد[١] . وبهذا تحقَّقَ للنبيِّ ﷺ أعظم النَّجاح عندما أخفى عزمه لفتح مكة ، وكتم الأخبار عن قريش قبل أن تستعدَّ وتُعِدَّ العدَّة للحرب والقتال وتشرع في التجهُّز للدفاع عن مكَّة وعن أموالهم وذراريهم ، حين بثَّ عيونه داخل وخارج المدينة ليقضي على كُلِّ محاولة لتسريب الأخبار إلى قريش ، وبقي النبيُّ ﷺ يقظاً كُلَّ اليقظة حذراً كُلَّ الحذر حتَّى وصل إلى أطراف مكَّة دون أن تعلم قريش بهذا الجيش العَرَمْرَم الَّذي أحاط بمكة مِن جميع جهاتها ، الأمر الذي فجأ قريشاً وبهتها ، فلمَّا انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى قسَّم جيشه إلى أربع كتائب ، ووقف على راحلته مُعْتَجِراً[٢] بشقة[٣] بُرْدٍ حِبَرَة حمراء[٤] ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إنَّ عُثْنُونَه[٥] ليكادُ يمسُّ واسطة

---

(١) الطبراني : المعجم الكبير ، ٨/ ٩ برقم (٧٢٦٤) . وانظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٢٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٠٤-٤٠٥ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٢١١-٢١٤ .

(٢) الاعتجار : ليُّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك ، وفي بعض العبارات : لفُّ العمامة دون التلحي . فمعنى الحديث -إذًا- : أنَّهُ لَفَّهَا على رأسه ولم يتَلَحَّ بها . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ١٢/ ٥٣٤ .

(٣) شِقَّة : أي قِطْعة . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٤٩١ .

(٤) الحِبَرَةُ : ضَربٌ مِن بُرُود اليَمَن . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ١٠/ ٥٠٧.

(٥) العُثْنُونُ : اللِّحْيَةُ وما فَضَلَ منها بعد العارِضَين . انظر: الزبيدي : تاج العروس ، =

الرَّحل[١] .

ثُمَّ تحرَّك رسولُ الله ﷺ وقد أمر الزُّبير بن العوام أن يدخل مِن كُدَى[٢] ، وكان على المجنبة اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كَدَاءٍ[٣] ، إلَّا أنَّ سعد من شدَّة حماسه حين وجَّه داخلًا قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فسمعها عمر بن الخطاب ، فقال : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فكان رسول الله ﷺ حريصًا أن لا تُراق الدِّماء بالحرم وأن لا تُستباح حرمة مكَّة ، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : «أَدْرِكْه فخُذِ الرَّاية ، فكُنْ أَنْتَ الَّذِى تَدْخُلُ بِهَا» ، وأمر خالد بن الوليد فدخل مِنْ اللِّيط ، مِن أسفل مكَّة ، وكان على المجنبة اليمنى ، وأقبل أبوعبيدة بن الجراح بالصفِّ من المسلمين ينصب لمكَّة بين يدي رسول الله ﷺ ، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ[٤] مِنْ أَذَاخِر[١] ورأى لمعان السيوف ، قال :

=

٣٥/ ٣٧٥ .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/ ٥٤٧ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٢٦ .

(٢) كُدَى : بضم الكاف والقصر : هو ما يعرف اليوم بريع الرسام ، بين حارة الباب وجرول . أما كُدي : بضم الكاف وآخره ياء مثناة تحت : ريع ما زال يعرف بهذا الاسم ، جنوب شرقي المسجد الحرام ، يخرج منه إلى جبل ثور ثم إلى منى . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السِّيرة النَّبوية ، ص : ٢٦٢ .

(٣) كَدَاء -بالتَّحريك والمد- : هو ما يُعرف اليوم بريع الحجون ، يدخل طريقه بين مقبرتي المعلاة ، ويفضي من الجهة الأخرى إلى حي العتيبية وجرول . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السِّيرة النَّبوية ، ص : ٢٦١ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٣٠ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٠٦- ٤٠٧ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض =

«مَا هَذَا ، أَلَمْ أَنْهَ عَنِ القِتَالِ» ، قالوا : يا رسول الله ، هذا خالد بن الوليد قُوتل فقاتَل ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا يُخالف أمرك ، فقال رسول الله ﷺ : «قَضَاءُ خَيْرٍ»[٢]. وبهذا سيكون دخول مكَّة وضمّها لدولة الإسلام هو نهاية دولة الشرك ، والقضاء على قوى المشركين لاجتثاث عقيدة الكفر والضَّلال ونشر الأمن والتَّوحيد في ربوع المسجد الحرام ، وتطهيره من أدران الوثنيَّة والأصنام الَّتي كان وجودها في بيت الله سبباً لتعظيمها في أنحاء جزيرة العرب ، فكان هدم هذه الأوثان والقضاء عليها مِنْ أوَّل الأهداف الَّتي كان النبيُّ ﷺ يسعى لتحقيقها .

تقدَّم رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الحَجُون[٣] وقد ضرب له الصحابيُّ أبورافع[٤] قُبَّة من أدم[١] ، فأقبل رسول الله ﷺ ومعه أم سلمة

=

الأنف ، ٧/ ٢١٩ .

(١) أذاخر جبل تضاف إليه الثنية ، وهذه الثنية تهبط على الأبطح من الشمال ، فيقال ثنية أذاخر ، ويسمون الثنية : ريع ذاخر . البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة في السيرة النبويَّة ، ص : ٨ .

(٢) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ١١ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٤١٧ ، د. محمد السُّلَميُّ ، وآخرون : صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ، ص : ٢٥٤ .

(٣) الحَجُون -بفتح الحاء المهملة ثُمَّ الجيم وآخره نون- : مكان في مكة لا زال معروفاً ، وهو جبل بأعلى مكَّة عنده مدافن أهلها ، وجاء في البخاريِّ أنَّ رسول الله ﷺ أمر أن تركز رايته بالحجون يوم فتح مكة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢٢٥ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٩٧ .

(٤) أسلم أبورافع مولى رسول الله ﷺ ، غلبت عليه كُنيته ، واختلف في اسمه ، كان للعباس فوهبه للنبيِّ ﷺ ، وقيل : كان مولى لسعيد بن العاص فورثه بنوه ، وهم ثمانية ، فأعتقوه كلُّهم إلَّا خالداً ، فإنَّه تمسَّك بنصيبه منه ، فكلَّمه رسول الله ﷺ

=

وميمونة ، ونزل بالقبة واطمأن واغتسل ، ثُمَّ دعا براحلته القصواء فأُدنيت إلى باب قبَّته ، ودعا للبس السِّلاح والمغفر على رأسه ، وقد صفَّ له النَّاس فركب راحلته يريد البيت ، والخيل تَمَعَّجُ[٢] بين الخندمة إلى الحجون ، فمرَّ رسول الله ﷺ وفي جنبه أبوبكر رضي الله عنه ببنات أبي أُحَيْحَة[٣] بالبطحاء حذاء منزل أبي أحيحة ، وقد نشرن رؤوسهن ، يلطمن وجوه الخيل بخمرهنَّ ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسَّم ، وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبوبكر رضي الله عنه :

تَظَلُّ جيادُنَا متمطِّراتٍ يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النِّسَاء[٤][٥]

=

ليعتق نصيبه ، أو يبيعه ، أو يهبه منه ، فلم يفعل ، ثم وهبه رسول الله فأعتقه ، وكان أبو رافع يقول : أنا مولى رسول الله ﷺ . مات أبو رافع بالمدينة قبل عثمان بيسير أو بعده . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ١٥٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ١١٣ .

(١) الأدم : الجلد . انظر : الجوهري : الصحاح ، ٥/ ١٨٥٨ .

(٢) مَعَجَ : أي أسرع . محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت : ٨١٧هـ) : القاموس المحيط ، ت : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط : ٨ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، ص : ٢٠٥ .

(٣) أبوأُحَيْحَة : سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، من سادات أمية في الجاهلية ، توفي في الطائف في السنة الأولى من الهجرة . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٣/ ٩٦ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٢٣ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٠/ ٣٩ ، ٤٠ .

(٥) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٣٤ .

ثُـمَّ سـار رسـول الله ﷺ حتـى انتهـى إلـى الكعبـة ، فلمَّـا رآهـا ، كبَّـر فكبَّـر المـسلمون لتكبيـره ، فرَجَّعُـوا[١] التَّكبيـر حتـى ارتجَّـت مكَّـة تكبيـراً ، والمشركون فوق الجبال ينظرون كيف كان خروج النبيِّ ﷺ عندما خرج من مكَّة خُفيَةً ، وها هـو يـدخلها علـيهم عُنوَة بهـذه العزَّة والقوَّة والنَّصر العظيم حتَّى أصبح هو حاكم مكَّة بأسرها والمسيطر عليها .

ثُـمَّ جعـل رسـول الله ﷺ يـشير إلـيهم أن اسـكتوا ، ثُـمَّ طـاف بالبيـت علـى راحلته ، آخذاً بزمامها محمد بن مسلمة[٢] رضي الله عنـه ، وحـول الكعبـة ثلاثمائة وستون صنمـًا مرصَّصة بالرصاص[٣] .

فكان هذا النَّصر التَّاريخي العظيم هو الفاصل بين الشرك والإيمان في بلد الله الحرام ، حيث تحوَّلت مكَّة المكرَّمة مِن تلك السَّاعة مِن بلدٍ يُعبـد

---

(١) الترجيع : ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر ، أو غير ذلـك ممـا يُتَـرنَّم بـه ، وقيـل : هـو تقـارب ضـروب الحركـات في الـصوت . الزبيـدي : تـاج العـروس ٢١/ ٧٦ .

(٢) محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن مالك الأوسيّ الأنصاريّ الحـارثي ، وُلـد قبـل البعثـة بـاثنتين وعـشرين سـنة ، وهـو ممَّـن سُـمِّيَ في الجاهليـة محمَّـدًا . كـان مـن فُـضلاء الـصَّحابة ، واسـتخلفه النَّبـيُّ ﷺ علـى المدينـة في بعـض غزواته ، وهو أحد الَّذين قتلوا كَعْب بْن الأشرف ، وكان ممَّن اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صِفِّين . مـات بالمدينـة سنة ثـلاث وأربعين ، ولـه سبع وسبعون سنة ، وكان طويلًا معتدلًا أصلع . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٣٧٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٢٨.

(٣) الواقـدي : المغـازي ، ٢/ ٨٣٢ ، أحمـد بـن علـي المقريـزي : إمتـاع الأسـماع ، ١/ ٣٩٠ ، ٧/ ٢٣٩ .

فيه الأصنام والأحجار إلى بلد يُعبد فيه الواحد القهار ، فعادت إلى الإسلام كما كانت في عهد الخليل عليه السلام ، قبل دخول الأصنام إليها .

سبق وأن ذكرت أنَّ أوَّل مَن أدخل تلك الأوثان والوثنية إلى مكَّة عمرو بن لحي حين غلب عليها وتولَّى أمرها ، فظفر بأهلها وأجلاهم عن الحرم ونفاهم عن مكة ، وتولَّى حجابة البيت ، ثُمَّ إنَّهُ مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إنَّ بالبلقاء من الشَّام حَمَّة[١] إن أتيتها بَرِأت ، فأتاها فاستحمَّ بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه؟ قالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة فنصبها حول الكعبة ، ودعا العرب إلى عبادتها[٢] ، وكان عمرو بن لحي كاهناً وملكاً من ملوك العرب ، فرض الأصنام على العرب بقوَّة السُّلطان ، وفرَّقها في القبائل وأمرهم بعبادتها وأوهمهم أنَّها تُقَرِّبهم إلى الله زلفى ، ومع مرور السِّنين لبَّس إبليس عليهم دينهم واعتقدوا النفع والضر في الأوثان ، وأنَّها تشفع وتنفع من دون الله ، فأصبحت كُلُّ قبيلةٍ تتعصَّب لآلهتها الَّتي نشئوا وترعرعوا على وجودها ، ورثها الأبناء عن الآباء فانغرست في نفوسهم عبادةً وتعظيماً وحمية لها .

وكان «هُبَل» من أكبر تلك الأصنام عند مشركي مكَّة ، وقد أتى به عمرو بن لحي من هِيت[٣] بأرض الجزيرة فنصبه على البئر في بطن الكعبة

---

(١) الحَمَّة : عين فيها ماء حار يُستشفى فيه بالغسل . الفراهيدي : العين ، ٣/ ٣٣ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٠٤.

(٣) هِيت –بالكسر وآخره تاء مثناة– : بلدة على الفرات ذات نخل كثير وخيرات =

وأمر النَّاس بعبادته[١] ، وكان هُبل على صورة إنسان مصنوع مِنَ العقيق الأحمر مكسور اليد اليمنى ، إلَّا أنَّ قريشًا أدركته وجعلت له يداً من ذهب ، فكانت قريش تعبده وتدعوا عنده وتقدِّم له الهدايا والنذور حتَّى إنَّ الرَّجل إذا قدم من سفره بدأ به على أهله ، فإذا طاف بالبيت حلق رأسه عنده ، وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام وقدامه سبعة أقداح ، وكان له خزانة للقربان في جوف الكعبة وقربانه مائة درهم وجزور ، فإذا أرادوا أن يختنوا غلامًا أو أن ينكحوا أيِّمًا أو يدفنوا ميتًا ذهبوا إلى هبل بمائة درهم وجزور ، ثُمَّ قالوا لغاضرة بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي ، وكانت القداح إليه لقد أردنا كذا وكذا فاضرب لنا على فلان ، وقد شَكُّوا في نسبه فيضرب لهم بالقداح وكان مكتوبًا في أولها : صريح ، والآخر : ملصق ، فإن خرج : صريح ألحقوه ، وإن خرج ملصق ، دفعوه ، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو نكاحًا ، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، وكانوا إذا جاءُوا هُبَلَ بالقربان وضربوا بالقداح ، قالوا :

إِنَّا اختلفنا فهبِ السراحا ... ثلاثةً يا هُبَل فِصاحا

الميِّت والعُذرة والنِّكاحا ... والبُرءَ في المرضى والصِّحاحا

إن لَمْ تقله فَمُرِ القداحا[٢]

فما خرج عملوا به وانتهوا إليه ، فكانوا على ذلك يعظِّمونه ويعبدونه

=

واسعة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٤٢٠-٤٢١ .

(١) الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ١/ ١٠٠ .

(٢) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص : ٣٢ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١١٧-١١٩ .

ويستنصرونه من دون الله ، وهو الَّذي قال فيه أبوسفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : أُعْلُ هُبل ، فقال رسول الله ﷺ : «الله أَعْلَى وَأَجَلُّ»[(١)] ، فلمَّا كان يوم الفتح أقبل رسول الله ﷺ حتَّى أقبل إلى الحَجَر الأسود فاستلمه ، ثُمَّ طاف بالبيت ، قال : فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه ، وفي يد رسول الله ﷺ قوس وهو آخذ بسِيَتِه[(٢)] ، فلمَّا أتى على الصَّنم جعل يطعنه في عينه ويقول : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[(٣)(٤)] . وفي رواية : أقبل ﷺ إلى الحَجَر فاستلمه ، ثُمَّ طاف بالبيت ، وفي يده قوس آخذٌ بسِيَتِه ، فأتى ﷺ في طوافه على صنمٍ إلى جنب البيت ، أيْ : مِنْ جهة بابه يعبدونه وهو هُبَل ، وكان أعظم الأصنام ، وهذه الرواية جاء فيها أنَّ الصَّنم الَّذي إلى جنب البيت هوَ هُبَل ، وهي زيادةٌ في السِّيرة الحلبية تخالف معظم الرِّوايات الَّتي تذكر موضع هُبَل داخل الكعبة ، إلَّا أنَّ هذه الرواية يعزِّزها ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأُخرجت..»[(٥)] ، لذلك أخرج هُبَل إلى جنب البيت ، فجعل رسول الله ﷺ يطعن في عينيه ،

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، برقم (٤٠٤٣) ، ٥/ ٩٤ .
وانظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٨ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٨/ ١٥٦ .

(٢) سِيَة القوس : ما عُطف مِنْ طرفيها ، والجمع سِيَات . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٤/ ٤١٧ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسِّيَر ، برقم (١٧٨٠) ، ٣/ ١٤٠٥ .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب : أين ركَّز النَّبيُّ ﷺ الرَّاية يوم الفتح؟ برقم (٤٠٣٧) ، ٤/ ١٥٦١ .

ويقول : ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[(١)] ، ثُمَّ أمر به فكُسِر ، وكان أبوسفيان حاضراً ، فقال له الزبير بن العوام رضي الله عنه : قد كُسر هُبَل ، أما إنَّك قد كنت في يوم أحد في غرور حين تزعم أنَّهُ قد أنعم ، فقال أبوسفيان رضي الله عنه : دع هذا عنك يا ابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد ﷺ غيره لكان غير ما كان[(٢)] ، فكان لتحطيم تلك الأصنام أمام عُبَّادها أكبر الأثر في هوانها واحتقارها وزوال عقيدتها ، ممَّا جعل أبا سفيان يقرِّر التوحيد وينفى الشرك من حينه حيث قال : لو كان مع الله عزَّ وجلَّ آلهة لما تحقَّق لكم هذا النصر يا ابن العوام ، ولرأيت أمراً آخرًا .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبيُّ ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستُّون وثلاثمائة نُصبٍ[(٣)] ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ﴾[(٤)] ، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[(٥)(٦)] . ومنها أيضـًا الصنمين : إساف ونائلة ، التي كانت

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

(٢) انظر : النَّووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ١٢/ ١٢٩-١٣٠ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ٣/ ١٢٣ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٨/ ١٩٤-١٩٥ .

(٣) النُّصُبُ -بضمِّ الصَّاد وسكونها- : حجرٌ كانوا ينصبونه في الجاهلية ويتَّخذونه صنمًا فيعبدونه ، وقيل : هو حجرٌ كانوا ينصبونه ويذبحون عليه فيحمرُّ بالدَّم . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٦٠ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

(٥) سورة سبأ ، الآية : (٤٩) .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب أين ركَّز النَّبيُّ ﷺ الرَّاية يوم الفتح ، برقم (٤٠٣٦) ، ٤/ ١٥٦١ . وانظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٩ .

بالقرب من زمزم ، كانوا ينحرون ويذبحون عندها .

ولعلَّه كان من بين تلك الأصنام الثلاثمائة والسِّتين التي حول الكعبة أصناماً تَسَمَّوا بأسمائها ، من بينها : مناف ، وكلال ، والقيس ، والأشهل ، وياليل وغيرها . فلكُلِّ قبيلة صنم ، ولكلِّ صنم اسم يُعرف به يضعونه عند الكعبة زيادة في الشرك والإعظام ، وأيضًا أصنام أخرى عندهم في أنديتهم وفي البيوت وذلك أنَّ الآلهة كانت تُنحت على أمثالها وتُباع في الأسواق ، وهذا ما يبدوا انتشار الأصنام الواسع ، قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كُلِّ دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرَّجل منهم سفراً تمسَّح به فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجَّه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسَّح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل بيته ، فلمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ بالتوحيد قالت قريش : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيء عُجَاب ، وكانت العرب قد اتَّخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظِّمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحُجَّاب ، وتُهدي لها كما تُهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها وهي تَعْرِفُ فضل الكعبة عليها ؛ لأنَّها قد عرفت أنَّها بيت إبراهيم الخليل ومسجده[1] .

وجاء في رواية أيضا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، لكُلِّ حيٍّ من أحياء العرب صنم قد شَدَّ إبليس أقدامها بالرَّصاص ، فجاء رسول الله ﷺ ومعه قضيب ، فجعل يهوي به إلى كُلِّ

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٣ .

صنم منها ، فيخرُّ لوجهه»[١] ، وفي لفظ : «فما أشار لصنم من ناحية وجهه إلَّا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلَّا وقع على وجهه من غير أن يمسه بما في يده ، يقول : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢] حتَّى مرَّ عليها كلِّها»[٣] .

وهذه الرواية التي تقول : (على الكعبة) في الظاهر تخالف ما جاء في الصحيحين : أنَّها (حول الكعبة) ، ولا يمكن لهذا العدد من الأصنام أن يكون فوق الكعبة ، ولكن حولها كما ثبت ، ولعلَّ المعنى هو القرب من الكعبة مجازاً ، كقولهم على الباب ضيف لشدَّة قربه منه .

وقد تعدَّدت الرِّوايات التي تؤكِّد كثرة الأصنام حول الكعبة وفي جوفها كحال هُبَل ، وفوق الكعبة كالصَّنم الَّذي أسقطه رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، فكان هذا الفتح العظيم الَّذي قدره الله عز وجلَّ والَّذي طهَّر مكَّة به مِنْ تلك الأوثان ، وطهَّر نفوس قريش مِنْ رجس الشَّيطان وعقيدة الشرك لهو أعظم حدثٍ في تاريخ الإسلام .

فلما قضى رسول الله ﷺ طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففُتحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عَيدان[٤] ، فكسرها بيده

---

(١) ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ١٢٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

(٣) ابن برهان الدين : السِّيرة الحلبية ، ٣/ ١٢٣ .

(٤) حَمَامَةُ عَيْدَانٍ -بالإضافة وفَتْح عَيْن عَيدان- : والمراد بالحمامة صورة كصورة الحمامة وكانت من عَيدان وهي الطَّويل مِنَ النَّخل الواحدة عَيْدَانَة . انظر : السِّندي : حمد بن عبدالهادي السِّندي (ت: ١١٣٨هـ) : حاشية السِّندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه ، دار الجيل - بيروت ، ٢/ ٢٢٢ .

ثُمَّ طرحها[١] .

ورأى فيها أيضًا صورًا صوَّروها في زعمهم للملائكة وغيرها ، وكذلك رأى صورةً لإبراهيم مصوَّراً -في زعمهم- في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : «قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]» ، ثُمَّ أَمَرَ بتِلْكَ الصُّوَرِ كُلِّها فَطُمِسَت[٣] .

ثُمَّ أَمَرَ رسولُ الله ﷺ بالكعبة فأغلقت عليه ، ومعه أسامة بن زيد ، وبلال بن رباح ، وعثمان بن طلحة ، فمكث فيها وصلَّى ما شاء الله ، ثُمَّ خرج حتَّى وقف على باب الكعبة آخذاً بعِضَادتي[٤] الباب ، فلمَّا أشرف رسول الله ﷺ على النَّاس وهم جلوس حول الكعبة ، قال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ،

(١) سنن ابن ماجه ، أبواب المناسك ، باب من استلم الرُّكن بمحجنه ، برقم : (٢٩٤٨) ، ٤/ ١٧٥ . وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٢٣١ ، سليمان بن موسى الحميري : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ، ١/ ٥٠٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٦٧) .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب الصلاة في الكعبة ، برقم (٢٠٢٧) ، ٣/ ٣٧٣ ، سنن البيهقي الكبرى ، جماع أبواب دخول مكة ، باب دخول البيت والصَّلاة فيه ، برقم (٩٧٢٢) ، ٥/ ٢٥٧ . وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيْلًا﴾ ، برقم (٣١٧٣ ، ٣١٧٤) ، ٣/ ١٢٢٣ .

(٤) عِضَادتي الباب : الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٨/ ٣٩٠-٣٩١ .

فبدأ رسول الله ﷺ خطبته بالإعلان التَّام عن التوحيد ، وأنَّ النصر من عند الله وحده ، ثُمَّ وضع رسولُ الله ﷺ كُلَّ مآثر الجاهلية إلَّا ما كان من أمر السدانة والسِّقاية ، ثُمَّ عفا عن قريش العفو العام ، وحذَّر من الرِّبا والدِّماء ، ووضع ما كان منها في الجاهليَّة ، وبيَّن أحكام الله في القتل العمد وغيره ، وأنَّ النَّاس كلهم لآدم لا فرق بينهم إلَّا بالتَّقوى ، وأنَّ النَّاس رجلان بُرٌّ تَقِي أو كافرٌ شَقِي ، ثُمَّ بيَّن عِظَمَ حُرْمَة مكة من حين خلق الله الأرض ، وشَدَّد علي ذلك ، كما بيَّن شرائع الإسلام بشكل عام ، وتأكيد الأخوة في الدين ، وأنَّ المسلين يداً واحدة وغير ذلك من الأحكام والآداب الإسلامية العظيمة ، فقام أبوشاة ، فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال : اكتبوا لأبي شاة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[1] .

لقد كانت تلك الوصايا النَّبويَّة العظيمة والجامعة بمثابة الإعلان عن عهدٍ جديدٍ بمكَّة المكرَّمة ، عهد التَّوحيد الَّذي لا يُظْلَم فيه أحدٌ ، لا عهد الأوثان الَّتي جعلها المشركون وسيلةً للتسلُّط والكسب والظُّلم والتَّعالي على النَّاس باسم رعايتها والقيام على شؤونها ، فقد كانت تلك الأصنام تمثِّل لهم رافدًا قويًا للترزُّق والحفاظ على المكانة والجاه والتسلُّط على النَّاس .

فكان لتكسير الأصنام وتحطيمها وسحقها أمام أهل مكة مقصدٌ شرعيٌّ ، فهم الذين كانوا يعتقدون أنَّها آلهة ، وأنَّها أرباب تنفع وتضر من دون الله ، يعبدونها ويخافونها ويدعونها ويتضرَّعون إليها ويقصدونها في

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤١١-٤١٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٣ .

النَّوازل ، ويهدون لها ، وينحرون عندها ويتحاكمون إليها ، ويعظمونها وقد زيَّن لهم الشَّيطان ذلك فأصمَّ آذانهم وأعمى قلوبهم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1] . فلا بدَّ أن يروا بأمِّ أعينهم كيف هَوَت أربابهم وتساقطت آلهتهم وخرَّت على وجوهها وتحطَّمت بين يدي رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام في مشهدٍ عظيمٍ بدأ بالتَّكبير الَّذي صدح في جبال مكة فأيقظ قلوب أهلها ، وقد اجتمعوا حول البيت لينظروا لتلك المعبودات الَّتي طالما عبدوها وقدَّسوها وأشركوها مع الله في ألوهيَّته ، أنَّها لا تغني عنهم ولا تمنع عنها عندما ابتدرها المسلمون وهم يحطِّمونها ويسحقونها ، ورسول الله ﷺ يقول : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2] ، فعلموا علم اليقين أنَّ هذه المعبودات باطلة وأنَّها لا تضرُّ ولا تنفع ، الأمر الَّذي نسف عقيدة الوثنيَّة مِنْ نفوسهم واجتثَّها مِنْ جذورها فأفاقوا مِنْ سكرتهم حين شاهدوا حقيقة أمرها ، ورسول الله ﷺ يقضي عليها ويأمر بتدميرها ، عندئذٍ تأكَّد لهم أنَّ تلك الأوثان لا تستحقُّ التَّقديس ولا تستحقُّ أن تُعبد مِنْ دون الله وأنَّها مجرَّد جمادات .

وما إن طهَّر رسول الله ﷺ المسجد الحرام مِنْ تلك الأصنام إلَّا وقد طُهِّرت نفوس قريش من هذا المعتقد الباطل ، حين رفع رسول الله ﷺ مِنْ على باب الكعبة عقيدة التَّوحيد والعزِّ وهو يقول : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب

---

(١) سورة الحج ، الآية : (٤٦) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

وحده»[١] ، ونصر الله دينه على عقيدة الشرك ، وظهر الحق وزهق الباطل ، وأعزَّ الله رسوله والمؤمنين .

ثُمَّ قدَّم رسول الله ﷺ لأهل مكَّة العفو الَّذي شمل قريشًا عمومًا ، وقال : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٢] ، فشعروا برحمة هذا الدِّين وعدله ، وكرم هذا النبيِّ وعظيم خلقه حين صفح عنهم ، وترك لهم أموالهم ونساءهم على ما كان من عداوتهم وحربهم إيَّاه ، وتكذيبهم وأذيَّتهم له ، ومع هذا لم يثأر لنفسه عليه الصلاة والسلم أو ينتقم لها ، بل سمح لهم وعفا عنهم .

أيضًا لمَّا خرج رسول الله ﷺ من الكعبة قال : «أين عثمان بن طلحة»؟ فدعي له فقال : «هَذَا مِفْتَاحُكَ يَا عُثْمَان ، اليَوْمَ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ» ، ثُمَّ قال : «خُذُوهَا يَا بَنِي أَبِي طَلْحَةَ خَالِدَةً تَالِدَةً لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ ، يَا عُثْمَان! إنَّ الله اسْتَأْمَنَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ ، فَكُلُوا بِالمَعْرُوفِ»[٣] ، ثُمَّ قال لعليٍّ حين طلب السّدانة : إِنَّمَا أَعْطَيْتُكُمْ ما تُرْزَؤُوْنَ لا ما تَرْزَؤُوْن[٤] ،

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الدِّيات ، باب الدية كم هي؟ ٦/ ٦٠٦ ، برقم (٤٥٤٧) ، وأخرجه مسلم مطولًا ، ٢/ ٨٨٦ ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ، وصحَّحه الإمام الألباني: إرواء الغليل ، ٧/ ٢٥٦ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : (٩٢) .

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٢٧ .

(٤) الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (٨٣٩٥) ، ٩/ ٦١ . وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤١٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٤-٢٤٥ . ومعنى عبارة (إنَّما أعطيكم ما تُرزؤون لا ما تَرزؤون) : إنَّما أُعطيكم ما تتمنَّون كالسِّقاية الَّتي تحتاج إلى مُؤَنٍ ، وأمَّا السّدانة فيرزأ لها النَّاس بالبعث إليها يعني كسوة البيت ، أي : أعطيتكم السّقاية لأنكم تغرمون فيها ، ولم أعطكم البيت ، أي : أنهم بأخذه يأخذون من =

يريد السِّقاية والرِّفادة . كما شاهد أهلُ مكة أصحاب رسول الله ﷺ كيف يبتدرون أمره يتسابقون على وضوئه ويتزاحمون عليه فلا تقع قطرة ماء إلَّا في يد أحدهم فيحسوها أو يدلك بها وجهه أو بدنه ، فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم من هذا ، مع تواضعٍ مِنْ رسول الله ﷺ لم يروا مثله كذلك[١] .

وقريش مجتمعةٌ حول رسول الله ﷺ رؤساؤها رجالها ونساؤها ينظرون إلى عزِّ الإسلام وعدله ، وينظرون إلى خُلق النبوَّة الذي لا يوصف إلَّا بما وصفه الله سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] ، في منتهى الكرم والتَّواضع والرَّحمة والرِّفق ، وقد علموا علم اليقين أنَّ آلهتهم الَّتي كانوا يعبدونها أُزِيلت مِنَ الوجود وأنَّها باطلةٌ ، وأنَّهُ لا إله إلَّا الله ولا شريك له في ملكه ، لقد كانت تلك اللَّحظة التاريخيَّة الفارقة الَّتي أنهى رسول الله ﷺ فيها الوجود الوَثنيَّ ، وأزال كُلَّ المعالم الشركيَّة مِنَ المسجد الحرام ؛ بتكسير الأصنام الَّتي كانت حول الكعبة ، وطمس الصوَر الَّتي بداخلها ، لتطهير قِبلة المسلمين مِنْ أدران الشرك والظُّلم والضَّلال إيذاناً بنهاية العهد الجاهلي الظالم ، وإقامةً لعصر

=

هديته . انظر : عبدالرزاق الصنعاني : المصنف ، ٥/ ٨٣ ، ابن أبي الراكب مصعب بن محمد الأندلسي : الإملاء المختصر في شرح غريب السير ، استخرجه وصحَّحه : بولس برونله ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ص : ٣٧١ .

(١) انظر : عبدالقادر بن محمد الشنقيطي (ت: ١٣٣٧ هـ) : نزهة الأفكار في شرح قرة الأبصار ، ت : جماعة من ذوي المؤلف ، ١/ ٣٥٥ ، أحمد أحمد غلوش : السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م ، ١/ ٥٨٥ .

(٢) سورة القلم ، الآية : (٤) .

جديد هو عصر التَّوحيد والإسلام والنُّور .

قال ابن إسحاق : «لَمَّا صلَّى النبيُّ ﷺ الظُّهْرَ يوم الفتح أمر بالأصنام الَّتي كانت حول الكعبة كُلِّها ، فجُمِعَت ، ثُمَّ حُرِّقَتْ بِالنَّارِ وَكُسِرَتْ» ، وفي ذلك يقول فضالةُ بنُ عُمَيْرِ بن الملوِّحِ الليثيُّ[1] في ذكر يوم الفتح :

أَوَ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ نُورَ اللهِ أَصْبَحَ بَيِّنًا وَالشرك يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ[2]

فجعلوا يتسابقون كباراً وصغاراً رجالًا ونساءً يوم الفتح يبايعون رسول الله ﷺ ، وقد جلس لهم ﷺ على الصَّفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل مِن مجلس رسول الله ﷺ ، فبايع النَّاس على السَّمع والطَّاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، فلمَّا فرغ من بيعة الرِّجال بايع

---

(١) فضالة بن عمير بن الملوِّح الليثي ، اختلف فِي اسم أبِيه ، فقيل : فضالة بن عبدالله ، وقيل : فضالة بن وهب ، وقيل : فضالة بن عمير بن الملوِّح اللَّيثي . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٣٤٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ٢٨٤ . قال ابن هشام في قصَّة إسلام فضالة بن الملوِّح : لمَّا كان النبي ﷺ يطوف بالبيت عام الفتح حدَّث فضالة نفسه بقتل النبي ﷺ ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «أفضالة»؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : «استغفر الله» ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبُه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلُمَّ إلى الحديث ، فقلت : لا ، وذكر هذه الأبيات . انظر: ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤١٧.

(٢) الفاكهي : محمد بن إسحاق بن العباس المكِّي (ت: ٢٧٢هـ) : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ت : عبدالملك عبدالله دهيش ، دار خضر – بيروت ، ط : ٢ ، ١٤١٤هـ ، ٥/ ٢٠٤ .

النِّساء ، قال تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1] .

ومع أنَّ رسول الله ﷺ دخل مكة عُنوةً يوم الفتح إلَّا أنَّ الأمر بالنِّسبة لقريش كان مختلفًا تمامًا ، فقد خصَّهم الله أن تحوَّل هذا الفتح إلى عزٍّ ورفعةٍ وكرامةٍ ، حتَّى أنَّ الأنصار لمَّا رأوا رسول الله ﷺ على الصَّفا يدعو الله وقريش حوله ، وقد بايعهم وانبسط لهم وتلطَّف بهم قال بعضهم لبعض : أمَّا الرَّجل فأدركته رغبةٌ في قريته ورأفةٌ بعشيرته ، قال أبوهريرة رضي الله عنه : جاء الوحي وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحدٌ يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار!» ، قالوا : لبَّيك يا رسول الله ، قال : «قلتم : أمَّا الرَّجل فأدركته رغبةٌ في قريته» ، قالوا : قد كان ذاك ، قال : «كلَّا ، إنِّي عبدُ الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، والمحيا محياكم ، والممات مماتكم» ، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلَّا الضَّنَّ[2] بالله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذُرَانِكُمْ»[3] .

---

(١) سورة النصر ، الآيات : (١-٣) .

(٢) الضن : هو ما تختصه وتبخل به لمكانه منك ، وموقعه عندك . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٣٥/ ٣٤٠ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، برقم (١٧٨٠) ، ٣/ ١٤٠٥ ، وصحيح ابن حبان : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، ترتيب ابن بلبان ، ت : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ ، برقم (٤٧٦٠) ، ١١/ ٧٣ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٦/ ٥٨٣ ، الصالحي : سبل الهدى =

ودخل أهل مكة في الإسلام وبايعوا رسول الله ﷺ إلَّا نفرٌ قليلٌ بعضهم هرب وبعضهم أمهله النبيُّ ﷺ ، ثُمَّ نادى منادى رسول الله ﷺ بمكَّة : من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلَّا كسره . فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : لما كان يوم الفتح نادى منادي رسول الله ﷺ : «من كان يؤمن بالله فلا يتركن في بيته صنماً إلَّا كسره أو حرقه ، وثمنه حرام» . وقد كنتُ -جُبير- أرى قبل ذلك الأصنام يُطاف بها مكَّة ، فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم ، وما مِنْ رجلٍ مِنْ قريشٍ إلَّا وفي بيته صنمٌ ، إذا دخل مسحه وإذا خرج مسحه تبركاً به ، وكان أبوتِجْراة[1] يعملها في الجاهلية ويبيعها . قال سعد بن عمرو : أخبرني أنَّه كان يراه يعملها ويبيعها[2] .

وهذا يدلُّ على كثرة الأصنام وسبب انتشارها حتَّى اتَّخذوها في البيوت وفي الأندية عند سادات القوم ، لكن ما إنْ أسلم أهل مكة حتَّى تسابقوا يلبُّون نداء رسول الله ﷺ فجعلوا يكسرون تلك الأصنام اقتداءً برسول الله ﷺ وطاعةً لأمره ، فها هي هند بنت عتبة[3] رضي الله عنها لما

=

والرشاد ، ١٠/ ٦٥ .

(١) أبوتِجْراة -بكسر المثناة وسكون الجيم- : مولى شيبة بن عثمان الحجبي بالحلف ، لابنته برَّة صُحبة ، وكذا لبنته حبيبة ، بقي أبو تِجْراة إلى خلافة معاوية ، شهد حجة الوداع ، وذكره عمر بن شبّة في حلفاء بني نوفل ، قال : وهو أخو أبي فكيهة بن يسار . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٧/ ٤٤ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧٠-٨٧١ . وانظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٠٤ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٣ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٨ .

(٣) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيّة ، والدة معاوية بن أبي
=

أسلمت جعلت تضرب صنمـًا في بيتها بالقدوم فلذةً فلذةً[١] ، وهي تقول : كنَّا منك في غـرور ؛ وكـذلك كـان عكرمـة بـن أبـي جهـل[٢] رضـي الله عنـه يفعل بأصنام قريش حين أسلم حتَّى إنَّه كـان لا يـسمع بـصنمٍ في بيتٍ مـن بيوت قريش إلَّا مشى إليـه حتـى يكسِّره[٣] ، ولـسان حـالهم : ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[٤] . وعلى أي حال فإن وجود الأصنام

=

سفيان ، أسلمت عام الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان بن حرب ، فأقرَّهما رسـول الله ﷺ علـى نكاحهمـا ، وقـصّتهما في قولهـا عنـد بيعـة النِّساء : وأن لا يـسرقن ولا يزنين ، فقالت : وهل تزني الحرّة؟ مشهورة ، ماتت في خلافة عمر بعد أبي بكر بقليل في اليوم الّذي مات فيه أبو قحافة . انظـر : ابـن عبـد الـبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٩٢٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٣٤٦ .

(١) أي : قطعةً قطعةً ، لأنَّ الفلْذَة هي : القطعـة المقطوعـة طـولًا . انظـر : ابـن الأثيـر : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٤٧٠ .

(٢) عكرمة بن أبي جهل –عمرو بن هشام– بن المغيرة بن عبـدالله بـن عمـرو بـن مخـزوم القرشـي المخزومـي . أسـلم عـام الفـتح ، وكـان مِنْ قـصَّة إسـلامه أنَّـه ركـب البحـر فأصابهم عاصف ، فقـال أصـحاب الـسفينة : أخلـصوا ، فـإن آلهـتكم لا تغنـي عـنكم هاهنا شيئًا . فقال عكرمة : والله لئن لـم ينجنـي في البحـر إلَّا الإخـلاص لا ينجينـي في البر غيره ، اللَّهمّ إنَّ لك عليَّ عهدًا إن عافيتني ممَّـا أنـا فيـه أن آتي محمـدًا حتَّـى أضـع يدي في يده ، فلا أجدنَّه إلا عفوًّا كريمًا . قال : فجاء فأسلم ، فتلقَّاه النَّبيُّ ﷺ قـائلًا : «مرحبًا مرحبًا بالرَّاكب المهاجر» ، ثمَّ خرج عكرمـة إلـى المدينـة ثـمَّ إلـى قتـال أهـل الردّة ، ووَجّهه أبوبكر الـصِّديق إلـى جـيش نعمـان فظهـر علـيهم ، ثـمَّ إلـى الـيمن ثـمَّ رجع ، فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد . انظـر : ابـن عبـدالبر : الاسـتيعاب ، ٣/ ١٠٨٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٤٤ .

(٣) الواقـدي : المغـازي ، ٢/ ٨٧٠–٨٧١ ، محمـد ابـن سـعد : الطبقـات الكـبرى ، ٨/ ١٨٨ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٣ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : (٨١) .

وبقائها ماثلةً أمام الأنظار خطرٌ عظيمٌ على عقيدة النَّاس ودينهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1] ، لذلك جاءت الرِّسالة السَّماوية على أسس بيَّنها رسول الله ﷺ في حديث عمرو بن عبسة حين قال للنبيِّ ﷺ : وبأيِّ شيءٍ أرسلك؟ قال : «أرسلني بصِلَةِ الأرحام ، وكَسْرِ الأَصْنَام وأن يُوَحَّد الله لا يُشْرَك به شيء»[2] ، فكسرُ الأصنام ومحاربتها واجبٌ شرعيٌّ لاجتثاث الشرك من نفوس النَّاس وتطهير عقيدتهم واستقرار التَّوحيد في قلوبهم . لذلك جاء في وصية النبيِّ ﷺ لعليِّ بن أبي طالب : «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[3] .

فكان هذا الفتح العظيم الذي انتهى بتدمير الأوثان وسحقها ، ومن ثَمَّ نهاية الوثنية المقيتة في مكَّة ، وتطهيرها مِنَ الرِّجس وإزالة ما بقي من شوائب الشرك والكفر ، لذا شعَّ في أكنافها نور الإسلام ، وانتشر الأمن والأمان ، وتوحَّدت القلوب بتوحيد علَّام الغيوب ، وامتلأت مودَّة بدل العداوة ، ورضىً بدل السّخط ، وأمناً بدل الخوف ، واجتماعاً بعد الفرقة والشَّتات ، قال تعالى : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] . وأصبحت مكَّة بفضل الله عزَّ وجلَّ مِنْ ذلك اليوم مهوى المؤمنين ، ومركز الدِّين ومنارة التَّوحيد ،

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : (٣٥-٣٦) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه . وانظر : القاضي عياض : إكمال المعلم ، ٣/ ٤٣٨ .

(٤) سورة الممتحنة ، الآية : (٧) .

وعاصمة المسلمين مِنْ تلك اللَّحظة إلى يومنا هذا ، حفظها الله من كُلِّ الرَّذائل وأبقاها عزيزةً شامخة مكرَّمة إلى يوم الدين .

المبحث الثاني :
سريَّةُ خالد بن الوليد ﷺ لهدمِ العُزَّى

فبعد أن قضى رسولُ الله ﷺ على الأصنام داخل مكة ، وطهَّر الحرم منها ، وأزال كُلَّ العلائق الوثنيَّة والعوائق النفسيَّة التي كانت تصدُّ قريشًا عن دين الله بسبب رعايتها وحميَّتها لتلك الأوثان الَّتي طالما انخدعوا فيها ، واتخذوها أربابًا من دون الله ، وعبدوها هم وآبائهم مِنْ قبل . وعندما استتبَّ الأمر لرسول الله ﷺ في أُمِّ القرى وأزال الطَّواغيت الَّتي فيها كان لا بُدَّ أن يقطع حِسَّ الوثنيَّة وأن يمحي رمسها[1] في أنحاء الجزيرة فاتَّجه إلى أماكن أخرى استشرى فيها عبادة الأصنام ، فبعث البُعوث لطمس معالم الشرك في أطراف مكَّة ثُمَّ إلى غيرها من جزيرة العرب .

وكان مِنْ بين أعظم تلك الطَّواغيت عند المشركين في الجاهليَّة طاغوت يُدعى «العُزَّى» ، الَّتي كانت قريش تعظِّمها ومَنْ جاورها مِنْ أحياء العرب ، القاطنِين في الحرم وما حوله مِنَ القبائل أمثال : خُزَاعَة[2] ، وهُذيل ، وبطون من كِنَانة[3] ، ومضر ، وغطفان ، يعبدونها ويعظِّمونها

(١) الرمس : طمس الأثر ، وكل ما هيل عليه التراب فهو مرموس . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ١٦/ ١٣٥ .

(٢) خُزَاعَة -بضمِّ الخاء وفتح الزَّاي المعجمتين وألف ثُمَّ عين مهملة وهاء في الآخر- : بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ، قيل لهم خزاعة ؛ لأنَّهم انخزعوا من ولد بن عامر ، في رحيلهم من اليمن ، فانخزعوا من قومهم ونزلوا مكَّة ، وبعضهم نزل المدينة فسُمُّوا خزاعة ، وتفرقوا في سائر الأزد ، وكانت لهم ولاية البيت في مكَّة قبل قريش . انظر : يوسف بن عبد الله بن عبدالبر (ت : ٤٦٣هـ) : الإنباه على قبائل الرواة ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص : ٨١ ، القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ٩٨ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ١/ ٣٣٨- ٣٣٩ .

(٣) كِنَانَة -بكسر الكاف ونونين مفتوحتين بينهما ألف وهاء في الآخر- بن خُزيمة بن =

ويتقرَّبون إليها بالهدايا والنُّذور والذَّبح عندها والحلف بها[١] .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاث سمرات ببطن نَخْلَة[٢] .

وقيل إنَّ العُزَّى كانت شجرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بِنخلة الشَّاميَّة[٣] ، وقيل إنَّها كانت شجرةً بنخلة عندها وثنٌ تعبدها غطفان[٤] ، وهي بين مكَّة والطَّائف ، في وادٍ يقال له حُرَاض[٥] بإزاء الغمير ، وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حُراض يُقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة ،

=

مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ، ديارهم بجهات مكة . انظر : القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ١٣٤ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ١١ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ٩٩٦ .

(١) ابن الكلبي : الأصنام ، ص١٧-١٨ .

(٢) الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (١٢١٠٦) ، ١١/ ٣٩٤ نحوه ، قال الطَّبرانيُّ عقبه : قال علي بن الجعد : بطن نخلة بستان بني عامر .

(٣) انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣/ ٦٥ ، ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ٧/ ٤٥٥ ، عبدالرحمن بن محمد بن قاسم (ت:١٣٩٢هـ) : حاشية كتاب التوحيد ، ط : ٣ ، ١٤٠٨هـ ، ص : ٩٠ . ووادي نخلة يقع بعد الشرائع للخارج من مكَّة شرقاً . بكر بن عبدالله أبوزيد (ت: ١٤٢٩هـ) : الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، دار العاصمة ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ ، ص : ٦٧ .

(٤) انظر : ابن حبيب : المحبر ، ت : إيلزة ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ٣١٥ .

(٥) حُرَاض : موضع قرب مكة بين المشاش والغمير وهناك كانت العزى فيما قيل . انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٨ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٣٤ .

وكانت قريش تخصُّها دون غيرها بالإعظام والزيارة والهدايَّا وذلك فيما يبدو لقربها منها ، وكانت باهلة وغنى يعبدونها معهم[١] .

عن ابن إسحاق أنَّ عمرو بن لحي اتَّخذ العُزَّى بنخلة ، فكانوا إذا فرغوا من حجِّهم وطوافهم بالكعبة لم يحلُّوا حتَّى يأتوا العُزَّى ، فيطوفون بها ، ويحلُّون عندها ، ثمَّ يعكفون يومًا عندها ، وكانت لخزاعة ، وقريش وبنو كنانة كُلُّها تعظِّمُ العُزَّى مع خزاعة وجميعِ مضر ، كما كانت بنو نصر[٢] وجُشَمَ وَسَعْدُ بنُ بَكْرٍ[٣] وهم عجُزُ هوازن يعبدون العزَّى

---

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٧ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣/ ٦٥ .

(٢) بطنٌ من هوازن ، من قيس عيلان ، من العدنانية ، وهم : بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، كان فيهم كثرة ، منهم : دهمان ، وبنو نسان . كانوا يقطنون وادي لية شرقي الطائف ، ومن ديارهم : جلدان ، ومِنَ الغزوَات الَّتي اشتركوا فِيها غزوة غطفان ، فكانوا مع عبدالله بن الصُّمَّة ، وأغار علَيهم بنو الحارث بن كعب يوم ثيل ، واستعان بهم دُرَيد بن الصُّمَّة في غزواته لبني يربوع ، واشتركوا في يوم الفجار الثالث ، وخرجوا يوم حنين لمحاربة النَّبيِّ ﷺ . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٦٩ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٤٣١ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١١٨١ .

(٣) بطنٌ من هوازن ، من قيس عيلان ، من العدنانيَّة ، وهم : بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، وهم أظآر النَّبيِّ ﷺ ، عندهم استرضع عليه الصَّلاة والسَّلام ، مِنْ أوديتهم : قرن الحبال ، وهو واد يجيء مِنَ السَّراة . ولا زالُوا في منازلهم القدِيمة في «قرن المنازل» ، وجنوب الطائف في «بسل» ، و«مظللة» ، ولهم سراة تُعرف باسمهم اليوم . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٦٥ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٥١٣ ، وشُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٤٠ .

أيضـاً[١] ، ويدلُّ هذا أنَّ كثيراً من قبائل العرب كانوا يعبـدون هـذه الطَّاغيـة ويعظِّمونها ويحجُّون إليها . وكـان لهـا منحرٌ ينحـرون فيـه هـداياهم يُقـال له : الغَبْغَب[٢] ، يقول فيه أحد شعراء العرب :

لَقَدْ أُنْكِحَتْ أَسْمَاءُ رَأْسَ بُقَيْرَةٍ ... مِنَ الأُدْمِ أَهْدَاهَا امْرُؤٌ مِنْ بَنِي غَنْمِ

رَأَى قَـدَعًا في عَيْنِهَـا إِذْ يَـسُوْقُهَا ... إلى غَبْغَبِ العُزَّى فَوَسَّعَ في القَسْمِ[٣]

ثُـمَّ يقـسمون لحـوم تلـك الهـدايا والنُّـذور فـيمن حـضر عنـدها مـن الحجَّاج والزُّوَار[٤] .

يقـول ابـن تيميـة : «ومـا ذكـره بعـض المفسِّرين مـن أنَّ العُـزَّى كانـت لغطفان ؛ فـذلك لأنَّ غطفـان كانـت تعبـدها وهـى في جهتهـا ، وأهـل مكَّـة يحجُّون إليها ، فإنَّ العُزَّى كانت ببطن نخلة مـن ناحيـة عرفـات ، ومعلـوم بالنُّقول الصَّحيحة أنَّ أهل مكَّة كانوا يعبدون العُزَّى ، كما عُلِمَ بـالتَّواتر أنَّ أهل الطَّائف كان لهم اللَّات ، ومناة كانت حذو قديد ، وكان أهل المدينة يُهِلُّون لها كما ثبت ذلك فى الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها»[٥] .

---

(١) الأزرقـي : أخبـار مكـة ، ١/ ١٢٦ ، وانظـر : صـالح أحمـد العلـي : تـاريخ العـرب القديم والبعثة النبوية ، ص : ٧٨ .

(٢) الغَبْغَبْ –على وزن جعفر– : صنمٌ كان يذبح عليه في الجاهلية ، وقيل : هـو حجر يُنصب بين يدي الصنم ، كان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود ، وكانا اثنين . قال ابن دريد : هو العبعب بالمهملة . انظر : الزبيدي : تاج العروس ٣/ ٤٥٣ .

(٣) انظـر : ابـن الكلبـي : الأصـنام ، ص : ٢٠ ، ابـن هـشام : الـسيرة النبويـة ، ١/ ٨٤ ، عبـدالرحمن الـسهيلي : الـروض الأنـف : ١/ ٢٢٠ . قـال ابـن هـشام عقـب ذكـره للبيتَين : والبيتان لأبي خِرَاش الهذلي ، واسمه خُوَيلد بن مرَّة .

(٤) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٠ .

(٥) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ٣٥٩ .

وكانت العزَّى على طريق الحاج بموضع ليس بالبعيد من سوق ذي المَجَاز ؛ لأنَّ الموضعين يقعان في الشَّمال الشَّرقي من عرفات ، وأنَّ لها علاقة دينية بمواسم الحج عند المشركين ، فكان العرب إذا انتقلوا من عكاظ مَرُّوا بالعُزَّى لقُربها من ذات عرق ، ثُمَّ يَحُطُّون في سوق ذي المجاز يتبايعون ويتبادلون الأخبار ، ويتناقلون الأشعار ، ويتعارفون بينهم ، ويتحاكمون ، ويتعاقدون فيه ويتحالفون ، ويجلبون إليه البضائع ، ويتزوَّدون بالماء والطَّعام ، ثُمَّ ينتقلون منه إلى عرفات ، وقد كان رسول الله ﷺ يتردَّد إلى سوق ذي المجاز في المواسم يدعو النَّاس إلى الله وأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها أفلحوا .

عن أبي الزناد قال : رأيت رجلًا يُقال له : ربيعة بن عبَّاد الديلي ، قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يمُرُّ في فجاج ذي المجاز ، إلَّا أنَّهم يتبعونه وقالوا : هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، قال : ورجل أحول وضيءُ الوجه ذو غديرتين يتبعه في فجاج ذي المجاز ويقول : إنَّه صابئٌ كاذب ، فقلت : من هذا؟ قالوا : هذا عمُّهُ أبولهب[1] . فكان له من اسمه عبدالعُزَّى نصيب في تعبُّده لهذه الطاغية وقيامه عليها ودفاعه عنها .

وكان سادن العزى أفلح بن النَّضر السلمي[2] فلمَّا حضرته الوفاة دخل عليه أبولهب يعوده وهو حزين ، فقال له : مالي أراك حزينًا؟ قال : أخاف أن تضيع العُزَّى من بعدي ، قال أبولهب : فلا تحزن فأنا أقوم عليها بعدك ، فجعل أبولهب يقول لكُلِّ من لقي : إن تظهر العزى كنت قد

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر : ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ٨/ ١٢ .

اتخذت عندها يداً بقيامي عليها ، وإن يظهر محمد على العزى وما أراه يظهر فابن أخي ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1][2] .

وكان أوَّلَ من اتَّخذ العُزَّى ظالم بن أسعد بن عامر الغطفاني[3] بنى لها بيتاً كانوا يسمعون بداخله صوتاً -ولعلَّ ظالم هو أوَّل من اتَّخذ للعزَّى بناية وبيت ؛ لأنَّ الذي نصب الأصنام وأمر بعبادتها هو عمرو بن لحي كما أكَّد ذلك الأزرقي في روايته السَّابقة- وكانت هذه الأصوات التي تصدرها الشَّياطين من بيوت الأصنام لها أبلغ الأثر في نفوسهم مع الجهل الَّذي هم فيه والنَّشأة الَّتي نشؤوا عليها ، ممَّا جعلهم يتألَّهونها ويهابونها ، ويعتقدون فيها الخير والشَّر ، الأمر الَّذي رسَّخ الشرك في نفوسهم ، فصرفوا لها العبادة واتَّخذوها أرباباً من دون الله ، يحبُّونها ويتعزَّزون بها ، قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾[4] ، وهي الَّتي يَعنِيها أبوسفيان بن حرب في غزوة أحد حين قال : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم ، فأجابه المسلمون «اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم»[5] .

وكان العرب يتسمَّون بالعُزَّى ، ومن أقدم من تسمَّى بها عبدالعُزَّى بن

---

(١) سورة المسد ، الآية : (١) .

(٢) الأزرقي : أخبار مكَّة ، ١/ ١٢٧ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ١٢

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٨ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢٣٤ .

(٤) سورة مريم ، الآية : (٨١) .

(٥) سبق تخريجه .

كعب بن سعد بن زيد مناة بن تيم[١] ، وكان سدنة العُزَّى بنو شيبان بن مرة بن الحارث بن سليم بن منصور حلفاء بني الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف[٢] ، وقيل : حلفاء أبي طالب خاصة ، لأنَّ الحِلْفَ إذا وقع لأحد أفراد القبيلة اجتمع فيه أبناء البطن كافَّة ، فيقال : حلفاء بني هاشم ، لذلك كانت تخصُّها قريش بالإعظام ، وكانت إذا طافت بالبيت تقول في طوافها : «واللات والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنَّهن الغرانيق العلا ، وإِنَّ شفاعتهن لترتجى»[٣] .

وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل ينكر عليهم هذا الشرك ، وكان قد ترك عبادة الأوثان ووحَّد الله في الجاهلية ومات قبيل البعثة على الحنيفيَّة ، وقال أبياته الَّتي تدلُّ على توحيده لله ومفارقة المشركين[٤] :

تركتُ اللَّات والعُزَّى جميعًا ... كَذلِكَ يَفْعَل الجلدُ الصَّبُورُ
فَلا العُزَّى أَدِيْنُ ولا ابْنَتَيْهَا ... وَلا صَنَمَي بَنِي غَنْمٍ[٥] أَزُوْرُ
وَلَا هُبَلُ أَزُوْرُ وَكَانَ ربًّا ... لنَا في الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيْرُ[٦]

---

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٨ .
(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٢ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣/ ٦٥ .
(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٢/ ٨٥ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٥/ ٤٤٢ .
(٤) ابن الكلبي : الأصنام ، ٢١-٢٢ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ٢٣٥ .
(٥) قال محققو السِّيرة النَّبوية لابن هشام : ولم نجد بين أصنام العرب صنمًا له هذا الاسم ، ١/ ٢٢٦ .
(٦) هذه كُلُّها أسماء أشياء كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . ابن أبي الركب : الإملاء المختصر في شرح غريب السير ، ص : ٧١ .

وفي العزَّى يقول حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه حين جاء إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فقال يا رسول الله ، ائذن لي أن أقول ، فإنِّي لا أقول إلَّا حقاً ، قال : «قُلْ» ، فأنشأ يقول :

شَهدتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيى كِلَيْهِمَا ... لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِه مُتَقَبَّلُ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذُلُونَهُ ... يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ ويَعْدِلُ
وَأَنَّ الَّذِي بِالْجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ... وَمَنْ دَانَهَا فَلٌّ[1] مِنَ الْخَيْرِ مَعْزِلُ

قال سفيان : يعني العُزَّى ، فكان كلَّما قال بيتاً قال له النبيُّ ﷺ : «وأَنَا أَشْهَد»[2] .

وقد عاب رسول الله ﷺ العُزَّى وغيرها من الأوثان وضرب بها الأمثال في العجز والضعف والهوان ، ونهاهم عن عبادتها ، وأنزل الله تبارك وتعالى قرآناً يستنكر ما هم عليه من الباطل في قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن

---

(١) الفَلُّ : الأرضُ الَّتي لم يُصِبْهَا مطرٌ ، يقالُ : قد أفللنا : إِذَا وَطِئْنَا أرضًا فِلا ، وَجَمْعُهَا أَفْلَالُ . انظر : قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي ، (ت: ٣٠٢هـ) : الدلائل في غريب الحديث ، ت : د. محمد القناص ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م ، ١/ ١١٩ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٣٠/ ١٩١ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٤٤ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٩ .

رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[١] .

فنزلت هذه الآيات وكان فيها تقريعٌ للمشركين في عبادة الأصنام وجعلها أنداداً لله عزَّ وجل ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة الَّتي بناها خليل الرَّحمن عليه السلام ، يقول الطبري في قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ : .. وسمَّوا بعضها العُزَّى اشتقاقًا لها من اسم الله الَّذي هو العزيز ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً[٢] .

ثُمَّ قال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي : أتجعلون له ولداً ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذُّكور ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ ، أي : جوراً باطلة ، فكيف تقاسمون ربَّكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً[٣] .

ثُمَّ أنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء في عبادة الأصنام وتسميتهم لها : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ، أي : من تلقاء أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ، أي : من حجة ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ ، أي : ليس لهم مستند في تلك الأسماء إلَّا حسن ظنِّهم بآبائهم الَّذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وحظ نفوسهم في رئاستهم وتعظيم آبائهم

---

(١) سورة النجم ، الآيات : ١٩-٢٣ .

(٢) الطبري : جامع البيان ، ١٣/ ٢٨٢ ، وانظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٧/ ٤٠٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٤٥٥ .

(٣) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٧/ ٤٠٩ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٤٥٨ .

الأقـدمين ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ، أي : ولقـد أرسـل الله إلـيهم رسوله بالحق المبين والحجَّة القاطعة ، ومع هـذا ما اتبعـوا ما جاءهم بـه من الحق[1] .

ولمَّا سمعوا هذه السورة الكريمة وغيرها من الآيات التي تحذِّر من الشرك ، وما نهاهم عنه رسول الله ﷺ من ترك عبادة الأصنام ونبذها ، وأنَّها أوثان لا تضرُّ ولا تنفع ، اشتدَّ ذلك على قريش ، ويجسِّد لنا هذا الحرص على عبادة العُزَّى وتعظيمهم إياها أنَّه لما مرض أبا أُحَيْحَة مرضه الَّذي مات فيه جاءه أبولهب يعوده فوجده يبكي ، فقال : ما يبكيك يا أبا أُحَيْحَة؟ أمن الموت تبكي ولا بُدَّ منه؟ قال : لا ، ولكنِّي أخاف أن لا تُعْبَدَ العزَّى بعدي ، قال أبولهب : والله ما عُبدت حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعد موتك ، فقال أبوأحيحة : الآن علمت أنَّ لي خليفة وأعجبه شِدَّةُ نصبه في عبادتها[2] .

وهـذا يـدلُّ علـى قـوَّة ولاء قـريش لهـذه الطاغيـة والتَّفـاني في عبادتها والقيام عليها ، فانظر إلى عظم فتنة هؤلاء بتلك الأوثان والأحجار ومدى اغترارهم بها ، فكان لا بدَّ إزاء هذا التعظيم المفرط لهذه الأصنام الَّتي لا تضرُّ ولا تنفع هو إزالة عقائدها من نفوسهم بهدمها وتكسيرها أمام أعينهم وتحطيمها ، وهو ما فعله رسول الله ﷺ بعد الفتح .

---

(١) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٧/ ١٠٤ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٤٥٨ .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٢٣ ، وانظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ١١٧ .

سريَّة خالد بن الوليد[١] رضي الله عنه لهدم العزَّى :

فلمَّا تمَّ الأمر لرسول الله ﷺ في مكَّة ، بعث السَّرايا في كُلِّ وجه لهدم الأوثان ، وكان ممَّن بعثه خالد بن الوليد في سريَّة مكوَّنةٍ من ثلاثين فارساً من أصحابه لهدم العزَّى ، فسار بأصحابه حتى انتهى إليها فهدمها[٢] . وكان هدمها لخمس ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان للهجرة[٣] .

وفي رواية لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العُزَّى ، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرَاتٍ أيْ شجرات ، فقطع السَّمُرات ، وهدم البيت الَّذي كان عليها ، ثُمَّ أتى النبيَّ ﷺ فأخبره ، فقال له : «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً» ، فرجع خالدٌ رضي الله عنه إليها ، فلما أبصرته السَّدنة -وهم حَجَبَتُها- أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عُزَّى يا عُزَّى ، يستغيثون بها ويدعونها من دون الله ، فأتاها خالدٌ رضي الله عنه فإذا هي امرأةٌ سوداء عريانة نافشة شعرها ، واضعة

---

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، سيف الله ، الصحابيّ ، كان من أشراف قريش في الجاهلية ، شهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبيّة ، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ ، فسُرَّ به رسول الله ﷺ وولَّاه الخيل ، ولما ولي أبوبكر وجَّهه لقتال مسيلمة ومن ارتد من أعراب نجد ، مات بحمص ، وقيل : بالمدينة . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٢١٥ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ٣٠٠ .

(٢) محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٤٨٨ ، وانظر : بريك بن محمد العمري : السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، إشراف : أكرم العمري ، دار ابن الجوزي ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص : ٢٨١ .

(٣) الواقدي :المغازي ، ٣/ ٨٧٤ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٤٨٨ .

ثديها على عاتقيها ، تصرف بأنيابها وخلفها دُبَيَّة بن حرمي الشيباني[١] ، وكان آخر سدنتها ، وهو يصيح ويقول :

أَعُـزَّى شُـدِّي شَـدَّةً لا تُكَـذَّبي   عَلَى خَالدٍ أَلْقِي الخِمَارَ وَشَمِّرِي

فإنَّـك إلَّا تَقْتلـي اليَـوْمَ خَالِـدَاً   تَبُـوئِي بِـذُلٍّ عَـاجِلًا وتنـصري

فهجم عليها خالد بسيفه وهو يقول :

يا عُـزَّى كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَـكِ   إنِّي رَأَيْـتُ اللّه قَـدْ أَهَـانَكِ

ثُمَّ ضربها بالسيف فجدَّلها اثنتين[٢] ، وقتل سادنها دُبَيَّة ، وأخذ ما فيها من حلي ، ثُمَّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وأعطاه ما وجد فيها من الحُلي ، فقال : «نعم تلك العُزَّى ، وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً»[٣] ، فلمَّا هُدمت وقُتل دُبَيَّة قال أبو خراش الهذلي يرثيه :

---

(١) دُبَيَّة بن حرمي -بضم الدال المهملة وبعدها باء مفتوحة وياءه مشددة- ، من بني مرة بن عبس بن رفاعة بن سليم ، كان سادن العُزَّى ببطن نخلة يوم بَعَثَ إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد . انظر : علي بن هبة الله بن ماكولا (ت : ٤٧٥هـ) : الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ، دار الكتب العلمية - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م ، ٣/ ٣٩٢ .

(٢) فجدَّلها -بتشديد الدَّال- أيْ فَصَرَعَها ، وفي رواية : فخَزَلَها -بالخاء المعجمة والزاي المخففة- أي : فقطعها . انظر : علي بن سلطان محمد نور الدين الملا الهروي القاري (ت : ١٠١٤هـ) : شرح الشفا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ ، ١/ ٧٣٩ .

(٣) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٨٧٤ . محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/ ١١١ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٧ . البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ٧٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣/ ٥٩٨ ، جلال الدين السيوطي : الخصائص الكبرى ، ١/ ٤٤٠ .

مـا لدبيـةَ مُنْـذُ اليَـوْمَ لَـمْ أَرَهُ وَسْطَ الشروبِ وَلَم يلمم ولم يَطُفِ
لَـوْ كَـانَ حَيًّـا لَغَـادَاهُمْ بمترعـةٍ مِنَ الرَّوَاوِيقِ مِنْ شِيزَى بَنِي الْهَطِفِ
ضَخْمُ الرَّمَادِ عَظِيمُ الْقِدْرِ جَفْنَتُهُ حِينَ الشِّتَاءِ كحوض المنهل اللقف
أَمْسَى سقام خَلاءً لا أَنِيْسَ بـه إِلَّا الـسِّباع ومَـرُّ الـرِّيح بـالغُرَفِ

ثُـمَّ قـال خالـد : أي رسـول الله ، الحمـد لله الـذي أكرمنا وأنقذنا من الهلكة! إنِّي كنت أرى أبي يأتي إلي العُزَّى بحِتْرَه[1] مائة من الإبل والغنم ، فيذبحها للعُزَّى ، ويقيم عندها ثلاثـًا ، ثُمَّ ينصرف إلينا مسروراً ، فنظرت إلى ما مات عليه أبي ، وذلـك الرَّأي الَّذي كـان يُعـاش في فـضله ، كيف خُدع حتَّى صار يذبح لحجرٍ لا يسمع ولا يُبصر ولا يضرُّ ولا ينفع .

فقـال رسـول الله ﷺ : إنَّ هـذا الأمـر إلـى الله ، فمـن يـسّره للهـدى تيسّر ، ومن يسّره للضلالة كان فيها[2] . فبزوال هـذا الطـاغوت الأكـبر ، وهدم بيت العزى ، تَمَّ هدم تلك العقائد الباطلة المترسِّبة في نفوس النَّاس منذ قرون مضت إلى أن بعثَ الله نبيَّه محمداً ﷺ وأمره بتكسير الأصنام ومحاربتها حتَّى يعلموا أنَّه لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، ولا معبود

(١) الحِتْرُ -بالكسر- : العطيَّة اليَسِيرة . انظر : الجوهري : الصحاح ، ٢/ ٦٢٢ .
(٢) الواقدي :المغازي ، ٣/ ٨٧٤ ، ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله (ت : ٥٧١هـ) : تاريخ دمشق لابن عساكر ، ت : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ ، ١٦/ ٢٣٣ ، جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) : جمع الجوامع المعروف بـ«الجامع الكبير» ، ت: مختار إبراهيم الهائج وغيره ، الأزهر الشريف ، القاهرة - جمهورية مصر العربية ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ ، ٢/ ٦٩٩ .

بحقٍّ سواه ، وحتَّى يستقرَّ التَّوحيد ويثبت في نفوس النَّاس يجب أن تُقطع الأسباب الَّتي تذهب به أو تُنقصه ، ومِنْ أخطر تلك الأسباب انتشار الأصنام والأوثان الَّتي لبَّس بها إبليس على النَّاس واستدرجهم في تعظيمها والتقرُّب إليها وعبادتها مِنْ دون الله تعالى ، لذلك بادر النبيُّ ﷺ بعد فتح مكَّة إلى إرسال أصحابه لقطع دابر الشرك والمشركين والقضاء على تلك الأحجار والأشجار والقبور الَّتي تعلَّق بها النَّاس دُهوراً طويلةً حين فُقد العلم واندرس ، فبزوالها زالت عقيدتها وحلَّ محلُّها التَّوحيد فطرةَ الله الَّتي فطر النَّاس عليها فالحمد لله على نعمة الإسلام العظمى ومنحته الكبرى .

المبحثُ الثالث :
سريَّةُ عمرو بن العاص ﷺ لهدم سُواع

ومن الطَّواغيت التي أمر رسول الله ﷺ بهدمها والمعظَّمة عند هذيل وسليم ومن جاورها من قبائل العرب صنم سُواع ، فقد ورد ذكر هذا الصَّنم في الأصنام الَّتي اتَّخذها قوم نوح عليه السَّلام ، ثُمَّ صارت بعد ذلك في العرب ، قال تعالى : ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1] عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال : «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أمَّا وَدّ فكانت لكلب بدُومَة الجندل[2] ، وأمَّا سُوَاع[3] فكانت لهذيل ، وأمَّا يغوث فكانت لمرادٍ[4] ، ثُمَّ لبني غُطَيف[5] بِالجرف عند سبأ[6] ، أمَّا يَعُوق

(١) سورة نوح ، الآيات ٢١-٢٣ .

(٢) دُومَة الجندل : -بضمِّ الدَّال وفتحه- : سُمِّيت دُوْمَة الجندل ؛ لأنَّ حصنها مبني بالجندل ، وهي قريةٌ مِنَ الجوف شمال السُّعودية ، تقع شمال تَيماء على مسافة ٤٥٠ كيلًا . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤٨٧ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١١٧ .

(٣) سُوَاع -بسِينٍ مضمومة وعين مهملتين بينهما ألف- اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام ، ثُمَّ صار لهُذيل ، وكان برُهاط يحجُّون إليه ، وأوَّل مَنْ تسمَّى بهذا الاسم هو سُواع بن شيث بن آدم عليه السلام . انظر : الجوهري : الصِّحاح ، ٣/ ١٢٣٤ ، الصَّالحي : سبل الهدى والرَّشاد ، ٦/ ١٩٨ .

(٤) مراد : مِنْ قبائل اليمن ، تقع مساكنها إلى الغرب الجنوبي من مأرب ، ويجاورهم من هذه الناحية نهم ووادعة ويام من همذان ، ومن بلاد مراد : محتم الحومان والنخيل . انظر : ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ١٢٨ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ١٠٦٥ .

(٥) غُطَيف : قبيلة من طيّء ، من القحطانية ، وقيل هي قبيلة من مراد ، وهم : بنو غطيف بن حارثة ابن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس . انظر : ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ١٠٧ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ٨٨٩ .

(٦) سبأ : أرض باليمن ، مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وسميت =

فكانت لِهَمْدَان[١] ، وأمَّا نَسْر فكانت لحِمْيَر لِآلِ ذِي كَلَاع[٢] ، وهي أسماء رجال صالحينَ من قوم نوح ، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسونَ فيها أنصابًا وسمُّوهَا بِأسمائهم ففعلوا فلم تُعْبَد حتَّى إذا هَلَكَ أولئكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[٣] .

يقول الإمام ابن القيم : قال غير واحد من السلف : كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثُمَّ صوَّروا تماثيلهم ، ثُمَّ طال عليهم الأمد فعبدوهم[٤] فوقع الشرك في قوم نوح عن طريق الغُلُوِّ في محبَّة الصَّالحين ، والتدرُّج في ذلك وقد حثَّهم الشيطان وزيَّن لهم هذا الأمر وأمرهم أن يصوِّروا لهم تماثيل ليكونوا قريبين من أذهانهم ومشاهدين لصورهم حتى يتأسَّوا بهم ، فكان هذا الغلو هو شرارة الشرك في قوم نوح .

=

هذه الأرض بهذا الاسم ؛ لأنَّها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان اسم سبأ عامراً وإنما سمي سبأ ؛ لأنَّه أوَّل من سبى السبي . انظر : الصحاري : الأنساب = تاريخ العوتبي ، ص : ٦٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ١٨١ .

(١) هَمْدَان : من قبائل اليمن ، وتقع ديارها شمالي صنعاء . انظر : الصحاري : الأنساب = تاريخ العوتبي ، ص : ١٦٥ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٣/ ١٢٢٤ .

(٢) حِمْير : بطن عظيم ، من القحطانية ، ينتسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، واسم حمير العرنج . انظر : الصحاري : الأنساب = تاريخِ العوتبي ، ص : ٦٩ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ١/ ٣٠٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، بابُ ﴿وَدًّا وَلَا سُواعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ، ٤/ ١٨٧٣ ، برقم (٤٦٣٦) .

(٤) انظر : محمد بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١) : إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ، ت : محمد عزير شمس ، خرَّج أحاديثه : مصطفى بن سعيد ، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٣٢هـ ، ١/ ٣٣٢ .

وقد بلغ الغلوُّ عند بعض طوائف المسلمين في الاعتقاد بالصَّالحين ، وآل البيت ، والتوسُّل بهم ، وطلب الشفاعة منهم ، والتمسُّح بقبورهم ، والدُّعاء عندهم ، والاستغاثة بهم حد الشرك ، فالغلو في التعظيم والإطراء أيـًا كان بالأنبياء أو الأولياء أو المَلوك سبيلًا إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله .

أمَّا وجود سُوَاع وبقيَّة الأصنام الَّتي كانت في قوم نوح عند العرب من جديد فكانت بسبب عمرو بن لحي الخزاعي ، كان له رِئْيٌ من الجن ، فلما غلب على العرب أمَرَه تابعه أي شيطانه أن يأتي ضفَّ جدة[1] ، فدلَّه على أصنام قوم نوحٍ بأسمائها وقال له : أوردها تهامة ولا تهاب ، ثُمَّ ادع العرب إلى عبادتها ، فلما حضر الموسم دعاهم لذلك فأجابه عوف بن عذرة فدفع إليه وداً ، فنصبه بدُومَة الجندل ، وأجابه رجلٌ من هُذيل يُقال له الحارث بن تميم من سعد بن هُذيل بن مدركة فدفع إليه سُوَاع ، فكان بأرضٍ يُقال لها رُهَاط[2] من بطن نخلة ، يعبده ومن يليه من مضر ، وأجابته مُذحج ، فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث ، وكان بأكمة باليمن ، يقال لها مذحج ، تعبده مذحج ومن والاها . وأجابته همدان ،

---

(١) الضَّفَّةُ ، والضِّفَّةُ ، لُغَتَانِ وهُما : جانبا النَّهر اللَّذَان يَقع عَلَيْهَا النَّبائِتُ .انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١١/ ٣٢٣ .

(٢) رُهَاط : -بضمِّ أوَّله وتخفيف الهاء- : موضع على ثلاث ليالٍ من مكَّة ، وهي من بلاد هُذيل ، قريةٌ ليست كبيرة على طريق المدينة . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ١٠٧ .

وقال صاحب الأطلس الجغرافي : رهاط : وادٍ بعد قرية مدركة ، شمال مكة على بعد نحو ٨٠ كلم . انظر : نزار محمود قاسم : الأطلس الجغرافي الإلكتروني لسرايا النبي ﷺ ، ص : ١٤٢ .

فدفع إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم ابن خيران بن نوف بن همدان يعوق . فكان بقرية يقال لها خيوان ، تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن . وأجابته حمير ، فدفع إلى رجل من ذي رعينٍ يقال له معد يكرب نسراً . فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها ، فلم تزل هذه الأصنام تُعبد حتى بعث الله نبيه ﷺ فأمر بهدمها[1] .

وممَّا قيل في شأن عمرو بن لحي حين بدَّل دين الله وفرض على العرب الشرك وأمرهم بعبادة الأصنام ما قاله شحنة بن خلف الجرهمي :

يا عَمْرُو إنَّكَ قَدْ أَحْدَثْتَ آلِهَةً ... شَتَّى بِمَكَّةَ حَوْلَ البَيْتِ أَنْصَابَا

وَكَانَ للبَيْتِ رَبٌّ وَاحِدٌ أَبَدَاً ... فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ في النَّاسِ أَرْبَابَا

لَتَعْرِفَنَّ بِأَنَّ اللّه فِي مَهَلٍ ... سَيَصْطَفِي دُوْنَكُم للبَيْتِ حُجَّابا[2]

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «رأيت عمرو بن لحي يجرُّ قُصْبَه[3] في النَّار ، على رَأْسِه فَرْوَة» ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَن فِي النَّار؟» ، فقال : من بيني وبينك من الأمم ، وقال رسول الله ﷺ : «هو

(١) ابن الكلبي : الأصنام ، ص :٥٧- ٥٨ .

(٢) انظر : علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ، ١/ ١٩٢ ، عبدالله بن محمد الغازي (ت : ١٣٦٥هـ) : إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ، مع تعليقه : إتمام الكلام ، ت : عبدالملك بن دهيش ، ١/ ٢٢٨ ، د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٨٠ .

(٣) القُصْب -بِضمِّ القَاف وسكون الصَّاد- : المِعَى -بالكسرِ- ، وقيل : اسم للأمعاء كلِّها ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء . الزبيدي :تاج العروس ، ٤/ ٤٢ . وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١/ ١٧٣ .

أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ البَحِيْرَةَ والسَّائِبَةَ والوَصِيْلَةَ والحَام ، ونَصَبَ الأَوْثَانَ حَوْلَ الكَعْبَةِ ، وغيَّر الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السَّلام»[١] .

وكان أوَّل من اتَّخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل على ما كان فيهم بقية من دين إبراهيم الخليل عليه السلام هُذيل بن مدركة استجابوا لعمرو بن لحي واتَّخذوا سُوَاعـًا بمكان يُقال له رُهَاط ، وكان سدنته بنو لحيان ، فكان لهم ربـًا وكانوا يعبدونه ويعظِّمونه ويحجُّون إليه[٢] .

وقد قال رجل من العرب :

تَرَاهُم حَوْلَ قَيْلِهِمُ عُكُوفـًا ... كما عَكَفَتْ هُذَيْلُ على سُوَاع

يَظَلُّ جنابه برَهَاط صَرعى ... عَتَائِر من ذَخَائِر كُلِّ رَاعِ[٣]

وقد جاء في أثر عمرو بن سعيد الهذلي[٤] والَّذي رواه عن أبيه ، الَّذي كان شيخـًا كبيراً أدرك الجاهليَّة الأولى والإسلام ، قال : حضرت مع رجال مِنْ قومي صَنَمَنا سُوَاع ، وقد سُقنا إليه الذبائح ، فكنت أوَّل من قرَّب إليه بقرةً سمينةً فذبحتها على الصَّنم ، فسمعنا صوتـًا من جوفها :

---

(١) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١١٦ . وقد سبق تخريجه .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٠ .

(٣) انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٢١/ ٢٤٢ . والأقيال : جمع قَيْل ، وهم مُلُوكٌ باليمن دون المَلِك الأعظم ، واحدهم قَيْل يكون ملكـًا على قومه ومِخْلافه ومَحجَره . انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٩/ ٢٣٠ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ١٢٢ .

(٤) معدودٌ في الصَّحابة ، بقي بعد النبيِّ ﷺ ، فسار إلى الشام مع الجيوش الَّتي سيَّرها أبوبكر الصديق ، فقُتل يوم أجنادين شهيدًا في خلافة أَبي بكر في جمادي الأولى من سنة ثلاث عشرة ، كما قال أكثر أهل السير . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٢١٩ ، ابن حجر العسقلانيّ : الإصابة ، ٤/ ٥٢٨ .

العَجَبَ العَجَبْ كُلُّ العَجَبْ ، خروج نبيٍّ بين الأخاشب يحرِّم الزِّنا ، ويحرِّم الذَّبح للأصنام ، وحُرِسَتِ السَّماء ، ورُمِيْنَا بالشُّهب ، فتفرَّقنا ، وقدمنا مكَّة فسألنا فلم نجد أحدًا يخبرنا بخروج محمد ﷺ ، حتَّى لقينا أبا بكر الصديق فقلنا : يا أبا بكر ، خرج أحدٌ بمكَّة يدعوا إلى الله يُقال له أحمد؟ قال : وما ذاك؟ قال : فأخبرته الخبر ، فقال : نعم هذا رسول الله ﷺ ، ثُمَّ دعانا إلى الإسلام ، فقلنا : حتَّى ننظر ما يصنع قومنا ، ويا ليت أنَّا أسلمنا يومئذٍ ، فأسلمنا بعده[١] . فكانوا -إذًا- يُهدون إلى هذه الأصنام نفائس أموالهم من الإبل والبقر والغنم ، فينحرون عندها ويذبحون تقرُّبًا لها رجاء حصول البركة منها .

فهذا عبدالله بن ساعدة الهذلي[٢] يروي عن أبيه[٣] -روايةً قريبةً مِنْ رواية عمرو بن سعيد السَّابقة - قال : كنَّا عند صنمنا سُواع ، وقد جلبنا إليه غنمًا لنا مائتي شاة قد أصابها جرب ، فأدنيناها منه لنطلب بركته ، فسمعت مناديًا من جوف الصنم ينادي : قد ذهب كيد الجن ورُمينا بالشُّهب لنبيٍّ اسمه أحمد ، قال : فقلت : غويت والله ، فصرفت وجه غنمي منحدراً إلى أهلي ، فلقيت رجلًا فخبَّرني بظهور النبيِّ ﷺ[٤] .

---

(١) محمَّد ابن سعد : الطَّبقات الكبرى ، ١/ ١٣٣ ، وانظر : الفالوذة : الموسوعة في صحيح السيرة النبوية ، ص : ٨٩ .

(٢) عبدالله بن ساعدة الهذلي ، روى عن عمر ، مات سنة مائة . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٢١٩ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ٦٩ .

(٣) ساعدة الهذلي : والد عبدالله بن ساعدة ، في صحبته نظر ، والله أعلم . ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٥٦٦ .

(٤) أبونُعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ٣/ ١٤٤٨ . وانظر: ابن كثير: البداية والنِّهاية ، ٣/ ٦٠٤ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٤/ ١٨ .

فكانت هذه الأصوات التي يسمعونها وتصدر من جوف بعض الأصنام يسمُّونها هاتفًا ، وهو ما جعل النَّاس يعتقدون فيها الإلهية ويقدِّسونها ، وهو من عمل الشَّياطين الَّتي كانت تسكن جوف الأصنام ، أو في بيوتها ، فتتراءى لهم منها ، فتعمل على إضلال النَّاس وترسيخ الشرك في نفوسهم فاتخذوها أربابًا من دون الله يعبدونها ويتقرَّبون إليها بالنَّحر والذَّبح وأنواع العبادات الأخرى .

ومِنَ الأخبار أيضًا الَّتي جاءت في ذكر تلك الطَّاغية ما رواه راشد بن عبد ربه[1] قال : كان الصَّنم الذي يُقال له سُواع بالمعلاة من رُهاط تدين له هُذيل وبنو ظفر[2] ، فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهديَّة مِنْ سُليم إلى سُوَاع ، قال راشد : فألفيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سُوَاع ، فإذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب ، يحرِّم الزِّنا والربا والذبح للأصنام ، وحرست السماء ، ورمينا بالشهب ، العجب كل العجب ، ثم هتف صنم آخر من جوفه ترك

(١) هو راشد بن عبد ربه الأسلمي ، له صحبة ، كان اسمه غويًا فسمَّاه النبيُّ ﷺ راشدًا ، كان يقول الشعر ، ومِنْ شعره الَّذي قاله في واقعة إسلامه عندما رأى صنم سُوَاع يُدنَّس أمامه مِنْ طرف الثَّعالب : أربٌّ يبول الثَّعلبان برأسه ... لقد هان مَنْ بالت عليه الثّعالب ، فأتى النَّبيَّ ﷺ مسلمًا ، فقال له ﷺ : أنت راشد بن عبد الله . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٦١ .

(٢) بطنٌ مِنْ سليم بن منصور ، مِنْ قَيس عَيلَان ، من العدنانيَّة ، وهم : بنو ظفر بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور . كانت منازلهم بالجَدر -وهو مَوضعٌ بالمدينة- . انظر : البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٢/ ٣٧١ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٣٢٧ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٦٩٥ .

الضمار وكان يعبد ، خرج النبيُّ أحمد ، يصلي الصَّلاة ويأمر بالزَّكاة والصيام ، والبرِّ والصِّلات للأرحام ، ثُمَّ هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إنَّ الَّذِيْ وَرِثَ النبوَّةَ والهُدى ... بَعْدَ ابنِ مَرْيَمَ مِنْ قُرَيْش مُهْتَد
نَبيٌّ أَتَى يُخْبرُ بما سَبَقَ ... وبِمَا يَكُونُ اليومَ حَقًّا أَوْ غَدِ[1]

قال راشد : فألفيت سُوَاعًا مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله ، ويأكلان ما يُهدى له ، ثُمَّ يعوجان عليه ببولهما ، فعند ذلك يقول راشد :

أَرَبٌّ يَبُوْلُ الثُّعلبان برأسه ... لقد ذلَّ من بالَتْ عليه الثَّعالبُ

وذلك عند مخرج النبيِّ ﷺ ومهاجَرِه إلى المدينة تسامع النَّاس به ، فخرج راشد حتى أتى النبيَّ ﷺ بالمدينة ومعه كلب له ، واسم راشد يومئذ ظالم ، واسم كلبه راشد ، فقال النبيُّ ﷺ : «ما اسمك؟» قال : ظالم ، قال : «فَمَا اسْمُ كَلْبِكَ؟» قال : راشد ، قال : «اسْمُكَ رَاشِدٌ ، واسْمُ كَلْبِكَ ظَالِم» ، وضحك النبيُّ ﷺ ، ثُمَّ بايع النبيَّ ﷺ وأقام معه ، وطلب من رسول الله ﷺ قطيعة[2] برُهَاط ، فأَقْطَعَهُ رسول الله ﷺ بالمعلاة من رُهَاط شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة[3] مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له : «فرغها في أعلا القطيعة

(١) انظر : أبونعيم الأصبهاني : دلائل النبوة ، ص : ١٢٠ .
(٢) أي : قطعة من أرض . انظر : الزبيدي : تاج العروس ٢٢/ ٣٩ .
(٣) الإداوَة -بالكسر-: المَطْهَرَةُ ، وهي إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالسَّطيحة ، وقيل : إنَّما تكون إداوةً إذا كانت من جلدَين قُوبل أحدهما بالآخر ، وجمعه : أداوَى ، كفتاوَى . انظر : الزبيدي : تاج العروس ٣٧/ ٥١ .

ولا تمنع النَّاس فضلها» ، ففعل فجعل الماء معينـًا يجري إلى اليوم ، فغرس عليها النخل ، ويقال إنَّ رهاط كلها تشرب منه ، فسماها الناس ماء الرسول ﷺ ، وأهل رهاط يغتسلون بها وبلغت رمية راشد الركيب الذي يقال له ركيب الحجر ، وغدا راشد على سُوَاع فكسره[1] .

وقد ذكر ابن حبيب[2] أنَّ سُواع كان بنعمان تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمر بن قيس بن عيلان ، وكان سدنته بنو صاهلة[3] ، وقد أورد هذا النص ابن حزم الأندلسي[4] حين قال إنَّ سُوَاعـًا كان بنَعْمان[5] تعبده

(١) أبونعيم الأصبهاني : دلائل النبوة ، ص : ١٢٠ .

(٢) محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي ، البغدادي ، عالم باللغة والشعر والأخبار والأنساب ، ولد ببغداد ، وروى عن ابن الأعرابي ، وابن الكلبي ، له : المختلف والمؤتلف في أسماء القبائل ، المحبر ، غريب الحديث ، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين . انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ٣/ ٨٧ ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مكتبة المثنى - بيروت ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ٩/ ١٧٤ .

(٣) بطنٌ من هذيل بن مُدركِة من العدنانيَّة ، وهم : بنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيل بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ ، ووَلَد صاهلة بن كاهل : مخزوم ، وخزيمة ، وقريم ، وملاص . انظر : البَلَاذُري : أنساب الأشراف ، ١١/ ٢٠٩-٢١٠ ، وابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ٥١ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٣١٢ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٦٢٧ .

(٤) علي بن أحمد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسي ، أبومحمد ، صاحب التَّصانيف ، له : المحلى والإجماع وغيرها ، توفي سنة (٤٥٦هـ) . علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ت : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ٢٠٠٥م ، ص : ١٧٩ .

(٥) نَعْمان -بفتح النون وسكون العين المهملة- : على وزن فَعلان ، وهو بين مكة =

بنو كنانة وهذيل[١] .

وقيل أيضًا أنَّ هذيل كانت في جملة القبائل التي أرادت الدِّفاع عن مكَّة حينما أراد أبرهة احتلالها ، وكانت تتعبَّد للصَّنم سُوَاع بنعمان ، وسدنته بنو صاهلة من هذيل ، وكذلك له معبد آخر بموضع رُهاط[٢] .

فتعدُّدُ هذه الرِّوايات دليلٌ بأنَّ هنالك مَنْ كان يصنع هذه الأصنام على أمثالها ويبيعها في الأسواق حتَّى انتشرت في كل مكان ، لذلك نستطيع أن نقول : إنَّ سُواعًا كان في رُهاط ، وسُواعًا آخر كان في نَعمان ديار هذيل ، ولعل سُواعًا أيضًا في بيوت أشراف القوم ، وفي كُلِّ بيت من بيوت هُذيل .

ومِنَ الأدلَّة على تعدُّد المعابد أو المواضع التي تُنصب فيها الأصنام في الجاهلية وتُقام في أكثر من مكان ما نشاهده اليوم في إقامة المعابد للصنم بوذا أو رام في الهند والصِّين واليابان ، وأيضًا معابد البوذيين في المدن والقرى وغيرها تُوضع فيها الأصنام الَّتي نُحِتت ونُصبت لتعُبد مِنْ دون الله تعالى ، وما أشبه اللَّيلة بالبارحة فلا غرابة إذن أن يُنصب الصَّنم سُواع ويكون له بيتٌ للعبادة مِنْ قِبل عُبَّاده في أكثر من موضع .

=

والطائف ، أحد أودية الحجاز التُّهاميَّة . انظر : محمَّد حسن شرَّاب : المعالم الأثيرة في السِّيرة النَّبويَّة ، ص : ٢٨٨-٢٨٩ .

(١) انظر : ابن حبيب : محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت: ٢٤٥هـ) : المحبر ، ص : ٣١٦ . ابن حزم : علي بن أحمد الأندلسي : (ت: ٤٥٦هـ) : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٩٢ .

(٢) انظر : جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٨/ ١٢٦ .

فوجود تلك الأصنام المتعدِّدة وكثرتها في الجاهلية تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّها انتشرت في الجزيرة العربية انتشاراً واسعًا ، وذلك بسبب اعتقاد النَّاس فيها ، والأمر الآخر أنَّها كانت تُصنع على أشكالها بأحجام مختلفة منها الكبير والصغير وما بين ذلك ، وكان أبوتِجْرَاة يعملها في الجاهلية ويبيعها ، وكان يُطاف بها في الأسواق وفي المواسم ، وكان أهل البادية يشترونها ويذهبون بها إلى باديتهم والحاضرة يشترونها ويضعونها في مساكنهم ، فما مِنْ بيت إلَّا وفيه صنمٌ يُعبد مِنْ دون الله ، حتَّى انتشرت انتشار النَّار في الهشيم . «قال جبير بن مطعم رضي الله عنه : وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يُطاف بها في مكَّة ، فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم ، وما مِنْ رجلٍ مِنْ قريش إلَّا وفي بيته صنمٌ ، إذا دخل مسحه وإذا خرج مسحه تبركا به»[١] .

فأينما كان سُوَاع في رُهَاط أو في نعمان من ديار هذيل فإنَّ رسول الله ﷺ بعث السَّرايا في كُلِّ وجهٍ وأمر بهدمها . فتعدُّد الرِّوايات في هدم هذا الصَّنم لا تعارض بينها فيما يظهر وذلك لتعدد الآلهة الواحدة في أكثر من موضع .

(١) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧١ .

سريَّةُ عمرو بن العاص[1] رضي الله عنه لهدم سُوَاع :

لَّما فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة وأنهى الوجود الوثنيَّ فيها بعث السَّرايا في كُلِّ مكان لنشر الأمن وتطهير المناطق المجاورة التي أقيمت فيها بيوت للأصنام يضاهون بها ببيت الله الحرام ، لها سدنة وحُجَّاب يحمونها ويقومون على شؤونها ويقتاتون من رفاتها وما يُهدى إليها ، فبعث رسول الله ﷺ سريةً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سُواع صنم هذيل ، وذلك في شهر رمضان من السَّنة الثَّامنة من الهجرة بعد الفتح فهدمه ؛ ولأنَّ هذه الرِّواية وردت في كتب السِّير والمغازي دون معرفة عدد أفرادها إلَّا أنَّ المتوقع أنَّها تضمُّ عدداً ليس بالقليل من الصَّحابة ، وذلك لأنَّ سدنة سُواع هم بنو لحيان من هذيل ، وفي ديارهم ، وتبعد عن مكة ثلاثة مراحل ، وكانوا قد ظاهروا عضل والقارة على المسلمين في حادثة الرجيع حين بعث رسول الله ﷺ مع عضل والقارة من يدعوهم ويعلِّمهم دين الله ، فلمَّا بلغوا ديار هذيل غدروا بهم واستصرخوا بني لحيان فعدوا عليهم وأحاطوهم وأوقعوا بهم ، لذلك لا يؤمن جانبهم ، وهم أهل قوَّة ورمي ، ولكون سريَّة خالد بن سعيد بن العاص في

(١) عمرو بن العاص بن وائل القرشي ، أمه : النابغة بنت حرملة ، هو الذي أرسلته قريش إلى النجاشي ليسلم إليهم من عنده من المسلمين ، أسلم عام خيبر ، وهاجر إلى النبي ﷺ ، بعثه رسول الله ﷺ أميراً على سرية إلى ذات السلاسل ، واستعمله رسول الله ﷺ أيضًا على عمان ، فلم يزل عليها إلى وفاة رسول الله ﷺ . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٢٣٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥٣٧ .

ثلاثمائة مقاتل بعثها رسول الله ﷺ إلى عرنة ملتقى وادي نعمان ووادي رهجان من ديار هذيل ، وهي قريبة جداً من الحرم ، بهذه القوة فمن باب أولى أنَّ سرية عمرو بن العاص لهدم سُوَاع في بني لحيان لا تقل عدداً عنها ، فانطلقت السرية بأمر رسول ﷺ بقيادة عمرو بن العاص حتى وصلت إلى رُهاط ووقفت على سُواع ، قال عمرو : فانتهيت إليه وعنده السادن ، فقال : ما تريد؟ فقلت : هدم سُوَاع ، فقال : ما لك وله؟ فقلت : أمرني رسول الله ﷺ ، قال : لا تقدر على هدمه ، قلت : لم؟ قال : يمتنع ، قال عمرو : حتى الآن أنت في الباطل! ويحك هل يسمع أو يبصر؟ قال عمرو : فدنوت إليه فكسرته ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، ولم يجدوا فيها شيئًا ، ثُمَّ قال للسَّادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت لله[1] . فلمَّا رأى السَّادن سُوَاعًا وهو يهوي ويتكسَّر على يدي عمرو وأصحابه وقد كان يعتقد أنَّ الصنم سيمتنع أو أنَّهُ سيؤذي عمراً ، إلَّا أنَّهُ حين رأى سُوَاعًا جذاذاً عاد لرشده ، وأيقن أنَّهُ لا إله إلا الله فأسلم من حينه لله ربِّ العالمين ، وعَلِم أنَّ هذه الأصنام التي لا تستطيع أن تدفع عن نفسها لا تدفع عن غيرها .

وهكذا دخلت قبائل هذيل في دين الله أفواجًا ، وانتشر الإسلام في

---

(١) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧٠-٨٧١ ، محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١١١ ، الذَّهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ت : د.بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط : ١ ، ٢٠٠٣م ، ١/ ٣٨١ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ١٩٨ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللَّدنيَّة ، ٣/ ٣٨٩-٤٩٠ .

أرجاء مكة وفي القبائل المحيطة بها ، وأيقنوا أنَّ هـذه الأوثـان باطلـة وأنَّهـا أحجار لا تضرُّهم ولا تنفعهم .

المبحَثُ الرَّابع :
سريَّةُ سعدِ بن زَيْدٍ الأشْهَلِيِّ ﷺ لهَدْمِ مَنَاة

ومن الطواغيت المشهورة في الجزيرة العربية أيضًا والَّتي أمر رسول الله ﷺ بهدمها وتحطيمها طاغوت «مَنَاة» ، كان هذا الصنم من أقدم الأصنام الَّتي اتَّخذتها العرب في الجاهليَّة ، وعبدوها وقدَّسوها وأشركوها مع الله تعالى ، واتخذوها إلهًا من دونه سبحانه .

فكانوا كثيراً ما يتسمَّون بمناة متعبِّدين لها ، ومِنْ ذلك : عبد مناة ، وزيد مناة ، وسعد مناة ، وأوس مناة ، وقد انتشرت هذه الأسماء بين كثيرٍ من الأحياء كقريش وهذيل وبطون كنانة وخزاعة وتميم[١] وطَيِّء[٢] وغيرها من قبائل العرب المختلفة ، وهذا الانتشار الواسع في اسم مناة يدلُّ دلالةً واضحةً على كثرة من يعبد هذه الطاغية ويتألَّه لها في أنحاء الجزيرة العربية[٣] .

---

(١) بنو تميم : قبيلة عظيمة من العدنانية تنتسب إلى تميم بن مرّ بن أدّ ابن طابخة ، منازلهم بأرض نجد ، دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، ثم تفرقوا في الحواضر ، وبنو تميم بطون كثيرة . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ١٨٨ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ١/ ١٢٦ .

(٢) طَيِّء -بفتح الطاء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحت وهمزة في الآخر- : وهم بنو طيء بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان ، والنِّسبة إليهم طائي ، منهم الصَّحابي زيد الخيل بن مهلل ، كانت منازلهم باليمن فخرجوا منه على أثر خروج الأزد منه ، ونزلوا سميراء وفيدا ، في جوار بني أسد ، ثم غلبوا بني أسد على أجأ وسلمى ، وهما جبلان في بلادهم يُعرفان بجبلي طيء . انظر : القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ٧٢ . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٩٧ .

(٣) انظر : التَّميمي ، محمد بن عبدالوهاب : مختصر سيرة الرسول ﷺ ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٨هـ ، ص : ٧٥ ، د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، =

ومِنْ أقدم مَنْ تسمَّى بمناة : عبد مناة بن أد ، كما سمَّى تيم بن مرة ابنه زيد مناة بن تيم ابن أد بن طابخة[١] ، والتَّسمية بالتَّعبيد لهذه الأصنام عند العرب توارثها الأبناء من الآباء من باب التعظيم والانتماء الشركي بالعبودية هو الذي جعلهم ينصرفون عن عبادة الله تعالى إلى عبادة هذه الأحجار الجامدة .

وكان أوَّل من نصبها ووضعها في هذا الموضع وأمر بعبادتها هو الكاهن عمرو بن لحي الخزاعي الذي بدَّل دين الله عزَّ وجلَّ ونشر الشرك في جزيرة العرب ، حيث وضع مناة على ساحل البحر الأحمر ، وقد اختلف المؤرخون في موضع ذلك الصَّنم ، فمنهم من قال : إنَّها كانت على بُعد سبعة أميال من المدينة[٢] ، وبعضهم قال : إنَّها كانت بموضع وَدَّان[٣] أو بموضع قريب منه[٤] .

أمَّا اليعقوبيُّ فذكر أنَّ مناة كان منصوباً بفَدَك ممَّا يلي ساحل البحر الأحمر[٥] ، إلَّا أنَّ الرَّأي الرَّاجح عند أهل الأخبار أنَّه كان على ساحل

=

١١/ ٢٤٩-٢٥٠ .

(١) انظر : باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٩/ ١٦ .

(٢) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٠٤ .

(٣) وَدَّان -بالفتح والتَّشديد- : موضع بين المدينة ومكَّة ، بالقرب من مدينة مستورة ، على بعد اثني عشر كيلًا منها ، وتبعد عن المدينة (٢٥٠) كيلًا . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥/ ٣٦٥ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٩٦ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٠٥ ، ونسبه للحازمي . وانظر: عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٣١٦ .

(٥) اليعقوبي : تاريخه ، ص : ١٠٠ .

البحر من ناحية الـمُشَلَّل[١] بقُدَيد .

وهذا ما أورده ابن الكلبي أنَّ مناة كانت منصوبةً على ساحل البحر من ناحية الـمُشَلَّل بقُدَيد بين مكَّة والمدينة[٢] . وهو ما يوافق قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها بقُدَيد بين مكة والمدينة[٣] .

وعن ابن إسحاق أنَّ عمرو بن لحي نصب مَنَاة على ساحل البحر ممَّا يلي قديداً ، وهي التي كانت للأزد وغسان ، يحجُّونها ويعظِّمونها ، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من حجِّهم ، لم يحلقوا إلَّا عند مناة ، وكانوا يهلُّون لها -وهي على طريق السَّاحل للقادمين من شمال الجزيرة ، ولعلَّها قريباً من ميقات الجحفة ، ومن أهلَّ لها لم يطُف بين الصَّفا والمروة لمكان الصَّنمين اللَّذين عليهما نَهِيك مُجاوِد الرِّيح ومُطعم الطَّير[٤] ، فكان هذا الحي من الأوس والخزرج يُهِلُّون بمناة ، وكانوا إذا

---

(١) الـمُشَلَّل -بالضمِّ ، ثُمَّ الفتح ، وفتح اللَّام أيضًا- : هو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر . ومِنْ معالمها أنَّك إذا كنت في بلدة «صعبر» بين رابغ والقضيمة ، كانت المُشَلَّل مطلع شمس مع مَيْل إلى الجنوب ، وحرَّة المُشَلَّل هي الَّتي تراها من تلك القرية سوداء مدلهمَّة تُشرقُ الشمس عليها . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ١٣٦ ، عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٢٧٧ ، البلادي : معجم معالم السيرة النبوية ، ص ٢٩٨ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص١٣ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١١١ .

(٣) ورد ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري : «وكانت مناة حذو قُدَيد» : صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ ، برقم : (٤٢٢٥) ، ٤/ ١٦٣٥ . وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٣/ ٤٩٩ .

(٤) أصنام كانت لقريش أحدهما على الصفا والثاني على المروة . اليعقوبي : تاريخه ، =

أهلُّوا بحجٍّ أو عمرةٍ لم يُظِلَّ أحداً منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجَّته أو عمرته[١] .

وكانت العرب جميعـًا تعظِّمها وتزورها وتُهدي إليها وتتقرَّب لها بالذَّبح ، وتنحر عندها هداياها ، وتمنى دماء النُّسك عندها -أي : تُراق- فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ مناة كانت على ساحل البحر وحولها الفروثُ والدِّماء يذبح عندها المشركون[٢] ، وكانت الأوس والخزرج ومن نزل المدينة وشمال مكَّة يخصُّون مناة بالزيارة والنُّذور ، ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظامـًا لها من الأوس والخزرج .

وكانت العرب في الجاهلية تُطلق على هذين الحيَّين مِنَ العرب اسمـًا واحداً ، آل الخزرج لكثرتهم ، ولإعظامهم لهذا الطاغية يقول أحد الشعراء :

إنِّي حَلَفْتُ يَمِيْنَ صِدْقٍ بَرَّةٍ بِمَنَاةَ عِنْدَ مَحَلِّ آلِ الخَزْرَجِ[٣]

فكانوا إذا أرادوا الحجَّ أهلُّوا مِنْ مَنَاة ، وإذا حَجُّوا وقفوا مع النَّاس المواقف كُلَّها ، ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أَتَوا مَنَاة فحلقوا رؤوسهم ، وأقاموا عنده لا يرون لحجِّهم تمامـًا إلَّا بذلك .وكانوا من شِدَّة إعظامهم لهذه الطاغية لا يولونها ظهورهم عند انصرافهم تقديسـًا

=

ص : ١٠٠ .

(١) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٤-١٢٥ .

(٢) انظر : أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي(ت: ٣٢١هـ) : شرح مشكل الآثار ، ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ ، ١٠/ ٨٧ .

(٣) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٤ .

لها ، وقد قال في ذلك الكميت بن زيد[١] أحد بني أسد بن مدركة :

وَقَدْ آلَتْ قَبَائِلُ لا تُوَلِّي   مَنَاةَ ظُهُورَهَا مُتَحَرِّفِيْنَا[٢]

وقد بلغ من تعظيم الأوس والخزرج أيضاً لمناة ومن دان دينهم واعتقد عقيدتهم أنَّهم إذا أهلُّوا من مناة للحج لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً وتعظيماً لها ، حيث كان ذلك سُنَّةً في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصَّفا والمروة ، ولم تزل هذه عادتهم حتَّى أسلموا ، فلمَّا قدموا مع النبيِّ ﷺ للحجِّ ذكروا ذلك له ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٣][٤] . وقد جاء في تفسير هذه الآية وبيان سَبَبِ نُزولها حديثٌ رواه عروة بن الزبير[٥] ، قال : سألتُ عائشة فقلت : أرأيتِ قول الله تعالى :

---

(١) الكميت بن زيد بن الأخنس بن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن عامر بن ذؤيبة بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة ابن دودان بن أسد ، شاعر مكثر جداً ، له ديوان مطبوع ، وكان يتعمَّد إدخال الغريب في شعره ، وله في أهل البيت الأشعار المشهورة وهي أجود شعره . انظر : الآمدي ، الحسن بن بشر : المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ، ت : د.ف. كرنكو ، دار الجيل ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص : ٢٢٣ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٥٨ .

(٤) انظر : محمد بن عبدالوهاب : مختصر سيرة الرسول ﷺ ، ص : ٢٣ .

(٥) عُروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، كنيته أبوعبدالله وأُمُّه أَسمَاء بنت أبي بكر الصِّدِّيق وخالته عائشة ، مِن أهل المدينة وعقلائهم وأحد فقهائها السَّبعة ، كان عالمًا كريمًا ، توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين . انظر : ابن منجويه ، أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم (ت: ٤٢٨هـ) : رجال صحيح مسلم ، ت : عبدالله اللَّيثي ، دار =

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ، فوالله ما على أحدٍ جُناح أنْ لا يَطَّوَف بهما؟ فقالت عائشة : بئسما قلتَ يا ابن أختي ، إنَّها لو كانت على ما أوَّلتها عليه كانت : فلا جناح عليه ألَّا يطوف بهما ، ولكنَّها إنَّما أُنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يُسْلِمُوا يُهِلُّون لمنَاة الطَّاغية الَّتي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل ، وكان مَنْ أهلَّ لها يتحرَّج أن يطَّوَّف بالصَّفا والمروة ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنَّا كنَّا نتحرَّج أن نطَّوَّف بالصَّفا والمروة في الجاهليَّة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ، قالت عائشة : ثُمَّ قد سَنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[١] .

ولعلَّ الصنم مناة له علاقة من اسمه عند المشركين ، بالمنى والحظوظ والأماني ، وتحقيق الأمنيات ، فقد ورد في سورة النجم بعد قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[٢] إلى أن قال : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾[٣] ، أي : ليس كلُّ من تمنَّى خيراً حصل

=

المعرفة – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ ، ٢/ ١١٦ ، النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، ١/ ٣٣١ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب وجوب الصفا والمروة.. ، ٢/ ٥٩٢ ، برقم (١٥٦١) ، صحيح مسلم ، كتاب الحج ، برقم (١٢٧٧) ، ٢/ ٩٢٩ .

(٢) سورة النجم ، الآيتان : ١٩-٢٠ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٢٤ .

له[١] . ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾[٢] : أي : إنَّما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرِّف فيها ، فهو الَّذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، أي: ليس لهذه الأصنام أيُّ نفعٍ أو ضر .

والَّذي ظهر لي أنَّ للأصنام والأوثان عند المشركين خصائص ؛ فبعضها تُتَّخذ للعِزَّة ، كما هو الحال في العُزَّى ، ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾[٣] ، وبعضها للنُّصرة في الحروب كما هو الحال في ذات أنواط[٤] ، وبعضها يضرب عندها بالأزلام لعلم الغيب كما كانوا يصنعون عند هُبَل ، وبعضها تُتَّخذ لتحقيق الأماني ونزول المطر كما كانوا يعتقدون ذلك في مناة ، وبعضها لحصول البركة في الطَّعام كما كانوا يَلُتُّون السَّويق عند اللات ، أو حصول البركة في النِّعم كما كانوا يسوقونها عند سُوَاع ، ولعلَّ تَعَدُّد الآلهة عند المشركين هو لتعدُّد ما ينسبونه إليها وما يعتقدونه فيها ، ويدلُّ على ذلك إنكار المشركين للتَّوحيد حين قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٥] .

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ٧/ ٤٥٨ .
(٢) سورة النجم ، الآية : ٢٥ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ٨١ .
(٤) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم ، أي : يعلقونه بها ، ويعكفون حولها ، فسألوه أن يجعل لهم مثلها ، فنهاهم عن ذلك . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ١٢٨ .
(٥) سورة ص ، الآية : ٥ .

سريَّةُ سعد بن زيد[١] رضي الله عنه لهدم مَنَاة :

فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة هَيَّأ البعوث لهدم الأوثان ، فبعث رسول الله ﷺ زيد الأشهلي أحد أبطال الأنصار لهدم مناة ، ولعلَّ ذلك لأنَّ آل الخزرج كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة ويعبدونها ، وكأنَّ رسول الله ﷺ أراد أن تُحطَّم على يد رجلٍ مِنْ أهل تلك الجهة ، فأرسل إليها سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه على رأس سرية تتكوَّن من عشرين فارسًا ، وكانت مهمَّة هذه السَّريَّة تحطيم مناة وإزالتها من الوجود والقضاء عليها أمام عُبَّادها . قال ابن سعد : وكان ذَلِكَ لِستٍّ بقين مِن شهر رمضان[٢] .

انطلقت السَّرية بقيادة سعد رضي الله عنه حتَّى بلغت قُدَيداً ثُمَّ إلى الـمُشَلَّل ، فلمَّا وصل سعد إلى مناة قابله سادنها[٣] ، وكان سدنة مناة الغطاريف من الأزد ، فقال السَّادن لسعد : ما تريد؟ قال : هدم مناة ، فقال : أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، فخرجت إليه امرأة عارية

---

(١) سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي الأشهلي ، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق وغيرهما فيمن شهد بدرًا . وقال الواقدي : شهد العَقَبَة ، له ذكر في السِّيرة ، وأنَّه الَّذي هدم المنار الَّذي كان بالـمُشَلَّل -أيْ اللَّات- ، وأنَّه الَّذي بعثه النبيُّ ﷺ بسبايا مِنْ بني قريظة فاشترى بها مِنْ نجد خيلًا وسلاحًا . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ٤٣٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٥١-٥٢ .

(٢) ابن سعد : الطَّبقات الكبرى ، ٢/ ١١٢ .

(٣) السَّادِنُ : خادم بيتِ الأَصنام ، والجمع : السَّدَنَةُ : حُجَّاب البيت وقَوَمة الأصنام في الجاهليَّة . انظر : ابن منظور : لسان العرب ١٣/ ٢٠٧ . واقتصر هذا اللفظ على سدنة الكعبة لزوال الأصنام والحمد لله .

سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها . قال الكلبِيُّ : وكانت اللَّات والعزَّى ومناة في كلِّ واحدةٍ منهنَّ شيطانةٌ تكلِّمُهُم وتراءى للسَّدنة ، وهم الحَجَبَة ، وذلك من صنيع إبليس وأمره[١] ، وهذا دليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢] . فقال السادن : مناة دونك بعض عصيانك[٣] ، فتقدَّم سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصَّنم ومعه أصحابه فهدموه ، وأزالوا معالمه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً ، ثُمَّ انصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ[٤] .

هذا ما أورده أصحاب السِّير والمغازي في شأن هدم مناة وبعث النبيِّ ﷺ سعدَ بن زيد الأشهلي لهدمها ، إلَّا أنَّ ابن الكلبي أورد في كتاب الأصنام أنَّ الَّذي هدم مناة هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٦ .

(٢) سورة النساء ، الآيات : ١١٧-١٢٠ .

(٣) انظر : ابن برهان الدِّين : السِّيرة الحلبيَّة ، ٣/ ٢٧٦ ، وفي رواية : بعض غَضَبَاتِك . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١١٢ .

(٤) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧٠ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٢/ ١٦٣ ، ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ٣/ ٣٣٠ ، ابن برهان الدِّين : السِّيرة الحلبيَّة ، ٣/ ٢٧٦ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٣٤ .

قال : وكانت قريش وجميع العرب تعظِّمه ، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة ثمان من الهجرة وهو عام فتح الله عليه ، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال بعث علياً إليها فهدمها وأخذ ما كان لها[1] ، وتَبِعَ ابن الكلبيَّ على هذا القول ابنُ هشام في سِيرته[2] . ورواية ابن الكلبيِّ تلك وردت مُحتملةً ومُتضمِّنةً لوقائع أُخرى لِمَا حوته مِنْ ذكرٍ لوجود السَّيفين اللَّذَين وجدهما علي رضي الله عنه عند هدم الفلس ، أضف إلى أنَّ هذه الرِّواية لا تستقيم مِنْ عِدَّة وجوه :

أولًا : أنَّها تعارضت مع خطَّة النبيِّ ﷺ لفتح مكَّة والَّتي قامت على السِّرِيَّة التَّامَّة ، وقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً أشدَّ الحرص أن يقطع العيون والأخبار عن قريش حتَّى يبغتها في دارها قبل أن تحذر وتستعدَّ للحرب والقتال ، وما قصَّة حاطب بن أبي بلتعة إلَّا شاهدٌ على هذا الأمر ، حين بعث كتاباً إلى قريش يُنبِّئهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ مِنْ حربهم ، فأوحى الله إلى نبيَّه به ، فأرسل رسول الله ﷺ فوراً مَنْ أوقف المرأة وهي في طريقها إلى مكَّة وأخذ الكتاب منها ، ولو هدم مناة قبل أن يدخل مكَّة لطار خبرها وعلمت قريشٌ عن مسيره ﷺ إليهم .

ثانيـاً : أنَّ هدم مناة قبل أن يسيطر ﷺ على مكَّة ويقضي على دولة الشرك فيه استثارة للعرب كافَّةً حميَّةً لمناة ودفاعـاً عنها ، الأمر الَّذي سيشغل المسلمين عن فتح مكَّة ويؤخِّره .

ثالثـاً : اعتماد رواية سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة في معظم كتب

---

(١) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٥ .
(٢) ١/ ٨٦ .

المغازي والسِّير والتَّاريخ ، فقد أوردها الواقدي في المغازي[١] ، وابن سعد في الطبقات[٢] ، والطبري في تاريخ الرسل[٣] ، وابن الجوزي في المنتظم[٤] ، وابن سيد النَّاس في عيون الأثر[٥] ، وابن كثير في السِّيرة[٦] ، وابن القيم في زاد المعاد[٧] ، والصالحي في سبل الهدى والرشاد[٨] ، وابن برهان الدين في السيرة الحلبية[٩] ، وغيرهم ، والكثرة دليل القوَّة والرُجحان .

أمَّا ابن هشام و السُّهيلي فقد أوردا قولًا آخر بأنَّ سريَّة هدم مناة كانت بقيادة أبي سفيان بن حرب[١٠] وهذا مستبعدٌ أيضًا ؛ لأنَّ أبا سفيان كان حديث عهدٍ بإسلام آنذاك ؛ ولأنَّ غالب أهل السِّير والمغازي ذكرتْ السَّريّة لسعد بن زيد لا لأبي سفيان كما سبق ذكره ، فلعلَّه كان أحد أفراد سريَّة سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة ، حتَّى يعلم عُبَّاد مَنَاة أنَّ دولة الشرك زالت ، وأنَّ سيِّد مكَّة قد أسلم ، فلا تَقع أيُّ مقاومة أو قتال ، وهذا ما يرجِّح صحَّة رواية سريَّة سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه على

---

(١) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧٠ .
(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١١١ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ١٦٣.
(٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، ٣/ ٣٣٠ .
(٥) ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٣٤ .
(٦) ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣/ ٧١١.
(٧) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٣٦٥.
(٨) الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ١٩٩ .
(٩) ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ٢٧٦ .
(١٠) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٦ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ١/ ٢٢١ .

غيرها .

فقد كان هدف رسول الله ﷺ الأوَّل حين تحرَّك من المدينة هو قريش ؛ كونها دولة الشرك وراعيتَه ، فإذا أسلمت سيسلم مَنْ يتبعها مِنَ القبائل ، فما راع قريش إلَّا والنبيُّ ﷺ قد أحاط مكَّة من جميع الجهات بعشرة آلاف مقاتل دون حسٍّ أو خبر ، فأُسقط في أيديهم واستسلموا ، لذلك فلم تكن للقبائل المحيطة بالحرم بعد فتح مكة وإسلام قريش أي مقاومة تذكر ، حتى أنَّ البعوث والسَّرايا التي انطلقت من مكة لهدم الأصنام التي حولها كانت محدودةً ، فسريَّة سعد بن زيد الأشهلي هذه كان قوامها عشرون مقاتلًا فقط مقاربة لعدد سرية خالد بن الوليد لهدم العُزَّى والله أعلم .

المبحث الخامس :
سريَّةُ الطُّفيل بن عمرو ﷺ لهدم ذي الكفَّين

من الأصنام الَّتي أمر رسولُ الله ﷺ بهدمها وبعث إليها بعثًا لتدميرها صنم دَوس[١] : ذو الكفَّين .

كان ذو الكفَّين صنمًا تعبده دَوس وخُزَاعة[٢] ، ثُمَّ لبني منهب بن دوس ، وهو صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسي[٣] . وذِكر عِبَادة خُزاعة لهذا الصَّنم مع غيرها من الأصنام مثل اللَّات والعزَّى وذو الخلصة ومَنَاة وغيرها مع بُعد ديار خُزاعة عن مواضع بعضها ؛ لأنَّ عمرو بن لحي الخزاعي هو واضعها الأوَّل والآمر بعبادتها لذا كانت تُنسب لخزاعة .

عن ابن الكلبي أنَّ حبيب بن عمرو بن حُمَمَة الدّوسي كان حاكمًا على دَوس ، وكذا كان أبوه من قبله وعمره ثلاثمائة سنة ، وكان حبيب يقول : إنِّي لأعلم أنَّ للخلق خالقًا ، لكنِّي لا أدري مَنْ هو[٤] ، فاتَّخذوا ذو الكفَّين إلهًا يُعبد حين نصبوه وعظَّموه ثُمَّ عبدوه من دون الله عزَّ

---

(١) دَوْس : قبيلة بن عدثان ، من قحطان ، سكنوا إحدى السّروات المطلَّة على تُهامة والحيرة والعراق ، قدم وفدهم على رسول الله ﷺ بخيبر ، وأبوهريرة رضي الله عنه منهم . محمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١١٧ .

(٢) ابن حبيب : المحبر ، ص : ٣١٨ .

(٣) هو عمرو بن حُمَمَة –بضم المهملة وفتح الميم الخفيفة بعدها مثلها– بن الحارث بن رافع بن ربيعة بن ثعلبة بن لؤيّ الدَّوسِي ، ذكر ابن دريد أنَّهُ وفد على النبيِّ ﷺ ، والَّذي ذكره غيره أنَّهُ مات في الجاهلية ، كان أحد حكام العرب في الجاهلية ، وأحد المُعَمَّرين ، يُقال : عاش (٣٩٠) وتسعين سنة . ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٥١٥ . وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية : ١/ ٣٨٥ ، إبراهيم قريبي : مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١/ ٢٩٥ .

(٤) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ١٠٢ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٥/ ١٨٤ .

وجلَّ ، وكان ذو الكفَّين صنمٌ مصنوعٌ من الخشب[١] .

فاتِّخاذ دوس لهذا الصَّنم وعبادتهم له في ذلك الوقت يصف لنا حالة العرب في الجاهليَّة الجهلاء قبل بِعثة النبيِّ ﷺ ، إذ انتشرت فيه الأصنام وعُبَّادها في أنحاء الجزيرة العربية حتَّى وصلتْ إلى كل مكان فيها ، وكان لانتشارها أسبابٌ ساعدت على ذلك ، و من تلك الأسباب أنَّ العرب كانت إذا حجَّت البيت ورأت الأصنام الَّتي وضعها عمرو بن لحي حول الكعبة سألت قريشاً وخزاعة عنها ، فيقولون : نعبدها لتُقَرِّبنا إلى الله زلفى ، أي : تشفع لنا ، فلمَّا رأوا ذلك اتَّخذوا أصناماً ، فجعلت كُلُّ قبيلة لها صَنَمٌ يُصَلُّون له تقرُّباً إلى الله فيما يقولون[٢] .

أضف إلى ذلك أنَّ للأصنام التي فرَّقها عمرو بن لحي الخزاعي في قبائل العرب دورٌ كبيرٌ في انتشار الوثنية ، وسبب لكثرة الأصنام في أنحاء الجزيرة ، وفي بيوت القوم وغيرها ، حتى تطوَّر بهم الحال فاتخذت كُلُّ قبيلة لها صنماً عند الكعبة إذا حجُّوا البيت وقفوا عنده وصلُّوا إليه ، لذلك كَثُرَ عدد الأصنام حول الكعبة ، كما جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، لكُلِّ حيٍّ من أحياء العرب صنم..»[٣].

---

(١) الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢١٠ ، البَكْري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ٢/ ١٠٩ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٤/ ٣ .

(٢) انظر : اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ) : تاريخه ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ١٠٠ .

(٣) انظر : ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٢٠ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ١٢٣ .

سريَّة الطُّفيل بن عمر الدَّوسي[١] رضي الله عنه لهدم ذو الكفين :

في شهر شوَّال من سنة ثمانٍ من الهجرة بعد فتح رسول الله ﷺ مكة ، وقضائه على الأصنام التي كانت فيها بعث البعوث لهدم الطواغيت الأخرى ، لذلك بادر الطفيل بن عمرو الدَّوسي فقال : يا رسول الله! ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حُمَمَة حتَّى أَحْرِقَهُ[٢] ، فبعثه ﷺ إليه ، وهذا يدلُّ على أنَّ رسول الله ﷺ ما سمع بصنم إلَّا بعث إليه من يهدمه .

وكان بعثه ﷺ للطُّفيل قبل خروجه من مكَّة وتوجُّهه إلى الطائف ، فأمر رسول الله ﷺ الطُّفيل بن عمرو الدَّوسي أن يستمدَّ قومه ويوافيه بالطَّائف ، فقال الطُّفيل : يا رسول الله أوصني ، قال : «أَفْشِ السَّلام ، وابْذُلِ الطَّعَامَ ، واسْتَحِي مِنَ الله كما يَسْتَحِي الرَّجُل ذُوْ الهَيْئَة من أَهْلِه ، إذا أسأت فأحسن ، إنَّ الحسنات يذهبن السَّيئات ذلك ذكرى للذَّاكرين» ،

---

(١) الطُّفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس الدّوسي ، من دَوس ، يُلقَّب ذا النُّور . كان سيِّد دوس ، كان شاعراً لبيباً ، قدِم مكَّة أوَّل الدَّعوة ، فحذَّرَته قريش عن الاستماع مِنَ النبي ﷺ والإصغاء إلى كلامه ، فسَدَّ أذنه بالكرسف خوفاً من أن يقع كلامه في مسامعه ، فأبى الله تعالى إلَّا أن يهديه ، فهداه فأسلم بمكَّة ، ورجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يزل مقيما ببلدته حتَّى هاجر رسول الله ﷺ ، ثُمَّ قدم على رسول الله ﷺ وهو بخيبر بمن تبعه من قومه ، قُتل الطُّفَيل شهيدًا يوم اليمامة . انظر : أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ٣/ ١٥٦١ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٢/ ٧٥٧ ، عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٣/ ٧٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٤٢٢ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٤/ ١٨١ .

فخرج الطُّفيل سريعـًا إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشو النَّار في جوفه ويقول :

يا ذَا الكَفَّينِ لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكَا   مِيْلَادُنَا أَقْدَمُ مِن مِيْلادِكَا

إنِّي حَشَوْتُ النَّارَ في فُؤَادِكَا[1]

فقال الطُّفيل : فلمَّا أحرقت ذا الكفين بان لمن بقي ممَّن تمسَّك به أنَّه ليس على شيء ، فأسلموا جميعـًا[2] . فما إن تسقط هذه الأصنام والتماثيل أمام أعين عبَّادها حتى يتبيَّن لهم أنَّهم كانوا منها في غرور وأنَّهم ليسوا على شيءٍ ، وأنَّهم كانوا يعبدون جماداتٍ لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تغني عن أنفسها شيئًا ، فكيف ستدفع أو كيف ستشفع لهم وتقرِّبهم إلى الله وهي لا حول لها ولا قوَّة؟ فبان حالها عندما انكشف عوارها على يد الطُّفيل حين قال : «فلما أحرقته أسلموا جميعـًا» . فلذا كان من مقاصد البعثة النبويَّة كسر الأصنام وإزالتها تمامـًا ، فكان لذلك أثراً عظيمـًا في نفوس النَّاس ، ويشهد لذلك لمَّا هُدم ذو الكفَّين وأحرقه الطُّفيل وحَّدَ اللهَ أتباعُ هذا الصَّنم وأسلموا جميعـًا ، فانحدر مع الطُّفيل أربعمائة من قومه سِرَاعـًا ، فَوافَوا رسول الله ﷺ بالطَّائف بعد مقدمه بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق ، فقال رسول الله ﷺ : يا معشر الأزد ، من يحمل رايتكم؟ فقال الطُّفيل : مَنْ كان يحملها في الجاهلية : النُّعمان بن رَازِيَة

(١) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٧٠ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٣/ ٢٢٩ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٤/ ١٨١ ، وانظر : ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ١/ ١٦٣ .

اللهبي[١] ، قال : أصبتم[٢] .

وفي هذه لفتة سامية من رسول الله ﷺ حين يُعطي أهل الشرف ما لهم من الحقِّ والمكانة الَّتي كانت لهم ، ومِنْ ذلك لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة استعمل بني أميَّة في كثيرٍ مِنَ القيادات ، فبعث هشام بن العاص على رأس سريَّة إلى يلَمْلَم ، وخالد بن سعيد بن العاص إلى عُرَنَة ، وعتَّاب بن أُسيد أميراً على مكَّة ، وأبوسفيان ابن حرب أميراً على نجران ، وهكذا يُعطي أهل اللواء لواءَهم ، وأهل الأعنَّة أعنتهم ، وأهل السَّدانة سدانتهم ، وأهل السّقاية سقايتهم ، فأتى الإسلام ليحقِّق العدل ويحفظ الحقوق لأهلها ويمنع الظلم وأعظمه الشرك بالله ، وينشر الأمن والاستقرار في أنحاء الأرض .

فكان من مقاصد بعث النبيِّ ﷺ كسر الأصنام وصلة الأرحام وأن يُوَحَّد الله لا يُشرك به شيئًا ، فلمَّا كان الفتح تحقَّق هذا المقصد فكُسرت الأصنام وطُهِّر بيت الله الحرام منها ، ودخل معظم العرب في الإسلام ، واجتمعت كلمتهم على شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله .

---

(١) النعمان بن رَازِيَة -براء ثم زاي مكسورة بعدها تحتانية- اللَّهبي : كان عريف الأزد ، وصاحب رايتهم ، سكن الشام ، ذكره ابن أبي حاتم ، وقال : له صحبة ، قال ابن حجر : والصواب أن اسم أبيه رازية ، وبازية تصحيف . روى عن النبيِّ ﷺ حديثًا واحدًا . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٤٩٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٣٤٩ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٢٠ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٤٩ .

الفصلُ الثَّالث :
هدمُ الأوثانِ في جزيرة العرب بعد عام الفتح

المبحث الأول : سريَّة علي بن أبي طالب ﵁ لهدم الفلس .

المبحث الثاني : سريَّة خالد بن الوليد ﵁ لهدم وَدّ .

المبحث الثالث : بعث أبوسفيان بن حرب ﵁ والمغيرة بن شعبة ﵁ لهدم اللات .

المبحث الرابع : سريَّة جرير بن عبدالله البجلي ﵁ لهدم ذي الخَلَصَة .

المبحث الأول :

سريَّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم الفلس

ومن الأصنام الَّتي أمر رسول الله ﷺ بهدمها وتخريبها صنم الفَلْس[١] ، وهو صنم طيئ ومن جاورها من أحياء العرب ، كانوا يعبدونه مِنْ دون الله عزَّ وجلَّ ، يُهدون له[٢] ، ويتبرَّكون به ، ويذبحون عنده ، اعتقاداً منهم أنَّ هذا الصنم يُحَقِّق لهم النَّصر والعزَّة على الأعداء ، وكانوا يخافون عِقَابَهُ ، ويهابون مكانه ، ويتوسَّلون إليه ؛ ليقرِّبهم إلى الله عزَّ وجلَّ بزعمهم .

وكانت الشياطين تؤزُّهم على ذلك وتدفعهم إلى الشرك ، وتحثُّهم عليه ، حتَّى تلوَّثت عقولهم ، فلم يتبادر إلى أذهانهم أنَّ ما يعبدونه من دون الله ما هي إلَّا جمادات وخلق من خلق الله ، ومُلك من أملاكه عز وجل ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣] ، يقول

---

(١) الفلس : اختلف ضبطه على ثلاثة أوجه ، نقل ياقوت الحموي وجهَين في كتابه معجم البلدان ، والثَّالث ذكره الزبيدي في كتابه تاج العروس ، فمُلخَّص كلامهما أنَّ الفلس ضُبط بـ : **الوجه الأوَّل** : بضمِّ أوَّله –الفُلس– ، قال ياقوت : هكذا وجدناه مضبوطًا في الجمهرة عن ابن الكلبي فيما رواه السّكّري عن ابن حبيب عنه ، و**الوجه الثَّاني** : بفتح الفاء وسكون اللَّام –الفَلْس– ، قال ياقوت : وجدناه في كتاب الأصنام بخط ابن الجواليقي الَّذي نقله من خطِّ ابن الفرات وأسنده إلى الكلبي ، أمَّا **الوجه الثَّالث** : فبالكسر –الفِلس– ، قال الزبيدي : قال ابن دريد : الفِلْس ، بالكسر : صنمٌ كان لطَيِّءٍ في الجاهليَّة ، فبعث النَّبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فهدمه . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٧٣ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٦/ ٣٤٣ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٩ .

(٣) سورة الروم ، الآية : (٢٨) .

تعالى : إذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكًا له مثل نفسه ، فكيف تجعلون مملوكي شريكًا لي ، وكُلُّ ما سوى الله من الملائكة والنبيين وسائر المخلوقات هو مملوكٌ له سبحانه[١] . روى ابن الكلبي قال : كان لطيِّء صنمٌ يُقال له الفَلْس ، وكان أنفًا أحمر[٢] في وسط جبلهم الأسود الَّذي يُقال له أَجَا[٣] ، كأنَّهُ تمثال إنسان[٤] ، وكان له بيتٌ ، وعليه ثيابٌ يُلبسونه إيَّاها[٥] . وأنف الجبل : هو ما علا منه أو نتأ ، وكان هذا الموضع من الجبل أحمر اللون على شكل تمثال إنسان في جبل أجا ، الذي يغلب عليه السَّواد ، فجعلوا له بيتًا وأستاراً وعبدوه من دون الله .

وقد ضُبِطت لفظة صنم «الفَلْس» بفتح الفاء وسكون اللَّام ، بلفظ الفَلْس الَّذي هو واحد الفُلُوس الذي يُتَعَامَلُ به[٦] .

فلعلَّ صنم الفَلْس اشتُقَّ اسمه من الفُلُوس ، أي المال عندهم ، لذلك اشتُقَّ هذا الاسم له من جنس ما يلتمسون منه البركة فيه .

ولأنَّ المشركين كانوا يتَّخذون هذه الأصنام تحقيقًا لمقاصدهم فلعلَّ صنم الفَلْس كان إِلَهَ المال عند المشركين ، وذلك لكثرة ما يُهدون

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ٣٥٤ .

(٢) أنفُ الجبل : نادِرٌ يَشْخَص منه ، أي : ما علا منه ، أو ما كان متقدِّمًا من الجبل . انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٥/ ٣٤٦ ، الزبيدي : تاج العروس ٣٥/ ١٠٢ .

(٣) أَجَأ وسَلْمَى : جبلان بأرض الحجاز ، وبها مَسكن طيِّء وقراهم ، وجبل «أجَأ» يقع اليوم في صقع (حايل) من شمال السعودية . انظر : زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص : ٧٤ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٨ .

(٤) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٩ .

(٥) انظر : الواقدي : المغازي : ٣/ ٩٨٨ .

(٦) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٧٣ .

إليه من الفلوس فإنَّـهُ سُـمِّي بـه ، وهـذا موجـودٌ اليـوم في معابـد المـشركين البوذيِّين وغيرهم ، فإنَّهم حين يدخلون إلى بيت الصنم يُهدون إليه المـال طلبـًا لحلول البركة في أموالهم ، واستجابة لدعائهم ؛ ظنًّا منهم أنَّـهُ يحقِّـق ذلك .

ولكونـه علـى طريـق القوافـل العربيـة إلـى شـمال الجزيـرة حيـث كـان الحجيج يقـصدونه وغيـرهم مـن التُّجـار والـزُّوار فينزلـون عنـده ويدعونـه ويتبرَّكـون بـه ، وكانـت طـيِّء ومَـن جاورهـا يُهـدون إليـه ويَعْـترون عنـده عَتَائِرَهُم[1] ، ومِنْ عقائدهم فيه أنَّه لا يأتيه خائف إلَّا أَمِن ، ولا يطـرد أحـدٌ منهم طريدةً فيلجأ بها إليه إلَّا تُركت ولـم تُخْفَر[2] حَوِيَّتُه[3] .

وأن سدنته هم بني بَوْلان[4] ، وبَوْلان هو الَّذي بدأ بسدانته ، وآخر من

(١) العَتِيـرة : شـاة تـذبح ويـصب دمهـا علـى رأس الـصَّنَم . والعـاتِرُ : الـذي يَعْتِـرُ شـاةً . الفراهيدي : العين ، ٢/ ٦٥ .

(٢) يُقـال : أَخْفَرْتَـهُ : إذا نقـضتَ عهـده وغـدرتَ بـه . انظـر : الجـوهري : الـصحاح ، ٢/ ٦٤٨ .

(٣) الحَوِيَّة والحَاوِيَة والجمع الحَوَايَا ، والحِوَاءُ: أَخْبِيةٌ تَدَانَى بعضُها مـن بعضٍ. انظـر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ٣١٩ . ولعل المراد بها هيبته أو جواره .

(٤) بَوْلان – بفتح الباء وسكون الواو وبعدهما لام ، على وزن فَعْلان– : بطـن مـن طـيء بن أدد ، من بني زيد بن كهلان ، من القحطانية ، واسم بَـوْلان غـصين بـن عمـرو بـن الغوث بن طيء ، وله أبناء كثر تحولوا إلى بطون كثيرة شهيرة من القحطانية . انظـر : ابـن الكلبـي : نـسب معـد واليمن الكبير ، ١/ ٢٦٤ ، ابـن دريـد : الاشـتقاق ، ص : ٣٩٧ ، علي بن محمد بن الجزري عز الـدين ابـن الأثيـر (ت: ٦٣٠هـ) : اللباب في تهذيب الأنساب ، دار صـادر – بيـروت ، (د.ن) ، (د.ت) ، ١/ ١٨٨ ، ابـن منظـور : لـسان العـرب ، ١١/ ٧٦ ، كحالـة : معجـم قبائـل العـرب القديمـة والحديثـة ، ١/ ١١٢ .

سدنه منهم رجلٌ يُقال له صيفيّ ، وكان أول من أخفر هذا الصنم مالك بن كلثوم الشَّمَجَى[١] ، وذلك أنَّ صيفي اطَّرد ناقة خليَّة ، والخلية من الإبل هي التي خُلِّيَتْ للحليب ، وعزل عنها ولدها لذلك ، وكانت النَّاقة لامرأة من كلب من بني عُلَيم[٢] ، جارةً لمالك ابن كلثوم وكان شريفًا ، وكانت العرب تعظِّم حقَّ الجوار لما توارثوه من مكارم الأخلاق ، فانطلق السَّادن بالنَّاقة حتى أوقفها بفناء الفلس ، فخرجت المرأة إلى جارها وأخبرته بذهابه بناقتها ، فركب مالك فرسه عريًا[٣] وأخذ رمحًا وخرج مسرعًا ، فأدركه وهو عند الفلس ، والنَّاقة موقوفة عنده ، فقال : خلِّ سبيل ناقة جارتي ، فقال : إنَّها لربِّك ، قال : خلِّ سبيلها ، فقال السَّادن : أتخفر إلهك؟ فبوَّأ له الرمح ثُمَّ نزل فحلَّ عقالها وانصرف بها وأعادها إلى جارته[٤] .

وهذا الموقف يذكِّر بموقف جسَّاس بن مُرَّة[٥] حين قتل كليب بن

---

(١) مالك بن كُلْثوم بن ربيعة ، وهو الَّذي يُقال له مُخْفِر الفَلْس : الفَلْس : صنَم كان لطيِّء ، وكان لا تُخْفر ذمَّتُه ، فأخْفره مالك . انظر : ابن دريد : الاشتقاق ، ص : ٣٩٤ .

(٢) بنو عُلَيم : بطن من كنانة عذرة ، من قضاعة ، من القحطانية ، وهم بنو عليم بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنانة بن بكر بن عَوف بن عذرة بن زيد اللّات بن رفيدة ابن ثور بن كلب . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ٢/ ٥٧٧ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ٢/ ٨١٩ .

(٣) فرسًا عريًا : أي ليس عليه سَرْجَ عليه ولا غيره . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٢٢٥ .

(٤) انظر : جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٢٧٨.

(٥) جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، شاعر شجاع ، من أمراء العرب في الجاهلية ، وهو الذي قَتَلَ كُليب بن وائل ، وكان ذلك سببًا لنشوب حرب طاحنة بين بكر =

ربيعة[1] في ناقة جارته البسوس التي قتلها كليب فقتله بذلك فاندلعت جراء هذه الحادثة حرب البسوس[2] التي استمرَّت أربعين سنة . فمن خلق العرب إكرام الجار وحفظ حقوقه ، وقد جاء الإسلام يعزِّز هذا الخلق ويؤكِّد عليه ، قال رسول الله ﷺ : «مَا زَالَ جبريلُ يُوْصِيْنِي بالجَارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[3] .

فلمَّا انصرف مالك ، أقبل السَّادن إلى الفلس ونظر إلى مالك ورفع يده وهو يشير بيده إليه ويقول :

=

وتغلب دامت أربعين سنة قُتِل في آخرها جساس . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٣٢٥ ، أحمد بن عبدالوهاب النويري (ت: ٧٣٣هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ ، ٢/ ١٢٤ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ١١٩ .

(١) كليب بن ربيعة ، سيد تغلب الذي جرى فيه المثل : أعزُّ من كليب ، وبسبب قتله كانت حرب وائل ، ويقال إنها دامت أربعين سنة . انظر : ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص٦٤٢ ، عماد الدين الملك المؤيد : المختصر في أخبار البشر ، ١/ ٧٦ ، ٧٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٢٣٢ .

(٢) حرب البسوس : نسبة للبسوس بنت منقذ التميمية ، وهي شاعرة يضرب المثل بشؤمها ، وهي خالة جساس بن مرة الشيباني ، كانت لها ناقة يقال لها سراب ، رآها كليب ترعى في حماه فرمى ضرعها بسهم ، فحزنت البسوس وقالت شعراً أثار حماس جساس ، فقتل جساس كليباً ثم هاجت حرب بين بكر وتغلب بسببها دامت أربعين سنة ، فقيل : أشأم من البسوس . انظر : أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت: ٥١٨هـ) : مجمع الأمثال ، ت : محمد محيى الدين عبدالحميد ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان ، ١/ ٣٧٤ ، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) : المستقصى في أمثال العرب ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٧م ، ١/ ١٧٦-١٧٧ .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الوصاة بالجار ، برقم (٦٠١٤) .

يا ربِّ إن يك مالك بنُ كُلْثُوم أَخْفَـرَكَ اليـومَ بنَـابٍ عُلْكُـوم

وكنت قبلَ اليومَ غيرَ مَغْشُوم

يدعو ويحرِّضه علي مالك[1] ، وعَدِي بن حاتم[2] يومئذٍ قد عَتَر عنده عَتِيرَةً وجلس هو ونفرٌ يتحدَّثون بما صنع مالك ، ففزع لذلك عَدِي بن حاتم وقال : انظروا ما يُصيبه في يومه ، وهذا يدلُّ على أنَّ قلوبهم امتلأت خوفـًا وهيبـةً مِنَ الفَلْس ، وقد إعتقدوا أنَّ أنف الجبل الَّذي يعبدون سيضرُّهم أو ينفعهم مِنْ دون الله عز وجل ، لذلك خافوا منه خوفا شديدا أن يخفروه لمكانة الصَّنم من قلوبهم إعظاما وهيبة ، ثُمَّ إنَّ عدي بن حاتم لمَّا مضت على مالك أيامًا لم يُصبه شيءٌ رفض أن يعبد الفَلْس ، وأيقن أنَّهُ لا شيء ، ثُمَّ تَنَصَّر ، ومع أنَّ عَديـًا تنصَّر وفارق دين قومه إلَّا أنَّـهُ ظلَّ سيداً لقومه يحكم فيهم بالـمِرْبَاع[3] ، خلافـًا لعقيدة النَّصارى التي تحرِّم

---

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٦١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٧٣ .

(٢) عَدِي بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن الغوث بن طيئ الطائي ، وأبوه حاتم ، هو الجواد الموصوف بالجود ، الذي يضرب به المثل ، يكنى عدي أبا طريف ، وَفَدَ عديٌّ على النبيِّ ﷺ سنة تسع في شعبان ، فأسلم وكان نصرانيـًا ، ثبت على إسلامه في الردة ، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر ، وشهد فتح العراق ، ثم سكن الكوفة ، توفي سنة سبع وستين مُعَمَّرًا عشرين ومائة سنة. انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٧ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٨٨ .

(٣) الـمِرْبَاع : ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية ، مأخوذ من قولهم : ربعت القوم ، أي : كان القوم يغزون بعضهم في الجاهلية ، فيغنمون ، فيأخذ الرئيس ربع الغنيمة دون أصحابه خالصـًا ، وذلك الربع يسمى المرباع . انظر : ابن منظور : =

ذلك ، وكان هنالك كثيرٌ من القبائل العربية قد دانوا بالنَّصرانيَّة والبعض الآخر على شركهم ، إلا أن كلى أتباع الدِّيانتين الوثنية متعايشين هناك على باطلهم ، ومالك بن كلثوم هو أوَّل من أخفر ذلك الصنم ، فكان السادن بعد ذلك إذا طَرَد طَرِيدَةً للفلس أُخذت منه[1] فلما جاءت سريَّة عليّ ابن أبي طالب إلى ديار طيء ، فرَّ عدي بأهله إلى الشَّام ولم يزل مُتَنَصِّراً حتَّى هداه الله للإسلام فأسلم .

=

لسان العرب ، ٧/ ٤١٤-٤١٥ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٢١/ ٣١ .

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٩ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٢٧٣ .

سريَّة علي بن أبي طالب[١] رضي الله عنه لـهدم الفَلْس[٢] :

فلمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة وقضى على دولة الشرك ، وكسر رسول الله ﷺ الأصنام في مكَّة وخارجها عَلِم النَّاس أنَّ هذه الأوثان ليست بشيء ، فدخلت القبائل العربية في دين الله أفواجًا ، وانتشر الإسلام في الحجاز وما حولها ، وبدأت الوُفُود تَفِد إلى رسول الله ﷺ فكان عليه الصلاة والسَّلام لا يسمع بصنمٍ إلَّا بعث إليه مَنْ يهدمه ويُخرِّبه أو يحرقه كما صنع بذي الكفَّين وسُواع وغيرها من الأصنام .

وفي ظلِّ هذه الأحداث كانت قبيلة طيِّء تتمسَّك بطاغوتها الفَلْس ، وما زالت تعبده وتُعظِّمه وتَلتفُّ حَوله ، ففي ربيع الآخر من السَّنة التَّاسعة بعث إليه رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سريَّة مِنْ وجهاء الأنصار وفرسانها ، معه مائة بعير وخمسون فرسًا ، فأمرهم أن

---

(١) أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين ، علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ابن قصي القرشي الهاشمي ، يكنى أبا الحسن ، وأم علي بن أبي طالب فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، توفيت مسلمة قبل الهجرة ، قال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبرسوله محمد ﷺ من الرجال علي بن أبي طالب ، وعنه أنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ كذا وكذا لا يصلي معه غيري إلا خديجة ، وأجمعوا على أنه صلى القبلتين ، وهاجر ، وشهد بدراً والحديبية ، وسائر المشاهد ، وأنَّه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق ، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ، ولما آخى النبيّ ﷺ بين أصحابه قال له : أنت أخي . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٣/ ١٠٩٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٦٤ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٩-٦٢ ، الواقدي :المغازي ، ٣/ ٩٨٤-٩٨٧ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٥٧-٢٥٨ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢١٨-٢١٩ .

يُغيروا على قبائل طيِّء ، وأن يهدموا صنمهم ويُخرِّبُوه[١] .

فخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأصحابه فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل ، لبعد المسافة بين المدينة وديار طيّء ، ودفع رايته إلى سهل بن حنيف ، ولواءه إلى جبار بن صخر السُّلمي ، وخرج بدليل مِنْ بني أسد يُقال له حريث ، فسلك بهم طريق فَيْد[٢] ، فلمَّا انتهى بهم إلى موضع قال : بينكم وبين الحي الَّذي تريدون يومٌ تامٌ ، وإنْ سِرناه بالنَّهار وطئنا أطرافهم ورعاءهم ، فأنذروا الحيَّ فتفرَّقوا ، فلم تُصيبوا منهم حاجتكم ، ولكن نُقيم يومنا هذا في مَوضعنا حتَّى نُمسي ، ثُمَّ نَسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتَّى نُصبِّحَهم في عماية الصُّبح ، فعسكروا وسرَّحوا الإبل ، وبعثوا نفراً منهم يتقصَّون ما حولهم ، فخرجوا حول المعسكر ، فأصابوا غلاماً أسود ، فقالوا : ما أنت؟ قال : أطلب بغيتي ، فأتوا به عليًّا رضي الله عنه ، فشدُّوا عليه ، فقال : أنا غلام لرجل مِنْ طيّء من بني نبهان ، أمروني بهذا الموضع ، وقالوا : إن رأيت خيل محمَّد فَطِرْ إلينا فأخبرنا ، وأنا لا أدرك أسراً ، فلكأنِّي كنت مُقيَّداً حتَّى أخذتني طلائعكم ، قال علي رضي الله عنه : أُصْدُقْنَا ما وراءك! قال : أوائل الحيِّ على مسيرة ليلةٍ ، فخرج حتَّى انتهى إلى أدنى الحيِّ ، فسمعوا

---

(١) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٨٤ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٢٤ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ٢٨٨ .

(٢) فَيْدْ -بفتح الأول وسكون المثناة تحت وآخره دال المهملة- : كانت على الحدود بين طيء وبني أسد ، وموقعها اليوم في جنوب حائل مِنَ السعودية ، وإليه يُضاف حمى فيد . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرة النَّبويَّة ، ص : ٢٤٠ ، محمد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢١٩ .

نُباح الكلاب ، فما زالوا يدنون حتَّى أشرفوا على الحيِّ ، فقالوا : فأين آل حاتم؟ قال : هم متوسطو الأصْرَام[١] ، فقالوا : نُمهل القوم حتَّى يطلع الفجر ، فلمَّا اعترضوا الفجر أغاروا عليهم فقتلوا المقاتلة وأسروا مَنْ أسروا وجمعوا السَّبْيَ والنّعم والشّاء ولم يخفى عليهم أحدٌ تغيَّب فملئوا أيديهم ثُمَّ عرضوا عليهم الإسلام فمَنْ أسلم تُرِك وتُرِك إليه ماله ومَنْ أبى ضُربت عُنقه حتَّى أتَوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام فقال : والله إنَّ الجزع من السَّيف لَلُؤم ، وما مِنْ خلود! قال : يقول رجل من الحيِّ ممَّن أسلم : يا عجبًا منك ، ألا كان هذا حيث أخذت! فلمَّا قتل من قتل ، وسبي من سبي منَّا ، وأسلم منَّا من أسلم راغبًا في الإسلام تقول ما تقول! ويحك ، أسلم واتبع دين محمد! قال : فإنِّي أُسلم وأتَّبِع دين محمَّدٍ ، فأسلم وتُرك ، ثُمَّ سار عليٌّ رضي الله عنه إلى الفلس فهدمه وخرَّبه ، ووجد في بيته ثلاثة أسياف ، رسوب ، والمخذم ، وسيفًا يُقال له اليماني ، وثلاثة أدرع ، وكان عليه ثياب يُلبِسُونه إيَّاها ، فهدَمَه وخرَّبه وأخذ ما فيه[٢] .

ثُمَّ قفل راجعًا بالسَّبي والغنائم ، وكان ضمن السَّبي آل حاتم وفيهم

---

(١) الأصرام : جمع صِرم ، وهي الفرقة من النَّاس . انظر : الحسن بن عبدالله بن سهل : التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، ت : عزة حسن ، دار طلاس للدراسات ، ط : ٢ ، ١٩٩٦م ، ص١٠٢.

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٨٤-٩٨٨ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٢٤ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣/ ١١٢ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢/ ١٥١ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ١٠/ ٢٥١-٢٥٤ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ١٠/ ٢١-٢٢ .

سفَّانة بنت حاتم[١] ، وذلك أنَّ عدي بن حاتم لمَّا شعر بخيل رسول الله ﷺ أخذ أولاده وفرَّ هاربـاً حتى لحق بالشام ، وكان قد تنصَّر ، وكان يسير في قومه بالمرباع ، فلمَّا عاد علي رضي الله عنه إلى المدينة بسبايا طيء جعلت ابنة حاتم في حظيرةٍ بباب المسجد ، وكانت امرأة جميلةً جَزْلَةً[٢] ، فمرَّ رسول الله ﷺ فقامت إليه وقالت : هلك الوالد وغاب الوافد ، فامْنُنْ عليَّ منَّ الله عليك ، قال : «مَنْ وافدك»؟ قالت : عَديُّ ابن حاتم ، قال : «الفارُّ مِنَ الله ورسوله»؟![٣] . ثُمَّ قدم وفدٌ مِنْ قضاعة[٤] من الشَّام ،

---

(١) سَفَّانَة بنت حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن الغوث بن طيئ الطائي ، وأبوها حاتم ، هو الجواد الموصوف بالجود والَّذي يُضرب به المثل ، وكان أبوها حاتم يُكنَّي أبا سفَّانة ، وأخوها الصَّحابيُّ عديّ بن حاتم . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٧/ ١٤٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ١٨٠ .

(٢) أيْ : جَيِّدَةَ الرَّأْيِّ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ١٠٩ .

(٣) الطَّبراني : المعجم الأوسط ، برقم (٦٦١٤) ، ٣/ ٣٥٩ ، والهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، برقم (٩٧٢٠) ، ٥/ ٣٣٥ ، وقال : رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط وفيه عبدالله بن هشام الدَّستوائيُّ وهو متروكٌ ، وانظر : ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ٢٨٨ .

(٤) قُضاعة : شِعبٌ عظيمٌ اختلف النَّسابون فيه ، قال ابن حزم : قال قَومٌ : هو قُضاعة بن عدنان -قال ابن عبدالبر : والأكثر على أَنَّهَا مِنْ معدّ بن عدنان- ، وقال قوم : هو قُضاعة بن مالك بن حِمير ، وقال قوم -مِنهم الكلبي- : هو قُضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حِمير ، والله أعلم . كانت ديارهم في الشِّحر ، ثُمَّ في نجران ، ثُمَّ في الحجاز ، ثُمَّ في الشَّام ، فكان لهم مُلكٌ ما بين الشَّام والحجاز ، إلى العراق ، في أيلة ، وجبال الكرك ، إلى مشارف الشام ، وقد حاربهم الرَّسُول ﷺ في غزوة السَّلاسل سنة ٧ هـ ، وكانوا أشدَّاء في الحرُوب . انظر : هشام الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ٢/ ٥٥١ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٤٠ ، وابن عبد البر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ٣١ ، وكحالة : معجم قبائل العرب =

وكساني رسول الله ﷺ وأعطاني نفقة وحملني وخرجت معهم حتى قدمت الشَّام على عدي فجعلت أقول له : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك وتركت بقيَّة والدك[١] ، فأقامت عنده أيامًا وقالت : أرى أن تلحق برسول الله ﷺ ، قال عديّ : فخرجتُ حتَّى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو في المسجد ، فسلَّمت عليه ، فقال : «مَنِ الرَّجُل»؟ فقلت : عديَّ بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنَّهُ لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلًا تُكَلِّمُه في حاجة ، قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك ، قال : ثُمَّ مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوَّةً ليفًا فقذفها إليَّ وقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت تجلس عليها ، فقال : «بل أنت» ، فجلست وجلس رسول الله ﷺ على الأرض ، قال عديّ : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك ، ثُمَّ قال : «إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسيًا[٢]»؟ قال : قلت : بلى ، قال : «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع»؟ قال : قلت : بلى ، قال : «لم يكن يحل لك في دينك» ، قال : قلت : أجل والله ، قال : «وعرفت أنَّهُ نبيٌّ مرسل يعلم ما يجهل» ، ثم قال : «لعلَّك يا عدى إنَّما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم

=

القديمة والحديثة ، ٣/ ٩٥٧ .

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٤٧٦ -٤٧٧ . الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٧٧ .

(٢) الركوسية : دين بين دين الصابئة والنصارى . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٥٩ .

حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلَّك إنَّما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلَّك إنَّما يمنعك من دخول فيه أنَّك ترى أنَّ الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم» ، قال عدى : فأسلمت[1] .

وعن علي رضي الله عنه قال : يا عجبًا لِرجلٍ مُسلِمٍ يجيئُهُ أخُوه المسلم في حاجةٍ فلَا يَرَى نَفسَهُ للخَير أهلًا ، فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارمِ الأخلاق ، فإنَّها ممَّا تدلُّ على سبيل النَّجاة ، فقال له رجلٌ أسمِعتَهُ من رسول الله ﷺ؟ فقال : نعم! وما هو خيرٌ منه ؛ لمَّا أُتِيَ بسبَايَا طَيْء وَقَفَتْ جَاريَةٌ فِي السَّبْيِّ فقالت : يا مُحمَّد! إنْ رأيت أنْ تُخلِيَ عنِّي ولَا تُشمِت بي أحيَاءَ العرب ، فإنِّي بِنتُ سيِّد قَومِي ، وإنَّ أبي كان يَحمِي الذِّمَار[2] ، ويَفُكُّ العانِي[3] ، ويُشبعُ الجائع ، ويُطعِمُ الطَّعام ، ويُفشِي السَّلَام ، ولم يَردَّ طالبَ حاجَةٍ قَطُّ ، أنا ابنةُ حاتم الطَّائِي ، فقال ﷺ : «يا جَارِيَة! هَذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ حَقًّا ، لَوْ كَانَ أَبُوك مُسْلِمًا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْه ، خَلُّوا عَنْهَا ، فإنَّ أباها كان يحب

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، برقم (١٨٢٦٠) ، ٣٠/ ١٩٦ ، وانظر: ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٨٠-٥٨١ .

(٢) الذِّمَارُ : ما لزمك حفظُه ممَّا وراءك وتعلَّق بك . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ١٦٧ .

(٣) العَانِي : الأسِيرُ ، وكلُّ مَن ذَلَّ واسْتكان وخَضَع فَقَدَ عَنَا يَعْنُو ، وَهُوَ عَانٍ . ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣١٤ .

مكارم الأخلاق ، وإنَّ اللهَ يحبُّ مكارم الأخلاق» ، فقام أبوبردة بن نِيَار[١] فقال : يا رسول الله! اللهُ يحبُّ مكارم الأخلاق؟ فقال ﷺ : «والذي نفسي بِيده لا يدخلُ الجنَّة إلَّا حسن الأخلاق»[٢] . وهذا مصداق قول النبيِّ ﷺ : «إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّم مكارمَ الأخلاق»[٣] . فدين الله قائم على مكارم الأخلاق ، ومن أعظم هذه المكارم توحيد الله ونبذ الشرك ، فالله سبحانه وتعالى هو المالك المنعم المتفضِّل ، وهو سبحانه المستحقُّ للعبادة ، فإن كان الوفاء للمحسن من البشر أمر محمود ومن مكارم الأخلاق ، فكيف بالله سبحانه المحسن إلى عباده غاية الإحسان ، ولمَّا كان سبحانه هو الخالق المالك ، وكانت الغاية من خلق الخلق هي عبادة الله ، فالعبادة إذاً حقٌّ محضٌ لله ، إذ من غير المنطقي أن يكون سبحانه هو مالك لكل شيءٍ والمدبِّر له ، وهو المعطي المانع ، ثُمَّ ينصرف العبد إلى غير خالقه بالعبادة والشكر ، فهذا قمَّة النُّكران والجحود ، فالتوحيد هو إخلاص العبادة لله وحده بالطاعة ، وتمام التوكُّل عليه وشكره والثناء

---

(١) هانئ بن نِيَار -بكسر النُّون ، وتخفِيف اليَّاء المثنَّاة مِنْ تحت- بن عُبيد بن كِلاب البَلَوِيّ ، أبو بُردة بن نِيَار حَلِيف الأنصار ، خال البراء بن عازب ، غلبَت علَيْه كُنيَته ، شهِد بدرًا وما بعدها ، ومات في أوَّل خلافة معاوية . انظر : ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٤/ ١٥٣٥ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٦/ ٤١٠ ، ٧/ ٣٢ .

(٢) الحكيم التِّرمذي : نوادر الأصول ، ٢/ ٣١٣-٣١٤ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ، ١١/ ٣٥٨ ، ٦٩/ ٢٠٣ ، وانظر : أبوحامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) : إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت- لبنان ، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م ، ٢/ ٣٥٨-٣٥٩ .

(٣) البيهقي : السنن الكبرى ، كتاب الشهادات ، بابُ : بيان مكارم الأخلاق ومعاليها.. ، برقم (٢٠٧٨٢) ، ١٠/ ٣٢٣ .

عليه ، والخوف والخشية منه في إيقاع الضرِّ ، ودعاؤه ورجاؤه في تحقيق الخير والبركة والسعادة في الدُّنيا والآخرة ، وهذه لا يملكها إلَّا الله عزَّ وجلَّ ، وطلب ذلك من الله الخالق المتصرِّف في هذا الكون يحقِّق الثِّقة وكرامة النفس والعزَّة ، فتوحيد الله بالعبادة وبذلها له طاعةً وعرفاناً وشكراً على فضله أعلى مراتب مكارم الأخلاق .

أمَّا إذا طلب الإنسان تحقيق النفع ودفع الضر من غير الله فهو يطلب أمراً عظيماً من عاجزٍ لا يملكها حتى لنفسه ، كمن يطلب ذلك من الجن والشياطين والأموات والحيوانات والأحجار فيسجد ويخضع ويتذلَّل لها بالعبادة لتجلب له خيراً أو تدفع عنه شراً ، ناسباً ما خصَّ الله به نفسه من كمال القوة والقدرة والتصرف لغير الله افتراءً على الله وجحوداً له ، وهذا لا يرضاه الله لنفسه ولا للذي كرمه على سائر خلقه واختصه لعبادته ، لأن عبادة غير الله في منتهى الظلم والذلِّ والسَّفه والصَّغار ، وهو أبعد ما يكون عن مكارم الأخلاق الَّتي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ ، ويأمر بها عباده ، فالتَّوحيد أعظمها ، وبِرُّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وإكرام الضَّيف ، وإكساب المعدوم وغير ذلك إلى أقل المعروف إماطة الأذى عن الطريق فهذا هو الإسلام لا ينفكُّ عن مكارم الأخلاق أبداً ، ولأنَّ العرب كانوا على بقيَّة باقية من دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، فقد كانوا على قدرٍ من مكارم الأخلاق التي توارثها الأبناء عن الآباء ، فكانوا يبرُّون الوالدين ، ويكرمون الضيف ، ويحسنون الجوار ، ويفكُّون العاني ، وينصرون المظلوم ويطعمون الجائع ، ويكسون العاري ، إلَّا أنَّهُ أُدخل عليهم الشرك فأفسد عليهم دينهم ، واتبعوا الشَّياطين والكهان ، فبدَّلوا التوحيد الذي هو رأس

مكـارم الأخـلاق ، وأقـرُّوا الـشرك الـذي هـو أعظـم الظلـم وأذل الـذُّل ، وأشـركوا تلـك الأصـنام والأوثـان مـع الله سبحانه وتعـالى عبـادةً وشـكراً وخضوعـًا ، وبهذا الفعل الشنيع كانوا قـد ابتعـدوا عـن رحمـة الله وتوفيقـه ووقعوا في غضبه وسخطه ، وانحدروا في ظلمات الجهـل والـضلال عـلى خطى الشيطان ، هكذا إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأعاد الحقَّ إلى نـصابه وأعاد التوحيد مـن جديـد ، وكـسر الأصـنام في مكـة وفي أنحـاء الجزيـرة ، وقد أدَّى هدم الأصنام والطواغيت إلى اجتثاث الوثنيَّة من جزيـرة العـرب وانتشار الإسلام في أرجائها والذي تسابقوا الدخول فيه أفواجـًا أفواجا في أعقاب فتح مكة المكرمة .

المبحثُ الثَّاني :
سريَّة خالد بن الوليد ﷺ لهدم وَدّ

ومن أصنام العرب في الجاهليَّة الَّتي أمر رسولُ الله ﷺ بهدمها صنم «وَدّ» والَّذي كان منصوباً بدُومَة الجَنْدَل[١] . ومِنْ وَصفِه أنَّهُ كان تمثالًا لرجلٍ كأعظم ما يكون مِنَ الرِّجال قد ذَبَرَ[٢] ، عليه حُلَّتان مُتَّزِرٌ بحلَّة ، مُرْتَدٍ بأخرى ، عليه سَيْفٌ قد تقلَّدَهُ ، وقد تنكَّب قوساً وبين يديه حَرْبَةٌ فيها لواءٌ ووفضة -أي : جعبة- فيها نبلٌ[٣] .

وقد تكَّرر اسم هذا الصَّنم عبر التاريخ مِنْ لدن نوح عليه الصَّلاة والسلام إلى زمن النَّبيِّ ﷺ ، ووَدّ في فلك الشرك يدور مرَّةً في قوم نوح حين بعثه الله داعياً قومه إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا وثن ، إلَّا أنَّ الشرك تمكَّن من نفوسهم واستكبروا وعاندوا وأصرُّوا على عبادة الأصنام إصراراً عظيماً ، قال تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٤] ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عند تفسير هذه الآية قال : «هذه أسماء رجال صالحينَ من قوم نوح ، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسونَ فيها أنصابًا وسمُّوهَا بِأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتَّى إذا هلك أولئكَ ونُسِخَ العلم عُبدت»[٥] .

---

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٥ . وقد سبق التعريف بدومة الجندل .

(٢) ذَبَرَ : أي أُتقن . انظر: ابن منظور: لسان العرب ، ٤/ ٣٠٢ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١١/ ٣٦١-٣٦٢ .

(٣) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٦ .

(٤) سورة نوح ، الآية : ٢٣ .

(٥) سبق تخريجه .

ثُمَّ ذُكر مَرَّةً أُخرى بِبَابِل[١] موطن قوم إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين ذُكر عند أبي جعفر الباقر وهو قائم يُصلِّي يزيدَ بن المهلب[٢] ، فلمَّا انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنَّهُ قُتل في أوَّل أرض عُبِدَ فيها غيرُ الله . قال : كان وَدًّا رجلًا صالحًا ، وكان مُحَبَّبًا في قومه ، فلمَّا مات عكفوا حول قبره في أرض بَابل ، وجزعوا عليه ، فلمَّا رأى إبليس جزَعَهم عليه تشبَّه في صورة إنسان ثُمَّ قال : إنِّي أرى جَزَعَكُم على هذا الرجل ، فهل لكم أنْ أُصَوِّر لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونَه ، قالوا : نعم ، فصوَّر لهم مثلَه . قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونَه ، فلمَّا رأى ما بهم مِنْ ذِكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كُلِّ واحدٍ منكم تمثالًا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه ، قالوا : نعم ، قال : فمَثَّل لكُلِّ أهل بيت تمثالًا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، قال : وتناسلوا ودُرِسَ أثر ذكرهم إيَّاه حتَّى اتَّخذوه إلهًا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دون الله أولادَ أولادِهم ، فكان

---

(١) بَابِل -بكسر الباء الثَّانية-: اسم ناحية منها الكوفة والحلَّة ، يُنسب إليها السِّحر والخمر ، وقيل : بَابِل مِنَ العراق ، ويُقال إنَّ أوَّل من سكنها نوحٌ عليه السلام وهو أوَّل مَنْ عَمَرَها . وقيل : إنَّ مولد إبراهيم عليه السلام كان بها ، ويُنسب إليها السِّحر والخمر . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٣٠٩ ، محمد بن عبدالله الحِميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص : ٧٣ .

(٢) يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صفرة ، الأمير أبوخالد الأزدي ، ولي المشرق بعد أبيه ، ثم ولي البصرة لسليمان بن عبدالملك ، ولد زمن معاوية سنة ثلاث وخمسين ، له أخبار في السخاء والشجاعة ، قُتل عن تسع وأربعين سنة ، في صفر سنة اثنتين ومائة . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤/ ٥٠٣-٥٠٦ .

أوَّل ما عُبِد غير الله الصَّنم الَّذي سمَّوه وَدًّا[(١)] .

ولعلَّ هذا هو سبب انتشار الأصنام في قوم إبراهيم ، وفي الشَّام في تلك الحقبة ، ثمَّ تكرَّر ذِكرُ «وَدّ» في زمن عمرو بن لحي حين غلب على العرب وكان كاهنًا له رئي مِنَ الجنِّ ، فأتاه رئيه فقال : أجب أبا ثمامة ، فقال عمرو : لبيك مِنْ تهامة ، فقال له : ارحل بلا ملامة ، قال له : جير ولا إقامة ، قال : إيت ضف جدة ، تجد فيها أصنامًا معدَّة ، فأوردها تهامة ولا تهاب ، ثُمَّ ادع العرب إلى عبادتها تُجاب ، فأتى عمرو ساحل جُدَّة فوجد بها وَدًّا وسُوَاعًا ويغوث ويعوق ونسراً ، وهي الأصنام الَّتي عُبدت على عهد إدريس ونوح عليهما السلام ، ثُمَّ إنَّ الطُّوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل فواراها واستثارها عمرو وحملها حتَّى ورد تُهامة ، وحضر الحجَّ ، فدعا العرب إلى عبادتها ، فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللَّات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة ، فدفع إليه وَدًّا ، فحمله إلى وادي القُرى فأقرَّه بدومة الجندل[(٢)] .

وجميع هذه الروايات تشير إلى أنَّ العامل الأوَّل والدَّافع لعبادة الأصنام هو استدراج الشَّيطان لعباد الله بأمرين ، الأوَّل : هو الغلوُّ في محبَّة الأولياء والصَّالحين وتعظيمهم ، والثَّاني : التَّصوير وإنشاء تَماثيل وأصنام تتراءى مِنْ خلالها الشَّياطين فَتُوهِم النَّاس وتكلِّمهم وتعلِّمهم

(١) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ١/ ٢٤٩ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٥ ، د. جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٧٩ .
ودُومة الجندل : سبق التعريف بها .

الشرك بالله ، ولذلك حذَّر الله عزَّ وجلَّ مِنَ الشَّيطان فقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[(١)] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[(٢)] ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَت عنده أُمُّ سلمة وأُمُّ حبيبة تلك الكنيسة الَّتي رَأَيْنَهَا بأرض الحبشة يُقال لها مارية فذكرتا من حُسنها وتصاوير فيها ، قال ﷺ : «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فيهم الرَّجُل الصَّالح بَنَوْا على قَبْره مَسْجِداً ثُمَّ صَوَّرُوا فيها تِلْكَ الصُّوَر أُوْلَئِكَ شِرَارُ الخَلْق عِنْدَ الله عزَّ وجلَّ»[(٣)] ، ولا يَبْعُد أن يكون للصَّنم وَدًّا عند العرب من اسمه شأن في المعنى ، وَدَّ الشيء وَداً ووِداً ووُدًّا ، ومودَّةً : أحبَّه ، ووَدِدْت الرَّجل أودُّه وداً إذا أحببته[(٤)] ، والوِداد ، والوَداد مصدر مثل المودَّة ، وهذا ودك وودِيدك كما تقول حبك وحبيبك .

فإنْ كنتَ لي وِدّاً فبَيِّنْ مَوَدَّتي　　ليَغشاكُمُ وُدِّي ويَسري بكم بُغْضي[(٥)]

والود في قول امرئ القيس :

تُظْهِرُ الوُدَّ إذا ما أشجذت　　وتـــواريـــه إذا مـــا تعتكر[(٦)]

---

(١) سورة فاطر ، الآية : (٦) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٦٨) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب بناء المسجد على القبر ، ١/ ٤٥٠ ، برقم (١٢٧٦) ، وصحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، ١/ ٣٧٥ ، برقم (٥٢٨) .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ٤٥٤ .

(٥) الفراهيدي : العين ، ٨/ ١٠٠ .

(٦) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ٣١٠ .

ويطلقُ على الرَّجُل الكثير الحُبِّ الـوُدُّ[١] ، ولعلَّ هـذا الـصَّنم هـو إلـه الحبِّ عند العرب والَّذي يمنحهم الوُدَّ والمـودَّة ، «فهـو أوَّل صـنم معبـود سُمِّيَ وَدًّا لودهم له» -أي : لمحبتهم له- وكان بعد قوم نوح لكلب بدُومَة الجندل في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل[٢] ، وضعه عـوف بـن عـذرة مـن بني كلـب فسمَّى ابنـه عبـد وَدٍّ ، فهـو أوَّلُ مـن سـمَّى بعبـد وَدٍّ ، ثُـمَّ سَـمَّت العـرب باسـمه بعـده حـين عظَّمـوه وغلـوا في حُبِّـه وأشـركوه مـع الله في العبادة ، وفيه يقول شاعرهم :

حيَّـاك ود فإنَّـا لا يَحِلُّ لنا لَهْو النِّساءِ وإنَّ الدِّين قد عَزَمَا

وقد جعل عامر ابنه الَّذي يُسمَّى عامر الأجدار سادنـًا له فلم يزل بنـوه يسدنوه حتَّى هدمه خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وقد ذكر مالك بن حارثة الأجداري أنَّهُ رأى وَدًّا قال : كان أبي يبعثنى باللَّبن إليـه فيقـول : اسْـقِهِ إِلَهَـكَ ، قـال : فأشـربه -أي : أنَّ مالـك يـشربُ اللبن- فقال ابن الكلبي لمالك بن حارثة : صف لي وَدًّا حتـَّى كـأنِّى أنظـر إليه ، قال : كان تمثال رجلٍ كأعظم ما يكـون مـن الرجـال فوصـف شـكله وطوله ولبسه وما كان يتقلده مـن سـيف وغيـره مـن سـلاح كأنـه ينظـر إليـه لمعرفته به وقربه منه لكون أبيه من سدنته ، قال : ثُمَّ رأيت خالد بن الوليد بعدُ كَسَرَهُ فجعله جذاذاً[٣] .

---

(١) الزبيدي : تاج العروس ، ٩/ ٢٨٠ .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ٣٠٩ .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٥-٥٦ . وانظر : ياقوت الحموي : معجم البلـدان ، ٥/ ٣٦٨ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٢٥٠ .

وكان لقريش صنم أيضا يدعونه وَدًّا ، ولعلَّ وَدًّا هذا كان أحد الثلاثمائة وستُّون صنمًا الَّتي كانت لقبائل العرب حول الكعبة ، ومنه سُمِّى عمرو بن عبد وَدّ فارس قريش الَّذي قتله علي بن أبي طالب في غزوة الخندق حين تجاوز الخندق مع نفرٍ مِنْ قريش وطلب المبارزة فخرج إليه عليٌّ رضي الله عنه فقتله[١] .

(١) انظر : الواحدي : التفسير البسيط ، ٢٢/ ٢٦٩ .

سريَّة خالد بن الوليد[(١)] رضي الله عنه لهدم وَدّ :

لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة في رمضان مِنَ السَّنة الثَّامنة للهجرة وحطَّم جميع الأصنام الثَّلاثمائة والسِّتُّون وَدٌّ وغيره والَّتي كانت عند الكعبة تحت حماية قريش ورعايتها فكانت القبائل إذا حَجَّت وطافت بالبيت أتت أصنامَها فصلَّت عندها ، لذلك كَثُرت الأصنام حول الكعبة لكثرة القبائل وتعدُّد أصنامها .

وحين فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكَّة وكسر معظم أصنام العرب سار إلى غزو الرُّوم فلمَّا وصل عليه الصلاة والسلام إلى تبوك عسكر بجيشه فيها وبعث البعوث والسَّرايا ، فبعث سريَّةً مُكوَّنَةً مِنْ أربعمائة وعشرين فارسًا بقيادة خالد بن الوليد وأمَرَه أنْ يأتي دُومَة الجندل وكان بها سوق عظيم يزوره العرب مِنْ كلِّ مكان[(٢)] . وبها حصن المارد الَّذي يتحصَّن به مَلِكُهُم أُكيدر بن عبدالملك الكندي[(٣)] ، وكان يقطن في أنحاء

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) انظر : سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني (ت : ١٤١٧هـ) : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ .

(٣) أُكَيدر بن عبدالملك صاحب دُوْمَة الجندل ، كتب إليه النبيُّ ﷺ وأرسل سريَّةً إلى أُكيدر مع خالد بن الوليد ، وقال لهم : إنكم ستجدون أكيدرًا خارج الحصن . أهدى لرسول الله ﷺ وصالحه ولم يسلم ، وهذا لا اختلاف بين أهل السِّيَر فيه ، ومن قال : إنَّه أسلَم ، فقد أخطأ خطأً ظاهرًا ، وكان أُكيدر نصرانيًا ، ولما صالحه النبيُّ ﷺ عاد إلى حصنه ، وبقي فيه ، ثُمَّ إنَّ خالدًا أسره لما حصر دُومَة أيام أبِي بكر رضي الله عنه ، فقتله مشركًا نصرانيًا . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٢٧٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٣٧٨ . أمَّا الواقدي فقد أورد كتاب النبيِّ ﷺ الذي يتضمَّن إسلام الأكيدر ، كما ذكر البلاذري أيضًا أنَّه أسلم وكتب له رسول الله =

دُومَة الجندل كثيرٌ مِنَ القبائل ، ومِنْ أشهرها قبائل قضاعة والتي منها بنو عامر الأجدار[١] سدنة وَدّ ، وأمره ﷺ أن يقبض على أُكيدر ويهدم وَدًّا ، فوجد أُكيدرَ خارج حِصنِه يَصِيد البقر ، كما أخبره بذلك رسول الله ﷺ ، فأسره خالد وقتل حسَّان بن مالك الكندي[٢] .

قال بُجَير بن بَجْرة[٣] : كنتُ في جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى الأُكيدر مَلِك دُومة الجندل فقال النبيُّ ﷺ : «إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيْدُ البَقَرَ» ، قال : فوافيناه في ليلةٍ مُقْمِرَةً وقد خرج كما نعته رسول الله ﷺ ، فأخذناه وقتلنا أخاه كان قد حاربنا وعليه قباء ديباج ،

=

ﷺ ولأهل دومة الجندل كتابًا ، إلَّا أنَّهُ لما قُبض النبيُّ ﷺ منع الصدق ونقض العهد ، فبعث له أبوبكر رضي الله عنه خالداً ، ففتح دومة وقتله ، وكان قتله من قبل خالد الذي شهد العهد يدلُّ على أنَّهُ نقض العهد وارتد ، ولو كان نصرانيًا لاكتفى منه بدفع الجزية . والله اعلم . انظر : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت : ٢٧٩هـ) : فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال- بيروت ، ١٩٨٨م ، ٦٨-٧٠ .

(١) هُم بنُو عامر الأَجدار بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة ، ووَلَد عامرُ الأَجدار : مالكًا وعوفًا وسبعًا وعبدالعزَّى وعبدمناة -ويُقالُ لهؤلاءِ الخمسةِ التَّوائم ، وهُم بطون ، وتَيم الله وحبيبًا ومرَّةَ -بطونٌ أيضًا . انظر : هشام الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ٢/ ٦٣٠ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٩٥ .

(٢) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤٨٧ ، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري : غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ، ص : ٤٣٧ .

(٣) بُجَير -بالتَّصغير- بن بَجْرة -بفتح أوله وسكون الجيم- الطَّائي ، كان ممَّن شهد سريَّة خالد بن الوليد لدُومَة الجندل ، وله في قتال أهل الردة آثار وأشعارٌ ذكرها ابن إسحاق في المغازي . استشهد بالقادسية . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٣٥٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ١/ ٤٠١ .

فبعث به خالدٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فلمَّا أتينا النَّبيَّ ﷺ أنشدته :

تَبَـارَكَ سَـائِقُ البَقَــرَاتِ إنِّي ... رَأَيْتُ اللهَ يَهْدِي كُلَّ هَادِي

فَمَنْ يَكُ مُتَنَابِذًا عَنْ ذِيْ تَبُوكٍ ... فَـإنَّـا قَدْ أُمِـرْنَا بالجِهَـادِ

فقـال النبـيُّ ﷺ : «لا يَفْـضُّ اللهُ فَـاكَ» ، فأتـت عليـه تـسعون سـنة وما تحرَّكت له سن ولا ضرس[1] .

وقد أورد ابنُ الكلبيِّ أنَّ رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد مِنْ غزوة تبوك لهدم وَدٍّ ، فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد وَدٍّ وبنو عامر الأجدار ، فقاتلهم حتَّى هزمهم ، فهدم وَدًّا وكسره وجعله جُذَاذاً ، وقتل عدداً ممَّن قاتل دونه ، وكان فيمن قُتل يومئذٍ رجلٌ مِنْ بني عبد وَدّ يُقَال له قطن بن شُريح ، فأقبلتْ أُمُّه فرأته مقتولًا فأشارت تقول :

ألا تــلك الموَدَّةُ لا تــدومُ ... ولا يبقى على الدَّهر النَّعِيْمُ

ولا يَبْقَى على الحَدَثَانِ غفر ... لــــه أُمٌّ بشاهــقـــةٍ رَءُوْمُ

ثم انكبَّت عليه تبكي وتقول :

يا جَامِعًـا جَمْعَ الأحْشَاءَ والكَبِدَا ... يا لَيْتَ أُمَّكْ لَم تُوْلَدْ وَلَم تَلِدَا[2]

ثُـمَّ شـهقت شـهقةً فماتـت . وقُتِلَ أيـضًا حسَّان بـن مـصاد ابـن عـم الأكيـدر صـاحب دومـة الجنـدل ، فلمَّـا أُتِـي بالأكيـدر إلـى رسـول الله ﷺ

(١) إسماعيل بن محمد الأصبهاني(ت : ٥٣٥هـ) : كتاب دلائل النبوة ، ت : محمد محمد الحداد ، دار طيبة – الرياض ، ط : ١ ، ١٤٠٩هـ ، برقم (١٥٨) ، ص : ١٤٤-١٤٥ ، جلال الدين السيوطي : الخصائص الكبرى ، ١/ ٤٦٢ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٥-٥٦ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٣٦٨ .

أسلم وكتب له كتابًا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ، مع خالد ابن الوليد سيف الله ، في دومة الجندل وأكنافها ، وإن لنا الضاحية من الضَّحل[١] ، والبُوْر[٢] ، والمعامي ، وأغفال الأرض[٣] ، والحلقة والسلاح[٤] ، والحافر[٥] ، والحصن ، ولكم الضامنة من النخل[٦] ، والمعين من المعمور بعد الخمس[٧] ، لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم[٨] ، ولا يحظر عليكم النبات ، ولا يُؤْخَذُ منكم عشرُ

(١) الضَّحل : هو الماء القليل أو القريب المكان . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٢٩/ ٣٤٢ .

(٢) البَوْر : بالفتح ، الأرض قبل أن تصلح للزرع . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ١٠/ ٢٥٢ .

(٣) المَعَامِي : يريد الأراضي المجهولة الأغفال التي ليس بها أثر عمارة ، واحدها معمى ، وهو موضع العمى كالمجهل ، وأرض عمياء وعامية ومكان أعمى : لا يهتدى فيه . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٩٨ .

(٤) الحَلْقة : بسكون اللام ، السلاح عامـًا ، وقيل : هي الدروع خاصة . انظر : ابن منظور ، ١٠/ ٦٥ .

(٥) الحَافِر : واحد حوافر الدابة : الخيل والبغال والحمير . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ١١/ ٦٣ .

(٦) الضَّامنة من النَّخْل : ما كان داخلًا في العِمارة ؛ سُمِّيت ضامِنةً لِأَن أَرْبَابهَا ضَمِنوا عمارتَها ، فَهِيَ ذاتُ ضَمان . انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٢/ ٣٦ .

(٧) المعن : الماء الظاهر ، وقيل : السائل ، وقيل : الجاري على وجه الأرض ، وقيل : العذب الغزير ، وكل ذلك من السهولة . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٣٦/ ١٨٠ .

(٨) لا تعدل سارحتكم ، أي : لا تصرف ماشيتكم ، وتمال عن المرعى ، ولا تمنع . قال أبو عبيد: أراد أن ماشيتهم لا تصرف عن مرعى تريده ، والسارحة هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى مراعيها . انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٤/ ١٧٦ ، الزبيدي : =

البـتَات[1] ، تُقيمون الصلاة لوقتها ، وتُؤتون الزَّكاة لحَقِّها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصِّدق والوفاء ، شَهِدَ الله ومَنْ حَضَرَ من المسلمين[2] .

وبهدم هذا الصَّنم آذنت عبادة الأصنام في شمال الجزيرة العربية بالزوال ودخلت مُعظم القبائل الإسلام ، فلمَّا عاد رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أقبلت إليه وفود العرب من كُلِّ وجه ، وانتشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية وخارجها .

=

تاج العروس ، ٢٩/ ٤٥٣ .

(١) البَتَات : هو المتاع الذي ليس عليه زكاة مما لا يكون للتجارة . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٩٢ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ١٠٢٦-١٠٣٠ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٠ ، البَلَاذُري : فتوح البلدان ، ٦٨-٦٩ .

المبحث الثالث :

بعث أبي سفيان بن حرب ﷺ والمغيرة بن شعبة ﷺ لهدم اللات

لمَّا جاء الإسلام بالدَّعوة إلى التَّوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة ، تنكَّر لذلك أغلب العرب وأعلنوا الحرب نُصرة لطواغيتهم ، إلَّا أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام بعد جهد عظيم ومجاهدة دؤوب استطاع التغلُّب على قوى الشرك والمشركين ، وبالتَّالي تمكَّن من إخضاع قريش للتَّسليم ومَنْ ثَمَّ القضاء على الوثنيَّة وهدم الأوثان القابعة في جزيرة العرب وبيان بُطلان صرف العبادة لها والتَّعلق بها ، فكان مِنْ بين تلك الأوثان الَّتي أمر النبيُّ ﷺ بهدمها طاغوت اللَّات .

فمِنْ أشهر الأوثان الَّتي عبدتها العرب في الجاهلية طاغوت الربَّة[1] ، الَّتي كانت تعبدها ثقيف ومن جاورها بالطَّائف ، يحجُّون إليها ، ويطوفون بها ، ويذبحون عندها ، ويخافونها ويحلفون بها ، ويتسمَّون باسمها ، ويعظِّمونها أيَّما إعظام ، ويعتقدون أنَّها تدفع عنهم شرًّا ، أو تجلب لهم خيراً ، وأنَّها تشفع لهم عند الله عزَّ وجلَّ ، وأنَّها عندهم من بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ .. ﴾[2] .

وذكر ابن جرير رحمه الله أنَّ المشركين كانوا قد اشتقُّوا اسمها من

---

(١) الرَّبَّة : يعني اللَّات ، وهي الصَّخرة الَّتي كانت تعبدها ثقيف بالطَّائف . انظر : محمود بن عمرو الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) : الفائق في غريب الحديث والأثر ، ت : على محمد البجاوي ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، لبنان ، ط : ٢ ، ٢/ ٣٠ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ١٨٠ .

(٢) سورة النجم ، الآيات ، ١٩-٢٣ .

اسم الله تعالى فقالوا : اللَّات ، يعنون تأنيث لفظ الجلالة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وحكي هذا القول جماعة من المفسِّرين : اللَّات مِنْ لفظ الجلالة ، وكان المشركون يسمُّون أوثانهم بأسماء الله ، فقالوا : مِنَ الله اللَّات ، ومِنَ العزيز العُزَّى ، وهو اختيار الأزهري ، قال : كان المشركون الَّذين عبدوها عارضوا اسم الله ، تعالى علواً كبيراً عن إفكهم ومعارضتهم وإلحادهم في أسمائه الحسنى[(١)] .

وجاء في «الهداية إلى بلوغ النِّهاية» : قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ : رأيت من رؤية العين ، ولذلك نصب بها ، ولو كانت الَّتي للسُّؤال والاستفتاء لم تتعدَّد ، نحو قوله : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾[(٢)] ، فالمعنى : أفرأيتم أيُّها المشركون هذه الأصنام الَّتي جعلتموها بنات الله ، ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ : أي : هذه إذاً ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي : قِسمةٌ جائرةٌ على الحق ، وذلك أنَّ المشركين أخذوا اسم الباري وهو الله ، وزادوا فيه التأنيث وسمَّوا به أصنامهم ، فقالوا : اللَّات ، وكذلك أخذوا العُزَّى مِنَ العزيز ، وأخذوا مناة مِن : منى الله الشيء : إذا قدَّره ، وزعموا أنَّها بنات الله تعالى الله عن ذلك ، فجعلوا لله ما لا يرضَون لأنفسهم[(٣)] .

---

(١) الطبري : جامع البيان ، ٢٢/ ٥٢٢ . وانظر: الحسين بن مسعود البغوي : تفسيره ، ٧/ ٤٠٧ .

(٢) سورة العلق ، الآية : (١٣) .

(٣) مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (ت : ٤٣٧هـ) : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه ، ت : مجموعة رسائل جامعية ، إشراف أ. د: الشاهد البوشيخي ، كلية الشريعة ، جامعة الشارقة ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م ، ١١/ ٧١٥٧ .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي : إلحاداً في أسماء الله حيث كانوا يقولون في مقابلة اسم الله : اللات ، وفي مقابلة العزيز : العزَّى ، ومناة في مقابلة المنَّان ، وهو تسميتهم الأصنام آلهة ، وهذا أعظم الإلحاد في الأسماء فهذا معنى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] .

قال ابن عباس ومجاهد : «عَدَلُوا بأسماء الله تعالى عمَّا هي عليه ، فَسَمَّوا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا ، فاشتقُّوا اللَّات مِنَ الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومناة من المنَّان»[2] .

وروى عن ابن عباس : يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائه : «يكذبون عليه» ، وهذا تفسير بالمعنى ، وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها[3] .

وجاء في إسلام طلحة بن عُبيد الله أنَّه كان جالساً في نادي قريش فتذاكروا إسلام أبي بكر ومخالفته دين آبائه ، فائتمروا بينهم بالفتك به ، فانتدب طلحة له وكان شديداً أَيْداً[4] ، فأتاه وأخذه بضَبْعِه[5] وقال : قم

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .

(٢) الحسين بن مسعود البغوي : تفسيره ، ٣/ ٣٠٧ . وانظر : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) : تفسير القرآن الكريم ، ت : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، إشراف : إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، ص : ٣٣ .

(٣) ابن القيم الجوزية : التفسير القيم ، ص : ٣٣.

(٤) الأَيْدُ : القوي . ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ٧٦ .

(٥) الضَبْع –بالفتح– : العضد كلّها ، والجمع : أضباع ، كفرخ وأفراخ ، تقول : أخذت بضبعي فلان فلم أفارقه ، ومددت بضبعيه ، إذا قبضت على وسط عضديه ، قاله الليث ، ويقال في أدب الصلاة : أبد ضبعيك . الزبيدي : تاج العروس ، ٢١/ ٣٨٥ .

يا أبا بكر ، قال : إلامَ؟ قال : إلى عبادة اللَّات والعُزَّى ، قال : ومَن اللات والعُزَّى ، قال : بنات الله ، قال أبوبكر : ومَنْ أُمُّهم؟ فسكت طلحة وعلم أنَّهُ باطل ، ثُمَّ أتى النبيَّ ﷺ فأسلم[١] .

قال ابن حبيب : «وكانت الَّلات لثقيف بالطائف على صخرة ، وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهئون به الكعبة ، وله حَجَبَةٌ وكسوة ، وكانوا يحرِّمون واديه»[٢] ، وهو وادي وَجّ[٣] .

وممَّا يدلُّ على أنَّ اللَّات كان له بيتٌ تحجُّ إليه العرب أنَّ أبرهة لمَّا خرج من اليمن بأسوءِ وأخسر جيش على مرِّ التاريخ قادته النَّصرانيَّة لغزو مكَّة المكرَّمة وهدم بيت الله الحرام ، فَما إن وصل إلى الطَّائف حتى خرج إليه مسعود بن معتب -والد عروة بن مسعود رضي الله عنه- في رجال ثقيف ، فقال له : أيُّها الملك إنَّما نحن عبيدك سامعون لك مُطيعون ، ليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الَّذي تريد ، يعنون اللَّات ، إنَّما تريد البيت الَّذي بمكَّة ، يريدون الكعبة ، ونحن نبعث معك مّنْ يدلُّك ، فتجاوزهم ، وبعثوا معه أبا رغال ، فخرج به حتَّى أنزله المُغَمَّس[٤] ، فلمَّا أنزله به مات أبورغال هنالك ، فرَجَمَتِ العرب

(١) عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) : عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية -بيروت ، ١٤١٨هـ ، ٢/ ٢١٦ ، المطهر بن طاهر المقدسي (ت: نحو ٣٥٥هـ) : البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد ، ٢/ ٢١٦-٢١٧ .

(٢) انظر : ابن حبيب : المحبر ، ص : ٣١٥ .

(٣) وَجّ -بالفتح ثمَّ التَّشديد- : وادي الطَّائف ، يمرُّ في طرف الطَّائف من الجنوب الغربي ، ثُمَّ الجنوب ، ثُمَّ الشرق . انظر : محمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٢٩٥ .

(٤) المُغَمَّسُ- على صيغة المفعول- مكانٌ ما زال معروفًا شرقي الحرم ، يشرف عليه =

قبرَه[١] .

فأهلك الله أبرهة ، وسحق جيشه بعقوبة اهتزَّ لها العالم بأسره ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾[٢] .

وقد كانت العرب تحجُّ إلى اللَّات ، وكانوا يسمُّون السَّفر لمثل ذلك حجًّا ، ويقولون : إنَّ بيت اللَّات يُحجُّ كما تُحَجُّ الكعبة ، وكانوا يحجُّون إلى العزَّى كذلك ، وكانت عند عرفة[٣] ، ويحجُّون إلى مناة الثالثة الأخرى ، وهي حذو قُدَيد ، فكان لكلِّ مدينةٍ مِنْ مدائن الحجاز وثنٌ يحجُّون إليه ، فاللَّات بالطائف ، والعُزَّى عند مكَّة ، ومناة لأهل المدينة كانوا يُهِلُّون لها[٤] .

فكان المشركون مِنَ العرب يحجُّون إلى اللَّات ، ولهذا لمَّا قال

=

من الشَّرق جبل كَبْكَب ، والطَّريق مِنْ مكة إلى الطَّائف المارة بنخلة اليمانيَّة تمر بطرف المُغمَّس مِنَ الشَّمال ، وعرفة في نهاية المُغمَّس من الجنوب . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرة النَّبويَّة ، ص : ٣٠٠ .

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ١٣٢ .

(٢) سورة الفيل ، الآيات : (١-٥) .

(٣) ولعلَّه في الجهة الشمالية الشرقية لعرفة ، كما أنَّ سوق ذي المجاز في نفس المنحى إلَّا أنَّهُ أقرب إلى عرفة .

(٤) أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) : الإخنائية (أو الرد على الإخنائي) ، ت : أحمد العنزي ، دار الخراز ، جدة ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، ص : ٢٠٠ .

الحبر الَّذي بشَّر بالنبيِّ ﷺ أميَّة بن أبي الصلت إنَّهُ قد أظلَّ زمان نبيٍّ يُبعث وهو من بيت يحُجُّه العرب ، فقال أميَّة : نحن معشر ثقيف فينا بيتٌ يحجُّه العرب ، فقال الحبر : إنَّه ليس منكم ، إنَّهُ من إخوانكم مِنْ قريش ، فأخبر أميَّة أنَّ العرب كانت تحجُّ إلى اللَّات[١] .

ومع ذلك فإنَّهم كانوا يحجُّون إلى بيت الله الحرام ويطوفون به ويعرفون فضله ، ويقفون بعرفات والمشاعر إلَّا أنَّهم أشركوا الأصنام في دينهم ، وممَّا يدلُّ على أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام قبل دخول الشرك وجود من كان يتمسَّك بالحنيفيَّة في الجاهلية مثل زيد بن عمرو بن نفيل الَّذي كان موحداً لله ، لا يدين دين الشرك ، فقد أورد ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن أبي إهاب قال : رأيت زيد بن عمرو ، وأنا عند صنم بُوَانَة بعدما رجع مِنَ الشَّام ، وهو يُراقب الشَّمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلَّى ركعةً وسجدتَين ، ثُمَّ يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ، ولا أصلِّي له ، ولا آكل ما ذُبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وأنا أصلِّي إلى هذا البيت حتَّى أموت ، وكان يحجُّ فيقف بعرفة ، وكان يُلَبِّي يقول : لبيك لا شريك لك ، ولا نِدَّ لك ، ثُمَّ يدفع مِنْ عرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً[٢] . وكان من شِعره الَّذي يدلُّ على إيمانه وتوحيده لله وتعبُّده له سبحانه وتركه اللَّات والعُزَّى وغيرها قوله وهو ينشد :

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ٣٥٣ .

(٢) مرقوقا ، من الرق ، فلا يكون مرقوقًا إلَّا ويكون مملوكًا . انظر : علي الجرجاني : التعريفات ، ص : ٢٩٥ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ٩/ ١٦٥ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ١/ ١٥٨-١٥٩ .

أربًّـا واحـداً أَمْ أَلْـفَ رَبٍّ | أَدِيْـنُ إذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُـورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ والعُزَّى جَمِيْعًا | كَـذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلِدُ الصَّبُور
فَـلا عُـزَى أَدِيْـنُ ولا ابْنَتَيْهَا | ولا صَنَمَي بَنِي عَـمْروٍ أدِيْرُ[١]

وقال أيضًا :

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ | لَهُ الأرضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لمن أَسْلَمَتْ | لَـهُ المُزْنُ تحـملُ عـذبًا زُلالا
إِذَا هِـيَ سِـيْقَتْ إِلَـى بَلْـدَةٍ | أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لمنْ أَسْلَمَتْ | لَهُ الرِّيحُ تَصرف حالًا فَحَالا[٢]

وهـذا يـدلُّ علـى أنَّ العـرب كـانوا قبـل عمـرو بـن لحـي علـى ديـن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، فلذا تجد مُشركي العرب في الجاهليَّة بقـي فـيهم شـيءٌ مِـنْ ذلـك ، فقـد «كـانوا تـارةً يعبـدون الله عـز وجـلَّ وتارةً يعبدون غيره ، وكانوا يقولـون في تلبيتهم : لبَّيك لا شريك لـك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[٣] .

فكان هذا الشرك فعلًا وقولًا مِنْ أمر إبليس ، ومِنْ إيحاء الشَّيطان

---

(١) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص : ١١٧ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ٩/ ١٦٧ .

(٢) محمد بن إسحاق : السيرة ، ص : ١١٧ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ٢٤٤ .

(٣) ابـن تيميـة : مجمـوع الفتـاوى ، ٢٧/ ٣٥٤ . وانظـر: ابـن كثيـر : السـيرة النبويـة ، ١/ ٦٣ .

لعمرو بن لحي حين غلب على البيت واتَّخذته العرب ربـًا لا يَبتدع لهـم بدعةً إلَّا اتَّخذوها شِرعةً ؛ لأنَّهُ كان يُطعم النَّاس في المواسم ، فربَّما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حُلَّة[١] ، فكان مَلِكًا مِنْ ملوك العرب ، وكان أيضـًا كاهنـًا له رئي مِنَ الجنِّ يُملي عليه ويدلُّه على الشرك وعبادة الأصنام كما فعل بقوم نوح ، وكان عَمرو يُطيع شيطانه في كلِّ ما يأمره به ، فاستطاع أن يدلِّس على العرب ويلبِّس عليهم فأدخل الشرك في عبادتهم وأقنعهم على لسان عمرو بن لحي أن يتَّخذوا هذه الأصنام شُفعاء يتقرَّبون بهم إلى الله وأنَّهم يجلبون الخير ويمنعون الشَّر وأن يلتمسوا عند هذه الأصنام البركة في أموالهم وأنفسهم وطعامهم ، فقد جعل عند اللَّات رجلًا يَلُتُّ السَّوِيق[٢] للحاجِّ على صخرة معروفةٍ تُسَمَّى اللَّات ، ثُمَّ أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتـًا سمَّوه اللَّات[٣] ولكون عامَّة طعام العرب في ذلك الوقت التَّمر والطَّحين ، فكانوا يخلطون طحين الدُّخن المحموس بالتَّمر ويُلَتُّ بالسَّمن حتَّى يختلط بعضه في بعض فيكون منه طعامٌ جيِّد .

وجاء في بعض الآثار أنَّهم إذا أكلوا من سَوِيقِه سَمِنُوا فصار ذلك فتنةً

---

(١) ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص : ٢١٢-٢١٣ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ١/ ١٧ .

(٢) السَّوِيق : دقيق القمح المقلو أو الشَّعير أو الذُّرة أو غيرها ، وأمَّا لَتُّهُ لها فمعناه : يَخْلِطُه . انظر: ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢٣٠ ، محمد عبدالرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١هـ) : التوقيف على مهمات التعاريف ، عالم الكتب ، عبدالخالق ثروت ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م ، ص : ١٩٩ .

(٣) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ٢١١ ، ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص٢١٢ .

لهم[١] ، وفي التفسير أنَّ اللات كان رجلًا يلتُّ السَّويق على حجر ، فكان كُلُّ من يأكل منه سَمِنَ فعبدوه[٢] ، واللَّات فيما يزعم قومٌ من أهل اللّغة : صخرةٌ كان عندها رجلٌ يَلُتُّ السَّويق للحاج فلمَّا مات عبدوه ، قال ابن سيده : ولا أدري ما صحَّة ذلك[٣] .

وقد أورد ابن هشام أنَّ عمرو بن قمعة - وعمرو بن قمعة هو عمرو بن لحي - أوَّل مَنْ عَبَد اللَّات ، وهي صخرةٌ عظيمةٌ يَلُتُّ عليها الطَّعام ويُطعمه قَومه ، فسُمِّيت الصخرة اللات[٤] .

وورد في مناقب قريش أنَّ عمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام[٥] .

وقِيل إنَّه كانت اللَّات والعُزَّى ومَنَاة في كلِّ واحدةٍ منهن شيطانة تكلِّمهم ، وتراءى للسَّدنة ، وهم الحَجَبَةُ ؛ وذلك من صنيع إبليس وأمره[٦] . قالَّ تعالى : ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٦١٢.

(٢) انظر : علي بن محمد بن حبيب ، الشهير بالماوردي (ت : ٤٥٠هـ) : تفسير الماوردي = النكت والعيون ، ت : السيد ابن عبدالمقصود ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، ٥/ ٣٩٧ ، السيوطي : الدر المنثور ، ٧/ ٦٥٣ .

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ، ١/ ٨٠ ، ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٩/ ٤٦٥ .

(٤) انظر : ابن هشام : التيجان في ملوك حمير ، ص : ٢١٤ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٦ .

(٥) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٦١٢ .

(٦) انظر: الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٦ ، محمد بن أحمد بن علي ، أبوالطيب المكي الحسني الفاسي (ت: ٨٣٢هـ) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، دار الكتب =

إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[(١)] .

وكذلك فإنَّ أمر البحيرة والسَّائبة والحامي ونَصْبَ تلك الأصنام هي كلُّها مِنْ أمر الشَّيطان لعمرو بن لحي الَّذي فرض الشرك على العرب ونصب لهم الأوثان ووضعها في مواضعها الَّتي كانت فيها ، وأمرهم بعبادتها وأنَّها تقرِّبهم إلى الله ، وأن يستعينوا بها في قضاء حوائجهم ويستغيثوا بها في نوازلهم ويستشفعوا بها عند خالقهم ، ويتبرَّكوا بها في أنفسهم وأرزاقهم ولسان حالهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[(٢)] ، تعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيراً ، فالشيطان هو المسؤول الأوَّل عن إغواء البشر والتلبيس عليهم وحثِّهم على الشرك وتزيينه لهم[(٣)] .

وقد جاء على لسان إبليس حين توعَّد بني آدم أن يغويهم ويضلَّهم عن الحق ويغيِّر خلق الله في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

=

العلمية ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م ، ٢/ ٣٤١ .

(١) سورة النساء ، الآيات ، (١١٧-١٢٠) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

(٣) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ٨/ ٢٨٤-٢٨٥ .

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(١)] ، وقال أيضـاً : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(٢)] . وهذه الآيات وغيرها تدلُّ على أنَّ الشرك من صُنع الشَّيطان وأمره ، وقد استعان بعمرو بن لحي ووَكَل بهذه الأصنام شياطين تكلِّم النَّاس مِنْ داخلها وتُوهِمُهُم أنَّ لها قدرة في جلب الخير ودفع الشَّرِّ وحلول البركة ، فدعاهم الشَّيطان لذلك فصدَّقُوه واستجابوا له وأطاعوه واتَّبعوا أمره ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(٣)] .

فاللَّات والعُزَّى ومناة هي مِنْ فعل الشَّيطان وأمره ، وقد اشتقُّوا أسمائها من أسماء الله عز وجل -كما سبق ذكره- ، فقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾[(٤)] ، قال : اشتقوا العُزَّى مِنَ العزيز ، واشتقوا اللَّات مِنَ الله[(٥)] . وأوهموهم أنَّ لكلِّ صنمٍ شأن ، فمَنْ أراد العِزَّ والافتخار ذهب للعُزَّى ، ومَنْ أراد المطر وتحقيق الأماني ذهب لمناة ، ومن أراد بركة الطَّعام ذهب للَّات ، وقد

---

(١) سورة ص الآيات : (٨٢-٨٣) .
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : (٢٢) .
(٣) سورة المائدة ، الآية : (٩٠) .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .
(٥) السيوطي : الدر المنثور ، ٣/ ٦١٦ .

جعل عمرو بن لحي عند اللَّات رجلًا يَلُتُّ لمن يحجُّ لهذا الصَّنم السَّوِيق ويُطعمُهم إيَّاه فمَنْ أكل منه سَمِنَ ، فلما مات قال لهم عمرو بن لحي : لم يمت ولكن دخل في الصَّخرة ثُمَّ أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانًا يُسمَّى اللَّات[١] .

وقِيل إنَّ اللَّات كانت صخرةً بيضاء مُربَّعةً ، بَنَتْ عليها ثقيف بيتًا وجعلت له أستار ، وعظَّمتُه وطافت به[٢] .

وكانوا ينحرون هداياهم عنده في الغَبْغَب[٣] وهو المنحر ، وقيل : هو الموضع الذي كان فيه اللات بالطائف إذ كانوا ينحرون للَّات فيه[٤] .

وجاء في تفسير ابن كثير : «وكانت اللَّات صخرةً بيضاء منقوشةً ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنةٌ ، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطَّائف ، وهم ثقيف ومَنْ تابعها ، يفتخرون بها على مّنْ عداهم مِنْ أحياء العرب بعد قريش»[٥] .

وجاء في معجم قبائل العرب : «كانت ثقيف تعبد بيتًا بالطائف يُقال له : اللَّات ، فكانوا يسترونها بالثِّياب ، ويهدون لها الهَدىَ ، ويطوفون

---

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ٢١١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٤ .

(٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧/ ٤٥٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٣-٤ .

(٣) هو الموضع الَّذي كان فيه اللَّات بالطَّائف ، أو كانوا ينحرون للَّات فِيهِ بها ، وقيل : كُلُّ مَنْحَر بمِنًى غَبْغَبٌ . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٤ ، الزبيدي : تاج العروس ٣/ ٤٥٤ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٤ ، الزبيدي : تاج العروس ٣/ ٤٥٤ .

(٥) انظر : ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ٧/ ٤٥٥ .

حولها ، ويسمونها الرَّبَّة ، ويضاهون بها بيت الله الحرام بمكة ، وكان سدنتها آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك الثَّقَفي»[١] .

وكانت قريش وجميع العرب تعظِّمها وتتسمَّى بها ، فقد سمُّوا زيد اللَّات ، وعمرو اللَّات ، ومِنْ شُهرة هذا الوثن عند العرب أنَّ الأنصار كانت أيضًا تتسمَّى باللَّات ، ومِنْ ذلك أنَّهم ينتسبون إلى مالك بن النَّجار بن ثعلبة بن عمر بن الخزرج ، وكان اسم النَّجار تيم الله ، قال الزبير : كانوا تَيْمَ اللاتِ فسمَّاهم النبيُّ ﷺ تَيْمَ اللّهِ ابن ثَعْلَبَةَ[٢] .

فاللَّات -إذاً- أحد أشهر الأوثان عند العرب وأكبرها ، يقول عمرو بن الجعد وهو يصف شدَّة تعلُّقهم بهذا الصَّنم :

فإنِّي وتركي وَصْلَ كَأْسٍ لَكَالَّذِي تبرأ من لاتٍ وكان يدينها[٣]

فهو يقول إنه لا يستطيع أن يترك شرب الخمر إلا كمن يتبرَّأ مِنْ عبادة اللَّات وهو كان يدين لها ، وهذا مِنْ شدَّة وَلَائهم لهذا الطَّاغوت فهو لا يتخيَّل أنَّ أحداً يتبرَّأ مِنْ عبادة اللَّات مِنْ شدَّة حبِّهم لها ، واعتقادهم نفعها وضرَّها ، فكانوا يخشون أن تُصيبَهم بالأذى .

وفي قصة الزِّنِّيرَة[٤] دلالة على ذلك ، وقد كانت الزِّنِّيرَة رضي الله عنها

(١) انظر : كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١/ ١٥١ .
(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ٢٦٤ .
(٣) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٦ .
(٤) زِنِّيرَة -بكسر أولها وتشديد النُّون المكسورة بعدها تحتانية مثنَّاة ساكنة- الرُّوميَّة . كانت من السَّابقات إلى الإسلام ، وممَّن يُعذَّب في الله ، وكان أبوجهل يعذبها ، وهي مذكورةٌ في السَّبعة الَّذين اشتراهم أبوبكر الصديق وأنقذهم مِنَ التَّعذيب . عن أنس قال : قالت لي أم هانئ بنت أبي طالب أعتق أبو بكر زنّيرة فأصيب بصرها حين =

قد أسلمت ، وكانت ممن يعذَّب في اللهِ على الإسلامِ فتأبى إلَّا الْإِسْلَام حتَّى ذهب بصرها ، وقال المشركون : ما أصاب بصرها إلَّا اللَّات والعزَّى ، فقالت : كلَّا واللهِ ما هو كذلك ، فردَّ اللهُ عليها بصرها[1] .

وفي قصة إسلام ضمام بن ثعلبة ، فقد قدم وفد سعد بن بكر ، وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة ، فسأل رسول الله ﷺ عن شرائع الإسلام ، وأسلم ، فلما رجع إلى قومه ، قال رسول الله ﷺ : «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّة»[2] ، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه ، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال : بئست اللَّات والعُزَّى! فقالوا : اتَّق البرص اتَّق الجُذام اتق الجُنون ، مِنْ فساد عقيدتهم وشِدَّة خوفهم مِنْ هَذَين الصَّنَمَيْن ، فقال : ويحكم! إنَّهما لا يضرَّان ولا ينفعان ، وإنَّ الله قد بعث رسولًا ، وأنزل عليه كتابًا ، وقد استنقذكم به ممَّا كنتم فيه ، وأظهر إسلامه ، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجلٌ مشركٌ ولا امرأةٌ مشركةٌ ، فما سُمِع بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضمام بن ثعلبة[3] .

=

أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللَّات والعُزَّى ، فقالت : كذبوا والله ما يُغني اللَّات والعُزَّى ، ولا ينفعان ، فردَّ الله إليها بصرها . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٧/ ١٢٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ١٥٠ .

(١) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص : ١٩١ ، البيهقي : شعب الإيمان ، برقم (١٦٣٠) ، ٢/ ٢٣٩ .

(٢) وفي صحيح البخاري : «أفلح إن صدق» ، كتاب الإيمان ، باب الزكاة من الإسلام ، ١/ ٢٥ ، برقم (٤٦) .

(٣) أحمد بن حنبل : المسند ، برقم (٢٣٨٠) ، ٤/ ٢٠٩-٢١١ . وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٧٤-٥٧٥ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٤٦٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢/ ١٥٥-١٥٦ .

فهذا الخوف الرَّاسخ في نفوس العرب من فعل الشَّياطِين الَّتي تتراءى لهم حتَّى أوهمتهُم أنَّها تضرُّهم مِنْ دون الله أو تنفعهم ، الأمر الَّذي دفعهم إلى عبادتها والخوف منها فاتَّخذوها آلهةً . فقال لهم ضمام : ويلكم إنَّهما والله لا يضرَّان ولا ينفعان .

وكانوا يُقسمون باللات ويحلفون بها فيقولون في يمينهم : واللَّات والعُزَّى أو أحلف باللَّات لأفعلنَّ كذا وكذا . يقول المتلمس في هجائه لعمرو بن المنذر وهو يحلف باللَّات :

أَطَرَدْتَنِي حَذَرَ الهجَاءِ وَلَا ... واللَّاتِ والأَنْصَاب لا تَئِلُ[1][2]

وقال أوس بن حجر وهو يقسم باللَّات والعُزَّى ويشركهما بالله عز وجل :

وبِاللَّاتِ والعُزَّى ومَنْ دَانَ دِيْنَهَا ... وبِالله إنَّ اللهَ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ
أُحَاذِرُ نَجِّ الخَيْلَ فَوْقَ سَرَاتِها ... وَرَبًّا غَيُوْرَاً وَجْهُهُ يَتَمَعَّرُ
وذُو بَقَر من صُنْع يَثْرِبَ مُقْفَلٌ ... وأسمَرُ دانَاه الهِلاَلِيُّ يَعْتِرُ[3]

وكتب أبو سفيان كتاباً بعثه إلى رسول الله ﷺ وهو يحلف باللَّات حين نكوصه خائباً مِنَ غزوة الخندق قال فيه : باسمك اللهمَّ ، فإنِّي أحلف باللَّات والعُزَّى ، لقد سرتُ إليك في جمعنا ، وإنَّا نريد ألَّا نعود إليك أبداً حتَّى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق

(١) تَئِلُّ : لَمَعَتْ فِي عَدْوٍ سَرِيعٍ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ٢٣ .
(٢) انظر : ابن دُريد : الاشتقاق ، ص٥٤٣ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٥/ ٢٤٦ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٩/ ٢١٩ .
(٣) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص : ١٧ .

وخنادق ، فليت شعري من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منَّا يوم كيوم أحد ، تُبقر[١] فيه النِّساء[٢] . فكتب إليه رسول الله ﷺ : مِنْ محمَّد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب ، أمَّا بعد ، فقديماً غرَّك بالله الغرور ، أمَّا ما ذكرت أنَّك سِرتَ إلينا في جمعكم ، وأنَّك لا تريد أنْ تعود حتَّى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتَّى لا تذكر اللَّات والعُزَّى ، وأمَّا قولك : «من علَّمَكَ الَّذي صنعنا مِنَ الخندق» ، فإنَّ الله تعالى ألهمني ذلك لمَّا أراد مِنْ غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتينَّ عليك يومٌ تدافعني بالرَّاح ، وليأتينَّ عليك يومٌ أكسر فيه اللَّات ، والعُزَّى ، وإسافٌ ، ونائلة ، وهبل ، حتَّى أُذَكِّرَك ذلك[٣] .

ولمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة وأسلم أهلها بعث السَّرايا في كلِّ وجه لهدم الأصنام فأتت الأخبار إليه أنَّ ثقيف وهوازن جمعت الجموع لغزو المسلمين ، وأنَّهم قد عزموا المسير إلى مكَّة ، فما إنْ علم رسول الله ﷺ حتَّى أمر بالنَّفير العام ، وخرج مُسرعًا يريد أن يلقى المشركين قبل أن يدخلوا مكَّة ، فسار عليه الصلاة والسَّلام حتَّى بلغ وادي حُنَين[٤] ، فوجد

---

(١) أيْ : يُشَقُّ بَطْنُهَا عن وَلَدِهَا أيَّ شَقٍّ . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٧٤ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٤٩٢ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٢٤٣ ، الصَّالحي: سبل الهدى والرَّشاد ، ٤/ ٣٩١ .

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٤٩٣ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٢٤٣ .

(٤) وادي حُنَين : يبعد عن مكَّة ستةً وعشرين كيلًا شرقًا ، وعن حدود الحرم مِنْ علَمَيْ طريق نجد أحد عشر كيلًا ، وهو واد يُعرف اليوم بالشرائع ، بل يُسمَّى رأسه الصَّدر وأسفله الشَّرائع . انظر : محمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة في السِّيرة النَّبويَّة ، ص : ١٠٤ .

فوجد المشركين قد عسكروا هناك ، وجلبوا معهم أموالهم ونسائهم حتَّى لا يفرَّ أحدٌ ، فوقعت معركة حُنَيْن الَّتي انتهت بهزيمة هوازن وهروبهم أمام رسول الله ﷺ في كلِّ وجهٍ تاركين أموالهم ونسائهم في أرض المعركة فراراً لا يلوون على أحد حتَّى دخلت ثقيف الطَّائف . يقول ضرار بن الخطاب في ذلك :

وَفَـرَّتْ ثَقِيـفٌ إِلَـى لَاتِهَـا ... بِمُنْقَلَـبِ الْخَائِـبِ الْخَاسِـرِ[1]

وقالت أيضـًا امرأةٌ مِنَ المسلمين :

قَدْ غَلَبَتْ خَيْلُ اللهِ خَيْلَ اللَّاتِ ... وَخَيْـلُهُ أَحَـقُّ بالثَّبَـاتِ[2]

فلمَّا هزم الله المشركين احتمت ثقيف بأسوار الطائف وأقفلوا أبواب المدينة وصنعوا الصَّنائع للقتال ، ثُمَّ سار رسول الله ﷺ بجيشه إلى الطَّائف ، يقول كعب ابن مالك في ذلك :

قَـضَيْنَا مِـنْ تُهَامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ ... وخيـبرَ ثُـمَّ أَجْمَمْنَـا الـسُّيُوفَا
نُخَيِّرُهـا ولـو نَطَقَـتْ لَقَالَـتْ ... قَـوَاطِعُهُنَّ دَوْسٌ أو ثَقِيْفَـا

إلى أن قال :

لِأَمْـرِ اللهِ وَالْإِسْـلَام حَـتَّى ... يقـومَ الـدِّينُ مُعْتَـدِلًا حنيفـا
وَتُنْـسَى الـلَّاتُ وَالْعُـزَّى وَوَدٌّ ... وَنَـسْلُبُهَا الْقَلَائِـدَ وَالـشُّنُوفَا[3]

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٤٧ ، وانظر: عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ١٤٧.

(٢) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩١٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٤٩ .

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٠٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، =

فلمَّا نزل رسول الله ﷺ بساحتهم وجد ثقيفًا قد تحصَّنت بأسوار الطَّائف ، فضرب رسول الله ﷺ عليهم الحصار ، واستمرَّ أكثر من سبعة عشر يومًا فقاومت ثقيف أشدَّ المقاومة وكانوا يرمون على المسلمين أسرابًا مِنَ السِّهام ، وقد عُرفت ثقيف بشدَّة بأسها في الرَّمي ، فقُتل عددٌ من المسلمين بالنَّبل ، وأُصيب كثيرٌ منهم ، فلما طال الحصار ولم يُؤذَن لرسول الله ﷺ في فتحها رحل راجعًا يريد الجِعْرَانة ثُمَّ إلى المدينة ، فقيل لرسول الله ﷺ ، يا رسول الله إنَّ ثقيفًا أحرقتنا بالنِّبال فادعُ عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اهدِ ثقيفًا وأتِ بهم»[١] .

وقد وقع خلاف عند الإخباريين في الموضع الَّذي فيه اللَّات ، فقائلٌ إنَّ اللَّات بالطَّائف[٢] ، وقائلٍ إنَّها بموضع نخلة عند سوق عكاظ[٣] ، وقائلٍ إنَّه كان بالكعبة[٤] ، وذاكرٍ إنَّ اللَّات بيت كان بنخلة تعبده

=

٥/ ٤٠٧-٤٠٨ .

والشنوف : القرط في أعلى الأذن . انظر : تاج العروس ٢٣/ ٥٢٩ .

(١) الترمذي ، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ ، بابٌ في ثقيف وبني حنيفة ، برقم (٣٩٤٢) ، ٥/ ٧٢٩ دون قوله (وأت بهم) ، و ابن سعد : الطبقات الكبرى بتمامه ، ٢/ ١٢١ . وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٧/ ٧٨ . وقال التِّرمذي عقبه إيراده: هذا حديث حسنٌ غريبٌ .

(٢) انظر : أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) : البحر المحيط في التفسير : ت : صدقي محمد جميل ، دار الفكر - بيروت ، ط : ١٤٢٠هـ ، ١٠/ ١٤-١٥ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٦١٢ ، ورجحَّ الحافظ ابن حجر هذا القول على الأقوال الأخرى .

(٣) هذا القول نسبه أبوحيَّان الأندلسي لابْن زَيْدٍ . انظر : أبوحيَّان : البحر المحيط ، ١٠/ ١٤.

(٤) هذا القول نسبه أبوحيَّان الأندلسي لأبي عُبَيْدة وغيره . انظر : أبوحيَّان : البحر =

قريش[١] ، ولا يمنع وجود أكثر من موضع لهذا الصنم كما بيَّنتُ سابقاً من أنَّ الأصنام كانت تنحت على أشكالها وتباع في الأسواق والطرقات وتُقْتَنَى في البيوت ، وعند سادات القوم وغيرهم ، وهذا أمرٌ مؤكَّد وقد كان موجوداً ؛ لذا فتعدد أماكن آلهة المشركين للاسم الواحد أمرٌ غير مستغرب ، فقد بلغ السَّفَهُ بالمشركين أن يصنعوا آلهتهم بأيديهم من التمر أو غيره ، ويسافرون بها ، فإن هلكوا هلكت معهم وإن جاعوا أكلوها .

أمَّا الصَّنم الَّذي بعث رسول الله ﷺ سريَّة لهدمه والذي نحن بصدد ذكر تفاصيله ، وهو اللات طاغية ثقيف الذي يُسمَّى الربَّة فأكثر الروايات على أنَّهُ في الطائف ، وهو القول الرَّاجح ، لذلك أقول إنَّ صنم اللَّات كان داخل حائط الطائف وليس خارجها إذ لو كان خارج السُّور لهدمه رسول الله ﷺ أثناء حصار الطائف ، ولو كان بنخلة لهدمه رسول الله ﷺ في طريق عودته إلى مكة .

فلمَّا انصرف رسول الله ﷺ عن أهل الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود[٢] وأدركه قبل أن يدخل المدينة ، وكان عروة مسافراً لم يشهد

=

المحيط ، ١٠/ ١٤ . وانظر : الألوسي : روح المعاني ، ١٤/ ٥٥ .

(١) انظر : أبوحيان : البحر المحيط ، ١٠/ ١٤-١٥ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٦١٢ .

(٢) عُروة بن مسعود بن مُعَتِّب -بالمهملة والمثناة المشدّدة- ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثَّقفي . عمّ والد المغيرة بن شعبة . كان أحد الأكابر من قومه ، أرسلته قريش إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية ، فعاد إلى قريش ، وقال لهم : قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، وجاء في قصَّة إسلامه وفضائله أنَّهُ اتبع أثر النبيِّ ﷺ لما انصرف من الطائف ، فأسلم ، وأستأذنه أن يرجع إلى قومه ، فقال

=

حنين ولا حصار الطائف ، فقد بعثه قومه إلى جُرَش[(١)] في مهمة لهم ، فاستقبله رسول الله ﷺ بالإكرام والترحيب ، وكان رجلًا حكيمًا فأسلم وسأل رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، قال : يا رسول الله إيذن لي فآتي قومي فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدِّين ذهب عنه ذاهب ، فأقدم على قومي بخير قادم ، فقال له رسول الله ﷺ : إنهم إذن قاتلوك ، فقال عروة : يا رسول الله لأنا أحبُّ إليهم من أبكار أولادهم ، ثم استأذنه الثانية ، فقال رسول الله ﷺ إنهم إذن قاتلوك ، قال : يا رسول الله! لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني ، واستأذنه الثالثة ، فقال : إن شئت فاخرج ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأنكروا عليه واتَّهموه وقالوا : قد واللَّاتِ وقع في أنفسنا حيث لم تقرب الرَّبَّةَ ، ولم تحلق رأسك عندها أنَّك قد صبوت! فآذَوْهُ ، ونالُوا منه ، وحلم عليهم ،

=

ﷺ : «إنّي أخاف أن يقتلوك» ، فقال له : لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني ، فأذِن له ، فدعاهم إلى الإسلام ، ونصح لهم فعصَوه ، وأسمعوه مِنَ الأذى ، فلمَّا كان من السَّحر قام على غرفةٍ له فأذَّن ، فرماه رجلٌ مِنْ ثقيفٍ بسهم فقتله . فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال : «مثل عروة ، مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه» . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٣٠ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٤٠٦-٤٠٧ .

(١) جُرَش -بضمِّ الجيم وفتح الرَّاء وآخره شِين مُعجمة- : مدينة عظيمة كانت قائمة إلى القرن الرابع ، وفي عهد النَّبيِّ ﷺ كانت تُعتبر مِنَ المدن المتطوِّرة عسكريًا إذ جاء أنَّ بعض الصحابة كانوا بجُرَش أثناء حصار الطائف يتدربون على الدَّبَابات والمجانيق ، ثُمَّ اندثرت جُرَش ، وتوجد آثارها اليوم قرب خميس مشيط ، ببلاد شهران من خثعم . انظر : البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السِّيرة النَّبويَّة ، ص : ٨١-٨٢ .

فخرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجرُ أَوْفَى على غُرْفَةٍ له فَأَذَّنَ بالصَّلاة ، فرماهُ رجلٌ من رهطه فأصاب أكحله فمات ، ثم أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ وفداً برئاسة عبد ياليل بن عمرو ومعه عدد من رجالات ثقيف وسادتها فانطلقوا قاصدين المدينة ، فلمَّا أقبلوا على المدينة أبصرهم المغيرة بن شعبة وهو يرعى في نوبته فخرج يشتدُّ إلى رسول الله ﷺ ليُبَشِّره ، فاستقبله أبوبكر رضي الله عنه ، وقال للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه ، ففعل المغيرة ، فدخل أبوبكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه ، ثُمَّ خرج المغيرة إلى أصحابه ، فرَوَّح الظهر معهم ، وعلَّمهم كيف يحيُّون رسول الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلَّا بتحيَّة الجاهليَّة ، ولمَّا قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده ، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى كتبوا كتابهم ، فلمَّا دخلوا عليه قالوا : يا محمد نحن أخوالك وأصهارك وجيرانك وخير أهل نجدٍ سلماً وأضرهم عليك حرباً ، إن سالمنا سالم من بعدنا ، وإن حاربنا حارب من بعدنا فقال ﷺ : «ماذا تريدون» ، فقالوا : نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَنَا ثَلَاثَ خِصَالٍ ، قال : «وَمَا هُنَّ؟» قَالُوا : أن لا ننحني في الصَّلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنةً من غير أن نعبدها ، فقال النبيُّ ﷺ : «لا خير في دينٍ لا ركوع فيه ولا سجود ، وأما

أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم ، وَأَمَّا الطَّاغِيَةُ فإنِّي غير ممتِّعِكُم بِها»[١] . فقالوا : يا رسول اللهِ! إنَّا نحبُّ أن تسمع العرب أنَّك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا .

وفي رواية : أنَّهم سألوه عن الرِّبا والزِّنا والخمر فحرَّم ذلك كُلَّه ، فسألوه عن الرَّبَّة ما هو صانع بها؟ قال : «اهدموها» ، قالوا : هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّك تريدُ أن تهدمها قتلت أهلنا ، فقال عمر بن الخطاب : ويحك يا ابن عبد ياليل ما أجهلك! إنَّما الربَّة حجر ، فقالوا : إنَّا لم نأتك يا ابن الخطاب ، ثُمَّ قالوا : يا رسول الله تولَّ أنت هدمها ، أمَّا نحن فإنَّا لن نهدمها أبداً ، فقال : «سَأَبْعَثُ إليكُم مَنْ يَكْفِيَكُم هَدْمَهَا»[٢] ، فكاتبوه على ذلك ، فلمَّا أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص[٣] ، وكان أحدثَهُم سنًّا ، وأكثرَهُم حِرْصًا على التفقُّه في

---

(١) عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) : دَرْجُ الدُّرر في تَفِسيرِ الآيِ والسُّوَر ، ت : وليد الحُسَيْن ، إياد القيسي ، مجلة الحكمة ، بريطانيا ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م ، ٣/ ١١١٧ . وانظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٦٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ٢٩ .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٧/ ٢١٥ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢٩٨ .

(٣) عُثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبدالله بن همام الثقفي ، أبوعبدالله ، نزيل البصرة . أسلم في وفد ثقيف ، فاستعمله النبيّ ﷺ على الطَّائف ، وأقرَّه أبوبكر ثُمَّ عمر ، ثُمَّ استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة ، ثم سكن البصرة حتى مات بها خلافة معاوية قيل سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين ، وكان هو الّذي منع ثقيفًا عن الرِّدَّة بخطبته الَّتي خطبها فيهم . غرفةٍ له فأذَّن ، فرماه رجلٌ مِنْ ثقيفٍ بسهم فقتله ، فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال : «مثل عروة ، مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه» . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ،
=

الإسلام وتعلُّم القرآن ، فلمَّا ولَّاه رسولُ الله ﷺ أوصاه فقال : «يا عُثْمَانُ! تَجَاوَزْ فِي الصَّلَاةِ ، وَاقْدُرْ النَّاسَ بِأَضْعَفِهِمْ ، فَإِنَّ فيهِم الكبِيرَ ، وَالصَّغِيرَ ، وَالضَّعِيفَ ، وَذَا الْحَاجَة»[1] . ما أعظم هذا الدِّين ، ففي هذه الوصيَّة لفتةٌ جميلةٌ تدلُّ على سماحة الإسلام الذي يقوم على الرِّفق والرَّحمة بالضَّعفة وكبار السنِّ وذوو الحاجة ، حيث قال رسول الله ﷺ لعثمان : «واقدر النَّاس بأضعفهم» ، ويدخل في الضَّعفة الصغير والمريض والعاجز وغيرهم ، وهؤلاء يجب الرِّفق بهم في الصَّلاة ومراعاة حالهم على غيرهم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنِّي لأدخُلُ في الصَّلاة أُريدُ إطالتها فأسمعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فأتجوَّزُ في صلاتي ممَّا أعلمُ من شدَّة وجدِ أُمِّهِ من بُكَائِه»[2] .

=

٣/ ٥٧٣ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٤/ ٣٧٣.

(١) وأصله في صحيح مسلم ١/ ٣٤١ ، برقم (٤٦٨) ، كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة ، سنن ابن ماجه ، أبواب إقامة الصلوات والسُّنَّة فيها ، بابُ من أمَّ قومًا فليُخفِّف ، برقم (٩٨٧) ، ٢/ ١٢٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من أخفَّ الصلاة عند بكاء صبي ، برقم (٦٧٧) ، ١/ ٢٥٠ .

سَرِيَّةُ أبي سفيان بن حرب[1] والمغيرة بن شعبة[2] رضي الله عنهما لِهَدْمِ اللَّات :

كان النبيُّ ﷺ شديدَ الحرص على القضاء على الوثنيَّة وهدم الأصنام متى تمكَّن من ذلك ، قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من أمرهم وأسلم وفدُ

---

(١) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبوسفيان القرشيّ الأمويّ رضي الله عنه ، مشهور باسمه وكنيته ، كان يكنى أيضا أبا حنظلة ، وأمه صفيّة بنت حزن الهلالية ، عمة ميمونة زوج النّبي ﷺ وكان أسنّ من النّبي ﷺ بعشر سنين ، وهو والد معاوية رضي الله عنه ، ووالد زوّج النبيُّ ﷺ أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها ، وكانت أسلمت قديماً . أسلم رضي الله عنه عام الفتح ، وشهد حنيناً والطّائف ، وذكر ابن إسحاق أنَّ النبيَّ ﷺ وجَّهه إلى مناة فهدمها . روى أنه كان يقف على الكراديس يوم اليرموك فيقول للناس : الله الله ، فإنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار المشركين ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك . مات سنة أربع وثلاثين .انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٦٧٧-١٦٧٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٣٣٢-٣٣٥ .

(٢) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس الثقفيّ ، أبو عيسى وقيل أبومحمد . كان ضخم القامة ، عَبْلَ الذِّراعين ، بعيد ما بين المنكبين ، أصهب الشعر جعدة ، وكان لا يفرقه . أسلم قبل عمرة الحديبيّة ، وشهدها وبيعة الرضوان ، وله فيها ذكر . كان موصوفًا بالدَّهاء ، فكان لا يقع في أمرٍ إلَّا وجد له مخرجًا ، ولا يلتبس عليه أمران إلَّا ظهر الرَّأي في أحدهما . كان مع أبي سفيان في هدم طاغية ثقيف بالطّائف . وبعثه أبوبكر الصّديق إلى أهل النّجير وأُصيبت عينه باليرموك ، ثُمَّ كان رسول سعد إلى رستم . لمَّا قُتل عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمَين ، ثُمَّ بايع معاوية بعد أن اجتمع النَّاس عليه ، ثُمَّ ولَّاه بعد ذلك الكوفة فاستمرّ على إمرتها حتى مات سنة خمسين عند الأكثر . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٥/ ٢٣٨ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ١٥٦.

ثقيف ، وتوجَّهوا إلى بلادهم ، بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في عدد من الصحابة ، والمرجَّح أنَّ خالد بن الوليد كان أحد القادة وذلك لذكره في بعض الرِّوايات .

ولا أعتقد أنَّ عدد هذا البعث كان قليلًا لعدة أسباب :

أوَّلها : أنَّ ثقيفًا كانت على الشرك ولم تُسلم بعد ، وأنَّهم كانوا جُفاة مناكير لم يَسْلَمْ منهم أحبُّ النَّاس إليهم سيِّدهم عُروة بن مسعود الثَّقفي ، فقد قتلوه كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين استأذنه لدعوة قومه إلى الإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ : «إذًا قَاتِلُوك» ، فقتلوه ، فلا يُؤْمَنُ جانبهم .

ثانيًا : أنَّ اللات هي طاغية ثقيف المقدَّسة عندهم ، والتي يسمُّونها الربَّة ، فقد طغت على قلوبهم وسلبتهم عقولهم حتى إنَّهم لا يرون لها مثيلًا ، وأنها تفخر بها على من عاداها من العرب ، وتستميت في الدِّفاع عنها ، لذلك جهَّز رسولُ الله ﷺ سريَّة ضمَّت قياداتٍ عسكريَّة كبرى ، منهم خالد بن الوليد ، وسيِّد قريش وكنانة أبوسفيان بن حرب ، وواحداً منهم هو المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنهم لهدم اللات ، فلمَّا نزلوا الطائف نزلوا بليل فلمَّا أصبحوا غدوا إلى هدم اللات فخرجت ثقيف عن بكرة أبيها رجالها ونسائها وصبيانها ، وهم على وجل ممَّا سيجري لهؤلاء الذين سيهدمون ربَّتهم .

فلمَّا قام المغيرة بن شعبة وأخذ المعول قال لأصحابه : لأُضحكنَّكم اليوم من ثقيفٍ ، ثُمَّ تقدَّم إلى اللات ، فلمَّا استوى على رأسِ الرَّبَّة ضربها بالمعول ، فسقط يركض برجليه ، فارتجت الطائف بالصياح مهابة بأنَّ

اللات قد صرعته ، وقالوا : أبعدَ الله المغيرة ، قد قتلته الرَّبَّة ، وأقبلوا يقولون : كيف رأيتها يا مغيرةُ دُونَكَهَا إنْ اسْتَطَعْت ، أَلَمْ تعلمْ أنَّها تُهْلِكُ مَنْ عاداها ، من شاء منكم فليقترب وليجتهدْ على هدمها ، فو الله لَا تُستطاع أبدًا ، فقام المغيرة بن شعبة يضحك منهم وقال : يا معشر ثقيف! كانت العرب تقول : ما من حيٍّ من أحياء العرب أعقل من ثقيف ، وما من حيٍّ من أحياء العرب أحمق منكم ، ويحكم ، وما اللات والعزّى ، وما الرَّبَّة؟ حجر مثل هذا الحجر ، لا يدرى من عبده ومن لم يعبده ، ويحكم أتسمع اللات أو تبصر أو تنفع أو تضر؟ ثُمَّ ضرب الباب فكسره وعلا سورها وأصحابه معه فهدموها وجعل السَّادن يقول : ليغضبنَّ الأساس غضبًا يخسف بهم ، وكانت سدنة اللات من ثقيف بنو العجلان بن عتاب بن مالك ، أو بني مُعَتِّب[1] قوم المغيرة بن شعبة ، فقال المغيرة لخالد : دعني أحفر أساسها ، فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حليتها وأخذوا ثيابها ، فقالت عجوز منهم : أسلمها الرُّضَّاع ، وتركوا المِصَاعَ[2] ، وهي تلوم قومها لعدم الدفاع عن اللات[3]. وفي ذلك يقول

---

(١) بطنٌ من ثقيف ، من هوازن ، من العدنانيَّة ، وهم : بنو مُعَتِّب –بضمِّ الميم وفتح العين وتشدِيد التَّاء– بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثَقِيف . منهم عروة بن مسعود بن مُعَتِّب . انظر : محمَّد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها : ص : ٤٤ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٤٢٤ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ١١٢١ .

(٢) المِصَاعُ : المُضَاربةُ بالسَّيف . والرُّضَّاعُ : جمع رَاضِع وهو اللَّئِيم ، سُمِّيَ به لأنه لِلُؤمِهِ يَرضَع إبله أو غنمه ليلًا لئلَّا يُسمع صوت حلبه. أنظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٣٠ .

(٣) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٧٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٤١ ، ابن كثير : =

شَدَّاد بن عارض الجشمي[١] حين هدمت اللات وينهى ثقيف عن الغضب لها :

لا تَنْصُروا الّلات إنَّ الله مُهلكها وكيفَ نَصْرُكُمُ مَنْ لَيْسَ يَنْتَصِرُ؟
إنَّ التي حُرِّقَتْ بالنَّار واشْتَعَلَتْ ولم يُقَاتَلْ لَدَى أَحْجَارِهَا هَدَرُ
إنَّ الرَّسول متى يَنْزِلْ بسَاحَتِكُم يَظْعَنْ وَلَيْسَ لَها مِنْ أَهْلِهَا بَشَرُ[٢]

وأعطى رسول الله ﷺ ممَّا وجد فيها أبا مليح[٣] ، وقاربًا[٤] ، وناسًا ،

=

السيرة النبوية ، ٤/ ٦١ ، إبراهيم قريبي : مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ٢/ ٥٠٠-٥٠١ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٩/ ٢٢٢ .

(١) شدَّاد بن عارض الجشمي : له صحبة ، وكان شاعراً مشهوراً . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ٦١٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٢٦٠ .

(٢) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ١٧ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٤٨١-٤٨٢.

(٣) أبومليح بن عروة بن مسعود بن معتب بن مالك . لما قتل عروة بن مسعود قال ابنه أبومليح بن عروة وابن أخيه قارب بن الأسود بن مسعود لأهل الطائف : لا نجامعكم على شيءٍ أبداً وقد قتلتم عروة ، ثم لحقا برسول الله ﷺ فأسلما . فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما ، قالا : نتولى الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : وخالكما أبا سفيان بن حرب فحالفاه ، ففعلا ونزلا على المغيرة بن شعبة فأقاما بالمدينة حتى قدم وفد ثقيف في شهر رمضان سنة تسع فقاضوا النبي ﷺ على ما قاضوه عليه وأسلموا ، ورجعا مع الوفد فقال أبومليح : يا رسول الله إن أبي قتل وعليه دين مائتا مثقال ذهب فإن رأيت أن تقضيه من حلي الربة ، يعني اللات ، فعلت ، فقال رسول الله ﷺ : نعم . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٦/ ٤٦ ، وانظر : عز الدين بن الأثير : أسد الغابة ، ٦/ ٢٩٣.

(٤) قارب بن الأسود بن مسعود بن مُعَتّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفي ، وهو ابن أخي عروة بن مسعود ، فإن قاربًا من وجوه ثقيف

=

وجعل في سبيل الله وفي السلاح منها[١] ، وبهدم طاغوت الربَّة انتهى أكبر معقل من معاقل الوثنيَّة ، وأكبر طاغوت من طواغيت المشركين ، وبزوالها زالت عقيدتها وانتهت عبادتها في جزيرة العرب ، وعلمت ثقيف أَنَّهُ لا إله إلا الله وأنَّ اللات وغيرها من الأوثان حجارة لا تضرُّ ولا تنفع وأنَّها كانت منها في غرور حيث عادت إلى رشدها .

ودخلت ثقيف في دين الله أفواجًا ، وأسلموا لله رب العالمين ، وانضمُّوا إلى ركب الصَّحابة ، وانضووا تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأصبحوا من جحافل جيوش الفتوحات الإسلامية التي أخضعت فارس والروم ، منهم البطل الهمام أبومحجن الثَّقفي فارس القادسيَّة ، وقبله صاحب رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة الثَّقفي رضي الله عنهم وأرضاهم .

=

معروف مشهور ، وكانت معه راية الأحلاف لما حاربوا النَّبِيّ ﷺ فِي حصار ثقيف وحنين ، والأحلاف أحد قبيلي ثقيف ، فإن ثقيفًا قسمان ، أحدهما : بنو مَالِك ، والثَّاني : الأحلاف ، لما كلم أبومليح بن عروة رسول الله ﷺ في قضاء دين أبيه قال قارب بن الأسود : يا رسول الله وعن الأسود بن مسعود أبي فإنه ترك دينا مثل دين عروة فاقضه عنه من مال الطاغية ، فقال رسول الله ﷺ : إن الأسود مات كافراً . فقال قارب : تصل به قرابة ، إنما الدين علي وأنا مطلوب به ، فقال رسول الله ﷺ : إذًا أفعل . انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٦/ ٤٦ ، عز الدين بن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٣٥٥ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تميز الصحابة ، ٥/ ٣٠٦ .

(١) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٧٢ .

المبحث الرابع :
سريَّة جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه
لهدم ذي الخَلَصَة

وأمَّا صنم ذو الخَلَصَة[١] فهو من الأصنام الَّتي أمر النبيُّ ﷺ بإزالتها ، وكان صنماً لدَوْس وخَثْعَم[٢] وبَجِيلَة[٣] وأزد السَّراة[٤] ومن قارَبَهُم من بطون هوازن[٥] .

وقد كان لهذا الصَّنم ذكرٌ واسع عند العرب ، حيث عبدته الكثير من

---

(١) ذو الخَلَصَة : بفتح أوله وثانيه ، ويُروى بضمِّ أوَّله وثانيه ، والأوَّل أصح . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٣٨٣ .

(٢) خَثْعَم : لا تزال معروفة في بلادها التي كانت تحلها عند ظهور الإسلام في أطراف السراة الشرقية الشمالية الواقعة بين غامد وبلاد قبائل الحجر ، ومن أشهر فروع خثعم شَمَّران وعِلْيَان والْفَزَعُ وأكلب . انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٧٠ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٧٥ ، الصحاري : الأنساب = تاريخ العوتبي ، ص :١٧١ ، حمد الجاسر : معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، ص : ١٩٧ .

(٣) بَجِيلَة : فرع من خثعم ، وهي بطن ينتسب إلى بجيلة ، وهم : بنو أنمار بن كهلان ، يتفرعون إلى عدة بطون : منهم قسر ، وهو مالك بن أنمار ، وبنو أحمس بن الغوث بن أنمار ، وعرينة ، ومواطنهم في سروات اليمن والحجاز إلى تبالة ، من جبالهم البثراء ، ومن أوديتهم عرادات .انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ١٢١ ، ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، **ص** : ٩٢ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٣٨٧ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٧١ .

(٤) الأَزْدْ : جرثومة العرب ، وتعدُّ مِنَ القبائل العربيَّة الشَّهيرة ، تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت ، وتنقسم إلى أربعة أقسام : أزد شنوءة ، أزد غسان ، أزد السَّراة ، أزد عُمان . انظر : ابن المبرد : نسب عدنان وقحطان ، ص : ٢١ ، أحمد بن محمد الأشعري (ت : ٦٠٠هـ) : التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب ، ص : ٣٤ ، ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص : ١٨٧ .

(٥) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٦ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ٢٢٢ .

القبائل الَّتي تسكن ما بين مكَّة إلى أطراف اليمن ، وكان له بيتٌ يضعون فيه الأصنام ، ويُذبح عنده ويُهدون إليه ، وله سدنةٌ وحُجَّاب يقومون على شؤونه ويهتمُّون به ، ويُضرب عنده بالأزلام ، وله شُهرة كبيرة ، وأتباع كُثر ، وقد جاء في وصفها أنَّها كانت مَرْوَة[1] بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج[2] ، وكانت ذو الخَلَصة بتَبَالَة[3] بين مكَّة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ مِنْ مكَّة[4] ، وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر[5] يُهدون لها ويذبحون عندها ويطوفون بها ويتبرَّكون فيها ، وكانوا يحجُّون ويلبُّون لها ، وكانت تَلْبِيَةُ مَنْ نَسَكَ لذي الخَلَصَة : لبَّيك اللهمَّ لبيك ، لبيك بما هو أحبُّ إليك[6] . وفيها يقول خِدَاش بن زُهير

(١) المَرْوُ : حجارةٌ بِيضٌ برَّاقةٌ ، تكون فيها النَّار وتقدح منها النار ؛ قال أبوذؤيب :
الواهِبُ الأُدْمَ كالمَرْوِ الصِّلاب ، إذا   مَا حارَدَ الخُورُ ، واجْتُثَّ المَجاليحُ
واحدتها مروة ، وبها سمِّيت المروة بمكَّة ، شرَّفها الله تعالى . ابن منظور : لسان العرب ١٥/ ٢٧٥ .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٤ .

(٣) تَبَالَة -بفتح أوَّله- : وادٍ ذو قرى ومياه ونخل ، يقع جنوب شرقي الطَّائف على مسافة مائتي كيل ، في تهامة عسير ، وفي الكتب القديمة : عرَّفوها بأنَّها موضع ببلاد اليمن ، والمسمَّى القديم لـ«اليمن» كان يشمل جنوب السعودية . انظر : محمَّد حسن شُرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ٦٩ .

(٤) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٤-٣٥ .

(٥) بنُو أُمامة : بطنٌ من باهلة بن أعصر ، كانوا سَدَنة ذي الخَلَصَة ، وباهلة هو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ، قبيلةٌ عظيمةٌ من العدنانيَّة . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤٦٨ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ١٦٩ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ١/ ٤٠ ، ٦٠ .

(٦) انظر : ابن حبيب : المحبر ، ص : ٣١٢ ، د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب
=

العـامري[١] لِعَثْعَثِ بنِ وَحْشِيٍّ الخَثعَمِيِّ في عهد كان بينهم فغدر بهم حيث قال[٢] :

وَذَكَّــرْتُه بــالله بَيْنِــي وَبَيْنَــهُ وَمَـا بَيْنَنَـا مِـنْ مُـدَّةٍ لـو تَـذَكَّرا

وبِـالمَرْوَةِ البَيْـضَاءِ يَـوْمَ تَبَالَـةٍ وَمحبسة النُّعمانِ حَيْثُ تَنَصَّرَا

وهذه الأبيات تُشير إلى أنَّ ذا الخَلَصَة كانت بموضع يُقال له تَبَالَة في ديار دَوْس .

وقد ورد في بعض الرِّوايات أنَّ ذا الخَلَصَة كان في أسفل مكَّة[٣] ، وذَكَر ابن حبيب أنَّ ذا الخَلَصَة كان في العَبْلَاء[٤] ، وقال أيضًا : وكان ذو الخَلَصَة له بيت تعبده بَجِيلَة ، وخَثْعَم ، والحارث بن كعب[٥] ،

=

قبل الإسلام ، ١١/ ٣٧٥ .

(١) خِدَاش بن زهير العامري ، من بني عامر بن صعصعة ، شاعر جاهلي ، من أشراف بني عامر وشجعانهم ، كان يُلقَّب بفارس الضحياء ، يغلب على شعره الفخر والحماسة ، يُقال إن قريشاً قتلت أباه في حرب الفجار ، فكان خداش يكثر من هجوها ، وقيل أدرك حنيناً ، وشهدها مع المشركين ، ثُمَّ أسلم خِدَاش بعد ذلك بزمان . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢/ ٣٠٠ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ٣٠٢ ، الموسوعة الشعرية : معجم شعراء العرب ، ص : ١٢٢٠ .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٥ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢/ ٣٨٣ .

(٤) العَبْلَاء ، وقيل العَبْلَات : بلدةٌ كانت لخَثْعَم ، كان بها ذو الخَلَصَة بيت صنم ، وهي من أرض تَبَالَة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٨٠ . وانظر : معمر بن المثنى التيمى أبوعبيدة (ت: ٢٠٩هـ) : الديباج ، ص : ٥ .

(٥) الحارث بن كعب بن عمرو بن مالك بن أدد ، بطن من مذحج من القحطانية ، سكنوا في نجران ، انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤١٦ ، =

وجِرْم[١] ، وزُبَيْد[٢] ، والغوث بن مُرّ بن أد[٣] ، وبنو هلال بن عامر[٤] ، وكانوا سَدَنَتَه ، وكان بين مكَّة واليمن ، بالعَبْلَاء على أربع مراحل من مكَّة ، وهو اليوم بيت قصَّار فيما أُخبرت[٥] .

وهذه الرِّواية تَدُلُّ على كثرة أتباع ذو الخَلَصَة ، فإنَّ هذا الصنم كان معبوداً ومعظَّماً عند عدد من القبائل المتفرِّقة ، فلا غرابة أن يكون له

=

كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ١/ ٢٣١ .

(١) جِرْم -بالكسر ثم السكون- : بطن من بَجِيلة ، من أنمار ابن أراش ، من القحطانية . انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ٢/ ١٢٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص:٢١٠ .

(٢) بطن من مذحج ، وهو منبّه الأكبر بن صعب بن سعد العشيرة ، من بني زيد بن كهلان ، بلادهم : فرغان ، تثليث ، سازة ، وحصونهم : مثوة ، العصم . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٤١١ ، القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ٩٠ ، كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٤٦٥ .

(٣) الغوث بن مُرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر . بطن من طابخة من العدنانية ، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويفيضون بالحجاج يعني من مزدلفة إلى منى فلا يجوز أحدٌ حتى يجوزوا ، قال في العبر : انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية ، وورث ذلك صفوان بن سجنة من بني صعد بن زيد مناة بن تميم . انظر : البلاذري : أنساب الأشراف ، ١/ ٥٠ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٣١٧ ، كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٦٥٥ ، ٣/ ٨٩٩.

(٤) هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية ، كانوا يقطنون الحجاز ، وفي بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٥ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٢٧٣ ، كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٧١٣ .

(٥) ابن حبيب : المحبر ، ص : ٣١٧ .

أكثر مِنْ معبد ، وأكثر مِنْ نُصب ؛ لأنَّ هذه الأصنام كانت تُنْحَتُ وتُبَاع وتُشْتَرى كما أسلَفت ، قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[(١)] . فأيُّ إلهٍ يُقدَّس ويُعبد وهو على هذه الحالة . عن ابن إسحاق قال : «نَصَب عمرو بن لحي الخَلَصَة بأسفل مكة ، فكانوا يُلبسونها القلائد ، ويُهدون إليها الشَّعير والحِنْطَة ، ويَصُبُّون عليها اللَّبن ، ويذبحون لها ، ويُعَلِّقون عليها بيض النَّعام»[(٢)] .

وقوله : بأسفل مكَّة : يقصد الجهة الجنوبيَّة منها ، لأنَّ رسول الله ﷺ دخل مكَّة يوم الفتح مِنْ أعلاها ، دخل مِنْ ريع ذاخر ، وهي الجهة الشَّمالية مِنْ مكَّة ، وتقابلها الجهة السَّهلة المنخفضة وهي الجهة الجنوبيَّة مِنْ الكعبة ؛ لأنَّ مكَّة تحيط بها الجبال مِنْ جميع الجهات إلَّا مِنَ الجهة الجنوبيَّة .

أمَّا قوله : كانوا يُلبسونها القلائد : فإنَّ أهل الجنوب أو اليمن قد اشتهر فيهم أنَّهم يلبسون قلائد الورد والزهور والرَّيحان والنَّباتات ذات الرَّوائح الطَّيبة ، ويتزيَّنون بها على رؤوسهم ، ويعلِّقونها في آذانهم وعصائبهم ويتقلَّدونها .

وكان من تلك النَّباتات الطَّيِّبة الرَّائحة والجميلة المنظر : الخَلَص ، قال ابن منظور : الخَلَص شجرٌ طيِّب الرِّيح ، له وَرْدٌ كَوَرْدِ المَرْوِ ، طيِّبٌ

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ٩٤-٩٦ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٢٤ ، وانظر : محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الضياء (ت : ٨٥٤هـ) : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ت : علاء إبراهيم ، أيمن نصر ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ، ص : ٧٣ .

زكيٌّ . قال أبو حنيفة : أخبرني أعرابيٌّ أنَّ الخَلَص شجر ينبت نبات الكرم يتعلَّق بالشَّجر فيعلق ، وله ورق غير رقاق مدورة واسعة ، وله وردةٌ كوردةِ المرو ، وأصوله مشربة ، وهو طيِّب الرِّيح ، وله حَبٌّ كحَبِّ عنب الثعلب ، يجتمع الثَّلاث والأربع معًا ، وهو أحمر كخرز العقيق ، لا يُؤكل ولكنَّه يُرعى[1] .

ولا أشكُّ أن يكون أصل اسم هذا الصَّنم عندهم عائد إلى تعليق شجر الخَلَص على الصَّنم تجميلًا له بالقلائد لعادة القوم هناك حتَّى عُرِفَ بذي الخَلَصَة . يقول كعب بن مالك :

وتَنْسَى اللَّات والعُزَّى وَود ... وَنَسْلِبُهَا القَلائِدَ والشُّنُوفَا[2]

فدَوسٌ -إذًا- كانت تعظِّمه بتعليق القلائد عليه والافتخار به هي ومَنْ جاورها من قبائل العرب ، وأنَّ القوم قد اتَّخَذُوا هذا الاسم ذو الخلصة معبوداً لهم أين ما أوجدوه في البيت الذي بنوه وجعلوه كعبة ، والذي نحن بصدده أو ما جعل على شكله في بيوتهم وعند سادتهم أو حتى عودة ذو الخلصة في آخر الزَّمان عند دوس باسمه كما جاء في الصحيحين .

أمَّا ذا الخلصة المراد في هذا البحث كان بيتًا فيه أنصاب تعبده دَوْس وبَجِيلَة وخَثْعَم وأزد السَّراة ومَنْ قاربهم من بطون العرب ، وكان بتَبَالَة .

قال أبو عبيدة في الدِّيباج إنَّ ذا الخَلَصَة بيت بالعَبْلَاء كانت خَثْعَم ومَنْ

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ٧/ ٢٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : السِّيرة النَّبويَّة ، ٢/ ٤٨٠ ، السُّهَيلي : الرَّوض الأُنف ، ٧/ ٣٣٤ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٦٣ .

وَلِيَهم مِنْ قيس وغيرهم يحجُّونه وهو اليوم مسجد العبلاء[١] .

وقيل : العَبَلات من أرض تَبَالَة . قال الحزازة العامري فيها :

روِيت قيعتا تبالة غيثا   فذواتُ الآصادِ فالعبلات[٢]

وذكر الهمداني أنَّ ذا الخَلَصَة بناحية تَبَالة[٣]. كانوا يسمُّونه كعبة ، وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام[٤] ، وروي أنَّ امرأ القيس لمَّا قتل بنو أسد أباه حجراً ، خرج يستنجد بمن يعينه على الأخذ بثأره ، حتَّى أتى حِمْير فالتجأ إلى قَيْل منهم يُقال له : مرثد الخير بن ذي جَدَن الحميري ، فاستمدَّه على بني أسد فأمدَّه بخمسمائة رجل من حِمْيَر مع رجل يُقال له قُرْمُل[٥] ، ومعه شذاذ من العرب ، واستأجر من قبائل اليمن رجالًا فسار بهم يطلب بني أسد ، ومرَّ بتَبَالَة وبها صنمٌ للعرب تعظِّمه ، يُقال له : ذو الخَلَصَة ، فاستقسم عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الآمر والنَّاهي والمتربِّص ، فأجالها فخرج النَّاهي ، ثُمَّ أجالها فخرج النَّاهي ، ثُمَّ أجالها فخرج النَّاهي ، فجمع الأزلام وكسرها وضرب بها وجه الصَّنم ، وقال : مصصت بظر أمك ، لو قتل أبوك ما نهيتني ، فقال عند ذلك :

---

(١) أبوعبيدة معمر بن المثنى التيمى : الديباج ، ص : ٥ .

(٢) ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ١١٥ .

(٣) ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ١٢٧ .

(٤) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٥ .

(٥) قُرْمُل –على وزن قُنْفُذ– بن الحميم الحميري ، ملك من ملوكهم ، وهو الَّذي ملك بعد مرثد بن ذي جدن ، وإيَّاهما عنى امرؤ القيس بقوله :

وإذْ نَحنُ نَدْعو مَرْثَدَ الخَيْرِ رَبَّنا   وإذْ نَحنُ لَا نُدعى عَبيداً لقُرْمُلِ .

انظر : ابن دريد : الاشتقاق ، ص٥٢٨ ، الصحاري : الأنساب ، ص : ٥٦ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٣٠/ ٢٤٨ .

لو كُنْتَ يا ذَا الخَلَص المَوْتُوْرَا مِثْلِى وكانَ شَيْخُكَ المَقْبُوْرَا

لم تَنْه عَنْ قَتْلِ العِدَاةِ زُوْرَا

ثُمَّ خرج فظفر ببني أسد ، وقتل قاتل أبيه ، فلمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة وكسر الأصنام التي داخلها وخارجها ، بعث السّرايا لهدم الطَّواغيت وإزالة معاقل الشرك وبيوت الأصنام ، ومن ذلك بيت ذو الخَلَصَة الَّذي بتبَالَة كان مِنْ أكبر معابد الوثنيَّة ، وكان يُقال عنه: الكعبة اليمانيَّة والكعبة الشَّاميَّة[١] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٦ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ٢٢٢ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ .

سريَّة جرير بن عبد الله البجلي[١] رضي الله عنه لهدم صنم ذي الخَلَصَة :

عن جريرِ بن عبداللهِ ، قال : «كان في الجاهليَّة بيتٌ يقالُ له ذو الخَلَصَةِ ، وكان يُقَالُ له : الكعبة اليمانيةُ أو الكعبةُ الشَّاميَّةُ..»[٢] .

وقد وقع إشكالٌ بين المحدِّثين في هذا الحديث في قوله : الكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة ، قال النووي : قوله : وكان يُقال له الكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة ، وفي بعض النُّسخ الكعبة اليمانيَّة الكعبة الشاميَّة -بغير الواو- ، وهذا اللفظ فيه إيهام ، والمراد أنَّ ذا الخَلَصَة كانوا يسمُّونها الكعبة اليمانيَّة ، وكانت الكعبة الكريمة الَّتي بمكَّة تُسَمَّى الكعبة الشاميَّة ، ففرَّقوا بينهما للتَّمييز ، هذا هو المراد فيتأوّل اللَّفظ عليه ، وتقديره يُقال له الكعبة اليمانيَّة ، ويُقال للَّتي بمكَّة الشَّاميَّة ، وأمَّا قوله :

---

(١) جرير بن عبدالله البجلي ، الصَّحابي الشهير ، يُكنَّى أبا عمرو ، وقيل يكنّى أبا عبدالله ، سَيِّدُ بَجِيلَة ، مِنْ خير ذي يمن ، فاق النَّاس في الجمال والقامة ، وكان عمر بن الخطاب يُسمِّيه يوسف هذه الأمَّة ، سكن الكوفة ، ثُمَّ تحوَّل إلى قُرْقِيسْيَاء مفارقًا لـمَن كان يسبُّ الصَّحابة مِنْ أهل الكوفة ، أسلم في السنة الَّتي توفي فيها رسول الله ﷺ ، فاستكفاه طاغية ذي الخَلَصَة بيتًا لخثعم يُسمى الكعبة اليمانية ، فنفر إليها ، فأحرقها ، فدعا له النَّبي ﷺ بالثبات والهداية قائلًا : اللَّهـمّ ثَبِّتْهُ ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا ، وذلك عندما قال للنبيّ ﷺ إنِّي رجلٌ لا أثبتُ على الخَيْل ، توفي سنة (٥٦هـ) . انظر : أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ٢/ ٥٩١ ، ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٢٣٦ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ١/ ٥٨١ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ذكر جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه ، برقم (٣٦١١) ، ٣/ ١٣٩٠ ، صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، برقم (٢٤٧٦) ، ٤/ ١٩٢٥ .

هل أنت مريحي مِنْ ذي الخَلَصَة والكعبة اليمانيَّة والشَّاميَّة ، فقال القاضي عياض : ذِكر الشاميَّة وَهْمٌ وغلطٌ مِنْ بعض الرُّواة والصَّواب حذفه[١] ، هذا كلام القاضي -القائل هو النووي- وليس بجيِّد ، بل يمكن تأويل هذا اللَّفظ ويكون التَّقدير هل أنت مريحي من قولهم الكعبة اليمانية والشامية ووجود هذا الموضع الذي يلزم منه هذه التَّسمية[٢] .

ويقول ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري : «والكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة ، كذا فيه ، قيل : وهو غلط ، والصَّواب : اليمانيَّة فقط ، سمَّوها بذلك مضاهاةً للكعبة ، والكعبة البيت الحرام بالنِّسبة لمن يكون جهة اليمن شاميَّة ، فسموا الَّتي بمكَّة شاميَّة ، والَّتي عندهم يمانيَّة تفريقًا بينهما ، والَّذي يظهر لي أنَّ الَّذي في الرواية صواب ، وأنَّها كان يُقال لها اليمانيَّة باعتبار كونها باليمن ، والشاميَّة باعتبار أنَّهم جعلوا بابها مقابل الشام»[٣] .

ومن خلال التَّدقيق والبحث في توجيهات العلماء تَرَجَّحَ عندي قول ابن حجر وكذا النَّووي ، بأنَّ الرِّواية صوابٌ لا إيهام فيها ولا غلط ، وهو أنَّ ذو الخَلَصَة يُقال له الكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة ، إلَّا أنَّني لم أقف على روايةٍ تذكر أنَّ بيت ذو الخَلَصَة جعلوا بابه من الشَّام ، والَّذي ظهر لي أنَّ العرب في الحجاز وما قاربها إلى عهد قريب كانوا يسمُّون الاتجاه الجنوبي يمنًا ، والاتجاه الشَّمالي شامًا ، لذلك سُمِّي الركن اليماني من

---

(١) انظر : القاضي عِياض : إكمال المعلم بفوائد مسلم ، ٧/ ٥١٣ .

(٢) النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ١٦/ ٣٥ .

(٣) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٧١ .

الكعبة ، وهذا الأمر مشهور حتَّى في الوثائق والصُّكوك الشَّرعيَّة القديمة الصَّادرة مِنْ قضاة مكَّة المكرَّمة ، يقولون فيها عند تحديد المواقع : يحدُّه شامًا كذا ، ويحدُّه يمنًا كذا ، فإذا كانت ذو الخَلَصَة بتَبَالَة بين مكَّة واليمن مسيرة سبع ليالٍ مِنْ مكَّة وهو ما يُقارب (٣٠٠ كلم) في ديار دَوْس وخَثْعَم ، وهو ما أُرَجِّحه أيضًا ، لذلك فإنَّ مَنْ يسكن شمال ذو الخَلَصَة إلى مكَّة مِنْ أحياء العرب يقولون لها الكعبة اليمانيَّة ، ومن يسكن جنوب ذو الخَلَصَة إلى أقصى اليمن يقولون لها الكعبة الشاميَّة ، أمَّا الكعبة البيت الحرام أعزَّها الله فتسمَّى البيت الحرام ، والكعبة المشرَّفة ، والبيت العتيق ، والكعبة مطلقًا ، فلا يُقال لها لا شاميَّة ولا يمانيَّة ، ولو أنَّه ورد في الحديث ذكر الكعبة اليمانيَّة فقط لفُهم منه أنَّ البيت العتيق هو الكعبة الشَّاميَّة ، ولكن الرِّواية أوردها الشَّيخان صريحةً وصحيحةً : «كان في الجاهليَّة بيتٌ يقالُ له ذو الخَلَصَة ، وكان يُقَالُ له : الكعبة اليمانيةُ أو الكعبةُ الشَّاميَّةُ» . وقال الكرماني : الضَّمير في «له» راجعٌ إلى البيت ، والمراد بِه : بيتٌ للصنم ، كان يُقال لبيت الصَّنَم : الكعبة اليمانيَّة ، والكعبة الشاميَّة فلا غلط ولا حاجة إلى التَّأويل بالعدول عن الظَّاهر[1] .

عن جريرِ بن عبدالله ، قال : «كان في الجاهليَّة بيتٌ يقالُ له ذو الخَلَصَةِ ، وكان يُقَالُ له : الكعبة اليمانيَّةُ أو الكعبةُ الشاميَّةُ ، فقال لي رسول الله ﷺ : «هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ» ، قال : فنفرت إليه في

---

(١) محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني (ت: ٧٨٦هـ) : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، ١٥/ ٥٩ . وانظر : بدر الدين العينى : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ١٦/ ٢٨٣ .

خمسين ومائة فارس مِنْ أَحْمَسَ[(١)] ، قال : فكسرناه وقتلنا مَنْ وجدنا عنده فأتيناه فأخبرناه ، فدعا لنا ولأَحْمَس»[(٢)] .

وجاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال[(٣)] : قدم على النبيِّ ﷺ مائة رجل من بني بَجِيلَة وبني قُشَير[(٤)] ومعهم جرير بن عبدالله ، فسأله عن بني خَثْعَم فأخبره أنَّهم أَبَوا أن يُجيبوا إلى الإسلام ، فاستعمله على عامَّة مَنْ كان معه ، ونَدَبَ معه ثلاثمائة مِنَ الأنصار ، وأمره أن يسير إلى خَثْعَم فيدعوهم ثلاثة أيَّامٍ ، فإنْ أجابوا إلى الإسلام قَبِل منهم وهَدَم صنمهم ذا الخَلَصَة ، وإلَّا وضَع فيهم السَّيف ، فلما وصل جرير رضي الله عنه دعاهم إلى الإسلام فأبَوا إلَّا القتال ، فقاتَلَتْه خَثْعَم وبَاهِلَة دون الصَّنم ، فقتل مِنْ

(١) أحمس بن الغوث بن أنمار ، في بجيلة ، بطن لهم سوابق في الإسلام ، نهض منهم مائة وخمسون فارساً مع جرير بن عبدالله إلى حرق ذي الخلصة ، صنم كان لهم يعبدونه ، فبارك رسول ﷺ على خيل أحمس ورجالها .انظر: محمد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها ، ص : ٨٨ ، و ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص : ٣٨٨ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) حديث البراء هذا أورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري : ٨/ ٧٢ ، وعزاه إلى كتاب الإكليل للحاكم النَّيسابوري .

(٤) بطنٌ من عامر بن صعصعة ، من هوازن ، من العدنانيَّة ، وهم : بنو قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قَيس عَيلان . وفيه عدَّة أفخاذ ، فوَلَد قُشَير بن كعب : ربيعة ، ومعاوية ، وسلمة الخير ، -وأمُّهُم الخنساء بنت علي بن ثعلبة بن بجيلة- ، وسلمة الشَّر ، والأعور ، وقرط ، ومرّة ، مِنْ ديارهم : قرن ، دارة واسط ، وفلج . انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص: ٢٨٩ ، والقلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص: ٣٩٩ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ٩٥٤ .

سدنته مِنْ باهلة يومئذٍ مائة رجل ، وأكثر القتل في خَثْعَم ، وقتل مائتين مِنْ بني قُحافة بن عامر بن خَثْعَمٍ[(١)] ، فظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخَلَصَة ، وأضرم فيه النَّار فاحترق ، فقالت امرأةٌ من خثعم :

وبنو أُمامة بالوَليَّة[(٢)] صَرَّعوا ... ثملًا يُعَالج كُلُّهم أُنْبُوبا

جَاءُوا لبَيْضَتِهِم فَلَاقَوا دُوْنَها ... أُسْداً تقب لدى السُّيوف قَبِيْبا

قَسَم المذلَّة بين نِسْوَةِ خَثْعَم ... فِتْيَان أَحْمَسَ قِسْمَةً تَشْعِيْبًا[(٣)]

وقَتَلَ جرير رضي الله عنه يومئذ كُلَّ من وقف دون ذو الخلصة مِنْ سدنته وعبيده الَّذين أخذتهم العصبيَّة الجاهليَّة والحميَّة للوثنيَّة المتمثِّلة في عبادة الأصنام ، والاستقسام بالأزلام ، وضلالات الشرك ، الَّتي حالت بينهم وبين عبادة الله والتوكُّل عليه وحده ، فأزاحهم عن طريقه بالقوَّة ؛ لينفِّذ أمر الله وأمر رسوله ﷺ ، ويهدم طاغوتهم الأكبر ومعبودهم المعظَّم ذو الخلصة ، فهدم البيت وكسر الأصنام التي كانت داخله وأحرقها بالنَّار . وجاء أنه لمَّا كان جرير بن عبدالله رضي الله عنه باليمن كان بذي الخَلَصَة رجلٌ يَسْتَقْسِم[(٤)] بالأزلام ، فقيل له : إِنَّ رسولَ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) بطنٌ من بني شهران ، من خثعم ، من القحطانيَّة ، وهم : بنو قُحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن سعد -وهو اجيمع- بن مالك بن قرين ابن وهب بن شهران . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص : ٣٩٦ ، وكحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣/ ٩٣٩ .

(٢) الوليَّة : موضع من بلاد خثعم . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٣٨٤ .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٦ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٣٨٤ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٢٧٣ .

(٤) يطلب القِسْم الَّذي قُسِمَ لَهُ وقُدِّر مَّما لَمْ يُقْسم وَلَمْ يُقَدَّر . ابن الأثير : النِّهاية في =

ههُنا ، فإن قَدَّرَ عليك ضرب عنقك ، قال : فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير ، فقال : لتكسرنَّها ولتشهدنَّ : أن لا إله إلَّا الله ، أو لأضربنَّ عنقكَ؟ قال : فكسرها وشَهِد ، ثُمَّ بعث جرير رجلًا مِنْ أحْمَس يُكنَّى أبا أرطاةَ إلى النبيِّ ﷺ يبشِّرُهُ بذلك ، فلمَّا أتى النبيَّ ﷺ قال : يا رسولَ اللهِ والَّذِي بعثك بِالحَقِّ ما جِئْتُ حتَّى تركتها كأنَّها جَمَلٌ أَجْرَبُ ، قال : فبرَّكَ النبيُّ ﷺ على خيل أَحْمَسَ ورجالها خمس مرَّاتٍ[١] .

روى ابن سعد قال : قدم جرير بن عبدالله البجلي سنة عشر المدينة ومعه مِنْ قومه مائةٌ وخمسون رجلًا ، فقال رسول الله ﷺ : «يَطْلُعُ عَلَيْكُم مِنْ هَذَا الفَجِّ مِنْ خَيْرِ ذِيْ يَمَن على وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلِكْ» ، فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا ، قال جرير : فبسط رسول الله ﷺ فبايعني ، وقال : «على أن تشهدَ أن لا إله إلَّا الله وأنِّي رسولُ الله ، وتقيمَ الصَّلاةَ ، وتؤتِيَ الزَّكاةَ ، وتصومَ رمضانَ ، وتنصحَ المسلم ، وتطيعَ الوالي ، وإن كانَ عبداً حبشيًّا» ، فقال : نَعَمْ ، فبايعه[٢] .

وقدم قيس بن عزرة الأحمسي في مائتين وخمسين رجلًا من أحمس الله ، وكان يُقال لهم ذاك في الجاهلية ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «وأنتم اليوم لله» ، وقال رسول الله ﷺ لبلال : «أَعْطِ رَكْبَ بَجِيلَةَ وَابْدَأْ

=

غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٦٣ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذي الخَلَصَة ، برقم (٤٠٩٩) ، ٤/ ١٥٨٣ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١ . وانظر : الدِّيار بَكْري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ٢/ ١٩٨ .

بالأَحْمَسِيين»[١] ، ففعل ، وكان نزول جرير بن عبدالله على فروة بن عمرو البياضي ، وكان رسول الله ﷺ يُسائله عما وراءه ، فقال : يا رسول الله قد أظهر الله الإسلام وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم ، وهَدَمت القبائل أصنامها الَّتي كانت تُعبد ، قال : «فَمَا فَعَلَ ذُو الخَلَصَة»؟ قال : هو على حاله قد بقي ، والله مريحٌ منه إنْ شاء الله ، فبعثه رسول الله ﷺ إلى هدم ذي الخَلَصَة وعقد له لواء ، فقال : إنِّي لا أثبت على الخيل ، فمسح رسول الله ﷺ بصدره وقال : «اللهُمَّ اجعله هَادِيًا مَهْدِيًّا» ، فخرج في قومه وَهُم زُهاء مائتين ، فما أطال الغيبة حتَّى رجع ، فقال رسول الله ﷺ : «هَدَمْتَهُ»؟ قال : نعم والَّذي بعثك بالحق ، وأخذت ما عليه وأحرقته بالنَّار ، فتركته كما يسوء مَنْ يهوى هواه ، وما صدَّنا عنه أحد ، قال : فبرَّك رسول الله ﷺ يومئذ على خيل أحمس ورجالها[٢] .

وبكسر هذا الطاغوت صنم ذي الخَلَصَة انتشر الإسلام في بلاد خثعم وبجيلة ودوس وبني عامر[٣] ومن والاهم مِنَ القبائل ، واطمأنَّت قلوبهم

(١) انظر : عبدالله بن محمد بن أبي شيبة (ت : ٢٣٥هـ) : مُصنف ابن أبي شيبة ، ت : محمد عوامة ، طبعة الدار السلفية الهندية ، ١٤/ ٣٤٤ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١ . ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، ٣/ ٣٨٣-٣٨٤ .

(٣) عامر بن صَعْصَعة : بطن من هوازن ، من قيس بن عيلان ، من العدنانية ، وهم : بنو عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن خصفة بن قيس بن عيلان ، ويقال لهم : الأحامس ، وينقسمون إلى أربعة أفخاذ : نمير ، ربيعة ، هلال ، وسوأة . وقد وصفهم دغفل النسابة فقال : أعناق ظباء وأعجاز نساء . انظر : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) : البيان والتبيين ، ت : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط : ٧ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٨٨م ، ٢/ ٨٠ ، كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٢/ ٧٠٨ .

بالتَّوحيد حتَّى تكاثرت وفودهم على المدينة عند رسول الله ﷺ يُبايعونه على الإسلام والسَّمع والطَّاعة .

وانتشر الأمن والإيمان ، وسادت عبادة الله وَحْدَهُ في جزيرة العرب ، وتخلَّصوا من رجس الشرك وذُلِّ العبوديَّة لغير الله ، وتحرَّرُوا مِنْ قيود الوثنيَّة والعقائد الفاسدة والمعبودات الباطلة الَّتي لا تضرُّ ولا تنفع ، فدخلوا في الإسلام فُرادى وجماعات وقبائل بأكملها ، وعادوا إلى دين الله مِنْ جديد ، وإلى فطرة الله الَّتي فطر النَّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِّين القيِّم ، مسلمين لله مخلصين له ، تاركين لكُلِّ ما يُعْبَدُ مِنْ دونه عزَّ وجلَّ .

الفصلُ الرَّابع :
القضاءُ على مظاهر الشِّرك في جزيرة العرب

المبحث الأول : البراءةُ من المشركين ومنعهم من الحج والمظاهر الشركيَّة .

المبحث الثاني : مواقفُ النبيِّ ﷺ في محاربة السِّحر والكهانة والعرافة عند العرب .

المبحث الثالث : مواقفُ النبيِّ ﷺ في النَّهي عن التطيُّر والتَّشاؤم والتَّمائم والتُّولة .

المبحث الرابع : محاربةُ العقائد والعادات والتقاليد الشركية (الذَّبح ، والنَّذر ، والحَلِفُ بغير الله ، والاعتقاد في الأنواء ، والاستقسام بالأزلام ، وأمر البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام) .

المبحثُ الأوَّل :
البراءةُ من المشركين
ومنعهم من الحجِّ والمظاهر الشركيَّة

لمَّا فتح الله على نبيِّه ﷺ والمؤمنين مكَّة ودخل أهلها في دين الإسلام أفواجًا ، سُدَّت أعظم سُبل الشرك بكسر الأوثان الَّتي كانت تُعظَّم وتُعبد من دون الله في أم القرى وما حولها ، وبما أنَّ مكَّة كانت قِبلةً ومحطَّةً للحجيج والتجَّار والمعتمرين والزوَّار من مشركي العرب وغيرهم في سائر الجزيرة وما حولها ممَّن يعظِّمونها ويقصدونها في ذلك الوقت ، كانت عُرضَةً لِإنْسِلَال الشرك وعبادة الأوثان مِنْ قِبَلِهم إليها مرَّةً أُخرى ، لاسيَّما خلال موسم الحجِّ ، الَّذي تَعَاهَدَتْهُ العرب في الجاهليَّة وما حَوَى من مظاهر شركيَّة وطقوس وثنيَّة حرَّفوا بها الحنيفيَّة شريعة الإسلام الَّتي أَرْسَى بها إبراهيم عليه السَّلام عبادة الحجِّ ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[1] فبدَّلوا معالم التَّوحيد ، وأدخلوا فيه ما ليس منه ؛ فمِنْ تلك الطُّقوسِ والمظاهر الشركيَّة الَّتي كانت تُصاحبُ حجَّهم :

إهلالهم بالحجِّ عند الأصنام ، فقد كان لقبائل العرب عاداتٌ في ذلك ، فكانوا إذا أرادوا الحجَّ وقفوا عند الصنم الذي يخصُّهم يطوفون حوله ثُمَّ يُلبُّون من عنده ، وإذا فرغوا من حَجِّهم لا يحلقون رؤوسهم إلَّا هناك ؛ كما كانت تصنع آل الخزرج عند مناه وغيرها ، ولعل المشركين استبدلوا مواضع الأصنام العزى وذا الخلصة ومناة بمواقيت الحج الشرعيَّة ؛ لأنَّها كانت في اتجاهاتها .

كما أدخلوا الشرك في تلبية الحاج ، فحرَّفوها من التوحيد إلى الإشراك بالله ، وزادوا فيها : «إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك» . عن

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٢٥ .

ابن عباس -رضي الله عنهما- قال : «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يقولون : لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، قال : فيقولُ رسولُ اللهِ ﷺ : وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ ، فيقولون : إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ»[1] .

حتى إنَّ طواف المشركين بالبيت لم يكن إلَّا لتلك الأصنام الَّتي جعلوها فيه ، وفي كلِّ مكانٍ حوله ، حتَّى وصل عددها يوم تحطيم النَّبيِّ ﷺ لها في فتح مكَّة إلى ثلاث مئة وستِين صنمًا ؛ هذا مع ما يصاحب طوافهم أن يطوف بعضهم عُراةً كالمجانين ، واستبدلوا ذكر الله عند بيته بالمُكَاء والتَّصدية ، أي : بالصَّفير والتَّصفيق[2] وغيرها من المنكرات ، وأيضًا سعيهم بين الصَّفا والمروة ، فقد كان حول الأصنام التي وضعوها هناك حتى أدخلوا الشرك في كل شعيرة من شعائر الدين ، ولم يكتفوا بهذا ، بل حتَّى مشاعر الحجِّ غيَّروا وبدَّلوا فيها ما ليس منها .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال : كانت العرب على دينين : حلَّةٍ[3] وحُمْس[4] ، فالحمسُ قريشٌ وكلُّ من ولدتْ منَ العرب ، وكنانة

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحجِّ ، برقم (١١٨٥) ، ٢/ ٨٤٣ .

(٢) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١٣/ ٥٢١ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ٥٠ ،

(٣) الحلة : وهم ما عدا الحمس ، وأنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس ، وكانوا يقصدون في ذلك طرح الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب عنهم . انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ١٨٥-١٨٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٨/ ١٤١ .

(٤) الحُمْسُ : قال ابن حجر : .. كانت قريش تُسَمَّى الحُمْس ، وكان الشَّيطان قد استهواهم فقال لهم : إنَّكم إن عظَّمتم غير حرمكم استخفَّ النَّاس بحرمكم ، فكانوا =

وخزاعــة ، والأوسُ والخــزرجُ ، وجــشمُ ، وبنــو ربيعــةَ بــن عــامر بــن صعصعة ، وأزد شنوءة ، وجذم ، وزبيدٌ ، وبنو ذكوان من بني سُلَيْم ، وعمرو اللَّاتِ ، وثقيفٌ ، وغطفانُ ، والغوثُ ، وعدوانُ ، وعلافٌ ، وقضاعةُ ، وكانت قريشٌ إذا أنكحوا عربِيًّا امرأةً منهم اشترطوا عليه أنَّ كلَّ

=

لا يخرجون من الحرم ، قال سفيان : وكانت قريش تسمى الحمس ، وكانت لا تجاوز الحرم ، يقولون : نحن أهل الله لا نخرج من الحرم ، وكان سائر الناس يقف بعرفة ، وذلك قوله : ثُمَّ أفيضوا من حيث أفاض النَّاس ، عن نافع بن جبير عن أبيه قال : كانت قريش إنَّما تدفع من المزدلفة ، ويقولون : نحن الحمس فلا نخرج من الحرم ، وقد تركوا الموقف بعرفة ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية يقفُ مع النَّاس بعرفة على جمل له ، ثُمَّ يصبح مع قومه بالمزدلفة فيقف معهم ويدفع إذا دفعوا . وروي عن عطاء أن جبير بن مطعم قال : أضللتُ حماراً لي في الجاهلية ، فوجدته بعرفة ، فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع النَّاس ، فلما أسلمتُ علمتُ أنَّ الله وفَّقه لذلك .

أمَّا تفسير الحمس ، فروى إبراهيم الحربي في غريب الحديث من طريق بن جريج عن مجاهد قال : الحمس قريش ومن كان يأخذ مأخذها من القبائل كالأوس والخزرج وخزاعة وثقيف وغزوان وبني عامر وبني صعصعة وبني كنانة إلَّا بني بكر . والأحمس في كلام العرب : الشَّديد ، وسُمُّوا بذلك لمَّا شدَّدوا على أنفسهم ، وكانوا إذا أهلُّوا بحجٍّ أو عمرةٍ لا يأكلون لحماً ولا يضربون وبراً ولا شعراً ، وإذا قدموا مكة وضعوا ثيابهم التي كانت عليهم . وقيل : سُمُّوا حُمساً بالكعبة لأنها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السواد . والأول أشهر وأكثر ، وأنَّهُ من التَّحَمُّس ، وهو التَّشَدُّد . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٣/ ٥١٦ .

قال ابن إسحاق : وقد كانت قريش ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقُطَّان مكة وساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حقِّنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم.. . ابن إسحاق : السيرة النبوية ، ص : ٣٠ ، وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ١٨٥ .

من ولدت له فهو أحمسيٌّ على دينهم[١] ، ودخل مع قريش كُلُّ من دان بدينها .

وكانت الحمسُ تقول : لا تعظِّموا شيئًا من الحلِّ ، ولا تجاوزُوا الحرم في الحجِّ ، فلا يهابُ النَّاسُ حرمكم ، ويرون ما تُعَظِّمُونَ من الحلِّ كالحرم فقصَّرَوا عن مناسك الحجِّ والموقف من عرفة وهو من الحلِّ ، فلم يكونُوا يقفونَ به ولا يُفِيضُونَ منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرةَ بمفضى المأْزِمَيْنِ[٢] .

قال عروة : «كان النَّاس يطوفون في الجاهليَّة عُراة إلَّا الحمس ، والحمس قريش وما ولدت ، وكانت الحمس يحتسبون على النَّاس ، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها ، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها ، فمن لم يعطه الحمس ثيابـًا طاف بالبيت عريانـًا ، وكان يفيض جماعة النَّاس من عرفات ، ويفيض الحمس من جمع» ، قال : وأخبرني أبي ، عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ هذه الآية نزلت في الحمس : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[٣] قال : كانوا

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٩ .

(٢) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٩ . والمأزمين : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة ، وهو شِعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرنة ، وهو إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام إلى طريق يفضي إلى حصن وحائط بني عامر عند عرفة ، وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين الصلاتين الظهر والعصرقال الأصمعي : المأزم في السنة مضيق بين جمع وعرفة . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١/ ١٨٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥/ ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٩ .

يفيضون من جمع ، فدفعوا إلى عرفات[١] .

وذلك أَنَّهُ لمَّا أهلك الله عزَّ وجلَّ جيش النصارى -الذي أراد غزو مكة- بقيادة أبرهة صاحب الفيل وأهلكهم الله على مشارف الحرم بالطير الأبابيل ، عظَّمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم ، لذلك ازدادوا في تعظيم الحرم والمشاعر ، ووقروها ، ورأوا أنَّ دينهم خير الأديان ، فتشدَّدوا في دينهم وتحمَّسوا له ، فَالْأَحْمَسِيُّ : المتشَدِّدُ فِي دِينِهِ في بعض كلام العرب(٢) ، ففرضوا على النَّاس أموراً وفرَّقوا بين الحلة والحمس ، وشرَّعوا في الدين شرائع باطلة من أنفسهم ، منها : عدم الوقوف بعرفة ، والإفاضة منها ؛ لأنَّها من الحل ، وهم يعرفون ويُقِرُّون أنَّها من مشاعر الحج ، وقالوا : نحن الحمس أهل الحرم ، فليس ينبغي لنا أن نُعَظِّم غيره[٣] ، وقالوا : لا ينبغي للحُمْسِ إذا أحرموا أن يأتقطوا الأقط[٤] ، ولا يسلئوا السَّمن[٥] ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب الوقوف بعرفة ، برقم (١٥٨٢) ، ٢/ ٥٩٩ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٦ .

(٣) انظر : محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ص١٢٧ ، الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٦ .

(٤) الأَقِطْ : وهو لبن مجفَّف يابس مستحجر يطبخ به ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٥٧ ، والأُقْطُ : شيءٌ يُتَّخذ من اللبن المَخِيض يُطبخ ثم يترك حتى يَمْصُل ، والقِطعةُ منه أَقِطةٌ ، وهو معروف . ابن منظور : لسان العرب ، ٧/ ٢٥٧ .

(٥) سلأ السمن يسلؤه سلأ واستلأه : طبخه وعالجه فأذاب زبده ، والاسم : السِلاء ، بالكسر ، ممدود ، وهو السمن ، والجمع : أسلئة . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ٩٥ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١/ ٢٦٩ .

ولا يمخضوا اللَّبن[١] ، ولا يأكلوا الزبد ، ولا يلبسوا الوبر ولا الشَّعر ، ولا يستظلوا به ما داموا حرمًا ، ولا يغزلوا الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وإنَّما يستظلُّون بالأدم[٢] ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم[٣] ، ولا يأكلون شيئًا من نبات الحرم ، ثُمَّ أضافوا على ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحلِّ أن يأكلوا في الحرم إلَّا من طعام أهل الحرم إمَّا قِرَى وإما شراءً[٤] .

وكان ممَّا شرَّعوا إذا حجَّ الصَّرورة من غير الحُمْسِ -والصَّرورة : هو من لم يحج قط رجلًا كان أو امرأة-[٥] لا يطوف بالبيت إلَّا عُريانًا أوَّل ما يطوف ، إلَّا أن يطوف في ثوب من ثياب الحُمس إمَّا عاريةً أو إجارةً يقف أحدهم عند باب المسجد ويقول : من يعير مصونًا؟ من يُعِيرُ ثَوْبًا؟ فَإِنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثوبًا أو أَكْرَاهُ طاف به ، وإن لم يُعِرْهُ ألقَى ثيابهُ بباب

---

(١) مخض : مخضت اللبن مخضًا ، إذا استخرجت زبده بوضع الماء فيه وتحريكه ، فهو مخيض . الفيومي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، ٢/ ٥٦٥ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٩/ ٤٦ .

(٢) الأديم : الجلد المدبوغ ، والجمع أَدَم بفتحتين ، وأُدُم بضمتين أيضًا ، مثل : بريد ، وبرد ، وقيل : الأديم : الجلد الذي يغلف جسم الإنسان أو الحيوان . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ١٠ ، د . محمود عبدالرحمن عبدالمنعم : معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، ١/ ١٢٣ .

(٣) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٥٩ .

(٤) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص : ١٠٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٠٢ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ١٨٨ .

(٥) الصَّرورة : التَّبَتُّل وترك النِّكاح ، والصرورة الَّذِي لم يحجّ قطُّ . انظر : عبدالرحمن بن الجوزي : غريب الحديث ، ١/ ٥٨٥ ، السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ١/ ٢٣٧ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٢/ ٣٠٨ .

المسجدِ من خارج ، ثُمَّ دخل الطَّوَافَ وهو عُرْيَان ، يبدأُ بإسافٍ فيستلمه ، ثُمَّ يستلمُ الرُّكن الأسودَ ، ثُمَّ يأخذُ عن يمينه ويطوفُ ويجعلُ الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافهُ سبعًا استلم الرُّكن ، ثُمَّ استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثُمَّ يخرجُ فيجد ثيابهُ كما تركها لم تُمَسَّ ، فيأخذُها فيلبسُها ، ولا يعودُ إلى الطَّوَافِ بعد ذلك عريانًا[(١)] .

ومن طاف في ثيابه التي عليه فإنَّه إذا فرغ من طوافه نزع ثيابه التي طاف بها فيطرحها بين إساف ونائلة فلا يمسُّها أحد ولا ينتفع بها حتى تبلى من الشمس فتسمى (اللقى)[(٢)] فصار هذا شرعة عندهم[(٣)] .

وقد جاءت امرأة يومًا وكان لها جمال وهيئة ، فطلبت ثيابًا عَارِيَّة فلم تجد من يعيرها ، فلم تجد بداً من أن تطوف عارية ، فما كان منها إلَّا أن نزعت ثيابها بباب المسجد ، ثُمَّ دخلت المسجد ، فوضعت يديها على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه[(٤)]

---

(١) انظر : محمد بن إسحاق : السيرة ، ص١٠٢ ، محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ص١٢٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٠٢ .

(٢) قال ابن الأثير : أصل اللقى : أنهم كانوا إذا طافوا خلعوا ثيابهم ، وقالوا : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب لقى ، فإذا قضوا نسكهم لم يأخذوها ، وتركوها بحالها ملقاة . انظر: ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢٦٧ .

(٣) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٤-١٧٥ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٢/ ٣٥٤ .

(٤) روى الإمام مسلم عن ابن عبَّاس قال : كانت المرأة تطوفُ بالبيتِ وهي عريانةٌ ، فتقولُ : من يُعِيرُنِي تِطْوَافًا؟ تجعلُهُ على فرجها ، وتقول : اليومَ يبدو بعضُهُ أو كُلُّهُ .. =

فهذا الفعل في قمة النَّجاسة الحسيَّة ، وهو من صنيع إبليس وتزيينه وما أوحى لهم لينزع عنهم لباسهم فيعرِّيهم من الدِّين والحياء ، قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[(١)] .

وكانت قبائلُ من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفُون بالبيتِ عراةً ، وكانُوا يقولون : لا نطوفُ في الثِّياب التي قَارَفْنَا فيها الذُّنُوب؟ فيطوفون بالبيت عُرَاةً الرِّجالُ بالنَّهار والنِّساء باللَّيْل ، فإذا بلغ بعضهم إلى باب المسجد قال للحُمْس : من يُعِيرُ مَصُونًا؟ مَنْ يُعِيرُ معوزًا؟ فَإِنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبَهُ طَافَ بِهِ ، وإلَّا ألقى ثيابه بباب المسجد ، ثمَّ دخل للطَّواف ، فطاف بالبيتِ سبعًا عريانًا ، وكان بعضُ نسائهم تَتَّخِذُ سُيُورًا فَتُعَلِّقُهَا في حَقْوَتِهَا وَتَسْتَتِرُ بها[(٢)] .

وقد جاءت امرأةٌ تطوفُ عُرْيَانَةً ، وكان لها جمالٌ ، فرآها رجلٌ

=

فما بدا منه فلا أحلُّهُ ، فنزلت هذه الآية : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ سورة الأعراف :الآية (٣١) . صحيح مسلم ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ برقم (٣٠٢٨) ، ٤/ ٢٣٢٠ . انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ١٩٠ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٢/ ٣٥٤ ، ويذكر أنَّ هذه المرأة هي : ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . انظر ترجمتها في : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ٤/ ١٨٧٤ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٢٢١ .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٧ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٩ ، بدر الدين العينى : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ٩/ ٢٦٦ .

فأعجبتهُ ، فدخل الطَّواف وطاف في جنبها لأن يمسَّها ، فأدنى عضدهُ من عضدها ، فالتزقت عضده بها ، فخرجا من المسجد هاربين على وجوههما ، فزعين لما أصابهما من العقوبة ، فلقيهما شيخٌ من قريش خارجًا من المسجد ، فسألهما عن شأنهما ، فأخبراهُ بقضيَّتهما ، فأفتاهما أن يعودا ، فرجعا إلى المكانِ الَّذي أصابهما فيه ما أصابهما ، فيدعوان ويُخلصان أن لا يعودا ، فرجعا إلى مكانِهِمَا ، فدعوا الله سبحانهُ وأخلصا إليه أن لا يَعُودَا ، فافترقت أعضادهُمَا ، فذهب كلُّ واحدٍ منهما في ناحيةٍ[1] .

ويدلُّ هذا على أنَّ المشركين كانوا لا يتورَّعون عن معصية الله تعالى في بيته الحرام ، ومثل هذه القبائح هي نتائج للشِّرك والعري والبدع التي انتشرت بينهم وصارت عندهم دين .

ومن المنكرات العظيمة التي كان المشركون يزاولونها ويُشَرِّعونها وهي من عمل الشيطان : نَسَاء[2] الشهور ، فكانوا ينسأون الشهور[3] سنة

---

(١) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٦ ، محمد بن أحمد الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ١/ ٢٥٤ ، محمد طاهر الكردي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ٤/ ٣٣٩ .

(٢) نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخَّرته ، ورجلٌ ناسئ ، وقوم نسأة ، قال الطبري : النسيء بالهمزة معناه الزيادة ، نسأ ينسأ إذا زاد ، وبترك الهمز : النسيان . انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٨/ ١٣٦ ، وفي الحديث : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ في أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَه» . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٤٤ .

(٣) كان العرب في الجاهلية يحرِّمون القتال في المحرَّم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرَّموا صفراً بدله ، وقاتلوا في المحرم ، وسبب ذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ، وقالوا : لئن توالت =

ويتركونها سنة ليحلوا الأشهر الحرم ويحرِّموا الأشهر التي ليست حرمـًا ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1] ، فذمَّ الله سبحانه وتعالى المشركين في تغيير شرع الله بآرائهم الفاسدة وأهوائهم الكاذبة حيث أحلُّوا ما حرَّم الله من الشهور وحرَّموا ما أحلَّ الله منها ، وهذه الأشهر الحرم التي كانت محرَّمة في الجاهلية أكدَّ حرمتها رسول الله ﷺ وقد كان المشركين يقدمون ويؤخرون فيها : «فإذا كانت السنة التي ينسأ فيها يقوم أحدهم فيخطب بفناء الكعبة ويجتمعُ النَّاس إليه يوم الصدر فيقول : أَيُّهَا النَّاسُ ، إنِّي قد نسأت العام صفر الأول يعني محرَّم فحلوه فيحلوه ، وكان أهل الجاهلية يسمون المحرم صفرًا الأوَّل ، وصفرَ صفرَ الْآخَرَ ، فيطرحون المحرم من الشهور نسأة فلا يعتدون به ، ويبتدئون العدة فَيَقُولُونَ لصفر وشهر ربيع الأول : صَفَرَانِ ، ويقولون لشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى شَهْرَا رَبِيعٍ ، ويقولون لجمادى الآخر

=

علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئـًا لنهلكن ، فكانوا إذا صدروا عن منى يقوم من بني كنانة ، ثم من بني فقيم منهم رجل يقال له القلمس ، فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء . فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي : أخِّر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر ، فيحل لهم المحرم ، فكانوا كذلك شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السَّنة كلها ، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه ، وهذا معنى قوله عليه السلام : إنَّ الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٨/ ١٣٧ .

(١) سورة التوبة ، الآية :(٣٧) .

ورجب جُمَادَيَانِ ، ويقولون لشعبان رجب ولشهر رمضان شَعْبَانُ ، ويقولون لشَوَّال شهر رمضان ولذي القعدة شوال ولذي الحجة ذو القعدة ولصفر الأول الذي هو المحرم الذي أنسأوه ذو الحجة فيحجون تلك السنة في المحرم ، وقد كان ذلك من فعل إبليس وتنجيسه وتدليسه ألقاه على ألسنتهم فرأوه حسنًا»[١] .

فإذا كان الحج في الشهر الذي يسمُّونه ذا الحجَّة ، خرج النَّاس إلى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والنَّاس على مداعيهم وراياتهم منحازين في المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ويجتمعون في بطن السوق ، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عشرًا ، أسواقهم قائمة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز فأقاموا به ثماني ليال أسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز ، وإنَّما سُمِّي يوم التروية ؛ لترويهم من الماء بذي المجاز ، ينادي بعضهم بعضًا : ترووا من الماء ؛ لأنَّهُ لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ ، وكان يوم التروية آخر أسواقهم ، وإنما كان يحضر هذه المواسم بعكاظ ، ومجنة ، وذي المجاز التجار ومن كان يريد التجارة ، ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد ، ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة ، خرج من مكة يوم التروية ،

---

(١) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٩ ، ١٨٠ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ١/ ١٣٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ٣١٦ .

فيتروون من الماء فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة ، وتنزل الحلة عرفة[١] .

فمِنْ أجل تلك الطقوس الوثنيَّة والمظاهر الشركيَّة والتَّشريعات الجاهليّة الَّتي كانت تُصاحب حجَّهم سارعَ الإسلام بعد فتح مكَّة إلى سدِّ سُبل دخول الشرك إليها مرَّةً أُخرى ، وذلك بمنع المشركين مِنَ الحجِّ بالبيت ، والبراءة منهم ، وتأجيلهم إلى مدَّة ، هذا مع القضاء على مظاهر الشرك المتبقيِّة مِنْ خلال إعادة مناسك الحجِّ إلى أصلها الَّتي شرعها الله عزَّ وجلَّ .

فلمَّا قَرُبَ موسم الحجِّ من السنة التاسعة للهجرة ، وأراد رسول الله ﷺ أن يقيم للنَّاس حجَّهم ، كما فرضه الله عليهم ، ذكر مخالطة المشركين للنَّاس في المشاعر ، وتلبيتهم بالشرك ، وطوافهم بالبيت عُرَاة ، أمسك رسول الله ﷺ عن الحجِّ في تلك السنة ، ليبعث أبا بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه أميراً على الحجِّ[٢] .

فأقام رسول الله ﷺ بعد عودته من غزوة تبوك بقيَّة شهر رمضان وشوال وذا القعدة ، ثُمَّ بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع ؛ ليُقِيْمَ للمسلمين مناسكهم ، فخرج أبوبكرٍ رضي الله عنه ومن معه من المسلمين كما أمره النبيُّ ﷺ[٣] .

---

(١) انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، ١/ ١٧٩ .

(٢) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٤٢١ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٤/ ١١٤-١١٦ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٤٣ ، أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، ١/ ٤٢٩ .

روى ابن سعد أنَّ النبيَّ ﷺ عندما استعمل أبا بكرٍ على الحجِّ ، خرج في ثلاثمائة رجلٍ من الصحابة ، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة قلَّدها وأشعرها بيده ﷺ ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي[١] ، وساق أبوبكر خمس بدنات[٢] . وكان ممَّن خرج مع أبي بكرٍ عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما[٣] .

فلمَّا نزلت براءة على رسول الله ﷺ وكان قد بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى مكة ، قيل له : يا رسول اللهِ لو بعثت بها إلى أبي بكر ، فقال : لا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، ثُمَّ دَعَا عَلِيَّ بْن أَبِي طَالِبٍ رضوانُ اللهِ عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصَّة من صدر براءة ، وأذِّن في النَّاسِ يوم النَّحْرِ إذَا اجْتَمَعُوا بِمِنًى ، أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ ، وَلَا يحجُّ بعد العام مشركٌ ، وَلَا يطوفُ بِالبيتِ عُرْيَانٌ ، ومن كان له عند رسول اللهِ ﷺ عهدٌ فهو له إلى مدَّته ، فخرج عليُّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه على ناقة رسول اللهِ ﷺ العضباء ، حتَّى أدرك أبا بكر في الطَّرِيق ، فلمَّا رآهُ أبوبكر ، قال : أَأَمِيرٌ أَمْ مَأْمُورٌ؟ فقال : بل مأمورٌ ، ثمَّ مضيا . فأقام أبوبكر للنَّاس الحجَّ ، والعربُ إذ ذاك في تلك السَّنَةِ على منازلهم من الْحَجِّ ، التي كانوا عليها في الجاهليَّة ، حتَّى إذا كان يومُ النَّحر ، قام عليُّ بن أبي

---

(١) ناجية بن جندب بن كعب ، صاحب بُدْن رسول الله ﷺ ، معدود في أهل المدينة ، كان اسمه ذكوان ، فسمَّاه رسول الله ﷺ ناجية ، كان مع رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، توفي في خلافة معاوية . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٥/ ٢٧٩ .

(٢) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٢٧ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢/ ١٩٢ .

طالب رضي الله عنه ، فأذَّن في النَّاس بالذي أمرهُ به رسولُ اللهِ ﷺ ، فقال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ ، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَام مُشْرِكٌ ، وَلَا يطوف بِالْبَيْتِ عُرْيَان ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَأَجَّلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ أَذَّنَ فِيهِمْ ، لِيَرْجِعَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَأْمَنِهِمْ أَوْ بِلَادِهِمْ ، ثُمَّ لَا عَهْدٌ لِمُشْرِكٍ وَلَا ذِمَّةٌ إِلَّا أَحَدٌ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ إِلَى مُدَّةٍ ، فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِه ، فلم يَحُجَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَمْ يَطُفْ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، ثُمَّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(١) .

قال ابن إسحاق : فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام ، وأهل المدَّة إلى الأجل المسمى(٢) . فإذا خطب أبوبكرٍ في النَّاس عقَّب عليٌّ بما أمره رسول الله ﷺ من سورة براءة وما تضمَّنته من البراءة من المشركين وتحذيرهم وتأجيلهم ، فكان دور عليٍّ رضي الله عنه تبليغ النَّاس سورة براءة يؤديها عن رسول الله ﷺ .

فكان نزول هذه السُّورة العظيمة والتي استفتحت بالبراءة العامَّة من المشركين هو نهاية الشرك في الجزيرة العربيَّة ، وأمرٌ من الله سبحانه وتعالى بالقضاء على الوثنية وسحقها ، وقتل المشركين أين ما كانوا بعد المُدَّة والأجل الذي ضُرب لهم ، قال تعالى : ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣) إلى أهلِ العَهْد : خُزَاعَةَ ، ومُدْلِج(١) .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٤٥ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٣٤١ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤/ ٦٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٤٦ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٣٤٢ .

(٣) سورة براءة ، الآية : (١) .

روى محمد بن كعب القرظي وغيره أنَّ النبي ﷺ بَعَثَ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث عليَّ بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة ، فقرأها على النَّاس ، يؤجِّل المشركين -أي : يمهلهم- أربعة أشهر يسيحون في الأرض[٢] ، فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجَّلهم عشرين من ذي الحجة ، والمحرَّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشراً من ربيع الآخر ، وقرأها عليهم في منازلهم ، وقال : «لا يحجَّنَّ بعد عامنا مشركٌ ، ولا يطوفنَّ بالبيت عُرْيَان»[٣] .

ذكر ابن حجر العسقلاني أنَّهُ وقع خلاف في أيِّ شهرٍ حجَّ أبوبكر : «ذكر ابن سعد وغيره بإسناد صحيح عن مجاهد : أنَّ حَجَّة أبي بكر وقعت في ذي القعدة ، ووافقه عكرمة بن خالد فيما أخرجه الحاكم في الإكليل ، ومن عدا هذين إمَّا مُصَرِّح بأنَّ حَجَّة أبي بكر كانت في ذي الحجة ، كالداودي ، وبه جزم من المفسرين الرُّمَّاني والثعلبي والماوردي وتبعهم جماعة ، وإمَّا ساكت ، والمعتَمَدُ ما قاله مجاهد ، وبه جزم الأزرقي ، ويؤيِّده أنَّ ابن إسحاق صرَّح أنَّ النبيَّ ﷺ أقام بعد أن رجع من

=

(١) مُدْلِج بن مُرَّة : بطن من كنانة ، من العدنانية ، وهم بنو مرة بن عبدمناة بن كنانة بن خزيمة . كان منهم من اختص بعلم القيافة . انظر : الطبري : تاريخ الطبري ، ٤/ ٥٤٩ ، أبوالفرج الأصبهاني : الأغاني ، ٧/ ٢٨٧ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ٢/ ٣٢١ ، النويري : نهاية الأرب ، ٢/ ٣٥١ ، القسطلاني : شرح المواهب ، ١/ ٤٥٨ .

(٢) ساح في الأرض يسيح سياحة : إذا ذهب فيها ، وأصله من السيح ، وهو الماء الجاري المنبسط على وجه الأرض ، أراد مفارقة الأمصار وسكنى البراري وترك شهود الجمعة والجماعات . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٤٣٢ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٦/ ٤٩١ .

(٣) الطبري : جامع البيان ، ١٤/ ١٠٠ ، الألوسي : روح المعاني ، ٥/ ٢٤٠ .

تبوك رمضان وشوالًا وذا القعدة ، ثُمَّ بعث أبا بكر أميرًا على الحج ، فهو ظاهر في أنَّ بعث أبي بكر كان بعد انسلاخ ذي القعدة ، فيكون حَجُّه في ذي الحِجَّة على هذا»[1] ، وهذا يناقض ما قاله مجاهد وهو أنَّ حجَّة أبي بكرٍ وقعت في ذي القعدة .

وعليه فإنِّي أقول : إنَّ نزول سورة براءة قُبيل حَجَّة أبي بكرٍ الصديق ، في قول الله عز وجلَّ : ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[2] هو دليلٌ قاطعٌ أنَّ حجَّة أبي بكر كانت في ذي الحَجَّة وفي التوقيت الصَّحيح للحجِّ ، بنصِّ الآية الكريمة ، فلا مكان للخلاف والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ يعني : سنة تسع من الهجرة ، حين حَجَّ أبوبكر بالنَّاس ، وقرأ عليٌّ رضي الله عنه عليهم سورة براءة[3] .
وعن مجاهد قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر وعليًّا رضي الله عنهما ، فطافا بالنَّاسِ في ذي المجاز وبأمكنتهم الَّتي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كُلِّهَا ، فآذنُوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر ، ثُمَّ لا عهد لهم ، وآذن النَّاس كلها بِالقتال إلَّا أن يؤمنوا[4] ، فآمن الناس حينئذٍ جميعًا ، ولم يسح

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٨٢ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : (٣) .
(٣) أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ) : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ت : أحمد عبدالله القرشي رسلان ، د. حسن عباس زكي ، القاهرة ، ط : ١٤١٩هـ ، ٢/ ٣٧١ .
(٤) الطبري : جامع البيان ، ١٤/ ١٠١ ، السيوطي : الدر المنثور ، ٢/ ٣٩٧ .

أحد[١] .

فقد كان الإنذار من الله في سورة براءة شديداً على المشركين ، فما زالت الآيات تحذِّر وتُنْذِر وتوبِّخ إلى أن قال الله سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢] ، فوصفهم الله سبحانه وتعالى بأبشع وصف بالنجس ؛ لما لهذه الكلمة من معاني حسيَّة ومعنويَّة ؛ لأنَّ المشركين من الناحية الحسيَّة نجس كونهم يأكلون الحرام ، ويشربون الحرام ، ويفعلون الحرام ، كانوا لا يغتسلون من جنابة ، ولا يتطهَّرون ، ويطوفون بالبيت عراة ، ويأكلون الميتة من المتردية والنَّطيحة وما أكل السَّبع ، ويشربون الدَّم ، والخمر ، ومن شَرِبَ الخمر فعل كُلَّ المنكرات . يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ، أي : عين الخبث ، مبالغة في خبثهم ، إمَّا لخُبْثِ باطنهم بالكفر ، أو لأنَّهم لا يتطهَّرون من النَّجاسات ، ولا يتوقَّون منها ، فهم ملابسون لها غالباً[٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنَّ أعيانهم نجسة كالكلاب ، قاله البيضاوي ، فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ، وهو نص على منع المشركين عبدةِ الأوثان من المسجد الحرام ، وهذا الأمر لا خلاف فيه[٤] .

---

(١) الطبري : جامع البيان ، ١٤/ ١٠١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (٢٨) .

(٣) أحمد ابن عجيبة : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ٢/ ٣٧١ .

(٤) انظر : عبدالله بن عمر البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ت : =

وقال الألوسي : (نجسٌ) : أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنَّهم عين النجاسة ، أو المراد ذوو نجس ؛ لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم ، أو لأنَّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النَّجَسْ ، أو لأنَّهم لا يتطهَّرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النَّجاسات فهي ملابسة لهم[1] .

وأمَّا من النَّاحية المعنوية فإنَّ عقيدتهم قد تلوَّثت وتنجَّست بالشرك ، وآذوا الله عز وجلَّ ورسوله والمؤمنين ، فالأذى نجاسةٌ ، وهو من معانيها .

وعليه فإنَّ المشركين يعتقدون أنَّ مع الله شريكًا في ملكه وتصرُّفه ، وأن لله عزَّ وجلَّ الولد ، وأنَّ بين الله وبين الجِنَّة نسبًا ، وأن الملائكة بنات الله يؤذون الله سبحانه وتعالى بذلك ، كما يعتقدون في الحجارة النفع والضُّر من دون الله ، ويعبدون الجنَّ والشياطين ويشركونها بالله سبحانه وتعالى ، ويمارسون الشرك في أطهر البقاع في بيت الله ، وفي حرمه المقدَّس ، قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2] . فكُلُّ دينٍ خالف دين الله وشرعه فهو نَجَسْ ؛ لما فيه من عبادة غير الله وإحلال الحرام ، وتبديل شرع الله ، والافتراء عليه عزَّ وجلَّ كذبًا وزوراً .

قال عليُّ بن أبي طلحة ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ في قوله : ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ

=

محمد المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ ، ٣/ ٧٧ .

(١) الألوسي : روح المعاني ، ٥/ ٢٦٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (٩٠) .

وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ، قال : حدَّ اللهُ لِلَّذِين عاهدُوا رسولهُ أربعةَ أشهر ، يسيحُون في الأرض حيثما شاءُوا ، وأجَّلَ أجل من ليس له عهدٌ ، انسلاخَ الْأَشْهُرِ الْحُرُم ، مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى انْسِلَاخِ الْمُحَرَّم ، فذلك خَمْسُونَ لَيْلَةً ، فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ أَمَرَهُ بِأَنْ يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ يقاتلهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وأمر ممن كان له عهدٌ إذا انسلخ أربعةُ أشهرٍ من يوم النَّحْرِ إلى عشر خلونَ من ربيعٍ الآخر ، أن يضع فيهم السَّيف حتَّى يدخلوا في الإسلام[1] .

وقد كان هذا الإمهال فرصة للمشركين ومهلة للتَّروي ، لعلَّ ذلك يؤدِّي بهم إلى التوبة عن كفرهم وشركهم بالله ، كما كان هذا الإيذان والأذان في الناس بأمر الله عز وجل هو نهاية الشرك في الجزيرة العربية ، والبراءة العامَّة من المشركين ، ومنعهم من دخول مكة ، والقضاء التامُّ عليهم بعد الآجال التي ضربت لهم من خالقهم سبحانه وتعالى ، فلا بقاء إذاً بعد ذلك للمشركين في جزيرة العرب .

فكان نزول سورة التوبة وما تضمَّنته من أحكام في البراءة العامَّة من المشركين ومن أعمالهم وأفعالهم هو قطع دابر الشرك في مكة ومنع المشركين من دخولها والقضاء التام على المظاهر والطقوس الشركيَّة التي كانوا يزاولونها ؛ تثبيتًا لعروة التَّوحيد الوثقى (لا إله إلَّا الله) ، وما كان لذلك من الأثر العظيم في دخول النَّاس في الإسلام ، فبعد أن حَجَّ مع أبي بكر رضي الله عنه ثلاثمائة حاج ، فما طاف العام حتى حَجَّ مع

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ١٠٢ .

رسول الله ﷺ مائة ألف من الصحابة رضوان الله عليهم ، شاهدوا رسول الله ﷺ وسمعوا منه .

المبحثُ الثَّاني :
مواقفُ النبيِّ ﷺ في محاربة
السِّحر والكهانة والعرافة عند العرب

السِّحْرُ :

يُعَدُّ السِّحر من مظاهر الشرك الخطيرة التي انتشرت في الجاهليَّة ، وهو لا ينفكُّ عن الشرك بحال مع عظيم جرمه ، فالسَّاحر لا يتمكَّن من تعلم السِّحر وفعله إلَّا إذا أشرك بالله تعالى بما يُقَدِّم للجنِّ والشَّياطين من التنازلات في الدِّين والكفر بربِّ العالمين ، وما يتقرَّب إليهم به من أنواع العبادات التي لا تصرف إلَّا لله عزَّ وجلَّ ، أضف إلى الشرك والأفعال الخبيثة الشَّيطانيَّة ، بثّ الشرِّ والإضرار بالنَّاس وأذيَّتهم عن طريق السِّحر ، لذا جاء الإسلام ليمنع هذه الانحرافات العقدية ومظاهره الشركيَّة ، ويُعَرِّف النَّاس خطير جرمها وعظيم حرمتها ، وهذا ما سأتناوله في هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

تعريف السِّحر في اللغة :

السِّحر لغة : الأُخْذَةُ ، وكُلُّ ما لَطُفَ مأخذه ودقَّ فهو سِحر ، والجمع أسحارٌ وسُحُورٌ ، والأُخْذَةُ هي التي تأخذ العين حتَّى يُظَنَّ أنَّ الأمر كما يُرى وليس الأصل على ما يُرى[1] .

وأصل السِّحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، وهو إخراج الباطل في صورة الحق ، وهو الخديعة والبيان في فطنة ، والسَّحْر أيضاً الغَذْو ، قال امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطَّعام وبالشَّراب[2]

---

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٣٤٨ .

(٢) امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي ، من بني آكل المرار (ت: ٥٤٥م) : ديوان امرِئ القيس ، اعتنى به : عبدالرحمن المصطاوي ، دار المعرفة - بيروت ، ط : ٢ ، =

وفي الحديث : «إنَّ من البيان لسِحْرَا» ، وسُمِّي السحور سحورًا ؛ لأنَّهُ يقع خفيًا آخر الليل[١] .

تعريف السِّحر في الشرع :

أمَّا شرعـًا : عُقَدٌ ورُقَى وكلام يتكلَّم به أو يكتبه أو يعمل شيئـًا يؤثِّر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له ، وله حقيقة ، فمنه ما يقتل ، ومنه ما يمرض ، ومنه ما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما في الآخر[٢] أو يخبِّب بين الاثنين . ومنه ما يخيل حتى يرى الشيء على غير حقيقته ، ويخبل حتى يهيم المسحور على وجهه ، مستعينين على ذلك بالجن والشياطين .

وقد كان السِّحر منبوذاً عند العرب في الجاهلية ، ومن شدَّة بغضهم لفاعله اتَّهموا به رسول الله ﷺ لينفروا عنه الناس ، فكانوا يقولون : هو ساحرٌ يفرِّق بين المرء وزوجه ، وبين الرَّجل وأخيه ، وبين الابن وأبيه ، وبين العبد وسيِّده ، وذلك حين سألت قريش الوليد بن المغيرة عن قوله في محمد ﷺ ، فقال بعد أن تفكر ونظر : إنَّ محمدًا ساحر ، والذي يقوله

=

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ، ص٧٨ ، وانظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ١٣٥ ، الأزهري : تهذيب اللغة ، ٤/ ٢٩٠ .

(١) انظر : سليمان بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد ، ص : ٣٣٣ .

(٢) انظر : منصور بن يونس البهوتي : كشاف القناع عن متن الإقناع ، ت : هلال مصيلحي هلال ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ط) ، ١٤٠٢هـ ، ٦/ ١٨٦ ، د. محمود عبدالرحمن عبدالمنعم : معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، ٢/ ٢٥٠ .

السحر ، ألا ترونه كيف فرَّق بين فلان وأهله ، وبين فلان وابنه وأخيه؟ وهذه سنَّة أهل الشرك مع رسل الله عليهم الصلاة والسلام يرمونهم بالسِّحر .

فكانت قريش تطوف في المواسم وتحذِّر النَّاس أنَّ محمداً ساحر يفعل ويفعل فاحذروا منه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[١] .

فالسِّحر إذن كان مشهوراً عند العرب وغيرهم من الأمم ، وقد أخبر الله عن قوم نوحٍ أنَّهم كانوا ينعتونه ساحر ، وكان السِّحر أيضًا فاشيًا في قوم فرعون[٢] ، فاليهود مِن أبرز المللِ الكفريَّة في هذا الجانب الشركي ، علمـاً وتعليمـاً ، وذلك لِـمَا يستحلُّون من السِّحر ، وما تنطوي عليه نفوسهم من الخبث والشَّر .

وقد بيَّن الله سبحانه على لسان نبيِّه حال السَّحرة وضعفهم في قصَّة سيِّدنا موسى عليه السلام حين اتَّهموه بالسِّحر في زمن ظهر فيه السِّحر وانتشر بشكل كبير في قوم فرعون ، الذين برعوا فيه ، وانفتنوا به ، وساد فيهم السَّحرة ، واعتقدوا أنَّهم رجال الدين وأهل العلم والفضل ، فضلُّوا وأضلُّوا ، وحرَّفوا الحنيفيَّة دين الإسلام ، الذي تلقَّوه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السَّلام ، فعمَّ في ديارهم السِّحر وانتشر بينهم .

---

(١) سورة يونس ، الآية : (٢) .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢٢٣ .

لذلك أرسل الله عزَّ وجلَّ إليهم سيِّدنا موسى عليه السلام بآية ظاهرها من جنس عملهم ، إلَّا أنَّها أبطلت سحرهم ، ونسفت عقيدتهم ، فلمَّا رأوا عصا موسى عليه السلام فجأة انقلبت إلى حيَّة تسعى ، اعتقدوا أنَّه السِّحر ، فاتَّهموه به ، فطلبوا من فرعون : ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾[1] .

واجتمع النَّاس في يوم الزِّينة ، ليشهدوا لمن الغَلَبة ، وجاء السَّحرة بسحر عظيم ، حتى أنَّ سيِّدنا موسى تأثَّر من قوَّته ، وفي هذا ردٌّ لمن أنكر تأثُّر النبيِّ ﷺ بالسِّحر ، قال تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[2] ، لذلك شعر موسى عليه السلام بالخوف ، فأمره الله تعالى أن يُلقي عصاه فإذا هي حيَّة عظيمة تلقَفُ ما صنعوا من السِّحر ، فوقع الحقُّ وبطل السِّحر ، وانقلبوا صاغرين ، فسجد السَّحرة أجمعون ، وآمنوا بالله ربِّ العالمين[3] . فكانوا هم أوَّلُ شاهد على رسالة سيِّدنا موسى ، وأوَّلُ المؤمنين بالله عزَّ وجلّ عندما قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

ثُمَّ بيَّن الله تعالى بعد ذلك حال اليهود واتهامهم نبيَّ الله سليمان عليه السَّلام بالسِّحر حين جمع له الله سبحانه وتعالى بين النبوَّة والملك ، فوهبه الله مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، فملك الإنس والجن والطير

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : (٣٦-٣٧) .
(٢) سورة طه ، الآية : (٦٦-٦٧) .
(٣) انظر : ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ٦/ ١٤١ ، ١٨٠ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : (٥١) .

والدَّواب ، والريح تجري بأمره ، وأَلَانَ له الحديد ، والشياطين كُلَّ بنَّاءٍ وغوَّاص ، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وغوَّاصين يستخرجون له الحُلِيَّ من البحر ، فمنحه الله ملكًا عظيمًا ، وآية من آياته ، فسخَّرها لطاعة الله تعالى والدَّعوة إليه ، لذلك كُلِّه اتَّهمته يهود بالسِّحر وهو : «لمَّا مات سليمان عمدت الشَّياطِين إلى أنواعٍ من الشرك فكتبوها ووضعوها تحت كرسيِّه ، وقالوا : كان سليمان يسحر الجنَّ بهذا ، فصار هذا فتنةً لمن صدَّق بذلك وصاروا طائفتَين ، طائفة علمت أنَّ هذا من الشرك والسِّحر ، وأنَّه لا يجوز ، فطعنت في سليمان كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب اليهود والنَّصارى ؛ وطائفةُ قالت : سليمان نَبِيٌّ ، وإذا كان قد سخَّر الجنَّ بهذا دلَّ على أنَّ هذا جائزٌ ، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال الَّتي فيها الشرك والتَّعزيم والإقسام بالشرك والشَّياطِين -ما تحبه الشَّياطين وتختاره ويساعدونهم لأجل ذلك على بعض مطالب الإنس ، إمَّا إخبارًا بأمورٍ غائبةٍ يخلطون فيها كذبًا كثيرًا ، وإمَّا تصرُّفًا في بعض النَّاس ، كما يقتل الرَّجل أو يمرض بالسِّحر»[١] .

فبرَّأ الله تعالى نبيَّه سليمان من افترائهم عليه وبهتانهم له ، قال تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ

(١) ابن تيمية : الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ، ٤/ ٢٧٥ .

أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

وفي هذه الآية الكريمة بيَّن الله سبحانه وتعالى خطورة السِّحر وضرره ، وأنَّ التي كفرت وتعلَّمت السِّحر وما أُنزل على الملكين ببابل هي الشياطين وليس سليمان عليه السلام ، وهي التي كانت تقوم بتعليم السِّحر للنَّاس ، يتعلَّمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم ، وأنَّهم يفرِّقون بهذا السِّحر بين المرء وزوجه ، وأنَّ هذا السِّحر مع خطورته إلَّا أنه لا يقع إلا بإذن الله تعالى وقدره ، فمن آمن بذلك وأيقن به اطمأنَّت نفسه ثقة بالله عزَّ وجلَّ[٢] .

كما بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ من اشتراه وتعلَّمه أو فعله ما له في الآخرة من حظٍّ ولا نصيب[٣] . ومع علم اليهود بخطورة السِّحر ومآل السَّاحر عند الله تعالى ، إلَّا أنَّهم أعرضوا عن الحقِّ وآثروا الباطل ، وآمنوا بالجِبْتِ والطَّاغوت ، وتمسَّكوا بالسِّحر ، وحاربوا دين الله ورسله على مرِّ العصور حتى إن رسول الله ﷺ ما سلم من كيدهم وسحرهم ، وذلك أنَّه لمَّا رجع ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ، ودخل المحرَّم من سنة

---

(١) سورة البقرة ، آية : (١٠٢) .

(٢) انظر : ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٥٢ ، السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ص : ٦١ .

(٣) انظر : عبدالله بن سلمان الحمدي : المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، ٢/ ١٠٨ .

سبع ، جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم[١] ، وكان حليفاً في بني زريق[٢] ، وكان ساحراً ، فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرُنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئًا ، ونحن نجعل لك جُعلًا[٣] على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه[٤] ، فجعلوا له على ذلك مالًا[٥] .

فكان غلام من يهود يخدم النبيَّ ﷺ ، فدنت إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة[٦] رأس رسول الله ﷺ وعدة أسنان من مشطه ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولَّى ذلك لبيد بن أعصم من بني زريق حليف اليهود ، وقد كان منافقاً[٧] ، فنزلت المعوذتان ، فكان كُلَّما قرأ آية

---

(١) لبيد بن الأعصم : كان من يهود بني زريق ، وهو الذي سحر رسول الله ﷺ في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر ، وقد استمر الحال ستة أشهر حتى أنزل الله سورتي المعوذتين ، فاستخرج السحر وأرسل رسول الله من يخرجه . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٥١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥/ ٧ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٥٢ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٨/ ٤٣ .

(٣) الجُعْلُ بالضَّم : ما جُعِلَ للإنسان من شيء على الشيء يفعله . انظر : الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٦٥٦ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ١١١ .

(٤) نكأه : أي هزمه وغلبه . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٣٤١ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١/ ٤٧٠ .

(٥) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٤/ ٢٠٠ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٨/ ٤٣ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢٢٦ .

(٦) مشاطة : وهو ما سقط من الشعر عند المشط . محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ) : شرح رياض الصالحين ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، طبعة ١٤٢٦هـ ، ٦/ ٣٣٢ .

(٧) حليف اليهود ، وكان منافقاً : ويجمع بينهما بأنَّ من أطلق أنَّه يهودي نظر إلى ما في
=

انحلَّت عُقْدَة ، حتى انحلَّتِ العُقَدُ كُلُّها ، فقام النبيُّ ﷺ كأنَّما نَشِطَ من عِقَال[١] .

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت : سَحَرَ رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زريق يُقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّل إليه أنَّه يفعل الشَّيء وما يفعله ، حتَّى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة ، وهو عندي لكنَّه دعا ودعا ثُمَّ قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه -أي : أجابني فيما دعوته- أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل؟ فقال : مطبوب[٢] ، قال : من طبَّه؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيما ذا؟

=

نفس الأمر ، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره . وقال ابن الجوزي : هذا يدلُّ على أنَّهُ كان أسلم نفاقاً وهو واضح . وقد حكى عياض في الشِّفاء أنَّه كان أسلم ، ويحتمل أن يكون قيل له يهودي لكونه كان من حلفائهم ، لا أنَّهُ كان على دينهم ، وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج ، وكان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهود قبل الإسلام حلف وإخاء ووُدّ ، فلمَّا جاء الإسلام ودخل الأنصار فيه تبرءوا منهم . ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢٢٦ .

(١) روي ذلك عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما . انظر : عبدالهادي بن محمد العجيلي (ت : ق ١٣هـ) : تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد ، ت : حسن بن علي العواجي ، أضواء السلف ، الرياض ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، ٢/ ٢٩٧ .

(٢) مطبوب : مسحور ، يقال : طُبَّ الرَّجل -بالضَّمِّ- إذا سُحِرَ ، وكَنُّوا بالطِّبِّ عن السِّحر تفاؤلًا بالبرء ، كما كنوا بالسَّليم عن اللّديغ . انظر : أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦ هـ) : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ت : محيي الدين ديب ميستو وآخرون ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ٥/ ٥٧١ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٣/ ٤١٤ .

قال : في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر ، قال : فأين هو؟ قال : في بئر ذروان[١] ، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه ، فجاء فقال : «يا عائشة ، كأنَّ ماءها نقاعة الحناء ، أو كأنَّ رءوس نخلها رءوس الشياطين» ، قلت : يا رسول الله : أفلا استخرجته؟ قال : «قَدْ عَافَانِي اللهُ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّر على النَّاس فِيْهِ شَرًّا» ، فأمر بها فدفنت[٢] .

ولعلَّ رسولَّ الله ﷺ خشي على من سيستخرجه من البئر ضرر السِّحر لأنَّهُ من قوة السِّحر تأثر ماءها منه وتغيَّر لونه حتى أصبح كأنَّهُ نقاعة الحناء وتغير نخلها حتى كأنَّهُ رؤوس الشَّياطين ، فخشي النبيُّ ﷺ شرَّ السِّحر أن يصيب كُلَّ من نزل في تلك البئر التي خبثت وخبث ماؤها منه ، وبما أنَّ رسول الله ﷺ قد شافاه الله من السِّحر وعافاه فلا حاجة إذاً لإخراجه ، لذلك أمر رسول الله ﷺ بها فدفنت ، ومن شِدَّة خبث يهود وكثرة ممارسة السِّحر ، فقد أذاعوا في المسلِمين فَور هجرتهم إلى المدينة أنَّهم قد سحروهم بأن لا يُولد لهم ، فلمَّا قدم المهاجرون المدينة أقاموا لا يُولَد لهم ، فقالوا سحرتنا يهود ، حتَّى كثرت في ذلك القالة ، فكان أوَّل مولودٍ بعد الهجرة عبدالله بن الزبير ، فكبَّر المسلمون تكبيرةً واحدةً حتى

---

(١) قال ابن الأثير : وفي حديث سحر النبي ﷺ «ببئر ذروان» بفتح الذال وسكون الراء ، وهي بئر لبني زريق بالمدينة ، فأما بتقديم الواو على الراء فهو موضع بين قديد والجحفة ، وقال ياقوت : هي بئر في منازل بني زريق بالمدينة . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ١٦٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١/ ٢٩٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب السحر ، برقم (٥٤٣٠) ، ٥/ ٢١٧٤ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٨/ ٤٠ .

ارتجت المدينة تكبيرًا»[١] ؛ حين أبطل الله ما صنعوا ، ومن ذلك أيضًا ما أخبر به الصَّحابيَّ الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن نفسه قائلًا : «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَفَعَ خَيْبَرَ إِلَى أَهْلِهَا بِالشَّطْرِ ، فلم تزل معهم حياةَ رسول الله ﷺ كلها ، وحياة أبي بكر ، وحياة عمر ، حتَّى بعثني عمر لأقاسمهم فسحروني[٢] ، فتكوَّعت يدى فانتزعها عمر منهم»[٣] . لعن الله اليهود كم آذوا رسول الله ﷺ وصحبه الكرام .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٩/ ٥٨٩ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ، ت : التركي ، ٨/ ٤٦٨ ، برقم (٤٨٥٤) ، وضعفه محققو المسند . وأخرج البخاري طرفًا منه (٢٧٣٠) .

(٣) قال الخطابي : كأنَّ اليهود سَحَرُوا عبدالله بن عمر فالْتَوَت يداه ورجلاه كذا قال ، ويحتمل أن يكونوا ضَرَبُوه . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢٠٩ ، ابن حجر : فتح الباري ، ٥/ ٣٢٨ .

موقفُ النبيِّ ﷺ من السِّحر :

بما أنَّ السِّحر كفرٌ بالله تعالى وانتقاصٌ مِنْ حقِّه عزَّ وجلَّ لما فيه من الإشراك به ، والضَّرر المُتعدي إلى مخلوقات الله بقتل بعضهم وإمراضهم وذهاب عقولهم وتفريقٍ بين الزوج وزوجته ، لذلك حذر النَّبيُّ ﷺ منه أشدَّ التحذير ، ووقف منه موقفًا حازمًا مع بيانه لحكم تعلُّمِه وتعاطيه وكذا إتيان السَّحرة ، وبيان الوعيد الشَّديد في ذلك كلِّه ، مع إرشاد أُمَّته لسُبل الوقاية منه ، وكيفية العلاج لمن ابتلي به ، لذا سوف أسرد إن شاء الله شيئًا من تلك المواقف جاعلًا إيَّاها في عدة نِقاطٍ :

أوَّلًا : تبيانه ﷺ لبعض الأعمال التي تَعْمَلُها السَّحرة للوصُول إلى مرادها ، حتى يتميَّز بذلك السَّاحر مِنْ غيره ، ويُفرق بين الكرامة مِن الدجل والغِواية ، ومِنْ تلك الأفعال النَّفث والعقد ، قال ﷺ : «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكل إِلَيْهِ»(١) ؛ كما أنَّه ﷺ بيَّن مُستند أقوال تلك السَّحرة من استعانتهم بالجنِّ والشَّياطين وتقريب القرابِين لهم للوصول إلى مبتغاهم ، لأنَّ «السَّاحر يقتل ويُمرِض ، ويَصْعَدُ في الهواء ، ونحو ذلك ، بإعانة الشياطين

---

(١) سنن النَّسائي ، كتاب تحريم الدَّم ، باب الحكم في السَّحرة ، برقم (٤٠٧٩) ، ٧/ ١١٢ ، قال عنه الإثيوبي في ذخيرة العقبى ٣٢/ ٥٠ : حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا ضعيف ؛ للانقطاع ، فإن الجمهور على أن الحسن البصريّ لم يسمع من أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقد تقدّم البحث في ذلك ، وأن الراجح ثبوت سماعه منه في الجملة ، لكنه مدلس ، وقد عنعنه هنا ، ولأن في إسناده عبّاد بن ميسرة ، وهو متكلّم فيه . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ، (١٧٨٨) .

له»[١] ، فقد جاء في صحيح البخاري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَانًا لقولِهِ كالسِّلْسِلَةِ على صفوانٍ ، قال عليٌّ وقال غيرهُ صفوانٍ ينفذهم ذلك ، فإذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِم قالوا ماذا قال ربُّكُم ، قالوا للَّذي قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير ، فيسمعُهَا مسترقُو السَّمْعِ ومسترقو السَّمْعِ هكذا واحدٌ فوقَ آخَرَ ، ووصفَ سفيانُ بيدِهِ وفرَّج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فرُبما أدرك الشِّهَابُ المستمعَ قبلَ أن يَرْمِيَ بها إلى صاحبه فيحرِقَهُ ، ورُبَّما لم يدركهُ حتَّى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفلُ منهُ حتى يلقوها إلى الأرض ، وربَّما قال سفيانُ حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم السَّاحر فيكذِبُ معها مائةَ كذبةٍ ، فيصدقُ فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكونُ كذا وكذا فوجدناهُ حقًّا للكلمة التي سُمِعَتْ من السَّماء»[٢] ، وهذا يُبَيِّن حال السَّحرة كيف يكذبون ليُضلوا النَّاس ويفتنوهم ، كما أخبر ﷺ أصحابه أيضًا بقصص بعض السَّحرة في الأمم السَّابقة لِيُعرِّفهم على أعمالهم الَّتي كانوا يتعاطَونها وما يسخرونه في خدمة بعض الملوك الكفرة لإغواء النَّاس وحثِّهم على الكفر والشرك بالله ؛ كقصَّة الغلام والسَّاحر الذي أراد الملك أن يُعَلِّمه السِّحر حتى يخلف الساحر على سحره لمَّا كَبُرَ سِنُّه ، وكيف أنَّ الله هدى الغلام حين أراد الحق ، ومنحه من الكرامة ما يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ ، فلمَّا علم

---

(١) أحمد بن عبدالحليم ابن تَيمِيَّة : النُّبُوَّات ، ت : عبدالعزيز الطويان ، دار أضواء السَّلف ، الرِّياض ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢/ ٨٣٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التَّفسِير ، باب قوله : ﴿إِلَّا من اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَه شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ، برقم (٤٥٢٢) ، ٤/ ١٨٠٤ .

الملك بحاله وصدق إيمانه عزم على قتله والتخلص منه ، إلَّا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يمكِّنه من ذلك فوقف الملك عاجزاً أمام كُلِّ المحاولات الفاشلة لقتله ، ومع هذا كان الغلام يُسَخِّر كل إمكاناته في سبيل الدَّعوة إلى توحيد الله حتى أنَّهُ في نهاية الأمر ضحَّى بنفسه راغبـًا من أجل هداية النَّاس ، وهذا يُبَيِّن حال الدُّعاة إلى الله وحبهم في إيصال الخير إلى الناس عن غيرهم من السَّحرة الأشرار ، فلما آمن النَّاس ووحدوا الله جعل الملك يخيرهم بين الكفر أو الإيمان بالله والقتل فاختاروا البقاء على التوحيد ولو كان المصير القتل مادام في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[١] .

ثانيًا : تحذيره ﷺ الشَّديد من السِّحر وذمُّه له ، ووعيده لمن مارسه ؛ لارتباطه بالشرك وأهله ، وقد تعدَّدت الأحاديث عنه في ذلك ، كقوله ﷺ في الحديث السَّابق : «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» ، وقوله ﷺ : «اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوْبِقَاتِ» ، قالوا : يا رسول الله ، وما هُنَّ؟ قال : «الشرك بالله ، والسِّحر ، وقَتْلُ النَّفْس الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ ، وأَكْلُ الرِّبا ، وأَكْلُ مال اليَتِيْم ، والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلات»[٢] ، بل حتَّى اليهوديان اللَّذان جاءاه ليسألانِه نهاهم عن السِّحر كما جاء ذلك في حديث صفوان بن عسَّال رضي الله عنه قال : «قال

---

(١) سورة البروج ، الآيات : ٤-٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب رمي المحصنات ، برقم (٦٤٦٥) ، ٦/ ٢٥١٥ ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ب برقم (١٤٥) ، ١/ ٩٢ .

يهوديٌّ لصاحبِه : اذْهَبْ بنا إلى هذا النبيِّ ، فقال صاحبه : لا تقل نبيٌّ ، إنَّهُ لو سَمِعَكَ كان لهُ أربعةُ أعينٍ ، فأتَيَا رسولَ اللهِ ﷺ فسألاهُ عن تِسْعِ آيَاتٍ بيِّناتٍ ، فقالَ لهم : لا تشرِكُوا بِاللهِ شيئًا ، ولا تسرقُوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطانٍ ليقتلهُ ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الرِّبا ، ولا تقذفُوا محصنةً ، ولا تولُّوا الفرار يوم الزَّحفِ ، وعليكم خاصَّةً اليهودَ أن لا تعتدُوا في السَّبْتِ ، قال فقبَّلوا يدهُ ورجلهُ ، فقالا نشهدُ أنَّك نبيٌّ ، قال : فما يمنعُكُم أن تتَّبعوني ، قالوا : إنَّ دَاوُدَ دعا ربَّهُ أن لا يزالَ في ذُرِّيَّتِهِ نبيٌّ ، وإنَّا نخاف إن تَبِعْنَاكَ أن تقتُلنا اليهودُ»[١] .

فقوله ﷺ : (وَلَا تَسْحَرُوا) «بفتح الحاء المهملة ، من باب قطع : أي لا تفعلوا السِّحر»[٢] ؛ إلى غير ذلك من الأحاديث النَّاهية عنه والمُتَوَعِّدَة لمن تعاطاه .

ثالثًا : تِبيانه ﷺ لجُرم من سوَّلَت له نفسه إتيان السَّحرة والكهنة وتصديقهم ، وهذا من باب سدِّ الذَّرائع المُوصلة إليه ، فكم قائل إنَّه يريد الذَّهاب إليهم لاختبارهم لا لتصديقهم أو لتعاطي السِّحر عندهم ، فإذا به سُرعان ما يقع في حبالهم والعياذ بالله ، قال رسول الله ﷺ لمعاوية بن الحكم السُّلميِّ رضي الله عنه -لمَّا سأله عن حكم الإتيان إليهم ، قال : «فَلاَ تَأْتِهِمْ»[٣] ، وقد ذكر ﷺ وعِيداً شدِيدًا فِيمَن أتاهم وصدَّقهم ، قال

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول اللهِ ﷺ ، باب ما جاء في قُبْلَةِ اليَدِ وَالرِّجْلِ ، برقم (٢٧٣٣) ، ٥/ ٧٧ ، وقال عنه : حديث حسن صحيح .

(٢) محمَّد عليّ آدم الإثيوبي : ذخيرة العقبى ، ٣٢/ ٣٩ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة ، برقم (٥٣٧) ، ١/ ٣٨١ .

ﷺ : «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[(١)] ، وهذا الوعيد داخل فيه مَنْ أتى السَّحرة أيضًا ، إذ الكِّهانة والعرافة نوعٌ مِنْ أنواع السِّحر كما سيأتي بيانه في هذا المبحث إن شاء الله ، قال ابن الأثير : «العرَّاف : كالكاهن ، وقيل : هو السَّاحر»[(٢)] .

رابعًا : أَمْرُهُ ﷺ لأُمَّتَه بقتل السَّحَرَة حدًّا لهم ، وعقوبةً على جريمتِهم ، كما صحَّ ذلك مِنْ حديث جُندب[(٣)] رضيَّ الله عنه مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ : «حدُّ السَّاحر ضربةٌ بالسَّيف»[(٤)(٥)] ، فامتثل صحابة رسول الله

(١) مسند أحمد بن حنبل ، ت : التركي ، برقم (٩٥٣٦) ، ١٥/ ٣٣١ بتمامه ، وهو في التِّرمذي (٦٣٩) ، وقال عنه : حديث حسنٌ صحيح . وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩ .

(٢) المبارك بن محمد بن عبدالكريم الشيباني ابن الأثير (ت : ٦٠٦هـ) : جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ت : عبدالقادر الأرنؤوط وغيره ، مكتبة الحلواني ، مطبعة الملاح ، مكتبة دار البيان ، ط : ١ ، ٥/ ٦٥ .

(٣) قال القرطبي : «روى سفيان عن عمار الذهبي أنَّ ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة يمشي على الحبل ، ويدخل في است الحمار ويخرج من فيه ، فاشتمل له جندب على السَّيف فقتله جندب- هذا هو جندب بن كعب الأزدي ويقال البجلي- وهو الَّذي قال في حقِّه النَّبيُّ ﷺ : «يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُنْدُب ، يضرب ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» . فكانوا يرونه جندبًا هذا قاتل السَّاحر . القرطبي : جامع الأحكام ، ٢/ ٤٧ .

(٤) سنن الترمذي ، كتاب الحدود عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في حدِّ السَّاحر ، برقم (١٤٦٠) ، ٤/ ٦٠ .

(٥) قال ابن القيم : «في الترمذي : عنه ﷺ : حَدُّ السَّاحر ضربةٌ بالسَّيف ، والصحيح أنَّه موقوف على جندب بن عبدالله ، وصحَّ عن عمر رضي الله عنه أنَّه أمر بقتله ، وصحَّ عن حفصة رضي الله عنها أنَّها قتلت مدبرة سحرتها .
وروي عن عائشة رضي الله عنها أيضًا أنَّها قتلت مدبرة سحرتها ، وروي أنَّها باعتها ، ذكره ابن المنذر وغيره .
=

ﷺ أمره كما ثبت عن عمر بن الخطاب[(١)] ، وزوج النبي ﷺ أمِّ المؤمِنِين حفصة[(٢)] رضوان الله عنهم أجمعين .

خامسًا : إرشاده ﷺ إلى سُبل الوِقاية منه ، وذلك بدلالته إلى أذكار يواظب عليها ، تكون لهم -بعون الله- حِرزًا من السَّحَرَة والشَّياطين ، فقد أوصى ﷺ إلى ملازمة ذكر الله في كلِّ وقتٍ وحين ، والمداومة على قراءة القرآن وبالأخص سورة البقرة ، قال ﷺ : «اقرءُوا سورةَ البقرة ، فإنَّ أخذهَا بركةٌ ، وتركهَا حسرةٌ ، ولا تستطيعها البطلة» . قال معاوية : بلغني أنَّ البطلَة : السَّحرةُ[(٣)] ، كما أوصى ﷺ على المحافظة على أذكار

=

وقد صحَّ أنَّ رسول الله ﷺ لم يقتل مَنْ سَحَرَهُ من اليهود ، فأخذ بهذا الشافعي ، وأبوحنيفة رحمهما الله ، وأمَّا مالك وأحمد رحمهما الله ، فإنهما يقتلانه ، ولكن منصوص أحمد رحمه الله أنَّ ساحر أهل الذمة لا يقتل ، واحتجَّ بأنَّ النبيَّ ﷺ لم يقتل لبيد بن الأعصم اليهودي حين سحره ، ومن قال بقتل ساحرهم يجيب عن هذا بأنَّه لم يقر ، ولم يقم عليه بيِّنة ، وبأنَّه خشي ﷺ أن يثير على النَّاس شراً بترك إخراج السِّحر من البئر ، فكيف لو قتله» . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٥/ ٥٧-٥٨ .

(١) انظر : أحمد بن علي بن المثنى أبويعلى الموصلي (ت: ٣٠٧ هـ) : مسند أبي يعلى ، ت : حسين سليم أسد ، دار المأمون للتراث - جدة ، ط : ٢ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م ، ٢/ ١٦٧ ، البيهقي : السنن الكبرى ، ٨/ ٢٣٣ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢٣٦ .

(٢) انظر : مالك بن أنس بن مالك (ت : ١٧٩هـ) : موطأ الإمام مالك ، ت : بشار عواد معروف ، محمود خليل ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ ، كتاب الرهون ، باب القضاء في السحرة ، برقم (٢٩٨٤) ، ٢/ ٥٠٢ ، والطبراني في الكبير ، برقم (٣٠٣) ، ٢٣/ ١٨٧ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافِرين وقصرها ، برقم (٨٠٤) ، ١/ ٥٥٣ .

الصَّباح والمساء ، كقوله ﷺ : «من قال : لا إله إلَّا الله وحدهُ لا شريك له ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، في يوم مائةَ مرَّةٍ كانتْ لهُ عدلَ عشرِ رقابٍ ، وكُتِبَ لهُ مائةُ حسنةٍ ، ومُحِيَتْ عنهُ مائةُ سيِّئةٍ ، وكانتْ لهُ حرْزًا من الشَّيطانِ يومهُ ذلكَ حتَّى يُمْسي ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاء به ، إلَّا أحدٌ عملَ أكثرَ منْ ذلكَ»[١] وغيرها من الأذكار ، وأمر ﷺ بالمحافظة على الفرائض ومن أولها الصَّلوات الخمس وبالذات صلاة الفجر ، قال ﷺ : «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فهو في ذمَّة اللهِ ، فلا يطلبنَّكم الله مِنْ ذمَّته بشيءٍ فيدركَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نارِ جهنَّم»[٢] ، ويجمع هذه الأمور كلَّها حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا ، فقال : يا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ ، احفظِ اللهَ يحفظْك ، احفظِ اللهَ تجدْهُ تجاهَكَ ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ ، واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعُوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبهُ الله لك ، ولو اجتمعُوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ ، رفعت الأقلامُ وجفَّتْ الصُّحُف»[٣] ؛ أمَّا في الأمور الحسِّيَّة فقد أرشد ﷺ إلى عجوة المدينة ، فقال : «مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً ، لَمْ يَضُرَّهُ ذلك اليومَ سُمٌّ ولا سِحْرٌ»[٤] ، إذًا- فالتَّوكُّل عليه جلَّ وعلا ، وإحسان الظنِّ به ، مع

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٨ برقم (٣١١٩) ، ومسلم ٤/ ٢٠٧١ ، برقم (٢٦٩١) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة ، برقم (٦٥٧) ، ١/ ٤٥٤ .

(٣) سنن التِّرمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، برقم (٢٥١٦) ، ٤/ ٦٦٧ ، وقال عنه : حديث حسن صحيح .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الطِّب ، باب الدَّواء بالعجوة للسِّحر ، برقم (٥٤٣٦) ، =

اتخاذ الأسباب الشَرعيَة في ذلك هو العاصمٍ الأكبر مِنْ تلك الشُّرور بإذن الله .

سادسًا : دلالة النبيِّ ﷺ إلى طُرق العلاج لمن ابتلي بشيءٍ من السِّحر ، مِنْ خلال إرشاده إلى أدويَّةٍ نافعة ورافعةً له بإذن الله عز وجلَّ ، فمِنْ تلك الإرشادات النَّبوِيَّة أنَّه إنْ عُرف مكان السِّحر فلا شيء أنجع للشِّفاء كاستخراجه وإتلافه[١] ، وكذا الرُّقية الشّرعيَّة سيَّما الفاتحة والمعوِّذتَين كما جاء في حادثة سِحر النَّبيِّ ﷺ : «.. فنزلت المعوذتان ، فكان كُلَّما قرأ آية انحلَّت عُقْدَة ، حتى انحلَّتِ العُقَدُ كُلُّها ، فقام النبيُّ ﷺ كأنَّما نَشِطَ من عِقَال»[٢] ، كما أنَّه ﷺ دلَّ أمَّته إلى أدوية نافعة بإذن الله كالاستشفاء بالتَّصبُّح بعجوة المدينة[٣] ، والاحتجام من السِّحر فـ«قد ذكر أبوعبيد في كتاب غريب الحديث له بإسناده ، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ على رَأْسِه بِقَرْنٍ حِينَ طُبَّ ، قال أبوعبيد : معنى طُبَّ : أي سُحِر»[٤] ، هذا ما تيسر من الآثار النبوية التي أرشد إليها النبيُّ ﷺ في التداوي من السِّحر .

فالسِّحر إذاً من أخطر الذُّنوب وأعظمها ؛ لأنَّهُ يجمع بين الشرك بالله والإضرار بالنَّاس ، فكان موقف الإسلام منه التَّحذير الشَّديد والذمُّ

=

٥/ ٢١٧٧ .

(١) سبق الكلام عنه قريبًا في هذا المبحث في قصَّة سحر النبيِّ ﷺ عند قول عائشة «فَأَمَرَ بِهَا فَدُفَنَتْ» .

(٢) سبق تخريجه قريبًا في هذا المبحث ضمن حادثة سحر النَّبيِّ ﷺ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) ابن قيِّم الجوزيَّة : الطِّب النَّبوي ، دار الهلال ، بيروت ، ص : ٩٣ .

والوعيد لمن مارسه لارتباطه بالشرك وأهله ، فالسَّحرة يظهرون وينشطون في البيئات التي يكثر فيها التعلُّق بغير الله تعالى ، حتى في الزمن الحاضر ، فكلَّما بَعُدَ النَّاس عن التوحيد الصَّحيح كُلَّما أوغلوا في التعلُّق بالسَّحرة والسِّحر ، فهو شركٌ أكبر منافٍ للتوحيد ، لا يُتوصل إليه إلَّا بعبادة الشَّياطين والتقرُّب إليها بأنواع القربات ، فشرُّ السِّاحر كبيرٌ على المجتمع وضرره أعظم ، فكم قتل السِّحر من أناسٍ وأَمْرَضَ آخرين ، وذهب بعقولهم ، وفرَّق بين زوجٍ وزوجته ، وسبَّب العداوات بين أفراد الأسرة الواحدة ، فجمع مع الشرك إيذاءً وفساداً وعدوانًا ، لذلك كان موقف النبيِّ ﷺ التَّحذير والوعيد الشَّديد والنَّهي عن السِّحر وأهله .

أمَّا الكِهَانَةُ :

فقد شاعت في الجاهليَّة وعمَّت وطمَّت أرجاء الجزيرة العربية ، وطار ذكر الكهَّان في كلِّ مكان ، وانخدع النَّاس بما يقولونه ويقعون فيه ، فصدَّقوهم وآمنوا بهم ، على أنَّهم أهل علمٍ ودين ، وكانوا يلجئون إليهم في النَّوازل والمهمَّات ، ويتحاكمون إليهم في النزاع والخصومات ، فأفسدوا على النَّاس دينهم وعقيدتهم ، فهم دعاة الشرك وطواغيت الوثنيَّة في جزيرة العرب .

والكهانة لغةً : مِنْ كَهَنَ له يَكْهُنُ كِهَانة[1] ، وتَكَهَّن تَكَهُّناً ، قضى بالغيب ، والكاهن : الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزَّمان ، ويَدَّعي معرفة الأسرار[2] .

والكاهن أيضاً : الذي يقوم بأمر الرجل ، ويسعى في حاجته ، وكانت العرب تُسَمِّي كُلَّ من يتعاطى علماً دقيقاً كاهناً[3] .

أمَّا شرعاً : فقد عرَّفها العلماء بتعاريف مختلفة سأذكر منها :

قال البغوي : «الكاهن : هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان ، ويدَّعي معرفة الأسرار ، ومطالعة علم الغيب ، وكان في العرب كهنة يدعون معرفة الأمور ، فمنهم من كان يزعم أنَّ له رئياً من الجن ،

---

(١) انظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ٣٧٩ ، الجوهري : الصحاح ، ٦/ ٢١٩١ .

(٢) انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢١٥ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٣٦٣ .

(٣) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣ ، الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، ص : ١٢٢٨ .

وتابعة تلقي إليه الأخبار ، ومنهم من كان يدَّعي أنَّه يستدرك الأمور بفهم أعطيه»[١] .

قال ابن الأثير : والكاهن : «الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار»[٢] .

وقال ابن تيمية : الكهانة : «الإخبار ببعض الغائبات عن الجن»[٣] .

وقال ابن حجر : «والكَهَانَةُ بفتح الكاف ويجوزُ كسرُها ، ادِّعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع في الأرض ، مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيه استراق الجن السَّمع من كلام الملائكة ، فيلقيه في أذن الكاهن ، والكاهن لفظ يطلق على العرَّاف ، والذي يضرب بالحصى ، والمنجِّم ، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ، ويسعى في قضاء حوائجه»[٤] .

والكَهَانة من جنس السِّحر والشرك بالله . عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبَسَ بَابًا مِنْ عِلْم النُّجوم بغير ما ذُكِرَ الله ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً من السِّحر ، المنجِّم كاهنٌ ، والكاهنُ سَاحِرٌ ، والسَّاحِرُ كَافِر»[٥] .

---

(١) البغوي : شرح السنة ، ١٢/ ١٨٢ .

(٢) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢١٤ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ، ١/ ١٦٦ . وانظر : آمال العمرو : الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية ، (د.ت) ، (د.ن) ، ص : ٤٣٥ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٦ .

(٥) أخرجه أبوداود برقم (٣٩٠٥) ، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦) ، وحسَّنه الألباني . انظر : محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت: ٧٤١هـ) : مشكاة المصابيح ، ت : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٨٥م ، رقم (٤٦٠٤) ، ٢/ ١٢٩٦ .

قال السيوطي : «قبست العلم واقتبسته إذا تعلَّمته ، والقبس الشعلة من النَّار ، واقتباسها أخذها منها ، وإنَّما شبَّه ﷺ علم النُّجُوم بالسِّحر ؛ لأنَّ حرمته منصوصة ، ونطق بِهِ التَّنْزِيل ، قال جل ذكره : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾»[1] .

وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أنَّ النُّجوم والكواكب آية من آيات الله ، وتنطق بقدرته وحكمته ، وأنَّ الله قد خلق هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوم للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها ، فمن تأوَّل غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلَّف ما لا علم له به[2] .

وقد انتشرت الكهانة عند العرب بشكل واسع ، حتى أصبح في كلِّ قبيلة كاهن يستفتونه ويرجعون إليه ويتحاكمون بين يديه ، روي عن وهب بن منبِّه أنه قال : سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها ، فقال : إنَّ في جهينة واحداً ، وفي أسلم واحداً ، وفي هلال واحداً ، وفي كُلِّ حيٍّ واحداً ، وهم كُهَّان كانت تنزل عليهم الشياطين[3] .

ومن أشهر الكُهَّان عند العرب : سطيح ، وشق ، وخطر .

أمَّا سطيح : فهو ربيع بن ربيعة من الأزد ، سمى سطيحًا لأنَّه كان لا عظم له ، والسطيح المستلقي على قفاه من الزمانة . وملخَّص خبره

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٠٢) .

(٢) السيوطي : شرح سنن ابن ماجه ، مصباح الزجاجة ، ص : ٢٦٥ ، وانظر : الدهلوي : رسالة التوحيد ، ١/ ١٣١ .

(٣) انظر : ابن عبدالوهاب : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص : ٢٨٢ .

برسول الله ﷺ : لمَّا كانت ليلة ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وخمدت نار فارس ، وطلب كسرى من النعمان بن المنذر ملك العرب أن يبعث له رجلًا يخبر بما سأله عنه ، فأرسل عبدالمسيح بن حيَّان فعجز عن إجابة كسرى ، ورحل إلى سطيح فسأله ، فقال سطيح : إذا ظهرت التلاوة وغارت بحيرة ساوة ، وخرج صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ، ثم تكون هنات وهنات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه وعاد عبدالمسيح إلى كسرى فأخبره بما قال سطيح ، فقال كسرى : إلى أن يملك منَّا أربعة عشر ملكًا تكون أمور . قال : فمَلَكَ منهم عشرة في أربع سنين ، ومَلَكَ الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه[(١)] .

وشق بن صعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن ، ولد هو وسطيح في يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة : طريفة بنت الحسين الحميدية ، فتفلت في فيهيهما ، فورثا منها الكهانة ، وماتت من يومها ، وكان نصف إنسان ، وقد مات شق قبل سطيح بدهر[(٢)] .

وخطر بن مالك : ذكر أبوجعفر العقيلى بإسناد له ، إلى لهيب بن مالك اللهبى ، قال : حضرت عند رسول الله ﷺ فذُكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي نحن أوَّل من عرف حراسة السماء وزجر

---

(١) انظر : أبونعيم الأصبهاني : دلائل النبوة ، ١/ ١٣٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣/ ٣٩٨ .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣/ ٤٠٣ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ١/ ١١٧ ، الدِّيار بَكْري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ١/ ٢٠١ .

الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنَّا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له : خطر بن مالك ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كُهَّاننا ، فقلنا : يا خطر ، هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها؟ فإنَّا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها ، فقال : ائتوني بسَحَر ، أخبركم الخبر ، ألخير أم ضرر ، ولأمن أو حذر ، قال : فانصرفنا عن يومنا ، فلما كان من غد فى وجه السَّحَر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه ، فناديناه : يا خطر ، يا خطر ، فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا ، فانقضَّ نجم عظيم من السَّماء ، وصرخ الكاهن رافعاً صوته : أصابه أصابه ، خامره عقابه ، عاجله عذابه ، أحرقه شهابه ، زايله جوابه ، يا ويحه ما حاله ، بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت حباله ، وغيرت أحواله ، ثم أمسك طويلًا وقال : يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالكعبة والأركان ، والبلد المؤتمن السدان ، لقد منع السمع عتاة الجان ، بثاقب ، بكف ذى سلطان من أجل مبعوث عظيم الشأن يبعث بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وفاصل الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان ، قال : فقلنا : يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عظيماً ، فماذا ترى لقومك؟ فقال :

أَرَى لِقَوْمِي مَا أَرَى لِنَفْسِي ... أَنْ يَتْبَعُوا خَيْرَ بُنَيِّ الإِنْسِ

بُرْهَانُهُ مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ ... يُبْعَثُ فِيْ مَكَّةَ دَارِ الحُمْسِ

بمُحْكَمِ التَّنْزِيل غَير اللَّبْسِ

فقلنا له : يا خطر ، وممن هو؟ فقال : والحياة والعيش ، إنَّه لمن قريش ، ما فى حلمه طيش ولا في خلقه هيش ، يكون في جيش وأي جيش!

من آل قحطان وآل أيش ، فقلنا : بيِّن لنا من أي قريش هو؟ فقال : والبيت ذى الدعائم ، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم ، ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ، ثم سكت وأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثالثة ، فقال : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : «سبحان الله ، لقد نطق عن مثل نبوة ، وإنَّهُ ليُبْعَثُ يوم القيامة أُمَّةً وحده»[(١)] .

ومِنْ ذلك أيضا ما رواه الحافظ أبي بكر الخرائطي[(٢)] عن مرداس بن قيس الدَّوسي[(٣)] قال : حضرتُ النبِيَّ ﷺ وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مبعثه ، فقلت يا رسول الله! قد كان عندنا من ذلك شيءٌ ، أخبرك أنَّ جاريةً منَّا يُقَال لَهَا خَلَصَة لم نعلم عليها إلَّا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت : يا معشر دَوْس ، هل علمتُم عليَّ إلَّا خيراً؟ قلنا : وما ذاك؟ قالت : إنِّي لفي غنمي إذ غشيتني ظُلمةٌ ووجدت كحِسِّ الرَّجل مع

---

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ٢٠٦ ، سليمان بن موسى الحميري : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ، ١/ ١٣٧ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٢/ ٢٠١ .

(٢) الخرائطي : أبوبكر محمد بن جعفر بن محمد ، الإمام ، الحافظ ، الصدوق ، المصنف ، له : مكارم الأخلاق ، ومساوئ الأخلاق ، واعتلال القلوب ، وغير ذلك ، حدَّث بدمشق وبعسقلان ، قال ابن ماكولا : صنَّف الكثير ، وكان من الأعيان الثقات ، قيل : مات بيافا في ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاث مائة . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٥/ ٢٦٧-٢٦٨ .

(٣) أورده ابن الأثير في أسد الغابة باسم : مرداس بن قيس الدوسي روى حديثه صالح بن كيسان ، عمن حدثه ، وذكر القصة . عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٥/ ١٣٦ . وانظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٦/ ٥٨ .

المرأة ، فقد خشيت أن أكون قد حبلت ، حتَّى إِذا أدنت ولادتها وضعت غُلَامـًا أَغْضَفْ[(١)] له أُذنان كأُذُنَي الكلب ، فمكث فينا حتَّى إنَّه ليلعب مع الغِلمان ، إذ وثب وثبةً وألقى إزاره وصاح بِأعلى صوته : يا ويله يا ويله الْخَيل والله وراء العقبَة فِيهِنَّ فتيَان حسان نجبة ، فركبْنَا فوجدناهم ، فهزمناهم وغنمناهم ، وكان لا يقول لنا شَيْئًا إِلَّا كان كما يقول حتَّى إِذا كان مبعثك يا رسول الله صار يخبرنا بِشيء فيكذب ، فقلنا له : ويلك ماذا؟ قال : ما أدري كذبني الَّذي كان يصدقني ، أسجنوني فِي بيتي ثلاثًا ثمَّ ائتُوني ففعلنا به ذلك ثمَّ أَتَيْنَا بعد ثلاثة ففتحنا عنه فإذا هو كأَنَّهُ جَمْرَة نَار ، فقال : يا معشر دَوْس ، حُرست السَّمَاء ، وخرج خير الْأَنْبِيَاء ، قلنا : أين؟ قال : بِمَكَّة وَأَنا ميِّتٌ فادفنوني فِي رأس جبل ، فإِنِّي سوف اضطرم نَاراً ، فإذا رأيتم اضطرامي فاقذفوني بِثلاثة أحجار ، قولوا مع كُلِّ حَجَرٍ : بِاسمك اللَّهُمَّ فإِنِّي أهدأ وأطفئ ، ففعلنا ذلك وأقمنا حتَّى قدم علينا الحاجُّ فأخبرونا بمبعثك يَا رَسُول الله[(٢)] .

ومن الأخبار التي ذُكرت عن احتكام العرب عند الكهَّان في الجاهليَّة واستفتائهم في ما شَجَرَ بينهم ، ما ورد في كتب التَّاريخ أنَّه لمَّا وقع الفاكه بن المغيرة المخزومي[(٣)] في عِرْض زوجته هند بنت

---

(١) أَغْضَف : اسْتِرخاءُ أَعْلَى الأُذُنَيْنِ على مَحارَتِها مِنْ سَعَتِها وعِظَمِها ، فلذا يُقال غَضِفت الأُذن : إذا طَالَتْ واسْترخت وَتَكَسَّرَت . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٩/ ٢٦٧ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٢٤/ ٢١٤ .

(٢) محمد بن جعفر بن محمد الخرائطي (ت: ٣٢٧هـ) : هواتف الجنان ، ت : إبراهيم صالح ، دار البشائر للطباعة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م ، ص٣٢ ، السيوطي : الخصائص الكبرى ، ١/ ١٨٥-١٨٦ .

(٣) الفاكه بن المُغِيرَة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم : أحد الفصحاء المقدمين من =

عتبــة[1] ، وذلك أنَّه كان للفاكه بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذات يوم ، فاضطجع الفاكه وهندٌ فيه ، ثمَّ إنَّ الفاكه خرج لبعض شأنه ، فأقبل رجلٌ فولج البيت ، فلمَّا رأى المرأة فيه ولَّى هاربـًا ، فرآه الفاكه عند عودته وهو يخرج من البيت ، فأقبل الفاكه إلى هند وهي مضطجعة فضربها برجله وقال : من هذا الذي كان عندك؟ قالت : ما رأيت أحداً ، ولا انتبهت حتى أنبهتني أنت ، فقال لها : الحقي بأبيك ، وتكلَّم فيها النَّاس ، فقال لها أبوها : يا بنية ، إنَّ النَّاس قد أكثروا فيك ، فأنبئيني نبأك ، فإن يكن الرجل عليك صادقـًا دسست إليه من يقتله فينقطع عنك القالة ، وإن يك كاذبـًا حاكمته إلى بعض كُهَّان اليمن ، فحَلَفَتْ له بما كانوا يحلفون في الجاهلية إنَّه لكاذبٌ عليها ، فقال عتبة للفاكه : يا هذا ، إنَّك قد رميت ابنتي بأمر عظيم ، فحاكمني إلى بعض كُهَّان اليمن ، فخرج الفَاكِهُ في بعض جماعة من بني مخزوم ، وخرج عتبة

=

قريش في الجاهلية ، كان نديمـًا لعوف بن عبدعوف الزهري ، وهو عم خالد بن الوليد ، قتله بنو كنانة فِي الجاهلية ، وقتل ابنه أبوقيس بن الفاكه بْن المغيرةِ يوم بدر كافراً ، قتله حمزة رضي الله عنه ، وكانت هند أم معاوية عند الفاكه . انظر : ابن حبيب : المحبر ، ص٤٣٧ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ١٣٣ .

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبد مناف ، صحابية ، قرشية ، عالية الشهرة ، وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، فصيحة جريئة ، صاحبة رأي وحزم ، كانت ممن أهدر النبي ﷺ دماءهم يوم فتح مكة ، فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح ، فأعلنت إسلامها ، ورحب بها ، وأخذ البيعة عليهنَّ ، ومن شروطها ألا يسرقن ولا يزنين ، فقالت : وهل تزني الحرة أو تسرق يا رسول الله؟ . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٧/ ٢٨١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٣٤٦ ، الزركلي : الأعلام ، ٨/ ٩٨ .

في قوم من بني عبدمناف ، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها ، فلمَّا شارفوا البلاد وقالوا : غداً نَرِدُ على الكاهن ، تنكَّرت حال هند وتغيَّر وجهها ، فقال لها أبوها : يا بنيَّة ، قد أرى ما بك من تنكُّر الحال ، وما ذاك عندك إلَّا لمكروه ، فألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس مسيرنا؟ فقالت : والله يا أبتاه ما هذا الذي تراه مكروه وقع مِنِّي ، وإنِّي لبريئة ، وما هذا الذي تراه من الحزن وتغيُّر الحال هو أنِّي أعلم أنَّكم تأتون هذا الكاهن ، وهو بَشَرٌ يُخطئ ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون علي سبة في العرب ، فقال لها أبوها : لا تخافي فإنِّي سوف أختبره وأمتحنه قبل أن يتكلَّم في شأنك ، فإن أخطأ فيما أمتحنه به لم أدعه يتكلَّم في أمرك ، ثم إنَّه انفرد عن القوم وكان راكباً مهراً ، فانحرف به حتى توارى عنهم خلف رابية[1] ، فنزل عن فرسه ، ثُمَّ صفر له حتى أدلى ، ثم أخذ حبة بر ، فأدخلها في إحليل المهر ، وأوكى[2] عليها بسير ، فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : إنَّا قد جئناك في أمر ، ولكن لا أدعك تتكلم فيه حتى تبيِّن لنا ما خبأت لك ، فإنِّي قد خبَّأت لك خبيئاً ، فانظر ما هو ، قال الكاهن : ثمرة في كمرة ، قال : أريد أبين من هذا ، قال : حبة بُرٍّ في إحليل مهر ، قال : صدقت ، فخذ لما جئناك له ، انظر في أمر هؤلاء النِّسوة ، فأجلس النِّساء خلفه ، وهندٌ معهم لا يعرفُها ، ثُمَّ جعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ويقول : انهضي ، حتَّى دَنَا من هند ، فضرب

(١) الرابية : ما أشرف من الرمل ، وربوت الرابية : علوتها . الزبيدي : تاج العروس ، ٣٨/ ١١٩ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١٤/ ٣٠٦ .

(٢) أوكى عليها : شدَّها بالوكاء ، وهو الكساء ، ورباط القربة . انظر : الجوهري : الصحاح ، ٦/ ٢٥٢٨ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٤٠/ ٢٣٩ .

كتِفَها وقال : انهضي ، غير رَسْحَاء[١] ، ولا زَانِيَةً ، ولتلدنَّ مَلِكًا يقال له معاوية ، فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فنترت يدها من يده ، وقالت له إليك عني ، والله لا يجمع رأسي ورأسك وسادة ، والله لأحرصنَّ على أن يكون هذا الملك من غيرك ، فتزوَّجها أبوسفيان بن حرب ، فجاءت بمعاوية[٢] .

ولا غرابة من هند بنت عتبة رضي الله عنها الحرَّة العربيَّة ، وهي التي أجابت رسول الله ﷺ حين بايع النساء في فتح مكة عند قوله : ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ ، قالت متعجِّبة : أو تزني الحرة يا رسول الله؟![٣] .

ومع أنَّ مثل هذا من علم المغيبات قد يقع من الكهَّان ، إلَّا أنَّهم لا يعلمون الغيب ، وإنما يستعينون بالجنِّ والشياطين ، فيمدونهم بالأخبار ؛ إمَّا عن طريق استراقهم للسمع في الأمور الغيبية المستقبليَّة ، فيكذبون أكثر مما يصدقون ، وإمَّا عن طريق استخبار الجن بعضهم لبعض في الأمور التي وقعت في الماضي ، أو لسرعة طوفان الجنِّ في الأرض ومشاهدتهم للحوادث ، قال تعالى : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[٤] . ومع هذه

---

(١) رسحاء : أي لا عجيزة لها ، انظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ١٣٩ ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٢١ .

(٢) انظر : محمد بن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، ص١١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ١١/ ٣٥٩ .

(٣) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٨ ، ابن برهان الدين : السيرة الحلبية ، ٣/ ١٣٨ .

(٤) سورة النمل ، الآية : (٣٩) .

الإمكانات التي أعطاها الله عزَّ وجلَّ للجنِّ ، وسرعة الأداء إلَّا أنَّهم لا يعلمون الغيب ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى ذلك حين قبض نبيَّه سليمان عليه السلام في مجلسه وهو متكئ على عصاه وكان يشرف على ما كلَّف به الجن والشياطين من الأعمال الشاقَّة والصعبة ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[1] ، والكهان لا يستطيعون استخدام الجان والاستمتاع بهم إلَّا بعد الشرك والكفر والخروج عن دين الله كما هو حال السَّحرة .

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ بينما هو في نفرٍ من الأنصار إذ رُمِيَ بنجم فاستنار ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «مَا كُنتم تقولون في هذا النَّجم الَّذي يُرْمَى به في الجاهليَّة»؟ أي : قبل البعث ، قالوا : يا رسول الله كنَّا نقول إذا رأينا يرمى بها : مات ملك ولد مولود ، مات مولود ، فقال رسول الله ﷺ : «ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعته حملة العرش فسبَّحوا فسبَّح من تحتهم بتسبيحهم ، فسبَّح من تحت ذلك ، فلا يزال التَّسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السَّماء الدُّنيا فيسبِّحوا ، ثُمَّ يقول بعضهم لبعض : لم سبَّحتم؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا ، له الأمر الذي كان» ، أي : يكون في الأرض ، «فيهبط به من سماء إلى سماء» ، أي : تقوله أهل كل سماء لمن يليهم ، «حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فتسترقه الشياطين بالسمع على توهُّم واختلاس ، ثُمَّ يأتون به إلى الكُهَّان ، فيُحَدِّثونهم فيُخْطِئُون بعضاً

(١) سورة سبأ ، الآية : (١٤) .

ويُصِيبُون بعضاً»[١] .

وهذه النُّصوص من الكتاب والسنَّة أدلةٌ قاطعة على أنَّ الشياطين والجنَّ والكُهَّان لا يعلمون الغيب أبداً ، ولا يعلم الغيب إلا الله عزَّ وجلَّ ، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل رسُولَ اللهِ ﷺ أُنَاسٌ عنِ الكُهَّانِ ، فقال : «لَيْسُوا بِشَيءٍ» ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ إنَّهم يحدِّثونا أحياناً بشيءٍ فيكونُ حقًا؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يخطفُهَا الجنِّيُّ فيقرُّها في أُذُنِ وليِّه ، فيخلطُون معها مئةَ كذبةٍ»[٢] .

وقد نهى النبيُّ ﷺ عن التكهُّن لعلم الغيب فقال : «مَنْ أَتَى عَرَّافَاً أو كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بما يَقُولُ فقد كفرَ بما أُنزل على محمَّد ﷺ»[٣] .

وقد مرَّ معنا فيما سبق من هذا الكتاب[٤] أنَّ عمرو بن لحي كان كاهناً له رئي من الجنِّ ، وكان هو أوَّل من بدَّل دين الله تعالى ، وأدخل الشرك في جزيرة العرب ، ووضع الأصنام في مكة وما حولها ، وكان قدَّ شرَّع الشَّرائع الباطلة وفرضها عليهم ، وأدخل الشرك في حجِّهم وتلبيتهم ، كلُّ

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) : خلق أفعال العباد ، ت : د. عبدالرحمن عميرة ، دار المعارف السعودية - الرياض ، ص : ١٠٠ ، وانظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ٢٠٠-٢٠١ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٥/ ٧-٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الكهانة ، برقم (٥٤٢٩) ، ٥/ ٢١٧٣ ، صحيح مسلم ، كتاب السلام ، برقم (٢٢٢٨) ، ٤/ ١٧٥٠ .

(٣) أخرجه أحمد ١٥/ ٣٣١ ، برقم (٩٥٣٦) ، وصححه الحاكم في لمستدرك ١/ ٤٩ ، ووافقه الذهبي ، وحسنه محققو المسند ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١٨) .

(٤) انظر : ص : (٦٤ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨) من هذا الكتاب .

ذلك كان بأمر الشيطان ، ولأنَّ الكهَّان كانوا يخبرون النَّاس ببعض الأمور الغيبيَّة اعتقدوا فيهم وآمنوا بهم وصدَّقوهم ، فكانوا أهل علمهم وسادتهم الذين يتحاكمون إليهم ، وكانوا يجيبون على أسئلة النَّاس بكلامٍ بديع يقوم على السَّجع زيادة في الفتنة ، فانفتن النَّاس بهم ، وأقبلوا عليهم وأطاعوا أمرهم وأمر الشياطين التي تهدف لإغواء بني آدم ، ولذلك فقد كان للكهَّان دورٌ كبير في ظهور وانتشار عبادة الطواغيت والأصنام ونشر الشرك والعمل به وإضلال النَّاس عن دين الله .

ولمَّا قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ فيهم وابصة بن معبد ، وطليحة بن خويلد ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد مع أصحابه ، فسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء ، وكان مما سألوه عنه يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى ، فنهاهم عن ذلك كُلِّه..[1] .

فكان موقف النبيِّ ﷺ في التَّحذير من الكهانة والعرافة واحدٌ ، حيث قال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه : «مَنْ أَتَى كَاهِنًا ، أَوْ عَرَّافًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[2] ، فهذه العقوبة العظيمة في حقِّ من ذهب للكاهن وصدَّق قوله ، فكيف بعقوبة الطواغيت أنفسهم ، فقد سبق ذكر جملة من الأدلَّة في تحذير النبيِّ ﷺ عند بيان موقفه من السِّحر في هذا المبحث يغني عن إعادتها ، إذ الكهانة ضرب من ضروب السِّحر .

---

(١) انظر : سليمان بن موسى الحميري : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ، ١/ ٦٠٢ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٣١٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٥٧٢ .

(٢) تقد تخريجه في هذا المبحث .

وقد اختُلِفَ في حكم الكاهن أو المنجِّم يقتضي بتنجيمه ، فيدَّعي علم شيء من المغيَّبات كقدوم زيد ، وحدوث الفتن والأهوال ، فقيل : يُقتل دون استتابة ، وقيل : يُستتاب كالمرتد ، فإن تاب وإلَّا قُتل ، ولمالك : يُزجر عن اعتقاده ذلك ويؤدَّب حتى يتوب(١) .

والناظر في الخلاف يعلم أنَّه ليس باختلاف حقيقي ، وإنَّما هو لاختلاف حال المنجِّم ، فإن اعتقد تأثير الكوكب في ذلك ويستتر بذلك ، قُتِلَ دون استتابة ؛ لأنَّه زنديق ، وإن كان يظهر ذلك وينتصر له ، استتيب كالمرتد ، وإن كان لا يعتقد التأثير وإنَّما يرى القرانات والطوالع أدلَّة عادية في ذلك ، فهذا يُزْجَرُ ويؤدَّب ؛ لأنَّه أتى ببدعة ، وتسقط إمامته وشهادته ، ولا يَحِلُّ تصديقه ، لقوله تعالى : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٢) ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(٣) ، وينبغي أن يعتقد فيما يصيب فيه أنَّه بمقتضى التجربة ، لأنَّ الله سبحانه استأثر بعلم ذلك(٤) .

لذا كان موقف النبي ﷺ تجاه الكهانة والعرافة والسِّحر هو محاربتها والقضاء عليها لاجتثاث الشرك من أصوله ، فالشرك والسِّحر والكهانة

---

(١) انظر : عبدالمجيد بن سالم المشعبي : التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام ، أضواء السلف ، الرياض ، السعودية ، ط : ٢ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ، ص : ٢٩١ .

(٢) سورة النمل ، الآية (٦٥) .

(٣) سورة لقمان ، الآية (٣٤) .

(٤) انظر : محمد الفضيل الزرهوني : الفجر الساطع على الصحيح الجامع ، شرح صحيح البخاري من باب المبعث إلى نهاية كتاب اللباس ، دكتوراه ، المغرب ، ت : فؤاد ريشة ، (د.ط) ، (د.ت) ، ٨/ ٧٩ .

بينها ارتباط وثني وثيق لا ينفكّ ، فلا بُدَّ من اجتثاث الشرك والوثنيَّة وكُلُّ ما يمتُّ لها بصلة ، وهذا ما قام به رسول الله ﷺ بأمر الله تبارك وتعالى ، وسار عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من بعده .

أَمَّا العِرَافَة :

فالعرَّاف لغة : الكاهن ، والطبيب ، والحازي[(١)] .

والعرافة شرعـًا : هي معرفة أمورٍ بمقدِّمات أسباب ، يستدل بها على مواقعها ، كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة[(٢)] .

والعرَّاف هو الحازي ، والمنجِّم ، الذي يدِّعى علم الغيب ، وهي من العرافة ، وصاحبها عرَّاف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدِّمات ، يدِّعي معرفتها ، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزَّجر والطَّرق والنُّجوم وأسباب معتادة في ذلك ، وهذا الفن هو العيافة بالياء ، وكُلُّها ينطلق عليها اسم الكهانة[(٣)] .

قال النووي : والفرق بين العرَّاف والكاهن ، أنَّ الكاهن إنَّما يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل ، ويدَّعى معرفة الأسرار ، والعرَّاف يتعاطى معرفة الشَّيء المسروق ، ومكان الضَّالَّة ونحوهما[(٤)] .

---

(١) انظر : الحَازِي : الكاهِنُ تَقول : حَزَا يَحْزُو ويَحْزِي ويَتَحَزَّى ، والحازي : الذى يتكهَّن ويطرق بالحصى . الأزهري : تهذيب اللغة ، ٥/ ١١٤ ، الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٤٠٢ ، ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) : مجمل اللغة ، ١/ ٢٣٢ .

(٢) حمد بن محمد الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) : معالم السنن ، شرح سنن أبي داود ، المطبعة العلمية – حلب ، ط : ١ ، ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م ، ٤/ ٢٢٩ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٢٢٩ .

(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٧/ ٣ ، سليمان بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد ، ص : ٣٥٢ .

(٤) انظر : النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ٥/ ٢٢ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٧ .

قال ابن تيمية : «العراف قد قيل إنَّهُ اسم عامٌّ للكاهن ، والمنجِّم ، والرمال ، ونحوهم ممَّن يتكلَّم في تقدم المعرفة بهذه الطرق ، ولو قيل إنَّه في اللغة اسم لبعض هذه الأنواع ، فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوي ، كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوهما»(١) .

ثُمَّ قال : «والمنجِّم يدخل في اسم العرَّاف عند بعض العلماء ، وعند بعضهم هو في معناه»(٢) .

وعلى ذلك أقول : إنَّ العرافة اسمٌ مرادفٌ للكهانة ، إلَّا أنَّ الكاهن أعمُّ وأخطر من العرَّاف ؛ وذلك أنَّ الكاهن كان يستعين في معرفة علم الغيب بالجنِّ والشياطين عن طريق استراق السَّمع ، وهذا النَّوع من الكهانة قد انتهى ببعثة النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(٣) .

وأيضًا أضف إلى أنَّهم كانوا يستخبرون الجنَّ في ما يقع من أحداثٍ ماضية ، كمعرفة السَّارق والزَّاني والقاتل في بعض الأحيان وهم يكذبون أكثر من ما يصدقون .

فيظهر ممَّا سبق أنَّ العرافة معرفة الأحداث الماضية عن طريق استخبار الجن والشياطين بعضهم لبعض ، أو بسرعة تنقُّلهم من مكانٍ إلى آخر ، ووقوفهم على بعض الأحداث ومعاينتها ، أو عن طريق

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٣٥/ ١٧٣ .

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٣٥/ ١٩٣ .

(٣) سورة الجن ، الآيتان : (٨-٩) .

ما تعلِّمهم الشياطين من أعمال الزَّجر والطرق والتنجيم وغير ذلك يستدلُّون به على الحوادث والأخبار الماضية ، فيكذبون أكثر مما يصيبون ، وهذا النَّوع من الكهانة لا يزال موجوداً .

وقال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ أَتى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً»(١) .

ففي هذا الحديث الكريم وما سبقه لم يفرِّق بين الكاهن والعراف في الجزاء والعقوبة ، فجزاء من ذهب إلى عراف أو كاهن وصدَّقه ، فإنَّه يكفر بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن ذهب إليه ولم يصدِّقه لم تقبل له صلاة أربعون يومـًا ، وهذا جزاء من ذهب إليهم ، فكيف حال السَّاحر والكاهن والعراف ، وذلك أنَّ هؤلاء الكهَّان طواغيت الإنس يؤمنون بالجبت ويشركون بالله ، فهم أشدُّ عقوبة وأعظم ذنبـًا ممن يأتي إليهم ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢) .

وهذا موقف النبيِّ ﷺ من السَّحرة والكهنة والعرَّافين صارمـًا دون هوادة ، ويتَّضح من خلال العرض السَّابق الفرق بين السَّاحر والكاهن والعرَّاف والحازي ، والجامع في الحكم عليهم هو استعانتهم بالجنِّ ، وشركهم بالله تعالى ، وادعاؤهم علم الغيب ، فكلُّ من ثبت استعانته بالجنِّ في أفعاله فحكمه الكفر والقتل ، وإن اختلفت المسمَّيات ، ومن لم

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب السَّلام ، برقم (٢٢٣٠) ، ٤/ ١٧٥١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٧) .

يثبت عليه الاستعانة بالجن وتقديم القربات لهم وادعاء علم الغيب ، فأمره إلى السلطان ليعزره بما يردعه عن تعاطي مثل هذه الموبقات ، فهؤلاء الثلاثة يشتركون في الضلال والكفر والفرق الظاهر بينهم هو الإقلال والإكثار من الأخذ عن الجن ؛ لذا كان تحذير النبي ﷺ واحدًا دون تفريق ، فهم يعبثون بعقائد الناس ويوردونهم المهالك ، ومن عظيم نصح النبيِّ ﷺ للأمَّة أنَّهُ لم يكتفِ بالتَّحذير من هذه الأمور القادحة في التَّوحيد والدِّين قدحًا مباشرًا ؛ بل حذَّر من كُلِّ الأفعال والأقوال التي من شأنها أن تُوْصِلَ للشِّرك بالله ولو لم تكن شركًا في نفسها[1] .

(١) انظر : محمد بن عبد الله الغامدي : حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م ، ص : ٢٦٧ .

المبحثُ الثَّالث :
مواقفُ النبيِّ ﷺ في النَّهي عن التطيُّر والتَّشاؤم والتَّمائم والتُّولة

وفي هذا المبحث أُفرد بعض المعتقدات والمظاهر الشركيَّة مِمَنْ تجمعها علَّة التَّشائم بالمخلوقات واعتقاد الضرِّ والنَّفع فيها مع ضعف التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ ، وما يتبع ذلك من مظاهر الشرك التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام ، مع بيان موقف النبيِّ ﷺ منها وإبطالها والنَّهي عنها ، فمِنْ تلك المعتقدات :

أولًا : الطِّيَرة :

من المظاهر الشركيَّة السَّائدة عند العرب في الجاهليَّة ، عقيدة الطِّيرة والتطيُّر ، وهي عقيدة المشركين في كلِّ زمان ، فالطِّيرة طريقهم ، والشُّؤم رفيقهم أين ساروا وأين حلُّوا ، وفي جميع شؤون حياتهم ، يتحسَّسون أن يقع عليهم الشُّؤم ، ويصيبهم الردى والخسران ، من حركات الطير ومظاهر البشر ، أو من صوت البوم والحمار ، وما أصابهم ذلك إلَّا لشركهم بالله ، وظنهم السوء وفقد الإيمان ، فما بالك بمن يعبد الأحجار ، معتقدًا نفعها وضرَّها ، إذاً فلا غرابة أن يتعلَّق قلبه بحركات الطيور والبهائم ، ويظن فيها الخير والشرَّ من دون الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(١)] .

والطِّيَرَةُ لغةً : هي مصدر قولك اطَّيَّرْتُ ، أي : تَطَيَّرْتُ ، والطِّيْرَةُ بالسكون لُغَةٌ أيضًا من لغة العرب ، ولم أسمع في مصادر افتعل على فعلة غير الطِّيرة ، والخِيرة[(٢)] . والطِّيرة هي التشؤُّم والتسعُّد عند زجر الطير

(١) سورة فصِّلت ، الآية (٢٣) .

(٢) انظر : الفراهيدي : العين ، ٧/ ٤٤٧ .

ونحوه[١] .

والطَّائِر من الْحَيَوَان : هو كُلُّ مَا يطير فِي الْهَوَاء بجناحيه ، وَمَا تطيرت بِهِ ، أي : تيمَّنت أَو تشاءمت ، الحظ من الْخَيْر وَالشَّر ، وَبِه فُسِّر قولُهُ تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[٢] .

وقيل للشُّؤم : طائر وطير وطيرة ؛ لأنَّ العرب كان من شأنها عيافة الطَّير وزجرها[٣] ، والتطيُّر ببارحها[٤] ، إذا أثاروها ، وأخذت ذات اليسار ، ونعيب غرابها ، فسموا الشُّؤم طيراً وطائراً وطيرة ؛ لتشاؤمهم بها وبأفعالها[٥] .

ومن معني الطيرة : الخوف والرَّهبة والذُّعر ، يقول عنترة :

مَتَى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا[٦]

والتطيُّر شرعًا : التَّشاؤم ، وأصله : الشَّيءُ المكروه من قول أو فعل

---

(١) انظر : الفراهيدي : العين ، ٧/ ٤٤٧ ، الجوهري : الصحاح ، ٢/ ٧٢٨ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (١٣) . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٥١١-٥١٢ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، مادة : (طير) ، ٢/ ٥٧٤ .

(٣) زَجْرُ الطَّيْر : وهو أَنْ تَرَى طَيْراً أو غراباً فَتَتَطَيَّر ، تقول : ينبغي أنْ يكون كذا فإنْ لم تَرَ شيئًا قُلتَ بالحَدْس فهو عِيافة . ورجل عائف يَتَكَهَّن ، قال : عَثَرَت طيرك أو تعيف . الفراهيدي : العين ، ٢/ ٢٦٠ .

(٤) البارح : هو من البارح ضد السانح . والبارح : ما مرَّ من الطَّير والوحش من يمينك إلى يسارك ، والعرب تتطير به لأنَّهُ لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف . ابن منظور : لسان العرب ، ٢/ ٤١١ .

(٥) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٤/ ١١ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٢/ ٤٥٣-٤٥٤ .

(٦) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٥١٣ .

أو منظر ، وكانوا يتيمَّنون بالسَّوانح[١] ويتطيَّرون بالبوارح فينفِّرون الظباء والطيور ، فإن أخذت ذات اليمين تبرَّكوا به ومضوا في سفرهم وحوائجهم وسموها السوانح ، وإن أخذت ذات الشِّمال رجعوا عن حاجتهم وسفرهم وتشاءموا به وسموها البوارح ، فكانت تصدُّهم في كثيرٍ من الأوقات عن مصالحهم[٢] ؛ لاعتقادهم الباطل أنَّها تجلبُ لهم الضُّر وتمنع عنهم الخير .

وهكذا المشركون لا يغادرهم التشاؤم والتطيُّر ، كما هو حالهم في الأمم السابقة يتطيَّرون حتى بلغ بهم أن تطيَّروا بالأنبياء والصالحين ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣] ، فكانوا يتطيَّرون بموسى عليه السلام ومن آمن معه ويقولون : ما أصابنا هذا إلا بك يا موسى وبمن معك ، وما رأينا شرًا ولا أصابنا حتى رأيناك ، ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، أي : نصيبهم من الخصب والجدب والشرِّ والخير كله من عند الله[٤] .

---

(١) السانح : ما مرَّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك ، والعرب تتيمن به لأنَّهُ أمكن للرمي والصيد . وفي المثل : من لي بالسانح بعد البارح؟ . ابن منظور : لسان العرب ، ٢/ ٤١١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب السلام ، ٤/ ١٧٤٥ .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان (١٣٠-١٣١) .

(٤) انظر : علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) : الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، ت : عادل عبدالموجود وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ، ٢/ ٣٩٨ .

وقال ابن عباس : طائرهم ما قضى الله عليهم وقدَّر لهم ، وفي رواية عنه : إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله ، وقيل : معناه الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار[١] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[٢] .

فالشؤم والطيرة من أفعال المشركين ومن عقائدهم الفاسدة وظنهم السوء ، فهم ينسبون القدر إلى الطير والدواب والبشر ، فيتشاءمون من الطير إذا طار جهة اليسار ، ومن الغراب إذا نعق ، أو من صوت الثعلب ، ومن البوم إذا نعب أو نزل على دار أحدهم ، ويتشاءمون بملاقاة الأعور والأعرج والأكتع والأجدع والمريض ، فإذا عرض لهم شيءٌ من ذلك تطيَّروا منه وتشاءموا به ، فمن كان على سفرٍ رجع عن سفره ، ومن كان يريد أمراً تركه ، معتقداً أنه سيقع له ضرر ، أو سيأتيه الخيبة والخسران ، وهذا كله تعدٍ على قدر الله تعالى وقضائه ، فإنَّه لا يعلم الغيب إلَّا الله تعالى وهو المتصرِّف في هذا الكون وحده ، فلا يقع القدر للعبد إلا بأمر الله عزَّ وجل وعلمه فهو مقدِّر الأقدار سبحانه وتعالى ، وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكرون التطيُّر ويتمدَّحون بتركه[٣] :

---

(١) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٣/ ٢٦٩ .

(٢) سورة النمل ، الآيات : (٤٥-٤٧) .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٤٠٥ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٣٢/ ٥٢ .

وجـدتُ أبـاكَ الخيـر بحـراً بنَجْـدَةٍ   بَنَاهَـا لـهُ مجـداً أشَـمٌّ قُمَـاقِمِ
ولـيس بهيَّـاب إذا شَـدَّ رَحْلَـهُ   يقُـولُ عَـدَاني اليـومَ واقٍ[١] وحَـاتِم[٢]
ولَكِنَّـهُ يمـضِي علـى ذاك مُقْـدِمًا   إذا صَدَّ عـن تِلْـكَ الهَنَاتِ الخُثَارِمِ

وقال آخر[٣] :

وَلَقَـدْ غَـدَوْتُ وكُنْـتُ لا   أَغْـدُو عَلَـى وَاقٍ وَحَـاتِم
فَـإِذَا الأَشَـاءِمُ كالأَيَـامِن   والأيَـامِنُ كالأَشَـاءِمْ

وقال آخر[٤] :

ومـا عـاجلاتُ الطَّيـر تُـدْنِي   نجاحـًا ولا عَـنْ رَيْثِهِنَّ قُصُورُ

وقال لبيد[٥] :

لعمرك ما تدري الضَّوارب بالحَصَى   ولا زاجـراتُ الطَّيـر مـا الله صـانعُ
سـلوهنَّ إن كـذبتموني متـى الفتـى   يذوقُ المنايا أو متى الغَيْثُ واقِعُ

قول الشَّاعر : .. ولا زاجرات الطير ما الله صانع ، فالزَّجر والطِّيرة

---

(١) واقٍ : يعبِّر عن حكاية صوت الغراب . الزبيدي : تاج العروس ، ٣١/ ٤٤٠ .
(٢) الحاتم : هو الغراب الأسود لأَنَّهُ يحوم عندهم بالفراق . انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٣/ ٢٧٩ ، محمد بن موسى الدميري (ت: ٨٠٨هـ) : حياة الحيوان الكبرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ ، ١/ ٣٢٠ .
(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٢ .
(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٢ .
(٥) لبِيد بن ربيعة بن مالك (ت: ٤١هـ) : ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، اعتنى به : حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، ط : ١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، ص : ٥٧ .

عند العلماء بمعنى واحد ؛ لأنَّ أصلها أنَّهم كانوا إذا أرادوا فعل شيءٍ أو تركه طرقوا بالحصى وهو الخطُّ ، وهذا من عمل الكهَّان ، أو زجروا الطَّير حتى يطير ثم يحكموا من حركاته واتجاهاته ما سيحدث ويقع[(١)].
فلبيد ينكر في أبياته على من يخطُّون بالحصى ومن يزجرون الطَّير أنَّ هذه الأفعال لا علاقة لها في صنع الله وأقداره ، وفي البيت الأخير تهكُّم وسخرية ممن يفعل ذلك ، فقد أتى الشاعر فيه بشاهد في قمة الإعجاز حيث يقول : إذا كذبتموني فاسألوا هؤلاء الذين تعتقدون فيهم علم الغيب أو تصرفهم في القدر متى يموت الفتى أو متى ينزل المطر ، وفيه دليل على بطلان الطِّيرة والتَّشاؤم وسفاهة عقل من يتمسك بها وضلاله .

قال النبيِّ ﷺ : « إنَّ العِيَافَةَ[(٢)] ، والطَّرْقَ[(٣)] ، والطِّيرةَ من الجِبْتِ[(٤)] »[(٥)] .

---

(١) انظر : عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) : الحيوان ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ ، ٣/ ٢٠٨ ، د . جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٢/ ٣٦٤ .

(٢) العيافة زجر الطير ، وهو أن ترى طيراً أو غراباً فتتطير . انظر : آمال العمرو : الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية ، ص٤٣٧ .

(٣) من معاني الطرق: الضرب بالحصى ، وهو نوع من التكهن ، وشبيه الخط في الرمل ، انظر : د محمود عبدالرحمن عبدالمنعم : معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، ٢/ ٤٢٧ .

(٤) الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . انظر : الجوهري : الصحاح ، ١/ ٢٤٥ ، (جبت) .

(٥) سنن أبي داود ، ت : شعيب الأرناؤوط ، برقم(٣٩٠٧) ، ٦/ ٥٢ ، وحسَّن إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧٠) .

قال أبوعُبيد : قوله : العيافة يَعْنِي زجر الطير ، والطَّرق : الضَّرب[١] ، وقال الزَّجَّاج : الطَّرق : الخط[٢] وقد نهى النبيُّ ﷺ عن زجر الطَّير فقال : «أَقِرُّوا الطَّيْرَ على مَكِنَاتِها : لا تطيروها ولا تزجروها»[٣] .

قال الشافعيُّ في شرح قوله ﷺ: (أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى مَكِنَاتِها) ، معناه : أنَّ أهل الجاهلية كان الرجلُ يخرج من بيته في حاجته فإن رأى طيراً فِي طريقِه طيَّرَه فإن أخذ ذات اليمين ذهب في حاجته ، وإِن أخذ ذات الشِّمال لم يذهب[٤] ، فأراد : اتركوها على مواضعها ومواقعها ولا تطيِّروها نهيا عن الزجر ، أو على مواضعها الَّتي وضعها الله بها من أنَّها لا تضرُّ ولا تنفع[٥] . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الطِّيرة شركٌ ، الطِّيرة شركٌ ، ثلاثًا»[٦] ، وهذا تحذيرٌ شديد وبيانٌ لحكم

---

(١) أبوعُبيد القاسم بن سلاّم: غريب الحديث ، ٢/ ٤٦ .

(٢) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٩/ ٩ .

(٣) انظر : سنن أبي داود ، ت : شعيب الأرناؤوط ، برقم (٢٨٣٥) ، ٤/ ٤٥٤ ، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٤/ ٣٩١ . والمكنات : بمعنى الأمكنة ، يقال : الناس على أمكنتهم ومساكنهم ، ومعناه أنَّ الرَّجل في الجاهلية كان إذا أراد حاجة أتى طيراً ساقطًا ، أو في وكره فنفره ، فإن طار ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن طار ذات الشمال رجع ، فنهوا عن ذلك ، أي : لا تزجروها ، وأقروها على مواضعها التي جعلها الله لها ، فإنَّها لا تضر ولا تنفع . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ٣٥٠ .

(٤) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٠/ ١٦٢

(٥) الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ٣/ ٣٨١

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب في الطيرة ، برقم (٣٩١٠) ، ٤/ ٢٣٠ ، والترمذي في السير ، باب ما جاء في الطيرة ، برقم (١٦١٤) ، ٤/ ١٦٠ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الطِّيرة أنَّها شِرْك .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليسَ منَّا من تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ له ، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له ، ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقولُ فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمَّد ﷺ»[1] .

كُلُّ هذه الأمور تُطْلَقُ على أنَّها من الكهانة والسِّحر من جهة ما فيها من الشرِّ والفساد ، ومن جهة ما قد يدَّعيه أصحابها من علم الغيب ، فهذه الأشياء من عمل الجاهلية ، وهي من الجبت كما قال عمر رضي الله عنه ، والجبت هو الشيء الذي لا خير فيه[2] أي الشرك .

فمن هنا يتبيَّن لنا أنَّ الطِّيرة معتقد خطير ينافي التوحيد ؛ لأنَّه من إلقاء الشَّيطان وتخويفه ووسوسته ، وغرس الشرك في نفوس النَّاس وتعليق القلوب بغير الله سبحانه وتعالى ، والتكهن بعلم الغيب ، وإنَّما جُعل التطيُّر شركًا لاعتقادهم أنَّ ذلك يجلب ضراً أو يدفع نفعا ، فهم بهذا أشركوه مع الله تعالى في قدره ، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن الطيرة وأرشد إلى التوحيد الصادق بكمال التوكُّل على الله تعالى[3] . وعدم الالتفات إلى التطيُّر أو التشاؤم فقد قال رسول الله ﷺ : «من ردَّته الطِّيرة عن حاجته فَقَدْ أَشْرَكَ» ، قالوا : فما كفارة ذلك؟ قال : «أن تقولوا : اللهم

---

(١) أحمد بن عمرٍو البزَّار : مسند البزار ، برقم (٣٥٧٨) ، ٢/ ٣٠ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : ٥/ ١١٧ : رجاله رجال الصحيح .

(٢) انظر : علي بن حسين بن أحمد فقيهي : التعليقات البازية على كتاب التوحيد ، ١/ ٣٩ .

(٣) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٣ .

لا خير إلاَّ خيرك ، ولا طير إلاَّ طيرك ، ولا إله غيرك»[١] .

وقال ﷺ : «إِذَا رَأَى أحدُكم مَا يَكْرَهُ فليقُل : اللهمَّ لا يأتي بالحَسَنَاتِ إلَّا أنت ، ولا يدفَعُ السيِّئات إلَّا أنت ، ولا حول ولا قُوَّةَ إلَّا بك»[٢].

وأخرج الطبري عن عكرمة قال : كنت عند ابن عباس رضي الله عنه ، فمرَّ طائرٌ فصاح ، فقال رجل : خير خير ، فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خيرٌ ولا شرّ[٣] .

عن معاوية بن الحكم السُّلمي قالَ : قلتُ يا رسول الله! ، أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ ، قَالَ: «فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ» قَالَ قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ قَالَ: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ ، فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ»[٤].

فينبغي للمسلم ألَّا يلتفت إلى الطِّيرة ، وأن يمضي لوجهه الَّذي خرج إليه ، فإنَّ تلك الطِّيرة الَّتي وقعت في النَّفس لا تضر ، فإذا كانت لا تضرُّ أبداً ، فهي لا تصدُّ الإنسان عن حاجته ، فالأمور كلُّها تمضي بأمر الله وتدبيره ، فينبغي الاعتماد على الله وحدَه والتَّوكُّل عليه. لذلك بَيَّن النَّبيُّ ﷺ فساد الطِّيَرة وبُطلانَها مع عدم تأثيرها ، لكي نَعلَمَ أنَّ الله تعالى لَمْ يجعل لنا في الـمُتطَيَّر به سبب نفعٍ أو ضرٍّ حتَّى نخافَه أو نحذرَه .

---

(١) مسند الإمام أحمد ، برقم (٧٠٤٥) ، ٦/ ٤٧١ ، وحسَّنه محققو المسند .

(٢) سنن أبي داود ، ٦/ ٦٢ ، برقم (٣٩١٩) ، وانظر : حافظ بن محمد عبدالله الحكمي : مرويات غزوة الحديبية ، جمع وتخريج ودراسة ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط : ١٤٠٦هـ ، ص : ٢٩٢ .

(٣) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢١٥ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب السَّلام ، برقم (٢٢٢٧) ، ٤/ ١٧٤٨.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَا عَدْوَى[(١)] وَلَا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَةَ[(٢)] وَلَا صَفَرَ[(٣)]»[(٤)] ، فأبْطَل النَّبيُّ ﷺ مُعتقدات الجاهليَّة تلك ، وبيَّنَ لأُمَّته عدم تأثيرها ، فـ«لا» هنا للنَّفيِّ وليست للنَّهي فقط ، يقول ابن القيِّم رحمه الله مُوَجِّهًا لهذا الحديث: «المراد به النَّفيُّ وإبطال تلك المعتقدات الَّتي كانت الجاهليَّة تُعانِيها ، والنَّفيُّ في هذا أبلغ مِنَ النَّهيِّ ، لأنَّ النَّفيَّ يَدلُّ على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنَّهيُّ إنَّما

---

(١) أي : لا يَعْدُو دَاءُ ذِي الدَّاءِ إِلَى غيره بِدُنُوِّهِ منهُ وقربه ، وذلك أنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يَتَحَاشَوْنَ مُجَالَسَةَ أهلِ الأدواءِ ومؤاكلتهم ومشاربتهم ، ويزعمونَ أنَّ دُنُوَّ الصَّحِيحِ منهم يتعدَّى إليه ما بِهِمَ من الدَّاء . محمَّد بن جرير الطَّبري (ت: ٣١٠هـ) : تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار ، ت : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني - القاهرة ، ٣/ ٣٥ .

(٢) الهَامَة : اسم طائر كانوا يَتَشَاءَمُون بِه ، وهي من طير اللَّيل ، وقيل : هي البُومَةُ ، وقيل : غير ذلك.. . انظر : ابن الأثير : النهِّاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٢٨٣ .

(٣) كانت العرب تزعم أنَّ في البطن حَيَّةٌ يُقال لها الصَّفَر ، تُصيب الإنسان إذا جاع وتُؤذِيه ، وأنَّها تُعدي ، فأبطل الإسلام ذلك ، فتكون من باب عطف الخاص على العام ، وخصَّه بالذِّكر لاشتهاره عندهم بالعدوى ، وقِيل بل المراد بصفر شهرٌ ، ثُمَّ اختلفُوا في تفسيره على قولين : **أحدهما** : أنَّ المراد نفي ما كان أهل الجاهليَّة يفعلونه في النَّسيء فكانوا يُحلُّون المحرَّم ويُحرِّمُون صَفَر مكانه ، وهذا قول مالك . **والثَّاني** : أنَّ المراد أنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يتشاءمون بصفر ويقولون : إنَّه شهرٌ مشؤوم فأبطل النَّبيُّ ﷺ ذلك ، وهذا حكاه أبوداود عن محمد بن راشد المكحولي عمَّن سمعه يقول ذلك ، ولعلَّ هذا القول أشبه الأقوال قاله ابن رجب ، وكثيرٌ من الجهال يتشاءم بصفر ، وربَّما ينهى عن السَّفر فيه ، والتَّشاؤم بصفر هو من جنس الطِّيرة المنهيِّ عنها . انظر : ابن الأثير : النهِّاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٣٥ ، وابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) : لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، دار ابن حزم ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م ، ص : ٧٤ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الطِّب ، باب لا هَامَةَ ، ٥/ ٢١٧١ ، برقم (٥٤٢٥) .

يدل على المنع منه -فقط-»[(١)] ، وهذا المعنى هو الَّذي دلَّتْ عليه تَتِمة الحديث السَّابق في الرِّواية الأُخرى الَّتي في صحيح البخاريِّ ، وهي أنَّ أعرابيًا استشكل نَفْيَ النَّبيِّ ﷺ للعدوَى قائلًا: يا رسول الله! ، فما بال الإبل ، تكون في الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ[(٢)] ، فيُخالطُها البعير الأجرب فَيُجْرِبُهَا؟ فقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ»[(٣)] ، يقول ابن حجر رحمه الله مُعلِّقًا على ذلك: «قوله (فَيُجْرِبُهَا) بناءً على ما كانوا يعتقدون مِنَ العدوَى ، أيْ يكون سببًا لوقوع الجَرَب بها ، وهذا مِنْ أوهام الجهَّال ، كانوا يعتقدون أنَّ المريض إذا دخل في الأصحَّاء أمرَضَهُم ، فَنَفى الشَّارع ذلك وأَبْطَلَهُ ، فلمَّا أَورَد الأعرابيُّ الشُّبهةَ رَدَّ عليه النَّبيُّ ﷺ بقوله (فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟!) ، وهو جوابٌ في غاية البلاغة والرَّشاقة ، وحاصله مِنْ أين جاء الجرب للَّذي أَعدَى بزعمهم؟ فإنْ أُجيب مِنْ بعيرٍ آخر لزم التَّسلسُلَ ، أو سببٌ آخرٌ فليُفصَح به! فإنْ أُجيب بأنَّ الَّذي فَعَلَه في الأوَّل هو الَّذي فَعلَه في الثَّاني ثبتَ المدَّعَى ، وهو أنَّ الَّذي فَعَل بالجميع ذلك هو الله تعالى الخالق القادر على كل شيءٍ سبحانه[(٤)]. فقَولُ النَّبيِّ ﷺ للأعرابيِّ: (فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟!) يُريد به أنَّ أوَّلَ بعيرٍ جَرُبَ منها كان جَرَبُهُ بقضاء الله وقدره ، لَا بالعدوَى ، فكذلك ما ظهر بسائر الإبل مِنْ

---

(١) ابن القيِّم : مفتاح دار السعادة ، ٢/ ٢٣٤.

(٢) الظِّبَاء -بكسر المعجمة بعدها مُوَحَّدَة وبالمَدِّ-: جمع ظَبْيٍ ، وهو الغزال ، وشَبَّه بها الإبل هَهُنا في النَّشاط والقُوَّة والسَّلامة من الدَّاء . ابن منظور : لسان العرب ، ١٥/ ٢٣ ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري ، ١٠/ ٢٤١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الطِّب ، باب لا هامةَ ، برقم (٥٤٣٧) ، ٥/ ٢١٧٧ .

(٤) انظر : ابن حجر : فتح الباري ، ١٠/ ٢٤١-٢٤٢ .

بَعد[١] ، وبهذا المفهوم جاء التَّصريح في الرِّواية الأُخرى الَّتي قال فيها عليه الصَّلاة والسَّلام: «لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا -قالها ثلاث-»[٢] ، وكذلك حديث عليٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَا يُعْدِي صَحِيحًا سَقِيمٌ»[٣] ، وهذا ما فَهِمَه صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم من تلك الأحاديث ، وبها عمِلُوا ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يُبطل العدوى وينفي تحقُّقَها استنادًا على نَفْيِ النَّبيِّ ﷺ لها ، فقد جاء في صحيح البخاريِّ[٤] أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما اشترى إبِلًا مِنْ شَرِيكٍ لنَوَّاس[٥] ، وتلك الإبل كانت

---

(١) انظر: محيي السُّنة ، الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ) : شرح السُّنَّة ، ت: شعيب الأرناؤوط ، محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق- بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، كتاب الطِّبِّ والرُّقى ، باب ما يُكره مِنَ الطِّيرة واستحباب الفأل ، برقم : (٣٢٤٨) ، ١٢/ ١٦٩ .

(٢) سنن التِّرمذي ، أبواب القَدَرِ عن رسول الله ﷺ ، بابُ ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، برقم : (٢١٤٣) ، ٤/ ٤٥٠ ، ومسند الإمام أحمد ، برقم (٤١٩٨) ، ٧/ ٢٥٢ ، وصحَّحه الألباني . انظر : محمَّد ناصر الدِّين الألباني : السِّلسلة الصَّحيحة ، برقم (١١٥٢) ، ٣/ ١٤٢ .

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي ، برقم (٤٣١) ، ١/ ٣٤٠ ، والطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، برقم (٧٠٥٢) ، ٤/ ٣٠٧ ، واللَّفظ له ؛ قال عنه الهيثمي : رواه أبويعلى ، وفيه ثعلبة بن يزيد الحِمَّانِيّ ، وثَّقهُ النَّسائي وفيه ضعف ، وبقيَّة رجاله ثقات . انظر : نور الدين الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، برقم (٨٣٩١) ، ٥/ ١٠١ . وثعلبة بن يزيد ذاك قال عنه الحافظ ابن حجر في التَّقريب بأنَّه : صدوق . انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، برقم (٨٤٧) ، ص١٣٤ .

(٤) كتاب البُيُوعِ ، باب شراءِ الإِبِلِ الهِيمِ أو الأجربِ الهَائِم ، برقم (١٩٩٣) ، ٢/ ٧٤٠ .

(٥) قال ابن حجر : نَوَّاس بفتح النُّون والتَّشديد للأكثر ، وللقابسي بالكسر والتَّخفيف -نِوَاس- ، وللكشميهني كالأوَّل لكن بزيادة ياء النَّسب -نَوَّاسِي- . ابن حجر : فتح =

هِيـمًا[١] ، فلمَّا عَلِمَ نَوَّاسٌ بذلك أَقْبَلَ على ابن عمر قائِلًا : إِنَّ شَرِيكِي باعكَ إِبِلًا هِيمًا ولَمْ يَعْرِفْكَ ، قال : فَاسْتَقِهَا ، قال : فَلَمَّا ذَهَبَ يَسْتَاقُهَا ، قال له ابن عمر : دَعْهَا رَضِينَا بِقَضَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : «لا عَدْوَى» ، أي رضيتُ بحُكمِه حيث حَكَمَ أَلَّا عدوَى ولا طيرة[٢] ، ومثله كذلك الصَّحابيُّ عُميرِ بنِ سعدٍ الأنصاريِّ[٣] رضي الله عنه ، فقد قال أبوطلحة

=

الباري ، ٤/ ٣٢٢ ، ومِمَّا ذكره الحميديُّ في مسنده عقب ذكره لهذا الحديث : قال عمرو -ابن دينار- : وكان نَوَّاسٌ يُجَالِسُ ابن عمر ، وكان يُضْحِكُه ، فقال يومًا : وَدِدْتُ أَنَّ لِي أَبا قُبَيْسٍ ذَهَبًا ، فقال له ابن عمر : ما تصنعُ به؟ قال : أموت عليه ، فضحك ابن عمر . انظر : مسند الحميدي ، ١/ ٥٦١ .

(١) أي : مِرَاضًا ، جمع أَهْيَمَ ، وهو الَّذي أصابه الهِيَامُ ، وهو داءٌ يُكسِبُها العطش فَتَمصُّ الماءَ مَصًّا ولا تروى . ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٢٨٩.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ، ٤/ ٣٢٢ .

(٣) عُمَير بن سعد بن عُبَيْد بن النُّعمان الأنصاري الأوسي . كان يُقال له : نَسِيجُ وَحْدِه ، غلب ذلك عليه وعُرِف به ، صَحِبَ رسولَ الله ﷺ ، وهو الَّذي رفع إلى النَّبيِّ ﷺ كلام الجلاس بن سُويد ، فقد كانت أُمُّ عُمَيْرِ بنِ سعدٍ عند الجلاسِ بنِ سويدٍ- كان عُمَيرٌ يتيمًا في حجره - ، فقال الجلاسُ في غزوة تبوك : إن كان ما يقولُ محمَّد حقًّا لنحنُ شرٌّ من الحمير ، فسمعها عميرٌ فقال : فاشهد أَنَّهُ صادق ، وأَنَّك شرٌّ من الحمار . فقال له الجلاس : اكتمها عليَّ يا بُنيَّ . فقال : لا والله ، إِنِّي لأَخْشَى إن لم أرفعها إلى النَّبيِّ ﷺ أن ينزلَ القرآنُ ، وأن أخلط بخطيئة ، ولنعمَ الأب هو لِي . ونمى بها إلى رسول اللهِ ﷺ لم يكتمها ، فدعا رسول اللهِ ﷺ الجلاس فعرَّفه بما قال عمير ، فحلف الجلاس أنه ما قال . فنزلت : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [التَّوبة : ٧٤] ، فقال الجلاس : أتوب إلى الله ، وكان قد آلى أَلَّا يُنفق على عمير ، فراجع النَّفقة عليه توبةً منه . فما زال عمير في علياء بعد . وشهد عمير فتوح الشام ، واستعمله عمر على حمص إلى أن مات . انظر : ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٣/ ١٢١٥ ، ابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٤/ ٥٩٦ .

الخولاني[١] : أتينا عُمير بن سعدٍ رضي الله عنه في نَفَرٍ من أهل فلسطين ، فقعدنا على دُكَّانٍ له عظِيم في داره ، فقال لغلامه : يا غُلَام ، أورد الخيل ، قال : وفي الدَّارِ تَوْرٌ[٢] مِنْ حجارةٍ ، قال : فأوردها ، فقال : أين فُلَانَةُ[٣]؟ قال : هي جَرِبَةٌ تَقْطُرُ دَمًا ، أو قال : تقطرُ ماءً -شكَّ أبوإسحاق- ، قال : أوردها ، فقال أحد القوم : إِذًا تَجْرَبُ الْخَيْلُ كُلُّهَا ، فأجابه عُمير بن سعدٍ قائلًا : أوردها ، فإِنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : «لَا عَدْوَى ، ولا طِيَرَةَ ، ولا هَامَةَ ، ألم تر إلى البعير من الإبل كيف يكون بالصَّحراء ، ثُمَّ يُصبح في كِرْكِرَتِهِ[٤] أو في مَرَاقِّهِ[٥] نُكْتَةٌ لَمْ تكن قبل ذلك ، فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّل؟»[٦] ، إلى غير ذلك مِنَ الآثار المرويَّة عن صحابة رسول الله ﷺ

---

(١) قيل اسمه سفيان بن عبدالله ، وهو مقبول . انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، برقم (٨١٨٩) ، ص : ٦٥٢ .

(٢) تَوْرٌ : التَّوْرُ من الأواني : مُذَكَّر ، قيل : هو عربيٌّ ، وقيل : دخيلٌ . قال الأزهري : التَّوْرُ إناءٌ معروفٌ تُذَكِّرُهُ العرب تشربُ فيه . انظر : الأزهري : تهذيب اللُّغة ، ١٤/ ٢٢١ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٩٦ ، والمراد به هنا -والله أعلم- أنَّ هذا التَّورَ من الحجارة كان مُعَدًّا لتلك الخيل لِتَرِدَ عليه حتَّى تشربَ منه .

(٣) قال عُبيد الله بن محمَّد بن حفص : سَمَّى الفَرَس فُلانةً لأنَّها أُنثى يريدها باسمها . أبونعيم : حلية الأولياء ، ١/ ٢٥٠ .

(٤) كِرْكِرَتِهِ - بِالكَسْرِ-: زَوْرُ البَعِير الَّذي إِذَا بَرَكَ أَصَابَ الأرض ، وهي ناتئةٌ عن جسمه كالقُرْصَة ، وجمعها : كَرَاكِر . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤/ ١٦٦ .

(٥) المَرَاقُّ : ما سَفَل من البَطْنِ فما تَحْتَهُ من المواضع التي تَرِقُّ جُلُودُها ، واحدها مَرَقٌّ . انظر : ابن الأثير : النِّهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٥٢ .

(٦) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة ، برقم (٥٣٨٧) ، مسند أبي يعلى الموصلي ، برقم (١٥٨٠) ، ٣/ ١٥٢ ، والطَّبراني : المعجم الكبير ، برقم (٧٠٥٢) ، ١٧/ ٥٤ ، وأبونُعيم : حلية الأولياء ، ١/ ٢٥٠ ، وابن عبد البر : التَّمهيد لما في الموطَّأ من =

الدَّالَّة على نفي العدوى .

وقد وَرَدَتْ بعض الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ قد يُفهم مِنْ ظاهرها أَنَّها تُعارض منطوقَ الأحاديث السَّابقة الدَّالة على عموم نَفْيِ النَّبيِّ ﷺ للعدوى وإبطالها ، كحديث : «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[1] ، وحديث : «إذا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ ، وإذا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِأَرْضٍ فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[2] ، وحديث : «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»[3] وما جاء في معناها ، فإنَّه في الحقيقة لا تعارضَ ولا تَضَادَّ بينها ،

=

المعاني والأسانيد ، ٢٤/ ١٩٦ ، وقال عنه الهيثمي : رواه أبويعلى ، والطَّبراني باختصار ، وفيه عيسى بن سنانٍ الحنفي ، وثَّقهُ ابن حبان وغيره ، وضعَّفه أحمد وغيره ، وبقيَّة رجاله ثقات . انظر : نور الدين الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، برقم (٨٣٩٢) ، ٥/ ١٠١-١٠٢ . وعيسى بن سنانٍ ذاك قال عنه الحافظ ابن حجر في التَّقريب بأنه : ليِّن الحديث . انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، برقم (٥٢٩٥) ، ص : ٤٣٨ .

(١) صحيح البخاري -تعليقًا- ، كتاب الطِّب ، باب لا هامةَ ، برقم (٥٤٣٧) ، ٥/ ٢١٧٧ ، وصحيح مسلم ، كتاب السلام ، برقم (٢٢٢١) ، ٤/ ١٧٤٣ واللَّفظ له .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطِّب ، باب ما يُذكر في الطاعون ، برقم (٥٣٩٦) ، ٥/ ٢١٦٣ ، ومسند الإمام أحمد ، برقم (٢١٨١١) ، ٣٦/ ١٣٩ ، واللَّفظ له .

(٣) هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه -تعليقًا ، ولم يصله في أيِّ موضع من كتابه- ، كتاب الطِّب ، باب الجُذَام ، برقم (٥٣٨٠) ، ٥/ ٢١٥٨ ، فقال : وقال عفَّان -أي ابن مسلم الصَّفَّار- ، انظر : الحميدي : الجمع بين الصحيحين ، ٣/ ٧٨ ، وعبدالحق الإشبيلي : الجمع بين الصحيحين ، ٣/ ٣٨٠ ، وقد رُوي هذا الحديث من غير هذا الطريق بأوجهٍ مختلفةٍ متعدِّدةٍ كلُّها ضعيفة . انظر : مصنَّف ابن أبي شيبة ، برقم (٢٤٥٤٣) ، ٥/ ١٤٢ ، ومسند أحمد ، برقم (٩٧٢٢) ، ١٥/ ٤٤٩ ، والبخاري : التاريخ الأوسط ، برقم (١٨٧٧) ، ٢/ ٨١ -ومن طريقه

=

سيَّما وأنَّها قد خرجَت مِنْ مشكاة مَنْ أُوتِيَ جوامع الكلم صلواتُ ربِّي وسلامه عليه ، فهو الَّذي بُعِثَ لِيُصحِّح عقائدَ النَّاس ويحمي جنابَ التوحيد بسدِّ كلِّ الذَّرائع الـمُوصِلَة إلى الشرك ، ومن ركائز تلك العقيدة الَّتي زرعها النَّبيُّ ﷺ في قلوب أصحابه : عبادةُ التَّوكُّل على الله وحده ، حتَّى صارت قلوبهم مُعتمِدةً عليه وحده سبحانه في استجلاب المنافع ودفع المضارِّ ، إذ هو النَّافع الضَّار عز وجلَّ ، فبعد أن كان النَّاسُ في جاهليَّتهم يعتقدون الضُّر والنَّفع في مُغيَّباتٍ يفتقدونها أو جماداتٍ يمتلكونها ، تارةً يتشاءمون بها ومَرَّةً باليُمْنِ فَرِحِين بما ظنُّوه أنَّه جاءهم منها ، لذلك كرِهَها النَّبيُّ ﷺ وأبغضَها[١] ، واشتدت محاربته ﷺ لها ، فقد نها أُمَّته من اعتقادها ، حيث قال : «الطِّيَرَة شِرْكٌ» ، وقال : «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[٢] ، وفي رواية : «فَقَدْ قَارَفَ

=

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، برقم (٧٣٢) ، ٣/ ٥٢٩- ، وأبونعيم الأصبهاني : الطِّب النَّبوي ، باب الجُذام وعلاجه ، برقم (٢٨٨) ، ١/ ٣٥٣ ، والخطيب البغدادي : المُتَّفِق والمُفترق ، ٢/ ١٠٨٦ ، والبيهقي : السُّنن الكبرى ، برقم (١٤٢٤٦) ، ٧/ ٣٥٦ ، وغيرهم . هذا ، وقد يسر الله لي استيفاء جمع طرق هذا الحديث ودراستها مع الكلام عن شيءٍ من فقهه ومختلف الحديث الوارد فيه ضمن كتابةٍ مستقلةٍ أسميتها : حديث «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ» روايةً ودرايةً» . أسأل الله أن يُيسِّر طبعها والانتفاع بها . .

(١) قالت عائشة رضي الله عنها : كان النَّبيُّ ﷺ يُبْغِضُ الطِّيَرَةَ ويكرهُها . الطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، كتاب الكراهة ، باب الرَّجل يكُون بِه الدَّاء هل يُجتنَب أَمْ لَا؟ برقم (٧٠٨٣) ، ٤/ ٣١٢ ، وانظر : ابن حجر العَسقلاني : المطالب العالية ، برقم (٢٤٩٦) ، ١١/ ١٩١ .

(٢) مسند أحمد ، برقم (٧٠٤٥) ، ١١/ ٦٣٠ ، والطَّبراني : المعجم الكبير ، برقم (١٤٦٢٢) ، ١٤/ ٣٥ . قال عنه مُحقِّقُو المسند : حديث حسن .

الشِّرْكَ»[١] ، ثُمَّ بعد ذلك سَعَى ﷺ في سدِّ الذرائع الـمُوصِلة إلى الطِّيرة -الشرك- ومن تلك الذرائع التي كانت عند أهل الجاهلية : التَّشاؤُم بالمريض إذا خالطهم مخافة أن يُعديهم بداءه ، فيصير الصحيح منهم مريضـًا بسببه ، لذلك أبطل النَّبيُّ ﷺ هذا المعتقدَ ابتداءً بنفيه في قوله : «لا عَدْوَى» ، ثُمَّ بعد ذلك سدَّ الذرائع الـمُوصِلَةَ إليه وإلى تطير الأصحاء بالمرضى في قوله ﷺ : «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ» وما نَحَى نحوَها مِنَ الأحاديث السابقة ؛ هذا من حيث الإجمال ، مع التَّنبيه إلى أنَّ هناك مسالك أُخرى[٢] لأهل العلم في دفع هذا التَّعارض الـمُتَوَهَّم بين الأحاديث السَّابقة ، إلا أنَّ أقواها والراجح بينها -إن شاء الله- ما أسلفناه ، سيَّما وأنَّ بعضها -المسالك الأخرى- لها تعلُّقٌ بإثبات اعتقادٍ فاسدٍ لازمَه أهل الجاهليَّة في جاهليَّتِهم ، حتَّى تخوَّف النَّبيُّ ﷺ مِنْ سَرَيانه في أهل الإسلام فقال ﷺ : « أربعٌ في أُمَّتي من أمرِ الجاهليَّة لن يدعهُنَّ النَّاسُ -وفي رواية : لا يَتْرُكُهُنَّ أهلُ الإسلامِ[٣]- : النِّيَاحَةُ ، والطَّعْنُ في الأحسابِ ، والعدوى -أجربَ بعيرٌ فأجربَ مئةَ بَعِيرٍ- ، من

---

(١) ابن وهب : الجامع في الحديث لابن وهب ، برقم (٦٥٦) ، ص : ٧٤٣ .

(٢) اكتفيتُ بنقل ما ترجَّح لي منها ، وذلك أنَّ مقام هذا البحث لا يحتمل حشوَ جُلِّ الخلافات فيها ، إذ هذا ليس مِنْ مُتطلَّباتِه ولا مظانِّه ، ولمزيدٍ من تفاصيله فليُراجَع كلام الإمام ابن القيِّم في آخر كتابه مفتاح دار السَّعادة ، ٣/ ١٥٧٤- ١٦٠١ ، فقد أفاض في نقل مسالك أهل العلم في دفع توهُّم التَّعارض بينها ، وكذلك كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني الـمُسمَّى فتح الباري ، ١٠/ ١٥٩- ١٦٢ ، فقد وصل بها إلى ستَّة مسالك ، علمًا بأنَّه كان يُرجِّح المسلك السَّادس منها -نفيُ العدوَى مُطلقًا- ، وهو المسلك الذي أَثْبَتُّه في صلب المتن .

(٣) مسند أحمد ، برقم (٧٥٦٠) ، ١٢/ ٥١٩ .

أجربَ البعيرَ الأوَّل؟ والأنواءُ ، مُطِرْنَا بِنوءِ كذا وكذا»[١] ، وسأذكر شيئًا مِنْ أسباب هذا التَّرجيح مِنْ خلال نقل كلام أئمَّة هذا الدِّين من الفقهاء والمحدثين على تلك الأحاديث وتوجيهاتهم لها فيما سيأتي :

أوَّلًا : حديث «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ[٢]» ، فقد بوَّب له ابن خزيمة[٣] بترجمةٍ : «ذِكر خَبَرٍ غلط في معناه بعض العلماء فأثبت العدوَى الَّتي نفاها النَّبيُّ ﷺ»[٤] ، ثُمَّ أعقبه ترجمةً أُخرى بعدها يقول فيها : «الدَّليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يُثبت العدوَى بهذا القَول» أورد تحتها أحاديث عمُوم نَفْيِ النَّبيِّ ﷺ للعدوَى وإبطاله لها ، وعلى هذا الفقه سَار جَمعٌ كبير مِن الأئمَّة ، فهذا الحافظ ابن حبان يعلِّق علي هذا الحديث قائلًا : «ليس بين الخبرَيْنِ تَضَادٌّ -أي بين هذا الحديث وحديث

---

(١) سنن التِّرمذي ، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في كراهية النَّوح ، برقم (١٠٠١) ، ٣/ ٣١٦ ، وقال عنه : هذا حديث حسن .

(٢) قال ابن منظور : «المُصِحُّ : الَّذي صحَّت ماشيَته من الأمراض والعاهات ، أي لا يُورِد مَنْ إبلُه مرضَى على مَنْ إبلُه صِحاحٌ ويسقِيها معها ، كأنَّه كَرِه ذلك أنَّ يظهر بمال المُصحِّ ما ظهَر بمال المُمرِض ، فيظنَّ أنَّها أَعدَتها فيَأثم بذلك» . لسان العرب ، ٢/ ٥٠٧ .

(٣) إمام الأئمَّة ابن خزيمة (ت: ٣١١هـ) الذي كان يقول : لا أعرِفُ أنَّهُ رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ حديثان -بإسنادَينِ صحِيحَين- مُتَضَادَّيْنِ ، فمن كان عنده فليأتني به لأُؤَلِّفَ بَينهما . انظر : ابن الصَّلاح (ت: ٦٤٣ هـ) : معرفة أنواع علم الحديث ، ت : عبداللطيف الهميم ، ماهر ياسين الفحل ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ص : ٣٩١ .

(٤) نقله ابن حجر العسقلاني عن ابن خزيمة من كتاب «التَّوكُّل» . انظر : ابن حجر العسقلاني : بذل الماعون في فضل الطاعون ، ت : أحمد عصام عبد القادر الكاتب ، دار العاصمة - الرِّياض ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ٢٩٤ .

لا عدوَى- ، ولا أحدُهما ناسخٌ للآخرِ ، ولكنَّ قوله ﷺ : «لا عَدْوَى» سُنَّةٌ تُستعملُ على العُمُومِ ، وقوله ﷺ : «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ» يُراد بِه الاعتقادُ في استعمال العدوَى أَنْ تَضُرَّ بأخيه في القصد ، وإنْ لَمْ تضرَّ العدوَى»[١] ، وبنحو هذا كان توجيه العلَّامة الخطَّابيِّ[٢] عندما قال : «وليس المعنى في النَّهي عن هذا الصَّنِيع -أي إيراد المُمرض على المُصحِّ- من أنَّ المرضَى تُعدِي الصِّحَاح ، ولكنَّ الصِّحاح إذا مرضت -بإذن الله وتقدِيره- ، وقع في نفس صاحبه أنَّ ذلك إنَّما كان من قبل العدوى ، فَيَفتنَه ذلك ويُشكِّكُه في أمرِه ، فأَمر باجتنابه والمباعدة عنه لهذا المعنى»[٣] .

وقد قال ابن رشد المالكي : «نهى ﷺ أن يحل الممرض -الذي إبله مرضى- على المصح -الذي إبله صحاح- مخافة أن تمرض إبله بقدر الله عز وجل ، فيظن أن ذلك بسبب ورود الإبل المراض عليها وأنها هي التي أعدتها»[٤] ، وبمثل ذلك جاء التوجيه من نجم الدين الطوفي لهذه الأحاديث في شرحه لمختصر الروضة ، فقد قال : «فلم ينه ﷺ فيه عن إيراد الممرض على المصح لكونه يعدي الإبل ، بل خشية أن يحدث الله

---

(١) انظر : ابن حبَّان : صحيح ابن حبان ، لإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لابن بلبان ، ١٣/ ٤٨٤ .

(٢) حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستيّ ، فقيه مُحدِّث ، من أهل بُسْت ، من نسل زيد بن الخطاب -أخو عمر بن الخطاب- ، له مصنفاتٌ كثيرةٌ ، منها : معالم السنن ، شرَح فيه سنن أبي داود ، وأعلام السُّنن ، شرح به صحيح البخاري ، وإصلاح غلط المحدثين ، توفيَّ سنة ٣٨٨ هـ . الزركلي : الأعلام ، ٢/ ٢٧٣ .

(٣) الخطَّابي : معالم السُّنن ، ٢/ ٢٧٣ .

(٤) ابن رشد -الجد-: البيان والتحصيل ، ١٨/ ٢٦٢.

تعالى في إبل المصح مرضًا ، فيعتقد أنه من العدوى ، فيكون بذلك مشركا مع الله فاعلا غيره»[١] .

وكذلك كان الجمع بين الحديثين عند العيني ، فقد قال : «إنَّ نَهيَ النَّبيِّ ﷺ أن يَسقِي إبلَه الـمُمرِض مع إبلِه الـمُصحَّ لا لأجل العدوى ، ولكن لأنَّ الصِّحاح ربَّما عَرَض لها مرضٌ ، فوقع في نفس صاحبها أنَّ ذلك من قبيل العدوَى فَتَفتِنُه وتُشكِّكُه ، فأُمر باجتنابه والبُعد عنه ، وقد يُحتمل أنْ يكون ذلك مِنْ قَبِيل الماء والمرعَى تَستَوبِله الماشيَة فتمرض ، فإذا شاركها في ذلك غيرها أصابه مثل ذلك الدَّاء ، فكانوا لجهلهم يُسمُّونَه عدوى ، وإنَّما هو فعل الله تعالى»[٢] .

وقد سبقهم لهذا التوجيه الإمام أبوعبيد القاسم بن سلَّام[٣] القائل : «يعني الرَّجل يُصِيب إبِله الجرب أو الدَّاء فقال : لا يُوردنَّها على مُصحٍّ وهو الَّذي إبِلُه وماشيتُه صِحاحٌ بريئةٌ من العاهة ، وقد كان بعض النَّاس يحملُ هذا الحديث على أنَّ النَّهي فيه لِلمَخَافَة على الصَّحيحة مِنْ ذوات العاهة أنْ تُعْدِيَها ، وهذا شرُّ ما حُمِل الحديث عليه ؛ لأنَّهُ رخصة في

(١) الطوفي : شرح مختصر الروضة ، ٢/ ٦٧٦-٦٧٧.

(٢) محمود بن أحمد بدر الدِّين العينى الحنفِى (ت: ٨٥٥هـ) : نُخب الأفكار في تنقِيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار ، ت : أبوتميم ياسر بن إبراهيم ، وزارة الأوقاف ، قطر ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م ، ١٤/ ٧٥-٧٦ .

(٣) القاسم بن سلَّام -بالتَّشديد- الهروي الأزدي الخزاعي ، بالولاء ، الخراساني البغدادي ، ثقةٌ فاضلٌ مصنف ، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه ، وُلِدَ بهراة وتعلَّم بها ثمَّ ارتحل إلى بغداد فسمع النَّاس مِنْ كُتبه . وحجَّ فتوفي بمكَّة سنة (٢٢٤هـ) . انظر : ابن حجر : تقريب التَّهذيب ، ص : ٤٥٠ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ١٧٦ .

التَّطَيُّر ، وكيف ينهى النبيُّ ﷺ عن هذا التَّطيُّر وهو يقول : «الطِّيَرَة شِرْكٌ» ، ويقول : «لا عَدْوَى وَلَا هَامة» في آثارٍ عنه كثيرة . قال : ولكن وجهه عندي -والله أعلم- أَنَّهُ خاف أنْ ينزل بِهذه الصِّحاح مِنْ أمر الله ما نزل بِتلك فيَظنُّ المصحُّ أنَّ تلك أَعْدَتْهَا فيَأثمَ في ذلك»(١) .

إذاً عِلَّة النَّهي عن إيراد الـمُمرِض على الـمُصِحِّ هي : حسم المادَّة وسدُّ الذريعة الموصلة إلى الطيرة واعتقاد العدوَى الَّتي جاء الحديث بعموم إبطالها ، يقول الإمام الطحاوي : «النهي في قوله ﷺ لا يورد ممرض على مصح ، هو للطيرة لا الإعداء فنهاهم رسول الله ﷺ في هذه كلِّها عن الأسباب التي من أجلها يتطيرون»(٢) .

وقال القرطبي : «وإنَّما نهى ﷺ عن إيراد الـمُمرِض على الـمُصحِّ مخافةَ الوُقوع فيما وقع فيه أهل الجاهليَّة من اعتقاد ذلك -اعتقاد العدوى- أو مخافة تشويش النُّفوس وتأثير الأوهام»(٣) . والله تعالى أعلم .

ثانيًا : حديث : «إذا سمعتُم بالطَّاعُون بِأرض فلا تدخُلُوا عليه ، وإذا وقعَ وأنتم بأرض فلا تخرُجُوا فرارًا منه» ، فليس فيه ما يُضَادُّ عموم قوله ﷺ : «لا عَدْوَى» ، فالأمور كلُّها بتدبير الله عز وجل ، حتَّى إنَّ الصَّحابة

---

(١) أبوعُبيد القاسم بن سلاّم (ت: ٢٢٤هـ) : غريب الحديث ، ت : د. محمد عبد المعيد خان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيد باد - الدكن ، ط : ١ ، ١٣٨٤هـ-١٩٨٤م ، ٢/ ٢٢٢ ، وانظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٢١-٢٢٢ .

(٢) انظر : الطحاوي : شرح معاني الآثار ، ٤/ ٣١٠ .

(٣) أبوالعباس القرطبي : الـمُفهم لما أشكل مِنْ تلخيص كتاب مسلم ، ٥/ ٦٢٤ .

رضي الله عنهم كانوا يُحذِّرون مِنْ أن يُفهم حديث الطَّاعون على إثبات العدوى الَّتي أبطلها رسول الله ﷺ ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل أبوموسى الأشعري رضي الله عنه يقول : «إِنَّ هذا الطَّاعُون قد وقعَ في أهلي ، فمن شاء منكم أنْ يتنزَّهَ فَليَتنزَّه ، واحذرُوا اثنتَيْن ، أن يقول قائل : خرج خارجٌ فسَلِم ، وجَلَس جالسٌ فأُصِيب ، لو كنتُ خرجتُ لَسلِمتُ كما سَلِمَ آلُ فُلَانٍ ، أو يقُول قائل : لو كنتُ جلستُ لأُصِبتُ كما أُصِيبَ آلُ فلان»[1] .

وبمثل ذلك كان يُقرِّر الصحابيُّ الجليل عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه في قوله : «الطَّاعُون فِتنةٌ على الْمُقِيم والفَارّ ، أما الفارُّ فيقول : فَرَرْتُ فَنَجَوْتُ ، وأمَّا الْمُقِيمُ فيقول : أَقَمْتُ فَمِتُّ ، وكَذَبَا ، فَرَّ مَنْ لَمْ يَجِئ أَجَلُهُ ، وأَقَامَ مَنْ جَاءَ أَجَلُهُ»[2] .

قال رسول اللهِ ﷺ : « الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُون ، كالفَارِّ من الزَّحْفِ»[3] مخافة الموت . قال تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ

---

(١) الطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، برقم (٧٠٣٩) ، ٤/ ٣٠٥ ، أبوسعيد الهيثم بن كُليب الشَّاشي (ت: ٣٣٥هـ) : المسند للشاشي ، ت : محفوظ الرحمن زين الله ، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤١٠ هـ ، برقم (٦١٨) ، ٢/ ٩٣ ، وهذا الأثر حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح . انظر : فتح الباري ، ١٠/ ٢٤٧ .

(٢) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ت : مصطفى بن أحمد العلوي ومن معه ، وزارة الأوقاف ، المغرب ، ١٣٨٧هـ ، ٨/ ٣٧٢ ، وانظر : ابن بطال : شرح صحيح البخارى ، ٩/ ٤٢٦ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٣/ ٢٣٤ .

(٣) مسند أحمد ، برقم (٢٦١٨٣) ، ٤٣/ ٢٥٧ ، وقال عنه المنذري : إسناده حسن . انظر : العظيم آبادي ، عون المعبود ، ٨/ ٦٣ . قال ابن حجر : إسناده صالح . فتح الباري ١٠/ ١٨٨ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، برقم (١٢٩٢) .

مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] بل إنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم اشتدَّ نكيرُهم على من فُهِم مِنْ كلامه إثبات العدوى بالطَّاعون ، ففي زمن طاعُون عمواس خطبَ الصَّحابيُّ الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه في النَّاس – وهو أمير الشَّامِ يومئذٍ– قائلًا : تفرَّقُوا من هذا الرِّجز –أي الطَّاعون– في هذه الجبال وهذه الأودية –وفي رواية : إنَّ هذا رجسٌ مثل السَّيل ، من يُنكِّبْهُ أخطأَه ، ومثل النَّار من يَنكِّبهَا أخطأته ، ومَنْ أقام أحرقَته وآذَته[٢]– ، فردَّ عليه شُرَحْبيل بن حَسَنة[٣] رضي الله عنه فقال : قد صحِبتُ رسول اللهِ ﷺ فسمعته يقول : إنَّها رحمةُ ربِّكم ، ودعوة نبِيِّكم ، وموت الصَّالِحين قبلكم ، فاجتَمِعُوا له ، ولا تفرَّقُوا عليه ، فقال عمرو رضي الله عنه : صَدَقَ[٤] ، واعتذرَ شُرَحْبيل بن حسنة

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٥١ .

(٢) مسند أحمد ، برقم (١٧٧٥٦) ، ٢٠/ ٢٩٠–٢٩١ . وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ١٨٧ .

(٣) وهو شرحبيل بن عبدالله بن المطاع بن عبدالله ، من كندة ، حليف لبني زهرة ، يُكنَّى أبا عبدالله ، نُسب إلى أُمِّه حَسَنة ، وكانت مولاة لمعمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، كان شرحبيل ابن حسنة مِنْ مهاجرة الحبشة ، مَعدُود في وُجُوه قريش ، وكان شرحبيل ممن سيَّره أبوبكر في فتوح الشَّام ، افتتح طبريّة ، وكان أميرًا على ربع مِنْ أرباع الشَّام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، توفي في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ، وهو ابن سبع وستين سنة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٢/ ٦٩٨ ، ابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٣/ ٢٦٥ .

(٤) الطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، برقم (٧٠٤٨) ، ٤/ ٣٠٦ ، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر ، انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ١٨٧ .

هذا مع التَّنبِيه إلى أنَّ هنالك روايةً ضعِيفةً مُنكَرةً لهذه الحادثة استدلَّ بها بعض مَنْ أثبَتَ العدوَى ، وهي ما رواه الإمام أحمد في مسنده ، برقم (١٦٩٧) ، ٣/ ٢٢٥–٢٢٦ ، والطبريُّ في تاريخه ، ٤/ ٦١–٦٢ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، برقم =

(٨٨٧٨) ، ٦٧/ ٢٦٥-٢٦٦ ، كلُّهم مِنْ طريق محمد بن إسحاق ، عن أبان بن صالح ، عن شهر بن حَوشب ، عن رَابِّهِ -رجلٌ مِنْ قَومه كان خُلِّف على أُمِّه بعد أبيه ، كان شهد طاعون عمواس- . وفيها أنَّ عمرًا بن العاص قام فيهم خطيبًا فقال : أيُّها النَّاس! إنَّ هذا الوَجع -أيْ الطَّاعون- إذا وَقَع فإنَّما يَشتعل اشتعَال النَّار ، فتَجبَّلُوا مِنه في الجبال . فقال له أبو واثلة الهذلي : «كذبت والله ، لقد صحبتُ رسول الله ﷺ وأنت شَرٌّ مِنْ حِمارِي هذا» . فقال له عمرو : «والله ما أردُّ علَيك ما تقول ، وايم الله لا نقيم عليه» ، ثُمَّ خَرَج ، وخَرَج النَّاس ، فتفرَّقُوا عنه ، ودَفَعَه الله عنهم ، فبلَغ ذلك عمر بن الخطاب مِنْ رأي عمرو ، فوَالله ما كرهه . قال الهيثمي عن هذه الرواية : رواها أحمد ، وشهرٌ فيه كلَامٌ ، وشَيخه لَمْ يُسَمَّ . الهيثمي : مجمع الزوائد ، برقم (٣٨٧٥) ، ٢/ ٣١٦ ، ففي سنده -إذًا- مجهُولٌ -الَّذي روَى عنه شهر بن حَوشب- ، وأيضًا شَهرٌ مُتكلَّمٌ فيه ، ولأجل هذا ضعَّفه مُحققُو المسند . انظر : مسند أحمد ، برقم (١٦٩٧) ، ٣/ ٢٢٦ . هذا من جهة ضعف سَنَده ؛ وأمَّا نكارة مَتنِه فلتفرُّدها ومُخالفتِها للرِّواية الصَّحِيحة مِنْ أربعة أَوجُه :

أوَّلًا : مُخالفتُها للرِّواية الصَّحيحة في تَسمِيَة الصَّحابيِّ المُنكِر على عمرو بن العاص رضي الله عنهما مقالتَه تلك ، فجميع الرِّوايات الَّتي رُوِيَت -سواءً مِنْ طريق شهر بن حَوشب ، أو غيره- سمَّته بشُرحبِيل بن حَسَنة رضي الله عنه ، بينما هذه الرِّواية تفرَّدت بجعله أبا واثلة الهذَلِي . قال ابن عساكر : لا أعرف أبا واثلة إلَّا في هذه الرِّواية ، وقد رُوِيَت هذه القصَّة مِنْ وَجهٍ آخر عن شهر ، عن عبدالرحمن بن غنم الأشعري ، وسمَّى فيها شُرحبِيل بن حَسَنَة بَدَل أبي واثلة ، والله أعلم . ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ٧/ ٢٦٦ ، وبنحو كلام ابن عساكر جاء النَّقل عن عز الدِّين بن الأثير : أسد الغابة ، ٦/ ٣١٩ .

ثانيًا : مُخالفتُها للرِّواية الصَّحِيحة الَّتي جاءت بمُوَافقة عمرو لشُرحبِيل وكذلك معاذ على إنكارهما عليه تلك المقالة ، بقوله عن كلِّ واحدٍ منهما «صَدَقَ» ، فعمرٌو ذُكِّر فتذكَّر ، وكذلك هو شأن المؤمِنين كما قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذَّاريات: ٥٥] ، بينما هذه الرِّواية فقد جاءت على خلاف ذلك ، فقد ذكرَت بأنَّ عمرًا قال له : «والله ما أردُّ علَيك ما تقول ، وايم الله لا نُقِيم علَيه» .

ثالثًا : تفرُّد هذه الرِّواية بتصرِيحها أنَّ عمرًا بن العاص رضي الله عنه خرج بالنَّاس
=

لعمرٍو عن مقُولته تلك بقوله : لقد أسلمتُ مع رسُول اللهِ ﷺ ، وإنَّ هذا -يعني عمرو- لأَضلُّ مِنْ حمَار أهلِه -أي : كان كافرًا آنذاك ولم يُسلِم بعد ، فما سمع تلك الأحاديث- ، وقد رُوي أيضًا عن معاذ بن جبل أنَّه أنكر على عمرو تلك المقالة(١) . فنهيُه ﷺ عن الخروج مِنْ بلد الطَّاعُون فِرارًا منه دلِيلٌ على نفيِّ العدوَى لا إثباتِها ، وإلَّا كيف يُأمر الأصحَّاء بالبقاء بين المرضى؟! بل في ذلك حثٌّ مِنه ﷺ لهم على تقوِية توكُّلَهم على الله جلَّ وعلا ، وتَوطِيد أنفسهم على دوام التَّفويض والتَّسليم للقضاء والقدر ، وهذا نَظِيرُ قوله تعالى : ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم

=

إلى رؤوس الجبال وشِعاب الأَوديَه وفرَّقَهم فيها كَيْ لا تنتقل فيهم عدوَى الطَّاعُون ، وبسَبَبَ تفرقتِهم تلك ، وفرَارهم منه ، ارتفع الطَّاعُون . وهذا فيه مُخالفةٌ للرِّواية الصَّحيحة ، زِدْ على ذلك أنَّه لَمْ يُنقل على مرِّ الإسلام مِنْ لدن الصَّحابة والتَّابعِين وتابعِيهم أنَّ أحدًا مِنْ أهل العلم فرَّ مِنَ الطَّاعُون فنجَا ، فلَو كانت هذه الرِّواية ثابتَةً لكانت فَيصَلًا لاستثناء العلماء لِمَن كانوا فيها ، قال ابن عبدالبر : «لم يبلغني أنَّ أحدًا مِنْ حَمَلَة العلم فَرَّ مِنَ الطَّاعُون إلَّا ما ذَكَر المدائني أنَّ عليَّ بن زيد بن جُدعان هَرَب مِنَ الطَّاعُون إلى السيالة ، فكان يُجمِّع كل جمُعَةٍ ويَرجع ، فكان إذا جَمَّع صاحُوا به فَرَّ مِنَ الطَّاعُون ، فطُعِن فمات بالسيالة» . ابن عبدالبر : التَّمهيد لما في الموطَّأ مِنَ المعاني والأسانيد ، ٦/ ٢١٤-٢١٥ .

رابعًا : أيضًا تفرُّدُها بنَقل إقرار عمر بن الخطَّاب لعمرو في إخراج النَّاس مِنْ أرض الطَّاعُون والتَّنحِّي عنه ، وذلك عند قوله : «فبلَغ ذلك عمر بن الخطاب مِنْ رأي عمرو ، فوَالله ما كَرِهَه» . وهذا ما لم يُنقل إلَّا في هذه الرِّواية .

(١) مسند أحمد ، برقم (٢٢١٣٦) ، ٣٦/ ٤٤٩ ، والبزَّار : البحر الزَّخَّار ، برقم (٢٦٧١) ، ٧/ ١١٤ . وجاء في رواية البزَّار أنَّ كلا مِنْ معاذ بن جبل وشُرَحبيل قالَا لعمرو بن العاص : «كذَبتَ» ، أي : أخطأتَ في تلك المقالة .

مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٤] . وإذا كانت الآجالُ مُوَقَّتَةً مَحصُورةً لَا يقع فيها تقديمٌ ولا تأخِيرٌ عمَّا قدَّرها الله عليه ، فالفِرَار مِنَ الطَّاعُون عدُولٌ عنْ مُقْتَضَى ذلك[٥] ، فالنَّهي في حديث الطَّاعون إذن لم يكن لأجل العدوى ، فلَو كان القصد مخافة العدوَى لَأُمر بالخروج إلى أطراف الأَوديَة ورؤوس الجبال تحرُّزًا مِنْه ، ولكن أَمَر بعدم الفرار منه والبقاء مع وجود الوباء سدًّا لذريعة الوقوع في التَّطيُّر واعتقاد العدوى ، يقول العلَّامة الطَّحاوي : «ومعنَى ما رُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في الطَّاعُون ، في نَهْيِهِ عنِ الهبُوط عليه ، وفي نهيِه عنِ الخروج منه ، هو أنَّ نَهْيَه عنِ الهبُوط عليه خَوْفًا أَنْ يكون قد سَبَق في عِلْمِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنَّهم إِذَا هبطُوا عليه أصابهم فيهبِطُون فيُصِيبُهم فيقولون : أَصابَنا لِأَنَّا هبطنا عليه ، ولَوْلَا أنَّا هبطنا عليه لَمَا أصابنا ، وأنَّ نَهْيَهُ عنِ الخروجِ منه ، لِئَلَّا يَخرجَ فَيسلمَ ، فيقول : سلمتُ لِأَنِّي خرجتُ ، ولولا أَنِّي خرجتُ لم أسلم ، فَلَمَّا كان النَّهيُ عنِ الخروجِ عنِ الطَّاعُون ، وعن الهبُوط عليه ، بمعنًى وَاحدٍ ، وهو الطِّيَرَةُ ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (١٦) .

(٢) سورة الجمعة ، الآية : (٨) .

(٣) سورة النساء ، الآية : (٧٨) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (٣٤) .

(٥) أبوبكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت: ٣٧٠ هـ) : أحكام القرآن ، ت : عبدالسلام محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ، ٣/ ٨٤ .

لا الإعداءُ ، كان كذلك قوله : «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ هو الطِّيَرَةُ أَيضًا ، لَا الإِعدَاءُ ، فنهاهُم رسول اللهِ ﷺ في هذه كلِّها عن الأسباب الَّتي مِنْ أجلِها يَتَطَيَّرُون»[١] ، ومن المعلوم أنَّ النَّاس درجاتٍ في الإيمان ، ورسول الله ﷺ إنما بُعث ليُصحِّحَ عقائدَهم ، ويُبطلَ مُعتقدات الجاهليَّة ومظاهر الشرك الَّتي انتشرتْ بينهم ، ومِنْ ذلك الطِّيرة والعدوَى ، و سدَّ السُّبُل المُوصِلة إلى الشرك مِنْ كلِّ جوانبه ، ألا ترى أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن الصَّلاة وهي خالصةٌ لله عزَّ وجلَّ في أوقات وأماكن مُعيَّنَةٍ حمايةً لحِمَى التَّوحيد وصيانةً لعقائد النَّاس ، ونهى عن إتيان الكُهَّان ولو كان مِنْ أجل امتحانهم ، فكذلك نَجِد نَهيَه ﷺ في حديث الطَّاعون هذا حماية لحمى التوحيد ، وفي ختام الكلام عن تَوجيه حديث الطَّاعون والتَّوفيق بينه وبين أحاديث عموم نفي النَّبيِّ للعدوى ، بان لي أن أذكر مسألةً لها تعلُّقٌ بموضوعنا هذا ، وهي أنَّ بعض مَنْ ذهب إلى إثبات العدوَى استدل على قوله برجوع عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بالنَّاس مِنْ سَرْغ[٢] في طاعون عَمْوَاس[٣] ، وهذه الحادثة ليس بدليل على إثبات العدوى ، فقد يكون رجوعه بالنَّاس مِنْ أجل سدِّ الذَّريعةً ، حتى لا يقعُوا في اعتقاد

---

(١) أبوجعفر أحمد بن محمَّد الطَّحاوي (ت: ٣٢١هـ) : شرح معاني الآثار ، ت : محمد زهري النجار ومَنْ معه ، عالم الكتب ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ، ٤/ ٣١٠ .

(٢) سَرْغ -بالرَّاء المُسكَّنة ، والغين المعجمة- : مدينةٌ بالشَّام ، عدَّها بعضهم في آخر الشَّام وأوَّل الحجاز بوادي تبوك . انظر : الحميري : الرَّوض المعطار ، ص : ٣١٥ ، وشرَّاب : المعالم الأثيرة ، ص : ١٣٩ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الحِيَل ، باب ما يُكره منَ الاحتيال في الفرار من الطاعون ، برقم (٦٥٧٢) ، ٦/ ٢٥٥٧ ، وصحيح مسلم ، كتاب السَّلام ، برقم (٢٢١٩) ، ٤/ ١٧٤٢ .

العدوَى إنْ أصابهم مرض ، أو لئلَّا يتطيَّروا بالمرضَى كما سبق بيان العلَّة في النَّهي عن القدوم عليه ، هذا مِنْ جهة ؛ ومِنْ جهةٍ أُخرى فإنَّه قد ثبت عن الفاروق رضي الله عنه أنَّه ندم على رجوعه ذاك ، وأنَّه كان يستغفر الله مِنْ ذلك ، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : «جئت عُمر رضي الله عنه حين قدم الشَّام ، فوجدته قائلًا في خِبائه ، فانتظرته في الخِباء ، فسمعتُه حين تَضَوَّر[1] مِنْ نومه وهو يقول : اللَّهمِّ اغفر لي رجوعي مِنْ غزوة سَرْغ ، يعني حين رجع مِنْ أجل الوباء»[2] ، قال الزركشي : «يُحتمل أن يكون ندمه مخافة أن يكون فارًّا مِنَ القَدَر»[3] ، وهذا ما أكَّدَته تتمَّة هذا الأثر عند ابن عبدالبر في التَّمهيد مِنْ أنَّ عمر بن الخطَّاب كتب إلى عامله في الشَّام : «إذا سمعتَ بالطَّاعون قد وقع عندكم ، فاكتب إليَّ حتَّى أخرج»[4] . فعمر رضي الله عنه خشي مِنْ أن يفهم الناس ممن معه ، أو من سيأتي بعده مِنْ أنَّ رجوعه من سرغ كان فرارًا من الطاعون ومخافة العدوَى ، فهو خليفةٌ راشد ، وسُنَّته سنَّةٌ مُتَّبعة ، فلهذا آثر أن يُعلِّم النَّاس أنَّ الآجال بيد الله ، وأن لا يُعدي شيءٌ شيئًا ، فيقوَى توكُّلهم وتثق نفُوسهم ، فالنَّهي عن القدوم على أرض الطاعون كان لأجل سدِّ

---

(١) التَّضَوُّر : صِياحٌ وتَلَوٍّ . انظر : الأزهري : تهذيب اللُّغة ، ١٢/ ٤٢ ، وابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٤٩٤ .

(٢) مصنّف ابن أبي شيبة ، برقم (٣٣٨٤٨) ، ٧/ ١٠ ، والبِرْتِي : مسند عبدالرحمن بن عوف ، برقم (٢) ، ص : ٣٠ ، وابن عبدالبر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ٦/ ٢١٣ ؛ وقال عنه الزركشي : «إسناده صحيح» ، وقال عنه ابن حجر : «إسناده حسن» . انظر : ابن حجر العسقلاني : بذل الماعون ، ص : ٢٨٥ .

(٣) انظر : ابن حجر العسقلاني : بذل الماعون ، ص : ٢٨٥ .

(٤) ابن عبد البر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ٦/ ٢١٣ .

الذَّريعة ، والقاعدة في ذلك أنّ : «ما نُهي عنه لسدِّ الذَّريعة يُباح للمصلحة الرَّاجحة»[١] ، كتطبيب أو تعليم والمصلحة الرَّاجحة هنا تعليم عمر رضي الله عنه النَّاس التَّوكُّل على الله وحده والثِّقة به ، فإذًا القول بأنَّ رجوع عمر رضي الله عنه كان فرارًا مِنَ الطاعون مخافة العدوَى قولٌ باطلٌ وليس صحيح ، سيَّما وأنَّه تبرَّأ منْ أن يُفهم عنه ذلك في حياته ، فقد صحَّ عنه أنَّه قال : «اللَّهمَّ إنَّ النَّاس نحلُوني ثلاث خِصالٍ ، وأنا أبرأ إلَيك مِنهنَّ ، زعموا أنِّي فررت مِنَ الطَّاعون ، وأنا أبرأ إلَيك مِنْ ذلك..»[٢] ؛ هذا والله تعالى أعلم .

ثالثًا : حديث «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُوم[٣] فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ» . فقد قال الطبرى عنه : «اختلف السَّلف في صِحَّة هذا الحديث ، فأنكر بعضهم أن يكون عليه السَّلام أَمَرَ بالبُعد مِنْ ذي عاهة جُذامًا كانت ، أو برصًا ، أو غَيره ، وقالوا قد أكَل رسول الله ﷺ مع مجذوم وأقعَده معه ، وفَعَل ذلك أصحابه المهديُّون»[٤] ، فعلى فَرض صحَّتِه وصحَّة شواهده فإنَّ الجمع

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٣/ ١٨٦ ، وابن القيم : زاد المعاد ، ٣/ ٤٢٧ .

(٢) الطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، برقم (٧٠٧٨) ، ٤/ ٣١١ ، وقال عنه ابن حجر : «إسناده صحيح» . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ١٨٧ .

(٣) المَجْذُومُ : الذي أصابهُ الجُذَام -بضمِّ الجيم وتخفيف المعجمة- ، هو عِلَّة رديئةٌ تَحدث مِنْ انتشار المِرَّةِ السَّوْدَاءِ في البدن كلِّه فتُفسد مزاج الأعضاء وربَّما أفسد في آخره إيصالها حتَّى يتأكَّل . انظر : ابن الأثير : النهّاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٢٨٩ ، وابن حجر: فتح الباري ، ١٠/١٥٨ .

(٤) انظر : ابن بطَّال : شرح صحيح البخاري ، ٩/ ٤١٠ ، وبدر الدين العيني : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ٢١/ ٢٤٧ . هذا وقد ذكر الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب أنَّ هنالك مِنْ أهل العلم مَنْ أعلَّ حدِيث «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ» بالشُّذُوذ . انظر : سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب =

بينَه وبين عُموم إبطال النَّبيِّ ﷺ للعدوَى في قوله «لَا عَدْوَى» يَتبعُ ما سَبقَهُ مِنَ الكلام على الحديثَين الآنف ذِكرهُما ، ويُزاد على ذلك أنَّ السُّنَّة من عمل رسول الله ﷺ جاءت على خِلافه ، وكذلك عَمَل الصَّحابة رضوان الله عليهم ، فقد جلس رسول الله ﷺ مع المجذوم وأَكَلَ معه في قصعةٍ واحدةٍ وقال له كلامَه المشهور : «كُلْ بِاسْمِ الله ، ثِقَةً بِاللهِ ، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ»[1] ، وهذه أمُّنا عائشة رضي الله عنها كانت تُنكر حديث الفرار مِنَ

=

(ت: ١٢٣٣هـ) : تيسِير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحِيد الَّذى هو حق الله على العبِيد ، ت : زهَير الشَّاوِيش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ص : ٣٦٣ .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطِّب ، بابٌ في الطِّيرة ، برقم (٣٩٢٥) ، ٦/ ٦٨ ، سنن التِّرمذي ، أبواب الأطعمة عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في الأكل مع المجذوم ، برقم (١٨١٧) ، ٤/ ٢٦٦ ، وسنن ابن ماجه ، أبواب الطِّب ، باب الجُذام ، برقم (٣٥٤٢) ، ٤/ ٥٦٣ ، وصحيح ابن حبان ، برقم (٦١٢٠) ، ١٣/ ٤٨٨ ، ومستدرك الحاكم ، برقم (٧١٩٦) ، ٤/ ١٥٢ . وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذَّهبي على ذلك ، وقال عنه الحافظ ابن حجر : حديث حسنٌ ، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم كما نقل ذلك عنهم المناوي . انظر : عبدالرَّؤوف المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، برقم (٦٣٨٣) ، ٥/ ٤١ . حتَّى إنَّ **الإمام أحمد** كان يستدلُّ بهذا الحديث على نَفْيِ العدوَى وإبطالها ، ويقول : إليه أذهَب ؛ قال ابن مُفلح : «وقد قال إسحاق بن بهلول : وذكرت لأحمد بن حنبل هذا الحديث -يعني حديث جابر «أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذ بيد مجذُوم فوَضع يده معه في القصعة ، فقال باسم الله ثقةً بالله»- فقال: أذهَبَ إليه» . ابنُ مفلح : الآداب الشَّرعيَّة والمِنح المرعيَّة ، ٣/ ٣٦٣ ، وفي موضع آخر ٣/ ٣٦٥ قال : «وذَكر القاضي أبويعلى في المعتمد في إبطال القَول بالعدوَى والطِّيرة في الأمراض وأصحاب العاهات روايَتين ، ذَكر رواية إسحاق بن بهلول المذكورة ، وقال : وهذا صريح في إبطال القول بالعدوَى ويجب أن تكون الطِّيرة كذلك ، إذ لا فرق ، اختارها القاضي

=

المجذومِين ، فقد سَأَلَتْها امرأةٌ عنه ذات مرَّةٍ بقولها : أَكان رسول الله ﷺ يقول في المجذُومِين : «فِرُّوا مِنْهُمْ كَفِرَارِكُمْ مِنَ الْأَسَدِ»؟ فقالت أُمُّ المؤمنِين : كلَّا ، ولكنَّه قال : «لَا عَدْوَى ، فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟» ، وقد كان مولًى لي يأكل في صِحَافِي ، ويشرب في أَقْدَاحِي ، وينام على فراشي ، أصابه ذلك الدَّاء -الجُذَام- ، فلَوْ أقام معي عايَشتُه ما عاش ، ولكنَّه سألني أنْ أُجهِّزه إلى الغزو ، فجهَّزتُه ، وغَزَا[1] ، وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم : أبوبكر ، وعمر ، وسلمان ، وابن عمر ، وغيرهم قد ثبتَ أكلُهم مع الـمَجذومِين[2] ، حتَّى إنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قَدِمَ عليه وَفدٌ مِنْ ثَقِيف ، فَأَتَى بطعام ، فدَنَا القوم ، وتَنَحَّى

=

-يعني به أبا يعلى-» .

ومثله كذلك **الإمام مالك بن أنس** ، فقد قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب : «فمالكٌ لمَّا سُئل عن حديث «فِرَّ مِنَ المَجْذُوم» قال : ما سمعت فيه بكراهية ، وما أرَى ما جاء مِنْ ذلك إلَّا مخافة أنْ يقع في نفس المؤمن شَيءٌ . ومعنى هذا أنَّه نَفَى العدوَى أصلًا ، وحَمَل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسدِّ الذَّريعة ، لئلَّا يحدث للمخاطَب شَيءٌ مِنْ ذلك فيظنَّ أنَّه بسبب المخالطة ، فيُثبت العدوَى الَّتي نفاها الشَّارع» . سليمان بن عبد الله : تَيسِير العزيز الحمِيد ، ص : ٣٦٤ . وانظر : أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي (ت : ٥٢٠هـ) : البيان والتَّحصيل والشَّرح والتَّوجيه والتَّعلِيل لمسائل المستخرجة ، ت : محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت - لبنان ، ط : ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ١٨/ ٢٦١- ٢٦٢ .

(١) مصنَّف ابن أبي شيبة ، برقم (٢٤٥٤١) ، ٥/ ١٤٢ ، والطَّبري : تهذيب الآثار ، مسند عليّ ، برقم (٨٢) ، ٣/ ٣٠ .

(٢) فليُراجع في ذلك كتاب مصنَّف ابن أبي شيبة ، فقد أخرج آثارًا عن أولئك الصَّحابة وبوَّب لها بـ : الأكل مع المجذوم . انظر : مصنَّف ابن أبي شيبة ، ٥/ ١٤١-١٤٢ .

رجلٌ به هذا الدَّاء -يعني : الجُذَام- ، فقال له أبوبكر : «ادْنُهُ» ، فدَنَا ، فقال : «كُلْ» ، فأَكل ، وجعل أبوبكرٍ يَضَعُ يَدَهُ مَوضعَ يَدِهِ[١] ؛ ومع هذا كلِّه فإنَّ علماءنا قد حاوَلُوا الجَمع بين الأحاديث النَّاهية عن القرب مِنَ المجذومِين ، وحديث «لَا عَدْوَى» ، والآثار السَّابقة في أكل النَّبيِّ ﷺ مع المجذوم ، وكذا عَمَل صحابتِه مِنْ بعده في ذلك ، فهذا إمام الأئمَّة ابن خزيمة بوَّب لهذا الحديث بترجمةٍ قال فيها : «ذِكر خَبَرٍ رُوِي عن النَّبيِّ ﷺ في الأمر بالفِرار مِنَ المجذُوم ، أنا خائفٌ أن يخطر ببال بعض النَّاس أنَّه إثباتٌ للعدوى ، ولَيس كذلك هو عِندِي بحمد الله»[٢] ، ثُمَّ أَوردَه مع شوَاهد له ، فقال : «إنَّما أَمَرهم ﷺ بالفِرار مِنَ المجذوم كما نَهَاهُم أنْ يُورِدَ الـمُمرِض على الـمُصحِّ شَفَقَةً عليهم ، وخشيةَ أنْ يُصِيب بعضَ مَنْ يُخالِطُه المجذومَ الجُذَامَ والصَّحيحَ مِنَ الماشية الجَرَبُ فَيَسبِق إلى بعض المسلمِين أنَّ ذلك مِنَ العدوَى ، فيُثبِتَ العدوَى الَّتي نَفَاهَا ﷺ ، فأَمرهُم بِتجنُّب ذلك شَفَقَةً منه ورحمةً ليَسلمُوا مِنَ التَّصدِيق بإثبات العدوَى ، وبيَّن لهم أنَّه لَا يُعدِي شيءٌ شيئًا ، ويُؤَيِّد هذا أكلَه ﷺ مع المجذوم ثِقةً بالله وتَوكُّلًا عليه»[٣] ، ثمَّ علَّق الحافظ ابن حجر على كلام ابن خزيمة بقَوله : «وهو -أيْ هذا التَّقرِير- في غاية التَّحقِيق والإتقان ، وهو أولَى

---

(١) مصنَّف ابن أبي شيبة ، برقم (٢٤٥٣٥) ، ٥/ ١٤١ .

(٢) نقله ابن حجر العسقلاني عن ابن خزيمة مِنْ كتاب التَّوكُّل . انظر : ابن حجر العسقلاني : بذل الماعون في فضل الطاعُون ، ص : ٢٩٥ .

(٣) نقله الحافظ ابن حجر مِنْ كتاب التَّوكُّل لابن خزيمة . انظر : ابن حجر : فتح الباري ، ١٠/ ١٦١ .

عندي مِنَ الجَمع الَّذي ذَكره البَيهقِي[١] وتبِعه ابن الصَّلَاح[٢] ومَنْ بعدَه[٣] ، لأنَّه ينفِي العدوَى أصلًا ورأسًا ، كما صرَّحَت به الأخبار

---

(١) قال البيهقي في كتابه «معرفة السُّنَن والآثار» معلِّقًا على كلام الشَّافعي : «ثابتٌ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال : «لَا عَدْوَى» ، وإنَّما أراد به على الوَجه الَّذي كانُوا يعتقدُون في الجاهليَّة مِنْ إضافة الفِعل إلى غَير الله عزَّ وجلَّ ، وقد يجعل الله تعالى بمشيئَتِه مُخالطة الصَّحِيح مَنْ به شَيءٌ مِنْ هذه العيُوب سَبَبًا لحدُوث ذلك به ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ : «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ» ، وقال في الطَّاعُون : «مَنْ سَمِعَ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا يَقْدُمَنَّ عَلَيْهِ» ، وغير ذلك مِمَّا في معناه ، وكُلُّ ذلك بتقدير الله عزَّ وجلَّ» . أبوبكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) : معرفة السنن والآثار ، ت : عبدالمعطي أمين قلعجي ، دار الوفاء ، المنصورة - القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ١٠/ ١٨٩ ، وانظر : البيهقي : السُّنن الكبرى ، ٧/ ٣٥١-٣٥٢ .

(٢) قال ابن الصَّلاح : «هذه الأمراض لا تُعدِي بِطبعِها ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى جَعَل مُخَالطة المريضِ بها للصَّحيح سَبَبًا لإعدائِهِ مرضَه . ثُمَّ قد يتخلَّف ذلك عن سَبَبِه كما في سائِرِ الأسبابِ» . ابن الصَّلاح : معرفة أنواع علم الحديث ، ص : ٣٩٠ .

(٣) كالنَّووي ، وغيره مِمَّن جاء بعده ؛ مع التَّنبيه إلى أنَّ النَّوَوي في شرحه على صحِيح مسلم ، ١٤/ ٢١٣و٢٢٨ ، قال كلامًا فُهِم منه أنَّه نَسَب هذا التَّوجيه إلى جمهور العلمَاء ، والصَّحيح أنَّه لَيس كذلك ، بل كان يقصد بتلك النِّسبة الجمع بَين الأحادِيث وعدم القَول بنسخ أحدها للآخر ؛ هذا الَّذي ظهر مِنْ خلال كلامه في مَوضعَين مختلفَين ، وأمَّا طريقة الجمع بين الأحاديث وتوجِيهها فجمهور العلماء على خلاف ما رجَّحه النَّووي ، فمسلكهم في الجمع هو الإبقاء على عمُوم نفيِّ العدوَى وإبطالها ، مع حَمل الأحاديث الأُخرى على حسم المادَّة وسدِّ الذَّريعة ، فهذا ما نُقل لنا مِنْ فهم الصَّحابة للأحاديث ، وآراء أصحاب المذاهب المُتَّبعَة كمالك ، وأحمد ، وجمهور الحنفيَّة ، وإمام الظَّاهريَّة ، وأئمَّة الحدِيث والتَّفسير واللُّغة ، كأبي عُبَيد ، وابن خُزيمة ، والطَّبري ، وابن حبَّان ، والجصَّاص ، والخطَّابي وغَيرهم مِمَّن سبقُوا البيهقي وابن الصَّلاح والنَّووي ؛ حتَّى إنَّ الحافظ ابن حجر الشَّافعيَّ انتقَد في هذه المسألة قول أعيان مذهبه ، وما ذلك إلَّا لتعظِيمه للدَّليل ونُصرتِه لحدِيث رسُول الله ﷺ ، مع اعتذاره للشَّافعيِّ بقَوله : «والَّذي يظهر لي أنَّ =

الصَّحِيحة ، ويحمل ما وَرَد ضدَّها على إرادة حسم المادَّة ، بخلاف ما جمَعُوا به ، فإنَّه يُثبت العدوى بالجملة»[(١)] .

وبمثل كلام ابن خُزيمة جاء تصريح إمام المُفسِّرين ابن جرير الطَّبري ، فقد قال : «نهى ﷺ المُمرِض أنْ يُورِدَ ماشيتَه المرضَى على ماشية أخيه الصِّحاح ، لِئلَّا يَتَوَهَّم المُصحُّ إنْ مرضتْ ماشيتُه الصَّحيحة أنَّ مرضها حدث مِنْ أجل وُرُود المرضى عليها ، فيكون داخلًا بِتوَهُّمِه ذلك في تصحيح ما قد أبطله ﷺ ، وكذلك أَمرُه بالفرار مِنَ المجذوم مع إبطاله العدوَى والصَّفر على ذلك مِنَ المعنَى ، وهو لِئَلَّا يَظنَّ الصَّحيحُ الَّذي قَرُب مِنَ المجذوم وطَعِم معه وشَرِب إنْ أصابه يومًا مِنَ الدَّهر جُذامٌ ، أنَّ الَّذي أصابه مِنْ ذلك إنَّما أصابه مِنَ المجذوم لِمَا كان منه مِنْ قُربَهٍ مِنَ المجذوم ومُؤَاكلَتِه إيَّاه»[(٢)] .

وقد تبِعهُم الحافظ ابن حجر فيه على ذلك فقال : «وأمَّا الأمر بالفرار من المجذوم فمِن بابِ سدِّ الذَّرائعِ ، لئلَّا يتَّفق للشَّخصِ الذي يُخالطه شيءٌ من ذلك بتقدير الله تعالى ابتداءً ، لا بالعدوى المنفيَّة ؛ فيظنُّ أَنَّ ذلك بسببِ مُخالطته ؛ فيعتقد صحَّةَ العدوى ، فيقعَ في الحرجِ ، فأُمر بتجنُّبِه حَسْماً للمادَّة ، والله أعلم»[(٣)] .

=

الشَّافعيَّ ما رَوَى حدِيث نَفيِّ العدوَى الَّذي سيأتي بيانه ، ولهذا اعتمد في ذلك على قَولِ الأطبَّاء وأهل التَّجربة ، مِنْ غَير أنْ يُعرِّج على تأوِيل الحدِيث» . ابن حجر : بذل الماعُون ، ص : ٢٩٤ .

(١) ابن حجر العسقلاني : بذل الماعون في فضل الطاعُون ، ص : ٢٩٧ .

(٢) ابن جرير الطَّبري : تهذيب الآثار ، مسند عليٍّ ، برقم (٨٨) ، ٣/ ٣٢ .

(٣) ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) : نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح

=

وقد يقول قائِلٌ -ممَّن يثبت حديث الفرار من المجذوم- : وقع تعارضٌ في الجزئيَّة السَّابقة بين قول النَّبيِّ ﷺ وفِعله ، فقد أَمَرَ ﷺ بمُجانبة المجذوم والفِرار منه ، ثُمَّ جلس بِجَنبِه وأكل معه في قصعةٍ واحدةٍ ، فكيف لنا أن نجمع بينهما؟ فهذا التَّساؤل قد أجاب عنه ابن أبي جمرةَ الأندلسي[1] في قوله : «ويُمكِن الجَمعُ بين فِعلِه ﷺ وقوله ، بِأَنَّ قَولَه هو المشروع لنا من أجل ضعفنا ، فَمَنْ فَعَلَه فقد أصاب السُّنَّة وهي أَثَر الحِكمة الرَّبانيَّة -سدُّ الذَّريعة- ، وفِعلُه ﷺ هو حقيقةُ الإيمان والتَّوحيد ؛ لِأَنَّ الأشياء كلّها لَا تأثيرَ لها إلَّا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره كما قال تعالى : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] ، فَمَن كانت له قُوَّة يقينٍ وصدقُ إيمانٍ فلهُ أن يُتابِعَه ﷺ في فِعْلِه ولَا يَضُرُّه شيءٌ ، وهو في فِعله مُتَّبِعٌ للسُّنَّة ، ومَنْ كان يقينه ضَعِيفًا فله أنْ يَتَّبِع أَمرَه في الفرار ، ولا يجوز له مع الضَّعف أنْ يَتَّبِع في الفعل ، لأنَّه عَرِيٌّ عن شروطه ، وقد يدخل بفعله ذاك تحت قوله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[3] -قلت : فالشرك من أعظم المهالك من اعتقاد للعدوى والتَّطيُّرِ بالمرضَى.. ؛ وفي أَمره ﷺ بالفرار مِنَ المجذوم دليلٌ على أنَّ الحُكم يُعطَى للغالب ، لأنَّ الغالب في النَّاس هو الضَّعف ، فجاء الأَمر

=

أهل الأثر ، ت : عبدالله بن ضيف الله الرحيلي ، مطبعة سفير بالرياض ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ ، ص : ٢١٧ .

(١) عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي ، من العلماء بالحديث ، مالكي ، أصله مِنَ الأندلس ووفاته بمصر عام ٦٩٥هـ . الزركلي : الأعلام ، ٤/ ٨٩.

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٥ .

بالفِرار بحسب ذلك»[١] .

فمِنْ خلال نقل توجيهات الأَئمَّة لتلك الأحاديث الثَّلاثة (فُهُومُ الصَّحابة لها وعمَلُهم بها ، مع تقريرَات العلماء : كمالك بن أنس[٢] ، وأحمد بن حنبل[٣] ، وأبي عُبَيد القاسم بن سلَّام[٤] ، وابن خزيمة[٥] ، وابن جرير الطَّبري[٦] ، وأبي جعفر الطَّحاوي[٧] ، وأبي حاتم ابن حِبَّان[٨] ، وأبي بكر الجصَّاص[٩] ، وأبي سلَيمان الخطَّابي[١٠] ، والقُدُوري الحنفي[١١] ، والقاضي أبي يعلى ابن الفرَّاء الحنبلي[١٢] ،

(١) عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي (ت:٦٩٥هـ) : بهجة النُّفوس وتحليَتها بمعرفة ما لها وما عليها -شرح مختصر صحيح البخاري- ، مطبعة الصِّدِّيق الخيرية ، جوار الأزهر-مصر ، ط : ١ ، ١٣٤٨هـ ، ٤/ ١٣٣ .

(٢) انظر : ابن رشد القرطبي المالكي : البيان والتَّحصيل ، ١٨/ ٢٦١-٢٦٢. و سليمان بن عبدالله : تيسِير العزيز الحمِيد ، ص : ٣٦٤.

(٣) كما في رواية إسحاق بن بهلول عنه . انظر : ابن مفلح : الآداب الشَّرعيَّة والمِنح المرعيَّة ، ٣/ ٣٦٣و٣٦٥ .

(٤) أبوعُبيد القاسم بن سلاّم (ت: ٢٢٤ هـ) : غريب الحديث ، ٢/ ٢٢٢ ، وانظر: ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٢٢١-٢٢٢ .

(٥) نَقَلَه الحافظ ابن حجر مِنْ كتاب «التَّوكُّل» لابن خزيمة . انظر : ابن حجر : فتح الباري ، ١٠/ ١٦١ .

(٦) ابن جرير الطَّبري: تهذيب الآثار-مسند عليٍّ ، برقم (٨٨) ، ٣/ ٣٢.

(٧) أبوجعفر الطَّحاوي : شرح معاني الآثار ، ٤/ ٣١٠ .

(٨) انظر : ابن حبَّان : صحيح ابن حبان- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لابن بلبان- ، ١٣/ ٤٨٤ .

(٩) أبو بكر الرَّازي الجصاص (ت: ٣٧٠ هـ) : أحكام القرآن ، ١/ ٥٤٥-٥٤٦ .

(١٠) الخطَّابي (ت: ٣٨٨ هـ) : معالم السُّنن ، ٤/ ٢٣٤.

(١١) القُدُورِي (ت: ٤٢٨ هـ) : التَّجريد للقدوري ، ٩/ ٤٥٨٧.

(١٢) انظر : ابن مفلح : الآداب الشَّرعيَّة والمِنح المرعيَّة ، ٣/ ٣٦٥.

وأبي العبَّاس القرطبي[١] ، وابن أبي جَمرَة الأندلسي[٢] ، وابن منظور اللُّغَوي[٣] ، وأبي المظفَّر السُّرَّمَرِّي[٤] ، والحافظ ابن حجر العسقلاني[٥] ، وبدر الدِّين العَينِي[٦] ، وغيرهم من العلماء الَّذين لمْ اذكر لهم نقلًا) تبيَّن أنَّ النَّبيَّ ﷺ نَفَى العدوَى وأبطلها ، وسدَّ الذَّرائع المُفضيَة إلى اعتقاد القلُوب لها ، سيَّما وأنَّ التَّطيُّر مُلازمٌ لها . بينما ابن حزمٍ الأندلسيُّ قد نحَى مسلكًا آخر في تَوجِيه معنَى حديث الفرار مِنَ المجذومين الَّذي أورده البخاري يُبقِي معه على ظاهر عمُوم نَفْي النَّبيِّ ﷺ للعدوَى وإبطاله لها ، فقد قال رحمه الله : «فإنَّ معناه كقول الله تعالى : ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[٧] ، أي : فِرَّ من المجذُوم فرارك من الأسد ، لَا عدوَى ، إنَّه لَا يُعدِيك ، ولَا يَنفعُك فرَارك ممَّا قُدِّر علَيك ، ولو لم يكن معناه هذا لكان آخر الحديث ينقض أوَّلَه ، وهذا مُحالٌ ؛ وأيضًا : فلو كان على

(١) أبوالعباس القرطبي : المُفهم لما أشكل مِنْ تلخيص كتاب مسلم ، ٥/ ٦٢٤.

(٢) ابن أبي جمرة الأندلسي(ت : ٦٩٥هـ) : بهجة النُّفوس وتحليَتها بمعرفة ما لها وما عليها ، ٤/ ١٣٣.

(٣) ابن منظور(ت: ٧١١) : لسان العرب ، ٢/ ٥٠٧ .

(٤) جمال الدين يوسف بن محمد السُّرَّمَرِّي (ت: ٧٧٦ هـ) : كتابٌ فيه ذِكر الوباء والطَّاعُون ، ت : شوكت بن رفقي ، الدَّار الأثريَّة ، الأردن- عمَّان ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م ، ص : ٤٤-٤٥ .

(٥) ابن حجر العسقلاني : نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، ص : ٢١٧ .

(٦) بدر الدِّين العَينِى (ت: ٨٥٥هـ) : نُخب الأفكار في تنقِيح مباني الأخبار ، ١٤/ ٧٥-٧٦ .

(٧) قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، سورة فصلت ، الآية : ٤٠ .

معنَى الفرَار لكان الأمر به عمُومًا ، فوُجُوب أن تفرَّ منه امرأتُه ووَلدُه وكلُّ أحدٍ حتَّى يمُوت جُوعًا وجهدًا ، ولوجب أن تُقفل الأزقَّة أمامه ، كما يُفعل بالأسد وهذا باطلٌ بيقين ، وما يشكُّ أحدٌ أنَّه قد كان في عصره ﷺ مجذُومُون ، فما فَرَّ عنهم أحدٌ . فصحَّ أنَّ مُراده ﷺ ما ذكرناه»[1] .

وهُنا لفتةٌ ، وهي أنَّ سبب إطالتي في سرد تفاصيل مسألة «نفي العدوى وإبطالها» ضمن هذا الكتاب محاولًا استيفاء أدلَّتها ، وتفنِيد جُلِّ الشُبهات المثارة حَولها ، هو ما نعيشه اليوم في سائر بلاد المسلِمين ، من انتشارٍ لهذا الوباء -والَّذي أسأل الله أن يرفعه عنَّا- فما أكثر ما سمعنا بمن مات بهذا الوباء ، ففزع النَّاس لذلك ، وارتابهم هلعٌ وخوف شديد ، فصرنا نسمع من يقول إنَّ فلانًا قد أُصِيب بالعدوى ، وقد أعدى فلانٌ مجموعةً من الناس ، وأنَّ فلانًا أصابه الوباء فصار المريض بالوباء يُتشاءَم به ، حتى استقر اعتقاد العدوى والتطَيُّر بالمريض ووقر في نفوس الناس والله المستعان! فكم من مريض به لم يُزار؟! وكم ميِّتًا به لم يُغسَّل ولم يُكفَّن؟! وكم.. ، وكم..؟! كلُّ ذلك بسبب إثبات العدوى ، وبمثل هذا الواقع الَّذي نعيِشه اليوم ، جاءنا خبر من عالمٍ جليلٍ غيورٍ على دين الله ، عاش في القرن الثَّامن الهجري -الَّذي حلَّ فيه أعظَم طاعُون عرفته أمة الإسلام- ، وهو الحافظ جمال الدِّين أبو المظفَّر السُّرَّمَرِّيِّ[2] ، حيث

---

(١) ابن حزم الأندلسي القرطبي(ت: ٤٥٦هـ) : المُحَلَّى بالآثار ، دار الفكر - بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) ، ٣/ ١١٩ .

(٢) يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد العبادي - بالتَّخفِيف - ثُمَّ العُقَيلي ، جمال الدين السُّرَّمَرِّي ، نزيل دمشق ، حافظٌ للحدِيث ، مِنْ علماء الحنابلة ، تتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية ، وألَّف مُؤَلَّفًا خاصًا ينتصر له فيه ، سمَّاه : الحمية =

قال : «وقد زعم قومٌ جُهَّال ينتسبُون إلى العلم وليسوا من أهله ، ويجرون في ميدانه وليسوا بخيله ولا رجلِه ، أنَّ هذا الدَّاء وغيره من بقيَّة الأدواء يُعدي ، وأنَّ من قارب من به شيءٌ من ذلك أُصِيب بمثل ما أصابه ، وقد رأيت رجلًا قدِمَ من ضَيعةٍ يستفتِي الفُقهاء في ذلك ، وزعم أنَّ عندهم فقِيهَين يُحذِّران النَّاس مِنَ القُرب مِنَ المرضى ، حتَّى استقر قَولهما في قلوب النَّاس ، وأنَّ الرَّجل يموت ولده ووالده ولا يحضره ، حتَّى إنَّ أكثر النَّاس يموتون إلى غير القبلة ، ومن غير وصيَّة ، ولا من يُذَكِّره بالتَّوبة والشَّهادة ، حذرًا من أن يعديهم مرضه ، لما قد وقر في صدورهم من قول هذين الفقهين ، بل الجاهلين السَّفِيهَين ، من أنَّ هذا المرض يُعدي من قَرُب منه ، وهذا خِلافٌ من القول ، وزَيفٌ من النَّقل ، لا يجُوز استماعه ، ولا يحلُّ اعتقاده ، لما جاء في ذلك من الأحاديث الصَّحيحة بالعبارات الواضحة الصَّرِيحة»[1] . في نفي العدوى .

وممَّا يستعمله الطب اليوم التطعيم أو اللقاح ، وهو أخذ شيءٍ من المريض بطريقة علميَّة وحَقْنُه في الصحيح حتى تتقوى مناعته ، فإن كان كذلك فهذا الأمر ينفي العدوى لا يُثبتها .

ولنعلم أنَّ المناعة عند المريض وعند الصحيح تضعف وتقوى ، وهي شيءٌ غير ملموس إلا أنَّ هناك أشياء محسوسة من الأطعمة

=

الإسلاميَّة في الانتصار لمذهب ابن تيمية . وله مُصنَّفاتٌ أُخرى بلغت المائة ، منها كتابه في الطِّب الإسلامِي المُسمَّى : شفاء الآلام في طبِّ أهل الإسلام . توفيّ بدمشق سنة – ٧٧٦ هـ . انظر : الزركلي : الأعلام ، ٨/ ٢٥٠ .

(١) جمال الدِّين السُّرَّمَرِّي : كتابٌ فيه ذِكر الوباء والطَّاعُون ، ص: ٤٤-٤٥.

والأشربة تقوِّي المناعة وترفعها ، مثل : العسل والحبَّة السوداء والتين والزيتون والثُّوم وغيرها . ومن الأشياء الحسيَّة أيضًا التي تقوِّي المناعة : الحجامة لما فيها من التخلُّص من المواد الضارة وتنشيط الدورة الدموية بإفراز خلايا متجددة ونشطة مضادة للأمراض . ومن أهم الأمور التي تقوي المناعة : حالة الشخص النفسيَّة أو المعنوية للمريض ، وهذه المعنوية لا تنفك عن المناعة بحال فمتى ما ارتفعت معنويته ارتفعت مناعته . ومن أعظم الأمور التي ترفع المعنوية : كمال الإيمان بالله ، والتوكل عليه وحده ، والتسليم له والرضى عنه ، والصبر على ما قدَّر ، واحتساب الأجر من الله ، فهذه تجعل المعنويَّة عالية والمناعة عالية والعكس بالعكس . ومن الأمور التي تساعد أيضًا في رفع المعنوية : زيارة المريض التي تُدخل عليه السُّرور بالسَّلام والدعاء والتعزيز النفسي بالتصبير والتبشير الذي يبعث على الاطمئنان والتفاؤل ، فإثبات العدوى ينافي زيارة المريض التي جعلها الله من حقِّ المسلم على المسلم ، فالأمر كله لله ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله .

فعندما نهى رسول الله ﷺ عن الطِّيرة حثَّ على التفاؤل والاستبشار لما فيه من حسن الظنِّ بالله وتفويض الأمور إليه ، وتعلُّق القلوب به ، قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل» ، قال : قيل : وما الفأل؟ قال : «الكلمة الطيبة»[1] . فالكلام الطيِّب يبعث على التفاؤل ، وهو دليلُ على حُسْنِ الظنِّ بالله ، والثِّقة به ، والرِّضى بما قسم للعبد في

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١٧٨ ، برقم (٥٤٤٠) ، وصحيح مسلم ٤/ ١٧٤٦ ، برقم (٢٢٢٤) .

الدنيا والآخرة .

وأيضًا ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل» ، قالوا : وما الفأل؟ قال : «الكلمة الطَّيبة فإن الكلمة الطيِّبة تُدخل السُّرور على النفس وتشرح الصدر» ، ومن ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان في غزوة الحديبية وكانت قريش تراسله ، فأرسلوا إليه في نهاية الأمر سهيل بن عمرو ، فلمَّا أقبل قال النبيُّ ﷺ : «هذا سهيل بن عمرو وما أراه إلا قد سهل أمركم»[1] ، أو كلمة نحوها ، فتفاءل بالاسم ، فالتفاؤل خيرٌ لأنَّهُ يشرح الصدر ويفرح القلب وينشط اللسان ويعزم على الخير ، أمَّا التَّشاؤم فإنَّهُ بخلاف ذلك ، ولكن إذا أصابك شيءٌ من تشاؤم فأعرض عنه ، وقل : اللهمَّ لا خير إلَّا خيرُك ولا طير إلَّا طيرُك ولا إله غيرك ، يعني أنَّ الأمر كُلَّه بيدك .

وأمَّا قول النبيُّ ﷺ :«إن كان الشُّؤم في شيء فإنَّهُ في ثلاث : في الدَّار والمرأة والفَرَس» ، فالمعنى أنَّ هذه الثلاثة هي الأكثر مرافقة للرجل ، فالمرأة زوجته ، والدار مسكنه ، والدابَّة مركوبه ، وهذه الأشياء الثلاثة أحيانًا يكون فيها هي شؤم وليس منها ، فمثلًا يتزوَّج الرَّجل المرأة ولا يجد إلَّا الشر والكَدر ، لسوء خلقها ؛ فلا تطيعه مثلا أو لقلَّة دينها وخيانتها ، أو فِعْلها السحر وغيره ، وأيضًا ينزل الدَّار فلا يرتاح ويضيق صدره ويمل ، ولعلَّه مسكن للشياطين والجان ، أو بُنيَّ على قبور ، أو فيها سحر ونحوه ، وأيضًا الدابَّة من بعير وفرس وغيرها فيكون في طبعها

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد .. ، برقم (٢٥٨١) ، ٢/ ٩٧٤ .

فساد فلا يأمن أن تفتك به ، أو في عسافتها خلل لا يأمن أن يركبها ، فإذا وجد الإنسان مثل هذا فله أن يستبدلها بخير منها والله تعالى أعلم .

ثانيـًا : التَّمائم :

من المعتقدات الشركيَّة الباطلة في الجاهليَّة وعند المشركين تعليق التمائم المشتملة على الرقى الصادرة عن الكهَّان والمشعوذين والسَّحرة ، أو التعاويذ الشركيَّة المستمدَّة من الشياطين والجن والمنجِّمين مستعينين بهؤلاء في تحقيق مقاصد ومصالح ومنافع نفسية وجسمية ومالية ، أو دفع المضرَّة والخسارة والمرض ، أو العين ، أو جلب المحبَّة ، والوجاهة وغير ذلك من الأمور التي لا يملكها إلَّا الله عزَّ وجلَّ ، فإذا طلبها العبد من غير الله فقد أشرك .

يعود الأصل اللغوي لمفهوم التمائم إلى الفعل تمَّ يتمُّ تمامـًا ، وتَتِمَّةُ الشَّيء : إذا بلغ غايته ، والتميم : الشَّديد ، وأتممته إتمامـًا : علَّقت عليه التميمة[١] .

والتَّميمة : قلادة من سيور ، وربَّما جعلت العوذة التي تعلَّق في أعناق الصِّبيان[٢] .

ومن المعاذات التميمة أو المنجسة والنجس اتخاذ عوذة للصَّبي وقد نجس له ونجسه : عوذه[٣] . قال الممزق البكري واسمه شاس بن نهار :

---

(١) انظر : الفراهيدي : العين ، ٨/ ١١١ ، ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٩/ ٤٧٠ .

(٢) انظر : سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري : الإبانة في اللغة العربية ، ت : د. عبدالكريم خليفة وآخرون ، وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ٢/ ٣٣١ .

(٣) قال ثعلب : قلت لابن الأعرابي : لم قيل للمعوذ مُنَجِّسٌ ، وهو مأخوذ من النَّجاسة ، فقال : لأنَّ للعرب أفعالًا تخالف معانيها ألفاظها ، يقال : فلان يتنجس إذا =

ولـو أنَّ عنـدي حـازيين وراقيـاً ... وعلـق أنجاسـاً علـى المـنجَّس

والمنجَّس : الذي يعلَّق عليه عظامٌ أو خِرَق ، ويقال للمُعَوِّذ مُنَجِّس ، وكان أهل الجاهليَّة يعلِّقون على الصَّبي ومن يخاف عليه عيون الجنِّ الأقذار من خرق المحيض ويقولون : الجنُّ لا تقربها[١] .

وقال ابن الأعرابي : النُّجُس ، بضمَّتين : المعوذون[٢] .

قال أبومنصور : التمائم واحدتها تميمة ، وهي خرزات كانت العرب يعلقونها على أولادهم ، يتقون بها النفس والعين بزعمهم ، فأبطلها الإسلام[٣] .

وإياها أراد الهذلي بقوله[٤] :

وإذا المنيَّـةُ أنـشبت أظفارَهَـا ... ألفيـت كُـلَّ تميمـةٍ لا تَنْفَـعُ

وقال آخر :

إذا مـات لـم تفلـح مزينـة بعـده ... فنوطي عليه يا مزين التمائما[٥]

=

فعل فعلا يخرج به من النجاسة . انظر : الحسن بن محمد بن الحسن القرشي (ت: ٦٥٠هـ) : العباب الزاخر واللباب الفاخر ، (د.ت) ، (د.ط) ، ١/ ٢٠٢ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٦/ ٥٣٦ .

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٦/ ٢٢٦ .

(٢) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٠/ ٣١٤ ، الزبيدي : تاج العروس ، ١٦/ ٥٣٧ .

(٣) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٤/ ١٨٤ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ٧٠ .

(٤) ديوان الهذليين ، ١/ ٣ ، القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ١/ ٥٣٦ .

(٥) انظر : عبدالله بن مسلم بن قتيبة : غريب الحديث ، ١/ ٤٥٠ ، الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٤/ ١٨٥ .

وفي الاصطلاح : هي كلُّ ما يعلَّق على المرضى والأطفال والبهائم أو غيرها من تعاويذ لدفع البلاء أو رفعه[١] .

ومن أنواع التَّمائم الحُجُب التي يكتبها المشعوذون ويكتبون فيها طلاسم وكتابات لا يُفهم معناها تنطوي على الشِّرك والاستعانة بغير الله[٢] .

أيضاً منها الودع وجلود الحيوانات والخيوط والأوتار والقلائد والعقد التي يرقى فيها وتعوذ من قبل الكُهَّان والسَّحرة والمنجِّمين بتعويذات ورُقى قائمة على الاستغاثة بالجنِّ والشَّياطين ، فتُعَلَّق على الأطفال والبهائم أو على السِّلع وأبواب البيوت يزعمون أنَّها سببٌ لدفع العين ، أو جلب الرِّزق . ومنها لبس حلقة من الفضة أو الصفر للبركة أو دفع الوهن ، ولبس بعض الخواتم التي لها فصوص معيَّنة يعتقدون أنها تنفع أو تدفع عنهم ، ومنها أيضاً تعليق ناب الضَّبع من العين ، أو عين الذِّئب من الجنِّ ، أو خرز يصنع من عظم النسر ، للنَّفس وغيرها[٣] .

وقد انتشرت التمائم في الجاهليَّة ، فكانوا يتَّخذونها حرزاً ووقاية من الآفات والعيون والأمراض ودفع الضرِّ أو حلول البركة والاستشفاء من

---

(١) انظر : ابن عبدالبر : التمهيد ، ١٧/ ١٦٢ ، تفسير القرطبي ، سورة الإسراء ، الآية (٨٢) ، ١٠/ ٣٢٠ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، مادة (تمم) ، ١/ ١٩٧ ، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ) : القوانين الفقهية ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص٢٩٥ .

(٢) انظر : عبدالله بن عبدالعزيز الجبرين : مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية ، مكتبة الرشد ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ ، ص : ١١٧ .

(٣) انظر : ابن عبدالوهاب : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص : ١٢٧ .

الداء لدى الأطفال والنِّساء والرِّجال والأنعام ، ولا يكاد أحدهم يتحرَّك إلَّا وفي رقبته أو في عضده أو في دابَّته عوذة أو منجسة ، حتى تنجَّست أفكارهم ، وغلبت عليهم الوساوس والشُّكوك وأصابتهم الرَّهبة من العين والجنِّ والشَّياطين ، على أنَّها تضرُّهم من دون الله ، وكان أحدهم لا يتقدَّم أو يسير إلى مكان حتى يعلِّق عوذته أو تميمته ظنًّا منه أنَّها تقيه شرَّ العين ، أو تحميه من ضرر الجنِّ والشَّياطين ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1] . أي : فزادت الجنَّ عليهم جرأة[2] .

فجاء رسول الله والنَّاس على ذلك ، فأعاد النَّاس إلى الإيمان بالله وحده ، والتَّوكُّل عليه والتَّعلُّق به ، وأبطل كُلَّ تُرَّهات الجاهليَّة ومظاهرها الشركيَّة ونفاها ، ونهاهم عنها وحذَّر منها أشدَّ التحذير ، فعن عقبة بن عامرٍ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيْمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَه ، ومَنْ تَعَلَّق وَدَعَةً فلا وَدَعَ اللهُ لَه»[3] .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر ، فقال : «مَا هَذَا»؟ قال : من الواهنة ، فقال : «انزَعْهَا ؛ فَإِنَّها لا تَزِيْدُكَ إلَّا وهنا ، فإنَّك لو مِتَّ وهي عليك مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»[4] ؛ لخطورة

(١) سورة الجن ، الآية (٦) .

(٢) انظر : الطبري : جامع البيان ، ٢٣/ ٦٥٦ ، ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ٨/ ٢٣٩ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل ، ت : التركي ، ٢٨/ ٦٢٣ ، برقم (١٧٤٠٤) ، ومستدرك الحاكم ٤/ ٢٤٠ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٤) مسند أحمد بن حنبل ، ت : التركي ، ٣٣/ ٢٠٤ ، برقم (٢٠٠٠٠) ، وابن ماجه في سننه ، ٤/ ٥٥٦ ، برقم (٣٥٣١) ، وابن حبان ، برقم (١٤١٠) وصحح الحديث =

هذا المعتقد الشركي ومآل صاحبه إلى الخسران .

والواهنة : وجع في الذراع أو العضد ، قوله : من الواهنة : قال أبوالسعادات : الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كُلِّها ، فيرقى منها ، وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وهي تأخذ الرِّجال دون النساء ، وإنَّما نهى عنها ؛ لأنَّهُ إنَّما اتَّخذها على أنَّها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد ، وقوله ﷺ : «انزعها» ، فيه أمر من النبيِّ ﷺ بنزعها ، قوله : «فإنَّها لا تزيدك إلَّا وهنـًا» ، يعني : أنَّ ضررها أقرب من نفعها ، وهذا شامل لجميع أنواع الشرك ، فإنَّ ما أشرك به ضرره أعظم من نفعه لو فرض أنَّ فيه نفعـًا . وقد قال العلماء في قوله : «انزعها فإنَّها لا تزيدك إلَّا وهنـًا» يعني : لو كان فيها أثر فإنَّ أثرها الإضرار بدنيـًا ، وروحيـًا ، ونفسيـًا ؛ لأنَّها تضعف الرُّوح والنَّفس عن مقابلة الوهن والمرض ، فيكون تعلُّقه بتلك الحلقة أو الخيط سببـًا في حصول الضعف . وقوله : «فإنَّها لا تزيدك إلَّا وهنـًا» : وهذا حال كُلِّ من أشرك فإنَّ شركه يجره من ضررٍ إلى ضررٍ أكثر منه ، وإن ظنَّ أنَّهُ في انتفاع . وأمَّا قوله ﷺ : «فإنَّك لو مِتَّ وهي عليك ما أفلحتَ أبداً» : الفلاح هو النَّجاةُ من المرهوب وحصول المطلوب[1] .

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالنَّهي عن التَّمائم وأَمْرِ النَّاس بنزعها وبيان

=

الحاكم ، ووافقه الذهبي .

(١) انظر : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (ت : ١٣٩٢هـ) : حاشية كتاب التوحيد ، ط : ٣ ، ١٤٠٨هـ ، ص : ٧٧ ، لقمان حسن أمين : الترتيب الفريد من شروحات كتاب التوحيد ، (د.ط) ، (د.ت) ، ١١/ ١٢ .

ضررها وعدم نفعها ، بل أمر بإزالة ما عُلِّق منها على البهائم ، ففي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه «أَنَّهُ كَانَ مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولًا : أن لا يبقين في رقبةِ بعيرٍ قلادة من وتر أو قلادة إلَّا قُطِعَتْ»[1] .

وعن زينب[2] زوجة عبدالله بن مسعود ، قالت : كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة ، وكان عبدالله إذا دخل تنحنح وصوَّت[3] ، فلمَّا سمعت العجوز صوته احتجبت منه ، فجلس إلى جانبي ، فمسَّني فوجد خيطًا ، فقال : ما هذا؟ فقلت : رقي لي فيه من الحُمَّى ، فجذبه فقطعه ، وكأنَّ هذه المرأة العجوز هي التي رَقَتْ رقيةً في هذا الخيط وعلَّقته في رقبتها ،

---

(١) رواه البخاري ، برقم(٣٠٠٥) ، ومسلم ، (اللباس/ ١٠٥) ، وأحمد ٥/ ٢١٦ ، وأبوداود ، برقم(٢٥٥٢) .

(٢) زينب ، ريطة بنت عبدالله بن معاوية الثقفية ، امرأة عبدالله بن مسعود ، وهي أم ولده ، روي عن عبيدالله بن عبدالله ، عن رائطة ، وكانت امرأة صناعًا ، وليس لعبدالله بن مسعود مال ، فكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمن صنعتها ، فقالت : والله لقد شغلتني أنت وولدك عن الصدقة! فقال : ما أحب إن لم يكن لك أجر أن تفعلي ، فسألت رسول الله ﷺ فقالت : إنِّي امرأة ذات صنعة فأبيع ، وليس لي ولا لوالدي ولا لزوجي شيء ، ويشغلونني فلا أتصدق ، فهل لي في النفقة عليهم من أجر؟ فقال : «لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم ، فأنفقي عليهم» . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٧/ ١٢٢ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ١٤٨ .

(٣) وصوَّت ، أي : رفع صوته شيئًا بحيث لا يزعج أهل البيت ، وهذا من الأدب ، فالرجل إذا دخل بيته ينبغي عليه ألَّا يدخل عليهم فجأة ، فقد يكونون على هيئة يستحيون أن يراهم عليها ، فيشعرهم بصوته أنَّه دخل ، والأفضل أن يدخل ويسلم . انظر : أحمد حطيبة : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، (د.ت) ، (د.ط) ، ٩/ ١٧ .

فبعد أن قطع هذا الخيط . قال رضي الله عنه : لقد أصبح آل عبدالله أغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ الرُّقى والتَّمائم والتُّولة شِرْكٌ»[1] .

وأيضًا قطع حذيفة رضي الله عنه خيطًا من يد رجل ، ثُمَّ تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2] . وقد جعلت التمائم من الشِّرك لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموات والعين ، فأرادوا دفع ذلك بها ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله ، فكأنَّهم جعلوا له شريكًا فيما قدَّر وكتب من أحوال العباد ، فيجب على المسلم أن يتوكَّل على الله وأن يعتقد تمام الاعتقاد أنَّه لن يصيبه إلَّا ما قدَّره الله وقضاه وكتبه عليه قبل أن يخلق .

فعلى ماذا إذن الخوف والهلع والوساوس ، وقد أبدلنا الله تعالى أيضًا بالأذكار التي تحثُّ على التوكُّل على الله سبحانه وتعالى ، مثل قول : بسم الله ، توكَّلت على الله ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ، عند الخروج من بيته ، والرقى من القرآن يستشفي بها ، أو الدعاء : اللهم اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلَّا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقمًا ، وغير ذلك من الأدعية التي فيها استغاثة بالله سبحانه وتعالى واعتماداً عليه وحده .

ثالثًا : التِّولة :

ومن مظاهر الشرك المتداولة عند النِّساء التولة التي تلحق بالرقى

(١) انظر : أحمد حطيبة : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ٩/ ١٧ .

(٢) سورة يوسف ، الآية (١٠٦) .

والتمائم ، وهي جزءٌ منها ، إلَّا أنَّ المقاصد تختلف ، فإذا كان المقصد مثلًا دفع العين وغيرها فتسمَّى تعويذة ، وإذا كان المقصود تحصيل المودَّة والمحبَّة بين الزَّوجين فهذه تسمَّى التولة وهي من عمل السِّحر والسَّحرة[(١)] .

والتولة لغة : تال يتول إذا عالج التولة ، وهي السِّحر[(٢)] ، وقال الخليل : التُّولة والتِّولة بكسر التَّاء وضمِّها : شبيه بالسِّحر[(٣)] . وقال الأصمعي : التِّولة سحر ، وهو الذي يحبِّب بين المرأة وزوجها ، وأمَّا التُّولة بالضمِّ فهي الداهية ، ومعناها : بليَّة ومصيبة وأمرٌ منكر ، وفي حديث بدر ، قال أبوجهل : إنَّ الله قد أراد بقريش التولة ، بضمِّ التاء وفتح الواو : الدَّاهية[(٤)] . وامرأة داهية : هي التي لا يؤمن جانبها من المكر والسِّحر والنَّميمة[(٥)] .

والتِّوَلة شرعًا : بكسر التَّاء وفتح الواو : ما يُحَبِّب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره[(٦)] .

---

(١) انظر : محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) : موسوعة الألباني في العقيدة ، صنعه : شادي آل نعمان ، مركز النعمان للبحوث ، صنعاء - اليمن ، ط : ١ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م ، ٣/ ١٠٣٤ .

(٢) انظر : الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٦٤٥ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ٨١ ، الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، ١/ ١٢٥٥ .

(٣) انظر : الجوهري : الصحاح ، ٤/ ١٦٤٥ .

(٤) انظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ١/ ٣٥٩ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١١/ ٨١ .

(٥) انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٢٠٠ .

(٦) انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٢٠٠ .

وقال ابن حجر : التِّولة بكسر المثناة ، وفتح الواو واللام مخفَّفًا : شيءٌ كانت المرأة تجلب به محبَّة زوجها ، وهو ضرب من السحر[(١)] .

وعدَّها رسول الله ﷺ من الشِّرك فقال : «إنَّ الرُّقى والتَّمائم والتولة شرك»[(٢)] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : «ثَلَاثَةٌ مِنَ السِّحْر : الرُّقَى ، وَالتِّوَلُ ، وَالتَّمَائِمُ»[(٣)] .

والتولة : هي أن تذهب المرأة إلى السَّاحر ليجعل لها سحراً بزعم أنَّه يحبِّبها إلى زوجها فلا يتزوَّج عليها ، وهذا من الشِّرك بالله ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٤)] .

فالتولة إذاً سحر ، والسِّحر لا ينفكُّ عن الشِّرك ، فمن أقسام السِّحر ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه ، ومنه ما يحبِّب بين المرء وزوجه ، وكلاهما كفر[(٥)] .

وهو ما يسمَّى أيضًا بسحر الصَّرف ، وسحر العطف ، فمن صور

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ١٩٦ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب في تعليق التمائم ، برقم (٣٨٨٣) ، ٤/ ٩ ، ومسند الإمام أحمد ، برقم (٣٦١٥) ، ١/ ٣٨١ ، و الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، برقم (٧٥٠٥) ، ٤/ ٢٤١ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (٧٨٢٣) ، ٨/ ٢٤٠ .

(٤) سورة البقرة ، آية : (١٠٢) .

(٥) انظر : مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، ص : ٢٤٤ .

سحر الصَّرف ، وهو التَّفريق بين الزوجين ويسمَّى : العقد أو العصب ، وله صور عديدة حسيَّة ومعنويَّة ، فالحسيَّة كأن يؤخذ الرجل عن زوجه فلا يستطيع جماعها إمَّا بعنَّة يجدها عند الاقتراب منها وإرادته الجماع ، وإمَّا بحدوث إمناءٍ سريع ونحو ذلك ، ومنها المعنوي : كانعدام شهوة أو تقبيح صورة أو معاناة من كثرة غيرة مع عدم وجود مسوِّغ شرعي لذلك ، أو الإحساس براحة نفسيَّة في حال ابتعاده عن امرأته[1] .

وقد يحدث الربط أيضاً للمرأة ، ومن أنواعه ما يسمَّى بالتغوير ، وهو شعور الزوج بأنَّ المرأة التي وقع اختياره عليها ليست مناسبة ، مما يتسبب بالتفريق بينهما في مرحلة مبكِّرة من الزَّواج -والعياذ بالله- ومن ربط المرأة أيضاً ، التصفيح أو الانسداد ، فلا يتمكَّن الرجل من الإيلاج ، ومنه ربط نزيف الجماع ، فكلَّما أتاها زوجها ركض الشَّيطان في عرق عند الرحم فينفجر العرق فيسيل الدم ، فلا يتمكَّن الزوج من مجامعتها ، وقد لا يكون الرَّبط للمرأة محسوساً ، كما سبق ، بل قد تمنع المرأة من غير إرادة منها إتيان زوجها لها ، أو قد تتبلَّد تبلُّداً تامًّا عند عمليَّة الجماع فلا تستجيب لزوجها مَّا ينفِّره من جماعها ، فالأول منها يسمَّى ربط المنع ، والآخر ربط البرود أو التبلُّد[2] .

أمَّا التِّوَلة : المعروفة بسحر المحبَّة ، وهو الذي يسمى بـ(العطف) ،

---

(١) انظر : د خالد بن عبد الرحمن الجريسي : التحصين من كيد الشياطين ، دراسة تأصيليَّة مستفيضة لقضايا : العين ، والحسد ، والسحر ، والمسِّ وغيرها ، مع بيان المشروع من التحصين ، والرُّقي ، وأصولِ التداوي ، (د.ت) ، (د.ن) ، ١/ ٩٢ .

(٢) انظر : د.خالد الجريسي : التحصين من كيد الشياطين ، ١/ ٩٥ ، وحيد عبدالسلام بالي : الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، ص١٨٥ .

ويكون غالبًا بطلب المرأة من ساحر أن يوقع محبَّةً بها في قلب زوجها وشغفًا زائداً ، فيأمرها عند ذلك بإحضار أثر من ثياب زوجها مثلًا ، غيرَ مُنَظَّفٍ ولا طاهر ، ثم يأخذ خيوطًا منه فيعقدها وينفث بها ، ثم تدفن في مكان مهجور ، أو تعلِّقه في عنقها ، أو يقرأ ما يأمره به شيطانه من أقوال أو أفعال ، تتضمَّن شركًا بالله -والعياذ بالله- يقرأ ذلك على ماء نجس ، أو على قطرات من دم ونحوه ، ثُمَّ تخلطه المرأة بما يَطْعَمُه أو يُسقاه زوجُها ، فيصير الزوج - والعياذ بالله- منقادًا لها ، وقد تملَّكه حبُّها ، حتى وإن عصت وأضرَّت به ، وتشتدُّ غَيْرته عليها ، ويُفرِط في جماعها ، ولا يصبر عنها ، ولا يُخالِف أمرها ، ويطيعها طاعةً عمياء من شدَّة السِّحر وما يجده من الحب .

والتولة أيضًا من مراتب الحب : فأوَّلها الهوى ثُمَّ العشق ، ثم الشَّغف أو اللوعة ، ثُمَّ الجوى ، ثُمَّ التيم ، ثُمَّ النَّيل ، ثُمَّ التولُّه ، وهو ذهاب العقل من الحُبِّ ، ثم الهُيَام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه فلا يدري أين هو ، ولهذا قالوا : الهائم لا يقصر الصَّلاة ؛ لأَنَّهُ لا جهة له معيَّنة ولا مُدَّة معلومة[1] ، فحال المسحور وما أصابه من التَّوَلُّه والحب ، كما قال الشاعر :

(١) انظر : أيوب بن موسى الكفوي أبوالبقاء : كتاب الكليات ، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ت : عدنان درويش - محمد المصري ، ص : ٣٩٨ .

هو الحبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضنى به وله عقل

جرى حبُّها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كُلِّ شغل بها شغل[١]

فبئسما صنعت فلو أنها عمدت إلى التحبُّب إلى زوجها فكانت عروبًا تكثر التزيُّن والتَّجمُّل له ، تستقبله بتبسُّمٍ مشرق ، وتحسن عشرته وتخاطبه بلين القول وتريه جميل الفعال في رعاية أبنائه والحفاظ على ماله والحرص على طاعته لوجدت بإذن الله تعلُّقًا عاقلًا مستمرًا غير منقطع في قلب زوجها ، لا تعلُّقًا أبله ذاهل صاحبه لا يدري ما يصنع ثم إذا انتهى مفعول هذه التوله فسدت وانقلبت بغضًا وكرهًا وربَّما لم تنفع معه تولة أخرى مستجدة الصلاحية ، قال النبيُّ ﷺ : «إنَّ الرُّقى والتَّمائم والتُّولة شِرْكٌ»[٢] .

وها هي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تطرد ساحرة سألتها عن استخدام التِّوَلَة في ربط زوجها ، عن ابنِ المُسَيَّبِ قال : دَخَلَتِ امرأةٌ على عائشَةَ رضي الله عنها ، فقالت : هل عليَّ حَرَجٌ أن أُقَيِّدَ جَمَلي؟ قالت : قَيِّدِي جَمَلَكِ ، قالت : فأحبِسَ عليَّ زَوجِي . فقالت عائشَةُ رضي الله عنها : أخرِجوا عَنِّى السَّاحِرَةَ ، فأخرَجوها[٣] .

---

(١) عبدالقادر بن ملّا حويش (ت: ١٣٩٨هـ) : بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول] ، مطبعة الترقي – دمشق ، ط : ١٣٨٢هـ – ١٩٦٥م ، ٣/ ٢٠٤ . وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٥/ ٢٧٧ .

(٢) انظر : أحمد حطيبة : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ٩/ ١٧ .

(٣) أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) : السنن الكبير ، باب ما جاء في النهي عن الكهانة وإتيان الكهَّان ، ت : د.عبدالله التركي ، مركز هجر للبحوث ، ط : ١ ، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م ، ١٦/ ٤٩٣ ، البغوي : شرح السنة ، ١٢/ ١٩٠ .

وقولها : أقيد جملي : تعني زوجها ، وتقييده : أي تصنع له تولة أو تأخذه عن النِّساء ، وإنَّما كرهت هذا لأنَّه سحر[١] .

والتِّولة : أيضاً ضرب من الخرز توضع للسحر ، فتحبَّب بها المرأة إلى زوجها[٢] .

وجميع هذه الأفعال هي من أعمال الجاهليَّة ، ومن أفعال المشركين ، وما تمليه عليهم السَّحرة والشياطين ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[٣] .

فالسِّحر إذاً من أكبر الكبائر ، بل هو الشِّرك بعينه ، على ما فيه من الإضرار بالنَّاس ، فمن سحر فقد كفر وباء بالخسران .

ومن العلاج الذي ينفع في فكِّ السِّحر الحجامة ، وقد احتجم رسول الله ﷺ من السِّحر[٤] . أو أن يأخذ المسحور سبع ورقات من السِّدر ، ويضعها في إناء يقرأ عليها المعوِّذات وبعض آيات من القرآن ثم يغتسل بها . أيضاً يجب على المرء أن يحافظ على قراءة سورة البقرة فإنَّها لا تستطيعها البطلة ، ويحافظ على الأذكار دُبُرَ كُلِّ صلاة ويستعين بالله ويتوكَّل عليه[٥] .

---

(١) انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/ ٢٠٠ .
(٢) انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٩/ ٥٣٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٠٢) .
(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١٠/ ٢٢٩ .
(٥) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٢/ ٤٩ ، ابن كثير : تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٧٢ ، عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين (ت : ١٤٣٠هـ) : شرح العقيدة الطحاوية ، دروس صوتية من موقع الشبكة الإسلامية ، ٤/ ٩٦ .

المبحثُ الرَّابع :
محاربةُ العقائد والعادات والتقاليد الشركية (الذَّبح ، والنَّذر ، والحَلِفُ بغير الله ، والاعتقاد في النجوم ، والاستقسام بالأزلام ، وأمر البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام)

وفي هذا المبحث الأخير من الفصل الرابع سأتناول إن شاء الله جملةً من المظاهر الشركيَّة التي كانت سائدة في جزيرة العرب قبل الإسلام ، والتي كانت مُصاحبةً للأوثان المعظَّمة عندهم ، حتَّى جاء الإسلام فأبطلها وحذَّر منها وحرَّمها ، فمن بينها :

أولًا : الذَّبح لغير الله :

ومن العبادات العظيمة التي خصَّ الله تعالى بها نفسه ، عبادة الذَّبح نُسُكًا أو تقرُّبًا ، فلا يجوز أن تُصرف هذه العبادة لغير الله كائنًا من كان ، لا نبيًّا مقرَّبًا ولا ملَكًا مكرَّمًا ، ولا صنمًا منصَّبًا ولا شيطانًا ولا شجراً ولا حجراً ولا بشراً ، فالذَّبح من أَجَلِّ القُرُبات وأعظم العبادات وتعظيم للمعبود ، فمن صرف شيئًا من العبادات لغير الله عزَّ وجلَّ فقد أشرك .

معنى الذَّبح : ذبحته أذبحه ذبحًا . والذَّبح : الشَّقُّ أو قطع الحلقوم من المذبح .

كأنَّ بين فكِّها والفكِّ   فأرة سكٍّ ذبحت في سَكِّ[1]

والذَّبح : مصدر ذبحت الشَّاة ذكَّيتها ، والتَّذكية هي الذَّبح أو النَّحر ، ما أنهر الدَّم ، والنَّحر يكون في اللبَّة آخر العنق الموضع الذي تُنْحَر منه الإبل ، قال عدي بن زيد يصف الغيث :

مَرِحٌ وَبْلُهُ يَسُحُّ سُيُوبَ الماءِ   سَحًّا ، كأَنَّهُ مَنْحُورُ[2]

---

(١) انظر : ابن دريد : جمهرة اللغة ، ١/ ٢٧٣ .

(٢) انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ١٦٤ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٢/ ٤٣٦ ، ٢/ ٥٩٢ ، ١٤/ ٢٨٨ .

أمَّا الذَّبح فيكون في الحَلق أسفل مجامع اللِّحيين وهو آخر العنق تحت عقدة الحلقوم مباشرة ، لتكون العقدة ممَّا يلي الرأس ، فيُقطع الحلقوم والمريء والودجين[١] ، وهو الموضع الَّذي تُذْبَحُ منه البقر والغنم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾[٢] ، وأن يحذر النَّخع ، والنَّخع هو أن يبلغ بالسِّكين النُّخاع ، وهو عرق أبيض في جوف عظم الرَّقبة[٣] ، لحديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الذَّبيحة تفرس قبل أن تموت[٤] ، والفرس : أن تُذْبَحَ الشَّاة فتنخع ، وقيل : أن تُكْسَر عنقها قبل أن يسكن اضطرابها[٥] ، فالنَّخع يتسبَّب في شلل أعضاء الذبيحة وسكون القلب ، ومن ثَمَّ إيقاف تدفُّق الدم فلا يزكوا لحمها .

والثَّجُّ : صبُّ الدَّم وسيلان دماء الهدي ، يعني الذَّبح[٦]. والذِّبح بالكسر : ما يُذبح من الهدي[٧] ، قال تعالى : ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ

---

(١) يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني الشافعي (ت : ٥٥٨هـ) : البيان في مذهب الإمام الشافعي ، ت : قاسم محمد النوري ، دار المنهاج - جدة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م ، ٤/ ٥٣١ ، محمد بن محمد بن محمود أكمل الدين البابرتي (ت : ٧٨٦هـ) : العناية شرح الهداية ، دار الفكر ، (د.ط) ، (د.ت) ، ٩/ ٤٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية (٦٧) .

(٣) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٨/ ٣٤٨ .

(٤) رواه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأحزاب ، ٥/ ٣٥٥ ، برقم (٣٢١٥) وحسنه الترمذي ، والطبراني : المعجم الكبير ، ١٢/ ٢٤٨ ، برقم (١٣٠١٣٠) .

(٥) أكمل الدين البابرتي (ت : ٧٨٦هـ) : العناية شرح الهداية ، ٩/ ٤٩٧ .

(٦) انظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ٢٠٢ ، ٦/ ١٣ ، الجوهري : الصحاح ، ١/ ٣٦٢ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٢/ ٣١٨ .

(٧) انظر : الجوهري : الصحاح ، ١/ ٣٦١ .

عَظِيمٍ ﴾[١] .

أَمَّا تعريف الذَّبح لغير الله فأعرِّفه بأَنَّهُ : إزهاق روح حيوان بإنهار دمه تعبُّداً .

فكان العرب في الجاهليَّة يعبدون الأصنام ويشركونها بالله عزَّ وجلَّ ، يذبحون لها القَرَابين والنُّسُك ، ويُهِلُّون لها ، ويعظِّمونها ، ويتقرَّبون إليها بالذَّبح ، وكانوا يُسَمُّون ذبائحهم التي يذبحون عند أصنامهم العتائر .

والعتيرة في كلام العرب : الذَّبيحة ، ويُسَمُّون المذبح الذي يذبحون فيه لها العتر ، ففي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى[٢] :

فَزَلْ عنها ووافَى رَأْسَ مَرْقَبَةٍ   كناصبِ العِتْرِ دمَّى رأسَهُ النُّسُكُ

وقال آخر :

تظلُّ جنابه صَرْعَى لَدَيْهِ   عَتَائِرُ مِن ذَخَائِرِ كُلِّ رَاعِ[٣]

وقد كان الوليد بن المغيرة يأتي إلى العزَّى بحترة مائة من الإبل والغنم فيذبحها للعزَّى ويقيم عندها ثلاثًا[٤] . وكان للعزَّى منحر ينحرون فيه هداياهم التي يهدون لها ويقسمون لحومها فيمن حضرها وكان عندها[٥] .

---

(١) سورة الصافات ، الآية : (١٠٧) .

(٢) زهير بن أبي سلمى : ديوانه ، ص٣٣ ، ابن الكلبي : الأصنام ، ١/ ٣٤ .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٧ . وانظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٢١/ ٢٤٢ .

(٤) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ٨٧٤ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ١٢ .

(٥) ابن الكلبي : الأصنام ، ١/ ٢٠ ، وانظر : د. جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١١/ ٢٣٩ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٩/ ١٧ .

وكان لعنزة[(١)] صنم يقال له سعير يذبحون عنده العتائر ، ومن كثرة ما كانوا يذبحون عنده ، يقول جعفر بن أبي خلاس[(٢)] ، حين خرج على ناقته فمر به والعتائر حوله فنفرت الناقة منه ، فأنشأ يقول :

نَفَرَتْ قَلُوصِي من عَتَائِرَ صُرِّعَت حَـوْلَ السَّعير تَـزُوْرُه ابنا يقـدم
وجمـوع يذكـر مُهْطِعِـينَ جَنَابه مـا إن يحـير إليـهم بتكَـلُّم[(٣)]

وكان لمزينة صنم يقال له نَهْم ، وسادنه يسمى خزاعى بن عبد نهم ، من مزينة ثم من بني عداء ، فلمَّا سمع بالنبيِّ ﷺ ثار إلى الصَّنم فكسره ، وأنشأ يقول :

(١) عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، من عدنان : جدّ جاهلي ، كان من منازل بنيه في الجاهلية جبال السراة ، وكان لهم صنم اسمه سعير ، ونزلوا بعد الإسلام بعين التمر من برية العراق ، على ثلاث مراحل من الأنبار ، ثم انتقلوا إلى جهات خيبر ، وهم الآن عشائر كبيرة ببادية الشام ونجد والحجاز والعراق ولهم رحلات ينتجعون بها المراعي . انظر : ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) : تاريخ ابن خلدون ، ٦/ ٤٩ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٩٢ .

(٢) جعفر بن أبي خِلاس بن مالك بن امرئ القيس بن كعب بن عبدالله بن كنانة ، شاعر جاهلي من بني كلب ، كان رئيس بني عبدالله يوم نهادة وقد قتل في ذلك اليوم ، له شعر ورد فيه أنَّه خرج على ناقته فمر على صنم لعنزة ، وكانت عنزة قد ذبحت له الهدي ، ففزعت ناقته من منظر الدماء فأراد أن يهدمه فقيل له : إنَّهُ ربٌّ فتركه .انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٤١ ، موقع الموسوعة الشعرية : معجم الشعراء العرب ، ص : ١٠٧٥ .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٤١ ، وانظر : عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ت : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : ٤ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ٧/ ١٤٢ .

ذهبتُ إلى نَهْمٍ لأَذْبَحَ عنده عتيرةَ نُسْكٍ كالذي كُنْتُ أَفْعَلُ
فَقُلْتُ لنَفْسِي حينَ راجعتُ عَقْلَها أَهَذَا إِلَهٌ أيكم ليس يعقلُ
أَبَيْتُ فَدِيني اليومَ دينُ محمَّدٍ إلهُ السَّمَاءِ المَاجِدُ المتفَضِّلُ[١]

ثُمَّ لَحِقَ بالنبيِّ ﷺ فأسلم ، وضمن له إسلام قومه مزينة[٢] .

فالذَّبح عبادة شرعها الله لنفسه سبحانه ، فيحرم أن تصرف لغير الله ؛ لأنَّ الله هو الخالق المنعم المتفضِّل على بني آدم ببهيمة الأنعام ، فمِنْ شُكْرِ النِّعمة أن تُذبح لله وعلى اسم الله ، وأن يُهلَّ بها لله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٤] .

كما أمر الله سبحانه عباده بالتقرُّب إليه بالذَّبح ، ونحر الهدي والنُّسُك والأضاحي ، قال تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[٥] . وقد امتثل النبيُّ ﷺ أمر ربه ، فكان كثير الصَّلاة لربِّه ، كثير النَّحر ، فقد نحر يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل أبي جهل ، وكانت لما صُدت عن البيت حنَّت كما

---

(١) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٤١ .
(٢) انظر : عبدالقادر البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ٧/ ٢٣٠-٢٣١ ، توفيق برو : تاريخ العرب القديم ، دار الفكر ، ط : ٢ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ، ١/ ٣١١ .
(٣) سورة الحج ، الآية (٢٨) .
(٤) سورة الأنعام ، الآية (١٢١) .
(٥) سورة الكوثر ، الآية (٢) .

تحنُّ إلى أولادها ، وأهدى رسول الله ﷺ في حجَّة أبي بكر رضي الله عنه عشرين بدنة قلَّدها وأشعرها بيده ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي ، وأهدى رسول الله ﷺ أيضـًا في حَجَّة الوداع مائة بدنة لله عزَّ وجلَّ نحر منها بيده الشريفة ثلاثـًا وستِّين بدنة ، ثُمَّ أمر عليـًا أن ينحر ما بقي منها ، وقد أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين يُضَحِّي كُلَّ سنةٍ ويذبح لله في الأعياد وغيرها ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] . والنُّسُك هي الذبيحة ابتغاء وجهه تعالى ، وهي أجَلُّ العبادات الماليَّة ، وما يجتمع للعبد في نحره من إيثار الله وحسن الظن به وقوة اليقين وكمال التوحيد والوثوق بما في يد الله سبحانه أمرٌ عجيبٌ إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص[2] . لذلك فقد نهى رسول الله ﷺ عن الذَّبح لغير الله ، فقال : «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[3] .

وبيَّن عقوبة من ذبح لغير الله ، وأنَّ مصيره النَّار ، روى الإمام أحمد ، عن طارق بن شهاب ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : «دَخَلَ الجَنَّة رَجُلٌ في ذُبَاب ، ودَخَلَ النَّار رَجُلٌ في ذُبَاب» ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال : «مَرَّ رَجُلانِ على قوم لهم صَنَمٌ لا يجوزُهُ أَحَدٌ حتَّى يُقَرِّبَ له شَيْئًا ، فَقَالُوا لأحدهما : قَرِّب ، قال : ليس عندي شيءٌ أُقَرِّبه ، قالوا له : قَرِّب ولو ذُبَابًا ، فَقَرَّبَ ذُبَابًا ، فَخَلُّوا سبيله ، فدخل النَّار ، وقالوا للآخر :

(١) سورة الأنعام ، الآيتان : (١٦٢-١٦٣) .

(٢) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ١٥/ ٥٣٢ ، د.عبدالعزيز بن محمد آل عبد اللطيف : تعليقات على كشف الشبهات ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ٤٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الأضاحي ، برقم (١٩٧٨) ، ٣/ ١٥٦٧ .

قَرِّبْ ، فقال : ما كنت لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئًا دون الله عزَّ وجل ، فضربوا عنقه ، فدَخَلَ الجَنَّة»[1] . وهذا الحديث يُبَيِّن عِظَم ذنب من تقرَّب إلى الأصنام أو غيرها ممَّا يُعبد من دون الله بالذَّبح ولو كانت مجرَّد ذبابة مع هوان الذُّباب وقذارته إلَّا أنَّ مصير من فعل ذلك أنَّهُ من أهل النار .

قال أبوعبيد : في حديث النبيِّ عليه السلام أنَّهُ نهي عن ذبائح الجنِّ ، قال : وذبائح الجنِّ أن يشتري الدَّار أو يستخرج العين وما أشبه ذلك فيذبح لها ذبيحة للطيرة . قال : وهذا التَّفسير في الحديث ومعناهُ أنَّهم يتطيَّرون إلى هذا الفعل مخافة أنَّهم إن لم يذبحوا ويطعموا أن يصيبهم فيها شيءٌ من الجن يؤذيهم فأبطل النبِيٌّ عليه السلام ذلك ونهى عنه[2] .

فلا يجوز لأحدٍ أن يذبح لغير الله تعالى ، أو أن يسمِّي على الذَّبيحة غير اسم الله ؛ لما في ذلك من التعظيم والتعبُّد لغير الله عزَّ وجلَّ والإشراك به ، والتعدِّي على شرع الله وما اختصَّ به نفسه سبحانه والله تعالى أعلم .

---

(١) أحمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) : الزهد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص : ١٦ ، أبونعيم الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١/ ٢٠٣ ، وانظر : حافظ الحكمي (ت : ١٣٧٧هـ) : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ، ت : عمر بن محمود أبو عمر ، دار ابن القيم - الدمام ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ٢/ ٤٥٤ .

(٢) القاسم بن سلام : غريب الحديث ، ٢/ ٢٢١ .

ثانيًا : النَّـــذْرُ :

ومن العبادات التي كان المشركون في الجاهليَّة يتقرَّبون بها للأصنام عبادة النَّذر ؛ لأنَّ العرب قبل ذلك كانوا على الإسلام دين الله ، قال ﷺ : «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لعَلَّات ، أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى وَدِيْنُهُم وَاحِدٌ»[١] ، فكانوا يحجُّون البيت ويسوقون الهدي ويذبحون لله وينذرون ويحرِّمون الأشهر الحرم ويقفون بعرفة ويسعون بين الصفا والمروة ويعتكفون ويرمون الجمار وغيرها من شرائع الإسلام ، قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[٢] ، فكانوا على هذه الشَّرائع حتَّى قام عمرو بن لحي وأدخل الأصنام وفرض الشرك على أنَّها تُقَرِّبهم إلى الله زلفى ، فأصبحوا يذبحون لها ويطوفون بها ويتوسَّلون إليها ويدعونها ، فأشركوها مع الله في ما شرع من الدِّين ، فمن هذه الشَّرائع التي شرعها الله عبادة النَّذر ، قال تعالى : ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا﴾[٣] .

فالنَّذر في اللغة : الإبلاغ ، ولا يكون إلَّا في التخويف[٤] ، قال الزَّمخشري[٥] : لا يكون الإنذار إلَّا إعلامًا بشيءٍ فيه خوف ، ولذلك

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : وذكر في الكتاب مريم ، برقم (٣٢٥٩) ، ٣/ ١٢٧٠ ، صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، برقم (٢٣٦٥) ، ٤/ ١٨٣٧ .

(٢) سورة الشُّورى ، الآية : (١٣) .

(٣) سورة مريم ، الآية : (٢٦) .

(٤) الجوهري : الصحاح ، ٢/ ٨٣٥ .

(٥) محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، كان معتزلي المذهب مجاهرًا . صاحب =

سُمِّيَ الأنبياء منذرين[١] ، وتنذر القوم : أنذر بعضهم بعضًا ، وقال أبوحنيفة : النَّذير : صوت القوس لأنَّهُ ينذر الرَّمِيَّة ، وأنشد لأوس بن حجر :

على ضَالَةٍ فَرْعٍ كأنَّ نَذِيرَها   إِذا لم تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أَفْكَلُ[٢]

والنَّذْر : ما يَنْذُر الإنسانُ فيجعلُه على نفسه نَحْبًا واجبًا ، والنَّذر اسم الإنذار[٣] .

والنَّذر شرعًا : إيجابُ عين الفعل المباح على نفسه بالقول تعظيمًا لِلّه تعالى بشرط كونه من جنس الواجب ، وهي عبادةٌ مقصودة ، وهو مطلقٌ إن لم يُعلَّق بشرط ، وإلا فهو معلَّق[٤] .

أَمَّا النَّذر لغير الله فأُعَرِّفه : هو ما يُلزم الإنسان به نفسه تعبُّداً مع نذير خوف العقوبة لعدم الوفاء به ، لذلك سُمِّيَ النَّذر نذراً والله أعلم .

قال تعالى : ﴿**يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا**﴾[٥] . فكان العرب ينذرون لهذه الأصنام ، وكان أحدهم إذا طلب أمراً نذر ليذبحنَّ

=

(الكشَّاف) و(أساس البلاغة) وغيرها . مات في ٥٣٨ هـ . انظر : الذَّهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤/ ٢٤٦-٢٤٩ ، والزركلي : الأعلام ، ٧/ ١٧٨ .

(١) انظر : شهاب الدين المالكي : تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح (السفر الأول) ، ص : ٣٩٥ .

(٢) انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٢/ ١٢٢ ، ١٠/ ٦١ .

(٣) انظر : الفراهيدي : العين ، ٨/ ١٨٠ .

(٤) محمد عميم الإحسان المجددي البركتي : التعريفات الفقهية ، دار الكتب العلمية باكستان ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م ، ص : ٢٢٧ .

(٥) سورة الإنسان ، الآية : (٧) .

كذا وكذا للصَّنم ، وهم يخافونها لعدم الوفاء أن تصيبهم بضرر ، ومن تلك النُّذور أن يقول : إن بلغت إبلي مائة عترت عنها عتيرة ، أو إن بلغت غنمي كذا من العدد قدَّم لمعبوده عتيرة[1] . وكانت هذه النذور تسمَّى العتائر وكانوا يقدِّمونها في شهر رجب لحرمته وتسمَّى الرجبيَّة ، ويقال : هذه أيام ترجيب وتعتار[2] .

فينذرونها للأصنام تذبح باسمها ، مثل أن يذبح باسم اللات أو العزَّى أو غيرها من الأوثان التي كانت العرب تتقرَّب إليها من دون الله بالنذور والذَّبائح لتحقِّق لها مطلوباً أو تدفع عنها شراً ، أو تردَّ غائباً أو تشفي مريضاً ، فينذرون إن تحقَّق ذلك لهم قدَّموا لذلك الصَّنم الهدايا والنذور ، وذبحوا عنده العتائر وصبُّوا على رؤوسها الدَّم[3] وفاءً بالنذر الذي كانوا يتخوَّفون هذه الأصنام أن تصيبهم بمكروه إن أخفروها أو لم يوفوا بنذرهم .

ولأنَّ هذا الفعل شركٌ أكبر فقد أنذر النبيُّ عليه الصلاة والسلام وحذَّر من تقديم النذور والقرب لغير الله ، أو صرف شيءٍ من هذه العبادات لكائنٍ من كان .

وجاء الهدي النبويُّ محرِّماً للنَّذر لغير الله ، مانعاً للوفاء به في معصية أو في ما لا يملك الإنسان ، أو أدائه في مواطن الشرك الجاهليَّة ، قال

(١) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ٢/ ١٥٦ .
(٢) انظر : الجوهري : الصحاح ، ١/ ١٣٤ .
(٣) انظر : ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص : ٧٨٥ .

رسول الله ﷺ : « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ.. »[١] .

أخرج أبوداود عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : نَذَرَ رجلٌ أن ينحر إبلًا ببوانة ، فسأل النبي ﷺ؟ فقال : «هَلْ كَانَ فيها وَثَنٌ من أَوْثَانِ الجاهليَّة يُعبد؟» .قالوا : لا ، قال : «فَهَلْ كَانَ فيها عيدٌ من أعيادهم؟» ، قالوا : لا ، فقال رسول الله ﷺ : «أَوْفِ بِنَذْرِكَ ، فإنَّهُ لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم»[٢] .

فهذه الأحاديث تدلُّ على تحريم النَّذر لغير الله تعالى أو حتى أن تذبح النذور -وإن كانت لله عزَّ وجلَّ- في مكانٍ فيه وثنٌ يُعبد ، أو مكانٍ فيه عيدٌ من أعياد المشركين ، سدًّا للذَّرائع كمن يذبح عند القبور وإن صحَّت النيَّة أنَّها نذرٌ لله عزَّ وجلَّ فإنَّهُ لا يجوز أن تُساق وتنحر هناك[٣] ، والله تعالى أعلم .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الأضاحي ، برقم (١٩٧٨) ، ٣/ ١٥٦٧ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأيمان والنذور ، باب ما يؤمر بوفائه من النَّذر ، برقم (٣٣١٣) ، ٥/ ٢٠٠ . قال ابن الملقن في البدر المنير : إسناده صحيح ، ٩/ ٥١٨ .

(٣) انظر : الدهلوي : رسالة التوحيد ، ١/ ١٤٥ .

ثالثًا : الحَلِفُ بِغَيْرِ الله :

ومن العقائد الباطلة التي كانت منتشرةً في الجاهليَّة عقيدة الحَلِفِ بغير الله ، فكانوا يعظِّمون الأوثان والأصنام كتعظيمهم لله عزَّ وجلَّ ويحلفون بها ، كما كانوا ينذرون لها ويذبحون عندها ، ويصرفون لها أنواع العبادات ظنًّا منهم أنها تضرُّهم أو تنفعهم أو تنصرهم أو تشفع لهم ، فيعقدون الأيمان والنذور على هذه الأوثان ، ويشركونها بالله عزَّ وجلَّ ، قال تعالى : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1] ، فكانوا يحلفون باللات والعزى ومناة وغيرها من الأوثان التي يعبدونها من دون الله ويشركونها به .

وكان رسول الله ﷺ ينكر الحلف باللات والعزَّى ويكرهه منذ نعومة أظفاره ، كما ورد في قصَّة بحيرى الرَّاهب ، حيث استحلفه باللات والعزَّى فقال عليه الصَّلاة والسَّلام : «لا تسألني باللَّات والعُزَّى فوالله ما أَبْغَضْتُ شيئًا قَطُّ بغْضَهُما»[2] .

وكتب أبوسفيان كتابًا بعثه إلى رسول الله ﷺ يحلف فيه باللات والعزَّى وذلك حين نكوصه خائبًا من غزوة الخندق وكان على طمع أن يغير على بيضة المدينة يقول فيه : باسمك اللهم ، فإنِّي أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك في جمعنا ، وإنَّا نريد ألَّا نعود إليك أبداً حتى

---

(١) سورة فاطر ، الآية : (١٤) .

(٢) سنن الترمذي ، ٥/ ٥٩٠-٥٩١ ، الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٢/ ٦٧٢ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٢/ ٢٤ .

نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منَّا يوم كيوم أحد ، تبقر فيه النساء[١] . فكتب إليه رسول الله ﷺ : من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب ، أمَّا بعد ، فقديماً غرك بالله الغرور ، أمَّا ما ذكرت أنَّك سرت إلينا في جمعكم ، وأنَّك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأمَّا قولك : «من علمك الذي صنعنا من الخندق» ، فإنَّ الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعني بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات ، والعزى ، وإساف ، ونائلة ، وهبل ، حتى أذكرك ذلك[٢] .

والحلْفُ والحلِفُ لغتان ، هو القسم[٣] ، ويتألى إذا حلف من الألية وهي اليمين[٤] ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٥] .

والحَلِفُ هو عقد اليمين بالعزم والنيَّة تأكيداً على أمرٍ ما ولزومه . وفي الحديث : «إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ عَلَى اليَمِينِ ، فَرَأَى خَيْراً مِنْهَا ، فَلْيُكَفِّرْهَا ،

---

(١) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٢٤٣ ، باشميل : موسوعة الغزوات الكبرى ، ٩/ ٢١٩ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٤٩٣ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٢٤٣ .

(٣) انظر : الفراهيدي : العين ، ٣/ ٢٣١ .

(٤) انظر : الجوهري : الصحاح ، ٦/ ٢٢٧١ .

(٥) سورة النور ، الآية : (٢٢) .

وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[١] .

ويقال : حالَفَ فلانٌ فلانًا فهو حَلِيْفُه وبينهما حِلْفٌ ، لأنَّهما تحالفا بالأيمان أن يكون أمرهما واحدٌ بالوفاء . ومن ذلك حِلْفُ المطيَّبين[٢] والأحلاف من قريش[٣] ، والأحلاف من ثقيف ؛ لأنَّ ثقيف فرقتين : الأحلاف وبني مالك ، وثقيف هو قسي بن النبت بن منبه بن منصور بن يقدُم بن أفصى بن دعميٍّ بن إياد بن معد بن عدنان[٤] .

والحليفان : أسد[٥] وغطفان ، يقول ابن سيده : الحليفان أسد

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، برقم (١٦٥٠) ، ٣/ ١٢٧١ .

(٢) أخرج بنو عبدمناف جفنة مملوءةً طيبًا ، فيزعمون أن بعضَ نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثُمَّ غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا المطيَّبين . وقيل : إنَّ التي أخرجت لهم الجفنة هي أم حكيم البيضاء بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه . انظر : ابن هشام السيرة النبوية ، ١/ ١٣٢ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٢/ ٤٢ .

(٣) وهم خمس قبائل : بنو عبدالدَّار ، بنو سهم ، بنو جمح ، بنو عدي ، بنو مخزوم . انظر : ابن حبيب : المحبر ، ص : ١٦٦ ، عبدالملك بن حسين العصامي (ت: ١١١١هـ) : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، ت : عادل عبدالموجود ، علي معوض ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ١/ ٢٠٥ .

(٤) انظر : قاسم بن ثابت السرقسطي : الدلائل في غريب الحديث ، ١/ ٧٢ .

(٥) أسد : في مضر ، بنو أسد بن خزيمة ، وهي قبيلة عظيمة من العدنانية ، تنتسب الى أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وهي ذات بطون كثيرة ، منها : بنو كاهل ، بنو غنم بن دودان بن أسد وغيرهم . انظر : محمد بن حبيب (ت: ٢٤٥هـ) : مختلف القبائل ومؤتلفها ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ص : =

وغطفان صفة لازمة لهما لزوم الاسم[١] ؛ كونهما تحالفا على التَّناصر والتَّآزر بينهما ، يقول زهير :

عزيز إذا حَلَّ الحليفان حوله   بذي لَجَبٍ لَجَّاتُهُ وصَوَاهِلُه[٢]

وجاء في الحديث : «لا حِلْفَ في الإسلام» لما يقع بين القبائل من الحميَّة الجاهلية والتناصر على الباطل . وسُمِّيَ الحَلِفُ يميناً ؛ لأنَّ المتحالفين كأنَّ أحدهما يشدُّ يمينه بيمين الآخر[٣] ، ويعقدون هذه الأحلاف بالأيمان ، ويحلفون باللات والعزَّى وغيرها من الأصنام على هذا العهد الذي يبنهم ، فلمَّا لزم ذلك عندهم في الأحلاف التي في العشائر والقبائل صار كل شيءٍ لزم شيئاً لا يفارقه فهو حليفه حتى يقال : فلان حليف الجود ، وحليف الندى ، وحليف السَّهر[٤] .

والحلف شرعاً : هو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو ، والتعظيم حقُّ الله تعالى فلا يجوز الحلف بغيره ،

=

٦٧ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ١/ ٢١ .

(١) انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٧/ ٤٤٢ ، الدِّيار بَكْري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ١/ ٤٨٠ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٢٣/ ١٦٠ .

(٢) لجاته : جمع لجة وهو اخْتِلَاط الأصوات ، واللجب : اختلاط الأصوات أيضًا . واللَّجب : صوت العسكر ، وصهيل الخيل ، وفيها دلالة على الصِّياح والاضطراب . انظر : ابن دريد : جمهرة اللغة ، ١/ ٥٥٤ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٤/ ١٩٩ .

(٣) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ٤٦٠ ، الفراهيدي : العين ، ٣/ ٢٣١ .

(٤) انظر : محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) : أساس البلاغة ، ت : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ، ١/ ٢٠٨ .

وقد أجمع العلماء على أنَّ اليمين لا تكون إلا بالله أو بأسمائه أو صفاته ، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره[1] .

فكان العرب في الجاهليَّة يعظِّمون الأصنام وينذرون لها ويذبحون عندها ويحلفون بها ويعقدون الأيمان بتلك الأوثان ويبرون بها ، ومن الشواهد على ذلك ما قاله عبدالعزى بن وديعة المزني :

إنِّي حَلَفْتُ يَمِيْنَ صِدْقٍ برَّةٍ   بمَنَـــاةَ عِنْدَ مَحَلِّ آلِ الخَزْرَجِ[2]

ويظهر منه المبالغة في تعظيم هذا الطاغية عند المشركين ، فهم يحلفون بمناة اليمين الصَّادقة ثمَّ يبرُّون بقسمهم إيمانًا بها .

وأيضًا يقول أبوجندب الهذلي ثُمَّ القردي في امرأة كان يهواها[3] ، وكانوا قد حموا للعزى شِعْبًا يُقال له سُقام يضاهئون به حرم مكة ، ويعقدون الأيمان المغلَّظة لهذه الأصنام التي لا تسمع حلفهم ولا تعلم عنه .

لقد حلفت جهداً يميناً غليظةً   بفـــرع التي أحمت فروع سقام

ويقول زهير بن أبي سلمى في الأقيصر[4] وهو صنمٌ كانت تعبده قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان كان منصوبًا في مشارف الشَّام

---

(١) انظر : منصور البهوتي : كشاف القناع عن متن الإقناع ، ٦/ ٢٢٨ .
(٢) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص : ١٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٠٥ .
(٣) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص : ١٩ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٣/ ٢٢٦ .
(٤) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٨ ، ٤٨ ، محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الأدب العربي القديم ، ١/ ٣٧٢ .

يعبدونه ويعظِّمونه ويحلفون به[١] :

حلفت بأنصاب الأُقيصر جاهداً

ومــا سحقت فيه المقاديم والقمل[٢]

وكان لأزد السَّراة صنم يقال له عائم ، وله يقول زيد الخيل الطائي :

تخبر من لاقيت أن قد هزمتهم ولـم تدر ما سيماهم ، لا وعائم![٣]

وكانوا يجمعون بين الحلف بالله ، والحلف بالأصنام ، قال أوس بـن حجر[٤] يحلف باللات :

وباللات والعزّى ومَنْ دَانَ دينها وبــالله إنَّ الله منهُــنّ أكبر[٥]

فمـن هنـا يتبـيَّن مـدى تعبُّـد أهـل الجاهليَّـة لهـذه الأوثـان وسـفاهة أحلامهـم وكيـف غلـب الـشَّيطان علـيهم حتـى سـلبهم عقـولهم وأعمـى أبصارهم واتخذوا الحجارة آلهةً من دون الله يحلفون بها الأيمان المغلَّظة

---

(١) انظر : ابـن دريـد : جمهـرة اللغـة ، ١/ ٥٣٢ ، يـاقوت الحمـوي : معجـم البلـدان ، ١/ ٢٣٨ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٢٣/ ٤١٧ .

(٢) انظر : ابـن دريـد : جمهـرة اللغـة ، ١/ ٥٣٢ ، يـاقوت الحمـوي : معجـم البلـدان ، ١/ ٢٣٨ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٢٣/ ٤١٧ .

(٣) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص٧ ، أبوالفرج الأصبهاني : الأغاني ، ١٧/ ٢٧٠

(٤) هو أوس بن حجرٍ بـن عتـاب ، كـان فحـل مضر حتـى نـشأ النابغـة وزهيـر فـأخملاه . وقيـل لعمـرو بـن معـاذ : مـن أشـعر النـاس؟ فقـال : أوس ، قيـل : ثـم مـن؟ قـال : أبوذؤيـب ، وكـان أوس عـاقلًا في شعره ، كثير الوصف لمكـارم الأخـلاق . انظر : عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) : الشعر والشعراء ، دار الحديث ، القـاهرة ، ١٤٢٣هــ ، ١/ ١٩٨ ، أبــوالفرج الأصــبهاني : الأغــاني ، ١١/ ٧٣ ، الزركلي : الأعلام ، ٢/ ٣١ .

(٥) انظر : الكلبي : الأصنام ، ص : ١٧ .

ويقدِّمون لها سائر العبادات من دون الله .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1] ، فبعث الله نبيَّه بالهدى ليُخرج النَّاس من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الشِّرك إلى التوحيد ، فأبطل عقائد الجاهليَّة ، وأمر بكسر الأصنام ، وحذَّر من عبادتها ، ولكون الحلف من أنواع العبادات فهو قريب من النَّذر ، فالنَّذر التزامٌ للمعبود ، أمَّا الحلف : فهو التزامٌ بالمعبود ، وكلاهما يأثم لعدم الوفاء .

والدَّليل على أنَّ الحَلِفَ من شرع الله ، قول الله تعالى : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] ، فالحَلِفُ إذاً من دين الله ومما يُتعبد له به ، قال رسول الله ﷺ : «احْلِفُوا بِاللهِ وبرُّوا واصْدُقُوا ، فإنَّ الله تَعَالى يُحِبُّ أن يُحْلَفَ بِه»[3] . ولقول النبيِّ ﷺ : «مَنْ كَانَ حَالِفًا فليَحْلِفْ بالله أو لِيَصْمُتْ»[4] .

لذلك فقد نهى النبيُّ ﷺ عن الحلف بغير الله ، وحذَّر منه ؛ لأنَّه عبادة ، فمن صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : (٥) .

(٢) سورة التحريم ، الآية : (٢) .

(٣) أبونعيم الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ٧/ ٢٦٧ ، جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) : الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، دار الفكر للطباعة ، (د.ط) ، (د.ت) ، برقم (٢٧٥) ، ١/ ٤٧ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان والنذور ، باب لا تحلفوا بآبائكم ، رقم(٦٢٧٠) ، ٦/ ٢٤٤٩ ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم (١٦٤٦) ، ٣/ ١٢٦٧ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال : «مَنْ حَلَفَ بغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ»[١] . وعن سعد بن عبيدة قال : سمعَ ابنُ عمرَ رَجُلًا يَحْلِفُ : لا والكعبة ، فقال له ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[٢] . حيث جعل ما لا يحلف به محلوفًا به ، كاسم الله الذي يكون به القسم[٣] .

أمَّا الخلاف الَّذي وقع بين أهل العلم في حُكم الحَلِفِ بغير الله فقائلٌ بالكَرَاهَةِ ، ومن قولهم : مَنْ حَلَفَ باللات والعزى أو غيرهما من الأصنام أو قال إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام أو مِنَ النبيِّ ﷺ لم تنعقد يمينه ، وعليه أن يستغفر الله ، ولا كفَّارة عليه ، ويستحب أن يقول لا إله إلا الله[٤] .

وقائل بالتحريم : قال ابن تيمية : ثُمَّ من أصحاب الأئمة من قال : يُكْرَهُ الحَلِفُ بغير الله تنزيهًا ولا يحرم ، وقطع الباقون بأنَّهُ حرام ، وهذا هو الصواب ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ أخبر أنَّ الله ينهانا عنه ، وما نهانا الله عنه فهو حرام ، إلَّا أن يقوم دليل على أنَّهُ تنزيه وأخبر أنَّ هذا شركٌ وكفرٌ ، وكل ما سُمِّي كفرًا وشركًا فأقلُّ درجاته أن يكون حرامًا[٥] .

---

(١) سنن الترمذي ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ، برقم (١٥٣٥) ، ٤/ ١١٠ ، وقال الألباني : صحيح .

(٢) سنن أبي داود ، برقم ، (٣٢٥١) ، ٥/ ١٥٥ ، محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي ، كتاب النذور والأيمان ، رقم (١٥٣٥) ، ٤/ ١١٠ .

(٣) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢/ ٤٦٧ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١١/ ٥٣٦ .

(٥) أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) : جواب في الحلف بغير الله والصلاة إلى القبور ، ويليه : فصل في الاستغاثة ، طبع في الكويت ، ط : ١ ، ١٤٣١هـ ، =

قال ابن القيم : «وقد قَصَّر ما شاء أن يُقَصِّر من قال : إنَّ ذلك مكروه ، وصاحب الشَّرع يجعله شركًا ، فرُتْبَتُه فوق رُتْبَةِ الكَبَائِر»[1] .

فأقول : إنَّ سبب هذا الخلاف ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ حَلَفَ فقالَ في حلفه : واللاَّتِ والعُزَّى ، فَليَقُل : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ومن قال لصاحبِه : تَعَالَ أُقَامِرْكَ ، فَلْيَتَصَدَّقْ»[2] .

وهذا الحديث يوضِّح معناه حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال : كُنَّا نذكر بعض الأمر وأنا حديث عهدٍ بالجاهليَّة فحلفتُ باللات والعُزَّى ، فقال لي أصحابُ رسولِ الله ﷺ : بئس ما قلتَ ، ائْتِ رسولَ الله ﷺ فأخبِره ، فإنَّا لا نراك إلَّا قد كَفَرْتَ ، فلقيتُه فأخبرته ، فقال : «قل : لا إله إلا الله وحده -ثلاث مرات- وتعوَّذْ بالله من الشيطان الرجيم -ثلاث مرات- واتْفُلْ عن شمالك -ثلاث مرات- ولا تَعُدْ له»[3] .

فهذا الحديث يفسِّر الذي قبله ، ويبيِّن حال الصحابة في بداية الإسلام وهم حديثو عهدٍ بجاهلية ، وكانوا قد اعتادت ألسنتهم كثرة الحلف باللات والعزَّى ، وكان بعضهم يخطئ سهواً ويحلف بها أو يقول

=

. ٦/١

(١) محمد بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ت : محمد عبدالسلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ٤/ ٣٠٦ .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، برقم (٤٨٦٠) ، واللفظ له ، ومسلم ، برقم (١٦٤٧) .

(٣) سنن النسائي ، المجتبى ، ٧/ ٧ ، برقم (٣٧٧٦) .

لصاحبه : تعال أقامرك ، فإذا وقعوا في ذلك لجأوا إلى رسول الله ﷺ ، كحال سعدٍ رضي الله عنه في الحديث ، فيبين لهم كفَّارة ذلك .

وهذين الحديثين ليس فيهما حكمٌ لمن يتعمَّد الحلف بغير الله ، أو يتعمَّد المقامرة وهو ما جعل بعض أهل العلم يقول بكراهة الحلف بغير الله ، ومن ذلك أيضاً حديث الأعرابي الذي جاء يسأل عن أمور دينه ورسول الله ﷺ يجيبه عن الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة وهو يقول : والله لا أزيد على ذلك ، فلمَّا انصرف ، قال رسول الله ﷺ : «أفلح وأبيه إن صدق»[١] . فظنَّ بعض أهل العلم أنَّ هذا حلف ، فحاشى وكلَّا أن يحلف رسول الله ﷺ بغير الله تعالى ، وهذا القول ما هو إلَّا من صيغ المبالغة التي درجت على ألسن قريشٍ والعرب ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[٢] . أراد أمَّ رأسه[٣] .

وأيضاً كقول كعب بن سعد الغنوي[٤] :

هَوَتْ أمُّهُ ما يَبْعَثُ الصبحُ غادياً وماذا يؤَدّى الليلُ حينَ يؤوبُ[٥]

قال قتادة : هي كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمرٍ شديد يقال :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، برقم (١١) ، ١/ ٤١ .

(٢) سورة القارعة ، الآيتان : (٨ ، ٩) .

(٣) انظر : البغوي : تفسير البغوي ، ٨/ ٥١٤ .

(٤) كعب بن سعد بن عمرو الغنوي ، من بني غنيّ : شاعر جاهلي ، حلو الديباجة ، أشهر شعره بائيته في رثاء أخ له قتل في حرب ذي قار . انظر : الحسن بن عبدالله العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) : ديوان المعاني ، دار الجيل - بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) ، ٢/ ١٧٨ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ٢٢٧ .

(٥) الجوهري : الصحاح ، ٥/ ١٨٦٥ ، ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ، ١/ ١٥١ ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٥/ ٢٤٠ .

هوت أمه ، وليس في سياق الحديث ما يدلُّ على معنى الحلف ، والحلف لا يكون إلَّا للتعظيم فلا وجود للمعظَّم فيه ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف بغير الله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحلِفُوا بآبائِكُم ولا بأُمَّهَاتِكُم ولا بالأَنْدَادِ ، ولا تحْلِفُوا إلَّا باللهِ ، ولا تحْلِفُوا إلَّا وأنتم صَادِقُوْن»[١] .

وقال رسول الله ﷺ : «لا تحْلِفُوا بآبَائِكُم ولا بالطَّواغيت»[٢] . وقال رسول الله ﷺ : «كُلُّ يمينٍ يُحْلَفُ بها دُوْنَ الله شِرْكٌ»[٣] . فمن حلف بغير الله فقد أشرك ؛ لأنَّ الحَلِفَ بغير الله إنَّما يكون تعظيمًا للمعبود[٤] وإقراراً له بالعبودية ، ومما شرع الله تعالى في دينه لقوله تعالى : ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾[٥] فمن حلف باللَّات والعزَّى أو بالجنِّ والملائكة والأنبياء وغيرهم فقد جعلهم لله نِدًا ، وأيُّ شركٍ إن لم يكن ذلك والله تعالى أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم ٣/ ١٢٦٨ ، برقم (١٦٤٨) ، والنسائي ، حديث رقم (٣٧٦٩) ، ٧/ ٥ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ، ت : التركي ، ٣٤/ ٢٢٨ ، برقم (٢٠٦٢٤) ، ٣٤/ ٢٢٨ . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين .

(٣) الطبراني : المعجم الكبير ، برقم (١٣٩٤٩) ، ١٣/ ٢٢٣ ، الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، برقم (٤٦) ، ١/ ٦٦ .

(٤) انظر : مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، ص : ٤١٠ ، صالح بن فوزان الفوزان : إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ، مؤسسة الرسالة ، ط : ٣ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ٢/ ١٦٩ ، د.عبدالرحمن العقل : غاية المريد شرح كتاب التوحيد ، مركز النخب العلمية - مطبعة معالم الهدى ، ط : ٣ ، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م ، ١/ ٤١٤ .

(٥) سورة النحل ، الآية : (٩٢) .

رابعـًا : الاعتقاد في النُّجوم أو ما يُسَمَّى الأنواء :

ومن العقائد الشَّائعة عند العرب في الجاهليَّة ، الاعتقاد في النجوم بأنَّ لها قدرةً في إحداث السَّحاب وسقوط الأمطار ، أو أنَّ لها سببـًا في ذلـك ، فكانوا يستسقون بها الغيث وينسبون إليها المطر ، ويقولـون : مُطرنـا بنـوء الثُّريَّا ، أو سُقينا بنَوء الدَّلو أو الجوزاء أو غيرها من الكواكب والنُّجوم .

النَّوء في اللغة : قال ابن قتيبة[(١)] : معنـى النَّـوء ، سقوط الـنَّجم منهـا في المغرب مع طلوع آخر يقابله من ساعته في المـشرق ، وسـقوط كـلِّ نجـمٍ منها في ثلاثة عشر يومـًا ما خلا الجبهة فإنَّ لها أربعة عشر يومـًا[(٢)] ، فيكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السَّنة . وكانت العرب تقـول : لا بُـدَّ لكلِّ كوكب من مطر أو ريـح أو بـرد وغيـره ، فينـسبون ذلـك إلـى الـنَّجم ، فيقولون : مُطرنا بنوء الثُّريَّا أو الدبران ، أو السماك[(٣)] .

ثُمَّ اختلفوا في ذي النَّوء من النَّجمين فقال بعضهم : هو الطَّالع ، وقال بعـضهم : هـو الغـارب ، أي : الـسَّاقط ، وهـذا مـا ذهـب إليـه ابـن قتيبـة ،

---

(١) عبـدالله بـن مـسلم بـن قتيبـة (ت: ٢٧٦هــ) : الأنـواء في مواسـم العـرب ، (د.ط) ، (د.ت) ، ١/ ٥٠٤ .

(٢) انظر : محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (ت: ٣٨٧هـ) : مفاتيح العلوم ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، ط : ٢ ، ١/ ٢٤٠ .

(٣) محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) : مسند الإمام الشافعي ، رتبه : محمد عابد الـسندي ، تـرجم لـه : محمـد زاهـد الكـوثري ، نـشره : يوسـف الـزواوي ، عـزت العطار ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنـان ، ١٣٧٠هـ – ١٩٥١م ، ١/ ١٥ ، ابـن قتيبة : الأنواء في مواسم العرب ، ١/ ٥٠٤ ، ابـن الأثير : النهاية في غريـب الحـديث والأثر ، ٥/ ١٢٢ .

والجميع يستشهدون بقول الله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[(١)] ، لبيان معنى النَّوء وأنَّه ثقل طلوع النَّجم أو ثقل سقوطه[(٢)] . وكان أبو عبيد يقول : لم أسمع أنَّ النَّوء السُّقوط إلَّا في هذا الموضع[(٣)] .

وكانوا يقولون إنَّ بعض هذه الكواكب لا نوء فيها ، والبعض الآخر لها نوء ، وكان ابن العربي يقول : لا يكون نوء حتى يكون معه مطر ، وإلَّا فلا نوء[(٤)] .

واستشهد ابن قتيبة لكواكب الأنواء بقوله :

سَقَتْهَا من الجَوْزَاءِ والدَّلو خِلْفَةً   مبــاكيـرُ لم يُنْدِبْ بِهِنَّ صِرَارُ[(٥)]

قال : والمباكير : اللواتي يبكِّرن بالحمل ، والصِّرار : أعوادٌ تصرُّ بها الضُّروع فتندبها ، أي : تبقي فيها آثاراً وهي الندوب ، واحدها ندب ، يقول ابن قتيبة : فأعلمك أنَّها حوامل ولا كحمل الإبل التي تندب أخلافها الأصرَّة[(٦)] .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٦ .

(٢) ابن قتيبة : الأنواء في مواسم العرب ، ١/ ٥٠٤ .

(٣) أبوعُبيد القاسم بن سلاّم (ت: ٢٢٤هـ) : غريب الحديث ، ت: د. محمد عبدالمعيد خان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيد باد _ الدكن ، ط: ١ ١٣٨٤هـ-١٩٨٤م ، ١/ ٣٢١ ، وانظر: ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ١٧٦.

(٤) الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٥/ ٣٨٥-٣٨٦ .

(٥) انظر : كثير بن عبدالرحمن الخزاعي ، أبوصخر (ت : ١٥٠هـ) : ديوانه ، (د.ت) ، (د.ن) ، ١/ ٨٢ ، أبوعلي الهجري ، هارون بن زكريا (ت : نحو ٣٠٠هـ) : التعليقات والنوادر ، (د.ت) ، (د.ن) ، ١/ ٦٩ .

(٦) انظر : ابن قتيبة : الأنواء في مواسم العرب ، ١/ ٥٠٤ .

فأقول : إنَّ هذا المعنى حاد عن الصَّواب فمعنى الشاهد أنَّ الكواكب تعاقبت فالجوزاء أتت بعد الدَّلو بالسقي كما يزعمون فشبه النوء أو السَّحاب وغزارة المطر بالإبل في أوَّل نتاجها ؛ لكونها تبهل ولا تصر لصغر حيرانها فتكون أحاليلها ناعمة الملمس غزيرة الدرِّ لأنَّ الصرار كما ذكر تندب في الضرع وتؤثر فيه .

ومع هذا الخلاف في تعريف النوء فمن قائل إنَّ النَّوء هو النجم السَّاقط ، ومن قائل إنَّ النَّوء هو النجم الطالع ، ثم ينفون هذا المعنى وذاك في قولهم إنَّ النجوم أو الكواكب الثمانية والعشرون ليست كُلُّها أنواء ، لذلك أقول : إنَّ النوء في لغة أهل الحجاز هو السحب المتراكمة مظنَّة المطر فسمي نوءاً لأنَّهُ ينوء بثقل الماء . قال تعالى : ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[2] ، فالسُّحب المتراكمة المثقلة بكثافة الماء هي النَّوء قال تعالى : ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[3] ، أي : ثقل الحمل ، ومنه قول امرئ القيس في معلَّقته :

فقلتُ له لمَّا تمطَّى بصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أعْجَازاً وَنَاءَ بكَلْكَلِ[4]

---

(١) سورة الرعد ، الآية : (١٢) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : (٥٧) .

(٣) سورة القصص ، الآية : (٧٦) .

(٤) امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٥٤٥ م) : ديوان امرِئ القيس ، اعتنى به : عبدالرحمن المصطاوي ، دار المعرفة - بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٥هـ - =

ناء بكلكل : أي بثقل وعناء ، ومعنى الكَلَل : هو التَّعب ، ناء الرَّجل بالحمل ، نأى يَنُوء نَوءاً ، نهض به مثقلًا ، نأى به الحمل أثقله ، والمرأة تنوء بها عجيزتها ، أي تنهض بها مثقلة ، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلَّقته :

ومَتْنَي لَدْنَةٍ سَمَقَتْ وطالَت   رَوادِفُـهـا تَنـوءُ بما يَلينَا[(١)]

ويقولون للسَّحاب المتراكم : نوء ، وأنوأت السَّماء : أي تلبَّدت بالغيوم ، ونوء مرهج : أي كثير المطر[(٢)] .

فكان العرب في الجاهلية ينسبون الأنواء للنجوم إمَّا مجازاً أو فعلًا على أنَّ النجوم هي المُنْشِئَةُ للأنواء وهي المُحْدِثَةُ لها ، أو هي سبب في نشوئها ونزول المطر فينسبون ذلك إلى النجوم أو الكواكب فيقولون مطرنا بنوء الدلو أو بنَوءِ الجوزاء على أنَّ هذه النجوم هي التي أوجدت السُّحب الثِّقال التي ينزل منها الغيث أو المطر ، فيقول ذو الرُّمة[(٣)] في هذا

=

٢٠٠٤م ، ١/ ٤٨ ، السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ١/ ٢٨٩ .

(١) انظر : القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ١/ ٢٧٨ ، منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) : شرح المعلقات التسع ، ت : عبدالمجيد همو ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م ، ١/ ٣١٤ ، التبريزي : شرح القصائِد العشر ، ص : ٢٢٢ .

(٢) انظر : الحسن بن محمد القرشي : العباب الزاخر واللباب الفاخر ، ١/ ٤٨ ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) : تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، ت : السيد الشرقاوي ، راجعه : د. رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، ١/ ٥٢٤ .

(٣) ذُو الرُّمَّة : غيلان بن عقبة العدوي ، من مضر ، أبوالحارث ، من فحول الشعراء ، قال أبوعمرو بن العلاء : فُتِح الشعر بامرئ القيس وخُتِم بذي الرُّمة ، وكان شديد =

المعنى[1] :

ولا زَالَ مِنْ نَوْءِ السِّماكِ عليكُما ونــوءِ الثُّرَيَّا وابـِلٌ مُتَبَطِّحُ

فالوابـل : هـو المطـر الغزيـر الـذي مـصدره الـسُّحب المتراكمـة ، فيقولون : مطرنا بنوء كـذا أو كـذا أي بنوء الـدلو أو الجـوزاء وهـم يعنـون السَّحاب الثِّقال التي سببها النجوم أو من فعلها كما يعتقدون .

لذلك حذَّر رسول الله ﷺ من نسبة المطر أو إنشاء الـسُّحب إلـى غير الله تعالى ، فعن زيد بن خالد الجهني قال : صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلمَّا انصرف النبيُّ ﷺ أقبل على النَّاس فقال : «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا : الله ورسـوله أعلم . قال : «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَـافر ، فأمَّـا مـن قـال : مُطِرْنَـا بفَضْلِ الله ورَحْمَتِه فذَلِكَ مُؤْمِنٌ بي كَافِرٌ بالكَوْكَب ، وأمَّا من قال : مُطِرْنَـا بنَوْءِ كَذَا وكَذَا فذَلِكَ كَافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بالكَوْكَب»[2] .

=

القصر ، دميمـًا ، يضرب لونه إلى السَّواد ، أكثر شعره تـشبيب وبكـاء أطـلال ، وكـان مقيمـًا بالبادية ، توفي سنة ١١٧هـ . انظر : القرشـي : جمهـرة أشـعار العـرب ، ص : ٩٧ ، عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) : خزانـة الأدب ولـب لبـاب لـسان العرب ، ت : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخـانجي ، القـاهرة ، ط : ٤ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ١/ ١٠٦ ، الزركلي : الأعلام ، ٥/ ١٢٤ .

(١) انظر : عبدالقادر بن عمر البغـدادي (١٠٩٣هـ) : شـرح أبيـات مغنـي اللبيـب ، ت : عبـدالعزيز ربـاح - أحمـد يوسـف دقـاق ، دار المـأمون للـتراث ، بيروت ، ط : ١ ، ١٣٩٣-١٤١٤هـ ، ٢/ ١٥٠ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٦/ ٣١٥ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ ، برقم (٤٧١٢) ، ٣/ ٢٥٠-٢٥١ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، برقم (١٩٤) ، ١/ ١٨٤ .

فهذا الحديث موجَّه للمسلمين ، ولمن يظنُّ أنَّ النجوم سببٌ في نزول المطر ، حيث ينسب فضل الله تعالى إلى غيره من المخلوقات ، وهذا الفعل كفرٌ بالله تعالى ، كما قال النبيُّ ﷺ ، وأمَّا من يعتقد أنَّ الكواكب أو النجوم هي المنشأة للسَّحاب ونزول المطر فهذا شركٌ أكبرُ وهو من شرك الجاهليَّة[1] .

فالنُّجوم هي مخلوقات من مخلوقات الله تعالى ليس لها تصرُّفٌ في نفسها فضلًا أن تتسَّبب في نزول الغيث ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾[2] ، فما جُعِلَتِ النُّجوم إلَّا ليُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر ، وعلامات تعرف بها فصول السَّنة ، والأوقات المناسبة للزَّرع وغرس الأشجار وفسائل النَّخيل ولقاح الإبل وعزل الفصائل وغير ذلك بما عُرف بحساب أهل المدر وأهل الوبر المعتمِدَة على دخول الفصول الأربع وطلوع النُّجوم وسقوطها .

ومن رحمة الله تعالى أن جعل للأمطار مواسم يكثر فيها نزول المطر كنزوله في أول الربيع فيكون الجوُّ قد اعتدل فتنتفع الأرض به وينبُتُ الكلأُ فتطول مُدَّة بقاءه فيجتمع عليه الطلُّ والمطر ويزرع النَّاس فيه أنواع الزُّروع ، بعكس الصَّيف مثلًا الذي يكون شديد الحر لتنضج فيه الثمار وتموت فيه كثيرٌ من الحشرات والجراثيم وغير ذلك ، وتقِلُّ فيه الأمطار لسرعة جفافها فلا يُنتفع بها والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٢/ ٥٢٣ ، صالح الفوزان : إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ، ٢/ ٢٤-٢٨ .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

خامسًا : الاسْتِقْسَامُ بالأَزْلَام :

ومن العادات الجاهليَّة والعقائد الشركية الاسْتِقْسَامُ بالأَزْلَام ، وهي من ضروب الطِّيَرة[١] عند المشركين لمعرفة ما قسم للشَّخص في أمرٍ ما من الخيرِ أو الشَّرِّ قبل الإقدام عليه رجمًا بالغيب .

فالاستقسام هو طلب ما قسم الله وقدَّر من الأقسام والحظوظ والنصيب المغيب . وكان أهل الجاهلية يطلبون ذلك من جهة الأصنام باستخدام الأزلام ، فما دلَّتهم عليه فعلوه إحجامًا أو إقدامًا[٢] . فعن أبي الهيثم أنَّه أنشد :

فَمَا لَكَ إِلَّا مِقْسَمٌ لَيْسَ فَائِتًا ... بِهِ أَحَدٌ فاسْتَأْخِرَنْ أَوْ تَقَدَّمَا[٣]

فالأزلام هي القداح أو السِّهام التي كان أهل الجاهليَّة يستقسمون بها . زلم القدح : أي سوَّاه وليَّنه ، وزَلَم الرَّحَى : أدارها وأخذها من حروفها[٤] . قال ذو الرمة :

تَفُضُّ الحَصَى عن مُجْمِرَاتٍ وَقِيْعَةٍ ... كَأَرْحَاءِ رَقْدٍ زَلَّمَتَهَا المَنَاقِرُ[٥]

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١/ ٤٥٨ .

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ٤٧٨ .

(٣) انظر : محمود الزمخشري : أساس البلاغة ، ٢/ ٧٧ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ٤٧٨ ، الزبيدي : تاج العروس ، ٣٣/ ٢٦٦ ، وهو بلا نسبة .

(٤) انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٣٢/ ٣٢٣ .

(٥) شَبَّهَ خُفَّ البعير بالرحى ، أي : قد أخذت المعاول من حروفها . والزَلَمُ بالتحريك : القِدْحُ . قال الشاعر :

بات يقاسيها غلام كالزلم ... ليس براعى إبل ولا غنم

وكذلك الزُلَمُ بضم الزاي ، والجمع الأَزْلامُ ، وهي السهام التي كان أهلُ الجاهليَّة =

والأزلام هي عيدان السِّهام قبل أن تراش ويركب فيها النَّصل[١] ، يؤخذ منها وتعدل حتى تتساوى في الشَّكل والملمس ، فلا يعرف بعضها من بعض إلَّا ما يكتب عليها .

وقد كان العرب كغيرهم من الأمم مولعين بالاطلاع على ما سيقع من أحوالهم أو على ما خفي من الأمور الغيبية وكانوا يتوهَّمون بأنَّ الأصنام والجن يعلمون تلك المغيبات ، فسوَّلت لهم سدنة الأصنام والشياطين والكهان طريقة يموهون بها عليهم فجعلوا أزلامًا للاستخبار عن الغيب[٢] .

فكانت الأزلام عند العرب في الجاهليَّة على ثلاثةِ أصناف :

الصِّنف الأول : التي تكون فردية مع بعض الأشخاص في كنانته مكتوب عليها افعل ، لا تفعل ، كما في قصة سراقة بن مالك[٣] حين تبع

=

يستقسمون بها . الجوهري : الصحاح ، ٥/ ١٩٤٣ ، وانظر : الزبيدي : تاج العروس ، ٨/ ١٢٢-٣٢-٣٢٦ .

(١) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٣/ ٢٦٥ .

(٢) انظر : الطاهر بن عاشور : جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، جمعها : محمد الطاهر الميساوي ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط : ١ ، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م ، ١/ ٤٧٠ ، مجلة التراث العربي ، ١-٣ .

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك الكناني المدلجيّ ، يُكنى أبا سفيان ، كان ينزل قديداً ، روى البخاريُّ قصَّته في إدراكه النّبي ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة ، ودعا النبيُّ ﷺ حتى ساخت رجلا فرسه ، ثُمَّ إنَّهُ طلب منه الخلاص ، وألَّا يدل عليه ، ففعل ، وكتب له أمانًا ، وأسلم يوم الفتح . ورواها أيضا من طريق البراء بن عازب عن أبي بكر الصّديق رضي الله عنه ، وفي قصة سراقة مع النبي ﷺ يقول سراقة مخاطبًا لأبي جهل :

=

رسول الله ﷺ في طريق هجرته على فرسه ، فلمَّا دنى من رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ عثرت به فرسُه فخَرَّ عنها ، قال : فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فأخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فعصيت الأزلام ، وركبت فرسي فرفَّعتها تُقَرِّبُ بي منهم حتى إذا دنوت سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت فساخت يدا فرسي في الأرض ، فخررت عنها ، قال : فقمت فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره أن لا أضرهم ، قال : فناديتهما بالأمان[1] .

وهذا يدلُّ على أنَّ العرب كانوا لا يُقْدِمون على أمرٍ ذي بال حتى يستقسموا بالأزلام ، ويعتقدون ما خرج لهم من الأمر أو النهي ، وإذا خالف أحدهم لتلك الأزلام عُدَّ عاصياً ، وكانوا لا يعصون الأزلام لأنها من عقيدة المشركين ودينهم ، قال الشاعر :

=

أبا حكم والله لو كنت شاهـــداً لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأنَّ محمَّدًا رسول ببرهان فمن ذا يقاومه؟

وقال ابن عيينة عن إسرائيل أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال لسراقة : «كيف بك إذا لبست سواري كسرى» ، قال : فلما أتي عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه ، وكان رجلا أزبّ كثير شعر السّاعدين ، فقال له : ارفع يديك ، وقل : الحمد لله الّذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابيّ . روى عنه ابن عباس وجابر ، وسعيد بن المسيّب ، وطاووس ، مات في خلافة عثمان سنة أربع وعشرين ، وقيل : بعد عثمان . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣/ ٣٥-٣٦ ، الزركلي : الأعلام ، ٣/ ٨٠ .

(١) أخرجه البخاري ، ٣/ ١٤٢٠ ، برقم (٣٦٩٣) ، كتاب المناقب ، باب هجرة النبي ﷺ .

فَلِئْنْ جُذَيْمَةَ قُتِّلَتْ سَرَوَاتُهَا فَنِسَاؤُهَا يَضْرِبْنَ بِالأَزْلَامِ[1]

وأمَّا الصِّنف الثَّاني من الأزلام فكانت للأحكام والديات والحرب والنسب والزواج والمياه وغيرها من الأمور العظام ، وكانت هذه عند الكعبة لقريش .

عن ابن إسحاق قال : كان هُبل أعظم أصنام قريش بمكة ، وكان على بئر في جوف الكعبة ، وهي التي يوضع فيها ما يُهدى للكعبة ، وكانت عند هُبل سبعةُ أقداح ؛ قدح فيه العقل أي الدِّيات ، وقَدَحٌ للمياه ، وقدح فيه نعم ، وقدح فيه لا ، وقدح فيه منكم ، وقدح فيه مُلْصَق ، وقدح فيه من غيركم ، وكانوا إذا شَكُّوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هُبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القِداح ، وهي حُلوان أو عطيَّة للسادن الذي يضرب بالأزلام ، ومثلها ما يكون عند الكهَّان والأصنام وحكام العرب ، فيضرب بالقداح فإن خرج فيه منكم أثبتوا نسبه ، وإن خرج من غيركم كان حليفاً ، وإن خرج مُلْصَق كان على منزلته لا نسب ولا حلف ، حتى وإن كان صريحاً في نسبه ، فكانوا يعتقدون ذلك ويمتثلونه ، وإن كان في شيءٍ مما سوى هذا مما يعملون به كنعم أو أمرني ربِّي عملوا به ، وإن خرج لا أو نهاني ربي انتهوا عنه أو أخَّروه عامهم ذلك ، وإذا أراد الرجل حرباً أو أمراً ضرب تلك القداح فإن خرج السهم الذي عليه الأمر مضى لحاجته ، وإن خرج الذي عليه النهي لم يمضِ في أمره[2] . قال طرفة :

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ٥٨ ، محمد بن علي عبدالله الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) : فتح القدير ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب - دمشق ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ ، ٢/ ١٣ .

(٢) انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١/ ٤٩٨ ، خليل أحمد السهارنفوري (ت: =

أَخَـذَ الأَزْلَامَ مُقْتَسِمـًا فَـأَتَـى أغـواهُما زُلُـمَـه[١]

وكما في قصَّة امرئ القيس لمَّا استقسم بالأزلام عند ذي الخلصة من أجل حرب بني أسد والأخذ بثأر أبيه ، فخرج السَّهم الذي يكره ثلاث ، فأخذ الأزلام فكسرها وضرب بها وجه الصَّنم وقال :

لو كُنْتَ يا ذَا الخَلَصِ المَوْتُوْرَا مِثْلِي وَكَانَ شَيْخُكَ المَقْبُوْرَا

لم تَنْهَ عن قَتْلِ العِدَاةِ زُوْرَا[٢]

وأمَّا الصِّنف الثَّالث : قداح الميسر وهو القمار وسمي ميسر لأنَّه من أفعال الأيسار أهل الثَّراء فكانوا يقتسمون بها الجزور لحم الإبل ، والإبل أكرم مال العرب ، وقد نهى الله عزَّ وجلَّ على لسان نبيِّه ﷺ عن هذه الأعمال فقال : ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٣] . ولمَّا قدم رسول الله ﷺ مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأُخرجت ، فأخرجوا

=

١٣٤٦ هـ) : بذل المجهود في حل سنن أبي داود ، اعتني به : د.تقي الدين الندوي ، مركز أبي الحسن الندوي للبحوث ، الهند ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ٧/ ٥٣٩ ، ابن منظور : لسان العرب ، ١٢/ ٤٧٨ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٢/ ٣٥٣ .

(١) طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان الشاعر الجاهلي (ت : ٥٦٤ م) : ديوان طرفة بن العبد ، ت : مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، ط : ٣ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ١/ ٧٢ ، الأزهري : تهذيب اللغة ، ١٣/ ١٤٩ .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٣٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٦ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (٩٠) .

صـورة إبـراهيم وإسـماعيل في أيـديهما الأزلام ، فقـال رسـول الله ﷺ : «قَاتَلَهُمُ الله ، أَمَا والله لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُما لم يَسْتَقسِما بِهَا قَطُّ»[١] .

فالأنصاب أو الأصنام اتخذوها للشِّرك والعبادة ، والأزلام اتخذوها للتكهُّن وطلب عِلم الغيب ، وما استأثر الله به نفسه ، فهذه للعلم ، وتلك للعمل ، ودين الله سبحانه مضادٌّ لهذا وذاك ، فقد جاء رسول الله ﷺ بإبطالهما والأمر بكسرهما[٢] .

وقد دلَّت الآية الكريمة على تحريم هذا الفعل واتِّخَاذه ؛ وأنَّهُ رجسٌ ، والرِّجس أربعةُ أوجه : السُّخط ، والشَّرُّ ، والإثْمُ ، والحُرْمَةُ .

وأصلُ الرِّجس : المستقذر ، والممنوع منه ، فعبَّر به عن ذلك لكونه ممنوعًا منه .

وفي الأنصاب والأزلام قولان : أحدهما: أن الأنصاب هي الأصنام التي تُعبد ، والأزلام هي قداح من خشب يُستقسم بها؛ وأما الثاني : فالأنصاب حجارة حول الكعبة كانوا يذبحون عليها ، والأزلام تسع قداح ذوات أسماء يستقسمون بها في أمورهم ويجعلون لكل واحد منها حكما .

ثُمَّ قال : فاجتنبوه ، وهو يحمل وجهين : أحدهما : فاجتنبوا الرِّجس أن تفعلوه ، والآخر : فاجتنبوا الشيطان أن تطيعوه[٣] . وما في ذلك من

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب من كبر في نواحي الكعبة ، برقم (١٥٢٤) ، ٢/ ٥٨٠ .

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ١/ ٣٧٩ .

(٣) انظر : ابن الملقن عمر بن علي بن أحمد الشافعي(ت: ٨٠٤هـ) : الإعلام بفوائد عمدة الأحكام ، ت : عبدالعزيز بن أحمد المشيقح ، دار العاصمة للنشر ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، ١٠/ ١٩٤ .

الإشراك بالله في العلم والعمل .

فمن اعتقد أنَّ هناك من يعلم الغيب مع الله فقد أشرك به ؛ لأَنَّهُ لا يعلم الغيب إلَّا الله وحده والله تعالى أعلم .

سادسًا : أمرُ البَحِيْرة والسَّائِبَة والوَصِيْلَة والحَام :

ومن شرائع المشركين المعتقدة في الجاهليَّة أمر البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام ، والتي شرعها لهم الكاهن[١] عمرو بن لحي الذي حرَّم الحلال وحلَّل الحرام ، وأدخل الأصنام ، وسيَّب السيوب وفرض الشِّرك على العرب فأطاعوه واتَّبعوا أمره واعتقدوا شريعته على أنَّ هذه الأصنام تقرِّبهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، فقاموا يتقرَّبون إليها بالقُرب والنُّذور ، فأشركوها في عبادة الله بالحجِّ والطَّواف والخضوع والسُّجود ، حتَّى أشركوها في أموالهم وأملاكهم ، فبحروا لها البحيرة وسيَّبوا لها السَّائبة والوصيلة والحامي .

فالبحيرة عند العرب من البحر ، والبحر في كلام العرب الشِّق ، وسُمِّيَ البحر بحراً لأنَّهُ شُقَّ له في الأرض شقًّا ، وجُعل ذلك الشقُّ لمائه قراراً[٢] .

والبحيرة هي بهيمة الأنعام التي تشقُّ أذنها شقًّا واسعًا لتُعَلَّم وتُمْنَع للطواغيت ، فسُمِّيت بحيرة لذلك ، ومن البحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، نُظر في البطن الخامسة فإن كان سقباً[٣] ذبحوه وأكلوه ، وإن كان ربعة[٤] بتكوا أو شقُّوا أذنها ، وقالوا : هذه بحيرة ، فحرَّموها

---

(١) ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٨ ، ٥٨ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٤٣-٤٤ .

(٣) السقب : ولد الناقة ، وقيل : الذكر من ولد الناقة ، بالسين لا غير ، ولا يقال للأنثى سقبة . ابن منظور : لسان العرب ، ١/ ٤٦٨ .

(٤) الربعة : وهي أربعهنَّ لقاحًا : أي أسرعهن . الزبيدي : تاج العروس ، ٢١/ ٥٨ .

لا يُشرب لبنها ولا يُركب ظهرها[١] .

ويُسَمُّون البحيرة أيضاً : بنت السائبة ، فما نتجت السائبة من أنثى بحرت ، أي : شُقَّت أذنها ثمَّ خُلِّي سبيلها مع أمها في الإبل وجرت مجرى السائبة في التحريم فربَّما اجتمعت هجمة من البحر لا يجزُّ لها وبر ، ولا يحمل عليها شيء ، وكانت ألبانها ومنافعها للرجال دون النساء[٢] . قال الشاعر :

محرَّمَةٌ لا يأكُلُ النَّاسُ لَحْمَهَا ولا نَحْنُ في شَيءٍ كَذَاكَ البَحَائِرُ[٣]

أمَّا السَّائبة من السَّيب وهو العطاء ، والسُّيوب الرِّكاز ؛ لأنَّها من سيب الله وعطائه .

وسيَّب الشَّيءَ تركه ، وكُلُّ دابَّة تُركت وسومها فهي سائبة[٤] .

قال ابن عباس : هي التي تُسَيَّبُ للأصنام ، أي : تُعْتَقُ لها ، وكان الرَّجل يُسَيِّبُ من ماله ما شاء فيجيء إلى السَّدنة وهم خدمة آلهتهم يُقَدِّمونها لهم فيطعمون من ألبانها ابن السبيل ونحو ذلك تترك لطواغيتهم[٥] .

---

(١) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١١/ ١٣٠ .
(٢) انظر : القاضي عياض : مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، ١/ ٧٩ ، (بحر) .
(٣) الواحدي : التفسير البسيط ، ٧/ ٥٥٦ .
(٤) ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٨/ ٥٨٧ .
(٥) ورد نحوه في صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة المائدة ، ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ ولا سَائِبَةٍ﴾ ، برقم (٤٣٤٧) ، ٤/ ١٦٩٠ ، الواحدي : التفسير البسيط ، ٧/ ٥٥٣ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٢٨٥ ، د. محمود عبدالرحمن عبد المنعم : معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، ٢/ ٢٢٦ .

قال أبوعبيدة : كانت السَّائبة من جميع الأنعام وهي ما ينذر للأصنام فتسيَّب فلا تحبس عن مرعى ولا عن ماء ولا يركبها أحد . فكان الرجل ينذر إن بَرِئَ من مرض أو قدم من سفر ليسيِّبن بعض إبله أو بعيره[١] .

وقال علقمة[٢] : السَّائبة من الرَّقيق والنَّعم وما نذر الرجل لئن عافاه الله من مرضٍ أو ردَّه من سفر سالمـًا ليسيِّبَنَّ ناقةً أو جملًا أو شاةً أو غيرها للأصنام ، فإذا سيَّبها حَرُمَ أكلُها ، لا يجزُّ وبرها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُشرب لبنها إلا لضيف ، وما ولدت فهو بمنزلتها ، شُقَّت أذنها وسُمِّيَتْ بحيرة . فتركوها مسيبة لسبيلها وسموها السائبة ، فما ولدت بعد ذلك من أنثى بحروا أذنها وخلوا سبيلها وحرم منها ما حرم من أمها[٣] .

وتسيَّب النَّاقة أيضـًا إذا تابعت بين عشر بطون إناث ، فإذا فعلت ذلك سيبت ولم تركب ولم يجز وبرها ولم يَشرب لبنها إلَّا ضَيْف[٤] ، فلا تحبس عن مرعى ولا تمنع من ماء لا قيد فيها ولا راعي لها ، قال الشاعر :

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٢٨٤ .

(٢) علقمة بن قيس بن عبدالله النخعي ، فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها ، ولد في أيام الرسالة المحمدية ، وعداده في المخضرمين ، وهاجر في طلب العلم والجهاد ، حدث عن : عمر ، وعثمان ، وعلي ، وقرأ القرآن على ابن مسعود ، مات سنة اثنين وستين . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤/ ٦١ .

(٣) انظر : الواحدي : التفسير البسيط ، ٧/ ٥٥٣ .

(٤) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ) : الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ، ت : مسعد عبدالحميد السعدني ، دار الطلائع ، (د.ط) ، (د.ت) ، ١/ ١٧٣-١٧٤ .

عَقَرْتُمْ نَاقَةً كَانَتْ لِرَبِّي   وَسَائِبَة فَقُومُوا للعِقَابِ[١]

ومن السَّائبة أيضـًا العبد كانوا إذا سيَّبوه للآلهة لم يكن عليه ولاء[٢] . فالسَّائبة إذاً ما يسيِّبه الرَّجل من ماله للآلهة ، إمَّا نذراً وإمَّا تطوعـًا فيسيِّب بهيمة أو رقيقـًا فيكون حرامـًا أبداً ، منافعها للرِّجال دون النساء[٣] .

والوصيلة في الجاهليَّة : هي النَّاقة التي وصلت بين عشر بطون تُسَيَّبُ لذلك[٤] .

ومن الوصائل أيضـًا : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثني بأنثى فكانوا يسيِّبونها للطواغيت ، ويسمُّونها الوصيلة حين وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر[٥] .

والوصيلة : الشَّاةُ إذا أتأمت عشر إناث عناقين عناقين ليس فيهن ذكر جعلت وصيلة وجعلوا ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث[٦] .

وأنشد تأبط شرًا :

---

(١) انظر : نشوان بن سعيد الحميرى : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ٥/ ٣٢٩٣ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ٣٣٦ .
(٢) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ٣٣٦ .
(٣) انظر : الواحدي : التفسير البسيط ، ٧/ ٥٥٣ .
(٤) انظر : الألوسي : روح المعاني ، ٤/ ٤٢ .
(٥) انظر : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم ، ٨/ ٣٧٦ ، ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٢٨٤ ، السيوطي : الدر المنثور ، ٥/ ٥٥٧ .
(٦) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ١/ ٢٠٥ ، الزَّبيدي : تاج العروس ، ٣١/ ٨١ .

أجِدَّك أما كنت في النَّاس ناعقً

تراعي بأَعْلى ذي المجازِ الوصائلا[١]

والوصيلة أيضًا من الغنم : هي التي إذا وضعت سبعة أبطن عمدوا إلى السَّابع فإن كان جديًا أو ذكراً ذُبِحَ للآلهة ولحمُهُ للرِّجال دون النِّساء ، وإن كانت أنثى أو عناقًا[٢] تركت في الغنم ، وإن كان ذكراً وأنثى قيل وصلت أخاها فحُرما جميعًا ، وكانت منافعها ولبن الأنثى للرجال دون النساء ، وإن كان الذي في بطنها ميتًا اشترك في أكله الرجال والنساء[٣] .

وذلك لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾[٤] .

وخلاصة القول ما ذكره الشافعي رحمه الله : أنَّ الوصيلة : الشاة تُنتج الأبطن ، فإذا ولدت آخر بعد الأبطن التي وقتوا لها ، قيل : وصلت أخاها . وقد يوصلونها في ثلاث أبطن ، ويوصلونها في خمس ، أو سبع

---

(١) انظر : الواحدي : التفسير البسيط ، ٧/ ٥٥٦ .

(٢) العَناق : بفتح العين : أنثى الماعز . انظر : أحمد بن محمد الخفاجي المصري : شرح درة الغواص في أوهام الخواص ، ت : عبدالحفيظ قرني ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص : ٣٠٧ .

(٣) انظر : السمين الحلبي : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، ٤/ ٤٤٨ ، الألوسي : روح المعاني ، ٤/ ٤٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٣٩) .

باختلاف عقائد وعادات العرب في الجاهلية[١] .

فأمَّا الحام أو الحامي : فهو الفحل من الإبل إذا طال مُكثه عندهم[٢] .

وأيضـاً إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنَّ ذكر حمي ظهره فلم يركب ولم يجزَّ وبره ويخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع به بغير ذلك[٣] .

وأيضـاً ولد السَّائبة حامي ، وإذا ضرب فحل من ولد البحيرة فهو عندهم حامٍ[٤] .

وأيضـاً إذا أدرك أولاد أولاده فصار ولده جداً قالوا : حمى هذا ظهره فيتركوه لا يحمل عليه[٥] . قال الشاعر في ذلك :

حمَاهَا أبوقَابُوْسَ في غير مُلْكِهِ كما قَدْ حَمَى أَوْلَادَ أَوْلَادِهِ الفَحْلا[٦]

لا يُركب ولا يُمنع من ماءٍ ولا مرعى ، فإذا ماتت هذه التي جعلوها لآلهتهم اشترك في أكلها الرِّجال والنِّساء[٧] .

فبـيَّن الله سبحانه في كتابه الكريم فساد فعلهم وبطلان عقائدهم وافترائهم عليه ووضح رسول الله ﷺ عقوبة فعل من شرَّع لهم ذلك ، وهو عمرو بن لحي الخزاعي ، فالنَّار مثواه وبئس المصير . عن ابن

---

(١) انظر : محمد بن إدريس الشافعي ت : ٢٠٤هـ) : الأم ، ت : رفعت فوزي عبدالمطلب ، دار الوفاء المنصورة ، ط : ١ ، ٢٠٠١م ، ٧/ ٤٥٨ .
(٢) انظر : الجوهري : الصحاح ، ٦/ ٢٣٢٠ .
(٣) انظر : الطبري : جامع البيان ، ١١/ ١٢٥ .
(٤) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٢٨٤ .
(٥) انظر : المرجع السابق .
(٦) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ٣٣٧ .
(٧) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٦/ ٣٣٧ .

عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «رُفِعَتْ لِيَ النَّار فرأيت عمراً رجلاً قصيراً أحمر أزرق يجرُّ قصبه في النار ، قلت : من هذا؟ قيل : هذا عمرو بن لحى ، أوَّل من بحر البحيرة ، ووصل الوصيلة ، وسيب السائبة ، وحمى الحامى ، وغيَّر دين إبراهيم ، ودعا العرب إلى عباده الأوثان»[١] .

وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ على لسان نبيِّه أن هذه القُرب التي كانت عند العرب من الافتراء والكذب على الله ، قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢] .

ثُمَّ بَيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ بالحُجَّة القاطعة بطلان هذه الشرائع الكاذبة في قوله تعالى : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣] . ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٤] . والمعنى : إنكار تحريم الأنعام هل هو من قبل الذكرين أم من قبل الأنثيين أم من قبل الاثنين ، أو ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وما يشتمل الرحم إلا ذكراً وأنثى ، فأين هذا الذي جاء التحريم من قبله؟![٥] .

قال ابن قتيبة : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حين أمر الله بهذا ، فتكونون

---

(١) انظر : ابن الكلبي : الأصنام ، ص : ٥٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : (١٠٣) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١٤٣) .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٤٤) .
(٥) انظر : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي : تفسيره ، ١/ ٥٢٥ .

على يقين ، فلمَّا لزمتهم الحُجة ولم تكن عندهم علَّةٌ موجبة لتحريم ما حرَّموا ، بيَّن الله تعالى أنَّهم فعلوا ذلك كذبًا على الله في قولهم كذا أمرنا الله ، فقال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١] ، قال ابن عباس : يريد عمرو بن لُحيّ ومن جاء بعده . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، قال : يريد : المشركين[٢] .

وعن أبي الأحوصِ الجشميِّ[٣] عن أبيه قال : رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَيَّ أَطْمَارٌ[٤] ، فقال : «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ»؟ ، قال : قلتُ : نعم ، قال : «مِنْ أَيِّ الْمَالِ»؟ ، قال : قلتُ : قد آتاني الله عزَّ وجلَّ منَ الشَّاءِ والإبلِ ، قال : «فَلْتُرَ نِعْمَةُ اللهِ وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ» ، ثُمَّ قال النَّبِيُّ ﷺ : «هَلْ تُنْتَجُ إِبِلُكَ وَافِيَةً آذَانُهَا»؟ ، قال : وهل تُنْتَجُ إلا كذلك؟ ، ولم يكن أسلم يومئذٍ ، قال : «فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ مُوسَاكَ ، فَتَقْطَعُ أُذُنَ بَعْضِهَا ، فتقُولُ : هَذِهِ بَحِيرٌ ، وَتَشُقُّ أُذُنَ أُخْرَى ، فَتَقُولُ : هَذِهِ صُرُمٌ[٥]»؟ قال : نعم ، قال : «فَلَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللهُ حِلٌّ ، وَإِنَّ مُوسَى اللهِ أَحَدُّ ، وَسَاعِدَ اللهِ أَشَدُّ» ، قال : يا محمَّدُ ، أرأيت إن مررتُ برجل ، فلم يقرِنِي ، ولم يُضَيِّفْنِي ، ثمَّ مَرَّ بعد

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٤٤) .

(٢) الواحدي : التفسير البسيط ، ٨/ ٤٩٥ .

(٣) انظر : عوف بن مالك بن نضلة ، أبوالأحوص الجشمي ، سمع علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، روى عنه أبوإسحاق السبيعي ، وحميد بن هلال العدوي ، وعطاء بن السائب ، وهو ممن نزل الكوفة وحضر النهروان مع علي ، وكان ثقة . انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ١٤/ ٢٣١ ، ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٥/ ٢٤٠ .

(٤) الطِّمْرُ : الثَّوْبُ الخَلَق ، والجمع : أطمار . انظر : ابن دريد : جمهرة اللغة ، ٢/ ٧٥٩ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٥٠٣ .

(٥) الصرم : القطع . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/ ٢٦ .

ذلك ، أَقْرِيهِ أَمْ أَجْزِيهِ؟ قال : «بَلْ أَقْرِهِ»[١] .

فهذه الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة تُجسِّد موقف النبيِّ ﷺ في الإنذار والتَّحذير من خطورة هذه المعتقدات الشركيَّة التي ينسبونها لله عزَّ وجلَّ ، افتراءً وكذباً حيث كانوا يتقرَّبون ببهيمة الأنعام فيحرمون ظهورها ولحومها وألبانها ويسيِّبونها للطَّواغيت يتقرَّبون إليها بالشرك في أموالهم فيعتقون عبيدهم ويسيبون أموالهم في سبيل الشيطان ، ويحرِّمونها على أنفسهم وعلى أزواجهم كذباً وزوراً ، فبعث الله نبيه ﷺ على فترةٍ من الرُّسل لكسر الأصنام وإبطال شريعة الشَّيطان وتقرير التَّوحيد وإتمام محاسن الإسلام ، وإخراج العباد من ذُلِّ الشرك والضَّلال إلى عزِّ الإسلام ونور الإيمان .

وبهذا أكون قد وصلت إلى نهاية هذا الفصل الَّذي اتَّسَم بحشد ديوانٍ من أدلَّة الكتاب والسُّنَّة ، وكذا الرِّوايات التَّاريخيَّة الدَّالة على مسارعة الإسلام في القضاء على مظاهر الشرك والوثنيَّة في الجزيرة العربية ، بدءً من المظاهر الشركيَّة المُصاحبة لحجِّهم ، ثُمَّ انتقالًا إلى السِّحر وأضرابه كالكهانة والعرافة ، ثُمَّ الطِّيرة والتَّشاؤم والتَّمائم والتولة الَّتي أفسدوا بها عقيدتهم ، بل وقعوا في الشرك في جميع حياتهم وعباداتهم التي صرفوها لأوثانهم من الذَّبح لها والنَّذر عندها ، والحلف بها ، وما حرموه لها من أمولهم كالبحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام ، والاستقسام عندها بالأزلام ؛ وكان للقضاء عليها وعلى تلك المظاهر الشركيَّة في جزيرة العرب أثر بليغ ناسب إبرازه وإظهاره في فصلٍ خاصٍ مستقل ، وهذا ما سأتطرق إليه في الفصل القادم إن شاء الله .

---

(١) البيهقي : السنن الكبرى ، برقم (١٩٧١٠) ، ١٠/ ١٦ .

الفصلُ الخامسُ :
أثرُ القضاء على الوثنيَّة ومظاهر الشِّرك

المبحث الأول : دخولُ النَّاس في دين الله أفواجًا وانتشارُ الإسلام في جزيرةِ العرب .

المبحث الثاني : عزُّ الإسلام والمسلمين ، وذلُّ الشِّرك والمشركين .

المبحثُ الأوَّل :
دخولُ النَّاس في دين الله أفواجـًا
وانتشارُ الإسلام في جزيرةِ العرب

سبق أن تناولتُ فتح مكَّة بشيءٍ من التفصيل ، وما صاحب ذلك اليوم من أحداثٍ عظيمةٍ كانت سببًا لإرساء دولة الإسلام الخالدة وهيمنتها على قوى الشِّرك والوثنيَّة الَّتي توغَّلت في نفوس أهلها ، فكان زوال الوثنيَّة هو زوال عقيدتها ، ومن ثَمَّ دخول النَّاس في دِين الله أفواجًا من قريش وسائر العرب .

قال الله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1] .

لقد كان دخول رسول الله ﷺ مكة في العشرين من رمضان من العام الثامن الهجري في يوم عظيم تحقَّق فيه نصر الله والفتح الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وعباده المؤمنين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من المشركين : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2] ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا ، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا[3] .

فكان هذا النصر العظيم والفتح ، من أهمِّ الأحداث الخالدة التي حوَّلت مجرى التاريخ في الجزيرة العربية ، لما لبيت الله من المكانة

---

(١) سورة النصر ، الآيات : (١-٣) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٩٦) .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٣٤٧ ، أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، ١/ ٣٦٩ .

العظيمة في نفوس العرب فهو مهوى قلوبهم ، ومقصدهم للحجِّ والعمرة والطواف والاعتكاف على ما أدخل عليها من الشرك بعبادة الأصنام إلَّا أنَّ العرب على يقين تام بحرمة مكة ووجوب تعظيمها وقُدسيَّتِها ، فبما أن قريش هي التي تحكمها وبيدها سدانة بيت الله الحرام ، وقد حماها الله عز وجل من أبرهة ، وأهلك جيش الصليب فدفع عنها وآمنها من خوف ، لذا دانت لها العرب . قال ابن إسحاق : وإنَّما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحيِّ من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ ، وذلك أنَّ قريشاً كانوا إمام النَّاس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه ، فلمَّا افتتحت مكة ودانت له قريش ودخلت في الإسلام ، عرفت العرب بصدق نبوته ، وأنَّهُ لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال عزَّ وجلَّ : «أفواجاً»[1] ، أي : قبائل وزمراً وجماعات كثيفة كالقبيلة بأسرها أمة بعد أمة في خفة وسرعة ومفاجأة ولين واحداً واحداً أو نحو ذلك ؛ لأنَّهُم قالوا : أمَّا إذا ظفر بأهل الحرم وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل الذين لم يقدر أحدٌ على ردِّهم فليس لنا به يدان[2] .

فلمَّا فتح الله على نبيِّه مكة وتمكَّن منها كان أول ما بدأ به تطهيرها من تلك الأصنام ، فكان لتكسير آلهة المشركين في مكة وهدم الأوثان

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٦٠ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ٣١١ .

(٢) الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢٥٥ .

المحيطة بها أعظم الأثر في نفوس عبَّاد الوثن ، وأكبر حجَّة ورَّثت قناعة تامة على بطلان عبادة الأصنام فتحقق بذلك المقصد الشرعي في قوله ﷺ : «بعثت بكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، وأن يُوَحَّد الله لا يشرك به شيئًا» ، لذا كان هذا العمل من أول الأسباب في دخول قريش عن بكرة أبيها في الإسلام عن قناعة ورضىً وإيمان بوحدانيَّة الله عز وجل ، فتسابقوا يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام والسَّمع والطَّاعة فكان يومًا عظيمًا بحق ، أعزَّ الله فيه قريشًا وأعلى شأنها ومن ثَمَّ دخول العرب في دين الله أفواجًا .

ولا شكَّ أنَّ تطهير البيت من الأصنام كان أكبر ضربة للوثنيَّة في أرجاء الجزيرة العربية ، حيث كانت مكة أعظم مراكزها(١) ، فما إن تَمَّ الفتح وطُهِّرت من الأوثان حتى بعث رسول الله ﷺ إلى معابد الأصنام التي حولها فأزال أكبر المراكز الوثنيَّة المحيطة قبل خروجه من مكة عليه الصلاة والسلام(٢) .

ومن الأسباب العظيمة أيضًا التي مهَّدت دخول النَّاس في دين الله أفواجًا صلح الحديبية ذلك الصُّلح الذي تجلَّت فيه حكمة الله تعالى وحُسن تدبيره عزَّ وجلَّ في ما كتب بين الطرفين من شروط ظاهرها الخضوع وباطنها العزُّ والتَّمكين والفتح المبين للمسلمين .

ومن أعظم المصالح التي تحقَّقت في هذا الصلح تأمين طريق الدَّعوة إلى الله ، والوصول إلى النَّاس ، وتبليغ الرسالة ، وبيان محاسن الدين ،

---

(١) د . أكرم ضياء العمري : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ٢/ ٤٨٤ .
(٢) المرجع السابق .

ومجادلة المشركين بالتي هي أحسن ، حتى يعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا شريك له ، فلمَّا حصل هذا الصلح اختلط أهل مكة بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة ، وذهب المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه[1] ، وسمعوا منهم القرآن الكريم وقوَّة الحجَّة والبيان وضرب الأمثال وما فيه من المعاني السَّامية والآيات الباهرة والتَّلذُّذ بسماعه والتَّفهُّم لمعانيه مع حلاوته وجماله وطلاوته وكماله ، وقد أعجزهم الله به مع دِقَّة بلاغتهم وقوَّة فصاحتهم ومعرفتهم البالغة باللغة ، فتمكَّن من قلوبهم وأيقنوا أنَّه كلام الله لا يقوله بشر ولا يستطيع ذلك ، كما سمعوا منهم الدَّعوة الصَّادقة الخالصة التي تدعو إلى الفطرة ، تدعو إلى توحيد الله الخالق المنعم المتفضِّل ، وإخلاص العبادة له ، ونبذ عبادة الأصنام والأحجار ، والبراءة من كُلِّ ما فيه الخضوع والتعبُّد والتَّذَلُّل لغير الله ، لم تكن الدَّعوة إلى مُلك أو استعباد أو عُلُو أو فساد ، بل دعوةٌ قائمةٌ على الرَّحمة واللِّين والرِّفق والتَّيسير ، شعارها «بشِّروا ولا تنفِّروا يسِّروا ولا تعسِّروا»[2] ، هدفها إنقاذ العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد ، ومن رجس الشرك إلى عزِّ التوحيد ، ومن ذُلِّ الجهل والعصيان إلى نور العلم والإيمان ، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدُّنيا وعذاب الآخرة إلى سعادة الحياة وسعة الجنَّة ، ومن غضب الله إلى رحمته ، هدفها طهارة الرُّوح

---

(١) انظر : محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٢١٠ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، برقم (١٧٣٢) ، ٣/ ١٣٥٨ .

والجسد ، فدعوةٌ هذا شأنها لا يرفضها إلَّا مُعاند لله ورسوله[١] .

كما سمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوَّته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته وصدق رسالته ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت نفوسهم إلى الإيمان ، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام ، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسلام ، فلمَّا كان يوم الفتح أسلموا جميعًا ، لِما كان قد تمهَّد لهم من الميل ، وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش ؛ لما يعلمونه فيهم من القوَّة والرأي ؛ لأنَّهم كانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ، فلمَّا أسلمت قريش أسلمت العرب[٢] ، وهذا مصداق قول النبيِّ ﷺ : «النَّاسُ تَبَعٌ لقريش في الخير والشَّر»[٣] ، أي في الإسلام والجاهليَّة ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب ، وأصحاب حرم الله ، وأهل حج بيت الله ، وكانت العرب تنظر إسلامهم ، فلمَّا فتحت مكة وأسلموا تبعهم النَّاس وجاءت وفود العرب من كُلِّ وجه ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا ، وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة والنَّاس تبعٌ لهم[٤] . فكان لصلح الحديبية أثرٌ بارزٌ في عموم الدَّعوة وانتشارها حيث أَمِنَت الطُّرق ، وتمكَّن النبيُّ ﷺ من إرسال

(١) انظر : محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٢١٠ .

(٢) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٨٠ ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ٣/ ٢١٠-٢١١ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، برقم (١٨١٩) ، ٣/ ١٤٥١ ، وفي صحيح البخاري بلفظ مقارب ، برقم (٣٤٩٥) .

(٤) النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ١٢/ ٢٠٠ .

الرُّسل ، والكتابة إلى الملوك والأمم والقبائل إلى أن تمَّ الأمر بفتح مكة[١] ودخول النَّاس في دين الله أفواجًا .

عن عمرو بن سلمة[٢] رضي الله عنه قال : «كُنَّا بماء ممر النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان فنسألهم ما للناس ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون : يزعم أنَّ الله أرسله أوحى إليه ، أو أوحى الله بكذا فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنَّما يَقِرُّ في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه فإنَّهُ إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق ، فلمَّا كانت وقعة أهل الفتح بادر كُلُّ قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلمَّا قدم قال جئتكم والله من عند النبيِّ ﷺ حقًّا..»[٣] ، فأسلموا جميعًا .

ومن أسباب دخول النَّاس في هذا الدين أفواجًا أخلاق الإسلام التي هي أصل مكارم الأخلاق ، المتمثِّلة في شخصيَّة النبيِّ ﷺ ، فهو المثل الأعلى فيها والمتمم لها ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٤] ، وقال ﷺ : «إِنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاق»[٥] فماذا عسى أن أقول وقد كان

---

(١) انظر : د. محمد السُّلمي وآخرون : صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ، ص٢٤٤ .

(٢) عمرو بن سِلْمَةَ بكسر اللام ، الجرمي ؛ يكنى أبا يزيد ، واختلف في ضبطه ، فقيل بموحدة ومهملة مصغَّرا ، وقيل بتحتانية وزاي وزن عَظِيم ، روى عن أبيه قصَّة إسلامه وعوده إلى قومه . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، برقم (٥٨٧٢) ، ٤/ ٥٣١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب من شهد الفتح ، (٤٠٥١) ، ٤/ ١٥٦٤ . وانظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ١٠ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢٥٤ .

(٤) سورة القلم ، الآية : (٤) .

(٥) البخاري : الأدب المفرد ، ص : ٦٨ ، برقم (٢٧٣) . قال الألباني : صحيح .

خلقه القرآن[١] ، ففي فتح مكة رأوا عجبًا عجاب من رسول الله ﷺ وما يفوق الخيال في العفو والتَّواضع ، والعدل والإحسان ، والكرم والشَّجاعة والخُلُق العظيم ، الذي أثنى الله عليه به عزَّ وجلَّ ، فقد دخل ﷺ مكة بعشرة آلاف جندي بين راكبٍ وفارس وراجل في أعظم فتحٍ في التاريخ ، ثُمَّ يدخلها لا كالملوك والأمراء ولا كالقادة والفاتحين ، بل يدخلها خاضعًا خاشعًا لله ، يضع رأسه تواضعًا لله ، حتى إنَّ عثنونه ليكادُ يَمَسُّ واسطةَ الرَّحل حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح[٢] ، وقد قدَّم رسول الله ﷺ في العفو أروع مثال حين قال : «مَنْ دَخَلَ البَيْتَ الحَرَامَ فَهُوَ آمِنْ ، ومَنْ دَخَلَ دَارَ أبي سُفيان فهو آمِنْ ، ومَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنْ»[٣] ، ثُمَّ يختم ذلك الموقف الرهيب بقوله : «لا تثريبَ عليكُمُ اليوم ، اذهبوا فأنتُمُ الطُّلَقَاء»[٤] ، وقال : «مَنْ لَقِيَ سُهَيل بن عمرو فلا يشدُّ النَّظَر إليه»[٥] ، وقال : «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يا أُمَّ هَانِئ»[٦] ، وقال لأصحابه : «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فلا تسُبُّوا أباه فإنَّ سَبَّ الميت يؤذي الحيَّ ولا يبلغ الميت ، فلمَّا بَلَغَ عكرمة باب رسول الله ﷺ استَبْشَرَ

---

(١) أخرجه مسلم ، ١/ ٥١٢ ، برقم (٧٤٦) ، مسند أحمد ، ت : التركي ، ٤١/ ١٤٨ ، (٢٤٦٠١) .

(٢) انظر : الصَّالحي : سُبل الهدى والرَّشاد ، ٦/ ٢٥٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، برقم (١٧٨٠) ، ٣/ ١٤٠٧ .

(٤) انظر : ابن القيِّم : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٣٥٩ .

(٥) انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٤٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٣٩٧ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفًا به ، برقم (٣٥٠) ، ١/ ١٤١ .

ووَثَبَ له رسولُ الله ﷺ قائماً على رجليه فَرِحًا بقُدُوْمِه»[١] ، أيُّ كرم ورحمة وحلم هذا يُصنع مع الأعداء إلَّا خلق الأنبياء .

وأمَّا خُلُق العدل والوفاء فبلغ أعلاه حين قال : «وايم الله لَوْ أنَّ فاطمةَ بنت محمَّدٍ سَرَقَتْ لقَطَعْتُ يَدَهَا»[٢] ، عندما أرادت قريش أن تشفع في المرأة المخزوميَّة التي سَرَقَتْ ، ومِنْ مواقف العدل التي تجلَّت يوم الفتح حين أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة من بني شيبة ثم أعاده إليهم وقال : «خُذُوْهَا بني شَيْبَةَ خالدةً تالدةً لا يَنْزِعُها منكم إلَّا ظالم»[٣] ، وأمَّا الشجاعة ففي أكملها فعندما كمنت هوازن للمسلمين مع عماية الصبح في مضيق وادي حنين انجفل الجيش منهزمًا ثبت رسول الله ﷺ وحوله بني عبدالمطلب العباس وأبوسفيان بن الحارث وعلى بن أبي طالب وغيرهم فهجم رسول الله ﷺ بهم على جيش هوازن وهو في أولهم يعتزي[٤] ويقول : أنَّا النبيُّ لا كذب أنا بن عبدالمطلب[٥] .

وأمَّا الكرم فليس مثله في النَّاس أبداً ، فقد سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ غنماً

---

(١) الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٣/ ٢٦٩ ، وقال محققه : حذفه الذهبي من التلخيص لضعفه . وانظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٣٩٨ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٥٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، باب كراهية الشفاعة في الحدِّ إذا رفع إلى السلطان ، برقم (٦٤٠٦) ، ٦/ ٢٤٩١ .

(٣) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٣/ ٣٨٤ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٤ .

(٤) اعتزى إلى فلان : انتسب إليه صدقاً أو كَذِبًا . انظر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، (مادة : عزا) ، ٢/ ٥٩٩ .

(٥) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٠٢ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢ .

بين جبلين فأعطاه إيَّاه كله ، فأتى قومه فقال : أي قوم أسلموا فوالله إنَّ محمداً ليُعْطِي عطاءً ما يخاف الفقر[١] . ولمَّا لحظ صفوان بن أميَّة ينظر إلى شعب مليءٍ بنَعَم وشَاة ورعاء ويديم النَّظر إليها ، قال له رسول الله ﷺ : «أبا وهب!! أيعجبك هذا؟» ، قال : نعم ، قال : «فهو لك» ، وكان على الكفر ، فقال صفوان : «مه والله ما طابت نفس أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله ودخل في دين الله»[٢] ، فكانت هذه الأخلاق العظيمة من أعظم الأسباب التي رغَّبت النَّاس في هذا الدين العظيم .

فما إن فتح الله تعالى على رسوله مكة وهدمت الأوثان المحيطة بها حتى دخلت قريش في الإسلام أفواجاً أفواجاً رجالًا ونساءً كباراً وصغاراً ، وتبعتهم القبائل المجاورة ومن ذلك **وفد عامر بن صعصعة**[٣] :

عن عون بن أبي جحيفة السُّوائي عن أبيه ، قال : قدم وفد بني عامر وكنت معهم إلى النبيِّ ﷺ فوجدناه بالأبطح في قُبَّة حمراء ، فسلَّمنا عليه ، فقال : من أنتم؟ قلنا : بنو عامر بن صعصعة ، قال : مرحباً بكم أنتم مني وأنا منكم ، وحَضَرَت الصَّلاة فقام بلال فأذَّن وجعل يستدير في أذانه ، ثُمَّ أتى رسول الله ﷺ بإناءٍ فيه ، فتوضّأ وفضلت فضلة من وضوئه فجعلنا لا نألو أن نتوضَّأ مما بقي من وضوئه ، ثُمَّ أقام بلال الصلاة فصلَّى بنا رسول

---

(١) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٢/ ٢١٠

(٢) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٨٥٥ ، السيوطي : الخصائص الكبرى ، ١/ ٤٥٠ .

(٣) هم بنو عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٧٨ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٧٢ .

الله ﷺ ركعتين ، ثُمَّ حضرت العصر فقام بلال فأذَّن فجعل يستدير في أذانه ، فصلَّى بنا رسول الله ﷺ ركعتين[١] .

فعندما أتت الأخبار لرسول الله ﷺ بتحرُّك هوازن وثقيف لغزو المسلمين في مكة خرج إليهم مسرعًا وخرج معه أهل مكة كلهم بعد أن أسلموا استجابة لرسول الله ﷺ ، فتحقَّق نصر الله لنبيه في حنين ، فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من حصار الطائف انتظر هوازن إلَّا أنَّهُم أبطؤ حتى قسم الغنائم ، ثُمَّ قدم إليه **وفد هوازن**[٢] في الجعرانة وهم مُسلِمون ، فكانوا من أوَّل الوفود التي وفدت إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله أنت خير النَّاس وأبرُّ النَّاس ، وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا ، فقال النبي ﷺ : «إنَّ عندي من ترون ، وإنَّ خير القول أصدقه ، اختاروا إمَّا ذرارِيكم ونساءكم ، وإمَّا أموالكم ، قالوا : ما كُنَّا نَعْدِلُ بالأحساب شيئًا»[٣] . فردَّ رسول الله ﷺ عليهم أولادهم ونسائهم[٤] .

وكان من أشهر وفود الحجاز وما والاها التي قدمت إلى النبيِّ ﷺ وأسلمت وفد سليم ، ووفد كنانة ، ووفد مزينة ، ووفد غامد ، ووفد غافق ، ووفد دوس ، ووفد خثعم ، ووفد ثمالة ، ووفد سعد بن بكر ، ووفد بني عبد بن عدي ، ووفد أسلم ، ووفد الجارود بن معلى ، ووفد هلال بن عامر ، ووفد جهينة ، ومن هذه القبائل من وفد قبل الفتح

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٦ .
(٢) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٥٠ .
(٣) انظر : الطَّبري : جامع البيان ، ١٠/ ١٠٢ .
(٤) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٩٢ ، ٢/ ١١٦ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ١٩٠ .

وبعده ، أُوْرِدُ شيئًا من أخبارهم بإيجاز ، وهي على النحو التالي :

وفد سليم(١) : قدم إلى رسول الله ﷺ رجلٌ من بني سليم ، يقال له : قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ، ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم ، ورجع إلى قومه فقال : قد سمعت ترجمة الروم ، وهينمة(٢) فارس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكاهن ، وكلام مقاول حمير ، فما يشبه كلام محمَّد شيئًا من كلامهم ، فأطيعوني وخذوا بنصيبكم منه ، فأسلموا ، فلمَّا كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله ﷺ فلقوه بقديد وكانوا قرابة الألف فانضموا إلى جيشه ﷺ(٣) .

وفد مزينة(٤) : كان أوَّل من وفد إلى رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة ، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة إلى دارهم ، وقال : أنتم مهاجرون حيث كنتم ، فارجعوا إلى أموالكم ، فرجعوا إلى بلادهم(٥) .

وفد غامد(٦) : قدموا إلى رسول الله ﷺ في رمضان وهم عشرة ،

---

(١) نسبة إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ، قبيلة مشهورة ، منهم العرباض بن سارية السلمي ، والعباس بن مرداس السلمي . انظر : ابن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب ، ٢/ ١٢٨-١٢٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٩٤ .

(٢) هينمة الكلام : الذي لا يفهم منه . الزبيدي : تاج العروس ، ٣٥/ ٢٩ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٣ .

(٤) مزينة : بطن من طابخة من العدنانية ، وهم بنو عثمان وأوس بن عمرو بن أد بن طابخة . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٢٠ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٢ . وكانت بلادهم في الحجاز مما يلي المدينة .

(٦) غامد : هم بطن من الأزد ، وأمَّا غامد فهو عامر بن عبدالله بن كعب بن الحارث بن =

فسلَّموا عليه وأقرُّوا بالإسلام ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه شرائع الإسلام[١] .

وفد غافق[٢] : قدم جليحة بن شجار الغافقي إلى رسول الله ﷺ في رجال من قومه ، فقالوا : يا رسول الله ، نحن الكواهل من قومنا ، وقد أسلمنا ، وصدقاتنا محبوسة بأفنيتنا ، فقال : لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فقالوا : آمنا بالله واتَّبعنا الرسول[٣] .

وفد دوس[٤] : لمَّا أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي دعا قومه فأسلموا ، ووفد معه منهم المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت ، وفيهم أبوهريرة وعبدالله بن أزيهر الدوسي[٥] .

وفد خثعم[٦] : وَفَدَ عثعث بن زحر ، وأنس بن مدرك في رجال من

=

عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزرد . انظر : السمعاني : الأنساب ، ١٠/ ١١ ، الصحاري : الأنساب = تاريخ العوتبي ، ص : ٢٢٣ .

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٠ .

(٢) غافق : بطن من عك من القحطانية ، وهم بنو غافق بن الشاهد بن علقمة بن عك . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٨٦ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٤ .

(٤) دوس : بطن من شنوءة من الأزد من القحطانية ، وهم بنو دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران ، ومنهم أبوهريرة صاحب رسول الله ﷺ . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٨٢ ، ابن المبرد : نسب عدنان وقحطان ، ص : ٢٢ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٥ .

(٦) خثعم : بطن من أنمار بن أراش من القحطانية ، وبلادهم بسروات اليمن والحجاز . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة =

خثعم إلى رسول الله ﷺ بعد ما هدم جرير بن عبدالله ذا الخلصة ، وقتل من قتل من خثعم ، فقالوا : آمنَّا بالله ورسوله وما جاء من عند الله ، وكتب لهم كتاباً شهد فيه جرير بن عبدالله ومن حضر(١) .

وفد ثمالة(٢) : قدم عبدالله بن علس الثمالي ، ومسلية بن هزان الحداني إلى رسول الله ﷺ في رهطٍ من قومهما بعد فتح مكة فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على قومهم ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم(٣) .

وفد سعد بن بكر(٤) : بعثت بنو سعد بن بكر ، ضمام بن ثعلبة قبل الفتح ، وافداً إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن شرائع الإسلام ، فأجابه رسول الله ﷺ ، فرجع إلى قومه مسلماً قد خلع الأنداد ، فما أمسى في ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلّا مسلماً ، وبنوا المساجد وأذَّنوا بالصَّلوات(٥) .

= أنساب العرب ، ١/ ٤٧٥ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٤٣ .

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١-٢٦٢ .

(٢) بنو ثمالة : من شنوءة ، من الأزد ، من القحطانية ، وهم بنو ثمالة ابنا سليم بن حجر ابن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد . انظر : السمعاني : الأنساب ، ٣/ ١٤٦-١٤٧ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٩٩ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٥ .

(٤) بنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٦٥ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٩٠ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٨ .

وفد بني عبد بن عدي[١] : وفد إلى رسول الله ﷺ وفد بني عبد بن عدي ، وفيهم : الحارث بن أهبان ، وعويمر بن الأخرم ، وحبيب وربيعة ابنا ملة ، فقالوا : يا محمد ، نحن أهل الحرم وساكنه ، وأعزُّ من به ، ونحن لا نريد قتالك ، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك ، ولكنَّا لا نقاتل قريشاً ، وإنَّا لنحبُّك ومن أنت منه ، فإن أصبت منَّا أحداً خطأ فعليك ديته ، وإن أصبنا أحداً من أصحابك فعلينا ديته ، فقال : نعم ، فأسلموا[٢] .

وفد أسلم[٣] : قدم عميرة بن أفصى في عصابة من أسلم ، فقالوا : قد آمنا بالله ورسوله واتَّبعنا منهاجك ، فاجعل لنا عندك منزلة ، فقال رسول الله ﷺ : أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وكتب رسول الله ﷺ لأسلم ومن أسلم من قبائل العرب كتاباً فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي[٤] .

وفد الجارود بن معلى[٥] : وفد إلى رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام وعرضه عليه ، فقال الجارود : إنِّي قد كنت على دين ، وإنِّي تاركٌ ديني

---

(١) بني عبد بن عدي بن الديل بن بكر . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٢-٢٣٣ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٦٥ .

(٣) هم بنو أسلم بن أفصى بن حارثة . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٩ .

(٤) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٥ .

(٥) واسمه بشر بن عمرو بن حنش أخو عبدالقيس ، ويكنى أبا المنذر وكان شريفاً في الجاهلية ، وكان نصرانياً . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٧٥ .

لدينك ، أتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ضامن لك ، قد هداك الله إلى ما هو خير لك منه[١] .

وفد هلال بن عامر[٢] : قدم إلى رسول الله ﷺ نفر من بني هلال ، فيهم عبد عوف بن أصرم فسأله عن اسمه فأخبره ، فقال : أنت عبدالله ، ثُمَّ أسلم[٣] .

وفد جهينة[٤] : وكان من أمر عمرو بن مُرَّةَ الجهني أنَّهُ قال : كان لنا صنمٌ وكنَّا نُعَظِّمه ، وكنتُ سادنه ، فلمَّا سمعتُ بالنبيِّ ﷺ كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبيِّ ﷺ فأسلمت وشهدت شهادة الحقِّ وآمنت بما جاء به من حلال وحرام ، فذلك حين أقول :

شهدتُ بأنَّ اللهَ حَقٌّ وإنَّني لآلهةِ الأحْجَارِ أوَّلُ تَارِكِ
وشَمَّرْتُ عن ساقي الإزار مهاجراً إليك أجوبُ الوعث بعد الدَّكادك

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٧/ ٥٩ .

(٢) هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ، من العدنانية . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٥ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٧٣ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٤٣ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٥ .

(٤) بنو جهينة : حيٌّ من قضاعة من القحطانية ، بنو جهينة بن زيد بن ليث بن قضاعة ، وبلادهم ينبع والعيص ورضوى ، وهم حاضرة وبادية . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ٢/ ٧٢٣ ، ٧٢٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٢٣ ، عبدالرحمن بن حمد اللامي(ت: ١٣٦٤هـ) : المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ، (د.ت) (د. ط) ، ص : ٢٠ .

لأَصْحَبَ خيرَ النَّاس نَفْسًا ووالدًا

رسولُ مليكِ النَّاسِ فوقَ الحَبَائِكِ

قال : ثُمَّ بعثه رسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه[١] .

ثُمَّ وَفَدَ على النبيِّ ﷺ **وفد صداء** وذلك عقب انصرافه من الجعرانة هيَّأ بعثًا قوامه أربعمائة من المسلمين وأمرهم أن يطئوا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة ، علم به زياد بن الحارث الصداني[٢] ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتك وافداً على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فردَّ الجيش ، وجاء الصدائي إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ورغَّبهم في القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عليه خمسة عشر رجلًا منهم بايعوا على الإسلام ثُمَّ رجعوا إلى قومهم فدعوهم ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجَّة الوداع[٣] .

وفي صفر من السَّنة التاسعة وَفَدَ على النبيِّ ﷺ **وفد عذرة**[٤] وهم اثنا

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات ، ١/ ٢٥١-٢٥٢ ، الطبري : جامع البيان ، ٩/ ٥١٩ .

(٢) زياد بن الحارث الصدائي ، وصداء حي من اليمن ، وهو حليف بني الحارث بن كعب بن مذحج ، بايع النبيَّ ﷺ وأذَّن بين يديه . انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٢/ ٣٣٢ .

(٣) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٧ .

(٤) بنو عذرة ، بطن من قضاعة من القحطانية ، وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن أسود بن أسلم بن الحافي . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٤٤٨ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٥٩ .

عشر رجلًا عرَّفوا أنفسهم فعرفهم رسول الله ﷺ ورحَّب بهم وبشَّرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذَّبائح التي كانوا يذبحون فأسلموا جميعًا[١] .

وفي ربيع الأول سنة تسع للهجرة وَفَدَ إلى النبيِّ ﷺ وفد بلي[٢] ، على رأسهم سيِّدهم أبوضبيب ، فبايعوا جميعًا على الإسلام ، فسأل أبا ضبيب النبيَّ ﷺ عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم ، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة» ، وسأل عن وقتها ، فقال : «ثلاثة أيام» ، وسأل عن ضالة الغنم فقال : «هي لك أو لأخيك أو للذئب» ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : «ما لك وله ، دعه حتى يجده صاحبه»[٣] .

ومن أوائل من وَفَدَ على رسول الله ﷺ أيضًا في السنة التاسعة وفد بني أسد[٤] وكان عددهم عشرة رهط ، فقال حضرمي بن عامر : يا رسول الله : أتيناك نتدرَّع الليل البهيم ، في سنة شهباء ، وإنَّا شهدنا أنَّ الله وحده

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٠ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٣١٥ .

(٢) بطن من قضاعة من القحطانية ، كان شيخ الوفد أبوالضبيب ، وهو بلي بن عمرو بن الحاف ، منهم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ . انظر : السمعاني : الأنساب ، ٢/ ٣٢٣ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٨٠ .

(٣) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٩ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٥٧٥ .

(٤) حي من بني خزيمة من العدنانية ، وهم بنو أسد بن خزيمة ابن مدركة . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٤٦٦ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٧ .

لا شريك له ، وأنَّك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثًا ونحن لمن وراءنا ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1][2] .

وفد كنانة[3] : وَفَدَ واثلة بن الأسقع الليثي[4] إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهَّز إلى تبوك فصلَّى معه الصبح ، فقال له : ما أنت وما جاء بك وما حاجتك؟ فأخبره عن نسبه وقال : أتيتك لأؤمن بالله ورسوله ، قال : فبايع على ما أحببت وكرهت ، ثُمَّ خرج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك .

ثُمَّ تكاثر عدد الدَّاخلين في الإسلام فرادى وجماعات ، ليبلغ جيش النبيِّ ﷺ في غزوة تبوك ثلاثون ألف مقاتل غير الضَّعفة من النِّساء والولدان وكبار السنِّ والعبيد ، فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٧) .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤/ ١٧٠ .

(٣) كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٢ ، ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ٤٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٠٨ .

(٤) واثلة بن عبدالله بن الأسقع ، كان يُنسب إلى جدِّه ، ويُقال الأسقع لقب ، واسمه عبدالله ، أسلم والنبي ﷺ يتجهَّز إلى تبوك ، ويقال : إنَّه خدم النَّبيَّ ﷺ ثلاث سنين ، وكان من أهل الصُّفَّة ، شهد المغازي بدمشق وحمص ، ثم تحول إلى بيت المقدس ، ومات بها ، مات سنة خمس وثمانين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وهو آخر من مات بدمشق من الصّحابة . انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٣/ ١٥٦٣-١٥٦٤ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصَّحابة ، ٤/ ٣٥٦ .

وعاد إلى المدينة وَفَدَ إليه أهل الطائف **وفد ثقيف**[١] وكان قد تقدَّمهم عروة بن مسعود فبايع رسول الله ﷺ على الإسلام ، وكان من شأنه أن قتله قومه في سبيل الدعوة ، إلَّا أنَّهُ لمَّا أصيب تصدَّق بدمه من أجل الإصلاح ، فلمَّا مات أتمرت ثقيف ثم بعثوا وفداً يفاوض رسول الله ﷺ واشترطوا شروطاً ليست من الإسلام في شيء ، رفضها رسول الله ﷺ ، وقد ضرب لهم رسول الله ﷺ قُبَّة في المسجد ليشاهدوا حال المسلمين في الصَّلاة والذِّكر ويسمعوا القرآن والمواعظ ، وكان رسول الله ﷺ يتردَّد عليهم بالنُّصح والإرشاد إلى أن هداهم الله وأسلموا جميعاً ، فلمَّا رجعوا إلى الطائف بعث رسول الله ﷺ معهم بعثاً لهدم اللات فهُدِمَتْ وأسلم أهلُ الطائف جميعاً[٢] .

ومن الوفود التي قدمت إلى النبيِّ ﷺ بعد عودته من تبوك **وفد الدَّاريين**[٣] : قدم وفد الداريين إلى رسول الله ﷺ وهم عشرة نفر ، فيهم تميم ونعيم ابنا أوس بن خارجة ، ويزيد بن قيس بن خارجة ، والفاكه بن النعمان ، وجبلة بن مالك بن صفارة ، فأسلموا ، وكتب لهم كتاباً ، وأقام

---

(١) ثقيف : بطن من هوازن من العدنانية ، منازلهم بالطائف . انظر : يوسف ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ٧٦ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٩٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٣٧ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٧ ، عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٤١٣ .

(٣) بطن من لخم من القحطانية ، وهم بنوالدَّار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم بن عدي ، من بلاد الشام . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٥٤ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٥٣ .

الوفد حتى توفي رسول الله ﷺ وأوصى لهم بحاد مائة وسق[١] .

وفد حمير[٢] : قدم على رسول الله ﷺ مالك بن مرارة الرهاوي رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم ، وذلك في شهر رمضان سنة تسع ، فأمر بلالًا أن يُنْزِلَهُ ويكرمه ويضيفه ، وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبدكلال وإلى نعيم بن عبدكلال وإلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان : أمَّا بعد ذلكم فإنِّي أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد فإنَّهُ قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فبلغ ما أرسلتم وخبر عما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين فإنَّ الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خمس الله وخمس نبيه وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة[٣] .

وفد همدان[٤] : قدم وفد همدان إلى رسول الله ﷺ منهم مالك ابن نمط ، وأبوثور ، وهو ذو المشعار ، ومالك بن أيفع وضمام بن مالك السلماني ، وعميرة بن مالك الخارفي ، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك ، فأسلموا جميعًا[٥] .

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٨-٢٥٩ .

(٢) حمير بن سبأ الأكبر ابن يعرب بن يشجب بن قحطان . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٧ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٢٠ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٨٨-٥٩٠ ، محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٧ .

(٤) همدان : بن مالك بن زيد بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن كهلان بن سبأ . انظر : ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ١٣١ .

(٥) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٩٧-٥٩٨ .

ولما دنا موسم الحجِّ بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليُقيم للنَّاس حَجَّهم ، وأن يأمرهم أن لا يَحُجَّ بعد عامهم هذا مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ثُمَّ أنزل الله على نبيه سورة براءة ، فبعث رسول الله ﷺ بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يلحق بأبي بكر وأن يقرأها على النَّاس يوم الحجِّ الأكبر ويُمهل المشركين أربعة أشهر ، فلمَّا انقضى الحجُّ ورجع النَّاس إلى ديارهم ضربت إلى رسول الله ﷺ وفود العرب من كُلِّ وجه يُبايعون على الإسلام ويدخلون في دين الله قبائل وقرى بأكملها حتَّى سُمِّيَ ذلك العام -العام التَّاسع الهجري- بعام الوُفود[(١)] .

وقد توافدت على المدينة وفود القبائل من أنحاء الجزيرة العربية من شرقها وشمالها وجنوبها ، ومن الحجاز وما والاها ، يتسابقون على الإسلام ويتزاحمون حتى كانت المدينة تعجُّ من كثرة الوفود ، عن عمران بن حصين قال : جاءت بنو تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : «أَبْشِرُوا يَا بَنِي تَمِيمٍ» فقالوا : أمَّا إذ بشَّرتنا فأعطنا ، فتغيَّر وجهُ رسول اللهِ ﷺ فجاء ناسٌ من أهل اليمن فقال النبيُّ ﷺ : «اقْبَلُوا الْبُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ» قالوا : قد قبلنا يا رسولَ الله .

وكان من أشهر من وفد على النبيِّ ﷺ من أهل المشرق : وفد عبدالقيس ، ووفد شيبان ، ووفد مُرَّة ، ووفد كلاب ، ووفد بني حنيفة ، ووفد بكر بن وائل ، ووفد بني سحيم ، ووفد قيس بن عاصم ، ووفد

---

(١) اختلف في ابتداء الوفود عليه ﷺ ، فقيل بعد رجوعه من الجعرانة في آخر سنة ثمان وما بعدها ، وقال ابن إسحاق : بعد غزوة تبوك ، وقال ابن هشام : كانت سنة تسع تسمى سنة الوفود . انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢٦٠ .

عقيل بن كعب ، وفد فزارة ، ووفد بني سدوس ، ووفد باهلة ، ووفد بني البكاء ، ومن أخبار هذه الوفود وهي على النحو التالي :

وفد عبدالقيس(١) : من أهل البحرين ، وكان عددهم عشرون رجلًا ، دخلوا في الإسلام جميعًا ، وأمر لهم رسول الله ﷺ بجوائز(٢) .

وفد شيبان(٣) : كان فيهم حريث بن حارث الشيباني ، وزوجته قَيْلة بنت مخرمة(٤) ، جلست خلف رسول الله ﷺ فأخذتها رِعْدَة ، فقال لها ﷺ : «يا مسكينة عليك السَّكينة» ، وكتب لهم كتابًا(٥) .

---

(١) هي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين ينسبون إلى عبدالقيس بن أَفْصَى بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وقد كانت لهم وفادتان : إحداهما قبل الفتح ، ولهذا قالوا للنبي ﷺ : «بيننا وبينك كفار مضر» ، وكانت قريتهم بالبحرين أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة ، وكان فيهم الأشج ، قال له النبيُّ ﷺ : «إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة» . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، ٨/ ٨٥ ، النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ١/ ١٨١-١٨٢ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٩ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٤٨ .

(٣) بطن من بكر بن وائل من العدنانية ، وهم بنو شيبان ابن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٢١ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٣١٧ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٠٩ .

(٤) قيلة بنت مخرمة التميمية ، من بني العنبر ، ومنهم من نسبها غنوية فصحَّف ، هاجرت إلى النبيِّ ﷺ مع حريث بن حسان وافد بني بكر بن وائل . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٨/ ٢٨٨ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٢ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، ٤/ ٢٠٢ .

وفد كلاب[١] : قدم ثلاثة عشر رجلًا ، فيهم لبيد بن ربيعة ، وجبار بن سلمى ، دخلوا على رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه بسلام الإسلام ، وقالوا : إنَّ الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته ، ودعانا إلى الله عزَّ وجلَّ فاستجبنا لله ولرسوله ، وإنَّهُ أخذ الصدقة من أغنيائنا فردَّها على فقرائنا ، وأنزلهم دار رملة بنت الحارث[٢] .

وفد بني حنيفة[٣] : كانوا بضعة عشر رجلًا ، أتوا رسول الله ﷺ وخلَّفوا مسيلمة في رحالهم ، فلمَّا أسلموا ذكروا له مكانه ، فأمر لهم ﷺ جميعًا بعطاء ، فلمَّا رجعوا إلى اليمامة ارتدَّ مسيلمة وتنبَّأ[٤] .

وفد بكر بن وائل[٥] : قدم وفد بكر بن وائل إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رجلٌ منهم : هل تعرف قس بن ساعدة؟ فقال رسول الله ﷺ : «لَيْسَ هُوَ

---

(١) هم أبناء كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، من العدنانية . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٨٢ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٠٧ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٨ ، ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ٣/ ٣٥٥ .

(٣) قبيلة من بكر ابن وائل من العدنانية ، كانت منازلهم اليمامة . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٦٢ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٣٨ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٧٦ ، محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٠ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ٣٣٠ .

(٥) من العدنانية ، تنسب إلى بكر بن وائل ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعميّ ابن جديلة بن أسد بن نزار بن معد بن عدنان ، كانت مساكنها من اليمامة إلى البحرين ، إلى سيف كاظمة إلى البحر . انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ١٦٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٧٨ .

منكم هذا رَجُل مِن إياد تحنَّف فِي الجاهلية فوافى عكاظ والنَّاس مجتمعون فيكلِّمهم بكلامه الَّذِي حفظ عَنْهُ» . وكان في الوفد بشير بْن الخصاصية ، وعبدالله بن مرثد ، وحسان بن حوط[1] .

وفد بني سحيم[2] : قدم الأسود بن سلمة إلى رسول الله ﷺ في وفد بني سحيم فأسلم ، فردَّهم إلى قومهم وأمرهم أن يدعوهم إلى الإسلام ، وأعطاهم إداوة ماء قد تفل فيها أو مجَّ ، وقال : «فلينضحوا بهذه الإداوة مسجدهم وليرفعوا رؤوسهم» ، إذا رفعها الله تعالى فما تبع مسيلمة منهم رجل ولا خرج منهم خارجيّ قط[3] .

وفد قيس بن عاصم[4] : سيِّد بني تميم ، وَفَدَ إلى النَّبِي ﷺ فقال : «هَذَا سيد أَهْل الوبر»[5] .

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٩ .

(٢) بنو سحيم : بطن من بني حنيفة من بكر بن وائل من العدنانية ، وهم بنو سحيم بن مرة بن الدؤل بن حنيفة . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٨٣ ، السيوطي : الخصائص الكبرى ، ٢/ ٣٨ .

(٣) انظر : السيوطي : الخصائص الكبرى ، ٢/ ٣٨ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٤٢ .

(٤) قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد ، من بني تميم ، أسلم سنة تسع ، وكان عاقلًا حليماً مشهوراً بالحلم ، وكان قد حرَّم على نفسه الخمر في الجاهلية . عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٤١١ .

(٥) انظر : محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ٧/ ٢٦ ، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت :٢٧٩هـ) : جمل من أنساب الأشراف ، ت : سهيل زكار ، رياض الزركلي ، دار الفكر ، بيروت ، ط :١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ١٢/ ٢٦٣ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٣٣ .

وفد عقيل بن كعب[١] : قدم وفد بني عقيل على رسول الله ﷺ فيهم ربيع بن معاوية بن خفاجة ، ومطرف بن عبدالله بن الأعلم ، وأنس بن قيس بن المنتفق ، فبايعوا وأسلموا ، وبايعوه على من وراءهم من قومهم ، فأعطاهم النبيُّ ﷺ العقيق عقيق بني عقيل . وهي أرض فيها عيون ونخل ، وكتب لهم بذلك كتابا في أديم أحمر[٢] .

وفد فزارة[٣] : قدم وفد بني فزارة على رسول الله ﷺ بضعة عشر رجلًا ، فيهم خارجة بن حصن ، والحر بن قيس بن حصن ، على ركاب عجاف ، فجاؤوا مُقِرِّين بالإسلام ، وسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم ، فاشتكوا الجدب والقحط ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ودعا لهم[٤] .

وفد بني سدوس[٥] : عن عبدالله بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال : كُنَّا عند رسول الله ﷺ في وفد بني سدوس ، فأهدينا له تمراً فنثرناه إليه على نطع فأخذ حفنة من التَّمر فقال : «أيُّ تمر هذا؟» فجعلنا نُسَمِّي حتى ذكرنا تمراً فقلنا : هذا الجذامي ، فقال : «بارك الله في الجذاميِّ وفي حديقة

---

(١) عُقَيْل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٩٠ ، ٤٨٢ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٣) بطن من ذبيان بن غطفان القحطانية ، وهم بنو فزارة بن ذبيان ، وكانت منازلهم نجد ووادي القرى . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٩٣ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ٢/ ٤٧١ .

(٤) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٦ .

(٥) سدوس بن شيبان : بطن من بني شيبان بن ذهل ، وبلدتهم تسمى القرية ، وهي من قرى اليمامة . انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ١٦٢ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٤/ ٣٤٠ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٤٣ .

يخرج هذا منها أو جنَّة خرج هذا منها»[١] .

وفد باهلة[٢] : قدم إلى رسول الله ﷺ مطرف بن الكاهن الباهلي بعد الفتح وافداً لقومه فأسلم وأخذ لقومه أمانـاً ، ثُمَّ قدم نهشل بن مالك الوائلي من باهلة على رسول الله ﷺ وافداً لقومه فأسلم ، وكتب له رسول الله ﷺ ولمن أسلم من قومه كتابا فيه شرائع الإسلام[٣] .

وفد بني البَكَّاء[٤] : وفد من بني البكَّاء إلى رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر : معاوية بن ثور بن عبادة بن البكَّاء ، وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن له يقال له بشر ، والفجيع بن عبدالله بن جندح بن البكَّاء ، ومعهم عبد عمرو البكائي ، وهو الأصم ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بمنزل وضيافة ، وأجازهم ورجعوا إلى قومهم[٥] .

وكان من أشهر وفود شمال الجزيرة : وفد طيء ، ووفد عبس ، ووفد بلي ، ووفد تغلب ، ووفد بني أسد ، ووفد عنزة ، ووفد غسان ، ووفد

---

(١) الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٤٣ . وانظر : الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، باب أكل الخبز بالتمر ، برقم (٨٠٠٨) ، ٥/ ٤٠ .

(٢) حيٌّ من أعصر من قيس عيلان ، وهم بنو سعدة مناة بن مالك بن أعصر ، من العدنانية . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٦٩ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٣ .

(٤) بطنٌ من بني عامر بن صعصعة من العدنانيين ، لهم محلَّة بالكوفة مشهورة منسوبة إلى الحكيم بن سعد بن ثور البكَّائي تُسَمَّى بدار الحكيم . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣١ ، السمعاني : الأنساب ، ٢/ ٢٩٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤١٩ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٤٤ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣١ .

جرباء ، ووفد كلب ، ووفد بهراء ، ووفد جذام ، أورد بعض من أخبار هذه الوفود بشيء من الإيجاز ، وهي كالتالي :

وفد طيء(١) : قدم وفد طيء إلى رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلًا ، سيِّدهم زيد الخير ، وهو زيد الخيل بن مهلهل ، فدخلوا المدينة ورسول الله ﷺ في المسجد ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وأجازهم بخمس أواق فضة كل رجل منهم ، وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا(٢) . والنَّشُّ : نصف أوقية(٣) .

وفد عبس(٤) : وفد إلى رسول رسول الله ﷺ تسعة رهط من بني عبس ، فكانوا من المهاجرين الأولين ، فأسلموا ، ودعا لهم رسول الله ﷺ بخير(٥) .

وفد تغلب(٦) : قدم إلى رسول الله ﷺ وفد بني تغلب ستة عشر رجلًا

---

(١) قبيلة من كهلان من القحطانية ، وهم بنو طي بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، ومساكنهم جبلي أجا وسلمى . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٢٦ .

(٢) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٣ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٥٨ .

(٣) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة ، ١١/ ١٩٣ .

(٤) بنو عبس : بطنٌ من غطفان من العدنانية ، وهم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٤٤-٣٤٥ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٢٥-٢٢٦ .

(٦) بنو تغلب : بفتح التاء وكسر اللام ، حيٌّ من وائل من ربيع من العدنانية ، والنسبة إليهم تغلبي ، وهم بنو تغلب بن وائل ، كانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٨٦- =

مسلمين ونصارى ، عليهم صلب الذهب ، فنزلوا دار رملة بنت الحارث ، فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرهم على دينهم على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية ، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم[1] .

وفد عنزة[2] : عن سلمة بن سعد رضي الله عنه أنَّهُ وفد على رسول الله ﷺ هو وجماعة من أهل بيته وولده فاستأذنوا على رسول الله ﷺ فدخلوا ، فقال : «من هؤلاء»؟ فقيل له : هذا وفد عنزة ، فقال : «بخ بخ بخ بخ» أربعًا ، «نِعْمَ الحيُّ عنزة ، مبغيٌّ عليهم منصورون ، مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى ، سل يا سلمة عن حاجتك» ، قال : جئت أسألك عما افترضت عليَّ في الإبل والغنم ، فأخبره ، ثُمَّ جلس عنده قريبًا ثُمَّ استأذنه في الانصراف ، فما عدا أن قام لينصرف فقال رسول الله ﷺ : «اللهمَّ ارزق عنزة كفافًا لا قوت ولا إسراف»[3] .

وفد غسان[4] : عن محمد ابن بكير الغساني عن قومه غسان قالوا :

=

١٨٧ .

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٣٩ .

(٢) عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، منازلهم : بريَّة العراق ، ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر . محمد بن حبيب : مختلف القبائل ومؤتلفها ، ص : ٥٤ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٢٩٤ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٧٨ .

(٣) الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣٨٨ .
ذكرها الهيثمي في : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، باب ما جاء في عنزة ، برقم (١٦٥٩٠) ، ١٠/ ١٥ .

(٤) حيٌّ من الأزد من القحطانية ، سُمُّوا غسانًا لماء اسمه غسان بين زبيد وربع ، وفي
=

قدمنا إلى رسول الله ﷺ في رمضان سنة عشر المدينة ونحن ثلاثة نفر ، فنزلنا دار رملة بنت الحارث ، فإذا وفود العرب كُلُّهم مصدِّقون بمحمد ﷺ ، فقلنا فيما بيننا : أَيَرانا شَرُّ من يرى من العرب! ثُمَّ أتينا رسول الله ﷺ فأسلمنا وشهدنا أنَّ ما جاء به حق ، فأجاز لهم رسول الله ﷺ[(١)] .

وفد جرباء[(٢)] : وَفَدَ أهل جرباء وأذرح إلى رسول الله ﷺ فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم[(٣)] .

وفد كلب[(٤)] : عن عمرو بن جبلة الكلبي قال : شخصت أنا وعاصم ، رجلٌ من بني رقاش حتى أتينا النبيَّ ﷺ ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وقال : أنا النبيُّ الأميُّ الصَّادق الزَّكي ، والويل كُلُّ الويل لمن كذَّبني وتولَّى عنِّي وقاتلني ، والخير كُلُّ الخير لمن آواني ونصرني وآمن

=

البلقاء طائفة منهم وباليرموك الجم الغفير ، وبحمص منهم جماعة . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٣٨٨ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٤٧٢ .

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٥ .

(٢) موضع من أعمال عمَّان بالبلقاء من أرض الشام ، وتقع شمال غربي مدينة معان . ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٥٢٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ١١٨ .

(٣) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤/ ٢٩ ، أحمد بن محمد القسطلاني : المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، ١/ ٤٢٤ .

(٤) بنو كلب بن وَبَرة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة ، كانوا ينزلون دومة الجندل وتبوك من أطراف الشام . انظر : أحمد بن علي القلقشندي (ت : ٨٢١هـ) : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، ط : ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص : ٤٦ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٤٨٧ .

بي وصدَّق قولي وجاهد معي ، قالا : فنحن نؤمن بك ونصدِّق قولك ، فأسلمنا[١] .

وفد جذام[٢] : قَدُمَ رفاعة بن زيد الجذامي ثُمَّ أحد بني الضبيب إلى رسول الله ﷺ في الهدنة قبل خيبر وأهدى له عبداً وأسلم ، فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً : هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله فمن أقبل ففي حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين ، فأجابه قومه وأسلموا .

وأمَّا اليمن فكان من أشهر وفودهم : وفد بجيلة ، ووفد خَوَلان ، ووفد همدان ، وفد زبيد ، ووفد النَّخع ، ووفد الصدف ، ووفد كندة ، ووفد حضرموت ، ووفد أزد شنوءة ، ووفد جيشان ، ووفد وائل بن حِجْر ، ووفد بني تجيب ، ووفد الأزد ، ووفد مَهَرَة ، ووفد عنس ، ووفد بارق ، ووفد مراد ، ووفد الرَّهويين ، ووفد سعد العشيرة[٣] ، ومن أخبار هذه الوفود عن عبدالرحمن بن أبي سبرة الجعفي قال : لمَّا سمعوا بخروج النبيِّ ﷺ ، وثب ذباب رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم كان لسعد العشيرة يقال له : فراض فحطَّمه ، ثُمَّ وفد إلى النبيِّ ﷺ فأسلم ، وقال :

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٤٠١ .

(٢) قبيلة من اليمن نزلت الشام ، وهم بنو جذام بن عدي بن مرة . انظر : ابن الكلبي : نسب معد واليمن الكبير ، ١/ ٢٠١ ، السمعاني : الأنساب ، ٣/ ٢٢٤ ، القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ص : ٥٥ .

(٣) سعد العشيرة بن مالك وهو مَذْحج بن أدد ، سُمِّي سَعْد العشيرة ؛ لكثرة وَلِده . انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٧ ، الصحاري : الأنساب = تاريخ العوتبي ، ص : ١٢٠ .

تَبِعْتُ رسولَ الله إِذْ جَاءَ بالهُدَى وخلفت فراضاً بدار هوان
شَدَدْتُ عليه شِدَّةً فتركتُهُ كأنْ لم يكُنْ والدَّهرُ ذو حَدَثَان
فلمَّا رأيتُ اللهَ أظْهَرَ دينَه أَجَبْتُ رسولَ اللهِ حينَ دَعَانِي
فأصبحتُ للإسلام ما عِشْتُ ناصراً وألقيتُ فيها كَلْكَلِي وجِرَانِي
فمَنْ مبلغٌ سَعْدَ العشيرةِ أنَّنِي شَرَيْتُ الَّذي يَبْقَى بآخَرَ فَانِ؟[١]

وفد بجيلة[٢] : وَفَدَ جرير بن عبدالله البجلي سنة عشر المدينة ومعه من قومه مائة وخمسون رجلًا ، أسلموا وبايعوا ، وأجازهم رسول الله ﷺ[٣] .

وفد خَوَلان[٤] : قدم هذا الوفد في شعبان من السنة العاشرة ، وكانوا عشرة رجال ، فقالوا : يا رسول الله ، نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، وقد ضربنا إليك الإبل ، فقال رسول الله ﷺ : ما فعل عم أنس؟ صنم لهم ، قالوا : بِشَرٍّ وعَر[٥] ، وأبدلنا

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٧ .
(٢) بجيلة : بنو أنمار بن إراش ابن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، ودار بجيلة وخثعم يمانية . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ١٥-١٦ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٣٨٧ .
(٣) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١ .
(٤) هم ولد عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد بن كهلان بن سبأ ، وخولان بلادٌ متسعة مشهورة في جانب اليمن إلى جانب صعدة . انظر : ابن سعيد الأندلسي : نشوة الطرب ، ص : ٢٤١ ، ابن عبدالبر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص : ١١٧ .
(٥) العرُّ : الجرب ، وهو أبغض داء إلى نفوس العرب ؛ لذا عطفوه على الشَّرِّ . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١٨/ ٥٤ .

الله به ما جئت به ، ولو قد رجعنا إليه هدمناه ، وسألوا عن أشياء من أمر دينهم ، فجعل يخبرهم بها ، وأمر من يعلِّمهم القرآن والسنن ، وأُنزلوا دار رملة بنت الحارث ، وأمر بضيافة فأجريت عليهم ، ثُمَّ جاؤوا بعد أيام يودِّعونه فأمر لهم بجوائز ، فرجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس ، وحرَّموا ما حرَّم عليهم رسول الله ﷺ وأحلوا ما أحل لهم[١] .

وفد زبيد[٢] : وَفَدَ عمرو بن معديكرب الزبيدي في عشرة نفر من زبيد إلى المدينة ، فالتقى برسول الله ﷺ ، فأسلم هو ومن معه ، وأقام أياماً ، ثُمَّ أجازه رسول الله ﷺ بجائزة ، وانصرف إلى بلاده ، وأقام مع قومه على الإسلام[٣] .

وفد النَّخع[٤] : بَعَثَتِ النخع رجلين منهم إلى النبيِّ ﷺ وافدين بإسلامهم ، أرطاة بن شراحيل ، والأرقم من بني بكر بن عوف ، فأسلموا

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٥ .

(٢) زبيد بن صعب بن سعد العشيرة ، منهم : عمرو بن معد يكرب ، وزبيد : بالفتح ثُمَّ الكسر وياء مثنَّاة من تحت : اسم واد به مدينة يقال لها : الخصيب ، وهي التي تسمى اليوم زبيد ، وهي مشهورة باليمن . انظر : عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٢/ ٦٥٨ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٢٦٨ .

(٣) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٨ .

(٤) بنو النخع : حيٌّ من كهلان من القحطانية ، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم النخع ، وهم بنو النخع ، واسمه جس بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٧٦ ، السمعاني : الأنساب ، ٩/ ٣٦٢ .

جميعـًا ، ودعـا لهـم رسـول الله ﷺ ولقومهمـا فقـال : «اللهـمَّ بـارك في النخع» ، وعقد لأرطاة لواء على قومه(١) .

وفـد الـصدف(٢) : وفـد إلـى رسـول الله ﷺ بـضعة عـشر رجـلًا منـهم مـسلمين ، فـسلَّموا علـى رسـول الله ﷺ وسـألوه عـن أوقـات الـصلاة فأخبرهم بها(٣) .

وفد بهراء(٤) : قدم وفد بهراء من اليمن إلى رسول الله ﷺ ، وهم ثلاثة عـشر رجـلًا ، فأسـلموا وتعلَّمـوا الفـرائض وأقـاموا أيامـًا ، ثُـمَّ أمـر لهـم بجوائز وعادوا إلى ديارهم(٥) .

وفد كندة(٦) : وفد الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ في بضعة عشر راكبـًا مـن كنـدة ، فـدخلوا علـى النبـيِّ ﷺ مـسجده قـد رجَّلـوا جممهـم واكتحلوا ، وعليهم جباب الحبرة قد كفوها بـالحرير ، وعلـيهم الـديباج

---

(١) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٠ .

(٢) حيٌّ من حضرموت ، وهو قسحم بن جذام بن الصّدف . انظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ٦٢ ، السمعاني : الأنساب ، ١٠/ ٤١٥ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٨ .

(٤) قبيلة من قضاعة ، وهم بنو بهراء بن عمرو ابن الحافي بـن قـضاعة ، قـدموا مـن الـيمن على رسول الله ﷺ . انظر : ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٤٨٥ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ١/ ١٨٢ .

(٥) محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٠ ، الـصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٢٨٤ .

(٦) كندة : قبيلة من كهلان ، وكندة هذا أبوهم واسمه ثور ، وبلاد كندة بـاليمن . انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٨٥ ، ابـن خلـدون (ت :٨٠٨هـ) : تـاريخ ابـن خلـدون ، ٢/ ٤٧٦ ، القلقـشندي : نهايـة الأرب في معرفـة أنـساب العـرب ، ١/ ٤٠٩ .

ظاهر مخوص بالذهب ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ألم تُسْلِمُوا؟ قالوا : بلى ، قال : فما بال هذا عليكم! فألقوه ، فلمَّا أرادوا الرُّجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق عشر أواق ، وأعطى الأشعث اثنتي عشرة أوقية[١] .

وفد حضرموت[٢] : قدم هذا الوفد مع وفد كندة إلى رسول الله ﷺ ، وهم بنو وليعة ملوك حضرموت ، فأسلموا[٣] .

وفد جيشان[٤] : وفد أبووهب الجيشاني إلى رسول الله ﷺ في نفر من قومه فأسلموا وسألوه عن أشربة تكون باليمن ، قال : فسموا له البتع من العسل والمزر من الشعير ، فقال رسول الله ﷺ : هل تسكرون منها؟ قالوا : إن أكثرنا سكرنا ، قال : فحرام قليل ما أسكر كثيره[٥] .

وفد وائل بن حِجْر[٦] : قدم وائل بن حجر الحضرمي وافداً إلى النبيِّ ﷺ فقال : جئت راغباً في الإسلام والهجرة ، فدعا له ومسح رأسه .

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٨ .

(٢) ناحية باليمن مشتملة على مدينتين ، يقال لإحداهما شبام ، وللأخرى تريم . انظر : ابن الحائك : صفة جزيرة العرب ، ص : ٨٥ ، زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص : ٣٥ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٢ .

(٤) جيشان من اليمن ، كان ينزلها جيشان بن غيدان بن حجر بن ذي رعين . انظر : السمعاني : الأنساب ، ٣/ ٤٦٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٢/ ٢٠٠ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٩ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٦/ ٣١٨ .

(٦) وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل الحضرمي ، كان قيلًا من أقيال حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم . انظر : السمعاني : الأنساب ، ٤/ ١٨٠ ، عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٥/ ٤٠٥ .

وعن وائل بن حجر قال : بلغنا ظهور رسول الله ﷺ وأنا في ملك عظيم وطاعة عظيمة ، فرفضت ذلك ورغبت في الله وفي رسوله وفي دينه ، فلمَّا قدمت إلى رسول الله ﷺ أخبرني أصحابه أنَّهُ بشَّرهم بمقدمي قبل أن أقدم بثلاث[1] .

وفد الأزد : قدم صرد بن عبدالله الأزدي في بضعة عشر رجلًا من قومه وفداً على رسول الله ﷺ فنزلوا على فروة بن عمرو فحيَّاهم وأكرمهم ، وأقاموا عنده عشرة أيام ، وكان صرد أفضلهم ، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه[2] .

وفد مَهَرَة[3] : قدم وفد مهرة عليهم مهري بن الأبيض ، فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا ، ووصلهم وكتب لهم كتابًا[4] .

وفد بارق[5] : قدم وفد بارق على رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٢ ، البيهقي : دلائل النبوة ، ٥/ ٣٤٩ .

(٢) انظر : محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٤ .

(٣) مهرة : قبيلة ، وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، تنسب إليهم الإبل المهرية ، وباليمن لهم مخلاف . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥/ ٢٣٤ ، عبدالمؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣/ ١٣٣٩ .

(٤) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٦ .

(٥) هم بنو عدي بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث . انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ١٠٤ ، ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ١/ ٣٦٧ .

فأسلموا وبايعوا ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابـًا[١] .

وفد مراد[٢] : قدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ مفارقـًا لملـوك كنـدة ومتابعــًا للنبــي ﷺ ، فـتعلَّم القـرآن وفـرائض الإسـلام ، واستعمله النبي ﷺ على مراد وزبيد ومذحج[٣] .

وفد الرَّهويين[٤] : قدم خمسة عشر رجلًا منهم إلى رسول الله ﷺ سـنة عـشر ، فنزلـوا دار رملـة بنـت الحـارث ، وأهـدوا لرسـول الله ﷺ هـدايا ، وأسلموا وتعلَّموا القرآن والفرائض ، وأجازهم كما يجيز الوفد[٥] .

ومن وفود اليمن أيضـًا : **وفد نصارى نجران**[٦] : وكانوا على أطراف اليمن ، وكان من شأنهم أن كتب رسول الله ﷺ إلى أهلها فخرج إليه وفدهم قرابة السِّتين رجلًا من أشرافهم فيهم العاقب والسيد بن الحارث ، فجاءُوا النبيَّ ﷺ وقد لبسوا حُلَلًا يجرونها من حيرة وأردية من حرير وخواتيم من ذهب فلم يكلمهم رسول الله ﷺ ، فأشار عليهم بعض

---

(١) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦٤ .

(٢) بنو مراد بن مالك بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . انظر : محمـد ابـن سـعد : الطبقـات الكـبرى ، ١/ ٢٤٧ ، القلقـشندي : نهايـة الأرب في معرفـة أنـساب العرب ، ١/ ٤١٧ .

(٣) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٤٧ .

(٤) الرهاويين : نسبة إلى رهاوة وهي قبيلة من اليمن ويقال فيها رهاء . انظر : الواقدي : المغازي ، ٢/ ٦٩٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٣٥٣ .

(٥) انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٥٩ .

(٦) نجران : عرفت بنجران بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وأمَّا أهلهـا فهـم : بنو الحارث ابـن كعـب مـن مـذحج . انظـر : محمـد ابـن سـعد : الطبقـات الكـبرى ، ١/ ٢٦٧ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٤/ ٦٥ .

الصحابة أن يغيِّروا حللهم ويضعوا خواتيمهم ففعلوا ، فكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وقالوا : كُنَّا مسلمين قبلكم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «يمنعُكُم عن الإسلام ثلاث : عِبَادَتُكُم الصَّليب ، وأَكْلُكُم لحم الخنزير ، وزَعْمُكُم أنَّ لله وَلَد» ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[١] ، فتلاها عليهم رسول الله فامتنعوا عن المباهلة ، ورضوا بدفع الجزية[٢] .

وهكذا توالت الوفود حتَّى إنَّ آخر وفدٍ وفدَ إلى النَّبيِّ ﷺ قبل وفاته كان مِنْ أهل اليمن ، فقد قدِم أهل النَّخْعِ[٣] في نصف المحرَّم سنة إحدى عشرة في مائتي رجل ، فنزلُوا دار الأضياف ، ثمَّ جاءوا رسول الله ﷺ مُقرِّين بالإسلام[٤] ، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل[٥] رضي الله عنه في

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٥٩-٦١) .

(٢) انظر : ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز ، ١/ ٤٥٩ ، السيوطي : الدر المنثور ، ٣/ ٦٠٣-٦٠٤ ،

(٣) قبيلة كبيرة من مذحج باليمن . السَّمعاني : الأنساب ، ٩/ ٣٦٢ .

(٤) انظر : ابن قيِّم الجوزيَّة : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٥٩٩ .

(٥) معاذ بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن عدي بن نابي بن تميم بن كعب بن سلمة الخزرجيّ ، بعثه النبيُّ ﷺ إلى اليمن داعيًا إلى التَّوحيد ، حتَّى إنَّه ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذاً : «إنِّي بعثت لكم خير أهلي» ، ومناقبه كثيرة جدًا ؛ وقدم من اليمن في =

اليمن قبل قدومهم ، وكان رسول الله ﷺ قد بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن داعيًا إلى التَّوحيد ، وقد رسم له رسول الله ﷺ منهجًا للدَّعوة حين ارتحل مسافرًا إلى اليمن فقال : «إِنَّكَ تقدمُ على قومٍ أهل كتاب ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله ، فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا ، فأخبرهم أنَّ اللهَ فرضَ عليهم زكاةً من أموالهم وتردُّ على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها ، فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال النَّاس»[1] . فأتت ثمرة دعوته أن قدم مائتي رجلٍ مُسلمٍ مُوحدٍ إلى النَّبيِّ ﷺ في المدينة ، وهكذا تَوالى انتشار الإسلام في جزيرة العرب في وقتٍ وجيز بعث فيه رسول الله ﷺ الأمراء وجباة الزَّكاة إلى أنحاء الجزيرة لنشر الأمن فتوحَّدت القلوب وانتشرت المساجد في كُلِّ مكان اتباعًا لسنَّة رسول الله ﷺ الذي كان لا ينزل منزلًا إلَّا جعل فيه مسجداً لعبادة الله وحده لا شريك له ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : «..ومن بَنَى مَسْجِدًا كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ أو أَصْغَر بَنَى الله له بَيْتًا في الجنَّة»[2] .

فما إن حجَّ رسول الله ﷺ حَجَّة الوداع حتى اجتمع إليه خلق كثير من صحابته كما وصفهم لنا جابر رضي الله عنه بقوله : نظرت إلى مد بصري

=

خلافة أبي بكر ، وكانت وفاته بالطاعون في الشَّام سنة سبع عشرة أو الَّتي بعدها . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، برقم (٨٠٥٥) ، ٦/ ١٠٧ .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الزَّكاة ، باب لا تُؤخذ كرائم أموال النَّاس في الصَّدقة ، برقم (١٣٨٩) ، ٢/ ٥٢٩ .

(٢) محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت : ٣١١هـ) : صحيح ابن خزيمة ، ت : د. محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي - بيروت ، برقم (١٢٩٢) ، ٢/ ٢٦٩ .

بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا[١] فأجتمع الناس عليه من أدنى الجزيرة العربية وأقصاها ، قد كسروا الأصنام ونبذوها ، ووحدوا الله عز وجل وأخلصوا دينهم له ، فحجَّ بهم حَجَّة الوداع التي خلت من كُلِّ مظاهر الشِّرك والضَّلال على هدي رسول الله ﷺ وما شرع الله عزَّ وجلَّ من المناسك ، شعارهم : لبَّيك اللهمَّ لبيك ، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك ، إنَّ الحمد والنِّعمة لك والملك ، لا شريك لك . وتجرَّدوا من كلِّ أدران الشرك والوثنية ، فعلموا أنَّهُ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له الخالق المنعم المتفضِّل النَّافع الضار لا ربَّ سواه ، وقد أوحى الله عز وجل إلى نبيه ﷺ في هذا اليوم العظيم قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢] ، فعاد الإسلام من جديد إلى مركزه ، وعادت الحنيفيَّة السَّمحة ، وعمَّ التوحيد جزيرة العرب بأسرها .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، برقم(١٢١٨) ، ٢/ ٨٨٦ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : (٣) .

المبحثُ الثَّاني :
عزُّ الإسلام والمسلمين ، وذُلُّ الشِّرك والمشركين

لما فتحت مكة وظهر رسولُ الله ﷺ على قريش دانت العرب بدين الله فأقبلت وفود القبائل الدَّاخلة في الإسلام من أنحاء الجزيرة العربية ، من شمالها وجنوبها ، وشرقها وغربها ، مُبايعِين رسولَ الله ﷺ ، على توحيد الله وطاعته ونبذ الشرك ومفارقته وهدم الأوثان الَّتي كانوا عليها عاكفِين ، فتحقَّق وَعْدُ الله لنبيِّه وعباده المؤمِنِين بالنصر المبين والتمكين حين وَحَّدوا الله عزَّ وجلَّ واتَّبعوا رضاه وأقاموا شَرائعه ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[1] ، فقد علت راية لا إله إلا الله ، واندثرت مظاهر الشرك والوثنيَّة ، حتَّى إنَّ الشَّيطان أَيِسَ أنْ يُعبد في جزيرة العرب لِما رآه مِنْ انتشارِ الإسلام ، وكسر الأصنام ، قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ»[2] ، وفي رواية : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَوْ بِبَلَدِكُمْ هَذَا..»[3] ، فسبحان الله! كم سعى المُشركون لحرب الدَّعوة ومحاولة طمس معالمها ، وأذِيَّة أهلها ، والقضاء عليها في مهدها ، فأبى الله إلَّا أن يظهر

(١) سورة النور ، الآية : (٥٥) .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٦ ، برقم (٢٨١٢) ، طتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ، مسند أحمد : مسند أبي هريرة ، برقم (٨٨١٠) ، ١٤/ ٤٠٩ ، وقال عنه مُحقِّقوا المسند : إسناده صحيح على شرط الشَّيخَين .

(٣) عبد الله بن الزبير الحُميدي : مسند الحميدي ، ت : حسن الدَّاراني ، دار السَّقا ، دمشق ، ط : ١٩٩٦م ، برقم (٩٨) ، ١/ ٢٠٧ .

دينه على الأديان كلِّها ، فنصر عبده وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، قال تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] ، فتلك هي والله العزَّة ، كيف لا؟! ونبيُّنا ﷺ يقول : «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ اللَّيلُ والنَّهار ، ولا يترُكُ اللهُ بيتَ مدرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هذا الدِّينَ ، بعزِّ عزِيز أو بذلِّ ذليل ، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ ، وذلًّا يذل اللهُ به الكفر»[2] ، فصدق رسول الله ﷺ ، حتَّى إنَّ الصَّحابيَّ الجليل تميمًا الدَّاريَّ[3] رضي الله عنه كان يقول عند روايته لهذا الحديث : «قَدْ عَرَفْتُ ذلك في أَهْلِ بَيْتِي ، لقد أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزّ ، ولقد أصابَ من كانَ منهم كافرًا الذُّلُّ والصَّغَارُ والجزية»[4] ، فما مات رسول الله ﷺ إلَّا والقُوَّة والغلبة والـمَنَعَة له وللمسلمين ، والرِّفعة والشَّرف للدِّين الَّذي

---

(١) سورة التوبة ، الآيتين : (٣٢-٣٣) .

(٢) مسند أحمد : مسند تميم الدَّاري رضي الله عنه ، برقم (١٦٩٥٧) ، ٢٨/ ١٥٤ ، وقال عنه الهيثمي : رواه أحمد ، والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح . الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفرائد ، برقم (٩٨٠٧) ، ٦/ ١٤ ، وصححه الحاكم ، وكذا صححه محققو المسند .

(٣) هو : تميم بن أوس بن حارثة ، مشهور في الصَّحابة ، كان نصرانيًا ، وقدم المدينة فأسلم ، وذكر النبي ﷺ قصة الجساسة والدجال ، فحدّث النبي ﷺ عنه بذلك على المنبر وعدّ ذلك من مناقبه ، أسلم سنة تسع هو وأخوه نعيم ، ولهما صحبة ، قال أبونعيم : كان راهب أهل فلسطين وعابد أهل فلسطين ، وهو أول من أسرج السراج في المسجد . انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، برقم (٨٣٨) ، ١/ ٤٨٧ ، أبونعيم الأصبهاني : معرفة الصحابة ، ١/ ٤٤٨ .

(٤) سبق تخريجه قبل قليل .

وَرَّثه ، فهذه هي ثمرة التَّوحِيد والدَّعوة إلى الله ؛ بأنْ أَوْرَثَهُم الله عزَّةً لا تفارقهم في الدُّنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾(١) ، وقال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) ، وقال في وصف المؤمنين بأنَّهم : ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٣) ، أمَّا أهل الكفر والشرك فقد استكبروا عن توحيد ربِّهم ، واستعلَوا على رسوله الذي أرسل إليهم فعاقبَهم الله بأنْ أَلبسهم لباس الذِلَّة والمهانة والخِزي والصَغَار في الدُّنيا والآخرة -والعياذ بالله- ، قال تعالى عنهم : ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾(٤) ، وقال سبحانه : ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾(٥) ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾(٦) .

فالتمسُّك بهذا الدِّين الذي رضيه الله عزَّ وجلَّ لنفسه ، وشرَّعه لعباده ، وأرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، يورث العزَّة فهو مصدر من مصادر العزَّة والكرامة والإباء ، فمتى امتلأ قلب المسلم إيماناً بالله وتوحيداً وطاعةً له وثقةً به وتوكُّلًا عليه ، وعلم أنَّ الله هو العزيز الذي لا يُغلب ، والقويُّ الذي لا يُقهر ، ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه ، السماوات

---

(١) سورة فاطر ، الآية : (١٠) .
(٢) سورة المنافقون ، الآية : (٨) .
(٣) سورة المائدة ، الآية : (٥٤) .
(٤) سورة البقرة ، الآية : (٨٥) .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : (١٢٤) .
(٦) سورة التوبة ، الآية : (٢٩) .

والأرض في قبضته ، والمخلوقات جميعـًا لا تنفكُّ عن علمه وقدرته ، وأنَّها تحت تصرُّفه وإرادته ، وأنَّه يعلم ما تُخفي الصُّدور ويعلم ما كان وما سوف يكون ولو كان كيف يكون ، فكل ما قد وقع أو سوف يقع بمشيئته وتدبيره ، وأنَّ الله هو العزيز المُعِزُّ مالك العِزَّة وواهبها يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء وهو العزيز الحكيم ، تلك العزَّة التي أقسم الله بها في حديث الشَّفاعة ، قال : «وعزَّتي وكبريائي وعظمتي لأخرجنَّ منها -أي : النار- من قال : لا إله إلا الله»[١] ، عزَّةٌ لا تنفكُّ عنه أبداً ، عزَّة القدر فلا نظير له ولا مثيل ، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢] ، وعزَّة القوَّة والغلبة والقهر لكُلِّ الكائنات ، وعزَّة الامتناع فلن يبلغ أحدٌ ضرَّه ولا نفعه سبحانه ، وأنَّه يمتنع أن يناله سوء أو نقص ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣] .

فمتى ما أَيقن المرء ذلك ، واعتقد أَنَّهُ لا معبود بحقٍّ إلَّا الله ، وأسلم له وآمن به امتلأ قلبه عزَّةً وإباءً واستعلى به على كُلِّ أحوال الذلِّ والانحناء لغير الله ، فهذا هو سيِّدنا بلال بن رباح بعد أن كان عبداً لا شأن له في الجاهلية ولا قدر فما إن وقر الإيمان في قلبه حتى شمخ عزَّتـًا شموخ الجبال لا ينثني عن دينه أبداً ، فحينما كان موالي بلال وعلى رأسهم أميَّة بن خلف يعذِّبونه ويقولون دينك اللات والعزى يقول : ربِّي الله أحدٌ أحد ، ثُمَّ يقول : لو كنت أعلم كلمة أغيظ لكم لقلتها ، ثُمَّ يردِّد كلمة

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عزَّ وجلَّ يوم القيامة.. ، جزء من حديث رقم (٧٠٧٢) ، ٦/ ٢٧٢٧ .

(٢) سورة الروم ، الآية : (٢٧) .

(٣) سورة الروم ، الآية : (٢٧) .

التوحيد بكلِّ عزَّة وإباء لا يأبه بصنوف العذاب ولا حتى الموت في سبيل لا إله إلا الله حتى ملَّ المشركون من تعذيبه وهو لا يبالي بغير الله أحد ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ما يؤكِّد هذه الكلمات الخالدة : أحدٌ أحد ، أعظم سورة في القرآن الكريم ، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[١] شعار الإيمان بالتوحيد ، ذلك الشِّعار الذي كان يزلزل ساحة معركة بدر أحدٌ أحد ، والمشركون لا يلوون على أحد وهم يتساقطون بين قتيل وأسير في أعظم معركة في التاريخ أعزَّ الله فيها الإسلام والمسلمين بالنَّصر والتَّمكين ، وأذلَّ الله فيها الشرك والمشركين ، وكان من بين صرعى بدر رأس الكفر أميَّة بن خلف .

ثُمَّ إنَّهُ لمَّا فتح الله على رسوله ﷺ مكة ودخلها عزيزاً منتصراً أمر بلالًا أن يعلو سطح الكعبة في مشهدٍ عظيم ، وأن يرفع شعار التوحيد ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، من أعزِّ مكانٍ في الدُّنيا وأكرمه ، وليعلم أهلُ مكة أنَّ بلالًا رضي الله عنه قد سبق سادة قريش بهذا الدين ، وأنه عند الله له شأنٌ عظيم ، هكذا هو الإيمان إذا وقر في القلوب امتلأت عزَّةً وكرامة ورفعة من عند الله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٢] ، توجيهـًا لعباده بأن من كان منهم يريد العزَّة فإنَّها جميعـًا لله وحده ، فهو مصدرها وواجدها فليس بواجدها عند أحد ولا في أي كنف ولا بأي سبب ، فلله العزة جميعـًا فليطلبها منه وليتسبب بطاعته سبحانه فإنَّ من أطاعه وهبه العزَّة في الدنيا والآخرة[٣] ، فهو الذي له العزَّة التامَّة

(١) سورة الإخلاص ، الآية : (١) .

(٢) سورة فاطر ، الآية : (١٠) .

(٣) انظر : محمد المختار الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، =

والقوَّة الكاملة ، فلا يعجزه شيءٌ ، إذ هو القاهر لكُلِّ شيءٍ فلا يمتنع من قوَّته شيء ، المنيع الذي لا ينال ولا يغالب[١] .

وتتجلَّى هذه العزَّة حين أشرف رسول الله ﷺ من باب الكعبة على النَّاس وقد ليط[٢] بهم حول الكعبة وهم جلوس فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟ قالوا : نقول خيراً ، ونظنُّ خيراً ، نبيٌّ كريم وأخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، فقال رسول الله ﷺ : فإنِّي أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الرَّاحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فخرجوا كأنَّما نُشروا من القبور فدخلوا في الإسلام[٣] . نعم خرجوا من الظُّلمات إلى النُّور .

نعم لقد أعزَّ الله نبيَّه والمسلمين بدين الإسلام ، دين الله الأوحد ، دين الإخلاص والتوحيد ، دين العزة والإباء ، دين القوة والشَّجاعة ، دين الصبر والإقدام ، دِين الثَّبات والجهاد في سبيل الله ، دين العدل والإنصاف ، دين الجود والإحسان ، دين مكارم الأخلاق ، دين آدم ونوح وإبراهيم ، دين الأوَّلين والآخرين ، دين سيِّد المرسلين الَّذي بعثه الله للعالمين ، قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

=

٦/ ٢٨٠ .

(١) عبدالله بن محمد الغنيمان : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، (د.ط) ، (د.ن) ، ١/ ١٤٥ .

(٢) ليط بهم : المراد منه القرب والملاصقة . الزبيدي : تاج العروس ، ٢٠/ ٨٥ .

(٣) انظر : الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٢٤٢ .

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾[٢] ، وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ** ﴾[٣] ، وقال جلَّ في عُلاه : ﴿ **وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ** ﴾[٤] ، ومعلوم بالاضطرار مِنْ دين المسلمين أنَّ من سوَّغ اتباع غير دين الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمَّد ﷺ فهو كافر[٥] ، فالانتماء للإسلام مصدر للعزَّة والقوَّة كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام فمتى ذهبنا نلتمس العزَّة في غيره أذلَّنا الله[٦] ، حقـًا لمَّا جاءهم هذا الدِّين أخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، نعم ، فإنَّ العرب كانوا في ذلَّةٍ وضلال ، يسجدون للحجر ويتبرَّكون به ويدعونه ، ويتوسَّلون إليه ويرهبون من الجن والعين والشياطين ويعتقدون ضرَّها ونفعها ، تمنعهم الطِّيرة عن حاجتهم ويصدهم البوم والغراب وصوت الثعلب عن شأنهم وسفرهم ، لا يختارون أمراً حتى يخيِّرون الأصنام بالضرب على الأزلام والطرق والخط والعيافة ، يُحكِّمون السَّحرة والكهَّان والعرَّافين ، يقتلون أولادهم

---

(١) سورة الشورى ، الآية : (١٣) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٦٧) .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : (١٩) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : (٨٥) .
(٥) انظر : ابن تيميَّة : مجموع الفتاوى ، ابن قاسم ، ٢٨/ ٥٢٤ .
(٦) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ط : الفكر ، ٧/ ٦٠ .

ويسيِّبون أموالهم للطَّواغيت ، فلا يركبونها ولا يحلبونها ولا ينتفعون بها ، يأكلون الميتة من المتردِّية والنطيحة وما أكل السَّبُع ويشربون الخمر ويمارسون الزِنا والميسر ويطوفون عراةً جاهليَّة جهلاء ، يخافون اللَّات والعزَّى وهبل ومناة ينحنون لها ويخضعون في منتهى الذل والسَّفه ، متفكِّكِين متحاربين ، يفخرون بالنَّهب والسَّلب ، غارات وثارات القوي يأكل الضَّعيف ، هكذا حياتهم ، فأعزَّهم الله بالإسلام حين بعث الله إليهم بهذا الدين العزيز ، دين الإسلام الذي يرفض كُلَّ هذه الأفعال والعقائد الباطلة ، الَّتي تبعث على الخوف والذلِّ والخضوع ، وينهى عنها بل ويحرِّمها البتة ، يأمر بعبادة الله وحده وكسر الأصنام وصلة الأرحام ويدعو إلى الأُخُوَّة في الله والوحدة ومكارم الأخلاق الَّتي تكسب المرء العزَّة والقوَّة والرِّفعة مع اليقين التام أنَّ المستقبل لدين الله ، فالاعتزاز أولًا لا يكون إلَّا بالله واهب العزَّة وحده ، والاعتماد عليه والانتماء إلى حزبه ونصرة دينه واستشعار معيَّته والفوز برضاه وما وعدهم به من الرِّفعة والكرامة في الدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنَّعيم المقيم الذي ينتظرهم بعد الموت ، فالعزَّة هي التاج الذي يعلوا رؤوس الـمُوَحِّدِين ، فيرفضوا الخضوع والاستكانة والتَّذلُّل والانحناء لغير الله عز وجل ، تلك العزَّة التي لا تنفك عن الإيمان بالله عز وجل ، تلك العزة التي لا تهون ولا تنحني ولا تلين ، الَّتي ظهر أثرها شامخًا في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن ذلك لمَّا أرسل رسول الله ﷺ حبيب بن زيد[١] رضي الله

---

(١) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري المازني ، أخو عبدالله بن زيد ، ذكره ابن إسحاق فيمن شهد العقبة من الأنصار ، وقال : هو الذي أخذه مسيلمة فقتله . وقال ابن سعد : شهد حبيب أحداً والخندق والمشاهد . انظر : ابن حجر العسقلاني : =

عنه إلى مسيلمة الكذاب برسالة يزجره فيها عن غيِّه وكذبه ، انطلق حبيب رضي الله عنه قاصداً اليمامة ، فلمَّا وصل إلى مسيلمة دفع إليه الرسالة ، فلمَّا قرأها انتفخ صدره ضغينةَ وحقداً وشراً وغدراً ، ثُمَّ أمر بحبيب رضي الله عنه أن يقيَّد ويسجن ، وفي اليوم التالي جلس مسيلمة في مجلسه وأمر أن يؤتى به بعد أن جمع الخاصَّة والعامَّة ليفتن حبيباً عن دينه ويثنيه ، ولكن هيهات أن يخضع أو يلين أو ينحني مسلمٌ امتلأ قلبه إيماناً وعزاً وحباً لله ورسوله كحبيب بن زيد ، فجيء به يرسف في قيوده ، فلمَّا وقف حبيبٌ رضي الله عنه بين تلك الحشود الحاقدة شامخاً شموخ الجبال في عزَّة الإسلام قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أنَّ محمداً رسول الله ، قال حبيب رضي الله عنه : نعم ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، فاغتاظ مسيلمة ثُمَّ قال : أتشهد أنِّي رسول الله ، فقال له حبيب في سخرية وازدراء : إنَّ في أذنيَّ صممٌ عن سماع ما تقول ، فاستشاط غضباً ، ثُمَّ قال لجلاده : اقطع من جسده قطعةً ، فضربه ضربةً بالسَّيف أطارت عضواً من أعضائه ، وحبيب كالجبل لا يخضع لغير الله ، ثُمَّ أعاد مسيلمة عليه السُّؤال ، أتشهد أنَّ محمداً رسول الله ، فقال حبيب رضي الله عنه : نعم ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، فاغتاظ مسيلمة ثُمَّ قال : أتشهد أنِّي رسول الله ، فقال له حبيب في سخرية وازدراء : إنَّ في أذنيَّ صممٌ عن سماع ما تقول ، فما زال مسيلمة يكرِّر عليه السُّؤال وحبيب رضي الله عنه لا يتزعزع عن دينه والجلاد يقطع في أعضائه عضواً عضواً حتى فاضت روحه إلى الله عزَّ

=

الإصابة ، ٢/ ١٨ .

وجلَّ[١] .

وهكذا المسلم يفخرُ بإيمانه بربِّه عزَّ وجلَّ وبدينه وبرسوله ﷺ ، فما أشبه هذا الموقف بموقف خبيب بن عدي[٢] رضي الله عنه حين أخذه المشركون ليقتلوه في بعض من قتل من صناديدهم في غزوة بدر ، فلمَّا أرادوا قتله طلب منهم أن يصلي ركعتين ، فحين فرغ منها قال : والله لولا أن تحسبوا أنِّي جزع لزدت ، الله أكبر ، هذا هو العزُّ والثبات ، يهون الموت في سبيل الله ، فلمَّا أوقفوه على خشبة الصَّلب ليقتلوه تقدَّم إليه أحد زعماء قريش فقال لخبيب رضي الله عنه : أيسرُّك أنَّ محمداً مكانك وأنت سليمٌ معافى في أهلك؟ فقال خبيب بكلِّ إباءٍ وعزَّةٍ : «والله ما أحبُّ أنِّي في أهلي وولدي معافى ويُصاب رسول الله ﷺ بشوكة» . ما أعزَّ الإسلام بأمثال هؤلاء الرِّجال الذين اكتسبوا العزَّة به ، ثُمَّ أنشد[٣] :

ولستُ أُبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزَّع

ومن التَّضحية والفداء لهذا الدين إذا وقر الإيمان في قلب المسلم قدَّم دينه على كلِّ ملذَّات الحياة لا يعدله شيء حتى لو كان الخيار الموت ، لا خضوع لا استسلام لا تنازل لا انهزام ، بل يموت أبيًّا في سبيل الله

(١) انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب ، ١/ ٣٢٠ ، عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ١/ ٦٧٥ .

(٢) انظر : سليمان بن موسى الحميري : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ، ٢/ ١٣١ ، الدِّيار بَكْري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ٢/ ٢١٧ .

(٣) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣/ ١٢٤ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١٣/ ٢٧٢ .

راجيًا رضاه ، ومن ذلك لمَّا أسلم فروة بن عمرو الجذامي[١] وكان عاملًا للروم على من يليهم من العرب ، حين رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم ، وصدق اللقاء والإقدام على القتال في معركة مؤتة سنة ثمانية للهجرة عام الفتح وقع الإسلام في قلبه فبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وأهدى له بهديَّة ، فلمَّا بلغ الروم خبر إسلام فروة طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم مضيقًا عليه ، فجعلوا يخيِّرونه بين الردة عن الإسلام والخضوع لهم ، وبين الموت فاختار الموت عن الردَّة وجعل ينشد في محبسه أبياتًا معبِّراً عن مدى حبِّه لزوجته وتعلُّقه بها ومكانته الاجتماعيَّة ، فأنشد يقول :

طَرَقَتْ سُلَيْمَى مُوْهِنًا أَصْحَابِي ... والروم بينَ البَابِ والقَرَوانِ
صد الخيال وَسَاءَهُ مَا قَدْ رَأَى ... وَهَمَمْتُ أَنْ أُغْفِي وَقَدْ أَبْكَانِي
لا تَكْحَلَنَّ العينَ بعدي إِثْمِدًا ... سَلْمَى وَلا تَدِينُ للإتيَانِ
ولقد علمتَ أَبَا كُبَيْشَةَ أَنَّنِي ... وسط الأعزَّة لا يحص لسَانِي
فلَئِنْ هَلَكْتُ لَتَفْقِدَنَّ أَخَاكُمُ ... وَلَئِنْ بَقِيْتُ لَتَعْرِفَنَّ مَكَانِي
وَلَقَدْ جَمَعْتُ أَجَلَّ مَا جَمَعَ الفَتَى ... مِنْ جَوْدَةٍ وَشَجَاعَةٍ وَبَيَانِ

ومع هذا الحبِّ العميق لزوجته وشدَّة غيرته عليها ومكانته الاجتماعيَّة أن كان أميراً على من يليه من العرب وما يتمتَّع به من الجاه

---

(١) فروة بن عامر ابن نعامة الجذامي ، كان منزله معان وما حولها من أرض الشام ، انظر : محمد ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٠١ ، عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة ، ٤/ ٣٤٠ .

وصفات السيادة والمال إلَّا أنَّهُ لا سبيل إلى التنازل عن دين الله أبداً ، فقد ضحَّى بكلِّ متاع الدُّنيا وفضَّل الموت من أجل لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فلمَّا أجمعت الرُّوم على قتله وصلبه خرجوا به على ماءٍ يقال له عفراء بفلسطين فأنشد :

ألا هل أتى سلمى بأنَّ حليلها   على ماءِ عَفْرَا فَوْقَ إِحْدَى الرَّوَاحِلِ
عَلَى ناقةٍ لم يَضْرِبِ الفَحْلُ أُمَّهَا   مُشَذَّبَةً أَطْرَافُهَا بِالمَنَاجِلِ

فلمَّا قدموه ليضربوا عنقه وقد باع نفسه لله عزَّ وجلَّ قال :

بَلِّغْ سَرَاةَ المُسْلِمِينَ بِأَنَّني   سِلْمٌ لربِّي أَعْظُمِي وَمَقَامِي

رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يتنازلوا وما عرف الذلُّ إلى قلوبهم طريق ، ثُمَّ ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء وهو ثابتٌ على دينه رضي الله عنه وأرضاه ثبات الجبال ، ليس له ذنبٌ عندهم إلَّا أنَّهُ أسلم لله ربِّ العالمين ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ** ﴾[١] .

عرفوا الله حقـاً فلم يخضعوا إلَّا لله ، ولم ينحنوا إلَّا إليه ، فزادهم بذلك رفعة وكرامة ، آمنوا بكتابه الذي أنزل ، ذلك الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، مصدِّقاً لما قبله من الكتب ومهيمناً .

فما أعظم هذا القرآن العزيز الذي هو مصدر عزَّة المسلمين بما أودع الله فيه من الحكمة والشرائع والحجج والبراهين الدالَّة على وحدانيَّته

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٥٩) .

وقدرته وخلقه فيه علم كلِّ شيءٍ منهج حياة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة ، قال عليه الصلاة والسلام : «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»[١] .

لمَّا أخذوا بهذا الكتاب العزيز تلاوةً وتدبُّراً حفظًا ودراسةً علمًا وعملًا تربيةً وتطبيقًا كانوا أعزَّ الأمم وأكرمها ، فشمخت أنوفهم بكلام ربِّ العزَّة والجلال ، وامتلأت قلوبهم حكمةً وثقافةً وفهمًا ، صبراً وشجاعةً وحلمًا ، احترامًا ورحمةً وأدبا ، فَسَمَتْ نفوسهم به إلى أعلى المراتب ، فلو حادوا عن المنهج الذي رسمه الله لهم فيه وهجروه لضلُّوا وأذلَّهم الله ، فالقرآن الكريم هو العزَّة الخالدة والمنهج القويم والصراط المستقيم والنور المبين . قال ﷺ : «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه» ، ومن مظاهر عزَّة القرآن وقارئه المُمتثِل لأوامره والـمُنتهي عن نواهيه ، الصَّحابيُّ الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الَّذي قال عنه رسول الله ﷺ : «مَنْ سَرَّهُ أَن يقرأ القُرآن رطبًا كما أُنزل فليقرأهُ على قراءةِ ابن أُمِّ عبد»[٢] أي : على قراءة ابن مسعود ، الذي جعل قلبه للقرآن وعاءً ، وجوارحه لِهدايات القرآن سخاءً ، حتَّى أعزَّه الله في الدُّنيا ، ووعده على لسان نبيّه بأنَّ له في الآخرة الحسنى ، ففي يوم مِنَ الأيَّام كان يجتني سِوَاكًا من الأراك ، وكان دقيق السَّاقَين ، فجعلت الرِّيح تَكْفَؤُهُ ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : «مِمَّ تَضْحَكُونَ»؟! قالوا : يا نبي الله ، من دِقَّةِ

(١) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، برقم (٨١٧) ، ١/ ٥٥٩ ، ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، برقم (٢١٨) ، ١/ ١٤٨ .

(٢) مسند أحمد : مسند أبي بكر رضي الله عنه ، برقم (٣٥) ، ١/ ٢١١ .

ساقَيه ، فقال ﷺ : «والَّذي نفسي بِيده لهما أثقلُ في الميزان من أحدٍ»[١] ، وعن أنس رضي الله عنه عن النبيَّ ﷺ أنَّهُ قال : «عددُ دَرَجِ الجنَّة عدد آي القرآن فمن دخل الجنَّة ممن قرأ القرآن لم يكن فوقه درجة»[٢] ، وكان رسول الله ﷺ يقدِّم أهل القرآن في كُلِّ شيءٍ ، في الصلاة وغيرها يكرمهم ويعرف حقَّهم ، ومن ذلك لمَّا أُتي بشهداء أحد كان يقدِّم حفظة كتاب الله على غيرهم وذلك حين قال : «انْظُرُوْا أَكْثَرَ هؤلاءِ جمعاً للقُرْآنِ ، فاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ فِي القَبْرِ»[٣] .

وقد أعزَّ الله عزَّ وجلَّ نبيَّه ﷺ حين نصره في بدر وأيَّده في أحد والخندق ، ونصره في خيبر وفتح مكة وحنين وتبوك ، وأذلَّ أعدائه ، وأعلى شأنه ، وجعله من مصادر العزة فمِن مظاهر عزَّتِه سبحانه له أنْ أقسم بحياته ، وعلى عظيم خُلقه ، ورفع ذكره ، وقرن اسمه باسمه ورضاه برضاه ، وطاعته بطاعته وحُبَّه باتِّباعه هو الرأس المقدَّم والسيِّد المبجَّل ذروة قريش وعقيدها إمام المرسلين وسيِّد الخلق أجمعين ، قال ﷺ : «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْر ، وأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»[٤] ، أشرف العرب نسباً وأكرمهم أمًّا وأبًا ، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا ،

---

(١) مسند أحمد : مسند عبدالله بن مسعود ، برقم (٣٩٩٠) ، ٧/ ٩٨ .

(٢) انظر : البيهقي : شعب الإيمان ، برقم (١٩٩٨) ، ٢/ ٣٤٧ .

(٣) أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن أبي عاصم(ت : ٢٨٧هـ) : الآحاد والمثاني ، ت : د.باسم الجوابرة ، دار الراية – الرياض ، ط : ١ ، ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، ١/ ٤٥٣ . وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/ ٩٨ .

(٤) أخرج البخاري طرفه الأول ٤/ ١٣٤ ، برقم (٣٣٤٠) ، وأخرجه مسلم بتمامه ٤/ ١٧٨٢ ، برقم (٢٢٧٨) .

وأعظمهم أمانةً وصدقًا ، البشير النذير والسِّراج المنير بعثه الله رحمةً للعالمين المذكور في التوراة والإنجيل ليؤمن أهل الكتاب بنبوَّته قبل بعثته حجَّةً عليهم ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١) ، فالعزُّ والفلاح والفوز والنَّجاح في الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه وطاعته ونصرته واتِّباع ما أنزل الله معه من القرآن العظيم الذي يصدِّق كتب الله ، ويؤكِّد رسالة النبيِّ ﷺ وأنَّها متمِّمة لما جاء به الرُّسل ، فدعوتهم واحدة ، ودينهم واحد ، وربُّهم واحد ، لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله ، فرسول الله ﷺ كان يستقبل بيت المقدس فترةً من الزمن يصلِّي إليها ، ليُعْلِمَ أهل الكتاب هذا الأمر ، وأنَّ دين الله لا اختلاف فيه ، وأنَّ رسول الله ﷺ خاتم المرسلين ، قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) .

ومِنْ مظاهر الاعتزاز برسول الله ﷺ أنَّ الأنصار لمَّا سمعوا أخبار رسول الله ﷺ وبعثته في مكة المكرمة ، وقد كانوا يسمعون من اليهود أوصافه وزمن خروجه ومهجره ، لذلك كانوا أسبق النَّاس ببيعته

(١) سورة الأعراف ، الآية : (١٥٧) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٤٢) .

وأسعدهم حظًا به ، وأعزُّهم ناصراً لله ورسوله ، فأكرمهم الله بعزَّته ورفع شأنهم ، وألَّف بين قلوبهم وأظهرهم على كُلِّ القبائل العربية ، ففازوا برسول الله ﷺ حظًا وقسمًا ، ومن ذلك لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من حنين جعل يقسم غنائم غزوة حنين يتألَّف بها سادة العرب ، فأعطى زعماء قريش وغطفان وتميم عطاءً عظيمًا ، أعطى الواحد منهم مائة من الإبل ، وترك الأنصار لم يعطهم شيئًا ، فتأثَّر بعضهم لذلك ، فدخل سعدٌ على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، قال : «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلَّا من قومي ، قال : «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» ، فلمَّا اجتمعوا أتى سعدٌ فقال : قد اجتمعوا لك ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثُمَّ قال : «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدةٌ وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم ، قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل ، ثُمَّ قال : «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار»؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنّ والفضل ، قال : «أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصَدَقْتُم ، ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذِّبًا فصدَّقناك ، ومخذولًا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلًا فواسيناك» ، ثُمَّ انعطف عليهم بكلمة فيها الثقة والحب والعدالة ، «أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدُّنيا ، تألّفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم» ، ثُمَّ قال : «ألا ترضون يا معشرَ الأنصار أن يذهبَ النَّاسُ بالشَّاء والبعير ، وترجعونَ برسول الله ﷺ إلى رِحَالِكُم؟ فو الَّذي نفسُ محمَّد بيده ، لما تنقلبون به خير ممَّا ينقلبون به ، ولولا

الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سَلَكَ النَّاس شِعْبًا وواديًا ، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْبًا وواديًا لسلكتُ شِعب الأنصار وواديها ، الأنصار شِعار ، والنَّاسُ دثار ، اللهمَّ ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ، وبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : «رَضِينَا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا»[١] .

هذا والله العزُّ المبين والفخر العظيم والشّرَف الكبير أن رجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالهم وعادوا به إلى ديارهم ، فكانوا بذلك أعزَّ أهل الأرض قاطبةً وأغبطهم ، ففازوا فوزاً عظيمًا في الدُّنيا والآخرة ، الله أكبر لقد تجلَّت العزَّة الحقيقيَّة التي نالت الأنصار حين رجعوا برسول الله ﷺ إلى ديارهم بأعظم قسم وأكبر حظٍّ وليس كما ظنَّ عبدالله بن أبي بن سلول أنَّ العزة في الأرض أو في المال أو في القبيلة عندما قال : ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] ، فالإيمان بالله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ هو سببُ عزِّ الأنصار والمسلمين جميعًا وفخرهم إلى آخر الدَّهر[٣] .

فطاعة رسول الله ﷺ وإنفاذ أمره من أصل الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٤] ، فرسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يوحى ، فقد قرن الله عزَّ وجلَّ اسمه باسمه في

---

(١) أخرج جله البخاري ٥/ ١٥٧ ، برقم (٤٣٣٠) ، ومسلم ٢/ ٧٣٨ برقم (١٠٦١) .

(٢) سورة المنافقون ، الآية (٨) .

(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ١٢٩ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٧١) .

الشهادة الخالدة ، ركن الإسلام الأوَّل الذي لا يصحُّ إسلام المرء إلَّا به ، ولا يقبل غيره ، شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله فحبُّه واتِّباع سنَّته والاقتداء به والصلاة والسلام عليه من كمال الإيمان ومصدر من مصادر العزَّة والنَّصر والتَّمكين للمسلمين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[١] ، اللهم صلِّ على نبيِّنا محمد وعلى آله وسلِّم تسليماً كثيراً .

يقول ابن القيم رحمه الله : بحسب متابعة الرسول ﷺ تكون العزة والكفاية والنصرة ، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة ، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة ، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة[٢] .

ومن أسباب عزِّ الإسلام والمسلمين فريضة الجهاد ، تلك الفريضة التي فرضها الله عزَّ وجلَّ لحماية الدعوة وإبلاغ الرسالة التي أرسلها الله للعالمين فقد واجهت هذه الدعوة على ما فيها من الخير العظيم وتوحيد الخالق وصرف العبادة لله وحده مصدر العزَّة والسعادة في الدنيا والآخرة وتخليص العباد من ذلِّ الشرك والخضوع والاستعباد للمخلوق أيّاً كان وعلى ما في هذه الدعوة من سعادة البشرية ونشر الأمن والأمان

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٦) .

(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ١/ ٣٩ .

والاستقرار ، وما فيها من المساواة بين الأمير والمأمور والحاكم والمحكوم ، والحرِّ والعبد ، والأبيض والأسود ، لا فرق بينهما إلَّا بالتَّقوى ، وما فيها من الرِّفق والرَّحمة وكل ما يخطر على البال من مكارم الأخلاق وجميل الفعال ، وما فيها من نشر العدل في الأرض ومنع الظُّلم وما فيها من إحلال الطيِّبات ، والطُّهر والعفَّة والكرامة ، وتحريم كُلِّ الخبائث الحسيَّة والمعنويَّة وكل ما يشين الإنسان من النَّجس والرَّجس والخسَّة والذُّلِّ وما في هذه الدَّعوة من الخير للنَّاس والعزِّ والفلاح والفوز برضى الله والجنَّة والنَّجاة من غضب الله والنَّار .

ومع كُلِّ هذه الفضائل والأخلاق الكريمة والطُّهر لهذا الدِّين العظيم إلَّا أنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد واجهت حرباً شعواء في بدايتها على مستوى الأفراد والجماعات ؛ فلاقى المسلمون من التَّعذيب والحصار والقتل والتَّهجير والفتنة والظُّلم ما الله به عليم ، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : «أتيت النبيَّ ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَهُ وهو في ظلِّ الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدَّة ، فقلت : ألا تدع الله؟ فقعد وهو محمرٌّ وجهه فقال : لقد كان مَن قَبْلَكُم لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ ، ما دُونَ عِظَامِهِ مِن لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عن دِينِهِ ، ويُوضَعُ المِنْشَارُ علَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فيُشَقُّ باثْنَيْنِ ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عن دِينِه ، ولَيُتِمَّنَّ اللّه هذا الأمْرَ حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ ما يَخَافُ إلَّا اللهَ»[1] .

ومن الأمثلة على شِدَّة التَّعذيب والظُّلم الذي وقع على المسلمين في

(١) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ، برقم (٣٦٣٩) ، ٣/ ١٣٩٨ .

بداية الدَّعوة ما حصل لآل ياسر من العذاب والفتنة عن دينهم ومن ذلك حين مرَّ بهم رسول الله ﷺ وهم يؤذون ويعذَّبون من قبل أبي جهل الأيام الطِّوال ، قال لهم ﷺ : صبراً يا آل ياسر صبراً يا آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة[١] ، فكان أبوجهل يضرب سميَّة أشدَّ الضرب يريدها أن تكفر بالله ورسوله مستغلًا ضعفها كامرأة لا تتحمَّل قوَّة التعذيب ، إلَّا أنَّها لما خالط الإيمان بشاشة قلبها طالت السَّحاب عزَّةً وفاقت الجبال صلابة حتَّى ملَّ من تعذيبها وهي تردِّد : أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فلمَّا عجز أن يفتنها عن دينها أخذ الحربة فطعنها في قُبُلها حتى فاضت روحها رضي الله عنها وأرضاها ، فكانت أوَّلَ شهيدة في الإسلام ، وبعد أيَّامٍ قليلة يُقتل ياسرٌ شهيداً من شِدَّة التَّعذيب رضي الله عنه وأرضاه[٢] .

ومع كُلِّ هذا التَّعذيب الشَّديد والفتنة العظيمة إلَّا أنَّ الدعوة مكثت ثلاث عشرة سنة دون إذن بالقتال ، حتى عزم المشركون على قتل رسول الله ﷺ بعد أن أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وسلبوا أموالهم[٣] ، لذلك أنزل الله قوله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ

---

(١) الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٣/ ٤٣٢ ، البيهقي : شعب الإيمان ، برقم (١٦٣١) ، ٢/ ٢٣٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ١/ ٣٢٠ .

(٣) انظر : سنن الترمذي ، باب سورة الحج ، برقم (٣١٧١) ، ٥/ ٣٢٥ .

عَزِيزٌ ﴾[١] .

قال المفسرون : كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج وطريد وقتيل وهم يشكون إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم : اصبروا فإنِّي لم أؤمر بالقتال ، فلما أُخرج رسول الله ﷺ من مكة ، أنزل الله تعالى هذه الآية وأُذِنَ فيها بالقتال[٢] .

ثُمَّ نزلت الآيات في تشريع القتال على سُنَّة التَّدَرُّج من الدِّفاع عن النَّفس إلى نصرة المستضعفين ، ثُمَّ حماية الدَّعوة وإبلاغ الرِّسالة ليكون الدِّين كُلُّه لله ، وما كان التَّدَرُّج في تشريع القتال إلَّا لأنَّهُ أمرٌ فيه شدَّة ، بل تهابُهُ القلوب وترهَبُهُ النُّفوس لما فيه من الجلاد والطراد وضرب السُّيوف وطعن الرِّماح ورمي السِّهام والإقدام مظنة الموت والانقطاع عن ملذات الحياة والبُعد عن الأهل والأوطان ، فهذا الأمر يحتاج إلى تربية إيمانيَّة على الصَّبر والطَّاعة والإقدام في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣] .

فبعد الإذن كان الأمر بقتال المعتدين ودحرهم ؛ لتتحقَّق القُوَّةُ والمنعة والعزَّة للمسلمين ، ثُمَّ قال تعالى بصيغة السؤال : **﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا**

---

(١) سورة الحج ، الآيتان : (٣٩-٤٠) .

(٢) انظر : تفسير البغوي ، ٥/ ٣٨٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٩٠) .

مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[(١)] ، فكان الأمر بالقتال في سبيل الله ؛ لنصرة المستضعفين الذين آمنوا من الرِّجال والنِّساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا ، والدِّفاع عنهم وتعزيزهم وإظهار عزَّة الإسلام وقوَّة المسلمين وإرهاب الكافرين الذين يقاتلون في سبيل الشَّيطان ومنعهم من الظُّلم والعدوان ، فكان للحراك الحربي أثرٌ كبيرٌ في نفوس الأعداء بعد المعارك الفاصلة والجيوش التي حشدها المشركون عدوانـًا للقضاء على الإسلام والمسلمين في معركة بدر وأحد والأحزاب ، والتي أظهر المسلمون فيها شجاعةً منقطعةَ النَّظير من حيث الصَّبر والإقدام وحبُّ الشَّهادة في سبيل الله نصرةً لله ولرسوله ولدينه ، الأمر الذي أعزَّ الله به المسلمين وأخضع قريش لعقد صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ ، والذي على أثره أَمِنَتْ الدَّعوة وانتشر الإسلام في الجزيرة وخارجها ، فلمَّا نقضت قريش الصُّلح وشاركوا في قتل خزاعة وهم في عهد رسول الله ﷺ وكانوا على الإسلام وقتلوهم داخل الحرم عدوانـًا وظلمـًا لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمَّة لذلك سار رسول الله ﷺ إليهم لنصرهم وفتح مكة وضمِّ البيت الحرام إلى دولة الإسلام ، قال تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[(٢)] ، فدخل رسول الله ﷺ مكة بعشرة آلاف مقاتل في أعزِّ ما يكون من القوَّة العسكريَّة ، مع أنَّ قريشـًا قد بالغت في البغي والظلم ، فكان باستطاعته ﷺ أن يبيد

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٧٥) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١٢) .

خضرائهم جراء حربهم على الإسلام والمسلمين إلَّا أنَّهُ نُهي عن القتال في الحرم ، بل لمَّا تمكَّن منهم عفا عنهم جميعـًا وصفح[١] ، هذا هو الإسلام دين الرَّحمة والسَّلام ودين العزَّة[٢] .

فلمَّا فتحت مكة وظهر عزُّ الإسلام وانتصار المسلمين طار ذكره في أرجاء الجزيرة وتسابق النَّاس بالدُّخول في دين الله أفواجـًا بعد تكسير الأصنام وكشف حقيقة الشرك وأنَّهم لم يكونوا على شيءٍ ، بل بطل ما كانوا يعبدون ، وكان رسول الله ﷺ مع هذه القوَّة العسكريَّة لا يعتدي أبداً إلَّا أنَّهُ إذا سمع بتجمُّع للمشركين لحرب المسلمين هاجمهم رسول الله ﷺ قبل أن يهاجموه وفرَّق جمعهم وشتَّت شملهم ، فلمَّا سمعت هوازن وثقيف بفتح مكة وانتصار المسلمين جمَّعوا الجموع وأعدُّوا العدَّة وجاءوا بقضِّهم وقضيضهم بهدف القضاء على المسلمين فما إن سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم حتى خرج إليهم مسرعـًا ليصدَّهم قبل أن يدخلوا الحرم فهزمهم هزيمة ساحقة ، فرُّوا أمام رسول الله ﷺ في كُلِّ وجه ، فانتهت المعركة بنصر من الله لرسوله ﷺ والمسلمين على هوازن وثقيف ، فبهذا النصر المتوالي الذي أكسب الإسلام والمسلمين عزًّا عظيمـًا وأذَلَّ الله الشرك والمشركين ذلًّا عميقـًا حتى لا تقوم للمشركين بعده قائمة في جزيرة العرب .

فعِزَّة المسلمين لا تنفكُّ عن الجهاد في سبيل الله ؛ لقول النبيِّ ﷺ :

---

(١) انظر : عبدالرحمن السهيلي : الروض الأنف ، ٧/ ٧٧ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ١/ ٣٥٤ ، محمد محمد أبوشُهبة : السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة ، ٢/ ٧٦ .

(٢) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠/ ١٠٨ .

«إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزَّرع وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذُلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[١] . فترك الجهاد في سبيل الله من أكبر أسباب ذُلِّ هذه الأمة وضعفها وتسلُّط الأعداء عليها .

ومن الأحداث التي منحت المسلمين أيضًا عزَّةً ومهابة في قلوب العرب والعجم على حدٍّ سواء غزوة تبوك ، لمَّا سمع الروم والغساسنة بانتصار المسلمين العظيم في فتح مكة ودخول الكثير من العرب في الإسلام أزعجهم ذلك كثيراً فعزموا على غزو المسلمين في ديارهم ، فأتت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أنَّ الروم يحشدون الحشود وأنَّ طلائعهم وصلت إلى البلقان ، فأمر رسول الله ﷺ بالنفير العام ، وقد ظهرت عداوة الروم من قبل حين أعلنوا الحرب على المسلمين في مؤتة وقتلوا حِبَّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وابن عمِّه جعفر بن أبي طالب ، وعبدالله بن رواحة ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، كما قاموا بقتل فروة بن عمرو الجذامي لمَّا أسلم ، وقبل ذلك قتلوا رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي ، غدراً مع أنَّ الرسل لا يقتلون أبداً لحاجة الزعماء والأمراء والملوك في ما بينهم للرسل ، فلا يجوز الاعتداء عليهم حسب الأعراف والقوانين الدولية ويعتبر هذا الفعل من أشنع أنواع الغدر والخيانة ولا زال[٢] ، فلم يكن من المسلمين أن

---

(١) سنن أبي داود ، برقم (٣٤٦٢) ، ٥/ ٣٣٢ .

(٢) في زاد المعاد : جاء ابن النوَّاحة وابن أثال رسولين لمسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ : «تَشْهَدَانِ أنِّي رسولُ الله ، فقالا : نَشْهَدُ أنَّ مسيلمة رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : «آمَنْتُ بالله ورسوله ، ولو كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُما» ، قال عبدالله : فمضت السُّنَّة بأنَّ الرُّسل لا تُقْتَل . انظر : ابن قيم =

سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلَّا وتسابقوا إلى امتثاله وقاموا يتجهَّزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوبٍ وناحية(١) .

فلمَّا اجتمعت الحشود وتكامل الجيش خرج رسول الله ﷺ بالمسلمين وقوامهم ثلاثون ألف مقاتل وكان مسيرهم في ساعة العسرة مع قلَّة المؤونة وكثرة العدد وبُعد المسافة وشدَّة الحرِّ والصحراء القاحلة وقِلَّة الماء والمرعى ، إلَّا أنَّ رسول الله ﷺ مع كلِّ هذه المصاعب لم يتأخَّر لحظة عن قتال الأعداء بل انطلق مسرعـًا ليصل إليهم قبل أن يأتوا إليه ويغزوهم قبل أن يغزوه ، ليعلم الروم وغيرهم أن المسلمين لا يهابون أحداً أيًّا كان ولا تصدهم الصعاب ولا تثنيهم الشدائد عن الجهاد في سبيل الله فما راع الرُّوم إلَّا ورسول الله ﷺ في ساحتهم معسكراً بجيشه في تبوك ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد عقد الألوية فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزبير ، ورفع راية الأوس إلى أسيد بن الحضير ، ولواء الخزرج إلى أبي دجانة ، ويقال إلى الحباب بن المنذر(٢) ، وأمر رسول الله ﷺ كل بطنٍ من الأنصار أن يتَّخذوا لواءً وراية والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية وكانت الخيل عشرة آلاف فرس(٣) . فلمَّا سمع النَّصارى بوصول الجيش الإسلامي عين الروم ما

=

الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ٣/ ٥٣٥ .

(١) المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص٣٧٠ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ٣/ ٩٨٩ .

(٣) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٥/ ١٥٢ ، الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، ٥/ ٤٤٢ .

يقال لها غزوة تبوك[١] وزحف جيش رسول الله ﷺ نحوهم أخذهم الخوف وسيطر عليهم الرعب فلم يجرؤوا على اللقاء وخافوا وانسحبوا وتفرَّقوا في البلاد ، وقد كان هرقل بعث رجلًا من غسَّان إلى النبيِّ ﷺ لينظر إلى صفته وإلى حمرة في عينيه وإلى خاتم النبوَّة بين كتفيه وسأل فإذا هو لا يقبل الصَّدقة فوعى أشياء من حال النبيِّ ﷺ[٢] لعلم أهل الكتاب برسالة النبيِّ ﷺ ومعرفة أوصافه في التوراة والإنجيل وقد جاءهم بالجد والجهاد ، قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[٣] ، فلمَّا رأت القبائل العربية الخاضعة للروم عزَّ الإسلام وقوَّة المسلمين وخوف الروم وإحجامهم عن القتال وهروبهم أسلم كثيرٌ منهم فهرع نصارى العرب لمصالحة النبي ﷺ ودفع الجزية ، فأقام رسول الله ﷺ أيامـًا فرض فيها سيطرته التامَّة على المنطقة ، فلمَّا أتته الأخبار بانسحاب الروم وتفرُّقهم في البلدان قفل راجعـًا إلى المدينة ، فكان لهذا الجيش المهيب الذي لم يجتمع للعرب مثله قط أثراً عظيمـًا عند سكان الجزيرة العربية وما حولها من حين خروجه من المدينة إلى أن عاد عزيزاً شامخـًا إليها ، بعد أن أسقط هيبة الروم من قولب العرب ، وأظهر قوَّة المسلمين ، وفرض سلطانه على شمال الجزيرة العربية ، فهذا والله من أعظم المظاهر التي جمع الله فيها بين عزَّة دينه ونبيِّه

---

(١) انظر : أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٥/ ١٥٢ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ، ٣/ ١٠١٨ ، أحمد بن علي المقريزي : إمتاع الأسماع ، ٩/ ٢٦٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (٢٩) .

والمؤمِنِين ، وإذلال الشرك والمشركين ، الأمر الذي جعل وفود العرب تتسابق للانضواء تحت راية لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، وتدين دين الحق اعتزازاً بالإسلام ولتلحق ركب الصُّحبة برسول الله ﷺ وشرفها ، فما كاد النبيُّ ﷺ يصل إلى المدينة حتى ضربت إليه الوفود من كلِّ حدب وصوب ، ليعلنوا الإسلام ويبايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والولاء لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والجهاد في سبيله ، والتمسُّك بدين الله وطاعته وموالاة المؤمنين ولو كانوا جنباً ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وعدم موالاة الكافرين ولو كانوا ذوي قربى ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] ، فالأخوَّة الإيمانيَّة من أعظم الرَّوابط التي تحقِّق الولاء والوحدة والاجتماع الذي يبعث على العزَّة والقوَّة والمنعة ، ويجسِّد ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان من أوَّل أعماله بعد الهجرة أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه»[3] فضربوا أروع مثال في الأخوَّة الإيمانيَّة والحبِّ والإيثار ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٠) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (٢٣) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، برقم (١٣) ، ١/ ١٤ .

نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[١] . فالأُخُوَّةُ في الإسلام مطلب من مطالب الإيمان ؛ لارتباط الأُمَّة ووحدتها وعزِّها وقوَّتها .

كما أنزل الله عزَّ وجلَّ في شأن هذه الغزوة آيات محكمات من سورة التَّوبة محذِّراً من المنافقين وخطرهم على الإسلام والمسلمين بعد أن كشف عداوتهم في لحن القول والغمز والسُّخرية والاستهزاء بالدين ، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف يحادُّون الله ورسوله ، يُبطنون الكفر ويحيكون المؤامرات مع الأعداء ضد الإسلام والمسلمين في الخفاء ، قال تعالى : ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٢] ، أساءوا الظنَّ بربِّهم وطلبوا العزَّة من غيره ، بل حاربوا دينه وتَوَلَّوْا أعداء الله ، عن ابن عباسٍ وأنس رضي الله عنهما أنَّه لـمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكَّة ووَعد أُمَّته مُلك فارس والرُّوم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات! مِنْ أين لمحمَّد مُلك فارس والروم؟ وهم أعزُّ وأمنع من ذلك ، ألم يكف محمَّدًا مكَّة والمدينة حتَّى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى[٣] : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[٤] ، لذا أمر الله بجهادهم والتشديد عليهم لما لهم

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٩) .

(٢) سورة النِّساء ، الآيتَين : (١٣٨-١٣٩) .

(٣) علي بن أحمد الواحدي (ت:٤٦٨هـ) : أسباب نزول القرآن ، ت : عصام الحميدان ، دار الإصلاح ، الدَّمام ، ط : ٢ ، ١٤١٢هـ ، ص : ١٠٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : (٢٦) .

من صفات الخيانة والرِّجس ، يسعون في الإفساد وإشعال الفتنة بين المسلمين ليلًا ونهارًا ، أخبث من السُّمِّ ، هم العَدُوُّ فاحذرهم قاتلهم الله ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1] .

وقد بيَّن سبحانه في بداية هذه السورة موقف الإسلام والمسلمين تُجاه الشرك والمشركين في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] فأمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه والمُؤمنين بقتال المُشركين وجهادهم ؛ لكسر شوكتهم وإذلال عقيدة الشرك وعبادة الأوثان الَّتي اتخذوها أربابـًا من دون الله .

وهذه الآية العظيمة الجامعة لمظاهر عزِّ الإسلام والمُسلمين ، وذلّ الشرك والمشركين ، دليلٌ على القوَّة والظهور والنَّصر والتمكين لأهل التوحيد ، فما إن حجَّ رسول الله ﷺ حَجَّة الوداع إلَّا وحوله مئة ألف مسلم يأتمرون بأمره ويقتدون بسنَّته قد نبذوا الأصنام وتبرَّؤا من الشرك ، بل أصبحوا دعاة إلى الله نشروا دينه وأقاموا شرعه ، قال تعالى : ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3] ، يقول تبارك وتعالى لنبيِّه ﷺ : قل هذه الدعوة التي

---

(١) سورة التوبة ، الآية : (٧٣) .

(٢) سورة التوبة ، الآيتَين : (١٤-١٥) .

(٣) سورة يوسف ، آية : (١٠٨) .

أدعوا إليها ، والطريقة التي أنا عليها من الدُّعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته أدعوا إلى الله على بصيرة ، أي : على علم ويقين وبرهان ، وكذلك يدعوا إليه من اتَّبعني وصدَّقني وآمن بي ، وأُنَزِّه الله عمَّا نُسِب إليه ممَّا لا يليق بجلاله أو ينافي كماله ، وأنا بريءٌ من أهل الشرك لست منهم ولا هم منِّي ، فما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتى عمَّ الإسلام جزيرة العرب ، ودانت العرب بدين الله وقاموا بأعباء الدَّعوة وإيصال رسالة ربِّهم إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كل من وقف في سبيل الدعوة وحال بينها وبين عباد الله رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين وعنَّا معهم بكرمه ورحمته وفضله ومِنَّته .

وإلى هنا أصل إلى ختام هذا الكتاب المباركة سائلًا الكريم عزَّ وجلَّ أن يُحسن لي الختام ، وأن ينفعني به في الدارين ، وأن ينفع به الثقلين ، وأن يجعله لي زادًا وفوزاً يوم ألقاه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والحمد لله ربِّ العالِمين ، وسلام على المرسلين ، سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنِّي أعوذ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطان وشركه ، ومن شرِّ كُلِّ دابَّةٍ أنت آخذ بناصيتها إنَّ ربِّي على صراط مستقيم ، اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم .

الخـاتـمـة

الحمد لله حمداً تترا لا ينقطع أبداً ، على نعمه وأفضاله التي لا تحصى ، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه لا أُشرك به أحداً ، والصَّلاة والسَّلام الأتمَّان الأكملان على الهادي أحمد ، وعلى آله وصحبه ومن بهداه اهتدى وبعد ، ففي ختام هذا الكتاب الذي طال بنا في فصول شيِّقة من سيرة خير البريَّة في قضائه على معالم أعظم ذنب عُصِيَ الله به ، بانت لي من خلاله كثيرٌ من النتائج ، وكان من أبرزها ما يلي :

أولًا : أنَّ لُغة العرب لُغة ربَّانيَّةٌ أصيلةٌ وليست بحادثة ، علَّمها ربُّ العزَّة نبيَّه آدم ، ثُمَّ تناقلها عنه بنُوه ، وأنَّ الوحي كان ينزل مِنْ ربِّ العالِمين على أنبيائه بالعربيَّة ثم كان جبريل عليه السَّلام بعد يُترجم للنَّبيِّ غير العربيِّ بلسان قومه الَّذي بُعث فيهم .

ثانيًا : أنَّ مصدر تقسيم العرب إلى عاربةٍ ومُستعربةٍ وجَعْل النَّبيِّ ﷺ ومَن معه مِن ذرية إسماعيل عليه السلام من العرب المستعربة يعود إلى روايةٍ إسرائيليّةٍ دُسَّت في كتبِ التَّاريخ الإسلامي ، وكان أوَّل مَن استظهرها الإمام الطبريُّ في تاريخه مُسنِدًا إيَّاها لابن إسحاق قائلًا : «ويزعم أهل التَّوراة..» ، فالمعوَّل على ما جاءت به سنَّة رسول الله ﷺ الصَّحِيحة الصَّرِيحة الدَّالة على أنَّه ﷺ خِيرة العرب ، وأنَّ قحطان مِنْ ذرية إسماعيل وليس متقدمًا عنه حتَّى يتعلَّم العربيَّة مِنْ ولَدِه جُرهم كما زعموا .

ثالثًا : أنَّ أرض العرب سمَّاها النَّبيِّ ﷺ وأهلُها بجزيرة العرب ، وأنَّ

تسميتها بشبه الجزيرة اسمٌ حادثٌ أطلقه المستشرقُون عليها ، فالأولَى إبقاؤها على ما أطلقه الشَّرع عليها لا أن نتَّبع الغرب في تحريف اسمها ؛ وأنَّ الشَّام وبيت المقدس منها جزءٌ لا يتجزَّأ عنها ، لما ورد في الحديث الصَّحيح الصَّريح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «..مِن أهل فلسطين مِنْ جزيرة العرب» ، بخلاف مَنْ أخرجها من أرضها .

رابعًا : ثبت لديَّ من خلال دراسة هذا الكتاب أنَّ الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده الأولين والآخرين وهو دين مكارم الأخلاق والمرجع الأصيل لها ، من أوَّلها التوحيد إلى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو دين العزَّة والرِّفعة والقوَّة والإباء .

خامسًا : أنَّ من أكبر الأسباب التي أدَّت إلى ظهور الشرك في جزيرة العرب طول الفترة الزمنيَّة بين نبيِّ الله إسماعيل عليه السلام وبعثة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وفشو الجهل وانتشار الكُهَّان وطمس معالم التوحيد حتى جاء عمرو بن لحي وساق النَّاس إلى عبادة غير الله ، وأجبرهم عليها ، فكان ذلك أول ظهور للشِّرك في جزيرة العرب .

سادسًا : كان الغلو في محبة الأنبياء والصالحين والتصوير والتماثيل من أخطر الأمور على عقيدة الإنسان ، وهو المدخل الذي دخل به الشَّيطان عليهم حتى فشا فيهم الشرك .

سابعًا : أنَّ الدَّعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى ونبذ الشرك هي غاية الأنبياء والرسل جميعها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل ، الآية :(٣٦) .

ثامنًا : أنَّ القرآن الكريم جاء بتقرير التوحيد والأمر به والدعوة إليه ، كما أنَّه نهى عن ضده الذي هو الشرك بالله ، وبيَّن أسبابه وذَكَر أضراره وأرشد إلى وسائل القضاء عليه مع سَدِّ كُلِّ الذَّرائع المفضية إليه ، وتبعته السنَّة النبويَّة مبيِّنة ومجسِّدة لكُلِّ ذلك .

تاسعًا : ضرب النبيُّ عليه الصلاة والسلام أروع الأمثلة لأمَّته في الصبر على الأذى في سبيل الدَّعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك .

عاشراً : أنَّ الأخوَّة في الدِّين هي ركيزة من ركائز القوَّة والوحدة الإسلامية ومعينة على الثبات على الحق والتوحيد .

الحادي عشر : استخدام القوَّة والجهاد لحماية الدَّعوة من الاعتداء أمر لا بُدَّ منه لدفع الظلم والاعتداء على الإسلام والمسلمين ونصرة المستضعفين .

الثاني عشر : البحث في السنَّة النبويَّة وما فيها من أخلاق نبويَّة سامية يضع المنهج العملي للمسلمين لما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم وأخلاقهم وعلاقتهم بربهم والدعوة إليه .

الثالث عشر : أنَّ دعوة النبيِّ ﷺ في مكة ثُمَّ في المدينة وفتوحاته وغزواته كشفت للنَّاس حقيقة الأصنام والأوثان التي خدعوا فيها على أنها تضر وتنفع ، فلما عرفوا ذلك أعملوا عقولهم ورجعوا إلى أنفسهم فعادوا إلى فطرتهم الحقيقية التي فطرهم الله عليها .

الرابع عشر : أنَّ فتح مكة كان يومـًا عظيمـًا وحدثـًا تاريخيـًا علت فيه معالم التوحيد وعزَّ أهلها وذلَّت فيه قوى الشرك والكفر وآذنت بطمس معالمها ، فقد كانا فيصلًا بين الشرك والتوحيد في الأرض المقدسة مكة

المكرمة ، والتي تحوَّلت فيه من بلدة يعبد أهلها الأحجار إلى القبلة لتوحيد الواحد القهار .

الخامس عشر : حارب الإسلام الأوهام والأباطيل التي كان يعتقدها النَّاس كعبادة الأصنام والأوثان والسِّحر والكهانة والتطيُّر والتمائم وغير ذلك ، فحرَّر عقولهم من الوهم والخرافة ، ودعاهم إلى التفكُّر والتدبُّر ليكون الإنسان على بصيرة وهدى وعلم .

السادس عشر : ظهر لي من خلال البحث حرص النبيِّ ﷺ على القضاء على الأصنام والأوثان بعد تمكُّنه من مكة بشكل سريع جداً لقطع دابرها وإزالة عقيدتها .

السابع عشر : أنَّ سبب اختلاف الرِّوايات الحديثيَّة والتاريخيَّة في تحديد أماكن بعض الأصنام -كسُوَاع مثلًا- هو أنَّ هناك من كان يصنع الأصنام على هيئة تلك الأوثان -كسُوَاع ، ووُد ، وهبل وغيرها- ثمَّ يبيعها في الأسواق ويشتريها النَّاس ، فانتشرت في كل مكان ، لذلك تعدَّدت الرِّوايات حول مواضعها .

الثامن عشر : أنَّ الكهانة بأنواعها وما يتبعها من أمور تتعلَّق بعلم الغيب كالطِّيرة والتنجيم والعرافة والنشرة والضرب بالأزلام وغيرها من مظاهر الشرك أمورٌ محرَّمة بإجماع المسلمين ، وهي من مظاهر الشرك التي حاربها الشارع الحكيم وسعى في القضاء عليها .

وإلى هنا أكون قد أنهيت ذِكْرَ جملةٍ من أهمِّ النتائج التي توصَّلت إليها في هذا الكتاب .

ولا يفوتني أن أُوصي بالبحث في مثل هذه الموضوعات الهامة التي

تُثْرِي المكتبة الإسلامية وتُظهر للقارئ حرص النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام والـصحابة الكـرام علـى الـدَّعوة إلـى عبـادة الله وحـده ومحاربـة الـشرك والوثنيَّة .

وفي الختام أحمد الله العلي القدير أن وفَّقني لإنجاز هـذا الكتـاب ، والذي أسأل أن أكون قد وُفِّقت فيه ، فإن كـان كـذلك فهـذا هـو المرجـوُّ والمبتغى ، وإن كان غير ذلك فما أنـا إلَّا باحـثٌ مجتهـد أُصيب وأُخطئ والكمال لله وحده . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين . وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قائمة المصادر والـمراجع

١. **القرآن الكريم: كلام ربِّنا عَزَّ وَجَلَّ الـمُنَزَّل** .

٢. **الإبانة في اللُّغة العربيَّة** : سلمة بن مسلم العَوْتبي الصحاري ، ت : د. عبدالكريم خليفة وآخرون ، وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٣. **الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان** : بكر بن عبدالله أبوزيد (ت: ١٤٢٩هـ) ، دار العاصمة ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ .

٤. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة** : أحمد بن إسماعيل البوصيري (ت : ٨٤٠هـ) ، ت : الفريق العلمي بدار المشكاة للبحث العلمي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .

٥. **آثار البلاد وأخبار العباد** : زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت: ٦٨٢هـ) ، دار صادر - بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

٦. **الآحاد والمثاني** : أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن أبي عاصم(ت : ٢٨٧هـ) ، ت : د.باسم الجوابرة ، دار الراية - الرياض ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٧. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** : المقدسي ، محمد بن أحمد المقدسي البشاري (ت : قرابة ٣٨٠هـ) ، ليدن ، دار صادر ، بيروت ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ط : ٣ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٨. **أحكام القرآن**: أحمد بن علي الجصاص(ت : ٣٧٠هـ) ، ت : محمد الصادق قمحاوى ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٤٠٥هـ .

٩. **إحياء علوم الدِّين** : الغزالي ، أبوحامد محمد بن محمد الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) ، دار المعرفة ، بيروت-لبنان ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٠. **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**: جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت : ٦٤٦ هـ) ، ت : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

١١. **أخبار مكَّة في قديم الدَّهر وحديثه** : الفاكهي ، أبوعبدالله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي(ت: ٢٧٢هـ) ، ت: عبد الملك عبد الله دهيش ، دار خضر ، بيروت ، ط:٢ ، ١٤١٤هـ .

١٢. **أخبار مكَّة وما جاء فيها مِنَ الآثار** : محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي (ت ٢٥٠ هـ) ، اعتمدت على طبعتين : **الأولى** : دراسة وتحقيق : عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، **أمَّا الثانية** : ت : رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس للنشر - بيروت .

١٣. **الإخنائية -أو الرَّد على الإخنائي-**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ، ت : أحمد بن مونس العنزي ، دار الخراز - جدة ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

١٤. **أدب الخواص**: الوزير المغربي ، أبوالقاسم الحسين بن على بن الحسين (ت: ٤١٨هـ) ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٥. **الأدب المفرد** : محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦) ، اعتمدتُ على طبعتَين ، فالأُولى : ت : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م أمَّا الثَّانيَّة : مؤسسة الكتب الثقافية ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٦. **إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري:** أحمد بن محمد بن أبى بكر القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، ط : ٧ ، ١٣٢٣هـ .

١٧. **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرَّدِّ على أهل** الشرك **والإلحاد** :صالح بن فوزان الفوزان ، دار ابن الجوزي ، ط : ٤ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

١٨. **أساس البلاغة** : محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، ت : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٩. **الأساس في السُّنَة وفقهها**: سعيد حوَّى (ت ١٤٠٩ هـ) ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط : ٢ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٢٠. **أسباب نزول القرآن:** علي بن أحمد الواحدي (ت:٤٦٨هـ) ، ت : عصام الحميدان ، دار الإصلاح ، الدَّمام ، ط : ٢ ، ١٤١٢هـ .

٢١. **الاستذكار** : يوسف بن عبدالله بن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ) ، ت : سالم محمد عطا ، محمد علي معوض ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٢٢. **الاستقامة**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ، ت : د. محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود – المدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤٠٣هـ .

٢٣. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : يوسف بن عبدالله بن عبدالبر (ت: ٤٦٣هـ) ، ت : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٢٤. **أُسْد الغابة في معرفة الصَّحابة**: علي بن أبي الكرم محمد الشيباني ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ، ت : علي معوض – عادل عبدالموجود ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

٢٥. **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**: سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني (ت : ١٤١٧هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٦. **الاشتقاق** : محمد بن الحسين بن دريد الأزدي ، ت : عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ .

٢٧. **الإصابة في تمييز الصحابة** : أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ، ت : عادل عبد الموجود ، وعلى معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ .

٢٨. **إصلاح المنطق**: ابن السِّكِّيت ، أبويوسف يعقوب بن إسحاق (ت: ٢٤٤هـ) ، ت: محمد مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط: ١ ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

٢٩. **الأصنام** : هشام بن محمد الكلبي (ت : ٢٠٤هـ) ، ت : أحمد زكي باشا ، دار الكتب والوثائق القومية ، ط : ٤ ، ٢٠٠٠م .

٣٠. **أصول الإيمان في ضَوء الكتاب والسُّنَّة:** نخبة من العلماء ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ .

٣١. **أضواء البَيَان في إيضاح القرآن بالقرآن:** محمَّد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ) ، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت - لبنان ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٣٢. **الأطلس الجغرافي الإلكتروني لسرايا النَّبيِّ ﷺ** : نزار محمود قاسم ، (د.ط) ، (د.ت) .

٣٣. **إعانة المستفيد بشرح كتاب التَّوحيد** : صالح بن فوزان الفوزان ، مؤسسة الرسالة ، ط : ٣ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

٣٤. **إعلام المُوَقِّعِين عَنْ ربِّ العالمين** :محمد بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، ت : محمد عبدالسلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ٤/ ٣٠٦ .

٣٥. **أعلام النُّبوَّة** :علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٩هـ .

٣٦. **الإعلام بفوائد عمدة الأحكام:** عمر بن علي بن أحمد الشافعي ابن الملقن المصري (ت: ٨٠٤هـ) ، ت : عبدالعزيز المشيقح ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٣٧. **الأعلَام:** خير الدين بن محمود الزركلي (ت : ١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين ، ط : ١٥ ، ٢٠٠٢م .

٣٨. **إغاثة اللَّهفان في مصايد الشَّيطان** : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١) ، ت : محمد عزير شمس ، خرج أحاديثه : مصطفى بن سعيد إيتيم ، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ، ط : ١ ، ١٤٣٢هـ .

٣٩. **الأغاني**: علي بن الحسين أبوالفرج الأصبهاني (٣٥٦هـ) ، ت : سمير جابر ، دار الفكر - بيروت ، ط : ٢.

٤٠. **إفادة الأنام بذِكر أخبار بلد الله الحرام ، مع تعليقه : إتمام الكلام**: عبدالله بن محمد الغازي (ت : ١٣٦٥هـ) ، ت : عبدالملك بن دهيش ، ط : ١ ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

٤١. **اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، ت : ناصر عبدالكريم العقل ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط : ٧ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٤٢. **الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء**: سليمان بن موسى بن سالم الحميري (ت: ٦٣٤هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ .

٤٣. **إكمال الإكمال -تكمِلةٌ لكتاب الإكمال لابن ماكولا-**: محمد بن عبدالغني بن أبي بكر ابن نقطة الحنبلي البغدادي (ت : ٦٢٩هـ) ، ت : د. عبد القيوم عبد ريب النَّبي ، جامعة أم القرى - مكَّة المكرَّمة ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ .

٤٤. **إكمال المُعْلِم بفَوَائِدِ مُسْلِم** : عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤هـ) ، ت : يحْيَى إِسْمَاعِيل ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- مصر ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ.

٤٥. **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكُنَى والأنساب:** علي بن هبة الله بن ماكولا (ت : ٤٧٥هـ) ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١١هـ–١٩٩٠م .

٤٦. **الألفاظ** : يعقوب بن إسحاق ابن السِّكِّيت (ت : ٢٤٤هـ) ، ت : فخر الدين قباوة ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط : ١ ، ١٩٩٨م .

٤٧. **الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية:** آمال العمرو.

٤٨. **الأم** : محمد بن إدريس الشافعي (ت : ٢٠٤هـ) ، ت : رفعت فوزي عبدالمطلب ، دار الوفاء المنصورة ، ط : ١ ، ٢٠٠١م .

٤٩. **الأماكن –ما اتَّفق لفظُه وافترق مُسمَّاه مِنَ الأمكنة–** : محمد بن موسى بن عثمان الهمداني (ت: ٥٨٤هـ) ، ت : حمد بن محمد الجاسر ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤١٥ هـ .

٥٠. **إمتاع الأسماع بما للنَّبيِّ ﷺ منَ الأحوال والأموال والحفدة والمتاع:** أحمد بن علي المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) ، ت : محمد عبدالحميد النميسي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

٥١. **الإملاء المختصر في شرح غريب السِّيَر:** مصعب بن محمد الأندلسي ابن أبي الراكب (ت: ٦٠٤هـ) ، استخرجه وصحَّحه : بولس برونله ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

٥٢. **الإنابة إلى معرفة المختلَف فيهم مِنَ الصحابة:** علاء الدين بن قليط مغلطاي (ت: ٧٦٢ هـ) ، ت : السيد عزت المرسي ،

إبراهيم القاضي ، مجدي الشافعي ، مكتبة الرشد ، (د.ط) ، (د.ت) .

٥٣. **الإنباه على قبائل الرواة:** يوسف بن عبد الله بن عبدالبر (ت : ٤٦٣هـ) ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٥٤. **الأنساب -أنساب العرب-** : سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العَوْتَبِي -العُمَاني الإباضي- نسبةً إلى عَوْتَب وهي منطقة في صُحار (ت: ٥١١هـ) .

٥٥. **الأنساب:** عبدالكريم بن محمد السمعاني (ت : ٥٦٢هـ) ، ت : عبدالرحمن المعلمي ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، ط : ١ ، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م .

٥٦. **الأنواء في مواسم العرب:** عبدالله بن مسلم ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٥٧. **أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل:** عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) ، ت : محمد ابن عبدالرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ .

٥٨. **أيسر التَّفاسير لكلام العليِّ الكبير: أبوبكر** جابر بن موسى بن عبدالقادر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط : ٥ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

٥٩. **البحر المحيط الثَّجَّاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج** : محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي (ت: ١٤٤١هـ) ، دار ابن الجوزي- الدَّمَّام ، ط : ١ ، ١٤٢٦-١٤٣٦هـ .

٦٠. **البحر المحيط في التَّفسير** : محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، ت : صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ، ط : ١٤٢٠هـ .

٦١. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد:** أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ) ، ت : أحمد عبدالله القرشي رسلان ، د. حسن عباس زكي ، القاهرة ، ط : ١٤١٩هـ .

٦٢. **البدء والتَّاريخ** : المطهر بن طاهر المقدسي (ت: نحو ٣٥٥هـ) ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد .

٦٣. **البداية والنِّهاية:** إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، ت : عبدالله التركي ، دار هجر للطباعة ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

٦٤. **بَذل المجهود في حلِّ سنن أبي داود:** خليل بن أحمد السهانفوري (ت: ١٣٤٦ هـ) ، اعتني به : د.تقي الدين الندوي ، مركز الندوي للبحوث ، الهند ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

٦٥. **البرهان في علوم القرآن:** الزَّركشي ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي(ت:٧٩٤) ، ت:محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، لبنان ، ط:١ ، ١٣٧٦هـ .

٦٦. **بُغيَة الوُعاة في طبقات اللُّغويين والنحاة:** جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، ت : محمد أبوالفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – لبنان – صيدا .

٦٧. **البُلغَة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة** : الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت : ٨١٧هـ) ، دار سعد الدين للطباعة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٦٨. **بهجة النُّفوس وتحليَتها بمعرفة ما لها وما عليها -شرح مختصر صحيح البخاري-**: ابن أبي جمرة الأندلسي ، أبومحمَّد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي (ت:٦٩٥هـ) ، مطبعة الصِّدِّيق الخيرية ، جوار الأزهر-مصر ، ط:١ ، ١٣٤٨هـ.

٦٩. **بيان المعاني -مرتب حسب ترتيب النُّزول-**: عبدالقادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت: ١٣٩٨هـ) ، مطبعة الترقي - دمشق ، ط : ١ ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م .

٧٠. **البيان في مذهب الإمام الشافعي** : يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني الشافعي (ت : ٥٥٨هـ) ، ت : قاسم محمد النوري ، دار المنهاج - جدة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .

٧١. **البيان والتَّبيين**: عمرو بن بحر الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) ، ت : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط : ٧ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٨٨م .

٧٢. **تاج العروس مِنْ جواهر القاموس** : محمد بن محمد بن عبدالرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) ، ت : مجموعة من المحققين ، دار الهداية .

٧٣. **تاريخ ابن الوردي**: عمر بن مظفر بن عمر ابن الوردي (ت : ٧٤٩هـ) ، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٧٤. **تاريخ ابن خلدون -ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر-** : عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) ، ت : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٧٥. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** : شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان بن الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) ، ت : د.بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط : ١ ، ٢٠٠٣م .

٧٦. **تاريخ الأمم والمُلُوك** : محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، اعتمدتُ على طبعتَين ، فالأُولَى : دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ ، أمَّا الثَّانيَّة : دار التراث - بيروت ، ط : ٢ ، ١٣٨٧هـ .

٧٧. **تاريخ الثِّقات** : العِجِلي ، أبوالحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلى (ت: ٢٦١هـ) ، دار الباز ، ط:١ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٧٨. **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النَّفيس**: حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري (ت: ٩٦٦هـ) ، دار صادر - بيروت .

٧٩. **تاريخ العرب القديم**: توفيق برو ، دار الفكر ، ط : ٢ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

٨٠. **التَّاريخ القويم لمكَّة وبيت الله الكريم** : محمد طاهر الكردي المكي ، طبع على نفقه عبدالملك بن دهيش ، يطلب من مكتبة النهضة الحديثة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

٨١. **تاريخ اليعقوبي**: أحمد بن إسحاق اليعقوبي (٢٨٤هـ) ، درا صادر للطِّباعة والنَّشر- بيروت ، ١٣٧٩هـ .

٨٢. **تاريخ بغداد:** أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣هـ) ، ت : د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

٨٣. **تاريخ دمشق لابن عساكر** : علي بن الحسن بن هبة الله المشهور بابن عساكر (ت : ٥٧١هـ) ، ت : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ .

٨٤. **تاريخ هِيرُودُوت:** هيرودوت (ت: ٤٢٥ ق.م) ، ترجمة : عبد افله الملَّاح ، مراجعة: د. أحمد السَّقَّاف ود. حمد صراي ، المجمَّع الثَّقافي ، أبوظبي ، (د.ط) ، ٢٠٠١م.

٨٥. **التَّحرير والتَّنوير** : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التُّونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ، الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر ، تونس ، ١٩٨٤م .

٨٦. **التَّحصين مِنْ كيد الشَّياطين:** خالد بن عبد الرحمن الجريسي ، دراسة تأصيليَّة مستفيضة لقضايا : العين ، والحسد ، والسحر ، والمسِّ وغيرها ، مع بيان المشروع من التحصين ، والرُّقي ، وأصولِ التداوي ، (د.ط) ، (د.ت) .

٨٧. **تُحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح:** أحمد بن يُوسُف المالكى (ت: ٦٩١هـ) ، ت : د. عبد الملك الثبيتي ، دكتوراه ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

٨٨. **تُحفة المحتاج في شرح المنهاج:** أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (ت:٩٧٤هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، لصاحبها : مصطفى محمد ، ١٣٥٧هـ – ١٩٨٣م

٨٩. **تحقيق التَّجريد في شرح كتاب التَّوحيد**: عبدالهادي بن محمد بن جعثم العجيلي (ت : ق ١٣هـ) ، ت : حسن بن علي العواجي ، أضواء السلف ، الرياض ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

٩٠. **تذكرة الحفَّاظ وتبصرة الأيقاظ** : يوسف بن حسن الصالحي ، ابن المِبْرَد الحنبلي (ت: ٩٠٩ هـ) : عناية : لجنة مختصة من المحققين بإشراف : نور الدين طالب ، دار النوادر ، سوريا ، ط : ١ ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

٩١. **التَّرتيب الفريد مِنْ شروحات كتاب التَّوحيد**: لقمان حسن أمين ، (د.ط) ، (د.ت) .

٩٢. **تصحيح التَّصحيف وتحرير التَّحريف**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) ، ت : السيد الشرقاوي ، راجعه : د. رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٩٣. **التَّعريفات الفقهيَّة** : محمد عميم الإحسان المجددي البركتي ، دار الكتب العلمية ، باكستان ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٩٤. **التَّعريفات**: الجُرجَاني ، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت: ٣٩٢هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط:١ ، ١٤٠٥هـ.

٩٥. **التَّعليقات البازيَّة على كتاب التَّوحيد** :علي بن حسين بن أحمد فقيهي ، (د.ط) ، (د.ت) .

٩٦. **التَّعليقات والنَّوادر**: هارون بن زكريا أبوعلي الهجري (ت : نحو ٣٠٠هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٩٧. **التَّفسير البسِيط** : علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) ، ت : أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود ، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه ، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ .

٩٨. **تفسير البغوي** : الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ) ، ت : محمد عبدالله النمر ، عثمان ضميرية ، سليمان الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط : ٤ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

٩٩. **تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، ت : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط : ٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

١٠٠. **تفسير القرآن العظيم**: عبدالرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ) ، ت : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية ، ط : ٣ ، ١٤١٩هـ .

١٠١. **تفسير القرآن الكريم** : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، ت : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ .

١٠٢. **تفسير الماوردي -النُّكت والعُيون-** : علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت : ٤٥٠هـ) ، ت : السيد عبدالرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .

١٠٣. **التَّفسير الواضح** : محمد محمود الحجازي ، دار الجيل الجديد - بيروت ، ط : ١٠ ، ١٤١٣هـ .

١٠٤. **التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم**: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ط : ١ ، ١٣٩٣هـ .

١٠٥. **تفسير آياتٍ أشكلت**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) ، ت : عبدالعزيز خليفة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ .

١٠٦. **تفسير حدائق الرُّوح والرَّيحَان في روابي علوم القرآن** : محمد الأمين بن عبدالله الهرري الشافعي ، مراجعة : د.هاشم محمد مهدي ، دار طوق النجاة ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .

١٠٧. **تفسير روح البيان**: إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي ، دار إحياء التراث العربي .

١٠٨. **تفسير عبد الرزاق**: أبوبكر عبدالرزاق بن همام الصَّنعاني (ت: ٢١١هـ) ، ت: محمود محمد عبده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:١ ، ١٤١٩هـ.

١٠٩. **تفسير غريب ما في الصَّحِيحَين البخاري ومسلم** : محمد بن فتوح بن أبي نصر (ت: ٤٨٨هـ) ، ت : د.زبيدة عبدالعزيز ، مكتبة السنة – القاهرة – مصر ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

١١٠. **تفسير مجاهد**: أبوالحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت: ١٠٤هـ) ، ت: محمد عبد السلام أبوالنيل ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ .

١١١. **تفسير مُقاتل**: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي (ت: ١٥٠هـ) ، ت : عبدالله محمود شحاته ، دار إحياء التراث – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ .

١١٢. **تقريب التهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ) ، ت : محمَّد عوامة ، دار الرشيد – سوريا ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ .

١١٣. **التَّقفيَّة في اللُّغة** : اليمان بن أبي اليمان البَندنيجي (ت: ٢٨٤ هـ) ، ت : د. خليل إبراهيم العطية ، العراق ، وزارة الأوقاف ، إحياء التراث الإسلامي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٦م .

١١٤. **التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء** : الحسن بن عبدالله ابن سهل ، ت : عزة حسن ، دار طلاس للدراسات ، ط : ٢ ، ١٩٩٦م .

١١٥. **التَّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: ابن عبد البر ، أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) ، ت: مصطفى بن أحمد العلوي ومن معه ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب ، ١٣٨٧ هـ.

١١٦. **التَّنجيم والمنجِّمُون وحكم ذلك في الإسلام**: عبدالمجيد بن سالم المشعبي ، أضواء السلف ، الرياض ، السعودية ، ط : ٢ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

١١٧. **التَّنوير شرح الجامع الصَّغير** : محمد بن إسماعيل بن الكحلاني الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ) ، ت : د.محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم ، مكتبة دار السلام ، الرياض ، ط١ ، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م .

١١٨. **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**: الطَّبري ، محمَّد بن جرير الطَّبري (ت: ٣١٠هـ) ، ت: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني – القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت).

١١٩. **تهذيب الأسماء واللُّغات** : يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) ، عني به : شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان

١٢٠. **تهذيب التَّهذيب**: أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، الهند ، ط : ١ ، ١٣٢٦هـ .

١٢١. **تهذيب السُّنن** : محمَّد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيِّم الجوزيَّة (ت: ٧٥١هـ) ، ت : إسماعيل بن غازي مرحبا ، مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع – الرِّياض ، ط : ١ .

١٢٢. **تهذيب اللُّغة** : محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ) ، ت : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م .

١٢٣. **تَوجِيه اللُّمع**: ابن الخبَّاز ، أحمد بن الحسين بن الخباز (ت: ٦٣٩هـ) ، ت: فايز دياب ، دار السلام للطباعة والنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة ، جمهوريَّة مصر العربيَّة ، ط: ٢ ، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.

١٢٤. **التَّوقِيف على مهمَّات التَّعاريف**: عبد الرَّؤوف المُنَاوِي ، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي (ت: ١٠٣١هـ) ، ت: عبد الخالق ثروت ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط: ١ ، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.

١٢٥. **التِّيجان في ملوك حِمير**: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: ٢١٣هـ) ، ت : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء - اليمن ، ط١ ، ١٣٤٧هـ .

١٢٦. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحيد**: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ت:١٢٣٣هـ) ، ت : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي -بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ .

١٢٧. **تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان**: عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) ، ت : عبدالرحمن اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م .

١٢٨. **الثِّقات**: أبوحاتم محمد بن حبان الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ، ت: د.محمد عبد المعيد خان ، طبع وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية ، الهند ، ط : ١ ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

١٢٩. **جامع الأحاديث** : جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) : ، ضبطه : فريق من الباحثين بإشراف د.على جمعة ، طبع على نفقة : د حسن عباس زكى .

١٣٠. **جامع الأصول في أحاديث الرسول**: المبارك بن محمد بن عبدالكريم الشيباني ابن الأثير (ت : ٦٠٦هـ) ، ت : عبدالقادر الأرنؤوط وغيره ، مكتبة الحلواني ، مطبعة الملاح ، مكتبة دار البيان ، ط : ١ .

١٣١. **جامع البيان في تأويل القرآن** : محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، ت : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

١٣٢. **الجامع الصَّحيح للسِّيرة النَّبويَّة**: سعد المرصفي ، مكتبة ابن كثير ، الكويت ، ط :١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

١٣٣. **الجامع الصَّغير في أحاديث البشير النَّذير** :جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

١٣٤. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي المشهور بابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) ، ت : شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط : ٧ ، ١٤٢٢هـ

١٣٥. **الجامع في الحديث**: ابن وهب ، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبومحمد المصري ، (ت:١٩٧) ، ، ت : د . مصطفى حسن حسين أبوالخير ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ١٩٩٦م.

١٣٦. **الجامع لأحكام القرآن** : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت : ٦٧١ هـ) ، ت : هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، الرياض ، السعودية ، ط : ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م .

١٣٧. **الجبال والأمكنة والمياه** : محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) ، ت : أحمد عبدالتواب عوض ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع - القاهرة ، ١٣١٩ هـ - ١٩٩٩م .

١٣٨. **الجرح والتَّعديل** : عبدالرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ) ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن

-الهند ، دار إحياء التراث العربي -بيروت ، ط : ١ ، ١٢٧١هـ ١٩٥٢م .

١٣٩. **جزء ابن غطريف**: محمد بن أحمد الغطريفي (ت: ٣٧٧هـ) ، ت: عامر حسن صبري ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط:١ ، ١٤١٧هـ.

١٤٠. **جَمْع الجوامع -الجامع الكبير-** :جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ، ت: مختار إبراهيم الهائج وغيره ، الأزهر الشريف ، القاهرة - جمهورية مصر العربية ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ

١٤١. **جَمْهَرة أشعار العرب** : محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت : ١٧٠هـ) ، ت : علي محمد البجادي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت) .

١٤٢. **جَمْهَرة اللُّغة** : محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) ، ت : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين -بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٧م .

١٤٣. **جَمْهَرة أنساب العرب** : علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ) ، ت : لجنة من العلماء ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ .

١٤٤. **جَمْهَرة مقالات ورسائل الشَّيخ الإمام محمَّد الطَّاهر ابن عاشور**: الطاهر بن عاشور ، جمعها : محمد الطاهر الميساوي ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط : ١ ، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م .

١٤٥. **الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح:** أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ، ت : علي بن حسن الألمعي وغيره ، دار الفضيلة ، الرياض ، السعودية ، ط١ ، ١٤٨٤هـ/ ٢٠٠٤م .

١٤٦. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي -الدَّاء والدَّواء- :** محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، دار المعرفة – المغرب ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

١٤٧. **جواب في الحلف بغير الله والصلاة إلى القبور ، ويليه : فصل في الاستغاثة:** أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ، ت: فواز أحمد محمَّد العوضي ، طبع في الكويت ، ط:١ ، ١٤٣١هـ .

١٤٨. **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدِّيع:** أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت: ١٣٦٢هـ) ، ضبطه: يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت).

١٤٩. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** : محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت .

١٥٠. **حاشية السِّندي على سنن ابن ماجه -كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه-** :محمد بن عبدالهادي السِّندي (ت: ١١٣٨هـ) ، دار الجيل – بيروت .

١٥١. **حاشية كتاب التَّوحيد** : عبدالرحمن بن قاسم النجدي (ت : ١٣٩٢هـ) ، ط : ٣ ، ١٤٠٨هـ .

١٥٢. **الحاوي للفتاوي:** جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت-لبنان ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م .

١٥٣. **حضارة العرب**: غوستاف لوبون ، ترجمة: عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة ، القاهرة ، (د.ط) ، ٢٠١٢ م.

١٥٤. **حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أحمد بن عبدالله الأصبهاني أبونعيم (ت : ٤٣٠هـ) ، نشرتْها دار السعادة - بجوار محافظة مصر ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

١٥٥. **حماسة الخالديين -الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين-** : الخالديان أبوبكر محمد بن هاشم الخالدي ، ت : نحو ٣٨٠هـ ، وأبوعثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت : ٣٧١هـ) ، ت : د.محمد علي دقة ، وزارة الثقافة ، سورية ، ١٩٩٥م .

١٥٦. **حماية الرَّسول ﷺ حِمَى التَّوحيد** : محمد بن عبدالله الغامدي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م .

١٥٧. **حياة الحيوان الكبرى** : محمد بن موسى الدميري (ت: ٨٠٨هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ .

١٥٨. **الحيوان**: عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ .

١٥٩. **خزانة الأدب ولُبُّ لباب لسان العرب**: عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) ، ت : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : ٤ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

١٦٠. **الخصائص الكبرى** : جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٦١. **خصائص جزيرة العرب:** بكر بن عبدالله أبوزيد (ت١٤٢٩هـ) ، ط : ٢ ، ١٤٢١هـ .

١٦٢. **خصائص سيِّد العالمين وما له من المناقب العجائب على جميع الأنبياء عليهم السَّلام:** جمال الدين السُّرَّمَرِّي ، ت : خالد بن منصور المطلق ، إشراف: أ.د. علي السويلم ، ماجستير ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، كلية أصول الدين ، جامعة الإمام ، ط : ١ ، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م .

١٦٣. **الخصائص:** ابن جني ، عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط:٤ ، (د.ت).

١٦٤. **خَلْق أفعال العِباد :** محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) ، ت : د. عبدالرحمن عميرة ، دار المعارف السعودية - الرياض .

١٦٥. **الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون:** أحمد بن يوسف بن عبدالدائم السمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) ، ت : د.أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .

١٦٦. **الدُّر المنثور في التَّفسير بالمأثور:** جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١هـ) ، ت : مركز هجر للبحوث ، دار هجر - مصر ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

١٦٧. **دراسات في تاريخ الأدب العربي القديم** : محمد بيومي مهران ، دار المعرفة الجامعية ، ط : ٢ ، مزيدة ومنقَّحة ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٦٨. **درج الدُّرر في تفسيرِ الآيِ والسُّوَر** : عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) ، ت : وليد الحُسَيْن ، إياد عبد

اللطيف القيسي ، مجلة الحكمة ، بريطانيا ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

١٦٩. **الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:** أحمد بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) ، ت : محمد عبد المعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد/ الهند ، ط : ٢ ، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م .

١٧٠. **الدُّرَر في اختصار المغازي والسِّيَر** : يوسف بن عبدالله بن عبدالبر (ت : ٤٦٣هـ) ، ت : د.شوقي ضيف ، دار المعارف - القاهرة ، ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ .

١٧١. **دلائل النُّبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** : أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، ت: د. **عبد المعطي قلعجي** ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ .

١٧٢. **دلائل النُّبوَّة:** أحمد بن عبدالله الأصبهاني أبونعيم (ت: ٤٣٠هـ) ، ت : د.محمد رواس قلعجي ، عبد البر عباس ، دار النَّفائس ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٧٣. **الدَّلائل في غريب الحديث** : قاسم بن ثابت بن حزم السرقسطي (ت: ٣٠٢هـ) ، ت: محمد بن عبدالله القناص ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

١٧٤. **الدِّيباج على صحيح مسلم بن الحجاج** :جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، ت : أبوإسحاق الحويني ، دار ابن عفان للنشر والتوزيع - السعودية ، الخبر ، ط : ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

١٧٥. **الديباج** : معمر بن المثنى أبوعبيدة التيمى (ت: ٢٠٩هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٧٦. **ديوان المعاني**: الحسن بن عبدالله العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ) ، دار الجيل - بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٧٧. **دِيوان امرِئ القَيس**: امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٥٤٥ م) ، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط:٢ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٧٨. **ديوان حاتم الطائي**: حاتم الطائي ، ط : بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٧٩. **ديوان زهير بن أبي سلمى**: زهير بن أبي سلمى ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٨٠. **ديوان طَرَفَة بن العبد**: طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان (ت : ٥٦٤ م) ، ت : مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، ط : ٣ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

١٨١. **ديوان عروة بن الورد**: عروة بن الورد ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٨٢. **ديوان قيس بن الخطيم**: قيس بن الخطيم ، ت : د.ناصر الدين الأسد ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٧م .

١٨٣. **ديوان كثير بن عبدالرحمن الخزاعي**: كثير بن عبدالرحمن الخزاعي أبوصخر (ت : ١٥٠هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٨٤. **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**: لَبِيد بن ربيعة بن مالك (ت: ٤١هـ) ، اعتنى به : حمدو طمّاس ، دار المعرفة ، ط : ١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

١٨٥. **رجال صحيح مسلم:** أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم ابن منجويه (ت: ٤٢٨هـ) ، ت : عبدالله اللَّيثي ، دار المعرفة – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ .

١٨٦. **الرَّحيق المختوم** : صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٢٧هـ) ، دار العصماء – دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ .

١٨٧. **الرِّسالة** : الشافعي ، محمد بن إدريس القرشي المكِّي (ت: ٢٠٤هـ) ، ت: أحمد شاكر ، مكتبة الحلبي ، مصر ، ط : ١ ، ١٣٥٨هـ .

١٨٨. **رسالة التَّوحيد:** إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي ، ط : ١ ، وزارة الشؤون الإسلامية السعودية ، ١٤١٧هـ .

١٨٩. **رسالة** الشرك **ومظاهره:** مبارك بن محمد الميلي الجزائري (ت: ١٣٦٤هـ) ، ت : أبي عبد الرحمن محمود ، دار الراية للنشر والتوزيع ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

١٩٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ، ت : علي عبدالباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ .

١٩١. **الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة:** عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت: ٥٨١هـ) ، ت : عمر عبدالسلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

١٩٢. **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار** : محمد بن عبدالله الحميرى (ت: ٩٠٠هـ) ، ت : إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج ، ط : ٢ ، ١٩٨٠م .

١٩٣. **زاد المعاد في هدي خير العباد** : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، ط : ٢٧ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

١٩٤. **الزَّاهر في غريب ألفاظ الشَّافعي** : محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ) ، ت : مسعد عبدالحميد السعدني ، دار الطَّلائع ، (د.ت) .

١٩٥. **الزُّهد**: أحمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، ت: محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط:١ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

١٩٦. **سُبل الهُدى والرَّشاد في سِيرة خَير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد** : محمد بن يوسف الصالحي (ت: ٩٤٢هـ) ، ت : عادل عبد الموجود ، علي معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م .

١٩٧. **السَّرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة**: بريك بن محمد العمري ، إشراف : أكرم العمري ، دار ابن الجوزي ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

١٩٨. **السفارات النَّبويَّة إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية** : محمد أرشيد العقيلي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

١٩٩. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها:** الألباني ، أبوعبدالرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط:١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٢٠٠. **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السَّيئ في الأمَّة** : محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٣٠هـ) ، دار المعارف ، الرياض - المملكة العربية السعودية ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م .

٢٠١. **سمط النُّجوم العوالي في أنباء الأوائل والتَّوالي** : عبدالملك بن حسين العصامي (ت: ١١١١هـ) ، ت : عادل عبد الموجود ، علي معوض ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٢٠٢. **السُّنَّة**: أحمد بن محمد بن هارون أبوبكر الخلال (ت:٣١١هـ) ، ت : د. عطية الزهراني ، دار الراية - الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ

٢٠٣. **السُّنَّة**: عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٩٠هـ) ، ت : محمد بن سعيد بن سالم القحطاني ، دار ابن القيم - الدمام ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ

٢٠٤. **سنن ابن ماجه** : محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (ت: ٢٧٣هـ) ، ت : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

٢٠٥. **سنن أبي داود:** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ) ، ت : شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي ، دار الرسالة العالمية ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

٢٠٦. **سنن التِّرمذي -الجامع الصحيح-** : محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك ، التِّرمذي ، أبوعيسى (ت: ٢٧٩هـ) ، ت : أحمد محمد شاكر وآخرون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر ، ط : ٢ ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

٢٠٧. **السنن الصغرى للنَّسائي -المجتبى مِنَ السنن-:** أحمد بن شُعيب النَّسائي (ت: ٣٠٣هـ) ، ت : عبدالفتاح أبوغدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط : ٢ ، ١٤٠٦هـ.

٢٠٨. **السُّنَن الكبرى:** أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، اعتمدتُ فيه على طبعتَين ، فالأولى : ت : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط : ٣ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م . أمَّا الثَّانية : ت : د.عبدالله التركي ، مركز هجر للبحوث ، ط : ١ ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

٢٠٩. **سِيَر أعلام النُّبَلَاء** : شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، ت : مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط : ٣ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

٢١٠. **السِّيَر والمغازي -سِيرة ابن إسحاق-** :محمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ) ، ت : سهيل زكار ، ط : ١ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٢١١. **السِّيرة الحلبيَّة -إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون-**: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي ابن برهان الدين (ت: ١٠٤٤هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٧هـ .

٢١٢. **السِّيرةُ النبويةُ الصَّحيحة محاولةٌ لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**: أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط : ٦ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م .

٢١٣. **السِّيرة النَّبويَّة على ضَوء القرآن والسُّنَّة** : محمد بن محمد بن سويلم أبوشُهبة (ت: ١٤٠٣هـ) ، دار القلم - دمشق ، ط : ٨ ، ١٤٢٧هـ .

٢١٤. **السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء** : أبوحاتم محمد بن حبان الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ، علق عليه : السيد عزيز بك وجماعة من العلماء ، الكتب الثقافية -بيروت ، ط : ٣ ، ١٤١٧هـ .

٢١٥. **السِّيرة النَّبويَّة** : ابن هشام ، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: ٢١٣هـ) ، ت : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ الشلبي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط٢ ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

٢١٦. **السِّيرة النَّبويَّة**: ابن كثير ، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) ، ت : مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت - لبنان ، ١٣٩٥هـ-١٩٧٦م .

٢١٧. **شذرات الذَّهَب في أخبار من ذَهَب**: عبدالحي بن أحمد ابن العماد (ت : ١٠٨٩هـ) ، ت : محمود الأرناؤوط ، تخريج : عبدالقادر

الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٢١٨. **شرح أبيات مغني اللَّبيب**: عبدالقادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) ، ت : عبدالعزيز رباح و أحمد دقاق ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، ط : ١ ، ١٣٩٣-١٤١٤هـ .

٢١٩. **شرح الأربعين النَّوَوِيَّة** : عطية بن محمد سالم (ت : ١٤٢٠هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٢٠. **شرح الزرقاني على المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمديَّة** : محمد بن عبدالباقي الزرقاني المالكي (ت: ١١٢٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م .

٢٢١. **شرح السُّنَّة** :الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ) ، ت : شعيب الأرنؤوط – محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي – دمشق ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٢٢٢. **شرح الشِّفا** : علي بن سلطان محمد نور الدين الملا الهروي القاري (ت : ١٠١٤هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ

٢٢٣. **شرح العقيدة الواسطيَّة** : محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ) ، اعتنى به : سعد بن فواز الصميل ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط : ٦ ، ١٤٢١هـ .

٢٢٤. **شرح القصائِد العشر**: يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ (ت : ٥٠٢هـ) ، عنيت به : إدارة الطباعة المنيرية ، ط : ٢ ، ١٣٥٢هـ .

٢٢٥. **شرح المعلقات التِّسع** :الشيباني ، أبوعمرو (ت ٢٠٦ هـ) ، ت : عبدالمجيد همو ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٢٢٦. **شرح المعلقات السَّبع**: الزَّوْزَني ، حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني (ت: ٤٨٦هـ) ، دار احياء التراث العربي ، ط:١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٢٧. **شرح درَّة الغواص في أوهام الخواص**: أحمد بن محمد الخفاجي المصري ، ت : عبدالحفيظ قرني ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٢٢٨. **شرح رياض الصَّالحين** : محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ) ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، طبعة : ١٤٢٦هـ .

٢٢٩. **شرح سنن ابن ماجه -مصباح الزجاجة-**: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، قديمي كتب خانة - كراتشي ، (د.ت) .

٢٣٠. **شرح سنن النَّسائي -ذخيرة العقبى في شرح المجتبى-** : محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي (ت:١٤٤١هـ) ، دار المعراج الدولية للنشر [ج١-٥] ، دار آل بروم للنشر والتوزيع [ج٦-٤٠] ، ط : ١ .

٢٣١. **شرح صحيح البخاري لابن بطال:** علي بن خلف بن عبدالملك ابن بطال (ت : ٤٤٩هـ) ، ت : أبوتميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد - السعودية ، الرياض ، ط : ٢ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٢٣٢. **شرح مُشكل الآثار**: أحمد بن محمد الطحاوي (ت : ٣٢١هـ) ، ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ١٤٩٤م .

٢٣٣. **شرح معاني الآثار** : الطَّحاوي ، أحمد بن محمَّد الطَّحاوي (ت: ٣٢١هـ) ، ت: محمد زهري النجار ومن معه ، عالم الكتب ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

٢٣٤. الشرك **في القديم والحديث** : محمد زكريا ، أصل هذا الكتاب : رسالة علمية لدرجة الماجستير ، الجامعة الإسلامية ، إشراف أ.د.أحمد بن عطية الغامدي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض - السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٢٣٥. **شُعب الإيمان**: أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، ت : محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

٢٣٦. **الشِّعر والشُّعراء**: عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ .

٢٣٧. **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى** : عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ) ، دار الفيحاء - عمان ، ط : ٢ ، ١٤٠٧هـ .

٢٣٨. **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** : محمد بن أحمد بن علي المكي الفاسي (ت: ٨٣٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .

٢٣٩. **شمس العلوم ودَوَاء كلام العرب مِنْ الكلوم** : نشوان بن سعيد الحميرى (ت: ٥٧٣هـ) ، ت : د.حسين العمري ، مطهر

الإرياني ، د. يوسف عبدالله ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٢٤٠. **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها** :أحمد بن فارس القزويني (ت: ٣٩٥هـ) ، محمد علي بيضون ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

٢٤١. **الصارم البتار في التَّصدِّي للسَّحرة الأشرار**: وحيد عبدالسلام بالي ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٤٢. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، ت : د.يوسف علي طويل ، دار الفكر - دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٧م .

٢٤٣. **الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربية** : إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ) ، ت : أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٢٤٤. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان-الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان-** : أبوحاتم محمد بن حبان الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ، ت : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٢٤٥. **صحيح ابن خزيمة** : محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت : ٣١١هـ) ، ت : د. محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي - بيروت .

٢٤٦. **صحيح الأثر وجميل العبر من سِيرة خير البشر ﷺ** : محمد السُّلَميُّ ، د.عبدالرحمن قصَّاص ، د. سعد الموسى ، د. خالد

الغيث ، مكتبة روائع المملكة – جدة ، ط : ١ ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م .

٢٤٧. **صحيح البخاري -الجامع الصَّحيح-** :محمد بن إسماعيل البخاري ، ت : د.مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٢٤٨. **الصَّحيح المسبور في التَّفسير بالمأثور**: حكمت بن بشير بن ياسين ، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية ، ط : ١ ، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م .

٢٤٩. **صحيح مسلم -المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ-** : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت : ٢٦١هـ) ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٥٠. **صِفة جزيرة العرب** :الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن الحائك الشهير بالهمْداني (ت: ٣٣٤هـ) ، ط : بريل – ليدن ، ١٨٨٤م .

٢٥١. **صَفوَة التَّفاسير** : محمد علي الصابوني ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

٢٥٢. **صُورة الأرض**: ابن حَوقل ، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت: بعد ٣٦٧هـ) ، دار صادر ، أفست ليدن ، بيروت ، (د.ط) ، ١٩٣٨م.

٢٥٣. **الضوء اللَّامع لأهل القرن التَّاسع** : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت .

٢٥٤. **طبقات الحنابلة** : محمد بن محمد ابن أبي يعلى (ت: ٥٢٦هـ) ، ت : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة - بيروت .
٢٥٥. **طبقات الشافعية الكبرى:** عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) ، ت : د.محمود محمد الطناحي ، د.عبدالفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط : ٢ ، ١٤١٣هـ .
٢٥٦. **الطبقات الكبرى** : محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت: ٢٣٠هـ) ، ت : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
٢٥٧. **طبقات المفسرين للدَّاوُودي** : محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت: ٩٤٥هـ) ، راجعه : لجنة من العلماء ، دار الكتب العلمية - بيروت .
٢٥٨. **طبقات المفسِّرين:** جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، ت : علي محمد عمر ، مكتبة القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ .
٢٥٩. **العباب الزَّاخر واللُّباب الفاخر:** الحسن بن محمد بن الحسن العدوي القرشي الصَّغَاني الحنفي (ت: ٦٥٠هـ) .
٢٦٠. **العَظَمَة:** عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري أبوالشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩هـ) ، ت : رضاء الله المباركفوري ، دار العاصمة - الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، ٥/ ١٥٤٥ .
٢٦١. **عقيدة التَّوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك:** صالح بن فوزان الفوزان ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٦٢. **العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة:** سعيد عبدالله حارب المهيري ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤١٦هـ .

٢٦٣. **علوم البلاغة "البيان ، المعاني ، البديع":** أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ) ، (د.ط) ، (د.ت).

٢٦٤. **عُمدة القاري شرح صحيح البخاري** : محمود بن أحمد بن موسى الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ) ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢٦٥. **العناية شرح الهداية** : محمد بن محمد بن محمود أكمل الدين البابرتي (ت : ٧٨٦هـ) ، دار الفكر ، (د.ت) .

٢٦٦. **العَيْن:** الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ) ، ت : د.مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .

٢٦٧. **عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسِّيَر** : محمد ابن سيِّد النَّاس (ت: ٧٣٤هـ) ، ت : إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

٢٦٨. **عيون الأخبار:** عبدالله بن مسلم ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) ، دار الكتب العلمية -بيروت ، (د.ت) .

٢٦٩. **غاية المريد شرح كتاب التَّوحيد:** عبدالرحمن العقل ، مركز النخب العلمية - مطبعة معالم الهدى ، ط : ٣ ، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م .

٢٧٠. **غريب الحديث** : عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، ت : د.عبدالمعطي أمين القلعجي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ .

٢٧١. **غريب الحديث**: القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي (ت: ٢٢٤هـ) ، ت : د. محمد عبدالمعيد خان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد- الدكن ، ط : ١ ، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م .
٢٧٢. **غريب الحديث**: عبدالله بن مسلم ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) ، ت : د.عبدالله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط : ١ ، ١٣٩٧هـ .
٢٧٣. **الغريبَين في القرآن والحديث**: أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١ هـ) ، ت : أحمد فريد المزيدي ، راجعه : أ. د. فتحي حجازي ، مكتبة نزار الباز - السعودية ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
٢٧٤. **غزوات النَّبيِّ ﷺ** : السيد الجميلى ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ١٤١٦هـ .
٢٧٥. **غزوة مؤتة والسَّرايا والبعوث النَّبويَّة الشَّمالية**: بريك بن محمد بريك العمري ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م .
٢٧٦. **الفائق في غريب الحديث والأثر** : محمود بن عمرو الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) ، ت : على محمد البجاوي ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، لبنان ، ط : ٢ .
٢٧٧. **فتاوى نور على الدرب**: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (ت: ١٤٢٠هـ) ، جمعها: د. محمد الشويعر ، قدم لها : عبدالعزيز آل الشيخ ، (د.ط) ، (د.ت) .
٢٧٨. **فتح الباري شرح صحيح البخاري** : أحمد بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) ، اعتنى به : محمد فؤاد عبدالباقي ، أخرجه :

محب الدين الخطيب ، تعليق : عبدالعزيز بن باز ، دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩هـ ، .

٢٧٩. **فتح القدير** : محمد بن علي عبدالله الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب – دمشق ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ .

٢٨٠. **فتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد:** عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب (ت: ١٢٨٥هـ) ، ت : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، مصر ، ط : ٧ ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م .

٢٨١. **فُتوح البلدان**: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت : ٢٧٩هـ) ، دار ومكتبة الهلال– بيروت ، ١٩٨٨م .

٢٨٢. **فتوح الشَّام**: الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء المدني ، (ت: ٢٠٧هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م .

٢٨٣. **الفجر السَّاطع على الصَّحيح الجامع –شرح صحيح البخاري مِنْ باب المبعث إلى نهاية كتاب اللِّباس–**: محمد الفضيل الزرهوني ، دكتوراه ، المغرب ، ت : فؤاد ريشة .

٢٨٤. **فضائل القرآن وما أُنزل مِنَ القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة**: بابن الضُّرَيس ، أبوعبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضُّرَيس البجلي الرازي (ت: ٢٩٤هـ) ، ت : محمَّد مُطِيع حافظ ، دار الفكر ، دمشق – سورية ، ط : ١ ، ١٤٠٨ هـ .

٢٨٥. **فقه اللغة وسِرُّ العربيَّة** : الثَّعالبي ، عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) ، ت : عبدالرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م .

٢٨٦. **في الشِّعر الجاهلي واللُّغة العربيَّة** : أحمد عثمان ، مكتبة الشُّروق ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٨٧. **فيض القدِير شرح الجامع الصَّغير** : محمد بن عبدالرؤوف المناوي (ت : ١٠٣١) ، المكتبة التجارية الكبرى ، ط : ١ ، ١٣٥٦هـ .

٢٨٨. **القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً**: سعدي أبوجيب ، دار الفكر. دمشق - سورية ، ط : تصوير ١٩٩٣م ، ط : ٢ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

٢٨٩. **القاموس المحيط** : محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت : ٨١٧هـ) ، ت : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط : ٨ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

٢٩٠. **القُبوريَّة في اليمن (نشأتها آثارها موقف العلماء منها)** : أحمد حسن المعلم ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٩١. **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**: أحمد بن علي القلقشندي (ت : ٨٢١هـ) ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، ط : ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٢٩٢. **قناة السويس تاريخها ومشكلاتها وِفقًا للوثائق المصريَّة والأوروبيَّة غير المنشورة** : أنجلو ساماركو ، ترجمة: ولاء عفيفي عبد الصَّمد ومَنْ معهم ، مراجعة:د. حُسَين محمود ، مطبعة دار الكتب والوثائق القَوميَّة بالقاهرة ، (د.ط) ، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٢٩٣. **القوانين الفقهيَّة** : محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله ، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٢٩٤. **القول السَّدِيد شرح كتاب التَّوحيد**: عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت : ١٣٧٦هـ) ، وزارة الشئون الإسلامية ، السعودية ، ط : ٢ ، ١٤٢١هـ

٢٩٥. **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السِّتَّة: الذَّهبي** ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي (ت : ٧٤٨هـ) ، ت : محمد عوامة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدَّة ، ط : ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٢٩٦. **الكامل في التَّاريخ** :علي بن أبي الكرم محمد الشيباني ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ، ت : عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

٢٩٧. **الكبائر** : شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، ت : أبوعبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، مكتبة الفرقان ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .

٢٩٨. **كتاب الأفعال**: السَّرقسطي ، سعيد بن محمد المعافري ثُمَّ السَّرقسطي ، (ت : بعد ٤٠٠ هـ) ، ت: حسين محمد شرف ،

مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، (د.ط) ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٢٩٩. **كتاب الأموال** : القاسم بن سلاّم بن عبدالله الهروي (ت: ٢٢٤هـ) ، ت : خليل محمد هراس ، دار الفكر. - بيروت .

٣٠٠. **كتاب التَّاريخ**: ابن حبيب ، أبومروان عبد الملك بن حبيب السُّلَمِي القرطبي المالكي (ت : ٢٣٨هـ) ، ت : عبدالغني مستو ، المكتبة العصريَّة ، صيدا-بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ .

٣٠١. **كتاب الكُليَّات**: أيوب بن موسى الكفوي أبوالبقاء ، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ت : عدنان درويش - محمد المصري .

٣٠٢. **الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار** : أبوبكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ) ، اعتمدت فيه على طبعتين : الأولى : ت : كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد - الرياض ، ط : ١ ، ١٤٠٩هـ ، أمَّا الثَّانيَّة : ت : محمد عوامة ، طبعة الدار السلفية الهندية .

٣٠٣. **كتاب دلائل النُّبوَّة** : إسماعيل بن محمد الأصبهاني(ت : ٥٣٥هـ) ، ت : محمد محمد الحداد ، دار طيبة - الرياض ، ط : ١ ، ١٤٠٩هـ .

٣٠٤. **الكتاب** : سيبويه ، أبوبشر عمرو بن عثمان (ت: ١٨٠هـ) ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : ٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٣٠٥. **كشاف القناع عن متن الإقناع** : منصور بن يونس بن إدريس البهوتي الحنبلى (ت: ١٠٥١هـ) ، ت : هلال مصيلحي هلال ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ ، بيروت .

٣٠٦. **الكشاف عن حقائق غوامض التَّنزيل**: محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ

٣٠٧. **كنز العمال**: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان الشهير بالمتَّقي الهندي (ت:٩٧٥هـ) ، ت : بكري حياني ، مؤسسة الرسالة ، ط: ٥ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٣٠٨. **الكُنَى والأسماء** : محمد بن أحمد بن حماد الرازي (ت: ٣١٠هـ) ، ت : أبوقتيبة الفاريابي ، دار ابن حزم - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .

٣٠٩. **الكواكب الدَّرَارِي في شرح صحيح البخاري** : محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني (ت: ٧٨٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت-لبنان ، ط : ٢ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

٣١٠. **اللُّباب في تهذيب الأنساب** : علي بن أبي الكرم محمد الشيباني ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ، دار صادر - بيروت ، (د.ت) .

٣١١. **لسان العرب** : محمد بن مكرم بن على ابن منظور (٧١١هـ) ، دار صادر - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤١٤هـ .

٣١٢. **لغات القرآن المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما**: الوزان الحنفي ، محمد بن علي المظفر المعروف ، ت: عبد الرحمن الجبوري -إبراهيم السامرائي ، دار المسيرة ، عمان ، ط:١ ، ١٤٣٠هـ.

٣١٣. **اللُّغات في القرآن**: رواية ابن حسنُون الـمُقرئ بإسناده المتَّصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، ت: صلاح الدِّين الـمُنَجِّد ، مطبعة الرِّسالة ، القاهرة ، ط:١ ، ١٣٦٥هـ.

٣١٤. **مَتن العقيدة الطحاوية** : أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت: ٣٢١هـ) ، المكتب الإسلامي ، ط: ١.

٣١٥. **مجمَع الأمثال**: أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت: ٥١٨هـ) ، ت : محمد محيى الدين عبدالحميد ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان .

٣١٦. **مجمَع الزوائد ومَنبَع الفوائد**: علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ، ت : حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

٣١٧. **مجموع الفتاوى**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، ت : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية ، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م .

٣١٨. **المجموع المغيث في غريبَيْ القرآن والحدِيث** : محمد بن عمر الأصبهاني (ت: ٥٨١هـ) ، ت : عبدالكريم العزباوي ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي ، كلية الشريعة ، مكة المكرمة ، دار المدني للطباعة ، جدة - السعودية ، ط : ١ ، ١٩٨٦-١٩٨٨م .

٣١٩. **المجموع شرح المُهذَّب**: النَّوَاوي ، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت : ٦٧٦هـ) ، دار الفكر ، (د.ط) ، (د.ت).

٣٢٠. **مجموعة الوثائق السِّياسيَّة للعهد النَّبوي والخلافة الرَّاشدة** : محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (ت: ١٤٢٤هـ) ، دار النفائس - بيروت ، ط : ٦ ، ١٤٠٧هـ .

٣٢١. **محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميَّة الدولة الأمويَّة** : محمد الخضري ، دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان .

٣٢٢. **المحبر** : محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت: ٢٤٥هـ) ، ت : إيلزة ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) .

٣٢٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) ، ت : عبدالسلام محمد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٢هـ .

٣٢٤. **المحكم والمحيط الأعظم** :علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) ، ت : عبدالحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٣٢٥. **مختار الصِّحَاح** : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرَّازي (ت: ٦٦٦هـ) ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ت : محمود خاطر .

٣٢٦. **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر** : محمد بن مكرم بن على ابن منظور (ت: ٧١١هـ) ، ت : روحية النحاس ، رياض مراد ، محمد مطيع ، دار الفكر للطباعة ، دمشق - سوريا ، ط : ١ ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٤م .

٣٢٧. **مختصر تسهيل العقيدة الإسلاميَّة**: عبدالله بن عبدالعزيز الجبرين ، مكتبة الرشد ، ط : ٢ ، ١٤٢٤هـ .

٣٢٨. **مختصر سِيرة الرَّسول ﷺ** : محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (ت: ١٢٠٦هـ) ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٨هـ .

٣٢٩. **المختصر في أخبار البشر**: عماد الدين إسماعيل بن علي بن أيوب صاحب حماة (ت : ٧٣٢هـ) ، المطبعة الحسينية المصرية ، ط١ .

٣٣٠. **مختلف القبائل ومؤتلفها** : محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت: ٢٤٥هـ) ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت .

٣٣١. **المخصَّص**: علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) ، ت : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

٣٣٢. **مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعِين** : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، ت : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٣٣٣. **المدخل إلى علم الجغرافيا والبِيئَة**: محمد محمود محمدين/ طه عثمان الفراء ، دار المرِّيخ ، ط:٤ ، (د.ت).

٣٣٤. **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان** : يوسف بن عبدالله بسبط ابن الجوزي (ت : ٦٥٤ هـ) ، ت : محمد بركات ، كامل محمد

الخراط وغيرهم ، دار الرسالة العالمية ، دمشق - ط : ١ ، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م .

٣٣٥. **مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات:** ابن حزم ، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت : ٤٥٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

٣٣٦. **مراصد الاطِّلَاع على أسماء الأمكنة والبِقَاع:** عبدالمؤمن بن عبدالحق ابن شمائل القطيعي (ت : ٧٣٩هـ) ، دار الجيل ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ .

٣٣٧. **مروج الذَّهب ومعادن الجوهر** : المسعودي ، أبوالحسن على بن الحسين (ت : ٣٤٦هـ) ، المكتبة العصريَّة ، صيدا ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م .

٣٣٨. **مرويات أبي مخنف في تاريخ الطَّبري ، عصر الخلافة الراشدة : دراسة نقدية** ، يحيى إبراهيم اليحيى ، دار العاصمة - الرياض ، (د.ت) .

٣٣٩. **مرويات غزوة الحديبية:** حافظ بن محمد عبدالله الحكمي ، جمع وتخريج ودراسة ، مطابع الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط : ٦ ١٤٠هـ .

٣٤٠. **مرويات غزوة حنين وحصار الطائف:** إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية ، المملكة العربية السعودية ، ط:١ ، ١٤١٢هـ .

٣٤١. **الـمُزهِر في علوم اللُّغة وأنواعها** : جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، ت : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

٣٤٢. **المسَالِك والمَمالك** : البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت : ٤٨٧هـ) ، دار الغرب الإسلامي ، (د.ط) ، ١٩٩٢م.

٣٤٣. **المسالك والممالك**: إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري (ت: ٣٤٦هـ) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة .

٣٤٤. **المسائل والأجوبة في الحديث والتَّفسير**: ابن قُتَيبة ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (ت:٢٧٦) ، ت : مروان العطية ومحسن خرابة ، دار ابن كثير ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٣٤٥. **المسائل والرسائل المرويَّة عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة** : عبدالله بن سلمان الأحمدي ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

٣٤٦. **المستدرك على الصَّحيحين** : محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) ، ت : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م .

٣٤٧. **المستقصى في أمثال العرب** : محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٧م .

٣٤٨. **مسند أبي داود الطيالسي**: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ) ، ت: محمد بن عبدالمحسن التركي ، دار هجر - مصر ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ .

٣٤٩. **مسند أبي يعلى**: أحمد بن علي بن المثنى أبويعلى (ت: ٣٠٧ هـ) ، ت : حسين سليم أسد ، دار المأمون للتراث - جدة ، ط : ٢ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

٣٥٠. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت : ٢٤١هـ) ، ت : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، إشراف :

د. عبدالله التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .

٣٥١. **مسند الإمام الشافعي** : محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) ، رتبه : محمد عابد السندي ، ترجم له : محمد زاهد الكوثري ، نشره : يوسف الزواوي ، عزت العطار ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

٣٥٢. **مسند البزار -البحر الزخَّار-** : أحمد بن عمرٍو البزَّار (ت : ٢٩٢هـ) ، ت: محفوظ الرحمن زين الله ، عادل بن سعد ، صبري عبدالخالق الشافعي ، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٩٨٨م- ٢٠٠٩م .

٣٥٣. **مسند الحميدي**: عبدالله بن الزبير الحميدي (ت: ٢١٩هـ) ، ت : حسن الدَّارَانيّ ، دار السقا ، دمشق – سوريا ، ط : ١ ، ١٩٩٦م .

٣٥٤. **مسند الشَّاشي**: أبوسعيد الهيثم بن كُليب الشَّاشي (ت: ٣٣٥هـ) ، ت: محفوظ الرحمن زين الله ، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، ط:١ ، ١٤١٠ هـ.

٣٥٥. **مشارق الأنوار على صِحاح الآثار** : عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ) ، المكتبة العتيقة ودار التراث .

٣٥٦. **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار** : أبوحاتم محمد بن حبان الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ، ت : مرزوق على ابراهيم ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ، ط : ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٣٥٧. **مشكاة المصابِيح** : محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي (ت: ٧٤١هـ) ، ت : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٨٥م .

٣٥٨. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**: أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت: نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية - بيروت .

٣٥٩. **الـمُصنَّف**: عبدالرزاق بن همام الصَّنعاني (ت: ٢١١هـ) ، ت : حبيب الرحمن الأعظمي ، المجلس العلمي ، الهند ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ .

٣٦٠. **المطالب العاليةُ بِزوائد المسانيد الثّمانِيَةِ:** أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ، ت : مجموعة من الباحثين في ١٧ رسالة جامعية ، تنسيق: د. سعد بن ناصر الشَّثري ، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع ، ط : ١ .

٣٦١. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول:** حافظ الحكمي (ت : ١٣٧٧هـ) ، ت : عمر بن محمود أبو عمر ، دار ابن القيم - الدمام ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٣٦٢. **المعالم الأثيرة في السُّنَّة والسِّيرَة** : محمد بن محمد حسن شُرَّاب ، دار القلم ، الدار الشامية - دمشق- بيروت ، ط : ١ ، ١٤١١هـ .

٣٦٣. **معالم السُّنَن -شرح سنن أبي داود-** : حمد بن محمد الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) ، المطبعة العلمية - حلب ، ط : ١ ، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

٣٦٤. **معالم مكة التاريخيَّة والأثريَّة**: عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة لنشر والتوزيع ، ط :١ ، ١٤٠٠هـ.

٣٦٥. **معاني القرآن وإعرابه** :إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت: ٣١١هـ) ، ت : عبدالجليل عبده شلبي ، عالم الكتب – بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ .

٣٦٦. **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، ت : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين – القاهرة .

٣٦٧. **معجم البلدان** : ياقوت بن عبدالله الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٩٥م .

٣٦٨. **معجم الصَّحابة**: عبدالله بن محمد بن المَرْزُبان البغوي ، ت : محمد الأمين بن محمد الجكني ، مكتبة دار البيان – الكويت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

٣٦٩. **المعجم الصغير - الرَّوض الدَّاني-**: أبو القَّاسم الطَّبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطير اللّخمي الشَّامي(ت: ٣٦٠هـ) ، ت: محمد شكور ، المكتب الإسلامي ، دار عمار ، بيروت ، عَمَّان ، ط:١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٧٠. **معجم الفروق اللُّغويَّة**: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت: ٣٩٥هـ) ، ت: بيت الله بيات ، مؤسسة النَّشر الإسلامي ، ط:١ ، ١٤١٢هـ.

٣٧١. **المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، ت : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط٢ .

٣٧٢. **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيَّة** : محمود عبدالرحمن عبدالمنعم ، جامعة الأزهر ، دار الفضيلة ، (د.ط) ، (د.ت) .

٣٧٣. **معجم المعالم الجغرافية في السِّيرة النَّبويَّة**: عاتق بن غيث البلادي الحربي (ت: ١٤٣١هـ) ، دار مكة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، ط : ١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٣٧٤. **معجم المؤلِّفِين**: عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى - بيروت ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

٣٧٥. **المعجم الوسيط** :إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبدالقادر ، محمد النجار ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة .

٣٧٦. **معجم ديوان الأدب**: الفارابي ، إسحاق بن إبراهيم (ت: ٣٥٠هـ) ، ت : أحمد عمر مختار ، مؤسسة دار الشعب للطباعة - القاهرة ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

٣٧٧. **معجم قبائل العرب القدِيمَة والحدِيثَة**: عمر رضا كحالة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٣٧٨. **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت: ٤٨٧هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٣هـ .

٣٧٩. **معجم مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس القزويني (ت: ٣٩٥هـ) ، ت : عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٨٠. **معرفة الصحابة:** أحمد بن عبدالله الأصبهاني أبونعيم (ت: ٤٣٠هـ) ، ت : عادل بن يوسف العزازي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٣٨١. **المغازي** : محمد بن عمر السهمي الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) ، ت: مارسدن جونس ، دار الأعلمي - بيروت ، ط : ٣ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

٣٨٢. **مفاتيح العلوم** : محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (ت: ٣٨٧هـ) ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، ط : ٢ .

٣٨٣. **المفردات في غريب القرآن:** الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ) ، ت : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشامية - دمشق بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٢ هـ .

٣٨٤. **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام:** جواد علي (ت: ١٤٠٨هـ) ، دار الساقي ، ط : ٤ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

٣٨٥. **الـمُفضَّليَّات** : المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (ت : نحو ١٦٨هـ) ، ت : أحمد شاكر ، وعبدالسلام هارون ، دار المعارف - القاهرة ، ط : ٦ .

٣٨٦. **الـمُفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم:** أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٦٥٦ هـ) ، ت : محيي الدين ديب ميستو وآخرون ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٣٨٧. **الـمُنتخَب في ذِكر نسب قبائل العرب** : عبدالرحمن بن حمد اللامي(ت: ١٣٦٤هـ) ، (د.ط) ، (د.ت) .

٣٨٨. **الـمُنتظم في تاريخ الأمم والملوك** : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج (ت: ٥٩٧هـ) ، ت : محمد عبدالقادر عطا ، مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٣٨٩. **الـمُنمَّق في أخبار قريش** : حمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت: ٢٤٥هـ) ، ت : خورشيد أحمد فاروق ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣٩٠. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج** : يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ .

٣٩١. **مُوَافقة الخُبُر الخَبَر في تخريج أحاديث المختصر** : أحمد بن ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) ، ت : حمدي السلفي وصبحي السامرائي ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض - السعودية ، ط : ٢ ، ١٤١٤هـ.

٣٩٢. **مَواقف النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة إلى الله تعالى** : سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، مطبعة سفير ، الرياض .

٣٩٣. **المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمديَّة**: أحمد بن محمد بن أبى بكر القتيبي المصري (ت: ٩٢٣هـ) ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر .

٣٩٤. **المؤتَلِف والمختَلِف** : علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (ت: ٣٨٥هـ) ، ت : موفق بن عبدالله بن عبدالقادر ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ط : ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٣٩٥. **موسوعة الألباني في العقيدة** : محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) ، جمعه : شادي آل نعمان ، مركز النعمان للبحوث ، صنعاء - اليمن ، ط : ١ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

٣٩٦. **الموسوعة الشِّعريَّة** : معجم شعراء العرب ، (د.ط) ، (د.ت) .

٣٩٧. **موسوعة الغزوات الكبرى** : محمد أحمد باشميل ، ط : ٣ ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

٣٩٨. **الموسوعة في صحيح السِّيرة النَّبويَّة** : محمد إلياس عبدالرحمن الفالوذة ، دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النَّبيِّ ﷺ (العهد المكي) ، مطابع الصفا - مكة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ .

٣٩٩. **موطَّأ الإمام مالك**: مالك بن أنس بن مالك (ت : ١٧٩هـ) ، ت : بشار عواد معروف ، محمود خليل ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ .

٤٠٠. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** : شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، ت : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .

٤٠١. **النُّبوَّات**: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ، ت : عبدالعزيز الطويان ، أضواء السلف ، الرياض ، السعودية ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

٤٠٢. **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار:** أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ، ت : حمدي عبد المجيد السلفي ، دار ابن كثير ، ط : ٢ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م .

٤٠٣. **نزهة الأفكار في شرح قُرَّة الأبصار:** عبدالقادر بن محمد الشنقيطي (ت: ١٣٣٧ هـ) ، ت : جماعة من ذوي المؤلف .

٤٠٤. **نزهة النَّظر في توضيح نُخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر** : ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) ، ت: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي ، مطبعة سفير بالرياض ، ط:١ ، ١٤٢٢هـ.

٤٠٥. **نَسَب عدنان وقحطان** : محمد بن يزيد المبرد (ت: ٢٨٥هـ) ، ت : عبدالعزيز الميمنىّ الراجكوتىّ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الهند ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م .

٤٠٦. **نَسَب معد واليمن الكبير** : هشام بن محمد الكلبي (ت : ٢٠٤هـ) ، ت : د . ناجي حسن ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٤٠٧. **نَشْوَة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** : الأندلسي ابن سعيد (ت: ٦٨٥ هـ) ، ت : د.نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان - الأردن .

٤٠٨. **نَضْرَة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ﷺ:** صالح بن حميد وآخرون ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط : ٤ .

٤٠٩. **نهاية الأرب في فنون الأدب:** أحمد بن عبدالوهاب شهاب الدِّين النويري (ت: ٧٣٣هـ) ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤٢٣هـ .

٤١٠. **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** : أحمد بن علي القلقشندي (ت: ٨٢١هـ) ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

٤١١. **نهاية الإيجاز في سِيرة ساكن الحجاز**: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (ت: ١٢٩٠هـ) ، دار الذخائر - القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ .

٤١٢. **النِّهاية في غريب الحديث والأثر**: مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد ابن الأثير (ت : ٦٠٦هـ) ، ت : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤١٣. **نَوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ** : محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي (ت ٣٢٠هـ) ، ت : عبدالرحمن عميرة ، دار الجيل - بيروت .

٤١٤. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**: مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (ت: ٤٣٧هـ) ، ت : مجموعة رسائل بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة ، جامعة الشارقة ، ط : ١ ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .

٤١٥. **هدي الساري مقدمة فتح البخاري**: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ط : ٢ .

٤١٦. **هواتف الجنان** : محمد بن جعفر بن محمد الخرائطي (ت: ٣٢٧هـ) ، ت : إبراهيم صالح ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م .

٤١٧. **الوسِيط في تفسير القرآن المجيد** : علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) ، ت : عادل عبد الموجود وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٤١٨. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:** أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) ، ت : إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٤م .

فهرس الموضوعات

ملخص الكتاب ٥
شكرٌ وتقديـر ٩
تقديم فضيلة الدكتور : محمَّد بن صامل السلمي ١١
مـقـدِّمـة الـمـؤلِّف **١٥**
التَّمهيد : مفهومُ الوثنيَّة وتاريخُها في جزيرةِ العَرب **٢٥**
أولًا : مفهوم الوثنيَّة والشرك وتاريخها في جزيرة العرب : **٢٧**
٢- تعريف الوثنيَّة : ٣١
٣ - مفهومُ الشرك : ٣٢
٤ - معنى الشرك شرعـًا : ٣٥
٥ - أقسام الشرك : ٣٨
ثانيـًا : نبذةٌ تاريخيَّة عن الوثنيَّة ومظاهر الشرك في جزيرة العرب قبل الإسلام : ٤١
تعريف الجاهليَّة : ٤١
جزيرة العرب : لُغة أهلها ، نسبهم فيها ، وتحديد موقعها **٤٥**
لغةُ العرب : ٤٦
نَسَب العرب **٦٣**
حدود جزيرة العرب **٨٦**
بَــدْءُ الخَلْق **١٢٠**
إنَّ الدِّين عند الله الإسلام : **١٢٩**
أخلاقُ العربِ الكريمة من أخلاقِ الإسلام : **١٣٨**
دخولُ الشرك في جزيرة العرب : **١٤٩**
الفصل الأول : موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك بالله **١٥٧**

المبحث الأول : موقفُ الإسلامِ من الوثنيَّة والشرك في الكتاب والسُّنَّة ١٥٩
موقف الإسلام من الوثنيَّة والشرك من خلال نصوص السنَّة النبويَّة ١٨٥
المبحثُ الثَّاني : مواقفُ النبِيِّ ﷺ في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ ونَبْذِ الشرك قبل الهجرة ٢٠٥
المبحث الثَّالث : مُحَارَبَةُ الشِّرك والمشركينَ قبلَ فتحِ مَكَّةَ ٢٦٥
البدء بتشييد المساجد لتقرير التَّوحيد والدَّعوة إليه ٢٧١
محاربة الشِّرك والمشركين وكبت نفوذهم ٢٧٥
صلح الحديبية وأثره في انتشار الإسلام ٣٢١
الفصلُ الثَّاني : هدمُ الأوثانِ في مكَّة وما حولَها عامَ الفتح ٣٤٩
المبحثُ الأوَّل : هدمُ الأوثانِ في الكعبةِ والمسجدِ الحرامِ ومكَّة ٣٥١
المبحث الثاني : سريَّةُ خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العُزَّى ٣٨٥
المبحثُ الثالث : سريَّةُ عمرو بن العاص رضي الله عنه لَهدم سُواع ٤٠١
المبحَثُ الرَّابع : سريَّةُ سعدِ بنِ زَيْدٍ الأشْهَلِيِّ رضي الله عنه لهَدْمِ مَناة ٤١٧
المبحث الخامس : سريَّةُ الطُّفيل بن عمرو رضي الله عنه لهدَم ذي الكفَّين ٤٣١
الفصلُ الثَّالث : هدمُ الأوثانِ في جزيرة العرب بعد عام الفتح ٤٣٩
المبحث الأول : سريَّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم الفلس ٤٤١
المبحثُ الثَّاني : سريَّة خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم وَدّ ٤٥٩
المبحث الثالث : بعث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه لهدم اللات ٤٧٣
المبحث الرابع : سريَّة جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه لهدم ذي الخَلَصَة ٥٠٣
الفصلُ الرَّابع : القضاءُ على مظاهر الشَّرك في جزيرة العرب ٥٢١

المبحثُ الأوَّل : البراءةُ من المشركين ومنعهم من الحجِّ والمظاهر الشركيَّة ٥٢٣
المبحثُ الثَّاني : مواقفُ النبيِّ ﷺ في محاربة السِّحر والكهانة والعرافة عند العرب ٥٤٥
تعريف السِّحر في اللغة : ٥٤٧
تعريف السِّحر في الشرع : ٥٤٨
موقفُ النبيِّ ﷺ من السِّحر : ٥٥٧
أمَّا الكِهَانَةُ : ٥٦٦
أمَّا العِرَافَة : ٥٨١
المبحثُ الثَّالث : مواقفُ النبيِّ ﷺ في النَّهي عن التطيُّر والتَّشاؤم والتَّمائم والتُّولة ٥٨٥
أولًا : الطِّيَرة : ٥٨٧
ثانياً : التَّمائم : ٦٢٩
ثالثاً : التِّولة : ٦٣٥
المبحثُ الرَّابع : محاربةُ العقائد والعادات والتقاليد الشركية (الذَّبح ، والنَّذر ، والحَلِفُ بغير الله ، والاعتقاد في النجوم ، والاستقسام بالأزلام ، وأمر البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام) ٦٤٣
أولًا : الذَّبح لغير الله : ٦٤٥
ثانياً : النَّذْرُ : ٦٥٢
ثالثاً : الحَلِفُ بِغَيْرِ الله : ٦٥٦
رابعاً : الاعتقاد في النُّجوم أو ما يُسَمَّى الأنواء : ٦٦٧
خامساً : الاسْتِقْسَامُ بالأَزْلَام : ٦٧٣
سادساً : أمرُ البَحِيْرة والسَّائِبَة والوَصِيْلَة والحَام : ٦٨٠
الفصلُ الخامسُ : أثرُ القضاء على الوثنيَّة ومظاهر الشِّرك ٦٨٩
المبحثُ الأوَّل : دخولُ النَّاس في دين الله أفواجاً وانتشارُ الإسلام في جزيرةِ العرب ٦٩١

المبحـثُ الثَّـاني : عـزُّ الإسـلام والمـسلمين ، وذُلُّ الـشِّرك والمشركين ٧٣٣
الخـاتـمـة ٧٦٥
قائمة المصادر والـمراجع ٧٧١
فهرس الموضوعات ٨٢٩